رسائل جامعية (٦٦)

هجر القرآن العظيم

أنواعه وأحكامه

تأليف

د. محمود بن أحمد بن صالح الدوسري

الداعية بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

دار ابن الجوزي

ح محمود أحمد الدوسري، ١٤٢٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدوسري، محمود أحمد
هجر القرآن العظيم: أنواعه وأحكامه. / محمود أحمد الدوسري - الرياض، ١٤٢٨هـ
٧٩٠ص؛ ١٧×٢٤سم.
ردمك: ٤ - ٨٠٥ - ٥٧ - ٩٩٦٠
١ - قراءة القرآن أ - العنوان
ديوي ٢٢٩,١ ١٤٢٨/٣١١٩

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
محرم ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢٩هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية، الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب أطروحة علميَّة

نال بها المؤلف درجة العالميَّة (الدُّكتوراه)

بتقدير: ممتاز سنة ١٤٢٧هـ

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسـولـه ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد:

أهميَّة الموضوع:

إنَّ فَضْلَ القرآن العظيم وشرَفَه ورفيعَ قدره وعلُوَّ مكانته أمرٌ لا يخفى على المسلمين، فهو كتابُ الله ربِّ العالمين، وكلام خالق الخلق أجمعين، فيه نبأُ ما قبلنا، وخبرُ ما بعدنا، وحُكْمُ ما بيننا، هو الفَصْل ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبَّار قصمه الله، ومَنِ ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذِّكر الحكيم، وهو الصِّراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبسُ به الألسن، ولا يشبعُ منه العلماء، ولا يَخْلَق عن كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه، مَنْ قال به صَدَق، ومَنْ عمل به أُجِر، ومَنْ حَكَم به عدل، ومَنْ دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم. ألا وإنَّ كتاباً له كلُّ هذه الخصائص لنعمة كبرى، تتقاضانا شكرها بحسن تلقِّيها، وتطبيق المبادئ والقيم التي تضمَّنها هذا الكتاب المجيد.

ولقد اقتضت سُنَّة الله تعالى في خلقه أنْ يكون اتِّباعهم القرآن العظيم سبباً

لنجاتهم، قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

فالبشريَّة الحائرة بأسْرِها في حاجة إلى نور القرآن؛ لتُصان كرامةُ الإنسان، ولتخرج من هذا الضَّنك الذي تحياه، نعم العالم في حاجة إلى القرآن ليكون الحقُّ والعدل أساساً في معاملة الإنسان للإنسان.

وأشدُّ النَّاس احتياجاً إليه هم المسلمون؛ ذلك أنَّهم لا يستطيعون أن يواجهوا قضايا عصرهم وزمانهم إلَّا بالقرآن العظيم، يعتصمون به في روابطهم، ويقيمون أحكامه في حياتهم، ويجاهدون به أعداءهم ويُصلحون به دنياهم، ويستقبلون به آخرتهم.

من هنا كانت أهميَّة هذا الموضوع، فإنَّ أفضل ما يُفْنَى فيه العمر، ويُعطى له الكثير من الوقت دراسة القرآن العظيم، وهذه الدِّراسة لم تتوقَّفْ ولن تتوقَّفَ أبداً بإذن الله تعالى؛ لأنَّه يُتلى ويكفي أن يُتلى، لكنَّ الَّذي يتوقَّفُ أحياناً هو التَّطبيقُ، وبه يتباين جيلٌ عن جيلٍ، ويَعِزُّ ناسٌ ويَذِلُّ آخرون.

واقع المسلمين اليوم:

وإنَّنا اليوم نشهد هَجْراً للقرآن العظيم في أنحاءٍ شتَّى، فإلى الله ـ وحده ـ المشتكى.

لقد هُجِرَ القرآنُ الحكيم تلاوةً، وزهد الكثير في مذاكرته وحفظه وتدارسه على الرَّغم من حرصهم الشَّديد على متابعة وسائل الإعلام بشتَّى طرقها المشروعة وغير المشروعة؛ ليتابعوا بلهفٍ وشوق أخبار مَنْ لا خلاق لهم عند الله تعالى.

وهجِرَ القرآنُ المجيد استماعاً، وارتبط استماع القرآن في أذهان كثير من النَّاس بالأحزان والسُّرادقات التي تقام للمآتم! بل أقبل النَّاس على سمع اللَّهو والغناء ومزمار الشيْطان، وهجروا قرآن الرَّحيم الرَّحمن!.

وهُجِرَ القرآنُ العزيز تدبُّراً، ولو أنزله الله تعالى على الجبال الرَّواسي الشَّامخات لتصدَّعت من خشيته، فقسمت القلوب، وتحجَّرت العيون، فلا قلب يتدبّر فيخشع، ولا جوارح تنقاد فتخضع، ولا عين تتحرَّك فتدمع!.

وهُجِرَ القرآنُ العظيم عملاً، فبدل أن يكون منهج حياة متكامل يصبح في واقع النَّاس ـ إلَّا مَنْ رحم الله ـ آيات تقرأ عند القبور، ويُهدى ثوابها للأموات، مع أنَّ هؤلاء الأحياء أحوج منهم إلى ثوابها واتِّخاذها منهجاً لحياتهم بشتَّى أشكالها وصورها، أو تصنع منه التَّمائم والأحجبة فتُعَلَّق على صدور الغلمان، أو يوضع في البيوت والمحلَّات والسَّيَّارات للحفظ والبركة، زعموا!.

وهُجِرَ القرآنُ العظيم تحاكماً، ووقع المسلمون في المنكر الأعظم، بتنحية كتاب الله عن الحُكم بين النَّاس، واتُّهم شَرْعُ الله بالضَّعف والعجز والقصور والتَّخلُّف عن رَكْب الحضارة، وحَلَّ محلَّه القانونُ الوضعي الضَّعيف القاصر، يحكم في الدِّماء والأموال والأعراض!

وهُجِرَ القرآنُ الكريم استشفاءً وتداوياً، ولجأ النَّاس إلى السَّحرة والعرَّافين والدَّجالين يطلبون منهم الشِّفاء والدَّواء لأمراضهم!.

فهل من عودةٍ، وهل من أوبةٍ؟ نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدُّنيا والآخرة[1].

أوجب الواجبات:

والاعتناء بدراسة القرآن العظيم ومعرفة أسراره لَمِنْ أوجب الواجبات على مَنْ يتفرَّغُ لدراسة علومه؛ ولا سيما إذا كانت الدِّراسة مركَّزة، وكانت مجالاً بحثياً أكاديمياً، في زمان تدعو كلُّ أمَّة إلى كتابها، كيف لا، وقد بات في عداد الأمور المُسَلَّمة: أنَّ أيَّة أُمَّة تَشْرُف بشرف كتابها المنزَّل، أو رسولها المُرسَل، فكيف إذا اجتمع الشَّرفان، فقد وجب البحث، ووجب الاتِّباع.

أسباب اختيار الموضوع:

إنَّ ممَّا حدا بي إلى اختيار هذا الموضوع أموراً عديدةً وأسباباً كثيرة، كان في مُقدِّمتِها:

١ ـ القناعةُ الراسخة بأنَّ هذا الموضوع لم يُدْرَسْ دراسةً متخصِّصةً تجمع

(١) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن، (ص٥).

متفرِّقه، وتلمُّ أشتاته وجزئياته، وتُعنى به استقراءً واستنباطاً وتحليلاً.

٢ ـ تنبيهُ المسلمين من الغفلة عن القرآن العظيم؛ ليستمسكوا به ويجتهدوا في تعلُّمه وتعليمه وتلاوته وحفظه وتدبُّره والعمل به.

٣ ـ أنَّ سواداً كبيراً من العالم الإسلامي لا يزال يعيش بعيداً عن القرآن الكريم، وهو في أمسِّ الحاجة إليه؛ لينقذه من الضلالة إلى الهدى.

٤ ـ النَّظَرُ فيما يبذله أعداء القرآن مِنْ تفنُّنٍ وتبجُّحٍ في عرض كتبهم المحرَّفة، وعقائدهم الباطلة، وأخلاقهم الفاسدة، وقوانينهم الجائرة، في قوالب حديثة مقبولة، ووسائل فنِّيَّة إعلامية، بأفضل الطُّرق أعلاها.

٥ ـ تصحيحُ النَّظرةِ الخاطئة والقاهرة التي لا تليق بالقرآن العظيم.

خطَّة البحث:

لقد سار البحث في هذا الموضوع في مقدِّمة، وبابين، وخاتمة، وذلك كما يلي:

* المقدِّمة: وتشتمل على أهميّة الموضوع، وأسباب اختياره، وواقع المسلمين اليوم، وخُطَّة البحث ومنهجه.

الباب الاول

معنى (الهجر) وذمُّ فاعله

وفيه فصلان:

الفصل الأول: معنى (هجر القرآن). وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف (الهجر) لغة.

المبحث الثاني: ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر.

المبحث الثالث: ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر.

المبحث الرابع: المقصودُ بـ (هَجْر القرآن).

المبحث الخامس: حُكْمُ هجْر القرآن.

الفصل الثاني: ذمُّ هجر القرآن. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات الدّالة على ذمِّ هجر القرآن.

المبحث الثاني: الأحاديث الدّالة على ذمّ هجر القرآن.
المبحث الثالث: آثار السّلف في ذمّ هجر القرآن.

الباب الثاني

أنواع الهجر

وفيه تسعة فصول:
الفصل الأول: هجر الإيمان بالقرآن (الكفر به). وفيه ستة مباحث:
المبحث الأول: وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته.
المبحث الثاني: الآيات الدّالة على وجوب الإيمان بالقرآن.
المبحث الثالث: الوعيد على هجر الإيمان بالقرآن.
المبحث الرابع: أنواع التكذيب بالقرآن.
المبحث الخامس: حُكم التّكذيب بالقرآن.
المبحث السادس: أهل الكتاب وتكذيبهم بالقرآن.
الفصل الثاني: هجر تعظيم القرآن (الاستهزاء به). وفيه أربعة مباحث:
المبحث الأول: تعريف الاستهزاء.
المبحث الثاني: مظاهر تعظيم القرآن.
المبحث الثالث: أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن.
المبحث الرابع: حُكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف.
الفصل الثالث: هجر استماع القرآن. وفيه ستة مباحث:
المبحث الأول: تعريف السّماع وأنواعه.
المبحث الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن.
المبحث الثالث: آداب استماع القرآن.
المبحث الرابع: فضائل استماع القرآن.
المبحث الخامس: حُكم الاستماع للقرآن وحُكم الإعراض عنه.
المبحث السادس: الآثار الحسنة لاستماع القرآن.
الفصل الرابع: هجر تعلُّم القرآن وتعليمه. وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر هجر تعلُّم القرآن وتعليمه.
المبحث الثاني: آداب مُعلِّم القرآن ومُتعَلِّمه.
المبحث الثالث: فضائل تعلُّم القرآن وتعليمه.
المبحث الرابع: أحكام تعلُّم القرآن وتعليمه.
المبحث الخامس: همّة السّلف في تعلُّم القرآن وتعليمه.
الفصل الخامس: هجر تلاوة القرآن. وفيه أربعة مباحث:
المبحث الأول: مظاهر هجر تلاوة القرآن.
المبحث الثاني: أسباب هجر التلاوة.
المبحث الثالث: آداب وأحكام تلاوة القرآن.
المبحث الرابع: فضائل تلاوة القرآن.
الفصل السادس: هجر حفظ القرآن. وفيه أربعة مباحث:
المبحث الأول: حفظ القرآن وتيسيره.
المبحث الثاني: آداب حفظ القرآن.
المبحث الثالث: فضائل حفظ القرآن.
المبحث الرابع: حُكم حفظ القرآن ونسيانه.
الفصل السابع: هجر تدبر القرآن. وفيه أربعة مباحث:
المبحث الأول: تعريف التدبر وأهميته وحُكمه.
المبحث الثاني: أسباب هجر تدبر القرآن.
المبحث الثالث: الأمور المعينة على تدبر القرآن.
المبحث الرابع: ثمرات تدبر القرآن.
الفصل الثامن: هجر العمل بالقرآن. وفيه خمسة مباحث:
المبحث الأول: وجوب العمل بالقرآن.
المبحث الثاني: فضائل العمل بالقرآن.
المبحث الثالث: النبي ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن.
المبحث الرابع: الصحابة رضي الله عنهم يتواصون بالعمل بالقرآن.

المبحث الخامس: نماذج من عمل الصحابة ﷺ بالقرآن.

الفصل التاسع: هجر التحاكم إلى القرآن. وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أدلة وجوب التحاكم إلى القرآن.

المبحث الثاني: أسباب هجر التحاكم إلى القرآن.

المبحث الثالث: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله.

المبحث الرابع: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله.

* الخاتمة: وتشتمل على أهمّ نتائج البحث، خَتَمَ الله لنا بالحسنى.

* الفهارس: وتشتمل على فهارس للأحاديث، والآثار، وتراجم الأعلام، والألفاظ ومعانيها، والفروق اللُّغويَّة، والأشعار، والأماكن، والأحكام الفقهيَّة، والآداب، والفضائل، والبدع، وثَبْتِ المصادر والمراجع، والمحتوى.

وقد تمّ استثناء (فهرس الآيات)؛ لكثرتها وامتلاء صفحات البحث بها.

منهج البحث:

تيسيراً على القارئ الكريم أُبَيِّنُ طريقة عملي في هذا البحث، وهي كالآتي:

١ ـ يسير هذا البحث على الطّريقة الاستقرائية[١] في تتبُّع كلِّ ما يدخل تحت مسمّى «هَجْر القرآن العظيم» من الآيات، والأحاديث، وأقوال أهل العلم. ويسير كذلك على الطّريقة الاستنباطية[٢] في تحليل الآيات؛ والأحاديث، وسائر النُّصوص المتعلِّقة بموضوع البحث.

٢ ـ الإفادة من المصادر والمراجع القديمة لأصالتها، وكذلك اللُّجوء إلى المصادر الحديثة عند تعذُّر الحصول على المطلوب من المصادر القديمة.

٣ ـ عزو الآيات القرآنيَّة بأرقامها إلى سُوَرِها.

---

(١) المنهج الاستقرائي: هو «تتبُّع الجزئيّات كلِّها أو بعضها للوصول إلى حُكْم عامٍّ يشملها جميعاً».
«ضوابط المعرفة والاستدلال والمناظرة، لعبد الرحمن حبنكة الميداني (ص١٨٨)».

(٢) المنهج الاستنباطي: هو «ما يقوم على التأمُّل في أمور جزئية ثابتة لاستنتاج أحكام منها».
«البحث العلمي، د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة (١/ ١٧٨)».

٤ ـ تخريج الأحاديث والآثار وعزوها إلى مراجعها من كتب السُّنة، مع ذكر أقوال أهل العلم في درجتها ما أمكن، ما لم تكن في الصّحيحين أو أحدهما.

٥ ـ إثباتُ أسماءِ المصادر والمراجع في الهامش بما اشْتُهِرَت به. نحو: «تفسير أبي السُّعود» بدلاً من «إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا القرآن الكريم»، و«تفسير ابن كثير» بدلاً من «تفسير القرآن العظيم» وهكذا. . . ، مع إثبات الاسم الحقيقي والاسم المشهور في ثَبْتِ المصادر والمراجع.

٦ ـ التَّعريفُ بكلِّ عَلَم ـ في الهامش ـ عند وروده أوَّل مَرَّة في صُلب البحث، مستثنياً الأنبياءَ والمرسلين ﷺ؛ فإنَّهم أرفعُ من التَّعريف بهم، وكذلك الصَّحابة ﷺ؛ لشهرتهم.

٧ ـ العنايةُ بشرحِ الألفاظ الغريبة، أو المصطلحات الواردة في البحث ما أمكن.

٨ ـ التَّفريق ـ في الهامش ـ بين عبارة: (المصدر نفسه)، وبين عبارة: (المصدر السابق). على النَّحو الآتي:

أ ـ إذا أُطلقتْ عبارة: (المصدر نفسه) فالمقصود بذلك: المصدر الأخير المتكرِّر مباشرة بدون فاصل.

ب ـ إذا أُطلقتْ عبارة: (المصدر السَّابق) فالمقصود بذلك: المصدر قبل الأخير، أي بينهما فاصل.

وإنِّي إذْ أقوم بهذه الدِّراسة عن «هَجْر القرآن العظيم» لا أدَّعي بلوغ الكمال؛ لأنَّ النَّقص من طبيعة البشر، والكمال لله وحده، وإنَّما حسبي أنَّني حاولتُ ـ قَدْر المستطاع ـ أنْ يأخذ هذا الموضوع مكانه اللَّائق به في الدِّراسات القرآنية.

شكر وتقدير:

ويطيب لي: أنْ أشكر كُلَّ مَنْ مدّ لي يدَ العون والمساعدة في هذا العمل العلمي، ووفَّر لي من جهدِه ووقته، وما أسدى إليَّ من ملاحظاتٍ وتوجيهات.
فجزى اللهُ الجميعَ عنِّي كُلَّ خير.

وأستأنس في نهاية هذه المقدّمة بما جاء عن ابن الوردي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «فالنّاس لم يُصنّفوا في العلم لكي يصيروا هدفاً للذّمّ، ما صنّفوا إلّا رجاء الأجر، والدّعوات، وجميل الذّكر، لكن فديتُ جسداً بلا حسدٍ، ولا يُضيع الله حقّاً لأحد، والله عند قول كلّ قائلٍ، وذو الحجا من نفسه في شاغل، فإذا ظفرت أيُّها الطّالب بمسألةٍ فاخمةٍ، فادْعُ لي بحُسْن الخاتمة، وإذا ظفرت بعثرةٍ، فادْعُ لي بالتّجاوز والمغفرة»(١).

وكتبه
د. محمود بن أحمد الدوسري
الدّاعية بوزارة الشّؤون الإسلامية
والأوقاف والدّعوة والإرشاد
بالمملكة العربية السعودية
Dosary33@hotmail.com
الدمام ص.ب: ٢٧٧٩ ـ ر.ب: ٣١٤٦١

---

(١) نقلاً عن: إعانة الطّالبين على حلّ ألفاظ فتح المُعين، للسيد البكري الدّمياطي (٤/ ٣٤٤).

الباب الأول

معنى (الهجر) وذمُّ فاعلِهِ

وفيه فصلان:

الفصل الأول: معنى (هجر القرآن).

الفصل الثاني: ذمُّ هجر القرآن.

الفصل الأول

معنى «هجر القرآن»

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف «الهجر» لغة.

المبحث الثاني: ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر.

المبحث الثالث: ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر.

المبحث الرابع: المقصود بـ«هجر القرآن».

المبحث الخامس: حُكم هجر القرآن.

المبحث الأول

تعريف «الهجر» لغة

الهجر في اللُّغة مصدر مشتقٌّ من الفعل «هَجَرَ»، وقد ذكر عدد من علماء اللُّغة لهذا الفعلِ ومشتقّاتِه استعمالات عديدة، وسوف نَعرِضُ المعاني التي تتعلّق بموضوع البحث على النّحو التّالي:

* قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الهاء والجيم والرّاء أصلان، يدلُّ أحدهما: على قطيعةٍ وقَطْعٍ، والآخر: على شدِّ شيءٍ وربْطِه»[2].

* والهَجْرُ: ضدُّ الوصْل، والتَّهاجُرُ: التَّقاطُعُ[3].

* وهَجَرَه يهْجُره هَجْراً وهِجْراناً بالكسر: صَرَمَه وقَطَعَه.

* وهَجَرَ الشيء يَهْجُره هَجْراً: تَرَكَه وأَغْفَلَه وأَعْرَضَ عنه[4].

* يُقال: هجر زوجَه: اعتزل عنها ولم يطلِّقها[5].

* «وهاجر القومُ من دار إلى دار: تركوا الأُولى للثّانية، كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكّة إلى المدينة»[6].

---

(١) هو إمام اللغة المحدِّث أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني، المعروف بالرّازي المالكي، كان مناظراً متكلِّماً، بصيراً بالأدب والفقه المالكي. من مصنفاته: «معجم مقاييس اللغة»، و«المجمل». توفي سنة (٣٩٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٧/١٠٣).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٢/ ٦٠٠)، مادة: (هجر).

(٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٥/ ٣١ ـ ٣٢)، مادة: (هجر)؛ مختار الصحاح، للرازي (ص٣٢٤)، مادة: (هجر).

(٤) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي (١٤/٣٩٦)، مادة: (هجر).

(٥) انظر: المعجم الوسيط، لجماعة من الباحثين (ص٩٧٢)، مادة: (هجر).

(٦) معجم مقاييس اللغة (٢/ ٦٠٠).

والمُهاجَرَةُ في الأصل: مُصارمَةُ الغيرِ ومُتاركَتُه[(١)].

* ويكون الهجر: بالبدن وباللسان وبالقلب، كما ذكر ذلك الرَّاغب الأصفهاني[(٢)] رحمه الله بقوله: «الهَجْرُ والهِجْرانُ مُفارقةُ الإنسانِ غيرَه إمَّا بالبدن أو باللِّسان أو بالقلب، قال تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤]. كنايةٌ عن عدم قُرْبِهِنَّ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. فهذا هجر بالقلب أو بالقلب واللِّسان. وقوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]. يحتملُ الثَّلاثة، ومَدْعُوٌّ إلى أنْ يَتَحرَّى أيَّ الثَّلاثةِ إنْ أمكَنَهُ مع تحرِّي المُجاملةِ، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]. فحَثَّ على المُفارَقة بالوُجوهِ كُلِّها»[(٣)].

* ومن معاني الهجر: الفُحْش في الكلام والهذيان «يُقال: أهْجَرَ في مَنْطِقِه يُهْجِرُ إهْجاراً، إذا أفْحَشَ. وكذلك إذا أكْثَرَ الكلامَ فيما لا ينبغي. والاسم: الهُجْر، بالضم.

* وهَجَر يَهْجُر هَجْراً، بالفتح، إذا خَلَط في كلامه، وإذا هَذَى»[(٤)].

* والهَاجِرات: هي الكلماتُ التي فيها فُحْشٌ.

ويشهد له قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧].

* ومن معاني الهجر: الاستهزاء. يقال: أهجرت بالرجل: استهزأت به، وقلت فيه قولاً قبيحاً[(٥)].

* وأهْجَرَ فلانٌ: إذا أتى بِهُجْرٍ من الكلام عن قَصْدٍ.

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص٥١٤)، مادة: (هجر).

(٢) هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، الملقب بالراغب، توفي سنة (٥٠٢هـ). قال الذهبي عنه: «كان من أذكياء المتكلِّمين». ومن مصنفاته: «المفردات في غريب القرآن»، و«الذريعة إلى مكارم الشريعة»، و«محاضرات الأدباء».
انظر: شذرات الذهب، لابن العماد (٣/ ٣٨٣)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٢٠).

(٣) المصدر السابق (ص٥١٤).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/ ٢٤٥)، مادة: (هجر).

(٥) انظر: المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي (ص٣٢٦)، مادة: (هجر).

* وهَجَرَ المَرِيضُ: إذا أتى ذلك من غَيرِ قَصْدٍ[١].

* والهَجِيرُ والهاجِرَةُ: نِصْفُ النَّهارِ في القَيْظِ خاصَّةً، وهَجَّرَ تَهْجِيراً: سار في الهَاجِرَةِ[٢].

* وسُمِّيت هاجرةً: لأنَّ الناسَ يَسْتَكِنُّون في بيوتهم، كأنَّهم قد تَهاجَرُوا[٣]. وكأنَّ هذه الساعةَ هَجَرَت الناسَ وَهُجِرَتْ لذلك[٤].

* والهَجِيرُ: المهجور المتروك[٥].

* والهَجِيرُ: يَبِيس النَّبْتِ الذي كَسرته الماشية، وسُمِّي بذلك: لأنَّ الراعي يهجره[٦].

* والهِجَارُ: حَبْلٌ يُشَدُّ به الفَحْلُ فيصيرُ سبباً لهجرانه الإبلَ، وفَحْلٌ مهجور: أي مشدودٌ به، وهِجارُ القوسِ: وتَرُها، وذلك تشبيهٌ بِهِجار الفَحْلِ[٧].

خلاصة القول:

على ضوء ما تقدَّم فإنَّ مادة «هَجَرَ» ومشتقَّاتها في لغة العرب تدور حول معانٍ عدَّة، وهي على النَّحو الآتي:

١ ـ البُعْدُ عن الوصل الذي ينبغي، من الأُلفة، وجميلِ الصُّحبة.

٢ ـ الفحش في الكلام وما لا ينبغي من القول: وهو بُعْدٌ عن الصَّواب.

٣ ـ مجانبة الشَّيء: وهو بُعْدٌ عنه، وأَخْذٌ في جانبٍ آخر عنه.

٤ ـ هذَيان المريض: وهو بُعْدٌ عن نظام الكلام.

٥ ـ انتصاف النَّهار: وهو بُعْدٌ عن طرفيه المحمودين، في اعتدالِ الهواء وإمكان التَّصرف.

٦ ـ الحبل الذي يُشَدُّ به البعير: وهو الذي أبعده عن استرساله في تصرُّفه.

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص٥١٥).
(٢) انظر: المصباح المنير (ص٣٢٦).
(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/ ٦٠٠)، القاموس المحيط، للفيروزآبادي (ص٦٣٨).
(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص٥١٥).
(٥) انظر: المعجم الوسيط (ص٩٧٣).
(٦) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/ ٦٠٠).
(٧) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص٥١٥).

٧ ـ النَّبات اليابس: وهو بُعْدٌ عن الرّعي فيه من الماشيةِ وصاحبِها.

فالجامع بين هذه المعاني هو: البُعد عن الشَّيء، سواء أكان بُعداً عن شيء مادي، أم عن شيء معنوي[1].

---

(١) انظر: أحكام القرآن، لمحمد بن عبد الله ابن العربي (١/ ٥٣٤).

المبحث الثاني

ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر

وردت مادة «هجر» وما يُشتقُّ منها في الآيات القرآنية في مواطن كثيرة، نأخذ منها ما يدلُّ على المقصود:

١ ـ التَّرك والإعراض:

* وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. «والمهجور: المتروك والمفارق»[١].

والمعنى: أنّهم تركوا القرآنَ فأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به، ولم يعملوا بما فيه[٢].

* وأيضاً في قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧].

أي: تُعرضون عن النبيِّ ﷺ، أو الإيمان، أو القرآن، وتتركون ذلك كلّه[٣].

٢ ـ الإفحاش في القول:

* وذلك في قراءة نافعٍ[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بضمّ التّاء وكسر الجيم، في

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٩/٤٣).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٣/٣٦٨)، تفسير الشوكاني (٤/٧٣).

وسيأتي بسط الأقوال في تفسير الآية في «المبحث الأول» من «الفصل الثاني» تحت عنوان: (الآيات الدّالة على ذمّ هجر القرآن).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨/٤١)، تفسير البغوي (٣/٣١٣).

وفي الآية أقوال أُخر، وهي من اختلاف التّنوع لا التّضاد. وسيأتي بسطها عند الحديث عن: (الآيات الدّالة على ذمّ هجر القرآن).

(٤) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نُعيم، أبو رويم الأصبهاني، مولى جَعونة بن شعوب ـ

الآية السَّابقة(١).

من الإهجار وهو الإفحاش في القول، بمعنى: تُفحشون في الكلام، وتقولون الخَنا. يُقال: أهْجَرَ الرَّجلُ: إذا أفْحَشَ في القول.

وذُكر أنّهم كانوا يسبُّون النبيّ ﷺ وأصحابَه(٢).

٣ ـ الانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ لأجل الدِّين:

وفي ذلك آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، منها:

* قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

فقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾: أي صَدَّق إبراهيم لوطٌ، واتَّبَعه وهاجرَ معه. والضَّمير في ﴿قَالَ﴾ عائد إلى إبراهيم ﷺ، أي: أعلن أنَّه مُهاجرٌ ديار قومه؛ وذلك لأنَّ الله تعالى أمره بمفارقة ديار أهل الكفر، وهو أوَّل مَنْ هاجر في سبيل الله تعالى(٣).

قال ابن عاشور(٤) رحمه الله: «وهذه أوَّل هِجرة لأجل الدِّين؛ ولذلك جعلها هِجرةً إلى ربِّه. والمُهاجَرة مفاعلةٌ من الهَجْر: وهو ترك شيء كان مُلازِماً له،

= الشَّجعي. صدوق ثَبْت في القراءة، قال مالك: «نافع إمام الناس في القراءة، وقال: قراءة نافع سنَّة». وقال عنه أحمد بن حنبل: «كان يؤخذ عنه القرآن، وليس بشيء في الحديث». وقال أبو عبيد: «وإلى نافع صارت قراءة أهل المدينة وبها تمسَّكوا إلى اليوم». كان محتسباً فيه دُعابة، وكان أسود شديد السَّواد. من أطهر الناس خُلقاً، زاهداً جواداً، صلَّى في مسجد النبي ﷺ ستين سنة. توفي سنة (١٦٩هـ).
انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٣٦)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي (٧/ ٧)، تقريب التهذيب، لابن حجر (ص٩٩٥).

(١) انظر: البدور الزَّاهرة في القراءات العشر المتواترة، لعبد الفتاح القاضي (ص٢٢٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ٤٠)، تفسير البغوي (٣/ ٣١٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣/ ٣٣٩)، تفسير البغوي (٣/ ٤٦٥).

(٤) هو محمد الطَّاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة، وهو من أعضاء المَجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، ولد سنة (١٢٩٦هـ)، وتوفي سنة (١٣٩٣هـ). من مصنفاته: «مقاصد الشريعة الإسلامية»، و«تفسير التحرير والتنوير»، و«أصول الإنشاء والخطابة». انظر: الأعلام، للزِّرِكْلي (٦/ ١٧٤).

والمُفاعلة للمبالغة، أو لأنّ الذي يهجر قومه يكونون هم قد هجروه أيضاً»[١].

* قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

«هذا في بيان الحثّ على الهجرة، والتّرغيب، وبيان ما فيها من المصالح، فوَعد الصّادق في وَعْده، أنَّ مَنْ هاجر في سبيله، ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغماً في الأرض وسعة، فالمراغَمُ: مشتملٌ على مصالح الدّين، والسَّعة: على مصالح الدُّنيا.

وذلك أنَّ كثيراً من النّاس يتوهَّم أنَّ في الهجرة شتاتاً بعد الألفة، وفقراً بعد الغنى، وذلاً بعد العزّ، وشدَّةً بعد الرّخاء. والأمر ليس كذلك، فإنّ المؤمن، ما دام بين أظهر المشركين، فدينه في غاية النَّقص؛ لا في العبادات القاصرة عليه؛ كالصّلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدّية؛ كالجهاد بالقول والفعل، وتوابع ذلك، لعدم تمكُّنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصاً إن كان مستضعفاً. فإذا هاجر في سبيل الله، تمكَّن من إقامة دين الله، وجهاد أعداء الله، ومراغمتهم.

فإنَّ المراغمة اسم جامع لكلّ ما يحصل به إغاظةٌ لأعداء الله، من قولٍ وفعل، وكذلك ما يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

واعتُبر ذلك بالصَّحابة رضي الله عنهم، فإنهم لمَّا هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم، وأولادهم، وأموالهم لله، كَمُلَ بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التّام، والجهاد العظيم، والنَّصر لدين الله، ما كانوا به أئمةً لمن بعدهم. وكذلك حصل لهم، ما يترتَّب على ذلك من الفتوحات والغنائم، ما كانوا به أغنى النّاس.

وهكذا كُلُّ مَنْ فعل فعلهم، يحصل له ما حصل لهم، إلى يوم القيامة»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٦٠).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).

٤ ـ هجر الزَّوجة في الفراش:

* قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤].

اختلف أهل التّأويل في المراد بهجر الزّوجة في المضجع على أقوال:

١ ـ الهجر في المضجع: بترك الجماع، وترك الكلام في شأنه.

٢ ـ ترك النّوم معها في فراش واحد.

٣ ـ أنْ يُكلّمها هُجْراً وفُحشاً وسُوءاً من القول والكلام[١].

٥ ـ الانفراد والعزلة والابتعاد:

وذلك في عدّة آيات، منها:

* قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

هذه الآية ـ عند المفسّرين كافّة ـ منسوخةٌ بآية السّيف[٢]، غير أنّ العبرة هنا بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب.

«فالهجر الجميل: هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك المخالطة، فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى، ولمّا كان الهجر ينشأ عن بغض المهجور، أو كراهية أعماله، كان مُعرضاً لأن يتعلّق به أذى من سبٍّ أو ضرب أو نحو ذلك. فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجراً جميلاً، أي أنْ يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سبّاً أو انتقاماً»[٣].

* قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾.

١ ـ فقال بعضهم: المعنى: اهجرْني حيناً طويلاً ودَهراً. والمَليُّ عندهم هو المَلاوةُ من الزّمان؛ وهو الزّمنُ الطّويل، وهذا قول مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، والسُّدي، وابن إسحاق.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/٦٣ ـ ٦٤).

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٨/ ٣٩٢)، تفسير الشوكاني (٥/٣١٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٠).

٢ ـ وقال آخرون: المعنى: اهجرْني سالِماً من عقوبتي لك. والمَلِيُّ عندهم: هو السَّلامة. يُقال: فلانٌ مليٌّ بهذا الأمر: إذا كان مضطلعاً به غنيّاً فيه. أي: اهْجرني، وعِرْضُك وافرٌ من عقوبتي، وجسمُك معافىً من أذاي.

وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والضَّحاك.

وقد رجح الطبري[١] رَحِمَهُ اللَّهُ القول الثَّاني. أي: اهجرني سويّاً سليماً من عقوبتي؛ لأنَّه عقب قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، فهو وعيدٌ له، بأنه إنْ لم ينته، فسوفَ يرجُمُه بالقول، والأوْلى له أنْ ينتهيَ عن كلامه معه، قبلَ أن تنالَه عقوبته[٢].

* قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥].

هذه الآية فيها قراءتان[٣]:

الأُولى: قراءةُ حفص عن عاصم: ﴿وَالرُّجْزَ﴾ بضم الرَّاء، على أنه اسمُ صنم. أي: اهجرْ عبادةَ الأصنام، واتركْ خدمتها.

الثَّانية: قراءةُ الباقين: «وَالرِّجْزَ» بكسر الراء. بمعنى العذاب. أي: اهجرْ ما يوجبُ لك العذابَ من الأقوال والأعمال.

وبناءً على ذلك: اختلفَ أهلُ التأويل في معنى الرجز:

١ ـ فقال بعضهم: هو الأصنام. فأُمِرَ أن يهجرَ عبادةَ الأصنام.

وهذا قولُ ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والزُّهري، وابن زيد.

٢ ـ وقال آخرون: هو المعصيةُ والإثم، فأُمِرَ أنْ يهجرَ المعصيةَ والإثم. وهذا قولُ إبراهيم النَّخعي، والضَّحاك[٤].

وهكذا نرى أنَّ الأصل في الهَجْر: التَّرك فعلاً كان أو قولاً، وهو المعنى المشترك بين الآيات جميعاً.

---

(١) هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الطَّبري، الإمام العلّامة القارئ، المحدِّث، المفسِّر، المؤرِّخ، الفقيه صالح التَّصانيف، ولد بآمل سنة (٢٢٤هـ)، ألَّف كُتُباً لم يُصنَّف مثلها ومنها: «تفسيره جامع البيان»، و«تهذيب الآثار»، و«تاريخ الأمم والملوك»، توفي ببغداد سنة (٣١٠هـ). انظر: طبقات المفسرين، للدَّاودي (٢/ ١١٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٩١ ـ ٩٢).

(٣) انظر: البدور الزَّاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص٣٣٩).

(٤) انظر: المصدر نفسه (٢٩/ ١٤٧ ـ ١٤٨).

المبحث الثالث

ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر

وردت مادة «هجر» وما يُشتقُّ منها في الأحاديث النَّبوية بألفاظٍ كثيرة، وصيغ عديدة، نأخذ منها ما يدلُّ على المقصود:

١ ـ التَّهاجر بين المسلمين:

* عن أبي أيُّوبِ الأنصاريِّ ﷺ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ» الحديث(١).

قال النَّووي(٢) رحمه الله: «في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث ليالٍ، وإباحتها في الثَّلاث، الأوَّل: بنصِّ الحديث. والثَّاني: بمفهومه. قالوا: وإنما عُفِيَ عنها في الثَّلاث؛ لأنَّ الآدمي مجبول على الغضب، وسوء الخُلق، ونحو ذلك، فَعُفِيَ عن الهجرة في الثَّلاثة ليذهب ذلك العارض»(٣).

٢ ـ الهِجرة لأجل الدِّين:

* عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»(٤).

---

(١) رواه مسلم، كتاب البرِّ والصِّلة والآداب، باب: تحريم الهجر فوق ثلاث، بلا عذر شرعي (٤/ ١٩٨٤) (ح٢٥٦٠).

(٢) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن (أبو زكريا)، الفقيه الشافعي الدِّمشقي الحافظ الزَّاهد القدوة، ولد سنة (٦٣١هـ)، كان يقرأ في كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً، من تصانيفه: «شرح صحيح مسلم»، و«المجموع شرح المهذب»، و«الأذكار»، و«رياض الصالحين»، و«التقريب والتيسير في مختصر الإرشاد»، توفي سنة (٦٧٦هـ). انظر: شذرات الذهب (٥/ ٣٥٤).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ١١٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسِّير (٢/ ٨٦١) (ح٢٧٨٣)، =

* وعن مُعاويةَ ﷺ، قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يقولُ: «لا تَنْقَطِعُ الهِجْرةُ حتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، ولَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(١).

وقد جَمَع العلماء ـ رحمهم الله ـ بين هذين الحديثين ممَّا أزال التَّعارض الظَّاهر بينهما بقولهم: إنَّ الهجرة من مكَّة إلى المدينة مع الإقامة بها مع النَّبي ﷺ، والجهاد بين يديه، قد انقطعت، ولا تكون أبداً.

وأمَّا غيرها من أنواع الهجرة، فذلك باقٍ، لم يزل، ولنْ ينقطعَ حتَّى تطلع الشَّمس من مغربها، وذلك مثل الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام، وكذلك الخروج من موضعٍ غَلَب عليه المنكر، إلى موضعٍ ليس فيه ذلك(٢).

٣ ـ ترك ما نهى الله عنه:

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ»(٣).

الهجرة في هذا الحديث: باطنة: وهي لازمةٌ للعباد لا تنفكُّ عنهم أبداً، بترك ما نهى الله عنه، وظاهرة: وهي هجرة مَنْ فَرَّ بدينه من الكفر أو الفتن.

وقد أشار ابن حجر(٤) رحمه الله إلى هذين النَّوعين فقال:

«الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة.

= وباب: لا هجرة بعد الفتح (٢/ ٨٧٤) (ح٢٨٢٥)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير (٣/ ١٤٨٧) (ح١٨٦٣).

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب: في الهجرة هل انقطعت (٣/ ٣) (ح٢٤٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤٧٠) (ح٢١٦٦).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٦/ ١٩٠) (٧/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠)؛ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري (٥/ ٢٣٣)؛ معالم السنن، للخطابي (٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: المسلم منْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده (١/ ٢٩) (ح١٠)؛ وكتاب الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (٤/ ٢٠٣٤) (ح٦٤٨٤).

(٤) هو الإمام الحافظ الشهير، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده بمصر سنة (٧٧٣هـ)، له تصانيف لا تحصى، من أشهرها: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، و«لسان الميزان»، و«تهذيب التهذيب»، و«تقريب التهذيب»، و«بلوغ المرام من أدلة الأحكام» وغيرها. توفي سنة (٨٥٢هـ). =

فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النَّفسُ الأمَّارةُ بالسُّوء والشَّيطان.

والظَّاهرة: الفرار بالدِّين من الفتن.

وكأنَّ المهاجرين خُوطبوا بذلك، لئلَّا يتَّكلوا على مجرد التَّحوُّل من دارهم، حتَّى يمتثلوا أوامرَ الشَّرع ونواهيَه، ويحتمل أن يكون ذلك بعد انقطاع الهجرة، لما فتحت مكَّة، تطييباً لقلوب مَنْ لم يدرك ذلك، بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه، فاشتملت هاتان الجملتان على جوامع من معاني الحِكم والأحكام»[1].

٤ ـ القول الباطل:

* عَنْ أبي هُريرَة ﷺ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لَا تَهَجَّرُوا، ولَا تَدَابَرُوا، ولَا تَحَسَّسُوا» الحديث[2].

قوله ﷺ: (لا تَهَجَّرُوا): يحتمل أحدَ معنيين:

الأوَّل: النَّهي عن التَّهاجر ومقاطعة الكلام.

الثَّاني: النَّهي عن التَّكلُّم بالهُجْر ـ بضم الهاء ـ وهو الكلام القبيح[3].

* وعن أنس بن مالكٍ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كُنْتُ نَهيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ ألَا فَزُورُوها؛ فَإِنَّهَا تُرِقُّ القَلْبَ، وتُدْمِعُ العَيْنَ، وتُذَكِّرُ الآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْراً»[4].

قال النَّووي رحمه الله: «والهُجْر: الكلام الباطل، وكان النَّهي أولاً لقرب عهدهم من الجاهلية فربما كانوا يتكلَّمون بكلام الجاهلية الباطل، فلمَّا استقرَّت قواعد الإسلام، وتمهَّدت أحكامه، واشتهرت معالمه أُبيح لهم الزِّيارة،

= انظر: البدر الطالع (١/ ٨٧).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٧٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصِّلة والآداب، باب: تحريم الظنِّ والتَّجسس والتَّنافس والتَّناجش ونحوها (٤/ ١٩٨٥) (ح٢٥٦٣).

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٣٣٦).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك»، كتاب الجنائز (١/ ٥٣٢) (ح١٣٩٣).
وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/ ٨٤١) (ح٤٥٨٤).

واحتاط ﷺ بقوله: (ولا تَقُولُوا هُجْراً)»[١].

وقد وقع في زماننا هذا عينُ ما حذَّر منه أنصح الخلق ﷺ، ذلك أنَّ بعض عوامِّ المسلمين لدى زيارتهم للقبور يتوسَّلون بالموتى ويدعونهم من دون الله ويستغيثون بهم، وهذا من أكبر الهُجْر والكلام الباطل[٢].

٥ ـ ترك فراش الزَّوج:

* عن أبي هُريرةَ ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «إِذَا بَاتَتِ المَرأَةُ مُهَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ»[٣].

هذا الحديث ليس على ظاهره في لفظ المفاعلة، بل المراد أنَّ المرأة هي التي هجرت، وقد تأتي لفظة المفاعلة ويراد بها نفس الفعل، كما ذكر ذلك ابن حجر رحمه الله[٤].

* ويدلُّ على ذلك رواية مسلم: «إِذا بَاتَتِ المَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»[٥] فجاء بلفظ اسم الفاعل.

«ومعنى الحديث: أنَّ اللَّعنة تستمرُّ عليها حتَّى تزول المعصية بطلوع الفجر، والاستغناء عنها، أو بتوبتها، ورجوعها إلى الفراش»[٦].

«ولا يتَّجه عليها اللَّوم إلَّا إذا بدأت هي بالهجر فغضب هو لذلك، أو هَجَرها وهي ظالمة فلم تستنصل من ذنبها وهَجَرته، أمَّا لو بدأ هو بهجرها ظالماً لها فلا»[٧].

---

(١) المجموع (٥/ ٢٧٧).

(٢) انظر: أحكام الجنائز وبدعها، للألباني (ص١٧٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: إذا باتت المرأة مُهاجرةً فراش زوجها (٣/ ١٦٧١) (ح٥١٩٤).

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٣٦٥).

(٥) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب: تحريم امتناعها من فراش زوجها (٢/ ١٠٥٩) (ح١٤٣٦).

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي (١٠/ ٢٤٩).

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٣٦٥).

٦ ـ ترك اسم الحبيب:

* عنْ عائشة رضي الله عنها قالتْ: قال لي رَسُولُ الله ﷺ: «إنِّي لأَعْلَمُ إذَا كُنْتِ عَنِّي راضِيَةً، وإذا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى». قالتْ: فقُلْتُ: مِنْ أينَ تعْرِفُ ذلك؟ فقال: «أمَّا إذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، فإنَّكِ تَقُولِينَ: لا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وإذَا كُنْتِ غَضْبَى، قُلْتِ: لا وَرَبِّ إبْرَاهِيمَ» قالتْ: قُلْتُ: أجَلْ، والله يا رسول الله، ما أهْجرُ إلّا اسْمك»[١].

«مغاضبة عائشة رضي الله عنها هي مِنَ الغيرة، التي عُفي عنها للنِّساء، ولولا ذلك، لكان عليها في ذلك من الحرج ما فيه؛ لأنَّ الغضبَ على النبيِّ ﷺ كبيرةٌ عظيمة.

وفي قولها: (إلّا اسْمَكَ) دلالةٌ على أنَّ قَلْبها مملوءٌ من المحبَّة، وإنَّما الغيرة في النِّساء من المحبَّة»[٢].

وجاء في (فتح الباري) عن الطِّيبي[٣] رحمه الله: «وهذا الحصر لطيفٌ جدّاً؛ لأنَّها أخبرتْ أنَّها إذا كانت في حال الغضب، الذي يسلب العاقل اختياره، لا تتغيَّر عن المحبَّة المستقرَّة»[٤]. عبَّرت عائشة رضي الله عنها عن التَّرْك بالهَجْر؛ لِتدُلَّ به على أنَّها تتألَّم من هذا التَّرْك، الذي لا اختيار لها فيه، وهذا من الهجر الطَّبيعي الجائز.

وكما مرَّ معنا سابقاً في الآيات: أنَّ الأصل في الهجر: التَّرك فعلاً كان أو قولاً، فكذلك هنا هو المعنى المشترك بين الأحاديث جميعاً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: غيرة النِّساء وَوَجْدِهِنَّ (٣/ ١٦٨١) (ح٥٢٢٨)، وكتاب الأدب، باب: ما يجوز من الهِجران لمن عصى (٤/ ١٩١٨) (ح٦٠٧٨)؛ والأدب المفرد (١/ ١٤٦) (ح٤٠٣)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة و (٤/ ١٨٩٠) (ح٢٤٣٩).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لمحمود بن أحمد العيني (٢٢/ ١٤٤)، وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٢٠٣).

(٣) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطِّيبي (شرف الدِّين): من أهل توريز، من عراق العجم. من علماء الحديث والتَّفسير والبيان، قال ابن حجر عنه: «آية في استخراج الدَّقائق من القرآن والسُّنن». كانت له ثروة طائلة من الإرث والتِّجارة، فأنفقها في وجوه الخير، حتى افتقر في آخر عمره. من مصنفاته: «التِّبيان في المعاني والبيان»، و«أسماء الرِّجال»، و«فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرِّيب»، و«شرح مشكاة المصابيح» وغيرها. توفِّي سنة (٧٤٣هـ)؛ انظر: الدُّرر الكامنة، لابن حجر (٤/ ١٥٦).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٠٥)؛ وانظر: فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد، لفضل الله الجيلاني (٢/ ٧٠ ـ ٧١).

المبحث الرابع

المقصود بـ «هَجْر القرآن»

لم تذكُرْ كتبُ المصطلحات «هَجْرَ القرآن» مصطلحاً، ولكن هناك بعض العلماء الأجِلَّاء مَنْ تطرَّق إلى الحديث عن هجر القرآن وأنواعه، ومن ذلك:

* ما ذَكَرَه ابن كثير(١) رحمه الله حيث قال: «كان الكفَّار إذا تُلي عليهم القرآن أكثروا اللَّغط والكلام في غيره، حتَّى لا يسمعوه، فهذا من هجرانه، وتركُ عِلمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وتركُ الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وتركُ تدبُّره وتفهُّمه من هجرانه، وتركُ العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدولُ عنه إلى غيره من شعرٍ أو قولٍ أو غناءٍ أو لهوٍ أو كلامٍ أو طريقةٍ مأخوذة من غيره من هجرانه»(٢).

* وما ذَكَرَه ابن القيِّم(٣) رحمه الله حيث قال: «هَجْرُ القرآنِ أنواع:

---

(١) هو الحافظ أبو الفداء عماد الدِّين، إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء البصري ثم الدِّمشقي، الشافعي، ولد سنة (٧٠٠هـ)، وقدم دمشق وصاهر الحافظ المزي، وصحب ابن تيمية، وتبعه في كثير من آرائه، وامتحن بسبب ذلك وأوذي، كان كثير الحفظ، سهل الاستحضار، انتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير. له التفسير المشهور، ثاني كتاب في التفسير بالمأثور بعد تفسير ابن جرير، وله موسوعة التاريخ: «البداية والنهاية» توفي سنة (٧٧٤هـ). انظر: شذرات الذهب (٦/ ٢٣٠)؛ البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع، للشوكاني (١/ ١٥٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ١٢٠).

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم الدِّمشقي، شمس الدِّين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، تفقَّه في مذهب الإمام أحمد وبرع وأفتى، لازم ابن تيمية وأخذ عنه، وتفنَّن في علوم الإسلام، وله في كُلِّ فن اليد الطُّولى. وكان ذا عبادة وتهجُّد، وقد امتُحن وأوذي مرات، وصنَّف تصانيف كثيرة، منها: «زاد المعاد في هدي خير العباد»، و«الصَّواعق المرسلة على الجهمية والمعطِّلة». توفي سنة (٧٥١هـ).
انظر: ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب (٢/ ٤٤٧).

أحدها: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثَّاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإنْ قرأه وآمن به.

والثَّالث: هجر تحكيمه والتَّحاكم إليه في أصول الدِّين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأنَّ أدلَّته لا تفيد اليقين، وأنَّ أدلَّته لفظيةٌ لا تحصِّل العلم.

والرَّابع: هجر تدبُّره وتفهُّمه ومعرفة ما أراد المتكلِّم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتَّداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها؛ فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التَّداوي به.

وكلُّ هذا داخلٌ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وإنْ كان بعض الهجر أهون من بعض.

والسَّادس: الحرج الذي في الصُّدور منه؛ فإنه تارةً يكون حرجاً من إنزاله وكونه حقّاً من عند الله، وتارةً يكون من جهة المتكلِّم به أو كونه مخلوقاً من بعض مخلوقاته أَلْهَمَ غيره أنْ تكلّم به. وتارةً يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السِّياسات. وتارةً يكون من جهة دلالته وما أُريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أُريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مُستكرهة مشتركة. وتارةً يكون من جهة كون تلك الحقائق، وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أُوهم أنها مرادة لضَرْبٍ من المصلحة.

فكلُّ هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم. ولا تجد مبتدعاً في دينه قطُّ إلّا وفي قلبه حرج من الآيات التي تُخالف بدعته. كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلّا وفي صدره حرج من الآيات التي تَحول بينه وبين إرادته»[(١)].

* وجاء في موسوعة نضرة النَّعيم في بيان «هجر القرآن» ما نصُّه:

«إنَّ هجر القرآن له جانبان: أحدهما: يتعلَّق بالقرآن دون أَخْذٍ له، وهذا صنيع الكفّار والمنافقين، والآخر: يتعلَّق به بعد الإقرار بأنَّه كلام الله الذي لا

---

(١) الفوائد (ص١٢٣ ـ ١٢٤)، بتصرف يسير.

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا صنيع بعض المسلمين الذين لا يقرؤون القرآن، أو يقرؤون لا يجاوز حناجرهم، فلا يعملون به، ومن هؤلاء صنف يحفظ القرآن أو شيئاً منه، ثم يهجر القراءة حتّى ينسى ما قد يكون حفِظَه منه»[١].

المقصود بـ «هجر القرآن»:

من خلال الاستعراض اللُّغوي لمادة «هَجر»، ومشتقّاتها في الآيات القرآنية، والأحاديث النّبوية، وما ذكره بعض أهل العلم في هذا الشّأن، نستطيع أن نُقرّر:

بأنَّ «هَجْر القرآن» يعني الأمورَ الآتية:

١ ـ ترك الإيمان به، وعدم الالتفات إليه كليّة.

٢ ـ القول السّيّئ في القرآن، والزّعم الباطل بأنّه سحر أو شعر أو أساطير الأوّلين، وهذا القول القبيح في حقّ القرآن من الاستهزاء به.

٣ ـ الإعراض والبُعد عن القرآن، وعدم سماعه، ورفع الأصوات بالهذيان إذا قُرئ لئلّا يُسمع.

٤ ـ ترك العمل به وعدم امتثال أوامره وعدم اجتناب زواجره.

٥ ـ ترك تحكيمه والاحتكام إليه.

٦ ـ ترك تدبُّره وتفهُّمه.

٧ ـ ترك تلاوته وحفظه أو نسيانْه بعد حفظه.

٨ ـ ترك الاستشفاء والتّداوي به.

٩ ـ الحرج الذي في الصُّدور منه.

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، لمجموعة من المختصين (١١/٥٦٩١).

المبحث الخامس

حُكم هجر القرآن

يختلف حُكْمُ هجر القرآن الكريم باختلاف نوعِ الهجر، وحالِ الهاجر، وقد سبق كلامٌ لابن القيِّم رحمه الله حول هذا المعنى، وهو قوله: «وإنْ كان بعض الهجر أهون من بعض»[1].

وقد ذَكَرَ الآلوسي[2] رحمه الله اختلافَ المفسّرين في معنى الهجر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهل المراد بهجره: عدمُ الإيمان به وتركُه تكذيباً، بناءً على أنَّ الهَجر ـ بفتح الهاء ـ بمعنى التَّرك والإعراض، أو أنَّ الهجر: بمعنى الهذَيان فيه واللَّغو من الهُجر بضم الهاء، أو أنَّ المراد بالهجر: تعطيلُ القرآن وعدمُ النَّظرِ فيه وتعاهدِه.

ثمَّ قال بعد ذلك: «والحقُّ: أنه متى كان هذا مُخلاً باحترام القرآن كُره، بل حَرُم، وإلَّا فلا»[3].

وجاء في فتاوى اللَّجنة الدَّائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السُّعودية ما نصُّه:

---

(١) الفوائد (ص١٢٤).

(٢) هو أبو الثَّناء، شهاب الدِّين، محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، نسبة إلى قرية اسمها «آلوس»، وهي جزيرة في منتصف نهر الفرات، بين الشَّام وبغداد، كانت موطن أجداده. ولد سنة (١٢١٧هـ) في جانب الكرخ من بغداد، جَمَعَ كثيراً من العلوم، فكان مفسِّراً ومحدِّثاً، وأصولياً فقيهاً، اشتغل بالتَّدريس والتَّأليف وانتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي ووَلِيَ المدرسةَ المرجانية التي كانت مشروطةً لأعلم أهل البلد، انفصل من منصب الإفتاء وأكبَّ على تفسير القرآن حتى أتمَّه ـ وهو روح المعاني ـ توفي سنة (١٢٧٠هـ).
انظر: التفسير والمفسِّرون، للذهبي (١/ ٣٦٠ ـ ٣٦٢)؛ معجم المؤلفين، لكحَّالة (٣/ ٨١٥).

(٣) روح المعاني، للآلوسي (١٩/ ١٣ ـ ١٤).

«والإنسان قد يهجر القرآن فلا يؤمن به ولا يسمعه ولا يُصغي إليه، وقد يؤمن به ولكن لا يتعلَّمه، وقد يتعلَّمه ولكن لا يتلوه، وقد يتلوه ولكن لا يتدبَّره، وقد يحصل التدبُّر ولكن لا يعمل به، فلا يُحِلُّ حلاله ولا يُحرِّم حرامه، ولا يُحكِّمه ولا يتحاكم إليه، ولا يَستشفي به ممَّا فيه من أمراضٍ في قلبه وبدنه، فيحصل الهجر للقرآن من الشَّخص بقدر ما يحصل منه من الإعراض»[١].

وبناءً على ذلك: فإنْ كان هجر القرآن بترك الإيمان به، أو الإعراض عنه، وعدم التَّحاكم إليه بالكلِّيَّة، أو اللَّغو فيه، فهذا كفر صُراح.

قال النَّووي رحمه الله: «أجمعت الأمَّة على وجوب تعظيم القرآن على الإطلاق وتنزيهه وصيانته. وأجمعوا على أنَّ مَنْ جحد منه حرفاً مُجْمَعاً عليه، أو زاد حرفاً لم يقرأ به أحد وهو عالم بذلك فهو كافر، وأجمعوا على أنَّ مَنْ استخف بالقرآن أو بشيء منه، أو بالمصحف أو ألقاه في قاذورة، أو كذَّب بشيء مما جاء به من حُكم أو خبر، أو نفى ما أثبته أو أثبت ما نفاه، أو شكَّ في شيء من ذلك، وهو به عالم كفر»[٢].

وإنْ كان هجر القرآن بمعنى التَّرك المؤدِّي إلى النِّسيان بعد الحفظ، فقد ذكر ابن حجر الهيتمي[٣] رحمه الله أنه من الكبائر، وقال بأنَّ ذلك هو ما ذهب إليه الرَّافعي[٤] وغيره، ونقل عن بعض العلماء أنَّ محلَّ كون نسيان القرآن كبيرة ـ عند

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٤/١٠٣ ـ ١٠٤)، من الفتوى رقم (٨٨٤٤).

(٢) المجموع (٢/١٩٣). وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٨٨).

(٣) هو أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهَيْتَمِي، السعدي، الأنصاري، الشافعي، ولد بمصر سنة (٩٠٩هـ) في محلة أبي الهيتم المنسوب إليها، برع في علوم كثيرة، وازدحم الناس على الأخذ منه، له مصنفات كثيرة منها: «شرح المشكاة»، و«شرح المنهاج»، و«الزواجر عن اقتراف الكبائر». توفي بمكة سنة (٩٧٣هـ).
انظر: مقدمة كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٨ ـ ١٠).

(٤) هو أبو القاسم، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل الرافعي، القزويني، الشافعي، ولد سنة (٥٥٥هـ) فقيه، مُحدِّث، مفسِّر، مؤرِّخ. قال أبو عبد الله الإسفراييني: «كان أوحَدَ عصره في العلوم الدِّينية أصولاً وفروعاً، ومجتهدَ زمانه في المذهب، وفريد وقته في التَّفسير». وكان زاهداً ورعاً متواضعاً. ومن مصنفاته: «فتح العزيز على كتاب =

مَنْ قال به ـ مشروطٌ بأن يكون عن تكاسل وتهاون، وهذا احترازٌ عمَّا لو اشتغل عن القرآن بمرضٍ مانعٍ من القراءة، وعدم التَّأثيم بالنِّسيان حينئذ واضح؛ لأنه مغلوبٌ عليه لا اختيار له فيه[1].

وأمَّا إنْ كان الهجر مُتعلِّقاً بعدم العمل به ـ مع الإيمان به، والإقرار بأنَّه كلام الله تعالى يجب اتِّباعه ـ فذلك معصية يتوقَّف كونها كبيرةً أو صغيرةً على نوع المخالفة ذاتها.

وأمَّا إنْ كان الهجر بمعنى ترك التِّلاوة، أو ترك التَّدبر، أو ترك الاستشفاء به ـ مع القدرة على ذلك ـ ولم يفعل، فهو مُؤاخَذٌ على فعله بحسب نوع تقصيره في ذلك، وإن لم يكن قادراً على ذلك فإنَّ الله تعالى لا يُكلِّف نفساً إلَّا وسعها وما آتاها، ويُستثنى في تلاوة القرآن فيما تصحُّ به صلاته كقراءة الفاتحة مثلاً، فإنَّها واجبة على كلِّ مسلم، ولا يجوز تركها بحال[2] وسيأتي تفصيل ذلك كلٌّ بِحَسَبِهِ في أنواع هجر القرآن.

= الوجيز للغزالي»، و«شرح المحرر» وسمَّاه الوضوح، و«شرح مسند الشافعي». توفِّي بقزوين سنة (٦٢٣هـ) ودفن بها.
انظر: طبقات المفسرين (١/ ٢٢٥).

(١) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٨٦).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١١/ ٥٦٩٢)؛ المُتْحف في أحكام المصحف، د. صالح بن محمد الرشيد (ص٧٤٦ ـ ٧٥٠).

الفصل الثاني

ذم هجر القرآن

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات الدَّالة على ذَمِّ هجر القرآن.

المبحث الثاني: الأحاديث الدَّالة على ذمِّ هجر القرآن.

المبحث الثالث: آثار السَّلف في ذمِّ هجر القرآن.

المبحث الأوَّل

الآيات الدَّالة على ذَم هجر القرآن

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: الشَّكْوى العظيمة.

المطلب الثاني: السَّمَر الفاحِش.

المطلب الثالث: الإعراض عن القرآن.

المطلب الرابع: الظُّلم الأعظم.

المطلب الخامس: الوجوه العابسة.

المطلب السادس: الاستكبار عن القرآن.

المطلب السابع: اللَّغو الباطل.

المطلب الثامن: التَّقسيم الجائر.

الآيات الدّالة على ذم هجر القرآن

تمهيد:

عانى النبيُّ الكريم ﷺ ما عاناه من جفاء قومه الذين لم يتّبعوه ولم ينقادوا لدعوته المباركة، وكانت لهم أساليبهم التي واجهوا بها النبيّ ﷺ؛ من ذلك: إعراضهم عن كتاب الله، فكانوا إذا تُليت عليهم الآيات القرآنية في مختلف الأماكن العامّة والخاصّة ولّوا وأعرضوا عنها وتصامموا ـ وما بهم من صمم ـ مستكبرين عن قبولها والانقياد لها.

بل أدّى بهم الحال إلى أن يوصي كبيرُهم صغيرَهم، وغنيُّهم فقيرَهم، وحاضرُهم باديهم بعدم الاستماع لهذا القرآن ابتداءً؛ لأنّهم على يقين أنّ كلّ مَنْ استمع لهذا القرآن متجرّداً من الموانع والهوى سيقوده استماعه إلى الإيمان بالقرآن العظيم والانقياد له، وهذا ما لا يُريدونه ولا يتمنّونه.

ومن شدّة كراهيتهم للآيات التي تُتلى عليهم أحياناً يتملّكُهم الغضب والكراهية المؤدّية إلى عُبوس الوجوه وتقطيبها، ويكاد أن يتحوّل هذا الشُّعور إلى الفتك بمن يقرأ عليهم القرآن الكريم.

وهناك آيات تتحدّث عن جفاء الكفّار وإعراضهم عن كتاب الله تعالى، حتّى وصل الحال إلى شكوى عظيمة يبثُّها النّبي ﷺ إلى ربّه عزّ وجلّ بسبب هجر قومه للقرآن العظيم، وهذا ما سنتناوله في هذه المطالب:

المطلب الأول

الشكوى العظيمة

* قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠].

شكا الرّسول ﷺ إلى ربّه تبارك وتعالى ما يُعانيه من عناد قومه واستكبارهم، وإعراضهم عن قبول دعوته، والإيمان بالكتاب الذي جاءهم به.

فقد أعرضوا عنه، وهجروه، وتركوه، مع أنَّ الواجب عليهم، الإيمانُ به، والانقياد لحكمه[1].

والمقصود من حكاية هذه الشَّكوى العظيمة: إنذار كلِّ مَنْ هَجَر القرآن الكريم إلى يوم الدِّين، بأنَّ صاحب الرِّسالة ﷺ قد توجَّه في هذا الشّأن إلى ربّه عزَّ وجلَّ يشكو قومه هَجْر القرآنَ العظيم.

وقد أُكِّدت هذه الشّكوى بـ ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾: للاهتمام بها؛ ليكونَ التّشكّي أقوى. والتّعبير عن قريش بـ ﴿قَوۡمِي﴾: لزيادة التّذمُّر من فِعلهم معه؛ لأنَّ من شأن قوم الرّجل أن يوافقوه.

وقوله ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: يدلُّ دلالةً واضحة على أنّ هذا هو دَيدنهم وشأنهم وحالهم مع نبيِّهم المرسل إليهم.

بمعنى: أنّ الهَجْر لم يقع عرضاً مرة أو مرتين، إنَّما وقع مراراً وتكراراً، فهو أشدُّ مبالغة ـ في هجْر القرآن ـ من أنْ يُقال: إنّ قومي هجروا القرآن.

كأنّما اتّخذوا هذا الهَجْر صِنعةً وحِرفة، وعقدوا العزم في ذلك الاتّخاذ، فهو قرار قرّروه، ومنهج اختطُّوه لأنفسهم وللأجيال من بعدهم.

واسم الإشارة في ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: لِتعظيمه، وأنَّ مِثْلَه لا يُتَّخذ مهجوراً بل هو جدير بالإيمان به، والإقبال عليه، والانتفاع به[2]. والتّعبير باسم الإشارة

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٣/٤٣٨).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٩/٤٢).

أيضاً؛ لبيان أنّه مُتاحٌ لهم تعظيمُه، فهو بين أيديهم، بالإضافة أنّه نزل بلسانهم.

فهذه «شكوى عظيمة، وفيها أعظم تخويف لِمَنْ هَجَر هذا القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزَّواجر والقصص والأمثال»(١).

* وقد اختلفَ أهلُ التأويل في معنى وكيفيةِ اتّخاذِهم القرآن مهجوراً على عدَّة أقوال، وهي على النَّحو الآتي:

١ ـ التَّرك كلّياً:

بمعنى أنَّ المشركين تركوا الإيمان بالقرآن، ولم يلتفتوا إليه أبداً، قال ابن الجوزي: «وهذا معنى قول ابن عباس ومقاتل»(٢).

٢ ـ الإعراض والبعد عن القرآن وعدم سماعه:

قال ابن زيد في معنى الآية: لا يريدون أن يسمعوه، وإن دُعوا إلى الله قالوا: لا. وقرأ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، قال: ينهون عنه، ويبعدون عنه.

ورجَّح ابن جرير الطبري رحمه الله هذا القول؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. وذلك هجرهم إيّاه(٣).

٣ ـ القول السّيِّئ في القرآن، والزَّعم الباطل بأنّه سحر، أو شعر، أو أساطير الأولين:

قال مجاهد(٤) رحمه الله في معنى الآية: يهجُرون فيه بالقول، يقولون:

---

(١) أضواء البيان، للشنقيطي (٦/ ٣١٧). (٢) زاد المسير (٦/ ١٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١٥).

(٤) هو شيخ القُرّاء والمفسِّرين، أبو الحجّاج المكّي، مجاهد بن جبر، مولى السّائب بن أبي السّائب المخزومي ـ وقيل غيره ـ أشهر تلاميذ ابن عباس، أخذ عنه القرآن والتفسير والفقه، يقول: «عرضتُ القرآنَ ثلاث عرضات على ابن عباس، أقِفُه عند كل آية أسأله فيم نزلت، وكيف كانت». قال عنه قتادة: «أعلمُ مَنْ بقي بالتفسير مجاهد». توفي وهو ساجد سنة (١٠٣هـ)، وقد بلغ: (٨٣) سنة.
انظر: طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٦)؛ سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٩).

هو سحر[١].

٤ ـ الهَذَيان وفُحش القول:

بمعنى أنهم: هجروا فيه، أي: جعلوه كالهذيان، ومنه يقال: فلان يَهْجُر في منامه، أي: يهذي، والهُجْر: ما لا ينتفع به من القول[٢].

وتشهد له قراءة نافع: ﴿تُهْجِرُونَ﴾ بضمّ التّاء وكسر الجيم، في قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]. وهو الإفحاش في القول، وقول الخنا يقال: أهْجَرَ الرَّجلُ إذا أفحشَ في القول[٣].

«وفي هذه الشّكوى من التّخويف والتّحذير ما لا يخفى؛ فإنَّ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام إذا شكوا إلى الله قومهم عجّل لهم العذاب ولم يُنظروا»[٤].

وهذه الآية وإن كانت في المشركين، إلّا أنَّ العبرة بعموم لفظها، فنظمها الكريم مما يُرهِّب عموم المعرضين عن العمل بالقرآن، والأخذ بآدابه، وفي الآية كذلك التّحذير من هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه[٥].

لذا ينبغي لكلِّ مسلم ـ يخاف العَرْضَ على ربّه عزَّ وجلَّ يوم القيامة ـ أن يتأمّل هذه الآية الكريمة، ويُمْعن النَّظَر فيها مراراً وتكراراً؛ ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى، والطّامة الكبرى التي عمَّت جُلَّ بلاد المسلمين من هذه المعمورة، وهي: هجر القرآن الكريم[٦].

شبهة:

قد يقول قائل: إنَّ شكوى النّبي ﷺ هذه، تُشبه من ذي قبل شكوى نوح ﵇ من قومه، قال تعالى حكاية عن هذه الشّكوى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٦]. فكما أنَّ نوحاً ﵇ قصدَ أن يُنزل الله

(١) انظر: المصدر السابق (١١/ ١٤).
(٢) انظر: زاد المسير (٦/ ١٥)؛ روح المعاني (١٩/ ١٤).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ٤٠)؛ تفسير البغوي (٣/ ٣١٣).
(٤) روح المعاني (١٩/ ١٤).
(٥) انظر: تفسير القاسمي (٥/ ٣٤١ ـ ٣٤٢).
(٦) انظر: أضواء البيان (٧/ ٢٦٢).

تعالى العذاب على قومه بسبب عصيانهم له، فكذلك هنا. فكيف يليق ذلك بمَنْ وصفه الله تعالى بالرّحمة في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؟

ردُّها:

إنَّ نوحاً عليه السلام لمّا شكا قومه إلى ربّه دعا عليهم بالهلاك، كما جاء في السّورة نفسها: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

وأما محمد ﷺ لما بثُّ شكواه إلى ربّه ما دعا عليهم بل انتظر، فلمّا عزّاه الله تعالى وسلّاه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]. كان ذلك كالأمر له بالصّبر على جفاء قومه، فترَك الدُّعاء عليهم، فظهر الفرقُ بين الموقفين[1].

المطلب الثاني

السَمرُ الفاحِش

* قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦ ـ ٦٧].

لما بيّن تبارك وتعالى أنّ المُترفين من الكفار إذا أُخذوا بالعذاب ضجُّوا وصاحوا واستغاثوا، وبيّن أنهم لا يُغاثون، بيّن سببَ ذلك كلّه: أنّ آيات كتاب الله كانت تُتلى وتُقرأ عليهم في الدُّنيا، واضحة مُفصّلة، فكانوا يكذّبون بها.

بل رجعوا عنها القهقرى، مُولّين مدبرين عنها، كراهيةً منهم لسماعها. والعَقِب: مؤخّر القدم. والنُّكوص: الرُّجوع عن الأمر[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فهذا هو حال الإنسان إذا لم يؤمن بالقرآن، أنّه يتراجع القهقرى إلى

---

(١) انظر: التفسير الكبير، للرازي (٢٤/٦٨).

(٢) انظر: أضواء البيان (٥/٧٩٩).

الخلف؛ وذلك لأنّه باتّباعه للقرآن العظيم يتقدّم إلى الأمام، وإذا أعرض عنه تأخّر، ونزل إلى أسفل سافلين[١].

فبدل أن يمشي إلى الأمام ـ كما خلقه الله تعالى ـ إذا به يمشي للخلف على عقبه، وكأنّه أُخذ أخْذاً غيّر عنده دولاب سيره؛ لأنه عمي عن أسباب هدايته، فصار يتخبّط في متاهات الحياة على غير هدى، كمن يسير بظهره لا يعرف مواقع قدميه[٢].

وقد بيّن الله تعالى ـ في موضع آخر من القرآن ـ أنّ هؤلاء الكفار إذا تتلى عليهم آياته لم يقتصروا على النُّكوص عنها على أعقابهم، بل يكادون يبطشون بالذي يتلوها عليهم؛ لشدّة بُغضهم لها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

* وسبب كفرهم بالقرآن: هو استكبارهم، ولذا قال الله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]؛ ولأنّه يُذكّرهم بعيوبهم أيضاً.

فقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ منصوب على الحال.

والضّمير في: ﴿بِهِۦ﴾ «قال الجمهور[٣]: هو عائد على الحرم، أو المسجد، أو البلد الذي هو مكّة، وإن لم يتقدّم له ذكر لشهرته في الأمر؛ أي يقولون: نحن أهل الحرم فلا نخاف. وقيل: المعنى: أنّهم يعتقدون في نفوسهم أنّ لهم بالمسجد والحرم أعظمَ الحقوق على النّاس والمنازل، فيستكبرون لذلك، وليس الاستكبار من الحق.

وقالت فِرقةٌ: الضّمير عائد على القرآن من حيث ذُكرتْ الآيات؛ والمعنى: يُحدث لكم سماع آياتي كبْراً وطغياناً فلا تؤمنوا به. قال ابن عطيّة[٤]: «وهذا قول جيد»[٥].

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٣٦٤). (٢) انظر: تفسير الشعراوي (١٦/ ١٠٠٨١).
(٣) أي: جمهور المفسرين. وانظر: تفسير الشوكاني (٣/ ٧٠٣).
(٤) انظر: المحرر الوجيز (١١/ ٢٤٢). (٥) تفسير القرطبي (١٢/ ١٤٣).

و«قال الزَّجاج[١] رحمه الله: ويجوز أن تكون الهاء في ﴿بِهِۦ﴾ للكتاب، فيكون المعنى: تُحدث لكم تلاوتُه عليكم استكباراً»[٢].

* وقوله: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾[٣] منصوب على الحال، معناه: تهْجُرون سُمَّاراً، فالسَّامر هنا بمعنى السُّمَّار، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]. أي: أطفالاً.

فالسُّمَّار: هم الجماعة الذين يتحدَّثون باللَّيل، مأخوذ من السَّمَر، وهو: ظِلُّ القمر؛ ومنه سُمرة اللَّون. وكانوا يتحدَّثون حول الكعبة في سَمَر القمر؛ فسمِّي التَّحدُّث به.

إذاً كانت قريش تسمُرُ حول الكعبة مجالس في أباطيلها وكفرها، فعابهم الله بذلك[٤]. «وكان عامَّةُ سَمَرِهم ذِكْرَ القرآن والطَّعن فيه»[٥]، وتسميته سحراً وشعراً ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ قراءتان[٦]:

الأولى: قراءة نافع: ﴿تُهْجِرُونَ﴾: بضمِّ التَّاء. بمعنى: تُفحِشون في الكلام، وتقولون الخَنا. يقال: أهْجَرَ الرَّجل: إذا أفحَشَ في القول.

الثانية: قراءة الباقين: ﴿تَهْجُرُونَ﴾. بفتح التَّاء.

---

(١) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن السَّري، الزَّجاج، البغدادي، نحويُّ زمانِه، لزم المبرِّد، فكان يعطيه من عمل الزُّجاج كل يوم درهماً، له تآليف جمَّة منها: «معاني القرآن»، و«العروض»، و«الاشتقاق». توفِّي سنة (٣١١هـ).
انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٠).

(٢) زاد المسير (٥/ ٣٥٠).

(٣) * قرأ أُبيُّ بن كعب، وأبو العالية، وابن محيصن: «سُمَّراً» بضم السين، وتشديد الميم وفتحها، جمع سامر.
* وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري: «سُمَّاراً» برفع السين، وتشديد الميم، وألف بعدها. انظر: زاد المسير (٥/ ٣٠٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٥) تفسير الشوكاني (٣/ ٧٠٣).

(٦) انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص٢٢٣).

ولها وجهان في توجيهها:

الأول: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بمعنى: تُعرِضون عن الرّسول ﷺ، أو القرآن، أو البيت.

الثاني: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بمعنى: تهْذُون، من الهَذَيان، والكلام بما لا معنى له، ولا فائدة منه[1].

قال ابن جرير ﷺ: «وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا، القراءة التي عليها قُرّاء الأمصار، وهي فتح التّاء وضمُّ الجيم؛ لإجماع الحُجّة من القرّاء»[2].

«ولقد كانوا يُطلقون ألسنتهم بهجر القول وفُحشه في مجالسهم؛ وهم يتحلّقون حول الأصنام في سامرهم بالكعبة. فها هو ذا القرآن يرسم لهم مشهد حسابهم على ما هم فيه؛ وهم يجأرون طالبين الغوث، فيذكّرهم بسمرهم الفاحش، وهجرهم القبيح، وكأنّما هو واقع اللّحظة، وهم يشهدونه ويعيشون فيه! وذلك على طريقة القرآن الكريم في رسم مشاهد القيامة كأنّها واقعٌ مشهود»[3] وذلك في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤ ـ ٦٥].

المطلب الثالث

الإعراض عن القرآن

* قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

المراد بالذّكر:

يرى عامّة المفسّرين أنّ المراد بالذّكر هنا القرآن. ومن هؤلاء: البغوي، والقرطبي، والرّازي، وابن الجوزي، وابن القيّم، والشّوكاني، والسّعدي،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/٥٢ ـ ٥٣).
(٢) المصدر نفسه (١٠/٥٣).
(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٤/٢٤٧٣ ـ ٢٤٧٤).

وغيرهم[١]. قال البغوي[٢] رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾: «يعني القرآن، فلم يؤمن به ولم يتّبعه»[٣].

وقال ابن القيّم رحمه الله: «فَذِكْرُه: كلامُه الذي أنزله على رسوله. والإعراض عنه: ترك تدبُّره والعمل به»[٤].

المراد بالمعيشة الضَّنْك:

أكثر ما جاء في كتب التّفسير عن المعيشة الضَّنك: أنها عذاب القبر، وروي في ذلك آثار عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، رضي الله عنهم.

وأصل الضَّنك في اللُّغة: الضِّيقُ والشِّدَّة، يُقال: مَنزِلٌ ضَنْك، وعَيش ضنك، يستوي فيه الواحد والاثنان، والمذكَّر والمؤنَّث والجمع[٥].

وروى المفسِّرون في المعيشة الضَّنك خمسة أقوال[٦]:

أحدها: أنها عذاب القبر، وممّن قال بذلك: ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، والسُّدي.

الثاني: أنها ضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فيه، رواه عطاء عن ابن عباس.

---

(١) انظر هذه الأقوال ونسبتها، في معنى الذِّكر: تفسير البغوي (٣/ ١٤٥)؛ تفسير القرطبي (١١/ ٢٧٥)؛ التفسير الكبير (٢٢/ ١١٢)؛ زاد المسير (٦/ ٢٤٣)؛ الفوائد (ص١٦٥)؛ تفسير الشوكاني (٣/ ٥٦٠)؛ تفسير السعدي (٣/ ٢٥٨).

(٢) هو الحسين بن مسعود بن محمد بن الفرّاء البغوي (الشافعي) أبو محمد، المُلقب بمحيي السُّنة، كان إماماً في التّفسير والحديث والفقه، زاهداً ورعاً، وله تصانيف عديدة، قال الذَّهبي: «بُورك له في تصانيفه، ورزق فيها القبول التّام؛ لحسن قصده، وصدق نيّته». توفي بمرو الروذ من مدن خراسان سنة (٥١٦هـ). ومن تصانيفه: تفسيره المسمّى: «معالم التّنزيل»، و«شرح السُّنة»، وكتاب «التّهذيب في الفقه».
انظر: سير أعلام النُّبلاء (١٩/ ٤٣٩)؛ طبقات الشّافعية الكبرى، للسُّبكي(٤/ ٢١٤).

(٣) تفسير البغوي (٣/ ١٤٥).

(٤) الفوائد (ص١٦٥).

(٥) انظر: لسان العرب (٥/ ٩٣)، مادة: (ضنك).

(٦) انظر الأقوال في معنى المعيشة الضَّنك في: تفسير الطبري (٩/ ٢٨٢)، تفسير ابن كثير (٥/ ٣١٦)؛ زاد المسير (٥/ ٢٤٤)؛ تفسير القرطبي (١١/ ٢٧٦)؛ البحر المحيط، لأبي حيان (٦/ ٢٨٦)؛ تفسير الشوكاني (٣/ ٥٥٣).

الثالث: شدّة عيشه في النّار، رواه الضّحاك عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، وابن زيد.

الرابع: أنها كسب الحرام؛ لأنّ الحرام وإنْ اتّسع فهو ضنك، رواه الضّحاك عن ابن عباس، وبه قال عكرمة.

الخامس: أنها المال الذي لا يتّقي الله صاحبُه فيه، رواه العوفي عن ابن عباس.

قال ابن الجوزي(١) رحمه الله: «فخرج في مكان المعيشة ثلاثة أقوال:
أحدها: القبر، والثاني: الدُّنيا، والثالث: جهنَّم»(٢).

والصَّحيح في معنى المعيشة الضَّنك:

أنَّها عامَّة في الدُّنيا بما يُصيب المعرض عن القرآن من الهموم والغموم والآلام، والتي هي عذاب مُعَجَّل، وفي البرزخ، وفي الآخرة؛ لإطلاق المعيشة الضَّنك، وعدم تقييدها، وبه قال: الرّازي(٣)، وابن القيّم(٤)، والشّنقيطي(٥)، والسّعدي(٦).

قال الشّنقيطي(٧) رحمه الله: «واختلف العلماء في المراد بهذا العيش الضيّق على

---

(١) هو العلّامة الحافظ المُفسِّر: جمال الدِّين (أبو الفرج) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي الحنبلي، من نسل القاسم بن محمد بن أبي بكر الصِّدِّيق. كان يحضر مجلسه مئات الدّارسين، له مصنفات كثيرة بلغت: (٢٥٠) مصنفاً، ولد سنة (٥٠٨هـ)، وتوفي سنة (٥٩٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٥)؛ البداية والنهاية (١٣/ ٢٨).

(٢) زاد المسير (٥/ ٢٤٤).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٢/ ١١٢ ـ ١١٣).

(٤) انظر: مدارج السالكين (١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣)؛ الجواب الكافي (ص١٧٦ ـ ١٧٧).

(٥) انظر: أضواء البيان (٤/ ٥٩٥). (٦) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٢٥٨).

(٧) هو العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ولد سنة (١٣٠٥هـ) في شنقيط بموريتانيا، ويرجع نَسبُه إلى قبيلة حمير باليمن. كان مدرِّساً بالمسجد النبوي في المدينة النبوية، ودرّس في الرياض، وعُين في هيئة كبار العلماء بها، ومن مؤلفاته: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، و«مذكرة أصول الفقه»، و«دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب». توفي سنة (١٣٩٣هـ).
انظر: أضواء البيان (١/ ١٩ ـ ٣٩).

أقوال متقاربة، لا يُكذِّب بعضها بعضاً. وقد قدَّمنا مراراً: أنَّ الأولى في مثل ذلك، شمول الآية لجميع الأقوال المذكورة»[(١)].

«فقلوبُ أهل البدع، والمُعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي: في جحيم قبل الجحيم الأكبر، وقلوبُ الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الإنفطار: ١٣ ـ ١٤]. هذا في دُورهم الثلاث، ليس مختصاً بالدَّار الآخرة، وإن كان تمامه وكمال ظهوره: إنما هو في الدَّار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧١ ـ ٧٢].

وفي هذه الدَّار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاستغراق في سكرة الشَّهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التَّفكر فيه»[(٢)].

المراد بالعَمَى:

قال الله تعالى في المُعْرِض عن القرآن العظيم: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

واختلف أهل التَّأويل في بيان كيفيَّة حَشْرِ المُعْرِضِ أعمى يوم القيامة، وهل هو عمى البصيرة أم عمى البصر، على قولين:

القول الأوَّل: إنه أعمى البصيرة، بمعنى أنه: أعمى عن الحُجَّة، فلا حُجَّة له يهتدي بها؛ لأنه ليس للنَّاس على الله حُجَّةٌ بعد الرُّسل. وبه قال مجاهد. ورجَّحه الطَّبري[(٣)].

واستدلوا: بقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

وقوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٥٩٥). (٢) مدارج السالكين (١/ ٤٢٣).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٨٦)؛ زاد المسير (٥/ ٢٤٥).

[الشورى: ٤٥]. وقوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

ونظائر هذا مما يُثبت لهم الرؤية في الآخرة.

القول الثَّاني: إنه أعمى البصر، فلا يرى شيئاً.

واستدلوا: بأنَّ سياق الآية لا يدلُّ إلَّا على ذلك؛ لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥]. فقد صرَّح بأنَّ عماه هو العمى المقابل للبصر، وهو بصر العين؛ لأنَّ الكافر في الدُّنيا أعمى القلب، كما دلَّت على ذلك آياتٌ كثيرة من كتاب الله.

فإنه لمَّا أعرض عن الذِّكر الذي بعث الله به رسولَه وعميت عنه بصيرته: أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب، كما ترك الذِّكر في الدُّنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة.

واستدلُّوا أيضاً بمثل قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وصَوَّب هذا القول العلَّامةُ ابن القيم[١]، واختاره: السَّعدي[٢]، والشنقيطي[٣]، وابن عاشور[٤].

الجمع بين القولين:

وقد جمع العلَّامة ابن القيِّم بين القولين:

بأنَّ هناك حشرين: أحدهما: من القبور إلى الموقف. والآخَر: حشر من الموقف إلى دار المستقر.

وبيَّن أنَّ معنى الحشر هو: الضَّمُّ والجَمْع.

فالحشر الأوَّل: إلى موقف القيامة، وعليه تُحمل أدلَّة القول الأوَّل، فهم يسمعون ويُبصرون ويُجادلون ويتكلَّمون.

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (ص٤٦ ـ ٤٧).
(٢) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٣٥٨).
(٣) انظر: أضواء البيان (٤/ ٥٩٧).
(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٦/ ٢٠٠).

والحشر الثاني: يراد به الضَّمُّ والجمع في دار المستقر. فحَشْر المتَّقين: جمْعهم وضمُّهم في الجنَّة.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وحشر الكافرين: جَمْعهم وضمُّهم في النار، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٣]. فهذا هو الحشر الثَّاني، يُحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، وعليه تُحمل أدلة القول الثَّاني.

إذاً فلكلٍّ موقف حال يليق به، ويقتضيه عدل الرَّب تبارك وتعالى وحكمته، فالقرآن يُصدِّق بعضه بعضاً: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢][١].

ويدلُّ على ذلك أيضاً ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إذا أُخرج من القبر خرج بصيراً، فإذا سِيق إلى المحشر عَمِي»[٢].

ومثله قال الفرّاء[٣]: «يُقال إنَّه يخرج بصيراً من قبره، فيعمى في حشره»[٤].

وكذا قال الزجاج: «يخرجون بصراء في أول مرة، ويعْمون في المحشر»[٥].

فالكافر المُعرض عن القرآن يكون في حشره الأول أعمى البصيرة لا البصر. وفي حشره الثاني: أعمى البصر والبصيرة، نسأل الله العافية.

ويشهد لذلك ما جاء عن ابن كثير رحمه الله في قوله: «ويحتمل أن يكون المراد أنه يُحشر أو يُبعث إلى النّار أعمى البصر والبصيرة أيضاً»[٦].

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (ص٤٧ ـ ٤٨).

(٢) زاد المسير (٥/ ٢٤٥).

(٣) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الدّيلمي (أبو زكريا) الكوفي، النّحوي، صاحب الكسائي، يُعرف بالفرّاء؛ لأنه كان يفري الكلام كما قيل، وهو إمام أهل الكوفة وأعلمهم بالنّحو واللغة وفنون الأدب. كان يُقال: الفرّاء أمير المؤمنين في النحو، له تصانيف عديدة منها: «معاني القرآن»، و«المذكر والمؤنث»، و«مشكل اللغة». توفي بطريق الحج سنة (٢٠٧هـ). انظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١٤/ ١٤٩)؛ الأنساب، للسّمعاني (٩/ ٢٤٧)؛ سير أعلام النبلاء (١٠/ ١١٨).

(٤) معاني القرآن، للفرّاء (٢/ ١٩٤).

(٥) التفسير الكبير (٢٢/ ٩٩).

(٦) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٣٢).

المطلب الرابع

الظلم الاعظم

* قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

المراد بالآيات:

المراد بالآيات هنا: هو القرآن العظيم، في قول عامّة المفسّرين[١].

ولذلك رجع الضّمير إلى هذه الآيات مُذكّراً في قوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي القرآن المُعبَّر عنه بالآيات[٢].

فالله تبارك وتعالى يُخبر أنه لا أعظمَ ظلماً، ولا أكبرَ جُرماً، من عبدٍ ذُكِّرَ بآيات الله تعالى وبُيِّن له الحقُّ من الباطل، والهدى من الضّلال، وخُوِّف ورُغِّب ورُهِّب، فأعرض عنها[٣]، ولم يتذكّر بما ذُكِّر به، ونسي ما قدَّمت يداه من الكفر والمعاصي ولم يتفكّر في عاقبتهما[٤].

فهذا أعظم ظلماً من المُعْرِض الذي لم تأته آيات الله ولم يُذكَّر بها؛ لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم جُرماً ممّن ليس كذلك. ولذلك عاقبهم الله تعالى ـ بسبب إعراضهم عن القرآن العظيم ـ بأنْ سدّ عليهم أبواب الهداية، وجعل على قلوبهم أكنّة[٥]، وهي الأغطية المُحْكَمة التي تمنعهم من أن يفقهوا الآيات وإنْ سمعوها، فليس في إمكانهم الفقه الذي يصل إلى قلوبهم، وكذلك جعل في آذانهم وقْراً[٦]، أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٩٢)؛ تفسير أبي السعود (٥/ ٢٣٠)؛ زاد المسير (٥/ ١١٧).

(٢) انظر: تفسير النسفي (٣/ ١٩)؛ أضواء البيان (٤/ ١٥٥).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٣/ ١٦٧).

(٤) انظر: تفسير البيضاوي (٣/ ٥٠٦).

(٥) الأكنَّة: جمع كِنان، وهو الغطاء؛ لأنه يُكِنُّ الشيء، أي يَحْجُبه.

(٦) الوَقْرُ: ثِقَلُ السّمع المانع من وصول الصّوت إلى الصّماخ.
انظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٩٥).

فإذا كانوا بهذه الحال، فليس لهدايتهم سبيل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

ففي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحقّ بعد عِلمه، أنْ يُحال بينه وبينه، ولا يتمكّن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مُرهِّب وزاجر عن ذلك(١).

شبهة:

فإنْ قال قائل: إذا كانوا لا يستطيعون السَّمعَ ولا يفقهون؛ لأنَّ الله تعالى جعل الأكنَّةَ المانعة من الفهم على قلوبهم، والوَقْرَ المانع من السَّمع في آذانهم. فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟

ردُّها:

إنَّ الله تبارك وتعالى بيَّن في آيات كثيرة من كتابه العظيم: أنَّ هذه الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ـ كالختم، والطبع، والغشاوة، ونحوها ـ إنَّما جعلها عليهم جزاء وفاقاً، لِمَا بادروا إليه من الكفر، وتكذيب القرآن باختيارهم، فأزاغ الله قلوبهم بالطَّبع، والأكنَّة، ونحوها، جزاء على كفرهم.

فمن الآيات الدَّالة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. فهذا دليل واضح على أنَّ سبب إزاغة الله قلوبهم هو زيغهم السَّابق. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

---

* والوَقْرُ ـ بالفتح ـ الثِّقل في الأذن.
* والوِقْرُ ـ بالكسر ـ الحمْلُ. يُقال: جاء يَحْمِل وِقْرَه، وقد أوْقَرَ بَعِيرَه. وأكثر ما يستعمل الوِقْرُ في حِمْلِ البَغْل والحمار. انظر: مختار الصحاح (ص٣٤٣)، مادة: (وقر).
* وقد قال الله تعالى في ثِقَلِ الأذن: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].
* وقال في الحِمْل: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: ٢]. يعني: السُّحب التي تحمل ثِقلاً من الماء. انظر: تفسير البغوي (٤/٢٢٧)؛ أضواء البيان (٤/ ١٦٠).

(١) انظر: تفسير السعدي (٣/١٦٧ ـ ١٦٨).

فهذه الآيات وأمثالُها فيها وجهان معروفان عند العلماء:

أحدهما: أنها في الذين سبق لهم في علم الله أنهم أشقياء، عياذاً بالله تعالى.

الثَّاني: المراد أنَّهم كذلك ما داموا متلبِّسين بالكفر؛ فإنْ هداهم الله إلى الإيمان وأنابوا، زال ذلك المانع. وقد رجّح الشّنقيطي رحمه الله الأوّل[1].

المطلب الخامس

الوجوه العابسة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

المراد بالآيات:

قال ابن عاشور رحمه الله: «والآيات هي القرآن لا غيره من المعجزات؛ لقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾»[2].

وقد وُصفت آيات القرآن بأنها: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ لتفظيع حال من أنكرها مع وضوحها، إذْ ليس فيها ما يُعذر به منكروها[3]، فقد تضمَّنت: الدَّلائل العقليَّة، وبيان الأحكام[4].

المراد بالمُنكَر:

وللمفسِّرين في المُنكر أقوالٌ عدَّة، وهي من اختلاف التَّنوع لا التَّضاد، على النَّحو التَّالي:

١ ـ تعرف في وجوههم الكراهية للقرآن، قاله الكلبي[5].

٢ ـ التجبُّر والترفُّع، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[6].

---

(١) انظر: أضواء البيان (٤/١٥٨ ـ ١٦١).
(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١).
(٣) انظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٤) انظر: التفسير الكبير (٢٣/ ٥٩).
(٥) انظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٦) انظر: تفسير الشوكاني (٣/ ٦٧٠)، التفسير الكبير (٢٣/ ٥٩).

٣ ـ المنكر هنا بمعنى الإنكار، فالمعنى: أثر الإنكار من الكراهة، وتعبيس الوجوه[١].

٤ ـ الغضب والعبوس[٢].

٥ ـ الغمُّ والحزن والكراهية[٣].

٦ ـ وجوههم تتغيّر من سماعهم القرآن[٤].

٧ ـ أنكروا أن يكون من الله تعالى، قاله مقاتل[٥].

المراد بالسَّطْو:

السَّطوة: هي شدّة البطش. يقال: سطا عليه، وسطا به: إذا بطش به وتناوله بالعنف والشّدة[٦].

قال الفرّاء في قوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾: «يعني أهل مكّة، كانوا إذا سمعوا الرّجل من المسلمين يتلو القرآن كادوا يبطشون به»[٧].

فهذه الآية الكريمة تصوّر حال الكفار عند سماعهم للقرآن العظيم، فمن شدّة كراهيتهم لذلك ترى في وجوههم عبوساً وتقطيباً وغضباً وانفعالاً، يكاد أن يتحوّل هذا الأمر إلى الفتك بمن يقرأ عليهم القرآن[٨].

فهم لا يُناهضون الحُجّة بالحجّة، ولا يقرعون الدّليل بالدليل، إنما يلجأون ـ في مثل هذه الحالات ـ إلى العنف والبطش، عندما تعوزهم الحجّة، ويخذلهم الدّليل[٩].

قال الشّوكاني[١٠] رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهكذا ترى أهل البدع المُضلّة إذا سمع الواحد

---

(١) انظر: زاد المسير (٥/ ٣٢٨)؛ التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٠٢).
(٣) انظر: تفسير السمرقندي (٢/ ٤٧٠).
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢٥٤).
(٥) انظر: التفسير الكبير (٢٣/ ٥٩).
(٦) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٠٢)؛ زاد المسير (٥/ ٣٢٨).
(٧) لسان العرب (٦/ ٢٦٠)، مادة: (سطو).
(٨) انظر: تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩٢٨).
(٩) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٣).
(١٠) هو الإمام محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، الفقيه المجتهد. أحد كبار

منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز، أو من السنّة الصّحيحة مخالفاً لما اعتقده من الباطل والضّلالة، رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكّن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف»[١].

وهذا بخلاف حال المؤمنين الصّادقين، المنقادين للكتاب والسنّة، فهم حال سماعهم للقرآن العظيم ازدادوا إيماناً مع إيمانهم، كما قال الله تعالى مادحاً لهم: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]. نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

جزاء مَنْ هَجَرَ القرآن:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ [الحج: ٢٧] أي: هل أخبركم بأشدَّ عليكم وأكره إليكم من سماع القرآن[٢]. ﴿ٱلنَّارِ﴾ [البروج: ٥] إنها النّار التي ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحج: ٧٢] في يوم القيامة ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥] فبئس الموضع الذي يصير إليه مَنْ هجر القرآن الكريم.

وشرّ: اسم تفضيل، أصله أشرّ. أي: إن سألتم عن الذي هو أشدُّ شراً فاعلموا أنه النّار[٣].

مالي أراكم مغتاظين من سماع آيات الله كارهين لها، أمجرَّد سماع آيات القرآن يفعل بكم هذا كلُّه؟ فما بالكم حينما تباشرون النّار في الآخرة.

فالذي ينالكم من النّار ـ التي تكادون تقتحمونها بسوء أفعالكم ـ أعظم ممّا ينالكم ـ عند تلاوة هذه الآيات ـ من الغضب ومن هذا الغم[٤].

واستُعملت كلمة: ﴿وَعَدَهَآ﴾ على سبيل الاستهزاء بهم والتّقليل من شأنهم؛

= علماء اليمن، ولد بهجرة شوكان، ونشأ بصنعاء وولّي قضاءها. له مؤلفات كثيرة، أشهرها: «فتح القدير»، و«نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار»، و«السيل الجرار»، و«البدر الطالع»، توفي سنة (١٢٥٠هـ).
انظر: البدر الطالع (٢/ ٢١٤)، الأعلام (٦/ ٢٩٨).

(١) تفسير الشوكاني (٣/ ٦٧١).
(٢) انظر: زاد المسير (٥/ ٣٢٨).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٢).
(٤) انظر: التفسير الكبير (٢٣/ ٥٩).

لأنَّ الوعد دائماً يكون في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤]. فحين أن يسمع البُشْرى يستشرف للخير، فيفاجئه العذاب، فيكون أنكى له.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]. فإنَّ انقباض النَّفْس ويأسها ـ بعد بوادر الانبساط ـ أشدُّ من العذاب ذاته[1].

المطلب السادس

الاستكبار على القرآن

* قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّ الكافر إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولَّى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم[2].

وقوله: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: متكبِّراً عن قبولها، فإعراضه إعراض استكبار، لا إعراض تفريط في الخير فحسب[3]، فهي لم تدخل قلبه، فضلاً أنْ تؤثر فيه.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ «في محل نصب على الحال: أي كأنَّ ذلك المُعرض المستكبر لم يسمعها، مع أنَّه قد سمعها، ولكن أشبهت حالُه حالَ مَنْ لم يسمع»[4].

﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾: أي: ثِقَلاً، فلا يسمع القرآن. ففيه مبالغةٌ في إعراض ذلك المُعرض، فهذا لا حيلة في هدايته؛ لأنه مُتكبِّر مُعرض.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: فليس له إلَّا العذاب المؤلم لقلبه وبدنه في الآخرة، كما تألَّم بسماع القرآن العظيم في الدُّنيا، فهذه بشارة المستكبرين المعرضين، الذين هجروا كتاب الله، فلا نِعْمَتِ البشارة[5].

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩٢٩).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٩).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢١/ ٩٢).
(٤) تفسير الشوكاني (٤/ ٣٣٤).
(٥) انظر: تفسير السعدي (٤/ ١٠٤).

المطلب السابع

اللغو الباطل

* قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

المراد بعدم سماعه:

جاءت أقوال المفسّرين (في المراد بعدم سماع الكفّار للقرآن) متقاربة كما يلي:

١ ـ لا تتّبعوا هذا القرآنَ والْهَوْا عنه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[1].

٢ ـ لا تُطيعوا، يُقال: سمعتُ لك، أي أطعتُك[2].

٣ ـ لا تطمئنوا أو تركنوا[3].

والمقصود من ذلك كلّه: لا تسمَعوا لقارئ هذا القرآنِ إذا قرأه، ولا تصغوا له، ولا تتّبعوا ما فيه، وهو نتيجةٌ لعدم السّماع، وإنْ سمعتموه فلا تطيعوه، ولا تركنوا إليه.

المراد باللّغو فيه:

«اللّغو: القول الذي لا فائدة فيه، ويُسمّى الكلام الذي لا جدوى له لغواً»[4].

وممّا جاء عن المفسّرين في (لغو الكافرين) في القرآن ما يلي:

١ ـ هو المكاء والتّصفير والتّخليط في المنطق حتى يصير لَغْواً، قاله مجاهد[5].

٢ ـ أكثِروا الكلامَ ليختلطَ عليه ما يقول، قاله الضّحاك[6].

٣ ـ تشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٣٦).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٤٠).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٥/ ٤٦).
(٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٥) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٣٧).
(٦) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٤٠).

والكلمات الباطلة، حتى تخلطوا على القارئ وتشوّشوا عليه، وتغلبوا على قراءته[١]. وتلك هي عادة وطبيعة الإعلام المادّي اليوم، والذي تبنّى النّزعات القديمة إزاء القرآن بما يُشبه أن يكون تطويراً للأسلحة.

أسلوب خسيس:

والمراد بالذين كفروا هنا: هم أئمة الكفر يُخاطبون عامّتهم ويوصونهم. إنها كلمة يَغرُّون بها الجماهير، فقد علم أئمة الكفر: أنّ القرآن كلام الله تعالى. إذاً هو كامل في المعنى واللّفظ، وأنّ كلّ منْ سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط عقله بمعانيه، وقضى عقله بأنّه كلامٌ حقٌّ واجبُ القبول، فدبّروا تدبيراً في منع الناس عن استماعه[٢]، فاتّخلوا قرارهم المشين: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾.

وهذا هو حال دعاة الضّلال والباطل في إسكات النّاطقين بالحقّ والحجّة، فمن أساليبهم التّخويف والتّهويل، والتّرهيب والتّرغيب، ولا يتركون الناس يتجادلون بالحجّة البيّنة، ويتناظرون بالأدلّة القاطعة؛ لأنهم يوقنون أنّ حجّة خصومهم أنهضُ، فهم يغالبونها بالبهتان والتّضليل.

فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحقّ تخفق، وخشُوا أن يعُمّ نورُها الناس، عدلوا إلى لغو الكلام، ونفخوا في أبواق اللّغو لعلّهم يغلبون بزعمهم[٣].

إنّهم بفعلهم هذا يلجأون إلى وسيلة خسيسة تُنبئ عن هزيمتهم الدّاخلية، واضطرابهم النّفسي أمام حقائق القرآن، واعترافهم - الضّمني الملحوظ - بعجزهم عن مواجهته، وفشلهم في محاربته.

إنهم يطلبون من الجماهير المخدوعة ألّا تسمع لهذا القرآن، وتستعيض عن ذلك باللّغو والصّياح والضّجيج، والتّظاهرة الإعلامية؛ لعلهم يُغطّون نور الشّمس برقعة منديل.. وهيهات هيهات!![٤].

فهذه حال هؤلا الجهلة من الكفار، ومنْ سلك مسلكهم عند سماع القرآن العظيم.

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٢٧/١٠٣)؛ التحرير والتنوير (٢٥/٤٦).
(٢) انظر: التفسير الكبير (٢٧/١٠٣). (٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٥/٤٥).
(٤) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص٢٥).

موقف المؤمنين:

وقد أمر الله عباده المؤمنين بخلاف هذا الفعل المشين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وأهل الكفر حين فعلوا ما فعلوا غاب عن أذهانهم أن القرآن منتصر. ومَنْ تدبَّر العواقب أيقن - يقيناً لا شكّ فيه - أنَّ كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السُّفلى. فلمن كانت الغلبة بعد قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]؟![1].

المطلب الثامن

التّقسيم الجائر

* قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩١].

المراد بالمقتسمين:

اختلف أهل التأويل في المراد بالمقتسمين على عدّة أقوال، أوصلها القرطبي[2] إلى سبعة، وأوردها في تفسيره[3].

قال الشّنقيطي رحمه الله: «في المراد بالمقتسمين أقوالٌ للعلماء معروفة، وكلٌّ واحد منها يشهد له قرآن؛ إلّا أنّ في الآية الكريمة قرينةً تُضْعف بعض تلك الأقوال»[4].

والقرينةُ - التي ذكرها الشّنقيطي في الآية الكريمة - تُقَوِّي قولين اثنين، من هذه الأقوال، هما الأقرب إلى الصّواب، وهما على النحو الآتي:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/١٧٣)؛ حديث القرآن عن القرآن، لمحمد الراوي (ص٣٦٠).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح القرطبي، الأنصاري، الخزرجي، المالكي، من العلماء الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بالآخرة. كتابه: «الجامع لأحكام القرآن» من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً، ومن كتبه المشهورة: «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة». توفي سنة (٦٧١هـ). انظر: طبقات المفسرين (٢/٦٩).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٠/٦٣).

(٤) أضواء البيان (٣/١٧٨).

القول الأول: إنَّ المراد بالمقتسمين: اليهود والنَّصارى، وإنَّما وُصِفوا بأنهم مقتسمون؛ لأنهم اقتسموا كتبهم، فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها.

ويدلُّ لذلك: قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

بل اعترفوا أنفسهم بهذا: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠].

وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنهم اقتسموا القرآن، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه[(١)].

القول الثاني: إنّ المراد بالمقتسمين: جماعةٌ من كفار مكّة اقتسموا القرآن بأقوالهم الكاذبة، فقال بعضهم: هو شعر، وقال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: كهانة، وقال بعضهم: أساطير الأوّلين، وقال بعضهم: اختلقه محمد ﷺ.

وهذا القول تدلُّ له الآيات الدَّالة على أنَّهم قالوا في القرآن العظيم تلك الأقوال المفتراة الكاذبة، من مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]. وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]. وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]. وقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]. وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١ ـ ٤٢]. والآيات في هذا الباب كثيرة.

ومقتضى كلام العلّامة الشّنقيطي رحمه الله: إنَّ القرينة في الآية الكريمة تُؤيِّد القولَ الثّاني، ولا تُنافي القولَ الأوّل؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]. أظهر في القولِ الثاني؛ لجعلهم له أعضاءً متفرّقة بحسب اختلاف أقوالهم الكاذبة، كقولهم: سحر، شعر، كهانة، أساطير الأولين، وهكذا.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/٧٨ ـ ٧٩)؛ زاد المسير (٤/٣١٨).

وكذلك بالنسبة للقول الأوّل ـ على أنهم أهل الكتاب:

فالمراد بالقرآن: كتبهم التي جزّؤوها فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها. وسمّيت قُرآناً؛ لأنها كتبٌ مقروءة فيصدق هذا الوصف على التّوراة والإنجيل(١).

أو المراد بذلك: القرآن نفسه؛ لأنهم آمنوا بما وافق هواهم منه، وكفروا بغيره(٢).

وجمهور المفسّرين على أنّ المراد بالقرآن: هو الذي أُنزل على نبيّنا محمد ﷺ، وليس المقصود به كتب المتقدّمين قبلنا(٣).

المراد بِعِضِين:

وقد ذَكَر الله تعالى صفة المقتسمين في الآية التّالية بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١].

* وفي ﴿عِضِينَ﴾ قولان للمفسرين:

القول الأول: هم الذين جَعلوا القرآن فِرَقاً مُتفرِّقة.

قال ابن عباس في قوله: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ قال: «فِرَقاً»(٤).

وقال قتادة(٥): «عَضَّهوا كتابَ الله: زعمَ بعضُهم أنه سِحْرٌ، وزعم بعضُهم أنه شِعْر، وزعم بعضُهم أنه كِهانة، وزعم بعضُهم أنّه أساطير الأوّلين»(٦).

وعلى هذا القول: تكون ﴿عِضِينَ﴾ جَمْعُ: عُضْو. وهو مشتق من قولك: عَضَّيتُ الشّيءَ تعضيةً. إذا فَرّقتُه. كما قال رؤبة بن العجّاج(٧):

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٣/ ٦٨).
(٢) انظر: أضواء البيان (٣/ ١٧٨ ـ ١٧٩).
(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ٣١٨).
(٤) تفسير الطبري (٨/ ٨٢).
(٥) هو التّابعي الجليل (أبو الخطاب) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي، البصري، الضرير الأكمه، المُفسِّر، كان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب والنسب، كان أحفظ الناس، لا يسمع شيئاً إلّا حفظه، وله تفسير، توفي بواسط في الطاعون سنة (١١٧هـ) انظر: تذكرة الحفّاظ، للذهبي (١/ ١٢٢)؛ طبقات المفسرين (٢/ ٤٧).
(٦) تفسير الطبري (٨/ ٨٢).
(٧) هو رؤبة بن عبد الله العجّاج بن رؤبة التّميمي السعدي، أبو الجحّاف، أو أبو محمد، راجز، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدّولتين الأموية والعبّاسية. كان أكثر مقامه بالبصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجّون بشعره، ويقولون بإمامته في

وليس دِينُ اللهِ بالمُعَضَّى[1]، أي: ليس الدِّينُ مجزَّءاً مُفرَّقاً.

القول الثاني: المراد بقوله ﴿عِضِينَ﴾: السِّحر. ومفردها: عَضَهْ: وهي السِّحر.

والعَضْه: السِّحر بلسان قريش، ويُقال للساحرة: العاضهة.

فالمعنى: جعلوا القرآن سحراً، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

وقوله: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ [القصص: ٤٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد رجّح الإمام الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ القولَ الأول.

فقال: «والصَّواب من القول في ذلك أنْ يُقَال: إنَّ الله تعالى ذِكْره، أمر نبيَّه ﷺ أن يُعْلِمَ قوماً عَضَهُوا القرآن: أنه لهم نذير من عقوبة تنزل بهم؛ بِعَضْهِهِمْ إيّاه، مثل ما أنزل بالمقتسمين[2]، وكان عَضْهُهُمْ إيّاه: قَذْفُهُموه بالباطل، وقِيلِهم إنه شعر وسحر، وما أشبه ذلك»[3].

وعلى كلِّ حال: فإن هذه الآية الكريمة تشمل كلَّ منْ اقتسم كتابَ الله، بتكذيب بعضه وتصديق بعضِه، وارتكب ما نهاه الله عنه. فحاله هذه تشبه حال اليهود والنَّصارى الذين قسَّموا كتبهم المنزَّلة عليهم أقساماً، وجزَّؤوها أجزاءً، فآمنوا ببعضٍ منها وكفروا ببعض؛ اتِّباعاً لشهواتهم وأهوائهم.

= اللُّغة، مات في البادية، سنة (١٤٥هـ)، وقد أسنّ. وفي الوفيّات: «لمّا مات رؤبة قال الخليل: دفنّا الشِّعر والفصاحةَ واللُّغة». انظر: وفيّات الأعيان، لابن خلّكان (١/ ٢٣٤ ـ ١٣٥)؛ معجم الشعراء، للمرزباني (ص١٢١).

(١) ديوانه: (٨١) من أرجوزة يمدح بها تميماً وسعداً ونفْسَه، مطلعُها:

دايَنْتُ أروى والدُّيونُ تُقْضَى

وانظر: تفسير الطبري (٨/ ٨٣)؛ زاد المسير (٤/ ٣١٩)؛ لسان العرب (٩/ ٢٦٤)، مادة: (عضا).

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٨٩ ـ ٩١].

(٣) تفسير الطبري (٨/ ٨٤).

وهذا ينصرف إلى المسلمين الذين يُجزِّئون القرآن ويقسِّمونه، ويأخذون منه حُكْماً ويتركون أحكاماً، تبعاً لمصالحهم الدُّنيوية، فهذا من أعظم أنواع هجر القرآن الكريم[١].

---

(١) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص٢٤).

المبحث الثاني

الأحاديث الدَّالة على ذَمِّ هجر القرآن

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: تعجُّل أجر القرآن.

المطلب الثاني: عدم الانتفاع بقراءة القرآن.

المطلب الثالث: القرآن بَيْنَ الجدال فيه والجدال عنه.

المطلب الرابع: اتِّباع المتشابه وترك المُحكم.

المطلب الخامس: ترك قراءة القرآن في البيوت.

المطلب السادس: أحوال المنافق مع القرآن.

المطلب السابع: ترك التَّغنِّي بالقرآن.

الأحاديث الدّالة على ذم هجر القرآن

من صور هجر القرآن:

إنَّ هجر القرآن الكريم له مظاهر عِدَّة، منها: التّأكُّل به، واستعجال ثوابه في الدُّنيا دون الآخرة، ومنها المباهاة بتلاوته وحفظه، وعدم التّعبد لله تعالى بهذه التّلاوة وهذا الحفظ، ومنها الاكتفاء بتلاوة القرآن دون فهمه وتعقُّله والعمل به، فهي قراءةٌ لا تتجاوز الحلوقَ والحناجر.

والجدالُ والمراء في القرآن الكريم من أعظم مظاهر هجره؛ لأنّ مُؤدّاه إلى الكفر، وتفريق صفّ المؤمنين، وتشكيكهم في أصل دينهم وأساسِه كتابِ الله تعالى.

ومن أبرز مظاهر هجر القرآن كذلك: اتّباعُ المتشابه وترك المُحْكم بقصد فتنة النّاس وصدّهم عن دينهم، والتّلبيس عليهم في ذلك.

ولقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ عن المصطفى ﷺ تتحدّث عن مظاهر متنوّعة لهجر القرآن العظيم، وسيكون الكلام عن بعض الأحاديث النّبوية المباركة التي بيَّنت أنواعاً من مظاهر هجر القرآن تحذيراً منها وذمّاً لها، وهي على النّحو التّالي:

المطلب الأول

تعجُل أجر القرآن

إنَّ كثيراً من قُرَّاء القرآن وحفَّاظه لا يقرؤون القرآن إلَّا لجمع حطام الدُّنيا، فيتلونه في المناسبات المختلفة؛ كالحفلات والمآتم وليالي رمضان، وبعضهم يتعلَّم القراءات لأجل المعيشة، ولأجل أن يرغب فيه النَّاس أكثر من غيره، ولو سألتَ الواحدَ منهم عن معنى كلمة أو آيةٍ لوَقَف عاجزاً مدهوشاً من هذا السُّؤال، وهذا من أبرز أنواع هجر القرآن، فإنَّ القرآن العظيم أنزله الله تعالى للتَّدبر والتَّعقل ثم للعمل به، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

١ ـ وقد كان النَّبي ﷺ يحثُّ أصحابَه على إخلاص النِّية لله تعالى في تعلُّم القرآن وتعليمه، ويحذِّرهم من استعجال الأجر في الدُّنيا من مال أو جاه أو منصب وعدم احتساب ذلك في الآخرة:

فعن سهلِ بنِ سعدِ السَّاعدي رضي الله عنه، قال: خَرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ يوماً، ونحن نقترئ[(١)] فقال: «الحمدُ لله، كتابُ الله واحدٌ، وفيكم الأحْمَرُ وفيكم الأبيَضُ[(٢)] وفيكم الأسْوَدُ[(٣)]، اقْرَؤوهُ قَبْل أنْ يَقْرَأَهُ أقوامٌ يُقيمُونَهُ كما يُقَوَّمُ السَّهْمُ[(٤)] يَتَعَجَّلُ أجْرَهُ ولا يتَأجَّلُهُ[(٥)]»[(٦)].

---

(١) قوله: «ونحن نقترئ» أي: نحن نقرأ القرآن، من باب الافتعال من القراءة.
انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/ ٤٢).

(٢) قوله: «وفيكم الأحمر وفيكم الأبيض» كناية عن العجم؛ لأن الغالب على ألوانهم البياض والحمرة.

(٣) قوله: «وفيكم الأسود» كناية عن العرب؛ لأن الغالب على ألوانهم الأدْمَةُ، والأدْمَةُ: قريبة من السواد.

(٤) قوله: «يقيمونه كما يُقَوَّمُ السَّهم» أي: يُحَسِّنون النُّطق به.

(٥) قوله: «يَتَعَجَّلُ أجْرَهُ ولا يتَأجَّلُهُ» أي: يطلب بذلك أجر الدنيا من مال وجاه ومنصب، ولا يطلب به أجر الآخرة.
انظر: جامع الأصول، لابن الأثير (٢/ ٤٥٠ ـ ٤٥١).

(٦) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب: ما يُجزئ الأمي والأعجمي من القراءة (١/ ٢٢٠) =

٢ ـ وكان النبي ﷺ يؤكّد دوماً على ابتغاء وجه الله تعالى في تعلُّم القرآن وتعليمه، ويحذِّر من ضد ذلك:

فعن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: دَخَلَ النَّبي ﷺ المسجدَ، فإذا فيه قومٌ يَقرَؤُونَ القُرآنَ، قال: «اقْرَؤُوا القُرآنَ، وابْتَغُوا به اللهَ مِن قَبْلِ أن يَأتِيَ قَوْمٌ يُقِيمونَه إقَامَةَ القِدْحِ، يَتَعَجَّلُونَه ولا يَتَأجَّلُونَه»(١).

فقد أخبر النَّبي ﷺ عن مجيء أقوام بعده يُصلحون ألفاظ القرآن وكلماته ويتكلَّفون في مراعاة مخارجه وصفاته، كما يُقام القِدْح ـ وهو السَّهْم قبل أنْ يُعمل له رِيشٌ ولا نَصْلٌ ـ والمعنى: أنَّهم يُبالغون في عمل القراءة كمالَ المبالغة؛ لأجل الرِّياء والسُّمعة والمباهاة والشُّهرة.

فهؤلاء تعجَّلوا ثواب قراءتهم في الدُّنيا ولم يتأجَّلوه بطلب الأجر في الآخرة، إنهم بفعلهم يؤثرون العاجلة على الآجلة ويتأكَّلون بكتاب الله تعالى(٢)، وهذا من أعظم أنواع هجر القرآن الكريم، فبئس ما يصنعون.

٣ ـ وربَّما حثَّ النَّبي ﷺ أصحابَه الكرام ﷺ على طلب الجنة جزاء تعلُّمهم القرآن، وحذَّرهم من إرادة الدُّنيا في ذلك، كمباهاة النَّاس والتَّأكُّل به:

فعن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ، عن النَّبي ﷺ قال: «تَعَلَّموا القرآنَ، وَسَلُوا اللهَ بِهِ الجنَّةَ، قَبْلَ أنْ يَتعَلَّمَهُ قَوْمٌ، يَسْألُونَ به الدُّنيا، فَإنَّ القُرآنَ يَتَعَلَّمُهُ ثلاثَةٌ: رَجُلٌ يُباهِي بِهِ، وَرَجُلٌ يَستأكِلُ بِهِ، وَرَجُلٌ يَقرَأُهُ لله»(٣).

٤ ـ وكان ﷺ يحثُّهم أيضاً على سؤال الله تعالى بالقرآن، وعدم سؤال النَّاس شيئاً بقراءة القرآن:

= (ح٨٣١). وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ١٥٧) (ح٧٤١): «حسن صحيح».

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٥٧ (ح١٤٨٩٨). وقال محققو المسند (٢٣/ ١٤٤) (ح١٤٨٥٥): «حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات غير أسامة بن زيد، فحسن الحديث». وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع»: (١/ ٢٥٨) (ح١١٦٧).

(٢) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/ ٤٢).

(٣) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن»، باب: القارئ يستأكل بالقرآن (ص٢٠٦)، وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة»: (١/ ١١٨ ـ ١١٩) (ح٢٥٨).
وقال: «وللحديث شواهد أخرى تؤيد صحته عن جماعة من الصحابة».

فعن عمران بن حصين ﷺ، أنه مَرَّ عَلَى قَارِئٍ يقْرَأُ[١]، ثُمَّ سأَلَ[٢] فَاسْتَرْجَعَ[٣]، ثُمَّ قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَرَأَ القُرآنَ فَلْيَسْأَلِ اللهَ به، فإنَّهُ سَيَجِيءُ أقوامٌ يَقْرَؤونَ القُرآنَ يَسْأَلونَ بِهِ النَّاسَ»[٤].

بَيَّنَ المباركفوري[٥] ﷺ معنى قوله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ القُرآنَ فَلْيَسْأَلِ اللهَ به» فقال: «أي: فَلْيَطْلُبْ من الله تعالى بالقرآن ما شاء من أمور الدُّنيا والآخرة.

أو المرادُ أنَّه إذا مَرَّ بآية رحْمَةٍ فليسألها من الله تعالى، أو بآية عقوبة فليتعوَّذ بالله منها.

وإمَّا أن يدعو اللهَ عَقيب القراءة بالأدعية المأثورة، وينبغي أن يكُونَ الدُّعاءُ في أمْرِ الآخرة، وإصلاح المسلمين في معاشهم ومعادهم»[٦].

والأحاديث السَّابقة تحمل في ثناياها ذمّاً لهذه الطَّائفة من النَّاس الذين يتعلمون القرآن؛ للتَّكسُّب، والشُّهرة، وطلب الدُّنيا على الآخرة.

---

(١) أي: يقرأ القرآن.

(٢) أي: طَلَب القارئ من الناس شيئاً من الرِّزق لقراءته القرآن.

(3) أي: قال عمران ﷺ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]؛ لابتلاء القارئ بهذه المصيبة، وهي سؤال النَّاس بالقرآن، أو لابتلاء عمران ﷺ بمشاهدة هذه الحالة الشَّنيعة، وهي من أعظم المصائب.
انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري (٨/ ٢٣٥).

(٤). رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في تعليم القرآن (٥/ ١٧٩) (ح٢٩١٧). وقال: «حديث حسن». وحسنه الألباني أيضاً في «صحيح سنن الترمذي»: (٣/ ١٠) (ح٢٣٣٠).

(٥) هو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بهادر المباركفوري، مُحدِّث ولد بقرية مباركفور ـ من توابع أعظم كدة ـ بالهند سنة (١٢٨٣هـ)، وقرأ بالعربية وبالفارسية وبالأردية، ورحل إلى البلاد القريبة منه، وقرأ على جماعة، كان ورعاً، إماماً في السُّنَّة، أوذي في الله كثيراً فصبر، وقد أسَّس عدَّة مدارس، درَّس فيها بنفسه، ثم اعتزل في بيته، وانقطع للتأليف، وانتفع به خلق كثير. ومن آثاره: «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي»، وغيره من المؤلفات. توفي في موطنه مباركفور سنة (١٣٥٣هـ).
انظر: معجم المؤلفين (٣/ ٣٩٤). راجع ترجمته بتوسع في: مقدمة تحفة الأحوذي (ص٦١٥ ـ ٦٣٤).

(٦) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٨/ ٢٣٥).

المطلب الثاني

عدم الانتفاع بقراءة القرآن

١ - حذَّر النبيُّ ﷺ أصحابه من أفعال طائفةٍ تأتي مِنْ بعدهم يقرؤون القرآن، غير أنَّ القراءة لا تتعدَّى حناجرهم، وتبقى في حيِّز الأصوات بلا عمل فقال: «يَخْرُجُ[١] في هذه الأمَّة - ولم يقل منها - قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مَعَ صَلاتِهِمْ، يَقْرَؤُونَ القُرآنَ لا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أو حَنَاجِرَهُمْ[٢]، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّين مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[٣].

والمراد بإخبار النَّبي ﷺ عن هؤلاء أنَّ قراءتهم لا تجاوز حُلوقهم أو حناجرهم:

قيل: إنَّ قراءتهم للقرآن لا يرفعها الله تعالى ولا يقبلها، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. فأخبر الله تعالى أنَّ العمل الصَّالح الموافق للقول الطَّيب، هو الذي يرفع القولَ الطَّيب[٤].

وقيل: المراد أنَّهم لا يعملون بالقرآن فلا يُثابون على قراءتهم، فلا حظَّ لهم من القرآن إلَّا سرْده[٥].

ولذلك قال النَّووي رَحِمَهُ اللهُ: «ليس حظُّهم من القرآن إلَّا مروره على اللِّسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقُّله وتدبُّره بوقوعه في القلب»[٦]. والتَّعقل والتَّدبر يقود إلى العمل.

---

(١) أجمع أهل العلم: على أنَّ هؤلاء هم طائفة الخوارج الذين قاتلهم عليٌّ رضي الله عنه، وذكر بعضهم: أنَّهم بهذا اللَّفظ سُمُّوا الخوارج.
انظر: تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك، للسيوطي (١/ ١٦٢).

(٢) الحناجر: جمع حنجرة، وهي آخر الحلق مِمَّا يلي الفم.

(٣) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدِّين والمعاندين وقتالهم، باب: قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحُجَّة عليهم (٤/ ٢١٦٤) (ح٦٩٣١).

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٢/ ٢٩٩).

(٥) انظر: تنوير الحوالك (١/ ١٦٢).

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ١٠٥).

فرسول الله ﷺ يدعو الأمة إلى العمل بالقرآن بعد قراءته وفهمه، لا إلى الاقتصار على القراءة فحسب، فيفعلون كما فعل الخوارج، وكما فعل بنو إسرائيل من قبل، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. «والأمانيُّ: جمْعُ أُمْنِيَةٍ وهي التّلاوةُ»[١].

وأكثر المسلمين اليوم ـ مع الأسف ـ لا حظّ لهم من القرآن إلّا تلاوته، وهذا من هجر القرآن الكريم ولا ريب.

٢ ـ وقد أكّد النبيُّ ﷺ في أكثر من مناسبة على أنّ السّبب الرّئيس في سرعة خروج هؤلاء الخوارج من الدّين: هو عدم فقههم القرآن من جهة، وتركهم العملَ بأوامره والنّهي عن زواجره من جهة أخرى، ويحسبون أنّهم على شيء؛ بسبب كثرة أعمالهم التي يعملونها، مع عدم ضبطها بضابط الشّرع والحكمة والفقه في الدّين، فكأنّهم لم ينتفعوا بقراءتهم للقرآن، وبهذه الأعمال الكثيرة.

فعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أنّه قال: سمعْتُ رسُول الله ﷺ يقُولُ: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُون صَلاتَكُمْ مَعَ صَلاتِهِم، وصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وعَمَلَكُمْ مع عَمَلِهِمْ، ويقْرَؤُونَ القُرآنَ لا يُجَاوِزُ حناجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ[٢] كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ[٣]، يَنْظُرُ في النَّصْلِ فَلَا يَرَى شَيْئاً، ويَنْظُرُ في القِدْحِ[٤] فَلَا يَرَى شَيْئاً، ويَنْظُرُ في الرِّيشِ فَلَا يَرَى شيئاً، ويَتَمَارَى في الفُوقِ[٥]»[٦].

والشّاهد من الحديث: «إنّ هؤلاء يخرجون من الإسلام بغتةً كخروج السّهم إذا رماه رام قويُّ السّاعد، فأصاب ما رماه، فنفذ منه بسرعة، بحيث لا يتعلّق بالسّهم، ولا بشيء منه من المرمى شيء، فإذا الْتمس الرّامي سهمه لم يجده علق بشيء من الدّم ولا غيره»[٧].

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٦).
(٢) المروق: هو الخروج، وقيل: هو الخروج السّريع.
(٣) الرَّمِيَّة: هي الطّريدة من الصيد. (٤) القِدْح: هو خشب السّهم.
(٥) (يتمارى في الفُوق): الفُوق: موضع الوتر من السهم. والمراد: يتشكّكُ هل علق به شيء من الدم.
(٦) رواه مسلم، كتاب الزّكاة، باب: التّحريض على قتل الخوارج (٢/ ٧٤٨) (ح١٠٦٦).
(٧) تنوير الحوالك (١/ ١٦٢).

وهو تمثيل بالغ الوضوح منه ﷺ ـ الذي أُوتي جوامع الكَلِم واختُصر له الكلام اختصاراً ـ لحالِ مَنْ هَجَرَ تدبُّرَ القرآن والعملَ به، ولم تنفَعْه قراءةُ القرآن، ولو قرأه ليل نهار، نسأل الله العفو والعافية.

المطلب الثالث

القرآن بين الجدال فيه والجدال عنه

الجدال والمراء في القرآن الكريم مِنْ أعظمِ مظاهر هجره، بل ربَّما أدَّى ذلك إلى الكفر ـ عياذاً بالله تعالى ـ كما في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [غافر: ٤].

فالمراد بآيات الله: هي القرآن. والمجادلة المذمومة: هي الطَّعن فيه، واستعمال المقدِّمات الباطلة للتَّوصل إلى دَحْضه وإبطاله.

قال أبو السُّعود[١] رحمه الله عند تفسيرها: «﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالطَّعن فيها واستعمال المقدِّمات الباطلة لإدحاض الحقِّ. كقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بها، وأمَّا الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها، فضلاً عن الطَّعن فيها»[٢].

ولذلك نجد أنَّ النَّبي ﷺ كان يُحذِّر من الجدال والمراء في القرآن العظيم، وبَيَّن ﷺ في غيرِ ما حديثٍ أنَّ ذلك يُؤدِّي إلى الكفر؛ لأنَّه سبيلٌ إلى تفرقة المؤمنين، والتَّشكيك في أصل دينهم ـ كتابِ الله تعالى ـ وصَدِّ النَّاس عن سبيل الله تعالى.

وفي ذلك عِدَّةُ أحاديث، وهي على النَّحو التالي:

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الجِدالُ في

---

(١) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، ولد في قرية قرب القسطنطينية سنة (٨٩٣هـ). طلب العلم على جلّة من العلماء منهم والده، واشتهر في تركيا ودرّس في مدارسها، وولي القضاء ببروسة وغيرها، ثم تولّى منصب الإفتاء نحو ثلاثين سنة، وله عدّة مصنفات أشهرها: تفسيره المسمّى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»، توفي بالقسطنطينية سنة (٩٨٢هـ). انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٤٣٨).

(٢) تفسير أبي السعود (٧/ ٢٦٦).

القُرآنِ كُفْرٌ»(١).

قال ابن الأثير(٢) رحمه الله: «الجَدَلُ: مُقابلة الحُجَّةِ بالحُجَّة. والمُجادَلَةُ: المُناظَرةُ والمُخاصَمَةُ. والمراد به في الحديث: الجدَلُ على الباطل، وطَلَبُ المغالبة به. فأمّا الجدل لإظهار الحقّ فإنّ ذلك محمودٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]»(٣).

إذاً هناك نوعان من الجدال: جدال محمود، وجدال مذموم ومنهيٌّ عنه شرعاً.

فالتنازع في الأحكام بقصد إظهار الحقّ والوصول إلى الصَّواب في القول جائزٌ إجماعاً.

إنَّما المنهيُّ عنه في الحديث: هو الجدال الذي يُؤدِّي إلى المراء والوقوع في الشَّك، فهذا جدال لا يرجع إلى علم، إنَّما منشأه الهوى أو الجهل أو سوء الطَّويَّة، ولا دليل عليه بل الأدلَّة تمنع وتحذِّر منه، فهذا قد يُؤدِّي ـ عياذاً بالله ـ إلى الكفر(٤).

٢ ـ عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما أنَّ النَّبي ﷺ قال: «لا تُجَادِلُوا في القُرآنِ؛ فإنَّ جِدَالاً فِيه كُفْرٌ»(٥).

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك»، كتاب التفسير (٢/ ٢٤٣) (ح٢٨٨٣) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ٥٩٦) (ح٣١٠٦).

(٢) هو المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجَزَري (مجد الدِّين) أبو السعادات، كان فقيهاً محدِّثاً أديباً نحوياً، له تصانيف عديدة منها: «النهاية»، و«جامع الأصول في أحاديث الرسول»، و«الشافي في شرح مسند الشافعي»، و«المصطفى المختار في الأدعية والأذكار»، وغيرها. توفي سنة (٦٠٦هـ).
انظر: طبقات الشَّافعية الكبرى (٥/ ١٥٣)؛ شذرات الذَّهب (٥/ ٢٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨).

(٤) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمُناوي (٦/ ٢٨٨٥).

(٥) رواه الطيالسي في «مسنده» (١/ ٣٠٢) (ح٢٢٨٦)؛ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٢٥٧)؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/ ١٢١٠) (ح٧٢٢٣)؛ و«السلسلة الصحيحة»: (٥/ ٥٤٥) (ح٢٤١٩).

جاء في (فيض القدير) عن الحليمي[١] رَحِمَهُ اللهُ في معنى الحديث: «هو أنْ يسمع قراءة آيةٍ أو كلمةٍ لم تكن عنده؛ فيَعْجَل عليه، ويُخطِّئه، وينسِبَ ما يقرؤه إلى أنّه غير قرآن، أو يجادله في تأويل ما يذهب إليه، ولم يكن عنده ويضلّله، والجدال ربما أزاغه عن الحقّ، وإنْ ظهر له وجْهُه، فلذلك حرُم، وسُمّي كفراً؛ لأنه يُشْرِفُ بصاحبه على الكفر»[٢].

وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أنّ رسولَ اللهِ ﷺ: «نَهَى عَنِ الجِدَالَ في القُرآنِ»[٣].

فالمنهي عنه في الحديثين هو الجدال بالباطل، من الطّعن في آيات القرآن العظيم، أو بكون قصدِه من الجدال نصرةَ مذهبه الباطل، أو إظهار بدعته وإخفاء الحقّ، كما حكى الله تعالى عن الكفّار الذين تحزّبوا على أنبيائهم بالمجادلة بالباطل. والقصد من وراء هذه المجادلة إبطال الحقّ الذي جاءت به الرُّسل الكرام عليهم السّلام، من مثل قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

فقال الله تعالى ذامّاً جدالَهم بالباطل: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥][٤].

أمّا الجدال لإيضاح آية مُلتبسة، أو حَلّ مُعضلة، أو مُناقشة أهل العلم في استنباط معنى آية مختلف فيها؛ للرّد على أهل الزّيغ من خلال معرفة الرّاجح من المرجوح، والخطأ من الصّواب. فهذا من أعظم الجهاد، بل هو من النّصيحة

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم، البخاري، الشّافعي، فقيه، محدّث، كان من أذكياء زمانه، ومن فرسان النظر، له يدٌ طُولى في العلم والأدب، صاحب وجوه حسان في المذهب الشّافعي، وصار رئيس أصحاب الحديث بما وراء النّهر، وولي القضاء ببلدان شتّى، توفّي سنة (٤٠٣هـ). له عدّة مصنّفات، منها: «منهاج الدّين في شعب الإيمان»، و«آيات السّاعة وأحوال القيامة» وغيرها.
انظر: تذكرة الحفّاظ، للذّهبي (٣/ ١٠٣١)؛ طبقات الشّافعية (٢/ ١٤٧).

(٢) فيض القدير (١٢/ ٦٣٨٩).

(٣) رواه السجزي (١/ ٢٨٣٩ كنز العمال)؛ وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ١١٥٩) (ح٦٨٧٣).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٤/ ٣٤ ـ ٣٥).

لكتاب الله تعالى[١].

٣ ـ وكما نهى النّبي ﷺ عن الجدال في القرآن فقد نهى أيضاً عن المراء ـ وهو صنْو الجدال ـ للتأكيد على هذه المسألة المهمّة، وذلك في عدّة أحاديث، منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المِرَاءُ[٢] في القُرآنِ كُفْرٌ»[٣].

معنى المِراء:

مما قاله الخطّابي[٤] رحمه الله في بيان هذا الحديث: «اختلف النّاس في تأويله. فقال بعضُهم: معنى المراء هنا: الشّك فيه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]. أي في شكٍّ، ويُقال: بل المراء هو الجدال المُشكِّك فيه.

وتأوّله بعضُهم على المراء في قراءاته دون تأويله ومعانيه، مثل أن يقول قائلٌ: هذا قرآنٌ قد أنزله اللهُ تبارك وتعالى، ويقول الآخَرُ: لم يُنزله اللهُ هكذا، فيكفر به منْ أنكره، وقد أنزل سبحانه كتابه على سبعة أحرف كلُّها شافٍ كافٍ، فنهاهم ﷺ عن إنكار القراءة التي يسمع بعضُهم بعْضاً يقرؤها، وتوعّدهم بالكفر عليها؛ لينتهوا عن المراء فيه والتّكذيب به»[٥].

---

(١) انظر: فيض القدير (١٢/ ٦٢١٦).

(٢) المِرَاءُ: هو الجِدال. والتَّماري والمُمارَاة: هو المُجادلة على جهة الشكّ والرِّيبة. ويُقال للمناظرة: مماراة؛ لأنّ كل واحدٍ منهما يستخرج ما عند صاحبه ويَمْتريه، كما يمْتري الحالبُ اللّبنَ من الضَّرْع. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٢٢).

(٣) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب: النهي عن الجدال في القران (٤/ ١٩٩) (ح٤٦٠٣)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٤/ ٣٢٤) (ح١٤٦٤)؛ وحسّنه ابن القيم في «تهذيب سنن أبي داود»: (٧/ ٦)؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/ ١١٣٤) (ح٦٦٨٧).

(٤) هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، أبو سليمان الخطابي، الإمام، الحافظ، اللغوي، صاحب التصانيف، ومنها: «معالم السنن في شرح سنن أبي داود»، و«غريب الحديث»، و«شرح الأسماء الحسنى»، و«الغنية عن الكلام وأهله». توفي سنة (٣٨٨هـ). انظر: معجم البلدان (١/ ٤١٥)؛ الأنساب، للسّمعاني (٢/ ٢١٠)؛ وفيات الأعيان (٢/ ٢١٤)؛ سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٣)؛ البداية والنهاية (١١/ ٢٣٦).

(٥) معالم السنن في شرح سنن أبي داود (٥/ ٩). وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٢٠٦)؛ مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٤/ ٣٠٢).

وجاء في (عون المعبود) عن الطِّيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو أنْ يروم تكذيبَ القرآن بالقرآن؛ ليدفعَ بعضه ببعض، فينبغي أن يجتهد في التَّوفيق بين المتخالفين على وجهٍ يُوافق عقيدة السَّلف، فإن لم يتيسر له فلْيكِلْه إلى الله تعالى»[1].

وقال ابن حبان[2] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا مارى المَرْءُ في القرآن أدّاه ذلك - إنْ لم يعصمْه الله - إلى أن يرتاب في الآي المتشابه منه، وإذا ارتاب في بعضه أدَّاه ذلك إلى الجحْد، فأطْلق ﷺ اسمَ الكفرِ الذي هو الجَحْد، على بداية سببه الذي هو المِراء»[3].

ما ينبغي عند الاختلاف:

وينبغي عند الاختلاف في المسائل العِلمية - التي ظاهرها التَّعارض - أو القراءات مثلاً، أن يُحْتكم إلى العلماء الرَّاسخين، فقد كان رسول الله ﷺ يُربِّي أصحابَه على ذلك، ويحذِّرهم من المراء في القرآن المُؤدِّي إلى الكفر.

فعندما اختلف رجلان في آية من القرآن، قال الأوّل منهما: تلقَّيتها من رسول الله ﷺ، وقال الآخر: تلقَّيتها من رسول الله ﷺ. فسألا النَّبيَّ ﷺ، فقال: «القُرآنُ يُقْرَأُ على سَبْعَةِ أَحْرُفٍ[4]، فلا تُمارُوا في القُرآنِ، فَإِنَّ مِرَاءً في

---

(١) (١٢/ ٢٣١).

(٢) هو الإمام الحافظ المُجوِّد، شيخ خراسان، أبو حاتم محمد بن حبّان بن أحمد بن حبان التّميمي الدّارمي البُستي، ولد نحو (٢٧٠هـ)، كان من فقهاء الدّين، وحفّاظ الآثار، عالماً بالطّب والنُّجوم، ومن أشهر تلاميذه: الحاكم صاحب المستدرك. توفي بسجستان بمدينة بُست سنة (٣٥٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٩٢).

(٣) صحيح ابن حبان (٤/ ٣٢٤).

(٤) المراد بالحرف: اللُّغة. والمعنى: أنَّ القرآن أُنزل على سبع لغات من لغات العرب، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعةُ أوجهٍ، ولكن المراد: أنَّ هذه السَّبْعَ اللُّغات مُفرَّقةٌ في القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن، وهكذا.
قال أبو عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس معنى تلك السَّبعة أن يكون الحرفُ الواحدُ يُقرأ على سبعة أوجه، هذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل على سبع لغات مُفرَّقة في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف منها بلغة قبيلة، والثّاني بلغةٍ أخرى سوى الأولى،

القرآنِ كُفْرٌ»(١).

قال أبو عُبيدٍ(٢) رَحِمَهُ اللهُ في معنى الحديث: «ليس وَجْهُ الحديثِ عندنا على الاختلاف في التأويل، ولكنَّه على الاختلاف في اللَّفظ، وهو أنْ يقولَ الرَّجُل على حَرْفٍ(٣)، فيقول الآخَرُ: ليس هو هكذا، ولكنَّه على خِلافِه، وكِلاهُمَا مُنْزَلٌ مَقْرُوءٌ به(٤). فإذا جَحَد كلُّ واحدٍ منهما قِراءَةَ صاحبِه، لم يُؤمَنْ أنْ يكونَ ذلك يُخْرِجُه إلى الكفر؛ لأنه نَفَى حَرْفاً أنزله اللهُ على نَبِيِّه.

والتَّنْكِيرُ في المِرَاءِ إيذاناً بأنَّ شيئاً منه كُفْرٌ، فَضْلاً عمَّا زاد عليه.

وقيل: إنَّما جاء هذا في الجِدَالِ والمِرَاءِ في الآيات التي فيها ذِكْرُ القَدَرِ، ونَحوِه من المعاني، على مذْهبِ أهْلِ الكلام، وأصحابِ الأهواءِ والآراءِ، دون ما تَضَمَّنَتْهُ من الأحكام، وأبواب الحلالِ والحرامِ؛ فإنَّ ذلك قد جَرَى بين

= والثالث بلغةٍ أخرى سواهما، كذلك إلى السبعة. وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظّاً فيها من بعض، وذلك يُبيَّن في أحاديث تترى».
فضائل القرآن، لأبي عبيد (٣٣٥). وانظر: جمال القراء، للسخاوي (ص٦٠٥)؛ تفسير الطبري (١/ ١٨)؛ تفسير القرطبي (١/ ٤١)؛ فضائل القرآن، لابن كثير (ص٤٤)؛ البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/ ٢١١)؛ النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (١/ ١٩ ـ ٣١)؛ الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١/ ١٣١ ـ ١٤٢).

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٣٧، ٣٥٤)؛ وأحمد في «المسند» (٤/ ١٦٩) (ح١٧٥٧٧). وقال محققو المسند (٢٩/ ٨٥) (ح١٧٥٤٢): «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) هو القاسم بن سلام الهروي الأزدي، الخزاعي بالولاء، الخراساني، البغدادي (أبو عُبيد) ولد سنة (١٥٧هـ)، من كبار العلماء في الحديث، والأدب، والفقه. ولي القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة، من كتبه: «الأموال»، و«أدب القاضي»، و«الإيمان ومعالمه وسننه، واستكماله، ودرجاته» مخطوط في الظاهرية بدمشق. توفي بمكة سنة (٢٢٤هـ).
انظر: تهذيب التهذيب (٨/ ٣١٥ ـ ٣١٨)؛ تذكرة الحفاظ (٢/ ٥٦).

(٣) بمعنى: يقرأ على حرف.

(٤) يُعلم ذلك بحديث النبيِّ ﷺ المشهور: «إنَّ هذا القرآنَ أُنْزِل عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ» الحديث.
رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: ما جاء في المتأوِّلين (٤/ ٢١٦٥) (ح٦٩٣٦). وسبب الحديث: قصَّة عمر بن الخطاب وهشام بن حَكيم رضي الله عنهما، في قراءة هشام في الصَّلاة على حروف كثيرة لم يَسْمَعْها عُمَرُ من رسول الله ﷺ، فاحتكما إليه، فأَقرَّ كُلاً منهما على قراءته، ثمَّ ذَكَرَ الحديث.

الصّحابة فمن بعدهم منَ العلماء، وذلك فيما يكون الغَرَضُ منهُ والباعثُ عليهِ ظُهور الحقّ لِيُتّبع، دون الغلَبَة والتعجيز. والله أعلم»[١].

الوقاية من الجدال والمراء:

ومن أجل الوقاية من التّورُّط في براثن الجدال والمراء كان النّبي ﷺ يدلُّ أصحابه ﷺ إلى شيء يفعلوه احترازاً من الوقوع في الاختلاف المُؤدّي إلى الفُرقة في الدّين:

فعن جُندب بن عَبْد الله ﷺ، عن النّبيّ ﷺ قال: «**اقْرَؤُوا القُرآنَ ما ائْتَلَفَتْ عليْهِ قُلُوبُكُمْ، فإذَا اخْتَلَفْتُمْ**[٢] **فَقُومُوا عَنْهُ**[٣]»[٤].

فقد أوصى النّبي ﷺ أصحابه الكرام بالاستمرار في قراءة القرآن، ولزوم طريق الألفة بينهم، فإذا وقع الاختلاف، سواء فى المعنى أو كيفيّة الأداء، فلْيتركوا القراءة، ولْيتمسّكوا بالمُحكم المُوجب للألفة، ولْيعرضوا عن المتشابه المؤدّي إلى الفُرقة في الدّين.

ومن فوائد هذه الوصيّة النّبوية العظيمة: الحضُ على الجماعة والأُلفة، والتّحذير من الفُرقة والاختلاف، والنّهي عن الجدال في القرآن بغير حقّ، حتّى لا يُؤدّي ذلك إلى هجر القرآن الكريم[٥].

المطلب الرابع

اتباع المتشابه وترك المُحكم

إنَّ من أبرز مظاهر هجر القرآن الكريم: اتّباع المتشابه وترك المُحكم، ولقد حذّر النّبي ﷺ أُمّته من هذا الفعل السّيّئ:

---

(١) نقلاً عن: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٢٢)؛ عون المعبود (١٢/ ٢٣١).

(٢) في فهم المعاني، أو أداء القراءات.

(٣) أي: تفرّقوا لئلّا يتمادى بكم الاختلاف إلى الشر.

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم (٣/ ١٦٢٩) (ح٥٠٦١).

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ١٠٢).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ....﴾ إلى قوله: ﴿... أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]. قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «فإذا رأيتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْهُ، فأولئك: الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فاحذَرُوهُم»[١].

واختلف المفسّرون، والأصوليُّون، وغيرهم في معنى المحكم والمتشابه اختلافاً كثيراً، فنقل ابن حجر رحمه الله جانباً من اختلافهم، ومن جملة ما قاله في شرحه للحديث: «المحكم من القرآن: ما وضح معناه، والمتشابه: نقيضه. وسُمِّيَ المحكم بذلك؛ لوضوح مفردات كلامه، وإتقان تركيبه، بخلاف المتشابه. وقيل: المحكم: ما عُرِفَ المراد منه إمّا بالظُّهور وإمّا بالتّأويل، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه؛ كقيام السّاعة، وخروج الدّجال، والحروف المقطّعة في أوائل السُّوَر. وقيل في تفسير المحكم والمتشابه أقوال أخر غير هذه، نحو العشرة، ليس هذا موضع بسطها، وما ذكرتُه أشهرها وأقربُها إلى الصّواب»[٢].

ونقل النّووي عن أبي حامدٍ الغزاليّ[٣] قوله: «الصَّحيح أنَّ المحكم يرجع إلى معنيين:

أحدهما: المكشوف المعنى الذى لا يتطرّق إليه إشكال واحتمال، والمتشابه: ما يتعارض فيه الاحتمال.

والثاني: أنَّ المحكم ما انتظم ترتيبه مُفيداً، إمّا ظاهراً وإمّا بتأويل.

وأمّا المتشابه: فالأسماء المُشْتَرَكة، كالقرْء، وكالّذي بيده عُقدة النّكاح، وكاللّمس. فالأوّل: متردّد بين الحيض، والطُّهر. والثاني: بين الوليّ، والزّوج.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ (٣/ ١٣٧٧) (ح٤٥٤٧).
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٢٦٥).
(٣) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطُّوسي، أبو حامد، الملقّب بحجة الإسلام، ولد سنة (٤٥٠هـ) من فقهاء الشافعية، له مصنفات في الفقه وأصوله والفلسفة، ولولا اشتغاله بالفلسفة والتصوف لكان له شأن أعظم مما كان. من مصنفاته: «إحياء علوم الدين»، و«المستصفى»، و«الوجيز»، و«الخلاصة». توفي سنة (٥٠٥هـ).
انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢١٦ ـ ٢١٩).

والثَّالث: بين الوطء، والمسّ باليد»(١).

«ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، أي: ضَلالٌ وخروجٌ عن الحقّ إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يُحرّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ويُنْزِلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يَصْرِفونه، فأمَّا المُحكم فلا نصيبَ لهم فيه؛ لأنه دامِغٌ لهم وحُجَّة عليهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾، أي: الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجُّون على بدعتهم بالقرآن، وهو حُجة عليهم لا لهم، كما لو احتجَّ النَّصارى بأنَّ القرآن قد نَطقَ بأنَّ عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وتركوا الاحتجاجَ بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وبقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وغير ذلك من الآيات المُصرِّحة بأنه خَلْقٌ مِنْ مخلوقات الله، وعَبْدٌ، ورسولٌ من رُسُلِ الله»(٢).

ولذلك حذَّر النَّبي ﷺ من الذين يتَّبعون ما تشابه من القرآن بمعنى أنَّهم يبحثون في الآيات المتشابهة، ويتركون المحكم منها؛ بقصد أن يفتنوا النَّاس عن دينهم ويضلوهم، فهؤلاء هم الذين سمَّاهم الله تعالى أهلَ الزّيغ، فأَمَرَ ﷺ بالحذر منهم والتَّوقِّي من شرّهم وضلالهم، وذلك بعدم مُجالستهم ومُؤاكلتهم ومُكالمتهم؛ فإنهم أهل الزَّيغ والبدع والفساد، فحقُّهم أن يُهجروا في الله تعالى(٣).

وهذا ما صرَّح به ابنُ القيم رحمه الله بقوله: «إذا سُئِلَ أحدٌ عن تفسير آيةٍ من كتاب الله تعالى، أو سُنَّةٍ عن رسول الله ﷺ فليس له أن يُخرِجَها عن ظاهرها بوجوه التَّأويلات الفاسدة لموافقة نِحْلته وهواه، ومَنْ فَعَل ذلك استحقَّ المَنْعَ من الإفتاء والحَجْرَ عليه، وهذا الذي ذكرناه هو الذي صرَّح به أئمَّةُ الإسلام قديماً وحديثاً»(٤).

ومن فوائد هذا الحديث: التَّحذير من مخالطة أهل الزَّيغ، وأهل البدع،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٣٣٤). وانظر: المستصفى، لأبي حامد الغزالي (١/ ٨٥).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٨).
(٣) انظر: عون المعبود (١٢/ ٢٢٧).
(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٤/ ٢٤٥).

ومَنْ يتّبع المشكلات للفتنة. ومَنْ يسأل كذلك بقصد الفتنة، فهذا لا يُجاب بل يُزجر، ويُعزّر، كما عَزَّر عمرُ بن الخطاب ﷺ صَبِيغَ بن عَسل حين كان يتَّبع المتشابه.

وأمَّا مَنْ سأل عمَّا أُشكل عليه للاسترشاد، وتلطَّف في سؤاله فلا حَرَجَ عليه، وجوابُه واجب[١].

المطلب الخامس

ترك قراءة القرآن في البيوت

عن أبي هريرة ﷺ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقابِرَ. إنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ[٢]»[٣].

أي: لا تجعلوا بيوتكم «خاليةً عن الذِّكر والطاعة فتكون كالمقابر، وتكونون كالموتى فيها»[٤].

ففيه النَّدب إلى كثرة قراءة القرآن في البيوت، إذ الموتى لا يقرؤون القرآن، بل انقطع عنهم التَّكليف.

فالمعنى: لا يكون حالكم كحال الموتى الذين لا يقرؤون القرآن في بيوتهم - وهي القبور.

وقيل في معناه: لا تجعلوا بيوتكم وطناً للنَّوم فقط، لا حَظَّ فيها للذِّكر من قراءة القرآن والصَّلاة، فإنَّ النَّوم أخو الموت، والميِّت لا يقرأ القرآن ولا يصلِّي[٥].

* ويشهد له قوله ﷺ: «مَثَلُ البَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، والبَيْتِ لا يُذْكَرُ اللهُ

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٤٣٤).
(٢) خُصَّتْ سُورة البقرة بذلك؛ لطولها، وكثرة أسماء الله تعالى، والأحكام فيها.
انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٨/ ١٤٦).
(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (١/ ٥٣٩) (ح٧٨٠).
(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٨/ ١٤٦).
(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٥٢٩).

فِيهِ، مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ»[١].

و«إطلاق الحي والميِّت في وَصْف البيت، إنَّما يراد به ساكن البيت. فشبَّه الذَّاكر: بالحيِّ الذي ظاهره متزيِّن بنور الحياة، وباطنه بنور المعرفة. وغيرَ الذَّاكر: بالبيت الذي ظاهره عاطل، وباطنه باطل»[٢].

* ويدلُّ على ذلك قوله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»[٣].

فمنْ هجر القرآن وترك قراءته فهو كالميِّت في قبره، وكفى له ذماً بذلك.

المطلب السادس

احوال المنافق مع القرآن

عَنْ أبي مُوسَى الأشعريِّ ﷺ. قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرآنَ مَثَلُ الرَّيحَانَةِ[٤]، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لا يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ[٥]، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[٦].

فالمنافق بين حالين أحسَنُهما سيِّئ؛ لأنه سيِّئ الباطن ولو حاول التَّظاهر بصفات أهل الإيمان وشارَكَهم بقراءة القرآن، فإنَّ هذه القراءة عمل ظاهري يُقصد به خداع الناس والتَّمويه عليهم، فمثله كمثل الرَّيحانة قد يَغْترُّ الجاهل بطيب

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (١/ ٥٣٩) (ح٧٧٩).

(٢) المصدر السابق (١١/ ٢١٠ ـ ٢١١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدَّعوات، باب: فضل ذِكرِ الله ﷻ (٤/ ٢٠١٢) (ح٦٤٠٧).

(٤) الرَّيْحَانُ: جنس من النَّبات طيِّب الرَّائحة من الفصيلة الشفوية، وكل نبت طيِّب الرائحة، ويقال: للمرأة رَيْحانة. انظر: المعجم الوسيط (ص٣٨١).

(٥) الحنْظَلُ: نبتٌ مفترشٌ، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لبٌّ شديد المرارة. انظر: المعجم الوسيط (ص٢٠٢).

(٦) رواه البخاري، كتاب التَّوحيد، باب: قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتُهم لا تُجاوزُ حناجرهم (٤/ ٢٣٦٣) (ح/ ٧٥٦٠)؛ ومسلم، واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضيلة حافظ القرآن (١/ ٥٤٩) (ح٧٩٧).

رائحتها فإذا أكل منها ذاق المُرّ والعلقم، وكذلك المنافق إنْ عاملته وعاشرته تذوّقت مرارته وكشفت حقيقته.

جاء في (الفتح) عن ابن بطّال[1] رحمه الله قال: «إنّ قراءة الفاجر والمنافق لا ترتفع إلى الله ولا تزكو عنده، وإنما يزكو عنده ما أُريد به وجهه وكان على نيّة التّقرب إليه، وشبّهه ﷺ بالرّيحانة حين لم ينتفع ببركة القرآن، ولم يفز بحلاوة أجره، فلم يجاوز الطّيبُ موضِع الصوت وهو الحلْق، ولا اتصل بالقلب»[2].

فالمنافق إذا سمعته يتلو القرآن تصوّرت وراء هذه التّلاوة صدراً يعمر بالإيمان، ولكنك لو تأمّلْت أكثر عرفت حال وفساد عقيدته، عند ذلك ستنصرف عنه وتلقيه كما يُلقى بالثّمرة إذا اخْتُبر طعْمُها فوُجدت مُرّةً خبيثةَ الطّعم.

وإذا كان هذا حال المنافق الذي يقرأ القرآن، فما الظّنُّ بالمنافق الذي لا يقرأ القرآن؟ فقد جمع إلى مرارة الطّعم (أي فساد العقيدة) خُبث الرائحة، فقلبه فاسد بسوء معتقده، ورائحته فاسدة بإعراضه عن كتاب الله تلاوةً، فضلاً عن التّدبر والتّأثر والعمل، فهذا سيِّئ الباطن والظّاهر، فمثله كمثل الحنظلة التي تنفر من منظرها وتعافها حتى الإبل؛ لما فيها من مرارة وطعم خبيث. فهو في بحر لجيٍّ من الظّلمات بعضها فوق بعض: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠][3].

المطلب السابع

ترك التغني بالقرآن

عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرآنِ». وزادَ غيْرُهُ: «يَجْهَرُ بِهِ»[4].

---

(١) هو عليّ بن خلف بن عبد الملك بن بطّال البكري، القرطبي، المالكي، ويُعرف بابن اللجام (أبو الحسن)؛ محدِّث، فقيه، استقضي بحصن لورقة، وتوفي في آخر يوم من صفر سنة (٤٤٩هـ). من آثاره: «شرح الجامع الصّحيح للبخاري» في عدة أسفار، و«الاعتصام في الحديث». انظر: سير أعلام النبلاء (١١/١٥٩).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/٦٥٧).

(٣) انظر: أنوار القرآن (ص٨٩ ـ ٩٢)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص١٦ ـ ١٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾

وقد ذكر ابن حبّان كَلَلهُ أنّ: «معنى قوله ﷺ ليس مِنّا في هذه الأخبار، يُريد به: ليس مثلنا في استعمال هذا الفعل؛ لأنّا لا نفعلها فمَنْ فعَلَ ذلك فليس مِنّا»[1].

واختلف أهل العلم في معنى يتغنّى، هل هو من التّغنّي بمعنى: تحسين الصّوت أو هو الاستغناء بالقرآن عن غيره؟.

جاء في (الفتح) عن ابن الجوزي كَلَلهُ أنّه قال: «واختلفوا في معنى قوله (يَتغَنّى) على أربعة أقوال: أحدها: تحسين الصوت. والثّاني: الاستغناء. والثّالث: التّحزُّن، قاله الشّافعي. والرَّابع: التّشاغل به، تقول العرب: تغنّى بالمكان أقام به»[2].

* وقد ذهب أكثر العلماء إلى أنَّ المقصود بالحديث: هو تحسين الصَّوت بالقرآن.

قال النّووي كَلَلهُ في شرحه للحديث: «معناه عند الشافعي، وأصحابه، وأكثر العلماء من الطّوائف، وأصحاب الفنون: تحسين صوته به»[3].

وهو اختيار الطّبري[4]، والقرطبي[5]، وابن كثير[6]، وابن حبّان[7].

* وذهب بعض العلماء إلى أنَّ المراد بالحديث: الاستغناء بالقرآن عن غيره، وهو اختيار أبي عُبيدٍ، وسفيان بن عيينة[8].

= [الملك: ١٣] (٤/٢٣٥١) (ح٧٥٢٧)؛ وأبو داود، باب: استحباب الترتيل في القراءة (٢/ ٧٤) (ح١٤٧١)؛ وابن حبان في «صحيحه»، باب: ذكْر الزّجر عن ألّا يستغني المرء بما أُوتي من كتاب الله جلّ وعلا (١/ ٣٢٦) (ح١٢٠).

(١) صحيح ابن حبان (١/ ٣٢٦).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٧٠).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٧٨). وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٣٥).

(٤) تفسير الطبري (١٠/ ١٦٨).

(٥) تفسير القرطبي (١/ ١١).

(٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٥).

(٧) صحيح ابن حبان (١/ ٣٢٦).

(٨) هو الإمام سفيان بن عيينة بن أبي عمران، مولى بني هلال (أبو محمد)، ولد سنة (١٠٧هـ) بالكوفة، وكان ثقةً، ثبتاً، كثير الحديث، حُجّة، مُحدّث الحجاز في زمانه في مكة، حتى قال فيه الشّافعي: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز». سكن مكة وتوفي بها عام (١٩٨هـ)، وعمره: (٩١) سنة.
انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (٥/ ٤٩٧).

قال سفيانُ: «تفسيرُه: يَسْتَغْنِي به»[١].

قال النّووي ﷺ: «وعند سفيان بن عيينة: يستغني به. قيل: يستغني به عن النّاس. وقيل: عن غيره من الأحاديث والكتب.

قال القاضي عياض[٢]: القولان منقولان عن ابن عيينة. قال: يُقال: تَغَنّيْتُ وتَغَانيْتُ بمعنى: اسْتَغْنَيْتُ»[٣].

وقال أبو عبيدٍ ﷺ: «قوله: (مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ). التَّغنِّي: هو الاستغناء والتّعفف عن مسألة النّاس واستكالهم بالقرآن، وأن يكون في نفسه بحمله القرآن غنياً، وإن كان من المال مُعدِماً»[٤].

وقد صَرَّح ابن حجر باختيار أبي عُبيدٍ بقوله: «وقد ارتضى أبو عُبيدٍ تفسير يتغَنَّى بيستغني، وقال: إنه جائز في كلام العرب... فعلى هذا يكون المعنى: مَنْ لم يستغْنِ بالقرآن عن الإكثار من الدُّنيا فليس منَّا، أي على طريقتنا»[٥].

وعلى ما تقدَّم: فمن لم يتغَنَّ بالقرآن، أو لم يَسْتَغْنِ بالقرآن عن غيره، فقد هَجَرَ كتابَ ربِّه تعالى، وهو ليس على طريقة النبيِّ ﷺ وأصحابِه الكرام في هذا الهدي المبارك، فلْيحذر أشدَّ الحذر من ذلك، فمَنْ حذّرك فقد أنذرك، ومنْ أنذرك وقاك شرَّ الخطر.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: مَنْ لم يَتغَنَّ بالقرآن (٣/١٦١٩) (ح٥٠٢٤).

(٢) هو القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمر اليحصبي السّبتي، إمام وقته ببلاد المغرب، في الحديث وعلومه والنّحو واللّغة، وله مصنفات جيّدة، منها: «التنبيهات»، و«مشارق الأنوار»، و«شرح كتاب مسلم»، واشتُهر بالذّكاء وحُسن السِّيرة، توفي سنة (٥٤٤)، وكانت ولادته سنة (٤٧٦هـ). انظر: وفيات الأعيان (٣/٤٨٣ ـ ٤٨٥).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٧٨).

(٤) فضائل القرآن، لأبي عبيد (ص٢١٠).

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٨٨).

المبحث الثالث

آثار السّلف في ذمّ هجر القرآن

وفيه
ذِكْرٌ لبعض الآثار المنقولة
عن السّلف الصّالح في ذمّ هجر القرآن

آثار السَّلف في ذمِّ هجر القرآن

إنَّ الآثار الواردة عن سلفنا الصَّالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم في ذمِّ هجر القرآن، والتَّحذير من ذلك كثيرةٌ ومتنوِّعة.

وهذه بعض الآثار المنقولة على لسانهم رضي الله عنهم تُحذِّرنا من هجر القرآن الكريم، وتُبيِّن لنا مغبَّة هذا الفعل وأثره السَّيِّئ على الفرد والأمَّة في الدُّنيا والآخرة.

وسأذكر كُلَّ أثرٍ منها تحت عنوان يدلُّ عليه اجتهاداً مني، ودون تعليق عليها؛ لأنَّها من الوضوح بمكان، إلَّا ما اقتضى الحال بيانه، وهي على النَّحو الآتي:

١ ـ ذَمُّ التَّأكُّل بالقرآن:

* عن عُمَرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه قالَ: لقدْ أتَى علينا حِينٌ وما نرَى أنَّ أحداً يتعلَّمُ القُرآن يُريدُ به إلَّا الله، فلمَّا كانَ ها هُنا بأخَرَةٍ، خَشِيتُ أنَّ رجالاً يتعلَّمُونَهُ يُرِيدُون بِهِ النَّاسَ ومَا عِنْدَهُمْ، فأرِيدُوا الله بِقِرَاءَتِكُمْ وأعْمَالِكُمْ، وإنَّا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إذْ فينا رسُولُ الله ﷺ، وإذْ يَنْزِلُ الوحْيُ، وإذْ يُنبِّئُنَا اللهُ مِنْ أخْبارِكُمْ، فَأمَّا اليَوْمَ فقدْ مَضَى رسُولُ الله ﷺ وانْقَطَعَ الوَحْيُ، وإنَّما أُعَرِّفُكُمْ بما أقُولُ، منْ أعْلَنَ خَيْراً حَبَبْنَاهُ عليْهِ وظَنَنَّا بِهِ خَيْراً، ومنْ أظْهَرَ شَرّاً بغَضْنَاهُ عليْهِ وظَنَنَّا بِهِ شَرّاً، سَرَائرُكُمْ فِيما بَيْنكُمْ وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[١].

---

(١) رواه الفريابي في «فضائل القرآن» (ص٢٤٣) (رقم ١٧٣)؛ والآجُرِّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص٤٦) (رقم ٢٢)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠/ ٤٨٠) (رقم ١٠٠٥٠) بلفظ مقارب. وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣/ ٣٨٣).

قال الآجُرّي[١] رحمه الله: «فإذا كان عُمَرُ بن الخطّاب قد خاف على قوم قرؤوا القرآنَ في ذلك الوقت ميلهم إلى الدُّنيا، فما ظنُّكَ بهم اليوم؟! وقد أخبرنا النّبي ﷺ أنه يكون أقوام يقرؤون القرآن يُقيمونه كما تُقيمون القِدْحَ، يتعجّلونه ولا يتأجّلونه، يطلبون به عاجلة الدُّنيا ولا يطلبون به الآخرة»[٢].

* وعَنْ زَاذانَ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ القُرآنَ يتأكَّلُ به النَّاسَ[٣]. جَاء يَوْمَ القِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظْمٌ لَيْسَ عَلَيْه لحمٌ»[٤].

و«لما جَعَلَ أشرفَ الأشياءِ، وأعظمَ الأعضاءِ وسيلةً إلى أدناها، وذريعةً إلى أردئها، جاء يوم القيامة في أقبح صورة وأسوء حالة. قال بعض العلماء: استجرار الجيفة بالمعازف، أهون من استجرارها بالمصاحف، وفي الأخبار: مَنْ

---

(١) هو الإمام المحدِّث القدوة أبو بكر، محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرّي، نسبةً لآجر من قرى بغداد، فقيهٌ، حافظٌ، صاحب سُنّة واتّباع، قال ابن خِلّكان: «أخبرني بعض العلماء أنه لمّا دخل إلى مكّةَ أعجبته، فقال: اللّهم ارزقني الإقامة بها سنة، فسمع هاتفاً يقول له: بل ثلاثين سنةً، فعاش بعد ذلك ثلاثين سنة، ثم مات بها». توفي بمكّة سنة (٣٦٠هـ) وهو من أبناء الثّمانين. ومن تصانيفه: «التّهجد»، و«تحريم النّرد والشّطرنج والملاهي»، و«آداب العلماء»، و«تحقيق رؤية الله في الآخرة». انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٩٢)؛ سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٧٨)؛ تاريخ بغداد (٢/ ٢٤٣).

(٢) أخلاق حملة القرآن (ص٤٧).

(٣) (يتأكّل به النّاس): أي يطلب به الأكل من النّاس. قال الطّيبي: يعني يستأكل، كتعجّل بمعنى استعجل. والباء في (به) للآلة. أي: أموالهم.
انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن سلطان القاري (٥/ ٩٨).

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» موقوفاً على زاذان (ص٢٠٨)؛ وكذا الآجُرّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص٦٣) (رقم ٤٣)؛ وكذا أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٩)؛ وكذا ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ١٦٨) (رقم ٧٧٤١).
(تنبيه): ولا يَصِحُّ مرفوعاً. رواه ابن حبّان في «المجروحين» (١/ ١٤٨) وقال: (١/ ١٤٩): «هذان حديثان ـ وقد ذكرَ معه حديثاً آخر ـ لا أصل لهما من حديث رسول الله ﷺ». وذَكَرَهُ ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ١١٧ ـ ١١٨) ثم قال: «هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، وإنما يُروى نحوه عن الحسن البصري. قال أبو حاتم ابن حبّان: لا أصلَ لهذا من حديث رسول الله ﷺ».
وانظر: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشّنيعة الموضوعة، للكناني (١/ ٣٠٠)؛ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي (١/ ٣٠٦)؛ لسان الميزان، لابن حجر (١/ ٣١٦)؛ فيض القدير (٦/ ١٩٦). وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٥/ ٢٣٤) (ح٥٧٧٥): «موضوع».

طَلَب بالعلم المال، كان كمن مسح أسفل مداسه ونعله بمحاسنه لينظّفه.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: البهلوان الذي يلعب فوق الحبال، أحسن من العلماء الذين يميلون إلى المال؛ لأنه يأكل الدُّنيا بالدُّنيا، وهؤلاء يأكلون الدُّنيا بالدِّين، فيصدق عليهم قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]»[(١)].

٢ ـ ويلٌ لمن تَبِعَه القرآن:

* عن أبي كنانةَ، أنّ أبا مُوسى الأشعرِيَّ ﷺ جَمع الّذِين قرَؤوا القُرْآنَ، وهُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثلاثِمائةٍ، فَعَظَّمَ القُرآن وَقَالَ:

«إنَّ هذا القُرْآن كائِنٌ لَكُمْ ذُخراً، وَكَائِنٌ عَلَيْكُم وِزراً، فاتَّبِعُوا القُرْآنَ ولَا يَتَّبِعُكُمْ، فإنَّهُ من اتَّبَعَ القُرْآنَ هبط بِهِ عَلى رِيَاض الجَنّةِ، ومَنِ اتّبعهُ القُرْآنُ زَخَّ بِهِ[(٢)] في قَفَاهُ فَقَذَفَهُ فِي النَّارِ»[(٣)].

٣ ـ ذَمُّ مَنْ حَفِظَ حروفَه وضيَّع حُدودَه:

* عن الحَسَنِ[(٤)] البصري رَحِمَهُ اللهُ قال: «إنَّ هَذا القُرْآنَ قَدْ قَرأهُ عَبِيدٌ وصِبْيَانٌ

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/٩٨).

(٢) (زخَّ به): أي: دفعه. يقال: زخخته أزخُّه زخّاً؛ إذا دفعته. انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد (٤/ ١٧٣)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٧٩) و(٢/ ٢٩٨).

(٣) رواه الأجرّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص٢٠) (رقم ٣). وقال محقّقه (فواز أحمد زمرلي): «اسنده حسن». ورواه بنحوه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٨١ ـ ٨٢)؛ والدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل مَنْ قرأ القرآن (٢/ ٣٠٧) (رقم ٣٣٢٨)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٧)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٤٢) (رقم ٣٤٨٢١)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (١/ ٤٩) (رقم ٨).

(٤) هو الحسن بن يَسَار البصريُّ (أبو سعيد)، من كبار التّابعين، ولد سنة (٢١هـ) بالمدينة، وسكن بالبصرة، وكان حبر الأمة وإمامها في زمانه في الحديث والفقه والتّفسير، وكان قد شبَّ في كنف علي بن أبي طالب ﷺ، وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم حتى صارت له هيبة عظيمة، توفي سنة (١١٠هـ). انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٦٩ ـ ٧٣) (ت١٥٦)؛ وتهذيب التهذيب (٢/ ٢٦٣ ـ ٢٧٠) (ت٤٨٨).

لا عِلْمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ وَلَمْ يَنَالُوا الأَمْرَ مِنْ أَوَّلِه[1]. قَالَ الله عز وجلَّ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]. وَمَا تَدَبُّرُ آياتِه إلَّا اتِّبَاعُهُ والعَمَلُ بِه، أمَا وَاللهِ مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ، وإضاعةِ حُدودِه حتَّى إنّ أحَدَهُمْ لَيَقُولُ: قَدْ قَرأتُ القُرْآنَ كُلَّهُ فَمَا أسْقَطْتُ مِنْهُ حرْفاً، وقَدْ وَاللهِ أسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا يُرَى لَهُ القُرْآنُ في خُلُقٍ وَلَا عَمَلٍ حَتَّى إنَّ أحدَهُمْ ليَقُول: إنِّي لأقرأُ السُّورَةَ فِي نَفَسٍ وَاحِدٍ، والله مَا هؤُلاءِ بالقُرَّاءِ، وَلَا العُلَمَاءِ، ولا الحُكَمَاء، ولا الورَعَةِ، مَتى كَانَتِ القُرَّاءُ تَقُولُ مِثْلَ هَذا؟ لَا أكْثَر الله فِي النَّاسِ مِثْلَ هَؤُلَاءِ»[2].

قال الآجُرِّي رَحِمَهُ اللهُ: «فأمَّا مَنْ قَرأَ القرآنَ للدُّنيا، أو لأبناء الدُّنيا، فإنَّ من أخلاقه أن يكون حافظاً لحروف القرآن، مضيِّعاً لحدوده، متعظِّماً في نفسه، متكبِّراً على غيره، قد اتَّخذ القرآنَ بضاعةً يتأكَّل به الأغنياءَ، ويستقضي به الحوائجَ، يعظِّم أبناءَ الدُّنيا ويُحقِّر الفقراءَ، إنْ عَلَّمَ الغنيَّ رَفَقَ به طمعاً في دنياه، وإنْ عَلَّمَ الفقيرَ زَجَرَه وعنَّفه؛ لأنه لا دنيا له يطمع فيها»[3].

٤ ـ هَجْرُ تدبُّر القرآن:

* عَنِ ابن عُمرَ رضي الله عنهما قال: «لقد عِشْتُ بُرْهَةً مِنْ دهْرِي وإنَّ أحدَنا يُؤْتَى الإيمَانَ قَبْلَ القُرْآنِ، وتَنْزِلُ السُّورَةُ على مُحَمَّدٍ ﷺ فيتعَلَّمُ حلالَها وحرَامَها. وَمَا يَنْبَغِي أنْ يقِفَ عنْدَهُ مِنْها كمَا تَعلَّمُونَ أنْتُمُ القُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأيْتُ رِجالاً يُؤْتَى أحَدُهُمْ القُرْآنَ قبْلَ الإيمَانِ، فيَقْرَأُ ما بيْنَ فَاتِحةِ الكِتَابِ إلَى خَاتِمَتِه، مَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلا زَاجِرُهُ، وَمَا يَنْبَغِي أنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، يَنْثُرُهُ نَثْر الدَّقَل[4]»[5].

---

(١) يعني: لم يسلكوا سبيلاً يحصل لهم بسلوكه العلم بتأويله.

(٢) رواه الفريابي في «فضائل القرآن» (ص٢٤٦ ـ ٢٤٧) (رقم ١٧٧)؛ والآجُرِّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص٥٠) (رقم ٢٨)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ٤٢٠) (رقم ١٣٥) وقال: «إسناده صحيح». وابن المبارك في «كتاب الزهد» (ص٢٧٤)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/ ٣٦٤) (رقم ٥٩٨٤).

(٣) أخلاق حملة القرآن (ص٤٣).

(٤) الدَّقَل: أردأُ التَّمرِ.

(٥) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٢٠) (رقم ٥٠٧٣)؛ والحاكم في «المستدرك» (١/ ٩١) (رقم ١٠١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه»

* وعن أبي عبد الرحمن السُلَمِي[١] رحمه الله قال: «أخَذْنَا القُرآنَ عَنْ قَوْمٍ أخْبَرُونَا أنَّهُمْ إِذَا تَعَلَّمُوا عَشر آيات، لَمْ يُجَاوِزُوهُنَّ إِلَى العَشْرِ الأُخَرِ، حَتَّى يَعْمَلُوا مَا فِيهِنَّ، فَكُنَّا نَتَعَلَّمُ القُرْآنَ والعملَ بِهِ، وَسَيرِثُ القُرآنَ بَعْدَنَا قَوْمٌ يَشْرَبُونَهُ شُرْبَ المَاءِ، لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ»[٢].

٥ ـ القرآن يزيد الظَّالمين خَسَاراً:

* عن أُوَيسٍ القَرَنِيِّ[٣] رحمه الله قال:

«إِنَّ هذَا المجْلِسَ يَغْشَاهُ ثَلاثَةُ نَفَرٍ: مُؤمِنٌ فَقِيهٌ، وَمُؤمِنٌ لَمْ يَتَفَقَّهْ، وَمُنَافِقٌ. وَذلِكَ فِي الدُّنْيَا مَثَلُ الغَيْثِ، يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأرْضِ، فَيُصِيبُ الشَّجَرَةَ المُورِقَةَ المُونِعَةَ المُثْمِرَةَ، فَيَزِيدُ وَرَقَها حُسْناً، وَيَزِيدُهَا إِينَاعاً، وكَذَلِكَ يَزِيدُ ثَمَرَهَا طِيْباً، وَيُصِيبُ الشَّجَرَةَ المُورِقَةَ المُونِعَةَ، الَّتِي لَيْسَ لَهَا ثَمَرَةٌ، فَيَزِيدُهَا إيناعاً وَيَزِيدُهَا وَرَقاً حَسَناً، وَتَكُونُ لَهَا ثَمَرَةٌ فَتَلْحَقُ بِأُخْتِهَا، وَيُصِيبُ الهَشِيْمَ مِنَ الشَّجَرِ، فَيَحْطِمُهُ فَيَذْهَبُ بِهِ، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ الآيةَ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ

= ووافقه الذهبي. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٦٥) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح». وانظر: مجمع البحرين بزوائد المعجمين (١/ ٤٨٢)، وحَسَّنه المُحقِّق.

(١) هو أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ الكوفي، عبد الله بن حبيب بن ربيعة، من أولاد الصحابة، مولده في حياة النبي ﷺ، محدثٌ، ثقةٌ، وقارئ مجوِّدٌ ماهرٌ، وقد كان ثَبْتاً في القراءة وفي الحديث، حديثه مُخَرَّجٌ في الكتب الستة. توفي في سنة (٧٤هـ).
انظر: طبقات ابن سعد (٦/ ١٧٢)؛ حلية الأولياء (٤/ ١٩١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٢٦٩).

(٣) هو أويس بن عامر بن جزء المرادي القَرَني الزاهد المشهور. أدرك النبيَّ ﷺ ولم يره. كوفي من خيار التَّابعين وعُبَّادهم، ورد في فضله عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له: أويس، لا يَدَع باليمن غيرَ أمٍّ له، وقد كان به بياض فدعا الله فأذهبه عنه إلا موضع الدِّرهم، فمَنْ لقيه منكم فمروه فليستغفر لكم...» الحديث، رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل أويس القرني (٤/١٩٦٨) (ح٢٥٤٢)، وذكر أن عمر طلب منه أن يستغفر له، ففطن له الناس فهام على وجهه، ونزل الكوفة. توفي في صفِّين مع عليٍّ رضي الله عنه. انظر: لسان الميزان (١/ ٤٧١ ـ ٤٧٥)؛ ميزان الاعتدال (١/ ٢٧٨)؛ معرفة الثقات، للعجلي (١/ ٢٣٩).

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. لَمْ يُجَالِسْ هذا القُرْآنَ أحَدٌ، إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أوْ نُقْصَانٍ، فَقَضَاءُ اللهِ الَّذِي قَضَى، شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِيْنَ إلَّا خَساراً»[1].

* وعَنْ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «مَا جَالَسَ القُرْآنَ أحَدٌ فَقَامَ عَنْهُ إلَّا بِزِيَادَةٍ أوْ نُقْصَانٍ، ثُمَّ قَرَأ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]»[2].

٦ ـ القلوب المرضى لا تجد لذَّةً للقرآن:

* عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قالَ: «سَيَبْلَى القُرْآنُ في صُدُورِ أقْوَام كَمَا يَبْلَى الثَّوْبُ، فَيَتَهَافَتُ، يقْرَؤُونَهُ لا يَجِدُونَ لَهُ شَهْوَةً، ولَا لَذَّةً، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأن عَلَى قُلُوبِ الذِّئَابِ، أعْمَالُهُمْ طَمعٌ لَا يُخالِطُهُ خوفٌ، إنْ قَصَّرُوا قَالُوا: سَنَبْلُغُ، وَإنْ أسَاؤُوا قَالُوا: سَيُغْفَرُ لَنا، إنّا لَا نُشْرِكُ باللهِ شَيْئاً»[3].

٧ ـ القلب الخَرِب كالبيت الخَرِب:

* عن عبد اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: «إنّ هَذا القُرْآنَ مَأدُبَةُ اللهِ، فَخُذُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإنِّي لَا أعْلَمُ شَيْئاً أصْفَرَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ بَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللهِ شيءٌ، وَإنَّ القَلْبَ الَّذِي لَيْسَ فيه مِنْ كِتَابِ الله شيءٌ خرِبٌ كَخَرَابِ البَيْتِ الَّذِي لا سَاكِنَ لَهُ»[4].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٩٧) (رقم ٣٣٨٦) وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. ورواه ابن المبارك في «كتاب الجهاد» (١/ ١٣٢) (رقم ١٥٩). قال ابن حجر في «الإصابة» (١/ ٢٢٢): «وهو صحيح السند».

(٢) رواه الدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: في تعاهد القرآن (٢/ ٣١١) (رقم ٣٣٤٤)؛ والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص٧٧) (رقم ٥٤)؛ ومحمد بن نصر في «قيام الليل» (ص٧٣)؛ والإمام أحمد في «الزهد» (ص٢٧٢).

(٣) رواه الدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: في تعاهد القرآن (٢/ ٣١١) (رقم ٣٣٤٦). وانظر: تاريخ مدينة دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن الشافعي (٦٧/ ٩٧).

(٤) رواه الدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل مَنْ قرأ القرآن (٢/ ٣٠٢) =

٨ ـ القلب الخَبيث كالأرض الخبيثة:

* عَنْ قَتَادة رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِ اللهِ عزَّ وَجلَّ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨]، قَالَ: «الْبلَدُ الطّيبُ: الْمُؤمِنُ سَمِع كِتَابَ اللهِ فَوَعَاهُ فَأَخَذَ بِهِ فَانْتَفَعَ بِه، كَمثَل هَذه الأرضِ أصَابها الْغيْثُ فَأنْبَتَتْ وَأمْرعَتْ. ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] عَسِراً، مِثْلَ الْكافِرِ قَدْ سَمِعَ الْقُرآنَ فَلَمْ يعْقلْهُ، وَلَمْ يأْخذْ بِه، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِه، كَمَثَل هَذِه الأَرْض الخَبِيثَةِ أصابَها الغَيْثُ فلمْ تُنبتْ شَيْئاً ولا تُمْرعْ شيْئاً»[١].

* وعن السُّدّي[٢] رَحِمَهُ اللهُ في قولِ اللهِ عَزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ قال: هي السَّبِخَةُ ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباتُها ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾. والنَّكِدُ: الشَّيء القليل الذي لا ينفع، كذلك القلوب لمَّا نزل القرآن. فالقلب المؤمن لمَّا دخله القرآنُ آمن به، وثَبَتَ الإيمانُ فيه؛ والقلب الكافر لمَّا دخلَه القرآنُ لم يتعلَّق منه بشيء ينفعه، ولم يثبت فيه من الإيمان شيء إلّا ما لا ينفع، كما لم يُخْرِجْ هذا البلد إلّا ما لا ينفعُ من النبات»[٣].

* وعن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قال:

= (رقم ٣٣٠٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣/ ٣٦٨) (رقم ٥٩٩٨)؛ وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٦٤) وقال: «رواه الطبراني بأسانيد، ورجال هذه الطريق رجال الصحيح».

(١) رواه الآجُرّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص٧٧) (رقم ٥٥)؛ وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٧٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ عن قتادة.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الحجازي الأعور السُّدّي أحد موالي قريش، وهو السُّدّي الكبير المفسر، ذكره ابن حبان في الثقات، ووثّقه غير واحد، وضعّفه آخرون، قال العجلي: ثقةٌ، عالمٌ بتفسير القرآن، راويةٌ له، وقد ذكره الطّبري في تفسيره من طريق أسباط بن نصر الهمذاني، وله تفسير، مات سنة (١٢٧هـ).
انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٤)؛ تاريخ الثّقات، للعجلي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي (ص٦٦)؛ الثّقات، لابن حبان (٤/ ٢٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٦٨) (رقم ١٤٧٩٩).

البلد الطَّيِّب ينفعه المطر فينبت، والذي خَبُثَ: السِّباخ، لا ينفعه المطر، لا يخْرُجُ نباتُه إلَّا نكداً، قال: هذا مَثَلٌ ضربه الله لآدم وذريَّته كلِّهم، إنما خُلِقوا من نفْسٍ واحدة، فمنهم مَنْ آمن بالله وكتابه فطاب؛ ومنهم مَنْ كفر بالله وكتابه فخَبُثَ»[١].

- الجهل بالقرآن يؤدِّي إلى الاختلاف ثُمَّ الاقتتال:

* عن إبراهيمَ التَّيْمي[٢] رَحِمَهُ اللهُ قال: «خَلَا عُمَرُ ذَاتَ يَوْمٍ فَجَعَلَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ كَيْفَ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الأُمَّةُ وَنَبِيُّهَا وَاحِدٌ، وَقِبْلَتُهَا وَاحِدَةٌ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ! إِنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْقُرآنُ فَقَرَأْنَاهُ، وَعَلِمْنَا فِيْمَ أُنزِلَ، وَإِنَّهُ سَيَكُوْنُ بَعْدَنَا أَقْوَامٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَلَا يَدْرُوْنَ فِيْمَ أُنزِلَ، فَيَكُوْنُ لَهُمْ فِيْهِ رَأْيٌ، وَإِذَا كَانَ لَهُمْ فِيْهِ رَأْيٌ اخْتَلَفُوا، فَإِذَا اخْتَلَفُوا اقْتَتَلُوا»[٣].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٦٨) (رقم ١٤٨٠٠).

(٢) هو إبراهيم بن يزيد بن شريك التَّيمي، من تيْم الرِّباب، ويُكنى أبا أسماء، الكوفي، العالِم، العامل. قال الذَّهبي: «كان من الثِّقات، وليس حديثه بكثير، احتجَّ به أهلُ الكتب». قال الأعمش: «سمعته يقول: ربَّما أتى عليَّ شهران لا أطعم فيها، لا يَسْمَعَنَّ هذا منك أحد». قتله الحجَّاج. وقيل: بل مات في حبسه ولم يبلغ الأربعين، مات قبل أنس بن مالك، سنة (٩٢هـ) رحمه الله تعالى.
انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٧٣)؛ الطبقات الكبرى (٦/ ٢٨٥).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١/ ١٧٦) (رقم ٤٢)؛ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٢٣٠)؛ وأورده عليُّ بن حسام الدِّين الهندي في «كنز العُمَّال» (٢/ ١٤٥) (رقم ٤١٦٧).

الباب الثاني

أنــواع الـهـجـر

وفيه تسعة فصول:

الفصل الأول: هجر الإيمان بالقرآن (الكفر به).

الفصل الثاني: هجر تعظيم القرآن (الاستهزاء به).

الفصل الثالث: هجر استماع القرآن.

الفصل الرابع: هجر تعلُّم القرآن وتعليمه.

الفصل الخامس: هجر تلاوة القرآن.

الفصل السادس: هجر حفظ القرآن.

الفصل السابع: هجر تدبُّر القرآن.

الفصل الثامن: هجر العمل بالقرآن.

الفصل التاسع: هجر التَّحاكم إلى القرآن.

الفصل الأول

هجر الإيمان بالقرآن

(الكفر به)

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته.

المبحث الثاني: الآيات الدَّالة على وجوب الإيمان بالقرآن.

المبحث الثالث: الوعيد على هجر الإيمان بالقرآن.

المبحث الرابع: أنواع التَّكذيب بالقرآن.

المبحث الخامس: حُكم التَّكذيب بالقرآن.

المبحث السادس: أهل الكتاب وتكذيبهم بالقرآن.

المبحث الأول

وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته

أولاً: وجوب الإيمان بالقرآن:

الإيمان بالقرآن العظيم هو أحد أصول الإيمان وأركانه، أوجبه الله تعالى على العباد، فلا يتمُّ إيمان أحدٍ إلّا إذا آمن به تفصيلاً، وبالكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله إجمالاً، وأفضلها القرآن الكريم.

وقد أخبر الله تعالى أنّ الرسول ﷺ والمؤمنين آمنوا بما أنزل الله تعالى على رسوله ـ وهو القرآن العظيم ـ وبما أنزل على الرُّسل من قبله فقال تعالى في مقام الثّناء عليهم: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وممَّا يدلُّ على وجوب الإيمان بالقرآن: أنّ الله عزَّ وجلَّ أمر المؤمنين بأن يؤمنوا بما أنزله على رسوله ﷺ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

وممَّا يدلُّ على وجوبه أيضاً: أنّ الله تعالى أهلك الأمم السّابقة بسبب تكذيبهم برسالاته، كما حكى الله سبحانه عن صالحٍ عليه السّلام قوله:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

ومَنْ لم يؤمن بالكتب السّابقة ـ مع إيمانه بالقرآن العظيم وأنه أفضلها بلا شك ـ فقد خرج عن طريق الهدى إلى الضّلال والكفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والمؤمنون في هذا الأمر على دَرْبِ نبيِّهم ﷺ حيث أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يعلن إيمانه بكلّ الكتب السّابقة التي أوحاها الله عزَّ وجلَّ إلى

رسله، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]. فكيف بالكتاب الذي أنزل عليه.

القرآن رحمة الله بعباده:

إنَّ إنزال القرآن الكريم من رحمة الله تعالى بعباده لحاجة البشرية إليه؛ لأنَّ عقل الإنسان محدود، لا يدرك تفاصيل النَّفع والضَّرر، وإن كان يدرك الفرق بين الضَّار والنَّافع إجمالاً، والعقل الإنساني أيضاً تغلب عليه الشَّهوات وتلعب به الأغراض والأهواء، فلو وُكِلَتْ البشريةُ إلى عقولها القاصرة؛ لضلَّت وتاهت.

فاقتضت حكمةُ الله تعالى ورحمتُه أن ينزل كتباً من عنده على المصطفين من رسله؛ ليبيِّنوا للناس ما تدلُّ عليه هذه الكتب، وما تتضمَّنه من أحكامه العادلة، ووصاياه النَّافعة، وأوامره ونواهيه الكفيلة بإصلاح البشرية.

قال تعالى حين أهبط آدم أبا البشرية من الجنة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ـ أيضاً ـ أن تكون هذه الكتب السَّابقة لآجالٍ معيَّنة، ولأوقاتٍ محدَّدة، ووكل حفظها إلى الذين استحفظوا عليها من البشر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

أمَّا القرآن العظيم: فقد أنزله الله ﷻ لكلِّ الأجيال من الأمم، وفي كلِّ الأوطان إلى يوم القيامة، وتولَّى حفظه بنفسه؛ لأنَّ وظيفة هذا الكتاب لا تنتهي إلا بنهاية حياة البشر على الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢][1].

(1) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح بن فوزان الفوزان (ص١٧٣ ـ ١٧٥).

وما أحوج المسلمين في هذا الزمن إلى القرآن؛ ذلك أنهم لا يستطيعون أنْ يواجهوا قضايا عصرهم وزمانهم إلّا بالقرآن العظيم، يعتصمون به في روابطهم، ويقيمون أحكامه في حياتهم، ويجاهدون به أعداءهم ويُصلحون به دنياهم، ويستقبلون به آخرتهم، ولقد اقتضت سُنَّة الله تعالى في خلْقه أنْ يكون اتّباعهم القرآن العظيم سبباً لنجاتهم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦][(١)].

المزايا التي خُصَّ بها القرآن عن الكتب السَّابقة:

وبما أنَّ القرآن العظيم هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى، فإنَّ الله تعالى قد خصَّه بمزايا تُميِّزه عن جميع ما تقدَّمه من الكتب المنزَّلة، ومن أهمِّها:

١ ـ هو الكتاب الرَّباني الوحيد الذي تكفَّل الله تعالى بحفظه، وصيانته من عبث النَّاس، ليبقى ما فيه حُجَّة الله على النَّاس، قائمة حتَّى يرث اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

٢ ـ أنزله الله سبحانه على رسوله محمدٍ ﷺ للنَّاس كافة، وليس خاصّاً بقوم معيَّنين، كما هو حال الكتب السّابقة. قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

٣ ـ تضمَّن خلاصة التَّعاليم الإلهية، فجمع كلَّ ما كان متفرِّقاً في الكتب السّابقة من الحسنات والفضائل.

٤ ـ جاء مؤيِّداً ومصدِّقاً لما جاء في الكتب السّابقة من توحيد الله وعبادته ووجوب طاعته.

٥ ـ جاء مهيمناً ورقيباً على ما سبقه من كتب، يُقِرُّ ما فيها من حقٍّ، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا

(١) انظر: عظمة القرآن الكريم، لمحمود بن أحمد الدوسري (ص١٧).

﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨][1].

٦ ـ جاء بشريعة عامَّة للبشر، فيها كلُّ ما يلزمهم لسعادتهم في الدَّارين[2].

٧ ـ نَسَخَ جميعَ الشَّرائع العملية الخاصَّة بالأقوام السَّابقة، وأتى بشريعة مرنة بزينةِ رفعِ الحرج والمشقَّة، حتَّى تُحِبَّها النُّفوس، وتُقْبِلَ على العمل بها دون كلل أو ملل، يُفضي إلى انقطاعٍ، فالسَّماحة واليسر من المزايا الخاصَّة التي تميَّز بها القرآن العظيم عن جميع ما تقدَّمه من الكتب المنزَّلة.

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦][3].

٨ ـ نزل بأفضل الألسنة، وأفصحها، وأوسعها، وهو اللِّسان العربي المبين[4].

٩ ـ كتابٌ متجدِّد، لا تفنى عجائبه، ولا تنتهي نوادره، تجاوَزَ حدود المكان ليشمل آفاق الدُّنيا بأسرها، وتجاوَزَ حدود الزَّمان، فلم يتوقَّف عند زمنٍ معيَّن، بل في كلِّ زمنٍ تجده ملائماً له، مُتَّسقاً معه، كأنَّما نَزَلَ لهذا الزَّمن، وخُصَّ به دون غيره.

ثانياً: ما يقتضيه الإيمان بالقرآن:

والإيمان بالقرآن العظيم يقتضي عدَّة أمور، من أهمِّها:

١ ـ التَّصديق الجازم بأنه حقٌّ وصدقٌ، وأنَّه كلام الله تعالى.

٢ ـ أنَّ فيه الهدى والنورَ والكفايةَ لهذه الأمَّة.

٣ ـ أنْ نؤمن به كلِّه، فلا يجوز أن نؤمن ببعضه ونتَّبعه ونترك البعضَ الآخر فلا نتَّبعه، فيجب علينا أن نطيع الله تعالى في كلِّ ما يأمرنا به، قال تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

---

(١) انظر: المصدر نفسه (ص١١٦ ـ ١٢٧).
(٢) انظر: الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، د. محمد نعيم ياسين (ص٨١ ـ ٨٢).
(٣) انظر: عظمة القرآن الكريم (ص٢٣٨ ـ ٢٤١).
(٤) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٤٨٥).

وقال تعالى في توبيخ بني إسرائيل والإنكار عليهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

والقرآن العظيم من باب أولى فهو منهاج عمليٌّ يتضمَّن الأصول المُوَجِّهة لحياة الفرد، وعلاقته بربِّه تبارك وتعالى، وعلاقته بالكون والحياة من حوله، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته وجيرانه ومجتمعه، وعلاقته بأمَّته المسلمة، وعلاقته بغير المسلمين، ممن يسالمونه وممن يحاربونه[١].

٤ ـ العمل به، والرِّضا به، والتَّسليم له، سواء فهمنا حكمته أم لم نفهمها[٢].

٥ ـ الإيمان بأنَّه الكتاب الوحيد الذي حُفِظَ من التَّغيير والتَّبديل والتَّحريف، فصانه الله تعالى عن تقوُّل الكاذبين، وحماه من تلاعب المشكِّكين، بما هيَّأ له من وسائل الحفظ في الصُّدور والمصاحف، فجعله قَطْعيَّ الثُّبوت، لا يتطرَّق إليه أدنى ريب، فهو كتاب خالد خلود الدَّهر، باقٍ ما دامت السماوات والأرض. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وضمائر العظمة تؤكِّد أنَّه غير قابلٍ للاختراق.

٦ ـ أنْ نؤمن إيماناً قاطعاً بما فصَّله القرآن من حديث عن الكتب السَّابقة؛ لا نزيد ولا ننقص[٣].

٧ ـ أنْ نؤمن أنَّ القرآن العظيم هو مصدر الشَّريعة، فلا شيءَ في حياة المسلم السِّياسيَّة أو الاقتصاديَّة أو الاجتماعيَّة أو الأخلاقيَّة أو الفكريَّة أو الرُّوحيَّة يرجع فيه إلى مصدر آخر غير هذا الكتاب[٤].

٨ ـ أنَّ شرح القرآن وتفصيله في سُنَّة الرَّسول ﷺ، فهي المبيِّنة للقرآن والموضِّحة له، ولا يُفهم القرآن تفصيلاً وتوضيحاً إلَّا بها.

---

(١) انظر: المصدر السابق (ص٥٣٢ ـ ٥٣٥).
(٢) انظر: الإيمان بالكتب، لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص٦ ـ ٧).
(٣) انظر: حق القرآن الكريم على الناس (ص١٢ ـ ١٣).
(٤) انظر: ركائز الإيمان (ص٢١٠).

ثمرات الإيمان بالقرآن:

والإيمان الصحيح بالقرآن العظيم يُثمر ثمراتٍ جليلةً، ومن أهمّها:

١ ـ العلم بعناية الله تعالى بهذه الأمّة، حيث أنزل لها أعظم كتاب يهدي للتي هي أقوم في الدُّنيا والآخرة.

٢ ـ العلم بحكمة الله تعالى، حيث شرع لكلِّ أمّة ما يناسبهم، ويلائم أحوالهم.

٣ ـ التّحرر من سوءات أفكار البشر بهدي الله تعالى ونوره.

٤ ـ السّير على طريق مستقيمة واضحة لا اضطراب فيها ولا اعوجاج، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]. فالقرآن العظيم مستقيم في ذاته، مقيم للنُّفوس على جادّة الصّواب؛ والخطُّ المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين.

٥ ـ التّحرر من الأوهام والتّخبط العقدي.

٦ ـ الفرح بهذا الخير العظيم: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

٧ ـ شكر الله تعالى على هذه النّعمة العظيمة والمِنّة الكبيرة.

٨ ـ السّعادة في الدّارين؛ الدُّنيا باتّخاذه دستوراً حاكماً في كلِّ شؤون حياتنا، والآخرة بالفوز بالجنّة، والمعيشة الطّيبة[1].

---

(١) انظر: الإيمان بالكتب (ص٣٣ ـ ٣٤).

المبحث الثاني

الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن

إنَّ وجوب الإيمان بالقرآن الكريم أمرٌ في غاية الأهمية في حياة المسلمين؛ لأنَّ الإيمان به يتضمَّن الإيمان بسائر الكتب الإلهيَّة التي نزلت قبله؛ لأنَّه هو المصدِّق لها جميعاً والمهيمن على ما جاء فيها، فالإيمان به إيمانٌ بها جميعاً[١].

وقد ورد وجوب الإيمان بالقرآن الكريم في آيات كثيرة منه، منها ما دلالته على الوجوب صريحة، ومنها ما دلالته على الوجوب ضمنيَّة، ويُكتفى هنا على ما كانت دلالته فيه صريحة، وذلك خشية الإطالة، وهي على النَّحو الآتي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١].

الخطاب في قوله ﴿وَءَامِنُوا۟﴾ لليهود الذين هم في عصر نزول القرآن، فقد دعاهم الله تعالى للإيمان بما أنزل على عبده ورسوله محمدٍ ﷺ، وهو القرآن، فأمرهم بالإيمان به، واتِّباعه[٢].

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: أنَّ القرآن مُوافقٌ لما معكم من التَّوراة في التَّوحيدِ والنُّبوةِ والأخبار ونعتِ النَّبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أي: لا تكونوا أولَ فريقٍ كافرٍ بالقرآن من أهل الكتاب، فيتبعكم مَنْ جاء بعدكم فتبوءوا بآثامكم وآثامهم؛ وذلك لأنَّ قريشاً كفرت قبل اليهود بمكَّة[٣].

---

(١) انظر: التَّفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلِّقة بالكتب السَّماوية، د.عبد العزيز الدِّردير موسى (ص٤٣٥ ـ ٤٤٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/١٩٩)؛ تفسير السعدي (١/٥٥)
(٣) انظر: تفسير البغوي (١/٦٧).

مسألة: وهل يقتضي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ إباحة الكفر في ثاني الحال؟

جوابها: لا يقتضي هذا بحال من الأحوال؛ وذلك لأنَّ النَّهي عن الكفر مطلقاً جاء صريحاً في عِدّة آيات، وهذا يُسَمِّيه العلماء مفهوماً معطَّلاً.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المقصود من الكلام النَّهي عن الكفر أولاً وآخِراً»[١].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القصد من النَّهي ألّا يكونوا من المبادرين بالكفر، أي لا يكونوا متأخِّرين في الإيمان»[٢].

فنهاهم أن يكونوا أوَّل كافر بالقرآن؛ لكون أوَّلِ فريقٍ كافرٍ يسنُّ الكفر لمن بعده، فيكون إثمه أعظم، والعقوبة عليه أغلظ[٣].

وهذا الأمر الصَّريح لأهل الكتاب في عهد النَّبيِّ ﷺ بأن يؤمنوا بالقرآن، دليلٌ صريحٌ على وجوب الإيمان به.

الآية الثَّانية: قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام:١٠٦].

الأمر هنا: صادر من الله تعالى، والمخاطَب: هو النَّبي ﷺ. والمراد بما أُوحي إليه: القرآن، وهو قول عامَّةِ المفسِّرين.

ومِمَّنْ صرَّح بذلك: القرطبيُّ[٤] والبغويُّ[٥]، والسَّمعانيُّ[٦]، وابن عاشور[٧].

وهذا أمرٌ صريح باتِّباعِ القرآن، والإيمان به، والعمل بما جاء فيه. والخطاب وإنْ كان للنَّبي ﷺ، إلّا أنَّ المراد به هو وأمَّته، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

الآية الثَّالثة: قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٣٣٣). (٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٤٦)
(٣) انظر: التسهيل لتأويل التنزيل، مصطفى العدوي(١/ ٤٣٩)
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٦٠).
(٥) انظر: تفسير البغوي (٢/ ١٢١). (٦) انظر: تفسير السمعاني (٢/ ١٣٤).
(٧) انظر: التحرير والتنوير (٦/ ٢٥٨).

المراد بالكتاب هنا: هو القرآن كما يقول المفسّرون، وكما هو ظاهِرٌ من سياق الكلام.

ومعنى كونه مباركاً: أي كثير الفوائد والمنافع الدِّينية والدُّنيوية.

والفاء في قوله ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ للتَّرتيب، أي يترتَّبُ على كونه مُنَزَّلاً من عند الله، وكونه نافعاً مباركاً أن تتَّبعوه فتؤمنوا به، وتعملوا بأوامره، وتجتنبوا نواهيه؛ لعلَّكم تَصِلون بذلك إلى رحمة الله تبارك وتعالى، التي وسعت كلَّ شيءٍ، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وما أحْسَنَ ما قرَّره السَّمرقندي[1] رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فقال: «يعني: القرآن، فيه بركةٌ لِمَنْ آمن به، وفيه مغفرةٌ للذُّنوب، ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ يعني: اقتدوا به. ويُقال: اعملوا بما فيه من الأمر والنَّهي. ﴿وَاتَّقُوا﴾ يعني: واجتنبوا، ولا تتَّخذوا إماماً غير القرآن. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني: لكي تُرحموا، ولا تُعذَّبوا»[2]. فما كان كذلك لا يتردَّدُ أحدٌ في الإيمان به، واتِّباعه.

وهذا الأمر الصَّريح باتِّباعِ القرآن العظيم، دليلٌ على وجوب الإيمانِ به، والاعتقادِ الجازمِ بأنَّه مُنزَّل من عند الله تبارك وتعالى.

الآية الرَّابعة: قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣].

ظاهر اللَّفظِ هنا يدلُّ على أنَّ ﴿مَا أُنزِلَ﴾ مرادٌ به القرآن، كما قرَّر ذلك السّيوطي[3] والسَّعدي[4]. بدليل ما قبله من قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ﴾ [الأعراف: ٢]. فالكتاب، والضَّمائرُ العائدةُ إليه مرادٌ بها القرآن.

---

(١) هو صاحب الأقوال المفيدة والتَّصانيف المشهورة، المعروف بإمام الهدى (أبو اللَّيث) نصر ابن محمد السَّمرقندي، نسبة إلى سمرقند، من تصانيفه: «تفسير القرآن العظيم»، و«تنبيه الغافلين»، و«النوازل في الفقه». توفي سنة (٣٧٥هـ).
انظر: طبقات المفسرين (٢/ ٣٤٦).

(٢) تفسير السمرقندي (١/ ٥١٣).

(٣) انظر: الدر المنثور (٣/ ٤١٣).

(٤) انظر: تفسير السعدي (١/ ٢٨٣).

وبعض المفسّرين اعتمد أنَّ المُنَزّل في الآية هو القرآن والسُّنة، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧][١]. وقد ذكَرَ السّمعاني[٢] رَحِمَهُ اللهُ أنَّ السُّنّة وإنْ لم تكنْ مُنزَّلةً فهي كالمنزَّلة بحُكم هذه الآية[٣].

وأيّاً مَا كان فالآية التي معنا أمرٌ صريح باتّباع القرآن الكريم، والإيمان الجازم بأنّه منزّلٌ من عند الله تعالى، وهذا هو المقصود من إيرادها.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

الأمر هنا باتّباع الوحي أي القرآن، والمخاطب هو النّبي ﷺ. فقد قال الله تعالى له فإنْ لم يُصدّقوك فاعملْ بما أُنزل إليك من القرآن وتمسّكْ به، واصْبِرْ على تكذيبهم، وعدم إيمانهم بالقرآن حتّى يقضي الله تعالى بعذابهم في الدُّنيا والآخرة[٤].

فهذا الخطاب وإنْ كان ظاهره للنبي ﷺ إلّا أنّ المراد هو وكلُّ مُخاطَب، إذ النّبي ﷺ مأمورٌ بالتّبليغ أيضاً، قال أبو السُّعود رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيرها: «﴿وَٱتَّبِعْ﴾ اعتقاداً وعملاً وتبليغاً»[٥].

والآية صريحةٌ في الأمر باتّباع القرآن الكريم، مع الجَزْمِ واليقين بأنّه وحْيٌ

---

(١) ومِمَّنْ قال بذلك: الرّازي في «تفسيره» (١٤/ ١٦)؛ والزمخشري في «تفسيره» (٢/ ٨٣)؛ والبيضاوي في «تفسيره» (٣/ ٤)؛ والقرطبي في «تفسيره» (٧/ ١٦١)؛ والنسفي في «تفسيره» (٢/ ٣).

(٢) هو منصور بن محمد بن عبد الجبّار التّميمي، المروزي، المعروف بابن السّمعاني (أبو المظفّر) مفسّر، محدّث، متكلّم، فقيه، أصولي، ولد سنة (٤٢٦هـ)، وتفقّه على مذهب أبي حنيفة، ثم ورد بغداد وانتقل إلى المذهب الشّافعي، ورجع إلى بلده فلم يقبلوه، وقام عليه العوامُّ فخرج إلى طوس، ثم قصد نيسابور، وتوفي بمرو سنة (٤٨٩هـ). من تصانيفه: «منهاج أهل السنة»، و«القواطع في أصول الفقه»، و«تفسير القرآن»، و«الانتصار في الحديث» انظر: طبقات الشافعية (٤/ ٢١ ـ ٢٦).

(٣) انظر: تفسير السمعاني (٢/ ١٦٤).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٦)؛ تفسير السمرقندي (٢/ ١٣٦).

(٥) تفسير أبي السعود (٤/ ١٨١).

من الله تعالى، أنزله على نبيِّه ﷺ، وهو المقصود من إيراد الآية.

الآية السَّادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

المُخاطَب في هذه الآية هو نبيُّنا محمدٌ ﷺ.

«معنى فَرَضَ: أَلْزَمَ وأَوْجَبَ وحتَّم»[1]. فالفرض هو الإيجاب، فالله تعالى قد فرض وأوجب على نبيِّه ﷺ الإيمانَ بالقرآن، وتبليغَه للنَّاس كافَّةً، وتلاوته، والعمل بما فيه.

قال أبو السُّعود رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها: «أوجب عليك تلاوتَه، وتبليغَه، والعمل به»[2].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها: «أي إنَّ الذي أوجب عليك تبليغَ القرآن لرادُّك إليه، ومعيدُك يوم القيامة، وسائِلُك عن أداء ما فرض عليك، هذا أحَدُ الأقوال، وهو مُتَّجَهٌ حَسَنٌ»[3].

وكما وَجبَ القرآنُ العظيم على النَّبي ﷺ فقد وجب على الأُمَّة، وعلى كُلِّ منْ بلغه أنْ يؤمن به، ويعمل بما فيه من شرائعَ وعقائدَ، فيمتثل أمره، ويجتنب نهيه، وهذا هو شاهدنا من إيراد هذه الآية، وقد وضَحَ المرادُ، والحمد لله تعالى.

الآية السَّابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

المراد بـ ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ﴾ هو القرآن العظيم. كما قرَّر ذلك ابن كثير[4]، وأبو السُّعود[5]، والبغويُّ[6]، والثَّعالبيُّ[7][8]، والشَّوكاني[9].

---

(١) تفسير الشعراوي (١٨/ ١١٠٣٩).
(٢) المصدر السابق (٧/ ٢٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٣).
(٤) انظر: المصدر نفسه (٤/ ٦١).
(٥) انظر: تفسير أبي السعود (٧/ ٢٦٠).
(٦) انظر: تفسير البغوي (٤/ ٨٥).
(٧) هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثَّعالبي الجزائري (أبو زيد): مفسِّر، من أعيان الجزائر، ولد سنة (٧٨٦هـ)، وزار تونس والمشرق. من كتبه: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»، و«الأنوار»، و«روضة الأنوار ونزهة الأخيار»، و«الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز». توفِّي سنة (٨٧٥هـ). انظر: طبقات المفسِّرين (١/ ٣٤٢).
(٨) انظر: تفسير الثعالبي (٤/ ٦١).
(٩) انظر: تفسير الشوكاني (٤/ ٤٧١).

والوصف بصيغة التَّفضيل (أحسن) فيه تفصيل:

فقيل: معناه اتَّبِعوا ما فيه من أمرٍ بالطَّاعة، فجدُّوا في تحصيلها، وكُلُّ ما أمَر القرآنُ بامتثاله فهو حَسَن، وأمّا ما فيه من نهي عن القبائح فابتعدوا عنها.

وقيل: معناه اتَّبعوا العملَ بالنَّاسخ، واجتنبوا العمل بالمنسوخ، ولا شكَّ أنَّ الحُكم الجديد ـ الذي هو النَّاسخ ـ أحسن وأفضل للأُمَّة من الحُكم المنسوخ.

وقال البغويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾: «يعني: القرآنَ، والقرآنُ كلُّه حَسَنٌ، ومعنى الآية ما قاله الحسن: الْتزِموا طاعتَه، واجتنبوا معصيته، فإنَّ القرآن ذَكَرَ القبيحَ لتجتنِبَه، وَذَكَرَ الأدوَن لئلَّا ترغبَ فيه، وذَكَرَ الأحسنَ لتؤثِره»(١).

ولا ريبَ أنَّ القرآنَ العظيم أَحْسَنُ ما أُنزل إلينا من رَبِّنا تبارك وتعالى، فله الحمد والمِنَّةُ، والسنَّةُ مبيِّنةٌ له ومُوَضِّحة، لكنَّ هذه النِّعمةَ الجليلة تستوجب الشُّكْرَ العملي بالإضافة إلى الشُّكرِ اللَّفظي، فقد هُدِّدَ مَنْ لم يَتَّبِعْ أحسنَ ما أُنزل إلينا مِنْ رَبِّنا، ولم يؤمن به، بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾(٢) [الزمر: ٥٥].

وكما قال ابن عطيَّة الأندلسي(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ: «معناه أنَّ القرآن العزيز تضمَّن عقائد نَيِّرة، وأوامِرَ ونواهِيَ مُنجية، وعِداتٍ على الطاعات والبرِّ، وحدوداً على المعاصي، ووعيداً على بعضها، فالأَحْسَنُ أن يَسْلُكَ الإنسانُ طريقَ التَّفهم والتَّحصيل، وطريقَ الطَّاعة، والانتهاء والعفو في الأمور، ونحو ذلك، فهو أَحْسَنُ مِنْ أنْ يسلك طريقَ الغفلة والمعصية، فيجد أو يقع في الوعيد»(٤).

والأمر العامُّ باتِّباع القرآن، والإيمان به، والعمل بما فيه، صريح الدَّلالة على وجوب الإيمان بالقرآن العظيم.

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٨٥). (٢) انظر: أضواء البيان (٧/ ٣٠٠).

(٣) هو أبو محمد، عبد الحقّ بن غالب بن عبد الملك بن عطية، الغرناطي، القرطبي، عَلَمُ المفسرين، كان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتَّفسير واللُّغة، ولي القضاء. من أهمِّ مؤلَّفاته: «تفسير المحرر الوجيز». توفِّي سنة (٥٤٦هـ).
انظر: طبقات المفسِّرين (١/ ٢٦٠).

(٤) تفسير ابن عطية (٤/ ٥٣٧).

الآية الثَّامنة: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

المخاطب هنا: رسول الله ﷺ، والذي أوحي إليه: هو القرآن، والأخذ به والاستمساك بحبله: هو الحقُّ المُوصل إلى الصِّراط المستقيم، الموصل إلى الجنَّة.

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسيرها: «أي خُذْ بالقرآن المنزَّل على قلبك فإنَّه هو الحقُّ، وما يهدي إليه هو الحقُّ المُفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنَّات النَّعيم، والخير الدَّائم المقيم»[١].

وقال القرطبيُّ رحمه الله في قوله ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾: «يُريد القرآنَ، وإنْ كذَّب به منْ كذَّب»[٢].

فالأمر من الله تعالى لنبيِّه ﷺ بالاستمساك بالقرآن العظيم، أي: الأخذُ به، والإيمانُ الجازم بأنَّه من عند الله تعالى، والعملُ بجميع شرائعه ـ كما لا يخفى على أحدٍ ـ شاملٌ للنَّبيِّ ﷺ ولأُمَّته.

الآية التَّاسعة: قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

هذا أمر من الله تعالى لعباده أجمعين أن يؤمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، وأن يؤمنوا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى إليه، وقد سمَّى اللهُ تعالى القرآن نوراً؛ لأنَّه واضحٌ في نفسه مُوضِّح لغيره، فأشبه في ذلك النُّور.

وقد دلَّت هذه الآية الكريمة على أنَّ القرآن نور يكشف ظلمات الجهل، ويظهر في ضوئه الحقُّ، ويتميَّز عن الباطل، ويُميِّز به بين الهدى والضَّلال، والحسن والقبيح.

فيجب على كلِّ مسلم أنْ يؤمن به ويستضيء بنوره، فيعتقد عقائده، ويحلّ حلاله، ويحرم حرامه، ويمتثل أوامره، ويجتنب ما نهى عنه، ويعتبر بقصصه وأمثاله[٣].

ففي هذه الآية أمر صريح بالإيمان بالقرآن العظيم، المُعَبَّر عنه بالنور.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ٩٣).

(٣) انظر: أضواء البيان (٧/ ٨٠).

المبحث الثالث

الوعيد على هجر الإيمان بالقرآن

كما أنَّ التَّرغيبَ في الشَّيء وترتُّبَ ثوابٍ على فعله، أو مَدْحَ فاعله يدلُّ على أهميَّته، ووجوبِ فعل هذا الشَّيء أحياناً، فكذلك التَّحذير من ضدِّه، أو الوعيد الشَّديد على هذا الضِّد، أو ذمُّ فاعل هذا الضِّد يدلُّ دلالة ضمنيَّة على وجوب الشَّيء ذاته.

ومحلُّ شاهدنا في هذا الأمر هو الإيمان بالقرآن العظيم، فإذا وجدنا ـ كما مرَّ بنا ـ من الآيات ما يوجب الإيمان به، ويحثُّ على ذلك بمدح فاعله، وبيان ثوابه في الدُّنيا والآخرة، فهذا يعني وجوب الإيمان بالقرآن، وكذلك إذا وجدنا من الآيات ما يُحَذِّر من الكفر به، أو ما يُرتِّب عقاباً شديداً على الكفر به، أو ما يدلُّ على الذمِّ لمن كفَر به، علمنا بطريق الدَّلالة الضِّمنيّة أنَّ الإيمان بالقرآن واجبٌ، وحتْمٌ لازم.

وقد وردت في القرآن الكريم من الآيات ما يحذِّر من الجحود به، وما يدلُّ على العقاب أو الذَّم لمن كَفَر به[1] ممَّا يحمل دلالةً ضمنيَّة على وجوب الإيمان بالقرآن، ووعيداً على التَّكذيب والكفر به، ويُكتفى هنا بذكر بعضٍ من الآيات الدَّالة على التَّحذير والوعيد والذَّمّ لمن لم يؤمن بهذا الكتاب الحكيم، وهي على النَّحو التالي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

روى ابن كثير وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال ابن صُوريا القطيوني

---

(١) انظر: التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بالكتب السّماوية (ص٤٧٧ ـ ٤٨٥).

لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بيّنة فنتّبعك، فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾»[١].

قال أبو السُّعود رحمه الله عند تفسيرها: «﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدّلالة على معانيها، وعلى كونها من عند الله عزّ وجلّ ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: المتمرّدون في الكفر، الخارجون عن حدوده، فإنّ مَنْ ليس على تلك الصّفة من الكفرة لا يجترئ على الكفر بمثل هاتيك البيّنات»[٢].

فالله تعالى ذمّ الكافرين بآيات الكتاب العظيم، وسجّلَ عليهم أشنع الأوصاف، وهو الفسق. وفي هذا دليل ضمني على وجوب الإيمان بهذه الآيات، ويُحتّم التّصديق بأنّها من الله تبارك وتعالى، وإلّا صدق عليه الحُكم بالكفر، والنّعت بالفسق.

الآية الثّانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٤ ـ ٢٥].

المقول لهم، والذين أجابوا بهذا الجواب: هم كفّار مكّة، وهم الذين تقدّم وصفهم: بأنّ قلوبهم مُنكِرة وهم مستكبرون، في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وقد ذَكَرَ البغويُّ رحمه الله وغيرُه من المفسّرين: أنّ هؤلاء الكفّار كانوا يقتسمون طرق مكة، فيقفون على مداخلها، فإذا جاء الحجيج ذكروا لهم أنّ بها رجلاً اسمه محمد كذّاب، يدّعي أنّه يُوحى إليه، فلا تُصدّقوه، فإنّ ما يقوله هو أساطير الأوّلين[٣].

والأساطير: هي الأباطيل. وهذا منهم تكذيب بالقرآن، وجحود لرسالة محمدٍ ﷺ، فهم كفروا بالقرآن، وأرادوا حَمْلَ غيرهم على هذا الكفر، ولذلك

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٩٦).
(٢) تفسير أبي السعود (١/ ١٣٤ ـ ١٣٥).
(٣) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٦١٠).

استحقُّوا أنْ يحملوا وِزْرهم، أي: إثم تكذيبهم بكتاب الله، ووزر غيرهم ممّنْ أضلُّوهم.

ثُم نبّه المولى جلّ ثناؤه على أنّ ما تحمّله القوم من إثم ضلالهم، وإثم إضلالهم قد بلغ الغاية في السُّوء، فقال تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

أي: بئس شيئاً يزرونه ما ذُكر، وهذا وعيدٌ لهم، وتهديدٌ بعذابهم يوم القيامة(١).

فالذّم على التّكذيب بالقرآن، والوعيد الشّديد على الكفر به يوم القيامة، يقتضي وجوب الإيمان به حتماً.

الآية الثّالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٤].

يدلُّ سياقُ الكلام ولِحاقُه على أنّ المراد بهؤلاء المكذّبين بآيات الله تعالى هم الكفّار في عصر النّبي ﷺ، وأنّ الآيات المُكذّب بها هي آيات القرآن الكريم.

فَقَبْلَ هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. فهذا القول معروف عن كفار مكّة، والمُعلِّم ـ في نظرهم ـ القرآن.

وبعدها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]. وهذه أيضاً أوصاف كفّار مكّة. وافتراؤهم قولهم: إنّ القرآن سحر، أو كهانة، أو أساطير الأوّلين، إلى غير ذلك(٢).

وقد سجّل الله تعالى عليهم أقبح الصّفات ـ وهو الكذب ـ وأخبر أنه لا يهديهم، أي لا يوفّقهم لاختيار طريق الحقّ، وتوعّدهم بالعذاب الأليم المُوجع يوم القيامة، وذلك جزاء كفرهم بهذه الآيات، وفي ذلك ما يدلُّ دلالة واضحة على وجوب الإيمان بالقرآن العظيم، والتّصديق بأنّه كلام الله عزّ وعلا.

---

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٣/ ١٥٧).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي (٢/ ٢٩٣)؛ تفسير أبي السعود (٥/ ١٤٢).

الآية الرَّابعة: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩ ـ ١٠١].

المخاطب: هو رسول الله ﷺ. **والذِّكْرُ:** هو القرآن العظيم[١].

«وإذا كان القرآن ذِكْراً للرَّسول وأُمَّته، فيجب تلقِّيه بالقبول والتَّسليم، والانقياد، والتَّعظيم، وأن يُهتدى بنوره إلى الصِّراط المستقيم، وأنْ يُقبلوا عليه بالتَّعلم والتَّعليم.

وأمَّا مقابلته بالإعراض، أو ما هو أعَمُّ منه من الإنكار فإنه كُفْرٌ لهذه النِّعمة، ومنْ فعل ذلك، فهو مستحقٌّ للعقوبة.

ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلُّم معانيه الواجبة ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأوْلاه الكفرَ والهجران»[٢].

وهذه الآيات الكريمة فيها التَّحذير من التَّكذيبِ بالقرآن، والإعراضِ عنه، وتهديدٌ شديد لمن كذَّب وكفر به، بأنه يوم القيامة يمكث في أوزاره وأحماله الثَّقيلة.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

صُدِّرت الآية بتكفير مَنْ قال هذه المقالة الشَّنيعة، فقد سجَّل اللهُ تعالى عليهم الكفرَ؛ بسبب كذبهم، وبهتانهم، واستهزائهم بالقرآن العظيم، حيث قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ يريدون بهذا التَّعبير الحطَّ من شأنه.

والإفكُ: هو أشدُّ الكذب، وقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه مِنْ عند نفسه.

وقولهم: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يريدون اليهود، أو بعضَ منْ كانوا يصنعون السُّيوف بمكَّة، ممن كانوا يقرؤون التَّوراة والإنجيل[٣].

وأيّاً مَا كان فقد دمغهم اللهُ تعالى بالظُّلم في هذا القول، ووصفهم بالتَّزوير في هذا الادِّعاء.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٣٢٣). (٢) تفسير السعدي (٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٣/ ٨٥، ٣٦١)؛ زاد المسير (٤/ ٤٩٣)؛ التفسير الكبير (٢٤/ ٤٤).

وما أحْسَنَ ما قاله الزَّمخشري[١] عن ظلمهم وَزُورهم: «ظلمهم: أن جعلوا العربيَّ يتلقَّنُ من الأعجمي الرُّومي كلاماً عربياً، أعجز بفصاحته جميعَ فصحاء العرب. والزُّور: أن بهتوه بنسبة ما هو بريءٌ منه إليه»[٢].

فحكم القرآنِ عليهم بالكفر؛ لأنهم ظالمون وكاذبون في هذا القول، وأنّه كان يجب عليهم التَّصديق، والإيمان بأنَّه كلامُ الله تعالى، بدل الكذب والافتراء، فيه دليلٌ ضمنيٌّ على وجوب الإيمان بالقرآن بالنِّسبة لهم ولغيرهم.

الآية السَّادسة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

المراد بـ (آياتنا) هو القرآن العظيم. ومعنى ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: أعرض عنها تَكَبُّراً وجحوداً. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنَّه لم يسْمعْها، فحَذفَ ضميرَ الشَّأن.

ومعنى ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي: صمم. والواقع أنَّه ما به صمم حقيقة، ولكنَّه تصامَمَ عنها تكبُّراً. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: موجع يؤلمه، والتَّعبير بالبشارة من باب التَّهكُّم والسُّخرية منه[٣].

فالله تعالى توعَّد المُكذِّبَ بالقرآن بالعذاب الأليم، ووصفَه بالتَّكبُّر والإعراض، وذلك دليل ضمنيٌّ على أنَّ الإيمان بالقرآن أمرٌ واجب.

الآية السَّابعة: قوله تعالى: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٨].

هذا النَّص هو مقول كفَّار قريش، والاستفهام للإنكار، أي كيف يكون

---

(١) هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزَّمخشري الخوارزمي، العلّامة، النَّحوي، اللُّغوي، المفسِّر، كبيرُ المعتزلة، يُلقَّب جار الله لمجاورة مكة زماناً، ولد سنة (٤٦٧هـ) بزمخشر من قرى خوارزم، كان رأساً في البلاغة والعربية، مُجاهراً باعتزاله وداعية إليه، له تصانيف كثيرة منها: تفسير «الكشّاف»، و«الفائق في غريب الحديث»، و«أساس البلاغة». توفي سنة (٥٣٨هـ).
انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/١٥١)، طبقات المفسرين (٢/ ٣١٤).

(٢) الكشاف (٣/ ٢٦٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٩)؛ تفسير أبي السعود (٧/ ٦٩).

ذلك، ونحن الرُّؤساء والأشراف. وهو نظير قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فالمراد بالذّكر هنا القرآن، ومرادهم ـ في هذه الآية ـ إنكار كونه مُنزَّلاً من عند الله تعالى.

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي: من القرآن. فتارة يقولون: هو سحر، وتارة يقولون: أساطير الأوّلين، إلى غير ذلك.

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي: بل السّبب أنّهم لم يذوقوا عذابي، فاغترُّوا بطول المُهلة، ولو ذاقوا عذابي ـ على ما هم عليه من الشّرك والشّك ـ لصدّقوا ما جئتُ به من القرآن، ولم يَشْكُّوا فيه[1]. والتّعبير بـ «لمّا» إشارة إلى قرب وقوع ذلك.

والمعنى: أنهم لا يُصدّقون به حتّى يمسّهم العذاب[2].

فتوعُّدُ الله تعالى الشّاكّين في القرآن بأن يمسّهم عذابُه يوم القيامة جزاء تكذيبهم له، دليلٌ على أنّ التّصديق بالقرآن العظيم، والإيمانَ بأنّه من الله تعالى أمرٌ واجب.

الآية الثّامنة: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ بمعنى: أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ أي: القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: مُنزَّل من قبله على عبده ورسوله محمدٍ ﷺ. ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ مع علمكم أنّه من الله تعالى، ومع تعاضد الأدلّة والبراهين على حقيقته.

﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: منْ أضلُّ منكم؟ والتّقدير: لا أحد أضلُّ منكم؛ لفرْط شقاقكم وعداوتكم[3].

فالنّعي والإنكار على منْ كفر بالقرآن، ووصْفُه بأنّه لا أحد أضلُّ منه، وبأنّه في شقاق بعيد عن الحقّ؛ بكفرهم بالقرآن، يقتضي حتْماً وجوب الإيمان بالقرآن العظيم.

---

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٤/ ٤٢١).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٧/ ٢١٦).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٤).

الآية التَّاسعة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٨ ـ ٩].

تحدَّثَ الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن تعاسة الكفَّار.

والتَّعْسُ: هو الهلاك والعثار والسُّقوط والشَّر والبعد والانحطاط[1].

والمعنى: قضى الله تعالى عليهم بالتَّعاسةِ، وإحباطِ أعمالهم، فلم تعُدْ صالحةً للانتفاع بها؛ وذلك لأنَّ الأعمال بدون الإيمان لا تُغني عن صاحبها شيئاً.

قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

والسَّبب الرَّئيس الذي أوصلهم إلى هذه التَّعاسة، وهذا الإضلال: أنَّهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وهو القرآن، فكانت النَّتيجة الحتميَّة ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

وسبب كراهيتهم للقرآن: أنَّه جاءهم بالتَّوحيدِ، وإبطالِ عبادة الأصنام، التي ألفوها وورثوها عن آبائهم وأجدادهم، وجاءهم ببعض التَّكاليف التي فيها مشقَّةٌ على نفوسهم، ومخالفةٌ لإلفهم.

فالله تعالى ذَمّ المكذِّبين بالقرآن، الكارهين لما جاء به من توحيد وتكاليف، وقضى عليهم بالتَّعاسة، وإحباط الأعمال.

وهذا يدل بوضوح على أنَّ الإيمان بالقرآن العظيم، والتَّصديق بأنه من الله تعالى، والتَّسليم والرِّضا بكلِّ ما جاء به، أمرٌ واجب على كلِّ مَنْ سَمِعَه ومَنْ بلغه.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٨/ ٩٣).

المبحث الرابع

أنواع التكذيب بالقرآن

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الكفر الصَّريح بالقرآن.

المطلب الثاني: الاستكبار عن القرآن.

المطلب الثالث: التَّكذيب الصريح بالقرآن.

المطلب الرابع: الجحود بالقرآن.

المطلب الخامس: طَلَبُهم تبديلَ القرآن.

المطلب السادس: تبعيض القرآن.

المطلب السابع: الإعراض عن القرآن.

أنواع التكذيب بالقرآن

تمهيد:

مما سبق ذكره في المبحث الثالث، ومن خلال تتبُّع أكثر الآيات الواردة في القرآن العظيم والمتعلِّقة بترك الإيمان به، يتَّضح أنّ هناك مظاهر متعدِّدة لهجر القرآن والحدُّ المشترك فيها هو التّكذيب بالقرآن، وتُجمل فيما يلي:

الكفر بالقرآن، والاستكبار عنه، والشّك فيه، والتّكذيب به، والجحود به، والاستهزاء به وبتعاليمه، وتبديله وتحريفه، والإعراض عنه ونبذه، وترك الاحتكام إليه، وكتمانه، والاختلاف فيه، والجدال فيه، والصدُّ عنه، والنَّهي عنه، والغفلة عنه، وترك العمل به، وادِّعاء نسخه، وادِّعاء نقصه، ومضاهاته ومعارضته.

ولقد فصّلَ القرآن العظيم هذه الخصال المذمومة بالشّرح والتّبيان، وعرض لها نماذج وأمثلةً؛ حتى يحتاط المسلمون من الوقوع في إحداها.

ولئن امتدح الله تعالى الذين تعاملوا مع القرآن العظيم التّعامل الصحيح حيناً، فإنه ـ جلّ ذكره ـ ذمّ الذين تعاملوا مع القرآن الكريم التّعامل الخاطئ في مواضع كثيرة من كتابه؛ ليتنبّه المسلمون حقَّ التّنبُّه، ويعوا تمام الوعي، وهم يقرؤون كلام الله تعالى، أو يسمعونه.

وفيما يلي تفصيلٌ لما أُجمل ممّا هو تكذيبٌ بالقرآن المجيد نجده في المطالب الآتية:

المطلب الأول

الكفر الصريح بالقرآن

الكفر بالقرآن: هو اعتقادٌ بما يحمل معنى الكفر، أو تلفُّظٌ بما يحمل معنى الكفر، أو فعلٌ بما يحمل معنى الكفر. ويستوي في ذلك مَنْ كفر بالقرآن جملةً وتفصيلاً، ومَنْ كفر بآيةٍ منه.

ولقد توعَّد الله ﷻ مَنْ كفر بالقرآن العظيم بالعذاب والهوان والصَّغار في الدُّنيا والآخرة، ومما جاء في ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران: ٤].

فهذا وعيد من الله تعالى بالعذاب الشّديد لمن كفر بالقرآن العظيم.

قال ابن عاشور رحمه الله في تفسيرها: «وشمل قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ المشركين واليهودَ والنّصارى في مرتبة واحدة؛ لأنَّ جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد بآيات الله ـ هنا ـ لأنه الكتاب الوحيد الذي يصحُّ أنْ يوصف بأنّه آيةٌ من آيات الله؛ لأنّه معجزةٌ. وعبّر عنهم بالموصول إيجازاً؛ لأنَّ الصّلة تجمعهم»[1].

وقد فصَّل الله تعالى هذا العذابَ الشّديد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

وهذا الكفرُ بالقرآن العظيم صدر منهم قولاً صريحاً، ذكره الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١]. فقد حكى الله عزّ وجلّ قولَهم الشّنيع، ثمّ ذكر عقوبتهم في الآخرة مباشرة[2]؛ جزاء كفرهم بالقرآن وبالذي بين يديه من التّوراة والإنجيل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١١).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي (٣/ ٨٦).

﴿اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ إلــى قــولــه: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣][١].

المطلب الثاني

الاستكبار عن القرآن

من أمثلة الاستكبار عن القرآن الكريم ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنواعاً من الاستكبار عن القرآن العظيم، ومن ذلك:

أ ـ افتراء الكذب على الله: والافتراء: هو الاختلاق، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. فالذين افتروا على الله الكذب هم المشركون؛ لأنهم حلّلوا وحرّموا بهواهم وزعموا أنَّ الله أمرهم بذلك، وأثبتوا لله شفعاء عنده كذباً[٢].

ب ـ ادِّعاء النُّبوة كذباً: ويدخل في ذلك كلُّ منْ ادَّعى النُّبوة، كمسيلمة الكذّاب، والأسود العنسي، والمختار، وغيرهم ممَّن اتَّصف بهذا الوصف[٣].

ج ـ ادِّعاء معارضة القرآن: ويدخل في ذلك كلُّ منْ يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، أو في إمكانه أن يأتي بمثله، كما فعل النّضر بن الحارث؛ لأنّه عارض القرآن فقال: والطّاحنات طحناً. والعاجنات عجناً. فالخابزات خبزاً.

---

(١) تأمَّل نماذج للكفرِ بالقرآن العظيم، والوعيد على ذلك، في أرقام آيات السور التّالية: (الأنعام: ٧)، (الكهف: ١٠٥)، (الفرقان: ٣٢ ـ ٣٤)، (سبأ: ٤٣)، (الزمر: ٦٣)، (فصلت: ٤١ ـ ٤٤)، (الجاثية: ١١)، (البلد: ١٩).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٢/ ٤٤).

فاللاّقمات لقماً. ذكر ذلك القرطبي في تفسيره[١] عن عكرمة[٢]، وابن عطية في تفسيره[٣] عن الزّهراوي والمهدوي، وأبوحيان[٤] في تفسيره[٥].

ثمّ ذكر الله تعالى العذاب الذي أعدّه لهؤلاء المستكبرين عن القرآن في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وقوله ﴿تُجْزَوْنَ﴾ أي: تُعطَوْن جزاءً.

والجزاء: هو عِوَضُ العمل وما يُقابل به من أجرٍ أو عقوبةٍ. كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

والهُون: هو الهَوان والذُّل[٦]. والمقصود به: العذاب المتضمِّن لشدّةٍ وإهانةٍ وإذلالٍ[٧].

وسبب العذاب: قولكم على الله غير الحقّ، واستكباركم عن الإيمان بالقرآن الكريم، وعدم تصديقكم به[٨].

وجزاء الاستكبار عن القرآن اليأس من كلّ خير؛ لأنّهم مجرمون وظالمون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠ ـ ٤١].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٤٣).

(٢) هو عكرمة البربري، أبو عبد الله، المدني، مولى ابن عباس، أصله من البربر، من علماء التّابعين ومن المتبحّرين بالتّفسير، من كبار تلاميذ ابن عباس، اتُّهم ببدعة الخوارج الصّفرية، ووثّقه أئمة الحديث، قال ابن حجر: «ثقةٌ، ثبتٌ، عالمٌ بالتّفسير، لم يثبُتْ تكذيبه عن ابن عمر، ولا تثبت عنه بدعة، من الثّالثة، مات سنة (١٠٧هـ)».
انظر: تقريب التهذيب (٢/ ٣٠)؛ تهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٣ ـ ٢٧٣).

(٣) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٨٧).

(٤) هو محمد بن يوسف بن علي (أبو حيان) الأندلسي، الغرناطي، إمام العربية في عصره، مفسّر، ومحدّث، ومؤرّخ، ومقرئ، اشتهر اسمه وطار صيته، وأخذ عنه أكابر عصره، ولد بغرناطة سنة (٦٥٤هـ)، ومات بالقاهرة سنة (٧٤٥هـ). من مصنفاته: «البحر المحيط» في التفسير، و«شرح كتاب سيبويه»، و«تذكرة النُّحاة» و«ارتشاف الضَّرب من لسان العرب» وغيرها. انظر: طبقات المفسرين (٢/ ٢٨٧).

(٥) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٨٠). (٦) انظر: التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٤).

(٧) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ١٦٣). (٨) انظر: تفسير البغوي (٢/ ١١٦).

وأعظم اليأس لهم هو خلودهم في نار جهنّم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

المطلب الثالث

التكذيب الصريح بالقرآن

من أمثلة التّكذيب بالقرآن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

فهؤلاء الكفّار كفروا بالرُّسل المرسلة إليهم، وكذّبوا بالآيات المنزلة عليهم[١].

قال البغوي رَحِمَهُ الله في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: «بالقرآن»[٢]. وكذلك قال السمرقندي رَحِمَهُ الله: «يعني جحدوا بالقرآن»[٣]. ومثله قال القرطبي رَحِمَهُ الله: «يعني القرآن»[٤].

فهم قد جمعوا بين الكفر بالله تعالى والتّكذيب بالقرآن العظيم، والعطفُ يقتضي المغايرة[٥].

وقيل: التكذيب بالقرآن كفر، وهو من باب عطف الخاصّ على العام[٦].

فقد توعّد الله تعالى منْ كذّب بالقرآن العظيم ـ سواء كان من الإنس أو الجن ـ بالعذاب الدّائم، وهو الخلود في نار جهنّم لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، فقال عزّ من قائل: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[٧].

وبيّن الله تعالى في مواضع أُخر جزاء التّكذيب بالقرآن فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩].

«والجحيم: النّار الشّديدة الإيقاد. ويقال: جحم فلانٌ النّار إذا شدّد إيقادها»[٨]. فالنّار ملازمةٌ لهم ملازمة الصّاحب لصاحبه[٩].

---

(١) انظر: المصدر السابق (١/ ٩٣).
(٢) تفسير البغوي (١/ ٦٦).
(٣) تفسير السمرقندي (٣/ ٣٨٦).
(٤) تفسير القرطبي (١٨/ ١٣٩).
(٥) انظر: تفسير الشوكاني (٣/ ٤٦٣).
(٦) انظر: المصدر نفسه (٢/ ٦٨).
(٧) انظر: تفسير البغوي (١/ ٦٦)؛ تفسير الرازي (٣/ ٢٧).
(٨) تفسير الشوكاني (٢/ ٦٨).
(٩) انظر: تفسير السعدي (١/ ٢٢٤).

ومَنْ كذّب بالقرآن فإنَّ له عذاباً مهيناً يُهان فيه جزاء وفاقاً، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: ٥٧]. يهانون فيه من شدَّته وألمه وبلوغه للأفئدة، كما استهانوا بالقرآن أهانهم الله تعالى بالعذاب[١].

ومَنْ كذّب بالقرآن كذلك فهو في العذاب مُحضر على الدَّوام لا يغيب عنه أبداً، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

قال الرَّازي[٢] رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: «يعني لا غَيْبَةَ لهم عنه، ولا فُتورَ له عنهم. كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]. وقال ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥]. أي: العذاب»[٣].

وهناك معانٍ متقاربة في الآية ذَكَرها القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فقال: «أي: مقيمون، وقيل: مَجموعون، وقيل: معذَّبون، وقيل: نازلون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠]. أي: نزل به»[٤].

والمراد: دوام عذاب مَنْ كذَّب بالقرآن، والعياذ بالله من هذه الحال.

المطلب الرابع

الجحود بالقرآن

الجحود ضِدُّ الإقرار، ولا يكون إلّا مع علم الجاحد به أنّه صحيح[٥].

---

(١) انظر: المصدر نفسه (١/٥٤٣).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي، الطّبرستاني الأصل، ثم الرّازي، المفسر، المتكلم، إمام وقته في العلوم العقلية، ولد سنة (٥٤٤هـ)، صنّف في فنون كثيرة، ومن تصانيفه: «التفسير الكبير» المعروف بـ «مفاتيح الغيب»، و«المحصول»، و«نهاية العقول»، قيل: إنه ندم في آخر حياته على دخوله في علم الكلام. توفي بهراة يوم الفطر سنة (٦٠٦هـ).
انظر: طبقات المفسرين (٢/٢١٦)؛ شذرات الذهب (٥/ ٢١).

(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ٩٠). (٤) تفسير القرطبي (١٤/ ١٤).

(٥) انظر: معجم مقاييس اللغة (١/ ٢١٨).

يُقال: جَحَدَ الأمرَ، وجَحَدَ بالأمر جَحْداً وجُحُوداً: أنكره مع علمه به.

ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤][(١)].

* ومن أمثلة الجحود بالقرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

يقول تعالى مسلّياً لنبيّه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إيّاه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ أي: قد نعلم أنَّ الذي يقول المكذّبون فيك، يَحْزنُك ويسوؤك، فلا تظنّ أنَّ قولهم صادر عن اشتباه في أمرك، وشكٍّ فيك.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾؛ لأنهم يعرفون صدقك، ومدخَلَك ومخرجَك، وجميعَ أحوالك، حتّى إنّهم كانوا يسمُّونه ـ قبل بعثته ـ الأمين[(٢)].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيكون في الآية احتباك، والتّقدير: فإنّهم لا يكذّبونك ولا يكذّبون الآيات، ولكنّهم يجحدون بالآيات ويجحدون بصدقك، فَحَذِفَ من كُلٍّ لدلالة الآخر»[(٣)].

وجحودهم بالقرآن كُفْرُ عنادٍ ومكابرةٍ[(٤)].

* ومن أمثلة الجحود بالقرآن كذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وهذا حصرٌ لمن كفر بالقرآن، أنّه لا يكون من أحدٍ قَصْدُه متابعة الحقّ[(٥)].

«والجَحْدُ ـ كما قال الرّاغب: نفي ما في القلب ثباته، وإثبات ما في القلب نفيه. وفُسّرَ هنا بالإنكار عن علم. فكأنّه قيل: وما يُنكر بآياتنا مع العلم بها ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: المتوغّلون في الكفر، المُصمّمون عليه؛ فإنَّ ذلك يمنعهم عن الإقرار والتّسليم»[(٦)].

وكما يكون جاحد القرآن كافراً، فيكون أيضاً ظالماً، على حدّ قوله تعالى:

---

(١) انظر: المعجم الوسيط (ص١٠٧). (٢) انظر: تفسير السعدي (١٢/١٧ ـ ١٨).
(٣) التحرير والتنوير (٦/٧٤).
(٤) انظر: تفسير ابن عطية (٢/٢٨٦)؛ تفسير الثعالبي (١/٥١٦).
(٥) انظر: تفسير السعدي (٤/٦٦). (٦) روح المعاني (٢١/٤).

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

أي: وما يُكذِّب بالقرآن ويبخس حقَّه ويردُّه إلّا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحقَّ ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧][1].

والظَّالم: هو الذي يجري على خلاف الحقِّ بدون شُبهة. فهم يُنكرون القرآن مع علمهم بأنَّه الحقُّ، وذلك هو الجحود.

فشأنُ الظَّالمين جَحْدُ الحقِّ، فهم لا إنصافَ لهم[2].

ولقد بيَّن الفخر الرَّازي كَلَلهُ الفَرْقَ بين الكفر والظُّلم في الآيتين السَّابقتين قائلاً: «قال ههنا: الظَّالمون، ومن قبل قال: الكافرون، مع أنَّ الكافرَ ظالمٌ، ولا تنافي بين الكلامين، وفيه فائدة: وهي أنَّهم قبل بيان المعجزة، قيل لهم: إنَّ لكم المزايا فلا تُبطلوها بإنكار محمدٍ فتكونوا كافرين، فَلَفْظُ الكافرِ هناك كان بليغاً يمنعهم من ذلك؛ لاستنكافهم عن الكفر، ثُمَّ بعد بيان المعجزة، قال لهم: إنْ جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرُّسل فتلتحقون في أوَّل الأمر بالمشركين حُكْماً، وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقةً فتكونوا ظالمين، أي: مشركين، كما بيَّنا أنَّ الشِّرك ظلمٌ عظيم، فهذا اللَّفظ ههنا أبلغ، وذلك اللَّفظ هناك أبلغ»[3].

جزاء الجحود:

* بيَّن الله تعالى جزاء الجحود بالقرآن في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٤١٨).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (٦/ ٧٤) (٢٠/١٨٧).
(٣) التفسير الكبير (٢٥/٦٨).

ومعنى ﴿نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟﴾ أي: نعاملهم معاملة مَنْ نسي، فيُتركون في النَّار كما فعلوا هم في جحودهم بالقرآن، فسمَّى اللهُ تعالى جزاء نسيانهم بالنِّسيان، كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

والمراد من هذا النِّسيان: أنّ الله ﷻ لا يُجيب دعاءهم ولا يرحمهم، وقد بيّن الله تعالى أنّ كلّ هذه التّشديدات بسبب جحودهم بالقرآن(١).

* ومن جزاء الجحود بالقرآن كذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٦ ـ ٢٨].

ولفظ الذّوق إنّما يُذكر في القَدْر القليل الذي يؤتى به لأجل التجربة، فإذا كان القليلُ من الذّوق عذاباً شديداً، فكيف يكون حالُ الكثيرِ منه؟

والمراد بـ ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أي أقبح الذي كانوا يعملونه في الدُّنيا، وهو الشّرك بالله تعالى(٢).

فإنّهم لمَّا أشركوا بالله تعالى أحبطوا أعمالهم، فضاعت تلك الأعمالُ الحسنة عنهم، ولم يبق معهم إلّا الأعمالُ القبيحة الباطلة، فلا جَرَم لم يتحصَّلوا إلّا على جزاء السّيئات.

وهذا العذاب الشّديد المخلّدون فيه ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: أي جزاء بما كانوا يلْغون في قراءة القرآن.

وسَمَّى اللهُ تعالى كفرَهم بالقرآن جحوداً؛ لأنهم لمّا علموا أنّ القرآن بالغٌ إلى حدّ الإعجاز، خافوا من أنّه لو سمعه النّاس لآمنوا به، فاستخرجوا تلك الطّريقة الفاسدة، وفي ذلك دلالة على علمهم بأنّ القرآن معجز، ومع ذلك جحدوا به حسداً وظلماً وعناداً(٣).

---

(١) انظر: المصدر نفسه (١٤/ ٧٧).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٤/ ١١٣).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٧/ ١٠٤).

المطلب الخامس

طَلَبُهم تبديل القرآن

لقد طلب الكفّار من الرّسول ﷺ أنْ يأتي بقرآنٍ غير هذا، أو أنْ يبدِّله، وهم في طلبهم هذا لم يأتوا ببدعٍ من القول، بل ساروا على نهج منْ سبقهم من أهل الكتاب، وهو عين ما حكاه الله تعالى عن اليهود بقوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

«فهذا قطعٌ لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم. وأخلاقُهم لا تقتضي الطّمع فيهم، فإنّهم كانوا يُحرّفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني، ما أرادها الله؛ ليوهموا النّاس أنّها من عند الله، وما هي من عند الله. فإذا كانت حالُهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينَهم يصدُّون به النّاس عن سبيل الله، فكيف يُرجى منهم إيمان لكم؟!. فهذا من أبعد الأشياء»[(١)].

فهاهم أولاء المشركون ـ الذين لا يرجون لقاء الله ـ يطلبون من النّبي ﷺ أن يُبدِّل القرآن أو يغيِّره؛ لأنه لا يوافق أهواءهم وشهواتهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

فقد طلبوا من رسول الله ﷺ ـ لمّا سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذمّ عبادةِ الأوثان، والوعيد الشّديد لمن عبدها ـ أحدَ أمرين: إمّا الإتيانُ بقرآنٍ غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله، وإمّا تبديلُ هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلِّها ووَضْع أخرى مكانها، ممّا يطابق إرادتهم، ويلائم غرضهم. فأمره الله تعالى أن يقول في جوابهم: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ أي ما ينبغي لي، ولا يحلُّ لي أن أُبدِّله من تلقاء نفسي.

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٩).

فنفى عن نفسه أحد القِسْمين، وهو التبديل؛ لأنّه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزاً، بخلاف القسْم الآخر، وهو الإتيان بقرآنٍ آخرَ، فإنّ ذلك ليس في وسعه، ولا يقدر عليه.

وهذا منه ﷺ من باب مجاراة السُّفهاء، إذْ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك[١].

وينفرد اليهود بما يلائم طبعهم المُلتوي فيَلْوون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونها عن الصحيح إلى المُحرَّف. فيُنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنى ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم﴾: يقلبونها بالتَّحريف والزِّيادة»[٢].

«وهذا يشمل التَّحريف اللَّفظي، والتَّحريف المعنوي، ثم هم ـ مع هذا التَّحريف الشَّنيع ـ يوهمون أنه من الكتاب، وهم كَذبةٌ في ذلك، ويصرِّحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم، وسوء مغبَّتهم»[٣].

المطلب السادس

تبعيض القرآن

إنَّ الأخذَ ببعض القرآن وترك بعضه الآخر هجرٌ له، ومعصيةٌ لله تعالى، بل هو من أنواع التَّكذيب بالقرآن العظيم.

* وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

قال عامة المفسرين ـ رحمهم الله تعالى: إنَّ الله تعالى قد أخذَ على بني إسرائيل أربعة عهودٍ: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء

---

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٢/ ٦٢٣). (٢) زاد المسير (١/ ٣٣٥).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٢٥٤).

أسراهم، فأعرضوا عن كُلِّ ما أمروا به إلّا الفداء، فوبّخهم الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴾؟[١].

فهذا استفهامٌ إنكاري توبيخي، أي كيف تعمّدتم مخالفة التّوراة في قتالكم إخوانكم، واتّبعتموها في فداء أسراهم[٢].

فالذي آمنوا به: فداء الأسارى. والذي كفروا به: قتل بعضهم بعضاً، وإخراجهم من ديارهم، فوبّخهم الله توبيخاً يُتلى إلى يوم القيامة[٣].

جزاء تبعيض الكتاب:

قال الله تعالى مُبيّناً جزاء تبعيض الكتاب: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]. الخزي: هو الذُّلُّ والهوان.

وقد وقع هذا الجزاءُ الذي وعد الله به اليهودَ المتلاعبين بأوامر الله تعالى مُوفّراً، فصاروا في خزي عظيم، بما أُلصق بهم من الذُّلِّ والمهانة بالقتل والأسر وضرب الجزية والجلاء، وما قُدِّر لهم أيضاً من الذُّلِّ ـ في المستقبل ـ بين الأمم، هذا في الدُّنيا[٤].

أمّا في الآخرة فإنّهم: ﴿يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ﴾ جزاء ما كتموه من كتاب الله الذي بين أيديهم، فقد جاءوا بذنب عظيم، وجُرْم جسيم.

ولا ريب أنَّ أشدّ العذاب هو الخلود في نار جهنّم، عياذاً بالله تعالى من هذا الحال.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد دلّت هذه الآيةُ على أنّ الله تعالى يُعاقب الحائدين عن الطّريق بعقوبات في الدُّنيا، وعقوبات في الآخرة»[٥].

* ومن تبعيض القرآن ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٠ ـ ٩٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٢)؛ تفسير القرطبي (٢/ ٢٢).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٥٧٣).
(٣) انظر: تفسير الثعالبي (١/ ٨٥).
(٤) انظر: تفسير الشوكاني (١/ ١٠٩).
(٥) التحرير والتنوير (١/ ٥٧٤).

وقد مرّ بنا سابقاً أنّ الآية الكريمة تشمل كُلَّ منْ اقتسم كتاب الله، بتكذيب بعضه وتصديق بعضه، وارتكب ما نهاه الله عنه.

فحالُه هذا يُشبه حال اليهود والنّصارى الذين قسّموا كتبهم السّماوية أقساماً، وجزّؤوها أجزاءً، فآمنوا ببعضٍ منها وكفروا ببعض؛ اتّباعاً لشهواتهم وأهوائهم.

المطلب السابع

الاعراض عن القرآن

إنّ من أنواع التّكذيب بالقرآن العظيم الإعراض عنه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

والمراد بالذِّكر هنا: القرآن، في قول عامّة المفسّرين.

وقال الله تعالى ـ أيضاً ـ مُخاطباً النّبي ﷺ وممتنّاً عليه بما أكرمه من إنزال القرآن إليه، ومبيّناً له جزاء منْ أعرض عنه: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ٩٩ ـ ١٠٠].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتنكير ﴿ذِكْرًا﴾ للتّعظيم، أي: آتيناك كتاباً عظيماً. وقوله: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ توكيدٌ لمعنى ﴿آتَيْنَاكَ﴾، وتنويهٌ بشأن القرآن، بأنه عطيّةٌ كانت مخزونةً عند الله، وخصّ بها خيْر عباده [ﷺ]»[(١)].

جزاء الإعراض عن القرآن:

أمّا الآيةُ الأُولى، فقد سبق الحديث عنها بالتّفصيل:

وتقرّر أنّ معنى المعيشة الضّنك: هو أنواع العذاب الذي يصيب المُعرض عن القرآن من الهموم والغموم والآلام، وذلك في الدُّنيا، والبرزخ، والآخرة.

فإنّ المُعرضين عن القرآن العظيم في جحيم قبل الجحيم الأكبر.

وأمّا حَشْره أعمى: فإنّه لمّا أعرض عن القرآن الكريم وعميت عنه بصيرتُه،

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/١٧٩). وانظر: تفسير أبي السعود (٦/٤٠).

أعمى الله عزَّ وجلَّ بصرَه يوم القيامة، وتركه في العذاب كما ترك الذِّكرَ في الدُّنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة.

وأمَّا الآيةُ الثَّانية:

فقد بيَّن الله تعالى شِدَّةَ الوعيد لمن أعرض عن القرآن، ولم يؤمن به ويتَّبعه، من عِدَّةِ وجوه:

١ ـ يَحْمِلُ يوم القيامة وزراً. والوِزْرُ: هو العقوبة الثَّقيلة.

وسُمِّيت وزراً: لتشبيهها ـ في ثِقَلِها على المُعاقَب، وصُعوبةِ احتمالِها ـ بالحِمْلِ الذي يفدح الحامل، ويُنْقِضُ ظَهْرَه. فالمراد: حِمْلاً ثقيلاً من الإثم[١].

٢ ـ هو مُخَلَّدٌ في الوزر، لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ [طه: ١٠١]. أي: مقيم أبداً في عذاب الوزر؛ بسبب إعراضه عن القرآن، وهجره له.

وتخليده في الوزر العظيم؛ لأنَّ العذاب هو نَفْسُ الأعمال، تنقلب عذاباً على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها[٢].

٣ ـ بئس الحمل الذي يحمله، والعذاب الذي يعذَّبه؛ بسبب إعراضه عن القرآن، فمعنى قوله: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠١]. أي: وما أسوأ هذا الوزر حِمْلاً بمعنى محمولاً[٣]. والمراد: بئس الحِمْلُ يحملونه، والعذاب الذي يُعَذَّبونه[٤].

قال أبو السُّعود رحمه الله: «ففيه ضميرٌ مُبهم، يُفسِّره حِمْلاً، والمخصوص بالذمّ محذوف. أي: ساء حِمْلاً وزرُهم»[٥].

طوائف أعرضت عن القرآن:

هناك طوائف كثيرة أعرضت عن القرآن الكريم، ومنها على سبيل الاختصار[٦]:

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٢٢/ ٩٨)؛ تفسير البغوي (٣/ ٢٣٠)؛ تفسير أبي السعود (٦/ ٤١).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٢٥١).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٢/ ٩٩).

(٤) انظر: المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(٥) تفسير أبي السعود (٦/ ٤١).

(٦) انظر: الإيمان بالكتب (ص٣٤ ـ ٣٧).

١ ـ الرَّافضة: وذلك بادّعائها أنّ القرآن ناقصٌ ومحرَّف، وأنّ القرآن الكامل مع الغائب الذي سيخرج في آخر الزّمان من سرداب سامرّاء![١].

٢ ـ البابية والبهائية: وذلك بادّعائها نسخ القرآن الكريم، والشّريعة الإسلامية بشريعة الباب والبهاء[٢].

٣ ـ التّيجانية: وذلك بتفضيلها أورادَها وأذكارَها ـ كصلاة الفاتح ـ على القرآن العظيم.

فقد قالوا: إنّ قراءة صلاة الفاتح مرَّة واحدة أفضل من قراءة القرآن ستة الآف مرَّة[٣].

٤ ـ غلاة الصُّوفية: وذلك بادّعائهم العلم اللَّدُنّي الذي يُوحى إليهم، ويغنيهم عن القرآن المجيد كما يزعمون، ثمَّ إنَّ مصدر التّلقي عندهم ليس القرآن والسُّنة بل يقوم على الرُّؤى والأحلام، والكشف، ونسخ الشَّريعة، ورفع التّكاليف، وغير ذلك ممَّا يخالف ما جاء في القرآن[٤].

٥ ـ الفِرَق الباطنيَّة: وذلك بانحرافهم في تأويل القرآن، وإغراقهم في التّأويل الباطني، وإخراج القرآن عن معانيه وحقائقه الصّحيحة، وادّعاء بعضهم نسخ الإسلام[٥].

٦ ـ المشرِّعون والقانونيُّون: الذين أعرضوا عن تحكيم شريعة القرآن وعارضوها بزبالات أفكارهم، زاعمين أنَّها لا تناسب العصر الحديث، ولا تفي بحاجاته[٦].

---

(١) انظر: الشيعة والسنة، لإحسان إلهي ظهير (ص٧٨)؛ مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، د. ناصر القفاري (١/ ٢١١ ـ ٢١٤).

(٢) انظر: البابية عرض ونقد، لإحسان إلهي ظهير (ص١٠٤)؛ البهائية نقد وتحليل، لإحسان إلهي ظهير (ص٢٢٢).

(٣) انظر: التيجانية، لعلي الدخيل (ص١١٦ ـ ١٢٣).

(٤) انظر: التصوف المنشأ والمصادر، لإحسان إلهي ظهير (٢٦٠ ـ ٢٧٥). هذه هي الصوفية، لعبد الرحمن الوكيل (ص٧٠).

(٥) انظر: كشف أسرار الباطنية، لابن أبي الفضائل الحماوي اليماني (ص٥٠)؛ الحركات الباطنية، د. محمد بن أحمد الخطيب (ص٦٦، ٣٤٩).

(٦) انظر: تحكيم القوانين، لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص١ ـ ٢٠).

وفي العالم الإسلامي نشأت أحزاب ومؤسّسات علمانيّة - لا دينيّة - أعرضت، وتعمل على أنْ يُعرض المسلمون عن القرآن الكريم عقيدةً وشريعة، وتَبَنّتْ وسائلُ إعلامية مرئية ومسموعة وصحف ومجلّات إبعاد الناس عن القرآن، هذا عدا ما تفعله الماسونيّة وأنديتها - كالرُّوتاري - في طول وعرض العالم الإسلامي.

المبحث الخامس

خُكم التَّكذيب بالقران

كيف وصل القرآن إلينا:

القرآن العظيم نُقِلَ إلينا بطريق التَّواتر كتابةً في المصاحف، وحفظاً في الصُّدور، فقد كان هناك كتبةٌ للوحي يكتبون ما نزل على رسول الله ﷺ فإذا أُنزلت سورةٌ أو آيةٌ بلّغها نبيُّنا الكريم ﷺ أصحابه ﷺ، وتلاها عليهم، وكتبها كتبة الوحي، وكتبها مَنْ كتب لنفسه.

وما تُوفِّي رسول الله ﷺ إلَّا وكلُّ آية من آيات القرآن العظيم مُدوَّنة فيما اعتاد العرب أن يُدوِّنوا فيه من الرِّقاع ونحوها.

وكلُّ آيةٍ من القرآن الكريم كذلك محفوظة في صدور المئات من الرِّجال الأذكياء الأمناء، وأصبح ما يحفظونه في صدورهم مرجعاً للمسلمين في تلقِّي القرآن وروايته، بالإضافة إلى المكتوب منه.

وقد جمع أبو بكرٍ ﷺ ـ بواسطة زيد بن ثابت، وبعض الصّحابة المعروفين بالحفظ والكتابة ﷺ جميعاً ـ تلك المدونات وضمّ بعضها إلى بعض وبالتَّرتيب نفسه الذي كان رسولُ الله ﷺ يتلوها به وأصحابُه في حياته، وصارت هذه الصُّحف وما في صدور الحفّاظ هي مرجع المسلمين في تلقِّي القرآن وروايته. وقام على حفظ هذه المجموعة أبو بكرٍ ﷺ في حياته، وخلفه عليها عمر ﷺ.

ثمَّ تركها عمر ﷺ عند ابنته حفصةَ أمِّ المؤمنين ﷺ، وأخذها من حفصة عثمانُ ﷺ في خلافته، ونسخ منها عِدّة نُسخٍ أرسلت إلى أمصار المسلمين.

وتناقل المسلمون القرآن كتابةً من المصحف المدوّن، وتلقّياً من الحفّاظ أجيالاً عن أجيالٍ في عِدَّة قرون، وما اختلف المكتوب منه والمحفوظ، ولا اختلف في لفظه مسلمان من ملايين المسلمين في مختلف قارّات العالم، وهم

يقرؤونه منذ أربعة عشر قرناً ونيِّفاً، فلم يختلف فيه فرد عن فرد، ولا أمّة عن أمّة بزيادة ولا نقصٍ، ولا تغييرٍ ولا تبديل، تحقيقاً لوعد الله ﷻ في حفظ القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩][1].

مغزى التَّواتر:

ولا نزاع بين المسلمين في تواتر القرآن العظيم، ويترتَّب على كون القرآن متواتراً ثبوتُ حُجِّيَّتِه، أي أنّ القرآن الكريم قطعيُّ الثُّبوت، فكلُّ نصٍّ نتلوه من نصوص القرآن المجيد هو النّص الذي أنزله الله على نبيِّنا محمدٍ ﷺ من غير تحريفٍ ولا تبديل.

ولذلك قال الآمدي[2] رحمه الله: «اتَّفقوا على أنّ ما نُقل إلينا من القرآن نقلاً متواتراً وعَلمْنا أنه من القرآن حُجّة»[3].

وبناء عليه: يجب الإيمانُ بالقرآن الكريم، وتصديقُه، واتِّباعه، والانقياد له، ويجب الإيمانُ بأنَّه كلامُ الله تعالى وتنزيلُه، ولا يُشبهه شيء من كلام الخلْق، ولا يقدر على مثله أحدٌ من الخلق إنسهم وجنِّهم[4].

ما يعنيه إنكار القرآن:

إنّ الإيمان بالقرآن الكريم يتضمَّن الإقرار به وتصديقه، ولا ريب أنَّ إنكاره يُناقض هذا الإقرار والتّصديق، فإنكاره يُناقض قول القلب وهو التصديق، كما يُناقض قولَ اللِّسان وهو الإقرار.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (ص١٥٣ ـ ١٥٩).
مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان (ص١١٨ ـ ١٣٤)؛ المدخل لدراسة القرآن الكريم، لمحمد أبو شهبة (ص٢٦٠ ـ ٢٨١).

(٢) هو علي بن محمد بن عبد الرحمن البغدادي، الآمدي، من أصحاب القاضي أبي يعلى، ومن كبار فقهاء الحنابلة في عصره، له مؤلفات منها: «عمدة الحاضر»، و«كفاية المسافر»، توفي سنة (٤٦٧هـ). انظر: ذيل طبقات الحنابلة (١/٨ ـ ٩).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (١/١٣٨).

(٤) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٩٧ ـ ٩٨).

وإنكاره كذلك يتضمَّن إنكاراً لصفة الكلام الإلهي، ونفي هذه الصِّفة من الإلحاد في أسماء الله تعالى، وسوءِ الظَّنِّ بالله تعالى، وعدمِ قدْر الله تعالى حقَّ قدره.

كما أنَّ هذا الإنكار طعنٌ في الرَّسول ﷺ وتنقُّصٌ له، ومشاقَّةٌ له، واتِّباعٌ لغير سبيل المؤمنين، وقد توعَّد الله تعالى مَنْ يفعل ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وهذا الإنكار أيضاً هو إنكار واستهزاء بشرائع الدِّين وأحكامه المتلقاة من هذا الوحي، والاستهزاءُ بالدين كُفر؛ لأنَّ أصل الدِّين قائمٌ على التَّعظيم[١].

الإجماع على كُفْرِ مَنْ أنكر القرآن:

حكى أهل العلم الإجماع على كُفر مَنْ أنكر القرآن العظيم أو بعضَه ـ ولو كانت آيةً واحدةً، أو حرفاً واحداً ـ وممَّنْ حكى الإجماع:

١ ـ أبو عثمان الحدَّاد[٢] رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: «جميعُ مَنْ ينتحل التَّوحيد مُتَّفقون: أنَّ الجحْد لحرفٍ من التَّنزيل كُفْرٌ»[٣].

٢ ـ ابن عبد البر[٤] رَحِمَهُ اللهُ يحكي الإجماع قائلاً:

---

(١) انظر: نواقض الإيمان القولية والعملية، د. عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف (ص٢٠١ ـ ٢٠٢).

(٢) هو أبو عثمان محمد بن صبيح الحدّاد المغربي، من فقهاء المالكية، كان عالماً بالسُّنن ولغة العرب، له ردود على المبتدعة، وكان عابداً صالحاً، توفي سنة (٣٠٢هـ).
انظر: سير أعلام النُّبلاء (١٤/ ٢٠٥)؛ شذرات الذَّهب (٢/ ٢٣٨).

(٣) الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض (٢/ ١١٠٥).

(٤) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النَّمري القرطبي المالكي، أبو عمر، الإمام، العلامة، حافظ المغرب، وصاحب التَّصانيف، ولد بقرطبة سنة (٣٦٨هـ). كان فقيهاً مُحدِّثاً عابداً دَيِّناً ثقةً مُتقناً مُتبحِّراً. صنَّف تصانيف كثيرةً، منها: «التَّمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، و«الاستيعاب في أسماء الأصحاب»، و«جامع بيان العلم وفضله»، و«الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار». توفي بمدينة شاطبة بالأندلس سنة (٤٦٣هـ). انظر: وفيات الأعيان (٧/ ٦٦)؛ سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٥٣)؛ تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٢٨)؛ شذرات الذهب (٣/ ٣١٤).

«وأجمع العلماء: أنّ ما في مصحف عثمان بن عفان وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كانوا، هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوزُ لأحدٍ أن يتجاوزه، ولا تحِلُّ الصلاةُ لمسلم إلّا بما فيه...

وإنما حلَّ مصحفُ عثمان ﷺ هذا المحل؛ لإجماع الصّحابة وسائرِ الأمّة عليه، ولم يُجمعوا على ما سواه... ويُبيِّن لك هذا أنّ مَنْ دفع شيئاً مما في مصحف عثمان كفر»[1].

٣ ـ ابن قدامة المقدسي[2] ﷺ يحكي الإجماع أيضاً ويقول: «ولا خلاف بين المسلمين أجمعين: أنَّ منْ جَحَد آيةً، أو كلمةً مُتفقاً عليها، أو حَرْفاً مُتفقاً عليه أنه كافر»[3].

٤ ـ النَّووي ﷺ يحكي الإجماع صراحة بقوله: «أجمعت الأمّة: على وجوب تعظيم القرآن على الإطلاق وتنزيهه وصيانته. وأجمعوا: على أنَّ مَنْ جَحد منه حرفاً مُجمعاً عليه، أو زاد حرفاً لم يقرأ به أحدٌ، وهو عالمٌ بذلك فهو كافر»[4].

٥ ـ القاضي عياض ﷺ يحكي إجماع المسلمين على كفر منْ أنكر القرآن، أو شيئاً منه فيقول: «اعلم أنّ مَنْ استخفَّ بالقرآن أو بالمصحف، أو بشيء منه، أو سبّهما، أو جحَد حرفاً منه، أو كذَّب بشيء ممّا صرّح به فيه من حُكْمٍ أو خَبرٍ، أو أثبتَ ما نفاه، أو نفى ما أثبته، وهو عالِمٌ بذلك، أو شكَّ في شيء من ذلك، فهو كافرٌ بإجماع المسلمين...

---

(١) التّمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٤/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، ثمّ الدّمشقي الصّالحي، الحنبلي، أبو محمد، مُوفّق الدّين، العلّامة المجتهد، كان ـ مع تبحُره في العلوم ـ ورعاً زاهداً كثير العبادة، حَسن الأخلاق، له مؤلفات غزيرة مفيدة، منها: «المغني في الفقه»، و«روضة النّاظر في أصول الفقه»، و«مسألة العلو»، و«ذمّ التّأويل»، و«فضائل الصّحابة». توفّي بدمشق سنة (٦٢٠هـ).
انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢٢/ ١٦٥)؛ البداية والنّهاية (١٣/ ٩٩)؛ الذّيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب (٢/ ١٣٣)؛ شذرات الذّهب (٥/ ٨٨).

(٣) حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة (ص٣٣).

(٤) المجموع (٢/ ١٩٣). وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٨)؛ التبيان (ص٢٠٢).

وقد أجمع المسلمون: على أنّ القرآن المتلو في جميع الأقطار، المكتوب في المصحف الذي بين أيدي المسلمين ممّا جَمَعه الدُفَّتان[١] من أوّل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] إلى آخر: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] كلامُ الله تعالى ووحْيُه، المُنزّل على نبيّه محمدٍ ﷺ، وأنّ جميع ما فيه حقٌّ.

وأنّ منْ نقص منه حرفاً، قاصداً لذلك، أو بدّله بحرفٍ آخر مكانه، أو زاد حرفاً آخر ممّا لم يشتمل عليه المصحف، الذي وقع عليه الإجماعُ، وأُجْمِع عليه أنه ليس بقرآن، عامداً لكلّ هذا، فهو كافر»[٢].

٦ ـ ابن بطّة[٣] رحمه الله حيث يقول: «... وكذلك وجوب الإيمان والتّصديق بجميع ما جاءت به الرُّسل من عند الله، وبجميع ما قاله الله عزّ وجلّ فهو حقٌّ لازم، فلو أنّ رجلاً آمن بجميع ما جاءت به الرُّسل إلّا شيئاً واحداً، كان بردِّ ذلك الشّيء كافراً عند جميع العلماء»[٤].

ويقول أيضاً: «منْ كذّب بآيةٍ أو بحرفٍ من القرآن، أو ردّ شيئاً ممّا جاء به الرسول ﷺ فهو كافر»[٥].

٧ ـ ابن حزم[٦] رحمه الله حيث قال: «... وإنّ القرآنَ الذي في المصاحف

---

(١) جاء في «لسان العرب» (٤/ ٣٧١): «دفّتا المصحف: جانباه وضمامتاه من جانبيه».

(٢) الشّفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١١٠١ ـ ١١٠٥).
وانظر: الآداب الشّرعية (٢/ ٢٧٥)؛ كشّاف القناع، لمنصور البهُوتي (١/ ٤٣٣)؛ التّبيان في آداب حملة القرآن (ص٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٣) هو عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبري، أبو عبد الله، المعروف بابن بطّة، أحد علماء الحنابلة، فقيهٌ، مُحدِّث، وله المصنّفات الكثيرة الحافلة في فنون من العلوم. وكان ممّن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن مصنّفاته الكثيرة: «السُّنن»، و«المناسك»، و«الإبانة عن شريعة الفرقة النّاجية ومجانبة الفرق المذمومة». توفّي بعكبرا سنة (٣٨٧هـ). انظر: سير أعلام النّبلاء (١٠/ ٢٨٠)؛ البداية والنّهاية (١١/ ٣٢١ ـ ٣٢٢)؛ طبقات الحنابلة، لأبي يعلى (ص٣٤٦).

(٤) الإبانة الصُّغرى (ص٢١١). (٥) المصدر نفسه (ص٢٠١).

(٦) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظّاهري، أبو محمد، عالم الأندلس، ولد بقرطبة

بأيدي المسلمين شرقاً وغرباً فما بين ذلك، من أوّل أمّ القرآن، إلى آخر المعوّذتين كلامُ الله عزّ وجلّ ووحيُه، أنزله على قلب نبيِّه محمدٍ ﷺ،مَنْ كفر بحرفٍ منه فهو كافر»[١].

وفصَّل ابن حزم في مسألة إنكار القرآن قائلاً:

«مَنْ قال إنَّ القرآن نَقَص من بعد موت النَّبي ﷺ حرْفٌ، أو زِيد فيه حرف، أو بُدِّل منه حرف، أو أنَّ هذا المسموع أو المحفوظ أو المكتوب أو المُنزَّل ليس هو القرآن، وإنَّما هو حكاية القرآن، وغير القرآن، أو قال إنَّ القرآن لم يَنْزِلْ به جبريل ﷺ على قَلْب محمدٍ ﷺ، أو أنه ليس هو كلام الله تعالى فهو كافرٌ، خارجٌ عن دين الإسلام؛ لأنَّه خالف كلامَ الله عزَّ وجلَّ، وسُنن رسول الله ﷺ، وإجماعَ أهل الإسلام»[٢].

٨ ـ ابن تيميَّة[٣] رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: «مَنْ زَعَمَ أنَّ القرآن نُقِصَ منه، وزيد فيه، وكُتِمَتْ منه آيات، أو زعم أنَّ له تأويلاتٍ تُسقِطُ الأعمالَ فلا شكَّ في كفره»[٤].

= سنة (٣٨٣هـ)، كانت له ولأبيه وزارةٌ تخلّى عنها زهداً فيها، وكان له آراءٌ انْتُقِد من أجلها، وكان قويَّ الحُجَّة، سليطاً على مخالفيه، له مصنَّفات كثيرة، منها: «المُغرب في تاريخ المغرب»، و«الفصل بين أهل الأهواء والنِّحل»، و«الأخلاق والسِّير»، و«المُحلّى». توفي بالأندلس سنة (٤٥٦هـ).
انظر: سير أعلام النُّبلاء (١٨/ ١٨٤)؛ وفيات الأعيان (١/ ٤٢٨)؛ تذكرة الحفّاظ (٣/ ٣٢١).

(١) المحلّى بالآثار (١/ ٣٢)، مسألة (٢١).

(٢) الدُّرة فيما يجب اعتقاده، لابن حزم (ص٢٢٠ ـ ٢٢١).

(٣) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السَّلام الحرَّاني الحنبلي، أبو العباس، تقي الدِّين ابن تيميَّة، الإمام المشهود له برسوخ القَدم في علوم النَّقل والعقل، ولد في حرَّان سنة (٦٦١هـ) وتحوَّل إلى دمشق، ونبغ واشتهر وأصبح مرجعاً في الفتوى، وأفتى بمسائل أوذي من أجلها، وسُجِن أكثر من مرَّة، ومات في السِّجن، كان آيةً في التفسير والأصول، فصيح اللِّسان، له مصنَّفات كثيرة، منها: «درء تعارض العقل والنَّقل»، وقد جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللهُ فتاواه في (٣٧ مجلَّداً)، توفِّي سنة (٧٢٨هـ).
انظر: ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٣٣٧)؛ تذكرة الحفّاظ (٣/ ٢)؛ البداية والنِّهاية (١٤/ ١٣٢).

(٤) الصَّارم المسلول على شاتم الرَّسول (٣/ ١١٢١).

٩ - ابن نُجَيْم الحنفي[١] رحمه الله حيث كَفَّر منْ أنكر آيةً فقال: «ويكفر مَنْ أنكر آيةً من القرآن»[٢].

أمَّا بعد: فهذا هو إجماع علماء المسلمين على كُفْر مَنْ أنكر القرآن العظيم، أو كذَّب به، أو جحد منه حرفاً، أو زاد فيه حرفاً، أو بدَّل حرفاً منه بحرفٍ آخرَ مكانه، عامداً لكلّ ذلك فهو كافرٌ باتّفاق المسلمين.

وهنا يبرز سؤال: لماذا كان الحُكْم مُجْمعاً عليه بلا هَوَادة، وإنْ أنكر حرفاً؟ لأنَّ القرآن روحُ الأمَّة، والتَّساهل في حرفٍ واحدٍ مؤدٍّ لاضمحلالها.

---

(١) هو زيْن الدِّين بن إبراهيم بن محمد، المصري، الحنفي، الشَّهير بابن نُجيْم، فقيهٌ أصولي، من تصانيفه: «الأشباه والنَّظائر»، و«شرح منار الأنوار في أصول الفقه»، و«البحر الرائق في شرح كنز الدّقائق». توفِّي سنة (٩٧٠هـ)

انظر: الأعلام (٣/ ٦٤)؛ معجم المؤلفين (١/ ٧٤٠).

(٢) البحر الرّائق في شرح كنز الدقائق (٥/ ١٣١).

المبحث السادس

أهل الكتاب وتكذيبهم بالقرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أنَّ القرآن حق.

المطلب الثاني: كُفر مَنْ لم يؤمن بالقرآن من أهل الكتاب.

المطلب الأول

علماء اهل الكتاب يعلمون يقينا انّ القرآن حق

إنّ علماء أهل الكتاب يعلمون علماً يقينياً أنّ القرآن حقٌّ، وأنّه مُنزّلٌ من الله تعالى على عبده ورسوله وخاتم أنبيائه محمدٍ ﷺ، ومع ذلك كفروا بالقرآن العظيم، وبرسالة خاتم النّبيين ﷺ الذي أرسله الله تعالى للنّاس كافّة، بل وأخذ الله تعالى العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتابعوه إذا بُعث وهم أحياء، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ومع ذلك كتموا ـ أي: علماء أهل الكتاب ـ هذه الأخبار وأمثالها عن أتباعهم، وحرّفوا بعضها، محافظةً على سلطانهم، وبغياً وحسداً لأمّة القرآن، فكانوا في كفرهم على بيّنة من أمرهم، فضلُّوا وأضلُّوا كثيراً، وتحمّلوا أوزارهم إضافة إلى أوزار منْ تبعهم إلى يوم الدّين.

ومع ذلك فهم يحتجُّون علينا ببعض آياتٍ من القرآن ممّا يوافق أهواءهم أو يستدلُّون بالمتشابه ـ كعادتهم ـ ويتركون المحكم البيّن، وحديثنا عن آياتٍ مُحكماتٍ من القرآن العظيم تُوضّح وتُبيِّن وتُفصح أنّ علماء أهل الكتاب كانوا يعلمون يقيناً أنّ القرآن حقٌّ ومن عند الله تعالى، وفيما يلي بعض الأدلّة الدّالة على ذلك، وهي على النّحو الآتي[1]:

الدّليل الأوّل: قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا

---

(١) انظر: رد افتراءات المبشّرين على آيات القرآن الكريم، د. محمد جمعة عبد الله (ص٢٠١ ـ ٢٠٤).

أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤٢].

وردت هذه الآيات الكريمة في سياق الآيات الدَّالة على وجوب الإيمان بالقرآن كما سبق ذكره، ونأخذ منها ما له صِلةٌ بالموضوع الذي نحن بصدده.

فإنّ الله تبارك وتعالى قال لليهود ـ الذين هم في عصر نزول القرآن ـ: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: من التَّوراة، وإنَّما عَبَّر عنها بذلك للإشارة إلى أنَّ هؤلاء اليهود عرفوا التَّوراة وصاحبوها طويلاً، فهم إذاً على علم يقيني بما في تضاعيفها يؤدِّي إلى معرفة تصديق القرآن لها.

قال أبو السُّعود رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ «أي: لا تُسارعوا إلى الكفر به، فإنّ وظيفتكم أن تكونوا أوّل منْ آمن به؛ لما أنَّكم تعرفون شأنه وحقِّيّته بطريق التَّلقي ممَّا معكم من الكتب الإلهية كما تعرفون أبناءكم، وقد كنتم تستفتحون به وتستبشرون بزمانه ـ كما سيجيء ـ فلا تضعوا موضع ما يُتوقَّع منكم ويجب عليكم ما لا يُتَوَهّم صدوره عنكم من أوّل كافر به»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تستبدلوا ببيان صفة محمد ﷺ عَرَضاً يسيراً من الدُّنيا؛ «وذلك أنَّ رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مآكل يُصيبونها من سفلتهم وجهَّالهم، يأخذون منهم كلّ عامٍ شيئاً معلوماً من زروعهم وضروعهم ونقودهم؛ فخافوا إن هم بيّنوا صفة محمدٍ ﷺ وتابعوه أنْ تفوتهم تلك المآكل؛ فغيَّروا نعته وكتموا اسمه، فاختاروا الدُّنيا على الآخرة»[٢].

فهؤلاء الحمقى خالفوا أيسر قواعد الاقتصاد؛ لأنَّ المعروف أنَّ الإنسان يدفع الثَّمن ليأخذ ما هو أنفع له وأعزُّ، وهؤلاء دفعوا الأكثر وأخذوا «القليل» فوقعوا في البخس.

ثمَّ نهاهم الله تعالى عن شيئين: عن خَلْط الحقّ بالباطل، وكتمانِ الحقّ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟[٣] ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فنهاهم الله تعالى أن

---

(١) تفسير أبي السعود (١/ ٩٥ ـ ٩٦). (٢) تفسير البغوي (١/ ٤٢).

(٣) اللَّبْسُ: هو الخَلْط، يُقال: لَبِسَ الثوبَ يلْبَسُ لُبساً، ولَبَسَ عليه الأمرَ يَلْبِسُ لَبْساً، أي: خلَطَ. والمعنى: لا تخلطوا الحقّ بالباطل.

يخلطوا الحقّ الذي أنزله عليهم ـ من صفة محمدٍ ﷺ ـ بالباطل الذي يكتبونه بأيديهم، من تغيير صفة محمدٍ ﷺ[١].

قال البغويُّ ؒ: «والأكثرون على أنّه أراد: لا تلبسوا الإسلام باليهودية والنّصرانية»[٢].

وفي هذا دليل على: أنّ أهل الكتاب يعلمون يقيناً أنّ القرآن حقٌّ، ومن عند الله تعالى، ومع ذلك تركوا الإيمان به، وهجروه، واستعاضوا به ثمناً قليلاً من حطام الدُّنيا فبئس ما يشترون.

الدَّليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة ٨٩ ـ ٩٠].

الكتاب: هو القرآن العظيم. وتنكيره: للتفخيم. وَوَصْفه بأنه من الله تعالى: للتشريف[٣].

ذكر المفسّرون أنّ اليهود قبل مبعث النّبي ﷺ كانوا يستنصرون على مشركي العرب، فكانوا يقولون ـ إذا حزبهم أمرٌ، ودهمهم عدوٌّ: اللّهم انصرنا عليهم بالنّبي المبعوث في آخر الزّمان، الذي نجد صفته في التّوراة، فكانوا يُنْصرُون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظلّ زمان نبيٍّ يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ ـ يعني محمداً ﷺ ـ من غير بني إسرائيل، وعرفوا نعته وصفته ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بغياً وحسداً[٤].

والشّاهد: أنّ أهل الكتاب قد علموا سلفاً بمبعث النّبي ﷺ، وتيقّنوا ذلك لاستنصارهم بهذا النّبي، وتوعُّدهم بخروجه، فلما جاءهم هذا الكتاب، والنّبي

= انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٥٤)، تفسير البغوي (١/ ٤٢).

(١) انظر: تفسير السعدي (١/ ٥٦). (٢) تفسير البغوي (١/ ٤٢).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (١/ ١٢٨).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١/ ٤١٠)؛ تفسير ابن كثير (١/ ١٢٥)؛ تفسير البغوي (١/ ٧٦).

الذي عرفوا، كفروا به بغياً وحسداً؛ لأنَّه كان من غير بني إسرائيل.

الدَّليل الثالث: قال تعالى ـ إفحاماً لهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠].

والمعنى: لأيِّ سبب تكفرون بآيات الله تعالى، التي هي آيات القرآن، وقد بشَّرت التَّوراةُ والإنجيلُ بالرَّسول ﷺ ودلَّت على نبوّته، والحال أنَّكم تعلمون صدق هذه الآيات، وتشهدون أنَّها من عند الله تعالى[1].

وهذا يدلُّ بوضوح على أنَّ علماء أهل الكتاب يعلمون علماً يقينياً أنَّ القرآن حقٌّ ومن عند الله، فقامت الحُجَّة بذلك عليهم.

الدَّليل الرابع: قال تعالى ـ إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

والمعنى: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء القوم: عجباً لكم! أأضِلُّ عن الصِّراط المستقيم، فأطلبُ حَكَماً سوى الله ليحكمَ بيني وبينكم، ويفصلَ المُحِقَّ من المبطل، والحال أنَّه هو الذي أنزل إليكم القرآن مُبيّناً فيه الحقُّ والباطل، وما أنتم في حاجة إليه في دينكم ودنياكم[2].

ثمَّ أكَّد حقيقة نزول القرآن من عند الله تعالى، وحقيقة ما فيه، فذَكَر ـ وهو الشَّاهد معنا هنا ـ أنَّ الذين أوتوا الكتاب من علماء اليهود والنَّصارى يعلمون علم اليقين أنَّ هذا القرآن منزَّلٌ حقاً عليك من ربِّك، مشتملاً على الحقِّ، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. أي: نزل إلينا كما هو لم يتغيَّر فيه حرف.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: فلا تكوننَّ من الشَّاكِّين في أنَّ أهل الكتاب يعلمون أنَّ القرآن منزَّل من عند ربِّك بالحق، ولا يُرِبْكَ جحود أكثرهم وكفرهم به؛ لأنَّ عدم اعتراف بعضهم بذلك مردُّه البغي والحسد، والحرص على

(١) انظر: تفسير ابن عطية (١/ ٤٥٢).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ١٧٦)؛ تفسير السعدي (٢/ ٦١).

مظاهر الحياة[1]، وإذا نُهِي المُؤيَّدُ بالوحي عن ذلك، فأولى بأمّتِه.

وهذا النّهي زيادةٌ في التّأكيدِ، وتثبيتُ اليقين كي لا يجول في خاطره طائف من التّردُّد في هذا اليقين، وإلّا فهو ـ ﷺ ـ كإخوانه المرسلين على حُجّة واضحة من أمر ربّه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧].

الدّليل الخامس: قال تعالى ـ مُقيماً الحُجّة عليهم من جنسهم: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦].

قال أبو السّعود رحمه الله في تفسيرها: «هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما، ومنْ آمن من النّصارى وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إذْ هو الكتاب الموعود في التّوراة والإنجيل ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: من أحزابهم، وهم كفرتُهم الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة نحو كعب بن الأشرف،والسّيد العاقب، أسقفي نجران، وأتباعهما ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ وهو الشّرائع الحادثة إنشاء أو نسخاً، لا ما يوافق ما حرّفوه وإلّا لنعى عليهم من أوّل الأمر، أنّ مدار ذلك إنّما هو جنايات أيديهم، وأمّا ما يوافق كتبهم فلم ينكروه، وإن لم يفرحوا به»[2].

فهذا يدلُّ بوضوح على أنّ الذين أُعطوا علم الكتب المنزّلة من شأنهم أنْ يفرحوا بالكتاب الذي أُنزل بعد ذلك؛ لأنّه امتداد للرّسالة الإلهية، ولا يفرح بالشّيء إلّا مَن يعلم يقيناً أنه حقٌّ لا كذب. أمّا مَنْ يتّخذون التّديُّن تحزُّباً وتعصُّباً يُنكرون بعض ما أُنزل عداوةً وعصبيّة، فقامت عليهم الحُجّة بذلك.

الدّليل السادس: قال تعالى ـ مبشّراً به: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٦ ـ ١٩٧].

بشّرت بالقرآن العظيم كتبُ الأوّلين وصدّقته، فنزل طبْق ما أخبرت به، ففي ذِكرِ القرآن في كتب المُتقدّمين دليل على صحّته، وأنّه من عند الله تعالى.

ثمّ أقام الحُجّة على قريش بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً﴾ على صِحّته، وأنّه

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٥٧).
(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٥).

من الله تعالى: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم النّاس، وهم أهل الإنصاف. وكان الظّنُّ الإيمان به؛ لأنَّ علماء بني إسرائيل يعلمون أنّه الحق.

فإنّ كلّ شيء يحصل به اشتباه، يُرجع فيه إلى أهل الخبرة والدّراية، فيكون قولهم حُجّة على غيرهم. كما عَرَفَ السَّحرة ـ الذين مهروا في علم السّحر ـ صِدْق معجزة موسى، وأنّه ليس بسحر. فقول الجاهلين بعد هذا، لا يُؤْبه به[1].

وفي الآية دليل على: أنّ علماء بني إسرائيل يعلمون يقيناً أنَّ القرآن حقٌّ ومن عند الله تعالى، ومع ذلك تنكّروا له، وتركوا الإيمان به، فَتَرَكَ أكثر بني إسرائيل الإيمان به وهجروه، بغياً وحسداً.

الدّليل السابع: قال تعالى ـ مؤكّداً ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤].

أخبر الله تعالى عن عظمة القرآن وصدقه وأنَّ أهل العلم بالحقيقة يعرفونه، ويؤمنون به، ويُقرُّون بأنّه الحقُّ.

فالمقصود بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ هم علماء أهل الكتاب، الذين لم يُغيّروا، ولم يُبدّلوا، بل آمنوا بالقرآن الكريم وبمن جاء به.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ استمعوا له، وأذعنوا وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾؛ لموافقته ما جاءت به الرُّسل، ومُطابقته لما ذُكِرَ في الكتب، واشتماله على الأخبار الصّادقة، الموافقة للحكمة.

وهؤلاء هم الذين تنفع شهادتهم، وينفع قولهم؛ لأنّهم لا يقولون ما يقولون إلّا عن علم وبصيرة؛ لأنّهم أهل الخبرة والدّراية الحقّة، وهو شاهدنا من إيراد الدّليل.

وغيرهم لا يَدُلُّ ردُّهم ومعارضتهم للحقّ على شبهة فضلاً عن الحُجّة؛ لأنهم ما بين جاهلٍ فيه، أو مُتجاهلٍ معاند للحقّ.

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبي. تفسير السعدي (٣/ ٤٨٦).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

ولذلك قال أهل الخبرة والدِّراية من أهل الكتاب: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ فلذلك ثبتنا على ما مَنَّ الله به علينا من الإيمان والإسلام، فصدَّقنا بهذا القرآن.

ولسان حالهم يقول: آمنّا بالكتاب الأول، والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبُه بهذا الكتاب، إيمانَه بالكتاب الأوَّل.

ولذلك فإنَّ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أجراً على الإيمان الأول، وأجراً على الإيمان الثَّاني؛ بسبب صبرهم على الإيمان، وثباتهم على العمل الصَّالح ـ وهذا من عظيم البلاء ـ ولذلك لم تُزعزعهم عن ذلك شبهةٌ، ولم تثنهم عن الإيمان، رياسة ولا شهوةٌ؛ فاستحقُّوا هذا التكريم العظيم من ربِّ العالمين[(١)].

الدَّليل الثامن: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني عن حالكم، إذا كان القرآن من عند الله ـ لا سحر، ولا مفترى كما تزعمون ـ وشهد شاهدٌ عظيمُ الشَّأن من بني إسرائيل على أنَّه من عند الله تعالى، فآمن بلا تردُّد، واستكبرتم عن الإيمان، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النُّبلاء، واستكبرتم أيُّها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلَّا أعظمُ وأشدُّ الكفر؟ وهو الاستكبار عن الحقِّ بعد التَّمكُّن منه[(٢)].

فالمراد بالشَّاهد هنا: هو الجنس، فيشمل كلَّ مَنْ كان على هذه الصِّفة من اليهود والنَّصارى[(٣)]. وإنْ قال سَعْدُ بنُ أبي وقاصٍ رضي الله عنه: «ما سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقُولُ لأحَدٍ يمْشِي عَلَى الأرضِ: إنَّه مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، إلَّا لِعَبْدِ الله ابْنِ سَلامٍ:

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٤/ ٣٠ ـ ٣١).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٨/ ٨٠)؛ تفسير السعدي (٥/ ٩).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٧).

قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ...﴾ [الأحقاف: ١٠] الآية»[١].

فهذا لا يعني التخصيص، وإنّما هو فرد من أفراد العموم، فيشمل لفظ «شاهد» كُلّ منْ كان من أهل الكتاب على صفة عبد الله بن سلام ﷺ في الإيمان بالقرآن العظيم، والنّبي الكريم ﷺ.

المطلب الثاني

كُفْر مَنْ لم يؤمن بالقرآن من أهل الكتاب

إنّ أهل الكتاب ـ مع جزم علمائهم بأنّ القرآن حقٌّ، كما سبق ذكره ـ ينكرون حسداً وبغياً نَسْخَ القرآن العظيم لشريعتهم، ويدَّعون أنّ منْ مات منهم على يهوديَّته، أو نصرانيَّته في عهد الرّسالة المحمّدية فهو مؤمن، وناجٍ من عذاب الله تعالى، وإنْ لم يؤمن برسالة محمدٍ ﷺ، وبكتابه الكريم.

ولا ريب أنّ هذا افتراءٌ كاذب، وادّعاءٌ باطل، ليس له مستند من الصّحة، بل الكثرة الكاثرة من الآيات القرآنية تُكذِّبه، فقد توالت البيّنات السّاطعات على أنّ رسالة محمدٍ ﷺ وكتابه العظيم جاءا لعقلاء العالمين عامّة، وللبشر كافّة، وأصبح ذلك معلوماً من الدّين الإسلامي بالضّرورة، وصار من المقطوع به أنّ الشّريعة المحمّدية ناسخةٌ للشّريعة اليهوديّة والمسيحيّة، وغيرهما من الشّرائع السّماوية، فمَنْ لم يؤمن من أهل الكتاب وغيرهم برسالة محمدٍ ﷺ، وبالقرآن العظيم، إيمان إذعانٍ وانقيادٍ فهو كافر ومخلَّد في النار، وفيما يلي بعض النّصوص الدّالة على ذلك، وهي على النّحو الآتي[٢]:

النّص الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٩ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: مناقِبُ عبدِ الله بن سلامٍ ﷺ (٣/١١٦٦) (ح٣٨١٢).

(٢) انظر: رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم (ص٢١٣ ـ ٢٢٤).

ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٨٩ ـ ٩١].

لمَّا كان اليهود المعاصرون للنَّبي ﷺ يعرفون حقّاً أنه النَّبي المبشَّر به في التَّوراة، ولكنَّهم لم يؤمنوا به حسداً وبغياً، فقد باعوا حظَّهم الحقيقي ـ وهو الإيمان بكتاب الله تعالى، وما يترتَّب عليه من الثواب في الدُّنيا والآخرة ـ واستبدلوا بالإيمان الكفر بما أنزل الله، وما يترتَّب عليه من العقاب في الدُّنيا والآخرة.

فهُم قد استحقُّوا من الله تعالى غضباً جديداً عظيماً؛ لكفرهم بالقرآن العظيم، الذي هو فضل الله تعالى على محمدٍ ﷺ، أُضيف هذا الغضب في ميزان سيِّئاتهم على غضب استحقوه ـ من قبل ـ لتضييع التَّوراة، والكفر بعيسى ﷺ.

«قال ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ: الغضب الأوَّل بتضييعهم التَّوراة وتبديلهم، والثَّاني: بكفرهم بمحمدٍ ﷺ والقرآن.

وقال قتادةُ: الأوَّل بكفرهم بعيسى والإنجيل، والثَّاني بكفرهم بمحمدٍ ﷺ والقرآن»[١].

فلعنهم الله، وغضب عليهم غضباً بعد غضبٍ؛ لكثرة كفرهم، وتوالي شكِّهم وشركهم.

ووُصِف عذاب هؤلاء المكذِّبين بالقرآن بأنَّه ﴿مُّهِينٌ﴾ مأخوذٌ من الهَوَان، وهو الخلود في النار؛ لأنَّ مَنْ لا يُخَلَّد من عصاة المسلمين. إنَّما عذابه كعذاب الذي يُقام عليه الحدُّ، لا هوان فيه، بل هو تطهير له، كرجم الزَّاني، وقطع يد السَّارق[٢].

فلمَّا «كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التَّكبُّر، قُوبلوا بالإهانة والصَّغار في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى

---

(١) تفسير البغوي (١/ ٧٦).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٢٩)؛ تفسير الثعالبي (١/ ٨٨ ـ ٨٩).

﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين»[١].

وعن عَبْد اللهِ بن عَمْرو رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال:

«يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى: بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهلِ النَّارِ طِينَةِ الخَبَالِ»[٢].

ومن تكبُّرهم أنهم إذا قيل لهم آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ قالوا لا نؤمن به، ويدّعون أنهم لا يؤمنون إلّا بالذي أُنزل عليهم، وهو التّوراة، مع أنّ القرآن هو الحقُّ المصدّق لما في التّوراة التي أُنزلت عليهم.

وشاهدنا في هذا النّص: أنّ كفرهم بالقرآن كفرٌ بالتّوراة نفسها؛ إذ الكلُّ من عند الله تعالى، والكافر بذلك مخلّد في النار.

النّص الثاني: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٧ ـ ٩٩].

فاليهود لم يقتلوا الأنبياء، ويحرّفوا التّوراة، ويشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً من حطام الدُّنيا فقط، بل زادوا على هذه الجرائم جريمةً أخرى، وهي: عداوتهم للملائكة، فأضمروا العداوة لأقرب الملائكة إلى الله تعالى، جبريلَ عليه السلام، الذي نزل بوحي القرآن.

وقد أجمع المفسّرون: على أنّ هذه الآيات نزلت جواباً لليهود، الذين زعموا أنّ جبريل عدوٌّ لهم، وأنّ ميكائيل وليٌّ لهم، وذلك بعد مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في المدينة[٣]. ومما جاء في هذه المناظرة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أقبلتْ يهودُ إلى رسُولِ الله ﷺ، فقَالُوا: يا أبا

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٢٦).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٦٥٥) (ح٢٤٩٢) وقال: «حديث حسن صحيح».
وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٢/ ٣٠٤) (ح٢٠٢٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٦٦)؛ تفسير البغوي (١/ ٧٩)؛ تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٧).

القاسِم، إنَّا نَسْأَلُكَ عن خَمْسَةِ أَشْيَاءَ. فإِنْ أَنبأْتَنا بِهِنَّ، عَرَفْنا أنَّكَ نَبِيٌّ واتَّبَعْنَاكَ.

فأَخَذَ عليهم ما أَخَذَ إسرائيلُ على بَنِيْهِ، إِذْ قالوا: اللهُ على ما نَقُولُ وَكِيلٌ...

[قَالَتْ يَهُودُ:] إِنمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي نُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ لَهُ مَلَكٌ يأتيه بِالخَبَر، فأَخْبِرْنا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: «جِبْرِيلُ ﷺ قَالُوا: جِبْرِيلُ ذاكَ الَّذي يَنْزِلُ بالحَرْبِ والقِتَالِ والعَذَاب عَدُوُّنا، لو قُلْتَ: مِيْكَائِيلُ الَّذِي يَنْزِلُ بالرَّحْمَةِ والنَّبَاتِ والقَطْرِ، لكان. فأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ [البقرة: ٩٧]»(١).

ومعنى الآيات التي معنا: قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود، الذين زعموا أنَّ الذي منعهم من الإيمان بك، هو ولِيُّك جبريلُ ﷺ، ولو كان غيره من ملائكة الله لآمنوا بك وصدَّقوك: إنَّ هذا الزَّعم منكم، تناقض وتهافت، وتكبُّر على الله تعالى.

فإنَّ جبريل ﷺ هو الذي نَزَّلَ القرآنَ من عند الله عزَّ وجلَّ على قلبك، وهو الذي نزَّل على الأنبياء قبلك، والله تعالى هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسولٌ مَحْض.

وهذا الكتاب الذي نزل به جبريل - مصدِّقاً لما تقدَّمه من الكتب - غير مخالف لها ولا مناقض.

فالعداوة لجبريل، الموصوف بذلك، كفرٌ بالله وآياته، وعداوةٌ لله ورسله وملائكته. فإنَّ عداوتهم لجبريلَ لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله تعالى من الحقِّ على رسوله ﷺ.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٧٨) (ح٢٥١٤) (١/ ٣١٠) (ح٢٥١٤). وقال محققو المسند (٤/ ٢٨٥) (ح٢٤٨٣): «حديث حسن». ورواه الترمذي مختصراً (ح٣١١٧) وقال: «حسن صحيح». وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٤١ - ٢٤٢): «رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات». وصححه أحمد شاكر في «تعليقه على المسند» (ح٢٤٨٣، ٢٥١٤)، و«تعليقه على تفسير الطبري» (ح١٦٠٥).
وله شاهد من حديث أنس بن مالك، رواه البخاري: (ح٣٣٢٩، ٣٩٣٨، ٤٤٨٠).

ففعلهم وقولهم القبيح يتضمَّن الكفرَ والعداوةَ: للذي أنزله وأرسله، والذي أُرسل به، والذي أُرسل إليه[١].

قال الشَّوكاني رَحِمَهُ اللهُ: «العداوة من العبد: هي صدور المعاصي منه لله، والبغض لأوليائه. والعداوة من الله للعبد: هي تعذيبه بذنبه، وعدمُ التجاوزِ عنه والمغفرةِ له»[٢].

وفي هذه الآيات توبيخ لليهود، وبيان لكفرهم لتكذيبهم بالقرآن العظيم، وفيها إخبار من الله عزَّ وجلَّ لهم: أنَّ مَنْ كان عدواً لمحمدٍ ﷺ فالله له عدو، وهو من الكافرين بالله، الجاحدين بآياته، الخارجين عن دينه وشرعه وهديه، المتمرِّدين على آياته وأحكامه[٣]، وهؤلاء هم أصحاب النَّار، وهم فيها خالدون.

النَّص الثالث: قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤].

قال أبو السُّعود رَحِمَهُ اللهُ: «المراد بالموصول: إمّا أهل الكتابين، وهو الأنسب بمقام المُحاجّة معهم. أو جنس الكفرة، وهم داخلون فيه دخولاً أوّلياً»[٤].

وقد أيَّدَ ابنُ عاشور رَحِمَهُ اللهُ كلامَ أبي السُّعود، فقال: «وشمِل قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المشركين واليهودَ والنَّصارى في مرتبة واحدة؛ لأنَّ جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد بآيات الله ـ هنا ـ لأنَّه الكتاب الوحيد الذي يصحُّ أنْ يُوصف بأنَّه آيةٌ من آيات الله؛ لأنَّه مُعجزة. وعبّر عنهم بالموصول إيجازاً؛ لأنَّ الصِّلةَ تجمعهم»[٥].

فأهل الكتاب كذَّبوا بالقرآن أصالةً، وبسائر الكتب الإلهية تبعاً؛ لأنَّ التَّكذيب بالمصدِّق ـ وهو القرآن ـ موجبٌ لتكذيب ما يُصدِّقه حتماً وأصالة وهو التَّوراة والإنجيل ـ فعاد التَّكذيب على جميع الكتب المُنزَّلة.

ولذا حَكَم اللهُ تعالى عليهم بالكفر بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فهم

---

(١) انظر: تفسير السعدي (١/ ٧٩).
(٢) تفسير الشوكاني (١/ ١٨٣).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٧٧).
(٤) تفسير أبي السعود (٢/ ٥).
(٥) التحرير والتنوير (٣/ ١١).

جحدوا القرآن وأنكروه وردُّوه بالباطل، فاستحقُّوا بهذا، الكفر في الدُّنيا، ولهم كذلك ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم القيامة، لا يقادر قدره. وحسبنا أنَّ الله تعالى وصف عذابهم بأنَّه شديد، فالجزاء من جنس العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ فهذا اعتراض تذييلي، مقرِّر للوعيد، ومؤكِّد له، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]. فالله تعالى عزيز: أي منيع الجناب عظيم السُّلطان.

والله تعالى ذو انتقام: أي مِمَّنْ كذَّب بآياته، وخالف رسله الكرام، وأنبياءه العظام[1].

وفي الآية دليل على: أنَّ الذي كذَّب بالمصدِّق ـ وهو القرآن ـ مُكَذِّب من باب أولى بما يصدِّقه ـ وهو التَّوراة والإنجيل ـ فعاد تكذيبهم على جميع كتب الله تعالى، وهو عين الكفر، فاستحقُّوا به هذا العذاب الشَّديد، من عزيز ذي انتقامٍ سبحانه، فهو قادر لا يغلبه شيء، منتقم ممَّنْ يستحقُّ الانتقام.

النَّص الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

والمعنى: إنَّ الدِّين الحقَّ المرضي عند الله تعالى هو الإسلام، ولا يقبل من أحد سواه، وهو اتِّباع الرُّسل فيما بعثهم الله به في كلِّ حين، حتَّى ختموا بمحمدٍ ﷺ، فمنْ لقي الله ـ بعد بعثة محمدٍ ﷺ ـ بدين على غير شريعته فليس بمتقبَّل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فانحصر الدِّين المُتقبَّل عند الله في الإسلام: وهو التوحيد الخالص من شوائب الشِّرك، وإخلاص العبادة لله وحده، والتزام أوامره ونواهيه، وتشريعاته[2].

ومن أجل ذلك ذمّ الله تعالى اليهود والنّصارى لاختلافهم في أمر الإسلام،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٥).

(٢) انظر: المصدر نفسه (٢/ ٢٨).

ورسالة محمدٍ ﷺ، بعد أن علموا بالحُجج النيِّرة والآيات الباهرة، والبراهين السَّاحقة[(١)].

فعدم إسلامهم، وكفرهم بمحمدٍ ﷺ، والكتاب الذي أُنزل إليه، لم يكن عن جهالةٍ بذلك أو شُبهةٍ، وإنما كان عن استكبارٍ وحسدٍ للرسول خاصّةً وللعرب عامة، وحرصاً على الجاه والسُّلطان ومظاهر الحياة، فكانوا بذلك ممَّنْ ضلَّ عن علم وبيِّنة.

ولذلك استحقُّوا أشدّ العذاب وأقساه، كما يُفهم ذلك من التّهديد والوعيد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وهذا «تعريضٌ بالتهديد؛ لأنّ سريع الحساب إنّما يبتدئ بحساب منْ يكفر بآياته، والحسابُ هنا كنايةٌ عن الجزاء، كقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ [الشعراء: ١١٣]»[(٢)].

والشَّاهد من إيراد هذا النَّص: أنّ أهل الكتاب جحدوا القرآن العظيم وكفروا به، وسيجازيهم الله تعالى ويحاسبهم على هذا التّكذيب في نار جهنّم خالدين فيها أبداً.

النّص الخامس: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدُّخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه، وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره، والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كلّ صلاةٍ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. أي: زدنا هدًى وتثبيتاً، فأمرَ بالإيمان الحقّ بالله وبرسوله والدّوام عليه، وبالكتاب الذي أنزله على رَسوله ـ وهو القرآن الكريم ـ وجنس الكتب الذي أنزله على رسله، كالتّوراة والإنجيل[(٣)].

فهذا كلُّه من الإيمان الواجب، الذي لا يكون العبد مؤمناً إلّا به إجمالاً

---

(١) انظر: تفسير السعدي (١/ ٢٣٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٥٦).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨٣).

فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتّفصيل؛ وذلك لأنَّ الكفر بشيء من هذه الأمور المذكورة، كالكفر بجميعها؛ لتلازمها، وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض[1].

﴿وَمَن﴾ في الآية الكريمة من صيغ العموم، فاليهود والنّصارى الذين يؤمنون ببعض الكتب، ويكفرون ببعضها، ويؤمنون ببعض الرُّسل ويكفرون ببعضهم لا يُعتدّ بإيمانهم، إذ الكفر بكتابٍ أو برسولٍ كفر بالكلّ؛ لأنه لو آمن إيماناً صحيحاً بنبيِّه وكتابه، لآمن بمحمدٍ ﷺ وكتابه المُبشّر به عندهم.

ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

فالإيمان واجب بكلّ نبيّ بعثه الله إلى الثّقلين، فمَنْ كفر بنبوّة نبيّ ـ حسداً أو عصبيّةً، أو طمعاً في حظوظ دنيويّة، أو حرصاً على جاه أو سلطان ـ فقد كفر بسائرهم.

فلو آمن اليهود بموسى حقيقة لآمنوا بمحمدٍ ﷺ، ولو آمن النّصارى بعيسى حقيقة لآمنوا بمحمدٍ كذلك؛ فهو مذكور في كتبهم، ومُبشّر به عندهم، ومصدّق لما معهم.

والشّاهد الذي معنا: أنَّ مَنْ يكفر بهذه الكتب أو ببعضها ـ وخاصّة القرآن الكريم ـ فقد ضلّ عن الصّراط المستقيم، وأوغل في الضّلال وأبعد فيه، ولذلك جاء وصفه في نهاية الآية: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

ومعنى ﴿ضَلَّ﴾: «أي سار على غير هدى، فعندما يتوه الإنسان عن هدفه المقصود، يُقال: ضلّ الطّريق، والذي ﴿ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ هو مَنْ يذهب إلى متاهة بعيدة، والمقصود بها: متاهة الكفر.

وهناك ضلال عن الهدى يمكن استدراكه، أمّا الضّلال البعيد والغرق في

---

(١) انظر: تفسير السعدي (١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

متاهة الكفر فمن الصعب استداركه»[١].

وأيُّ ضلال أبعد من ضلال مَنْ ترك طريق القرآن، وسلك الطَّريق الموصلة له إلى نار جهنَّم ـ وهو الكفر بالقرآن والعياذ به ـ وهذا ما تورّط فيه مَنْ كفر من أهل الكتاب بالقرآن العظيم.

النَّص السَّادس: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ③ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١ ـ ٤].

إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

والمعنى: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ـ وهم اليهود والنَّصارى ـ ومن المشركين الذين عبدوا الأوثان والأصنام متروكين هملاً بدون إرشادهم إلى الحقّ، وإقامة الحُجَّة الواضحة عليهم، وهذه الحُجّة الواضحة هي: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهو محمدٌ ﷺ، يتلو قرآناً عن ظهر قلب ـ لأنه أمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب ـ صار فيما بعد مكتوباً في صحف منزّهة عن الباطل والتَّحريف، فيها آيات مستقيمة لا عِوَج فيها.

فالمراد بالرَّسول هنا قَطعاً هو محمدٌ ﷺ؛ لأنه هو الذي أُرسل إلى جميع البشر من أهل الكتاب والمشركين، وما اختلف اليهود والنَّصارى في شأن محمدٍ ﷺ وكتابه، وصاروا في ذلك شِيَعاً وأحزاباً إلَّا من بعد ما جاءتهم الحُجَّة الواضحة الدَّالة على صدق رسالته ﷺ، وأنَّه الرَّسول الموعود به في كتبهم.

قال أبو السُّعود رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ...﴾ إلخ كلامٌ مسوقٌ لغاية التَّشنيع على أهل الكتاب خاصَّة، وتغليظ جناياتهم ببيان أنَّ ما نُسِب إليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباهٍ في الأمر، بل كان بعد وضوح الحقّ، وتبيُّن الحال، وانقطاع الأعذار بالكليّة، وهو السِّرُّ في وصفهم بإيتاء الكتاب المنبئ عن كمال تمكّنهم من مطالعته والإحاطة بما في تضاعيفه من الأحكام والأخبار، التي من جملتها نعوت النَّبي ﷺ»[٢].

---

(١) تفسير الشعراوي (٥/ ٢٧١٦).
(٢) تفسير أبي السعود (٩/ ١٨٤).

ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ(١) يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(٢).

وقد أكَّد الله تعالى ـ في الآية السّادسة من هذه السُّورة ـ أنّ الكافرين بالقرآن العظيم ورسالةِ محمدٍ ﷺ من أهل الكتاب والمشركين خالدون في نار جهنم، وبئس القرار، جزاء كفرهم، بعد ما جاءتهم البيِّنة، وأنَّهم شرُّ الخلائق؛ لأنّهم عرفوا الحقَّ وتركوه، فخسروا الدُّنيا والآخرة، وبذلك استحقُّوا أشدَّ العذاب.

وهكذا نجد دعوة الإسلام قائمةً بحججها الواضحة القويَّة المتواترة على أهل الكتاب في مشارق الأرض ومغاربها، وأنَّهم مطالبون بالإيمان بمحمدٍ ﷺ وبكتابِه الذي هو حُجَّة عليهم، كما هو حُجَّة على غيرهم، وأنَّ مَنْ لم يؤمن بذلك إيمان إذعانٍ وانقيادٍ فهو كافر ومخلَّد في النَّار.

---

(١) المقصود بهذه الأُمَّة: أمّة الدّعوة.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمدٍ ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملّته (١/ ١٣٤) (ح١٥٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

الفصل الثاني

هجر تعظيم القرآن

(الاستهزاء به)

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الاستهزاء.

المبحث الثاني: مظاهر تعظيم القرآن.

المبحث الثالث: أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن.

المبحث الرابع: حكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف.

المبحث الأول

تعريف الاستهزاء

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الاستهزاء.

المطلب الثاني: الألفاظ القرآنية القريبة من معنى الاستهزاء.

المطلب الاول

تعريف الاستهزاء

أولاً: «الاستهزاء» لغة:

جاء الاستهزاء في اللُّغة مصدراً مشتقاً من الفعل (هزأ)، وقد ذكر جماعةٌ من علماء اللُّغة لهذا الفعل ومشتقّاته استعمالاتٍ عديدةً، وسوف نَعرضُ للمعاني التي تتعلّق بموضوع البحث على النَّحو الآتي:

١ ـ السُّخْرية:

يقال: اسْتهْزأ: سخر. والهُزْءُ والهُزُؤ: السُّخْريةُ[١].

٢ ـ الإسراع:

يقول الزمخشري ـ في بيان أصل كلمة الاستهزاء: «والاستهزاء: السُّخْرية والاستخفاف، وأصل الباب الخِفَّةُ ـ من الهَزْءِ وهو القَتْلُ السّريع ـ وهزأ يهزأ: مات على المكان... وناقته تهْزأ به؛ أي تُسْرِعُ، وتخفُّ»[٢].

٣ ـ المزْحُ في خُفْية:

يُقال: الهُزْءُ: مزْحٌ في خُفْيةٍ، وقد يُقال لما هو كالمزح[٣].

وكلمة (استهزأ) تتعدّى بـ (الباء) وتتعدّى بـ (منْ)؛ فيقال: استهزأتُ به ومنه. ولذا جاء في مختار الصّحاح: «هزئ منه وبه»[٤].

خلاصة المعنى اللُّغوي:

بقول الزّمخشري يتّضح أصل الكلمة، ألا وهو: طلب الخفّة. والمعاني المذكورة ـ آنفاً ـ لا تخرج عن هذا الأصل:

---

(١) انظر: لسان العرب (١٥/ ٨٤)، مادة: (هزأ).
(٢) أساس البلاغة، للزمخشري (ص١٠٤ ـ ١٠٥).
(٣) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، لأحمد بن يوسف الحلبي (٤/ ٢٨٩).
(٤) مختار الصحاح (ص٣٣٩).

فأمَّا المعنى الأوَّل: وهو السُّخْرِية، فمقصدها الاسْتِخْفافُ ممّن يسخر منه.

وأمّا المعنى الثَّاني: وهو الإسراع، ومنه موت الفجأة، فلا يخرج عن أصل الهُزْء: الخفَّة. فموت الفجأة موت سريع، يموت فيه الإنسان في مكانه في خِفَّة وسرعة.

وأمّا المعنى الثَّالث: وهو المزح في خُفْيَة، فهو مزح غير واضح المعالم، لا يدري سامعه هل هو ملاطفة أم أذيَّة؟ وذلك لأنّ المستهزئ ـ أحياناً ـ يلجأ إلى أسلوب المزاح في استهزائه، لكنّه مزاح خفي لا تتّضح معالمه اتّضاحاً جليّاً. وكذلك ما هو كالمزح[١].

والفرق بين المزاح والاستهزاء: هو أنّ المزاح يكون دون أذيّة، وأمّا الاستهزاء فهو بأذيّة[٢].

وبناء على ما تقدَّم: يكون معنى الاستهزاء هو الاستخفاف.

ثانياً: «الاستهزاء» اصطلاحاً:

بما أنّ السُّخرية مقاربةٌ لمعنى الاستهزاء مقاربة كبيرة؛ فسأورد هنا قولَ أبي حامدٍ الغزالي رحمه الله في تعريفه للسُّخرية قائلاً: «ومعنى السُّخرية: الاستهانة والتَّحقير والتَّنبيه على العيوب والنَّقائص على وَجْهٍ يُضْحَكُ منه، وقد يكون ذلك بالمُحاكاة في الفِعْلِ والقولِ، وقد يكون بالإشارةِ والإيماء»[٣].

ولقد اعتمد الآلوسي رحمه الله تعريفَ الغزالي في تعريفه للاستهزاء[٤].

علماً بأنَّ ما اعتمده الآلوسي في تعريف الاستهزاء هو قول الغزالي السَّابق في السُّخرية، ولكن الآلوسي جعله في الاستهزاء؛ لأنَّ السُّخرية والاستهزاء يؤدّيان معنى متقارباً.

«فالسُّخرية إذن؛ أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة»[٥].

---

(١) انظر: الآيات القرآنية الواردة في المستهزئين بالإسلام ودعاته، سامي بن وديع عبد الفتاح (ص١٤).

(٢) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (٧/ ١١٧).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٧٧).

(٤) انظر: روح المعاني (١/ ١٤٦).

(٥) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حنفي (ص١٥).

المطلب الثاني

الألفاظ القرآنية القريبة من معنى الاستهزاء

وردت في القرآن العظيم ألفاظٌ تَقرب من معنى الاستهزاء، فمنها ما هو قريب جداً من معنى الاستهزاء، ومنها ما هو أقلُّ قرباً، ولا يدلُّ على الاستهزاء إلَّا بقرينة، والقصد من إيرادها هنا هو دلالتها المباشرة على معنى الاستهزاء، إذ الاستهزاء بكلام الله تعالى وأوامره ونواهيه وَرَدَ بصيغٍ وألفاظٍ مختلفة، الحدُّ المشترك فيها: هو ترك تعظيم الوحي المنزَّل من الله تعالى، والاستهانة بالمرسلين من عباده الذين اصطفاهم.

وتُجمل هذه الألفاظ على النَّحو التالي:

١ ـ السُّخرية.

٢ ـ الضَّحك.

٣ ـ الغمز.

٤ ـ اللَّعب.

٥ ـ الخوض.

٦ ـ اللَّمز.

وفيما يلي عرض لهذه الألفاظ في ضوء السِّياق القرآني، والقصد منه هو بناء تصوُّر واضح حول معنى الاستهزاء من خلال آيات القرآن الكريم وسياقاتها المختلفة، ويتمُّ تسليط الضَّوء فيها على اللَّفظة القرآنية المرادة فقط خشية الإطالة(١).

أولاً: السُّخرية:

* يقول تعالى عن نوح ﷺ مع قومه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩].

---

(١) انظر: الآيات القرآنية الواردة في المستهزئين بالإسلام ودعاته (ص١٦ ـ ٢٣).

والذي يراد من الوقوف عند معنى الآية الكريمة ـ في هذا المقام ـ هو تسليط الضوء على عبارة: ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

ومعنى ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾: استهزؤوا به.

يقول الرّاغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ: «سخرت منه، واستسخرته، للهزء منه، قال تعالى: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾»[1].

فقوم نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يستهزئون به؛ لأنه يصنع السّفينة وينذرهم بأنَّ الله تعالى سيغرق الكافرين.

وبالجهة المقابلة، نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لقومه: إنْ تسخروا منّي ومن الذين معي لظنّ أنّ عمَلَنا غيرُ مثمر ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ منّا الآن؛ لأنَّ عمَلَنا مُنْجٍ، وعملكم ليس مقتصراً على الضَّيَاع، بل هو مُوجِبٌ لما توعدون من العذاب[2].

ثانياً وثالثاً: الضَّحك والغمز:

* يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٠].

هاتان الآيتان الكريمتان تعرضان صورتين من صور استهزاء الكفار بالمؤمنين.

فأما الصُّورة الأُولى فهي: الضَّحك من المؤمنين:

إذ إنَّ استهزاء الكفّار بالمؤمنين قد تجاوز الشُّعور القلبي إلى ضَحِكٍ يصدر نتيجة الاستهزاء المكنون في صدورهم.

فمجرد الضحك لا يدل على الاستهزاء دون قرينة؛ لأنَّ أسباب الضحك تتعدّد، فخرج الاستهزاء هنا على شكل ضحك يُسمع صوته، ويُرى صاحبه فاكهاً. ولذا يقول الرّاغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ: «اسْتُعِير الضَّحك للسُّخرية»[3].

وأما الصُّورة الثَّانية فهي: الغمز استهزاء بالمؤمنين:

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص٢٢٧).
(٢) انظر: نظم الدُّرر في تناسب الآي والسُّوَر، لإبراهيم بن عمر البقاعي (٩/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥).
(٣) المصدر السابق (ص٥٠١).

ويدلُّ له قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠].

والغمز: هو الإشارة بالجفون والحواجب(١).

فقد كان الكفَّار إذا مرّ بهم المؤمنون ـ وهم في مجالسهم ـ يستهزئون بهم على طريق الغمز.

فمجرَّد الغمز لا يدلُّ على الاستهزاء دون قرينة؛ لأنَّ أسبابه تتعدَّد أيضاً كما هو الحال في الضَّحك، فخرج الاستهزاء هنا على شكل الغمز.

فمن خلال هاتين الصُّورتين يتبيَّن أنَّ الضَّحك والغمز لفظان قريبان في معناهما لمعنى الاستهزاء.

رابعاً وخامساً: الخوض واللَّعب:

* يقول تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

تعرض هذه الآية الكريمة مشهداً من حادثةٍ وقعت من المنافقين في غزوة تبوك، فقد أخرج الإمام الطبري رحمه الله بسنده إلى عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: «قال رَجُلٌ في غَزْوةِ تَبوكٍ في مجْلِسٍ: ما رَأَيْنَا مِثْلَ قُرّائِنا هؤلاءِ، أَرْغَبَ بُطوناً، ولا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، ولا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقاءِ! فَقَالَ رَجُلٌ في المَجْلِسِ: كَذَبْتَ، وَلكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخبرنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذلِكَ النَّبِيَّ ﷺ ونَزَلَ القُرْآنُ، قالَ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقاً بِحَقَبِ(٢) نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تَنْكُبُهُ الحِجارةُ(٣)، وَهُوَ يَقُولُ: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعبُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦]»(٤).

---

(١) انظر: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الطاهر أحمد الزاوي (٣/ ٤١٧)؛ فتح البيان في مقاصد القرآن، لصديق بن حسن القنوجي (ص٣٩٤).

(٢) (الحَقَب): بفتح الحاء والقاف، حَبْلٌ يُشَدُّ به الرَّحْلُ في بطن البعير.
انظر: لسان العرب (٣/ ٢٥٢)، مادة: (حقب).

(٣) (تَنْكُبُهُ الحِجارةُ): أي لثمَتِ الحجارةُ رجلَه وظُفْرَه، أي آذته وأصابته.
انظر: لسان العرب (١٤/ ٢٧٥)، مادة: (نكب).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٣ ـ ٣٣٥) (رقم ١٦٩١١، ١٦٩١٢، ١٦٩١٦).

لقد تعلَّل المنافقون بأنَّ ما فعلوه كان خوضاً ولعباً، فردَّ عليهم النّبي ﷺ بأنَّ هذا هو عين الاستهزاء، قائلاً لهم: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

والخوض: هو المشي في الماء، ثم استعمل في كلِّ دخول فيه تلويث وأذى[1].

واللَّعب: يُقارب معنى الاستهزاء، حيث يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهزء: السُّخرية واللَّعب»[2].

وكلمة «الخوض» تُشعرنا بمعنى في منتهى الدِّقَّة؛ لأنَّ الذي يخوض في الماء لا يدري إلى أيِّ موقع تقع قدماه، وربّما وقعتا في هُوَّة، أو ربّما وقعتا على شيء جارح، لكنَّ الذي يسير على اليابسة، فالطَّريق واضحة أمامه، يضع قدمه حيث يرى أماناً واستقراراً وثباتاً، ومن هذا الباب أصبح الخوض وصفاً للكلام في الباطل[3].

فهذا الخوض وهذا اللَّعب هو عين الاستهزاء، بقرينة أنَّ النَّبي ﷺ لم يلتفت إلى ما اعتذروا به، بل أنزلهم منزلة المستهزئين بخوضهم ولعبهم.

سادساً: اللَّمز:

* يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

تعرض هذه الآية الكريمة استهزاء المنافقين بالمؤمنين المتصدِّقين، فإذا جاء رجل من الصّحابة، فتصدّق بشيء كثير، قال المنافقون: هذا مُراءٍ، وإذا جاء آخر فتصدَّق بصاع، قال المنافقون: إنّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، فنزلت الآية.

* عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ[4]، فَجَاءَ أَبُو

= وقال محمود شاكر - في تعليقه على الطبري: «صحيح الإسناد».

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ١٨٢)؛ لسان العرب (٤/ ٢٤٦)، مادة: (خوض).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٠٧).

(٣) انظر: تفسير الشعراوي (٦/ ٣٧٠٩).

(٤) (نتحامل): أي نحمل الحِمْل على ظهورنا بالأجرة، ونتصدّق منها.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٤٤٣).

عُقَيْلٍ بنصْفِ صَاعٍ، وَجاءَ إنْسَانٌ بأكْثَرَ منْهُ، فَقَالَ المُنافقُونَ: إنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عنْ صدقَةِ هذَا، ومَا فَعَلَ هذَا الآخرُ إلَّا رِئَاءً، فَنَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية»[1].

قال البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «يَلْمِزُونَ: يَعِيبُونَ»[2].

والمراد هنا تسليط الضوء على كلمة (اللَّمز):

يقول الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ في معنى اللَّمز: «الاغتياب وتتبُّع المعاب»[3].

وقيل: هو تتبُّع المعاب في الحضور، وقيل: هو تعييب النَّاس باللِّسان[4]، وقيل هو: المواجهة بالعيب[5]، وقيل هو: الطَّعن في الأنساب[6].

وعلى كلِّ حال، فمعنى اللَّمز: هو تعييب النَّاس، وهو نوع من أنواع الاستهزاء.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ (٣/ ١٤٣١) (ح٤٦٦٨).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٤٣١).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص٤٥٤).

(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جُزي (٤/ ٤٢٨).

(٥) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٧٢).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ١٨١).

المبحث الثاني

مظاهر تعظيم القرآن

إذا كنّا في معْرض الحديث عن مظهرٍ من مظاهر هجر القرآن العظيم، وهو ترك تعظيمه، والاستهزاء به، فإنّه من الضّروري ـ بعد استعراض معنى الاستهزاء ـ أن نُبيّن موقف المؤمنين من القرآن وتعظيمهم له؛ ذلك ليتبيَّن للجميع أنّ لكتاب الله تعالى المكانة العظيمة والمنزلة الجليلة في قلب كلّ مؤمنٍ بالله، إذ هو كلام الله عزّ وجلّ، ولا يماثل شيئاً من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله أحدٌ من الخلق، وتعظيمُه وإجلاله دليل على تعظيم الله سبحانه وخشيته، فليس فيما نرى ونسمع كتاب أُحيط به من الإجلال والتّقديس والتّعظيم والاحترام من جميع الجوانب، وفي صور متعدّدة كالقرآن الكريم.

ولذلك أجمع أهل العلم ـ من السّلف والخلف ـ على وجوب احترام المصحف وتعظيمه وتكريمه، كما أجمعوا على حُرمة امتهانه، فيجب تعظيمه وإجلاله، والذّبُّ عنه أمام تحريف الغالين وانتحال المبطلين[1].

ولمّا كان المصحف الكريم أشرف كتاب في الوجود؛ لما تضمّنه بين دفّتيه من كلام الخالق المعبود جلّ جلاله، تأكّدت في حقّه جملة من الآداب المرعيّة المستلزمة لطائفة من مظاهر تعظيمه القوليّة والفعليّة، وهذه الآداب منها ما جاء به نصٌّ عن الشّارع الحكيم فالتزمه المؤمنون؛ لأنّه أصبح تكليفاً، ومنها ما وضعوه والتزموه دون نصٍّ؛ إمعاناً في تعظيمهم القرآن، ودليلاً على تمكُّن حبّ القرآن في قلوبهم، وإذا كانت كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمّى، فإنّ من شرف القرآن العظيم تعدُّد هذه الآداب، وهي على النّحو الآتي:

---

(١) انظر: نواقض الإيمان القولية والعملية (ص٣٩٢).

أولاً: ملاحظة آداب التِّلاوة والالتزام بها:

فمن الآداب المتأكدة حال التِّلاوة ما يلي:

١ ـ **اشتراط الطَّهارة لملامسته،** مع إحسان الجلسة والاستعداد التَّام لها بالسِّواك، وقطع المشغلات والملهيات، والبعد عن الصَّوارف والمعوِّقات[١].

٢ ـ **اجتناب أكل الثُّوم والبصل قبل القراءة،** فقد ذهب بعض السلف إلى كراهية أكل الثُّوم والكرّاث والبصل، والامتناع منه قبل قراءة القرآن، إكراماً وتقديراً لكلام الله تعالى.

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «ما أكلتُ الكرّاث منذ قرأت القرآن»[٢].

٣ ـ **يستحب للقارئ في غير الصَّلاة أن يستقبل القبلة؛** لأنَّ تلاوة القرآن عبادةٌ يُتقرَّب بها إلى الله تعالى، فناسب فيها استقبال القبلة، ولأنّ في ذلك تعظيماً لكلام الله تعالى، ويستحب كذلك أن يجلس متخشِّعاً بسكينة ووقار في أدب وخضوع، كجلوسه بين يدي مُعلِّمه، هذا هو الأكمل، ولو قرأ قائماً أو مضطجعاً أو على فراشه أو غير ذلك من الأحوال جاز، ولكن دون الأُولى[٣].

٤ ـ **يستحب ـ أيضاً ـ عند إرادة الشُّروع في القراءة الاستعاذة والبسملة،** في قول جمهور العلماء، امتثالاً لأمر الله تعالى بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨][٤].

٥ ـ **أن يكظم الشَّخص تثاؤبه ما استطاع، ولا يرفع به صوته،** إذ هو قبيح لا يجمل بالعاقل، ويتأكَّد هذا في حقِّ المسلم الذي يقرأ كلام الله عزَّ وجلّ.

عن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القراءة حتَّى يذهب تثاؤبك»[٥].

---

(١) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص٧٣)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص٥٨ ـ ٦١، ١٥١ ـ ١٥٤).

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٥٥).

(٣) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص١٠٨).

(٤) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٦٣ ـ ٦٤).

(٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٥٦)؛ والآجُرّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص٧٥).

٦ ـ اجتناب الضَّحك واللَّغط والحديث أثناء القراءة أو سماعها، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤][1].

٧ ـ حضور القلب عند التِّلاوة، وتدبُّر المقروء والمسموع، إذ لا خير في عبادة لا فقه فيها، وأن يقرأ كما يقرأ العبد كتاباً خصَّه به مولاه، يأمره فيه وينهاه.

وهذا ما أكَّد عليه ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمعْ قلبك عند تلاوته وسماعه، وألْقِ سمعك، واحضر حضور مَنْ يخاطبه مَنْ تكلَّم به سبحانه منه إليه، فإنَّه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ»[2].

ثانياً: التَّأدب مع المصحف:

فمن الآداب المُتأكِّدة في حَقِّ المُصحَفِ ما يلي:

١ ـ تحاشي التَّصغير في اسمه ورسمه وحجمه، وَيُطالب مَنْ يكتبه بتحسين خَطِّه وتجميله، وأن يكتبه على ورق يليق بمقامه.

قال الحكيم التِّرمذي[3] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَمِنْ حُرمته: أن تُجلِّل تخطيطه إذا خططته. وعن أبي حُكيمة: أنَّه كان يكتب المصاحف بالكوفة، فمرَّ عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فنظر إلى كتابه فقال له: أجْلِلْ قَلَمَكَ، فأخذتُ القلمَ فقططتُ[4] من طرفه قطّاً، ثمَّ كَتَبْتُ، وعليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قائم ينظر إلى كتابتي؛ فقال: هكذا، نَوِّرْهُ كما نَوَّرَهُ الله تعالى»[5].

---

(١) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم، د. بدر البدر (ص١٧ ـ ٢٢).

(٢) الفوائد (ص٣).

(٣) هو أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسن الحكيم التِّرمذي، الحافظ، الزَّاهد، كان ذا رحلةٍ ومعرفة، له فضائل وحِكَمٌ ومواعظ، تعرَّض لمحنة فأُخرج من ترمذ. من مصنَّفاته: «علل العبوديَّة»، و«ختم الأولياء»، و«الصَّلاة ومقاصدها». توفِّي سنة (٣٢٠هـ)، عاش نحواً من (٨٠ سنة).
انظر: طبقات الشَّافعية (٢/ ٢٠)؛ سير أعلام النُّبلاء (١٣/ ٤٣٩).

(٤) قَطُّ الشيء: قَطعَهُ عَرْضاً، وبابُهُ ردَّ. ومنه قطّ القلَم.
انظر: مختار الصحاح (ص٢٥٦)، مادة: (قطط).

(٥) نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ (٣/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦). وانظر: تفسير القرطبي (١/ ٤٤).

وقال القرطبي كَلَلهُ ـ معلِّلاً وجوب العناية بكتابة المصحف:

«وذلك أشبه بالإجلال والتَّعظيم، ألا ترى إلى النَّاس إذا أرادوا مكاتبة ملكٍ أو سُلطانٍ تحرّوا لها من القراطيس أكبرها وأمتنها وأنقاها، ومن الخطوط أحسنها وأفخمها، ومن المداد أبرقه وأشدَّه سواداً، وفرّجوا السُّطور، ولم يقرمطوها، لئلا يكون قد ضنُّوا بشيء مما كانت الحاجة إليه في مكاتبته، فيكونوا قد ضيّعوا قدره، فكتاب الله أولى بمثل ذلك التَّبجيل، وأيضاً فإنَّ الكتاب كلّما كان أكبر كان من الضّياع أبعد»[1].

٢ ـ الحذر من إضافة شيء إليه، أو زخرفته، أو تحليته، أو كتابته بأحد النَّقدين، أو كتابته بالأعجمية، أو اتّخاذه مُتْجَراً.

فلم يكن من هدي سلفنا الصّالح ـ رحمهم الله تعالى ـ تزيينُ المصاحف وتحليتها بالذهب والفضّة، إذ هو مباهاة وتفاخر، وتبذير وإسراف، وبذل للأموال فيما لا فائدة فيه، كما أنّ في ذلك كسراً لقلوب الفقراء والمساكين وحرماناً لهم مما فيه منفعتهم وسدُّ عَوزهم وحاجتهم، وليس هذا هو الواجب تجاه كلام الله تعالى، بل الواجب تلاوته، وتدبُّره، والتأثُّر به، والعمل بما فيه، والوقوف عند حدوده، والتَّحاكم إليه[2].

والمروي عن السَّلف في كراهية ذلك كثير:

* فعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زَخْرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدَّبَارُ[3] عَلَيْكُمْ»[4].

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار (ص١١٧).

(٢) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم (ص٢٩).

(٣) «يُقَالُ: دَبَر القومُ يَدْبُرُونَ دِباراً: هلكوا. وَأَدْبَرُوا: إذا وَلَّى أَمْرُهُمْ إلى آخِرِه فَلَمْ يبقَ منهم باقية». «لسان العرب» (٤/ ٢٧٣)، مادة: (دبر).

(٤) رواه الترمذي في: «نوادر الأصول» (٣/ ٢٥٦) عن أبي الدّرداء، ووقَفَه ابن المبارك في: «الزُّهد» (١/ ٢٧٥)، رقم (٧٩٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنّفه» (٣/ ١٥٤) (رقم ٥١٣٢).
انظر: فيض القدير (١/ ٣٦٦) (ح٦٥٨)؛ كشف الخفا ومزيل الإلباس، للعجلوني (١/ ٩٥) (ح٢٤٢).
وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ١٦٢) (ح٥٨٥) بلفظ: «إذا زخرفتم مساجدكم،

* وعن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «مُرّ على عبدِ الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ بمصحف قد زُيّنَ بالذّهب فقال: إنَّ أحسن ما زُيّنَ به المُصْحَفُ تِلاوتُه بالحق»[١].

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنّه كان إذا رأى المُصْحَف قد فُضِضَ أو ذُهِّبَ قال: أتُغْرُونَ به السَّارق، وزينتُه في جوفه»[٢].

قال الحكيم التّرمذي رحمه الله: «ومن حُرمته: ألّا يُحلّى بالذّهب، ولا يُكتب بالذَّهب، فتخلط به زينة الدُّنيا»[٣].

٣ ـ الحذر من استدباره، أو توسُّده، أو رميه عند وضعه أو مناولته، أو مَدِّ الرِّجْلين إليه، أو التَّروح به، أو استعمال الشِّمال في تناوله وأخذه، أو تصغير اسمه. وألّا يقال: سورة صغيرة.

قال الحكيم التّرمذي رحمه الله: «وَمِنْ حُرمته: ألّا يتوسَّد المصحف، ولا يعتمد عليه، ولا يرمي به إلى صاحبه إذا أراد أن يُناوله. ومن حُرمته: ألّا يُصغّر المصحف»[٤].

ومن ذلك أنهم كرهوا تصغير كلمة (مصحف) لما قد يدلُّ عليه التَّصغير من الاحتقار والامتهان والضَّعَة.

فعن سعيد بن المسيب[٥] رحمه الله قال: «لا تقولوا مصيحف ولا مسيجد، ما

= وحَليتُم مصاحفَكم، فالدَّمارُ عليكم». و«السلسلة الصّحيحة» (٣/ ٣٣٦) (ح١٣٥١) بلفظ: «إذا زوَّقتم مساجدكم، وحليتم مصاحفكم، فالدَّمارُ عليكم».

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٦/ ١٤٩) (رقم ٣٠٢٣٥)؛ والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٧٠) (رقم ٨٨٤٦)؛ وعبد الرزاق في «مصنَّفه» (٤/ ٣٢٣) (رقم ٧٩٤٧). وانظر: المصاحف، لابن أبي داود (ص١٦٨)؛ التذكار في أفضل الأذكار (ص١٢٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٤٩) (رقم ٣٠٢٣٣).
وانظر: المصاحف (ص١٦٨)؛ التذكار (ص١٢٠).

(٣)(٤) نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ (٣/ ٢٥٦). وانظر: تفسير القرطبي (١/ ٤٥).

(٥) هو الإمام سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب القرشي المخزومي، من أئمة التابعين وعلمائهم الأثبات، ومن الفقهاء الكبار، قال ابن حجر: «من كبار الثانية، اتّفقوا على أنّ مُرسلاته أصحُّ المراسيل»، وقال ابن المديني: «لا أعلم في التّابعين أوسعَ علماً منه». مات بعد التّسعين هجرية، وقد ناهز الثّمانين.

كان لله فهو عظيم حسن»[١].

وعن إبراهيم النّخعي[٢] رحمه الله قال: «كانوا يكرهون أن يصغّروا المصحف، وكان يقال عظّموا كتاب الله»[٣].

وقال رجل لأبي العالية[٤] رحمه الله: «سورة صغيرة، فقال: أنت أصغر منها، وأمّا القرآن فكلّه عظيم»[٥].

وفي روايةٍ قال: «أنت أصغر وألأم، القرآن كلّه عظيم»[٦].

٤ ـ الحذر من وضع شيء فوقه، أو بين أوراقه، أو حمله حال دخول الأماكن الممتهنة، أو السَّفر به إلى أرض العدو، أو تعريضه لأيِّ نوع من أنواع الأقذار، كأن يَبُلَّ إصبَعَه بالرِّيق عند تقليب ورقه. أو تعريضه لمظانِّ امتهانِه أو النَّيلِ مِنْ قُدسيَّته، كأن يُمَكِّنَ منه الصِّغار أو المجانين أو الكفَّار.

قال الحكيم التِّرمذي رحمه الله: «وَمِنْ حُرمته: إذا وضع المصحف ألّا يتركه منشوراً، وألّا يضع فوقه شيئاً من الكتب حتّى يكون أبداً عالياً على سائر الكتب. وأن يضعه في حجره إذا قرأه، أو على شيءٍ بين يديه، ولا يضعه على الأرض. وألّا يمحوه من اللّوح بالبزاق، ولكن يغسله بالماء. وإذا غسله بالماء أن يتوقّى

= انظر: تقريب التهذيب (١/٣٠٥ ـ ٣٠٦) (ت٢٦٠).

(١) رواه ابن سعد في: «الطبقات» (٥/١٣٧)؛ والذهبي في: «السير» (٤/٣٣٨)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/١٤٨) (رقم ٣٠٢٢٨).

(٢) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النّخعي، أبو عمران، الكوفي الفقيه، ثقة إلّا أنه يرسل كثيراً، توفي رحمه الله سنة (٩٦هـ)، وعمره (٥٠) سنة.
انظر: تقريب التّهذيب (١/٤٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/١٤٨) (رقم ٣٠٢٢٥).
وانظر: المصاحف (ص١٥١).

(٤) هو رفيع بن مهران الرِّياحي، من بني تميم، بصري، وثّقه يحيى بن معين، وأبو زرعة، وقال في «تقريب التّهذيب»: «ثقة كثير الإرسال»، توفي رحمه الله سنة (٩٠هـ).
انظر: تقريب التّهذيب (١/٢٥٢).

(٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٥٩).
وانظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص١٢١).

(٦) المصاحف (ص١٧١)؛ غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري (١/٢٨٥).

النّجاسات من المواضع، والمواضع التي تُوطأ؛ فإنّ لتلك الغسالة حرمة، وأنّ من كان قبلنا منَ السلف منهم منْ يسْتشْفي بغسالته. وألّا يتّخذ الصّحيفة إذا بليت ودرست وقايةً للكتب؛ فإنّ ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالماء»[١].

٥ ـ الحذر من كتابته على الأرض، أو حوائط المساجد وغيرها، أو الكتابة في حواشيه، أو جلده، كما يفعله كثير من طلّاب المدارس.

قال الحكيم التّرمذي ﷺ: «وَمِنْ حُرمته: ألّا يُكتب على الأرض، ولا على حائط، كما يُفعل به في المساجد المُحدثة... ورأى عمر بن عبد العزيز ابناً له يكتب القرآنَ على حائطٍ فضربه»[٢].

وقد عمد بعض الحاقدين من أعداء القرآن في الآونة الأخيرة، أن يطبعوا بعض الآيات القرآنية على الملابس الدّاخلية، أو الأحذية، أو الأوراق التي تُغلّف فيها المشتريات كيداً بالمسلمين، ومحاولةً منهم لانتقاص قدر هذا الكتاب الكريم، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠][٣].

٦ ـ الحذر من استعماله في غير ما جُعل له، كالتّثقيل به، أو تعليقه كحِرز، أو زينة، أو اقتنائه لمجرّد التّبرُّك به، إلى غير ذلك مِنْ أنواع الاستعمالات التي لم يأذن الشّرع بمثلها[٤].

---

(١) نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ (٣/ ٢٥٤). وانظر: تفسير القرطبي (١/ ٤٣).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٥٧). وانظر: تفسير القرطبي (١/ ٤٥).
(٣) انظر: كيف نحيا بالقرآن، نبيه زكريا عبد ربه (ص٩٤ ـ ٩٥).
(٤) انظر: المُتحفُ في أحكام المُصْحف (ص٢٢ ـ ٢٣).

المبحث الثالث

أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن

يتبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ من أخلاق المؤمنين تعظيمَ القرآن المجيد وتوقيرَه بعد الإيمان به واتِّباعه، وعلى النَّقيض من ذلك نجد الذين كفروا، حيث الاستخفاف والسُّخرية والتَّهكُّم بالقرآن المُنزل، والرَّسول المُرسل.

فهؤلاء الكفَّار اتَّخذوا أساليبَ شتَّى في استهزائهم بالقرآن العظيم:

فمرَّة يضحكون استهزاءً حال سماعهم للقرآن.

ومرَّة يتعجَّبون من عدم نزول الوحي على أغنيائهم وكبرائهم.

ومرَّة يدَّعون أنَّ القرآن إفكٌ مفترى، وأساطير الأوَّلين.

ومرَّة يتغامزون فيما بينهم استهزاءً بالقرآن المجيد واستخفافاً به.

وأعظم ذلك كلِّه تندُّرهم بالله وآياته ورسوله.

وقد ذُكِرَتْ هذه الأساليب الكفرية الاستهزائيَّة وَسُطِّرَتْ في الكتاب العزيز؛ لتقوم الحُجَّة على الذين كفروا، وفيما يلي يتمُّ تسليط الضَّوء على هذه الأساليب الاستهزائيَّة بالتَّفصيل.

الأسلوب الأوَّل: الاستهزاء والضَّحك حال سماع القرآن:

* يُخبر الله تبارك وتعالى رسولَه ﷺ بالذي يتناجى به رؤساء قريش حين جاؤوا يستمعون قراءة الرَّسول ﷺ سراً فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧].

فالآيةُ الكريمة تبيِّن الكيفيَّةَ التي يتلقَّى بها الكفَّار القرآن الكريم؛ حيث إنَّهم يتلقَّونه ويستمعون إليه استماع استهزاء، وتلقِّي استهزاء؛ لا سماع إيمان، ولا تلقِّي إيمان.

فالله تعالى أخبر نبيَّه ﷺ بالحالة التي يتلبَّس بها الكفَّار حين سماعهم القرآن العظيم: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي: نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به؛ إنَّهم يستمعون متلبِّسين بالاستهزاء. ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم؛ إنَّهم يتناجون بالاستهزاء بك[١].

وفي هذا وعيد لهم بقدر ما كان عزاءً للنبيِّ ﷺ.

وقولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ بيان للاستهزاء[٢].

قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾: «من الهُزْءِ بك وبالقرآن»[٣]. ومثله قال الآلوسي[٤].

وقال ابن جُزي في قوله تعالى ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾: «كانوا يستمعون القرآن على وجه الاستهزاء»[٥].

والخلاصة: أنَّهم كانوا يستمعون إلى القرآن وهم متلبِّسون بالاستهزاء والاستخفاف والسُّخرية والتَّهكُّم. فهذا الذي منعهم من الانتفاع بالقرآن عند سماعه؛ لأنَّ مقاصدهم سيِّئة، ولم يكن استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحقِّ، ومَنْ كان بهذه الحالة لم يُفده الاستماع شيئاً[٦].

الضَّحك من القرآن:

قال تعالى ـ موبِّخاً الكفار ومنكراً عليهم: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦١].

تُبيِّن هذه الآية الكريمة ـ أيضاً ـ حال الكفَّار حين سماعهم للقرآن الكريم، أنَّهم يتعجَّبون استنكاراً له، ويضحكون استهزاءً وسخرية به.

فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ للتَّوبيخ[٧].

و«الإشارة إلى القرآن، وتعجُّبهم منه: إنكاره»[٨].

---

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٣/ ٣٣٢).
(٢) انظر: روح المعاني (٥/ ١٧٧).
(٣) الكشاف (٢/ ٦٢٧).
(٤) انظر: المصدر السابق (٥/ ١٧٦).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣١٤).
(٦) انظر: تفسير السعدي (٣/ ١١٢).
(٧) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٢٢).
(٨) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٤٣).

قال أبو السُّعود رحمه الله في قوله ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾: «استهزاءً، مع كونه أبعد شيء من ذلك»[١]. وكذا قال الزمخشري[٢]، والقرطبي[٣]، والشوكاني[٤]، والسمرقندي[٥]، وابن عاشور[٦].

وكان حقّاً عليكم أن تبكوا عند سماعكم للقرآن، فتَرَكْتُم ذلك وأتيتم بضدّه[٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ «أي: لاهُون، أو مستكبرون، من سمدَ البعيرُ إذا رفع رأسه، أو مغنُّون؛ لتشغلوا النّاس عن استماعه، من السُّمود بمعنى الغناء على لغة حمْير»[٨].

والشّاهد: أنّ الله تعالى أنكر عليهم استهزاءهم بالقرآن وتعجُّبهم وضحِكهم منه، مع أنّه خيرُ الكلام وأفضلُه، وأشرفُه.

فهذا يدلُّ على جهلِهم وضلالهم وعنادِهم، وقلّةِ عقولهم، وإلّا فهو أحسن الحديث، إذا حدّث صدقَ، وإذا قال قولاً، فهو القول الفَصْل، ليس بالهزْل، هو القرآن العظيم، الذي لو أُنزل على جبل، لرأيته خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله.

بل ينبغي أن تتأثّر منه النُّفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيه، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الصّادقة الحسنة[٩].

الأسلوب الثّاني: التّعجُّب من عدم نزول الوحي عليهم:

* ذكَر الله جلّ وعلا أنّ كفّار مكّة أنكروا أنّ الله تعالى خصَّ نبيّه محمداً ﷺ بإنزال القرآن عليه، ولم ينزله على أحد آخر منهم، فحكى الله تعالى ما قالوه استهزاءً وحسداً: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

والاستفهام للإنكار، والتّقدير: كيف يكون ذلك ونحن الرُّؤساء والأشراف[١٠]. ومنشأ هذا الإنكار هو التّكذيب والاستهزاء بالقرآن، وبمنْ أنزل عليه.

---

(١) تفسير أبي السعود (٨/ ١٦٦).

(٢) انظر: الكشاف (٤/ ٤٣٠).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٢٢).

(٤) انظر: تفسير الشوكاني (٥/ ١٤٢).

(٥) انظر: تفسير السمرقندي (٣/ ٣٤٨).

(٦) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ١٥٧).

(٧) انظر: التفسير الكبير (٢٩/ ٢٥).

(٨) تفسير أبي السعود (٨/ ١٦٦).

(٩) انظر: تفسير السعدي (٥/ ١٣٣).

(١٠) انظر: تفسير الشوكاني (٤/ ٤٢١).

* وقد حكى الله تعالى مقولتهم هذه في موضع آخر من كتابه العزيز، والتي تدلُّ على تكذيبهم بالقرآن الكريم واستهزائهم به: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣١ ـ ٣٢].

ويعنون بالقريتين: مكّة والطّائف. وبالرَّجلين من القريتين: الوليد بن المغيرة في مكّة، وعروة بن مسعود الثّقفي في الطّائف، زاعمين أنهما أحقُّ بالنُّبوّة؛ لكثرة أموالهما[1].

والهمزة في قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ للإنكار عليهم، وتجهُّلِهم، والتّعجُّب من اعتراضهم، وسخريتهم، وأن يكونوا هم المدبِّرين لأمر النُّبوة[2].

وفي الآية الكريمة دليل على أنّ أهواءهم لا تصلح لأن تكون مُتّبعةً؛ لأنّ القرآن لو أُنزل على أحد الرّجلين المذكورين ـ وهو كافر يعبد الأوثان ـ فلا فساد أعظم من ذلك[3].

فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدُّنيوية بيد الله تعالى، وهو الذي يقسمها بين عباده، بحسب حكمته، فرحمتُه الدِّينية، التي أعلاها النُّبوة والرِّسالة أولى وأحرى.

مع العلم أنّ النّبي ﷺ أعظمُ الرِّجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزرهم علماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأهداهم وأتقاهم، وأحسنهم رأياً وعزماً وحزماً، لكنّه الاستهزاء بالقرآن العظيم، والتّكذيب به، والحسد للنّبي ﷺ هو الذي قادهم إلى هذا الاقتراح السّاقط[4].

الأسلوب الثّالث: ادِّعاؤهم بأنَّ القرآن إفك مفترى، وأساطير الأوّلين:

* عندما يشتدُّ الحقد، ويعجز الظالم عن الرّد المقنع، يتّهم بالاختلاق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

---

(١) انظر: أضواء البيان (٦/ ٣٣٧).
(٢) انظر: الكشاف (٤/ ٢٥٢).
(٣) انظر: المصدر السابق (٥/ ٣٤٢).
(٤) انظر: تفسير السعدي (٤/ ٤٤٥).

ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة استهزاءَ الكفّار بالقرآن وبالرّسول محمدٍ ﷺ، الذي أوجب لهم كفرهم وتكذيبهم.

والإفك: الكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النور: ١١].

والافتراء: اختلاق الأخبار، أي: ابتكارها، وهو الكذب عن عمد.

وقولهم: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أرادوا بالقوم الآخرين اليهود.

ومقصودهم من هذا الاستهزاء الكفري: أنَّ القرآن المُختلَق والمُبتكَر، لا يخلو من مجموع الأمرين، وهما:

أن يكون افترى بعضه من نفسه، وأعانه قوم على بعضه[1].

ولَيْتهم اكتفوا بذلك، بل أضافوا إليه استهزاءً آخرَ لا يقلُّ كفراً عن سابقه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

والأساطير: جمع أُسطورة، وهي القصّة المسطورة، ومقصودهم: أنّ القرآن قَصَصُ الأوّلين وأساطيرهم.

والاكتتاب: افتعالٌ من الكتابة. فيفيد قولهم: ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ أنّه تكلّف أن يكتبها. والمعنى: أنّه سأل مَنْ يكتبها له، أي: ينقلها، فكان إسناد الاكتتاب إليه إسناداً مجازياً؛ لأنّه سببه.

والقرينة: ما هو مقرَّر لدى الجميع، مِنْ أنّه ﷺ أميٌّ لا يكتب، ومِنْ قولهم: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ لأنّه لو كتبها لنفسه لكان يقرأها بنفسه. فالمعنى: استنسخها.

وقولهم: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: تُملى عليه طرفي النّهار، كنايةً عن كثرة الممارسة لتلقّي الأساطير؟! فأيُّ استهزاءٍ أعظمُ وأشدُّ من ذلك؟[2].

وهذا القول الاستهزائي الكفري فيه عِدَّةُ عظائم:

•منها: رميهم الرّسُولَ، الذي هو أبرُّ النّاس وأصدقُهم، بالكذب، والجرأةِ العظيمة.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٩/١٣ ـ ١٤). (٢) انظر: المصدر نفسه (١٩/١٥).

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن، الذي هو أصدقُ الكلام وأعظمُه وأجلُّه، بأنَّه كذب وافتراء.

ومنها: أنَّ في ضمن ذلك، أنَّهم قادرون على أن يأتوا بمثله، وأن يُضاهي المخلوقُ الناقصُ من كلِّ وجهٍ، للخالق الكامل من كلِّ وجه بصفةٍ من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أنَّ الرّسول، قد عُلِمت حاله، وهم أشدُّ النَّاس علماً به، أنه لا يكتب، ولا يجتمع بمن يكتب له، وهم قد زعموا ذلك»[١].

الأسلوب الرَّابع: استخدام أعضاء الجسم بقصد الاستهزاء:

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

هذه الأعضاء التي خلقها الله تعالى للإنسان؛ خلقها ليعبده بها، وكذلك ليشكر الإنسان ربّه على نعمائه، ولكن عندما يكفر الإنسان يستخدم هذه الأعضاءَ في معصيةِ الله تعالى، والاستهزاءِ بدينه.

فالآية الكريمة تعرض لنا مَشهداً عملياً للمنافقين عندما تنزل سورة على النبيِّ ﷺ حيث ينظر هؤلاء المنافقون إلى بعضهم؛ يتغامزون استهزاءً بالقرآن الكريم واستخفافاً به.

وهذا ما بيّنه الرازي رحمه الله بقوله: «هذا نوعٌ آخرُ من مخازي المنافقين، وهو أنَّه كلما نزلت سورة مشتملة على ذكر المنافقين وشرح فضائحهم، وسمعوها تأذَّوا من سماعها، ونظر بعضهم إلى بعض نظراً مخصوصاً دالاً على الطَّعن في تلك السُّورة والاستهزاءِ بها وتحقيرِ شأنِها، ويحتمل ألَّا يكون ذلك مختصّاً بالسُّورة المشتملة على فضائح المنافقين، بل كانوا يستخفُّون بالقرآن، فكلّما سمعوا سورةً استهزؤوا بها وطعنوا فيها، وأخذوا في التَّغامز والتَّضاحك على سبيل الطّعن والهُزْء»[٢].

كأنهم عند سماع تلك السُّورة يتأذون ويتضايقون ويريدون أن يخرجوا من

---

(١) تفسير السعدي (٣/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨). (٢) التفسير الكبير (١٦/ ١٨٥).

المسجد، زاعمين أنهم لا يصبرون على استماع القرآن، ويغلب عليهم الضحك استهزاءً بالقرآن. فيخافون أن يُفْتَضح أمرهم بين المؤمنين، ولذلك يتناجون فيما بينهم: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: هل يرى استهزاءكم وتغامزكم أحد فينقل ذلك إلى محمد؟[١].

والشاهد هنا: قوله تعالى: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فكأنهم تكلَّموا بأعينهم ونظراتهم، كلامَ استهزاءٍ وسخرية.

قال الزَّمخشري في قوله تعالى ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: «تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي وسخريةً به»[٢].

الأسلوب الخامس: التَّنذُّر بالله وآياته:

* قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

ورد في سبب نزولها روايات في غزوة تبوك ـ كما تقدّم ذِكْرُه ـ منها: قول بعض المنافقين الذين كانوا معه ﷺ: «ما رأينا مِثْل قُرَّائنا هؤلاء، أرْغَبَ بُطوناً، ولا أكْذبَ ألْسُناً، ولا أجْبَنَ عند اللِّقاءِ»[٣].

يخبر الله تعالى رسولَه ﷺ أنه لو سأل المنافقين عن استهزائهم به وبالقرآن ـ وهم سائرون معه إلى تبوك ـ لقالوا معتذرين: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: نلهو بالحديث؛ لنقطع به الطريق ولم نقصد الاستهزاء[٤].

فوبَّخهم الله تعالى على استهزائهم ـ بمنْ لا يصلح الاستهزاء به ـ بقوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ «والاستفهام للتَّقريع والتَّوبيخ»[٥]. فلم

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٨٨). (٢) الكشاف (٢/٣١٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/٣٣٣ ـ ٣٣٥) (رقم: ١٦٩١١، ١٦٩١٢، ١٦٩١٦)؛ وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، كما في «الدُّر المنثور».
وقال محمود شاكر ـ في «تعليقه على الطبري»: «صحيح الإسناد».

(٤) انظر: زاد المسير (٣/٤٦٥)؛ تفسير الجلالين (١/٢٥١).

(٥) تفسير الشوكاني (٢/٣٧٧)؛ وانظر: التحرير والتنوير (١٠/١٤١).

يعبأ باعتذارهم، ولم يقبل هذا الاعتذار؛ لأنهم كانوا كاذبين فيه، فأنزلهم منزلة المعترف بهذا الاستهزاء، حتى وُبِّخوا بهذه الجريمة النكراء[١]. ولذلك لم يقبل منهم هذا العذر المكذوب.

عاقبة الاستهزاء بالقرآن:

قال الله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

قال البغوي رحمه الله: «فإن قيل: كيف قال: كفرتم بعد إيمانكم، وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيل: معناه: أظهرتم الكفر بعدما أظهرتم الإيمان»[٢].

قال ابن العربي[٣] رحمه الله: «لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدّاً أو هزلاً، وهو كيفما كان كفر؛ فإنّ الهزل بالكفر كفر، لا خلاف فيه بين الأمّة. فإنّ التّحقيق أخو الحقّ والعلم، والهزل أخو الباطل والجهل»[٤].

وهو ما أكّده ابن الجوزي رحمه الله بقوله: «وهذا يدلُّ على أنّ الجدّ واللّعب في إظهار كلمة الكفر سواء»[٥].

ففي هذه الآيات الكريمات دليل على أنّ منْ أسرّ سريرةً ـ ولا سيّما السّريرة التي يمكر فيها بدين الله تعالى، ويستهزئ به وبآياته ورسوله ـ فإنّ الله تعالى يُظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشدّ العقوبة.

وأنّ مَنْ استهزأ بكتاب الله أو بسُنّة رسوله الثّابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقّصه، فإنه كافر بالله العظيم، وأنّ التّوبة مقبولة من كلّ ذنب، وإن كان عظيماً[٦].

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٢/ ٩٧). (٢) تفسير البغوي (٢/ ٣٠١).

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد، أبو بكر، المعروف بابن العربي الإشبيلي، المالكي، الإمام، العلامة، الحافظ، كان فقيهاً عالماً زاهداً عابداً، له تصانيف.
منها: «أحكام القرآن»، و«عارضة الأحوذي في شرح جامع الترمذي»، و«المحصول في الأصول». توفي سنة (٥٤٣هـ).
انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٩٦)؛ سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٩٧).

(٤) أحكام القرآن (٢/ ٥٤٣)؛ تفسير القرطبي (٨/ ١٨٢).

(٥) زاد المسير (٣/ ٤٦٥). (٦) انظر: تفسير السعدي (٢/ ٢٦٢).

المبحث الرابع

حكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الفرق بين القرآن والمصحف.

المطلب الثاني: حكم الاستهزاء بالقرآن.

المطلب الثالث: حكم الاستهانة بالمصحف.

المطلب الأول
الفرق بين القرآن والمصحف

أولاً: معنى القرآن:

«القرآن» لغة:

اتّفق أهلُ اللُّغة ـ رحمهم الله ـ على أنَّ لفظ «قرآن» اسمٌ وليس بفعلٍ ولا حرف، لكنّهم اختلفوا فيه من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزاً أو غير مهموز، ومن جهة كونه مصدراً أو وَصْفاً، على أقوالٍ عدّة، تُجْمَلُ فيما يلي[1]:

١ ـ أنّه «اسمٌ عَلَمٌ غير منقول» أي: جامد.

٢ ـ أنه «مهموز»[2] مُشتقٌ من: «قَرَأ» بمعنى: «تلا».

٣ ـ أنه «مهموز» مشتق من: «القَرْء» بمعنى: «الجمْع».

٤ ـ أنه «غير مهموز» مشتق من: «قَرَنْتُ الشيءَ بالشَّيء».

٥ ـ أنه «غير مهموز» مشتق من: «القَرائِن».

ويظهر ـ والله أعلم ـ أنَّ أرجح هذه الأقوال هو القولُ الثّاني؛ لِقُرْبِ اشتقاقه من كلمة القرآن لفظاً ومعنى[3].

فالقرآن مصدر «قَرَأ» بمعنى: «تلا» كالرُّجحان والغفران، ثم نُقِلَ من المصدر وجُعِلَ اسماً للكلام المُنَزّل على نبيِّنا محمدٍ ﷺ.

ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/٣٩٦)، المصباح المنير (ص٢٥٩)، لسان العرب (١/١٢٨ ـ ١٣١)، القاموس المحيط (ص٦٢)، مختار الصحاح (ص٢٤٩)، المفردات في غريب القرآن (ص٤٠٠)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٣٠ ـ ٣١).

(٢) معنى «مهموز»: أن الهمزة في لفظ «القرآن» أصلية، من: «قرأ».

(٣) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، أ.د. محمد أبو شهبة (ص١٩ ـ ٢٣).

أي: قراءته.

وقول حسّان بن ثابت يرثي عثمانَ ﷺ:

ضَحُّوا بأشْمَطَ عُنوانُ السُّجودِ به يُقَطِّعُ اللَّيلَ تَسْبِيحاً وقُرآناً

أي قراءة[١].

«القرآن» اصطلاحاً:

ذَكَرَ العلماءُ - رحمهم الله - للقرآن الكريم تعريفاً اصطلاحياً يُقرِّب معناه ويميِّزه عن غيره، فعرَّفوه بأنه: «**كَلامُ اللهِ، المُنَزَّلُ على نبيِّه محمدٍ ﷺ، المُعْجِزُ بِلَفْظِهِ، المُتَعَبَّدُ بِتِلاوَتِهِ، المَكْتُوبُ في المَصَاحِفِ، المَنْقُولُ بالتَّواتُرِ**».

وغاية العلماء من ذِكْرِ هذه القيود بشكل عام، هي تحديدُ المُعَرَّفِ، بحيث يكون التَّعريفُ دالاً عليه دلالةً واضحة، مانِعاً من دُخولِ غيرِه فيه[٢].

ثانياً: معنى المصحف:

«المصحف» لغة:

الأصل المشهور في ضبط كلمة: «مُصحف» بضم الميم، ويجوز «مِصْحَفٌ» بكسرها، وهي لغة تميم.

والمصحف لغة: اسمٌ لكلِّ مجموعة من الصُّحُف المكتوبة ضُمّت بين دفّتين، وجاء في (اللّسان) عن الأزهري[٣] رحمه الله: «وإنّما سُمّي المصحفُ

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (ص١٣٧).

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي (١/ ٤٤١)؛ المستصفى (١/ ٦٤)؛ مباحث في علوم القرآن (ص٢٠)؛ فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن، د. أحمد سالم ملحم (٢١ ـ ٢٩).

(٣) هو محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح الأزهري الهروي، الشافعي (أبو منصور)، ولد في هراة بخراسان سنة (٢٨٢هـ)، عني بالفقه أولاً، ثم غلب عليه علم العربية، فرحل في طلبه وقصد القبائل وتوسّع في أخبارهم، فاشتهر بالعربية، وكان متّفقاً على فضله وثقته ودرايته وورعه. ومن أشهر مصنّفاته: «تهذيب اللّغة»، و«تفسير القرآن»، و«علل القراءات». توفي سنة (٣٧٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٢٦)؛ طبقات الشافعية (١٠/ ٢)؛ وفيات الأعيان (١/ ٦٣٥).

مصحفاً؛ لأنه أُصْحِفَ، أي جُعل جامعاً للصُّحُفِ المكتوبة بين الدَّفتَين»[١].

ومقتضى كلام الفيروزآبادي[٢] رَحِمَهُ اللهُ: أنَّ المُصحف (بالضم): اسم مفعول من أصْحَفَه إذا جمعه. والمَصحف (بالفتح): موضع الصُّحُف، أي: مجمع الصَّحائف. والمِصحف (بالكسر): آلة تَجْمع الصُّحف[٣].

«المصحف» اصطلاحاً:

المصحف في اصطلاح العلماء ـ رحمهم الله: «هو اسمٌ للمكتوب فيه كلام الله تعالى بين الدَّفتَّين»[٤].

ويصدق المصحف على ما كان حاوياً للقرآن كلِّه، أو كان ممَّا يُسمَّى مصحفاً عُرفاً ولو قليلاً كحزب، على ما صرّح به القليوبي[٥] رَحِمَهُ اللهُ، أو أقلّ من ذلك كورقة فيها بعض سورة، أو لوحاً، أو كتفاً مكتوبة[٦].

«وقيل للقرآن مصحف؛ لأنه جُمِع من الصّحائف المتفرّقة في أيدي الصَّحابة، وقيل: لأنه جَمعَ وحَوَى ـ بطريق الإجمال ـ جميع ما كان في كتب الأنبياء، وصُحُفِهم، (لا) بطريق التَّفصيل»[٧].

---

(١) انظر: لسان العرب (٧/ ٢٩٠ ـ ٢٩١)، مادة: (صحف).

(٢) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزآبادي الشِّيرازي، الشافعي، لغويٌّ مشارك في عدَّة علوم، ولد بكازرون من أعمال شيراز سنة (٧٢٩هـ)، وله مصنفات كثيرة منها: «القاموس المحيط»، و«بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز»، و«البلغة في ترجمة أئمة النحاة واللغة»، و«المرقاة الوفية في طبقات الحنفية»، وغيرها. توفي بزبيد سنة (٨١٧هـ). انظر: شذرات الذَّهب (٧/ ١٢٦). .

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ٨٦).

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، لمجموعة من الباحثين (٣٨/ ٥).

(٥) هو أحمد بن أحمد بن سلامة القلْيُوبي ـ نسبةٌ لقرية قليوب بشرقيّة مصر ـ الشّافعي (شهاب الدِّين أبو العباس) عالمٌ مشارك في كثير من العلوم. توفّي في أواخر شوّال سنة (١٠٦٩هـ). من مؤلَّفاته: «البدور المنوَّرة في الأحاديث المشتهرة»، و«تعبير المنامات»، و«المصابيح السّنية في طب خير البريّة» وغيرها. انظر: معجم المؤلفين (١/ ٩٤).

(٦) انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١/ ١٢٥)؛ حاشية القليوبي على منهاج الطالبين (١/ ٣٥).

(٧) بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ٨٧).

الفرق بين القرآن والمصحف:

من خلال الاستعراض اللُّغوي للفظ: «قرآن»، ولفظ: «مصحف». وما تبعه من تعريف اصطلاحيٍّ لهما، نستطيع أن ندرك الفرق بينهما، فيقال في الفرق بينهما:

إنَّ «المصحف»: اسمٌ للمكتوبِ من القرآن الكريم، المجموع بين الدَّفَّتين، و«القرآن»: اسمٌ لكلامِ الله تعالى المكتوبِ في المصاحف[1].

المطلب الثاني

حكم الاستهزاء بالقرآن

المسلمون كلُّهم مجمعون على وجوب احترام كلام الله تعالى، وتعظيمه، وصيانته عن العيوب والنَّقائص.

فالقرآن كلام الله عزَّ وجلَّ، وهو صفة من صفاته، والله تعالى لم يزل متكلِّماً إذا شاء، كما دلَّ عليه الكتاب، والسُّنة، وقاله علماء الإسلام.

فالاستهزاء بكلام الله تعالى، أو كتابه، أو محاولة إسقاط حرمته ومهابته كفر صريح لا يُنازع فيه أحد، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

هذه الآية الكريمة نصٌّ في كفر من استهزأ بالله تعالى، وآياته، ورسوله، سواء استحلَّ ذلك أو لم يستحل، فمجرد الاستهزاء بالمذكورات ردَّة عن الدِّين بإجماع علماء المسلمين، ولو لم يقصد حقيقة الاستهزاء، كأن يكون مازحاً أو هازلاً.

وقد جاء عن أبي هريرة ﷺ أنه سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقول: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ، أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»[2].

---

(١) انظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للكاساني (٣/٨ ـ ٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب: التكلُّم بالكلمة يهوي بها في النار (٤/ ٢٢٩٠) (ح٢٩٨٨).

وعن بلالِ بن الحارثِ المُزَنِي صاحبِ رسُولِ الله ﷺ يقول: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن رِضْوَانِ اللهِ ما يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ، فَيَكْتُبَ اللهُ لَهُ بها رِضْوَانَهُ إلى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللهِ ما يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبَ اللهُ عَلَيْهِ بها سَخَطَهُ إلى يَوْمِ يَلْقَاهُ»[١] وإذا كان هذا الوعيد المذكور في مجرَّد كلمة، فكيف بمَنْ يستهزئ بكلمات الله تعالى؟!

الإجماع على كفر الاستهزاء بالقرآن:

وقد أجمعت الأمّة على كفر مَنْ استهزأ بالقرآن العظيم، أو بشيء منه، ولو كانت آية واحدة، وممَّن صرَّح بحكاية الإجماع: القاضي عياض، والإمام النووي، والقاضي ابن فرحون المالكي ـ رحمهم الله تعالى ـ وفيما يلي نقل أقوال العلماء في ذلك:

١ ـ القاضي عياض رحمه الله يحكي إجماع المسلمين على كفر من استهزأ بالقرآن العظيم، أو بشيء منه، فيقول: «اعلم أنَّ مَنْ استخفَّ بالقرآن أو بالمصحف، أو بشيء منه، أو سبَّهما... فهو كافِرٌ بإجماع المسلمين»[٢].

٢ ـ الإمام النَّووي رحمه الله يحكي الإجماعَ صراحةً بقوله: «وأجمعوا على أنَّ مَنْ استخفَّ بالقرآن، أو بشيء منه... كَفَر»[٣].

٣ ـ القاضي ابن فَرْحون المالكي[٤] رحمه الله يحكي إجماع أهل العلم على كفر

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب: ما جاء في قلّة الكلام (٣/ ٣٨٢) (ح٢٤٢١). وقال: «حديث حسن صحيح».
وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٢/ ٢٦٩) (ح١٨٨٨).

(٢) الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١١٠).

(٣) المجموع (٢/ ١٩٣). وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٨).

(٤) هو إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن فرحون اليعمري، المدني، المالكي (أبو الوفاء) ولد بالمدينة (٧١٩هـ)، وتفقَّه، وبرع، وصنَّف، وجمع، وولي قضاء المدينة. توفي سنة (٧٩٩هـ). من مصنَّفاته: «شرح مختصر ابن الحاجب»، و«الدِّيباج المذهَّب في أعيان المذهب». انظر: الدُّرر الكامنة (١/ ٤٨)؛ شذرات الذَّهب (٦/ ٣٥٧).

من استخفّ بالقرآن، قائلاً: «ومنْ استخفّ بالقرآن، أو بشيء منه، أو جحده، أو حرفاً منه، أو كذّب بشيء منه، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك، أو شكّ في شيء من ذلك، فهو كافر بإجماع أهل العلم»(١).

٤ ـ الإمام الشّافعي(٢) رحمه الله حيث قال:

«... مَنْ ذكر كتاب الله، أو محمداً رسول الله ﷺ، أو دين الله بما لا ينبغي... فقد نقض عهده، وأحلّ دمُه، وبرئت منه ذمّةُ الله عزّ وجلّ وذمّة رسول الله ﷺ»(٣).

وكذلك نُقِل عن الشّافعي أنه سئل عمّن هزل بشيء من آيات الله، أنه قال: هذا كافر، واستدلّ بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦](٤).

٥ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال:

«وليس لأحد استعمال القرآن لغير ما أنزل الله له... ثمّ إنْ أخرجه مخرج الاستخفاف بالقرآن، والاستهزاء به، كفر صاحبه»(٥).

٦ ـ نصوص علماء الحنفيّة رحمهم الله تعالى:

* جاء في الفتاوى البزّازيّة:

«ادخال القرآن في المزاح، والدُّعابة كفر؛ لأنّه استخفاف به»(٦).

* وفي يتيمة الفتاوى:

«مَنْ استخفّ بالقرآن، أو بالمسجد، أو بنحوه مما يُعظّم في الشّرع كفر».

---

(١) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام (٢/ ٢١٤).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي المطّلبي الشافعي، إمام المذهب الشافعي، اتُّفق على ثقته وإمامته وعدالته وحسن سيرته، له أشعار كثيرة، من مؤلفاته: كتاب «الأم»، و«الرسالة». ولد سنة (١٥٠هـ)، وتوفّي سنة (٢٠٤هـ).
انظر: وفيات الأعيان (٤/ ١٦٣).

(٣) مختصر اختلاف العلماء، للجصّاص (٣/ ٥٠٥).

(٤) انظر: الصارم المسلول، لابن تيمية (ص٥١٤).

(٥) مختصر الفتاوى المصرية ـ لابن تيمية، اختصار: محمد بن علي البعلي (ص٥٧٨).

(٦) الفتاوى البزازية، لابن البزاز (٣/ ٣٣٨).

* وفي جواهر الفقه:

«مَنْ قيل له: ألا تقرأ القرآن، أو ألا تُكثر قراءته؟ فقال: شبعتُ أو كرهتُ أو أنكر آية من كتاب الله، أو عاب شيئاً من القرآن... كفر».

* وفي الفتاوى الظَّهيرية:

«مَنْ قرأ آية من القرآن على وجه الهزل يكفر»(١).

أمَّا بعد: فهذا هو المنقول عن علماء المسلمين على كفر مَنْ استهزأ بالقرآن العظيم، أو بشيء منه، عامداً متعمِّداً.

عقوبة المستهزئين بكلام الله تعالى:

من المنكر العظيم في القرن العشرين اتِّخاذ آيات القرآن هزواً عن طريق الغناء والعزف عليها بالموسيقى، فالقرآن الكريم ـ الذي هو كلام الله تعالى ـ له قدره ومكانته في قلوب المسلمين، فالاستخفاف بحرمته، والاستهزاء بشيء منه جرم كبير، وذنب عظيم.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١٣ ـ ١٤]. فكلُّ مَنْ اتَّخذ شيئاً من آيات القرآن الكريم للهزل والغناء، والرَّقص والطَّرب، فقد اتَّخذها هزواً ولعباً.

وقد توعَّد الله المستهزئين بكلامه وآياته، بالعذاب المهين، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [الجاثية: ٩].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٤ ـ ٣٥].

فينبغي أن يُحاسب كلُّ مَنْ يستخفُّ بالآيات الكريمة ويتَّخذها للغناء والطَّرب واللَّعب، فإذا لم يُحاسب مَنْ يفعل ذلك، فقد ينفتح باب واسع للتَّلاعب بشعائر الإسلام، والطَّعن في الذَّات الإلهيَّة، وصفات الله تعالى، والطَّعن بأعظم شيء يفتخر به المسلمون.

---

(١) تهذيب رسالة البدر الرشيد في الألفاظ المكفرات، لمحمد بن إسماعيل الرشيد (ص٢٢ ـ ٢٣). وانظر: شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان، لملا علي قاري (ص٢٥٠ ـ ٢٥٤).

المطلب الثالث

حكم الاستهانة بالمصحف

مَرَّ بنا سابقاً في الفرق بين القرآن والمصحف، أنَّ المصحف: اسمٌ للمكتوب من القرآن الكريم، المجموع بين الدَّفَّتين. فينبغي أن يكون له من التَّقدير والاحترام والتَّعظيم والصِّيانة من العيوب والنَّقائص، لما يحتويه من كَلام الله تعالى.

والاستهانة ـ عياذاً بالله ـ بالمصحف، أو بشيء منه، لها صور متعدِّدة: كَاتِّخاذِ الفأل منه، أو الاتِّكاء والتَّوسُّد عليه، أو إتلافِه وتمزيقِه، أو الكتابةِ عليه، أو إدخالِه في أماكن التَّخلِّي، أو الوصيَّة بدفنه مع الميِّت في قبره، أو إلقائِه في القاذورات، أو بَلِّه بالرِّيق، أو بلعِ شيء منه، أو تخطِّيه، أو تركِه على الأرض، أو اتِّخاذِه وتعليقِه للبركة من غير قراءة فيه، أو تلويثِه، أو جَحْدِ شيء منه، أو وطئِه بالرِّجل أو مدِّها إليه، أو الجلوس عليه، أو وضعِ شيء فوقه، أو سبِّه، أو الاستخفافِ به، إلى غيرِ ذلك من الصُّور الكثيرة التي تكلَّم عنها أهل العلم، وأوردوها في مصنَّفاتهم، وحذَّروا من فعلها والاستهانة بها.

وسيكون الحديث عن بعض هذه الصُّور الفجَّة، مع ذكر شيء من حكمها، فيما قاله أهل العلم في ذلك.

صور من الاستهانة بالمصحف:

* **الصُّورة الأولى: الاتِّكاء والتَّوسُّد على المصحف.**

* **حُكم الاتِّكاء:** صرَّح غير واحد من أهل العلم بحرمة الاتِّكاء على المصحف؛ لكون ذلك امتهاناً وقلَّة احترام له، وهو الذي نصَّ عليه القرطبيُّ في تفسيره[1] وتذكاره[2]، وحكاه غير واحد من الحنابلة عن ابن عبد القوي رحمه الله[3].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٩).

(٢) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص١٨٥).

(٣) هو محمد بن عبد القوي بن بدران بن عبد الله المقدسي، المَرْداوي (أبو عبد الله) فقيه، محدِّث، نحوي، ناظم. ولد سنة (٦٣٠هـ) بمردا من قرى نابلس، وأفتى وصنَّف، وتوفي

قال ابن مُفْلح[1] ﷺ: «قال ابن عبد القوي في كتابه مجمع البحرين: إنَّه يحرم الاتِّكاء على المصحف، وعلى كتب الحديث، وما فيه شيء من القرآن، اتِّفاقاً»[2].

* حُكم توسُّد المصحف[3]: المستقرئ لنصوص العلماء في هذا الشأن يخلص إلى أنَّ القول بتحريم توسُّد المصحف على سبيل الامتهان محلُّ وفاق بينهم؛ بل صرَّح بعضهم باعتبار قصد الامتهان للقرآن كفر وردَّة مَنْ فَعَله.

أمَّا إذا انتفى عن التَّوسد قصد الامتهان والابتذال، فلأهل العلم في حكمه ثلاثة أقوال: التَّحريم، والكراهة، والإباحة[4].

والرَّاجح في التَّوسد: أنه محرَّم على الإطلاق؛ لأنَّ صورة الامتهان في التَّوسد حاصلة، ويستثنى من ذلك حال الضَّرورات؛ لكونها تُبيح المحظورات.

وقد صرَّح بالتَّحريم جمع من أهل العلم: كالنَّووي[5]، والزَّرْكَشِي[6][7]،

= بدمشق سنة (٦٩٩هـ). ومن مصنَّفاته: «القصيدة الدَّالية في الآداب الشَّرعية»، و«المنتقى في شرح العمدة لابن مالك في النَّحو»، و«كتاب طبقات الأصحاب».
انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٤٢).

(١) هو محمد بن مُفْلح بن محمد بن مفرج المقدسي، الدِّمشقي، الحنبلي (أبو عبد الله) فقيه، أصولي، محدِّث، ولد سنة (٧١٠هـ) ببيت المقدس، وأخذ عن المزِّي، والذَّهبي، والسُّبكي، وغيرهم. درَّس، وأفتى، وناظر، وحدَّث، وناب في الحكم عن القاضي جمال الدِّين المرْداوي، وتوفي بدمشق سنة (٧٦٣هـ). ومن مصنَّفاته: «الآداب الشَّرعية»، و«شرح المنتقى».
انظر: الدُّرر الكامنة (٤/ ٢٦١)؛ شذرات الذَّهب (٦/ ١٩٩).

(٢) الآداب الشرعية (٢/ ٢٩٧).

(٣) المقصود بتوسُّد المصحف هنا: جعله تحت الرَّأس عند النَّوم، أو تحت الوساد.
قال ابن الأثير ﷺ في «النِّهاية» (٥/ ١٨٢): «الوسادُ والوِسادة: المِخَدَّة. والجمع: وَسائدُ، وقد وسَدْتُه الشَّيء فَتَوَسَّده، إذا جعلْته تحت رأسِه».

(٤) انظر تفصيل هذه الأقوال في كتاب: المُتْحف في أحكام المصحف (ص٤٧٢ ـ ٤٧٣).

(٥) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٢٣٢).

(٦) هو محمد بن عبد الله بن بهادر المصري، الزَّرْكشي، الشَّافعي (أبو عبد الله) فقيه، أصولي، محدِّث، أديب، تركي الأصل، مصري المولد سنة (٧٤٥هـ)، رحل إلى الشَّام وسمع من علمائها، انقطع للعلم واشتغل بالتَّدريس والإفتاء. وتوفي بمصر سنة (٧٩٤هـ). من تصانيفه: «النُّكت على البخاري»، و«البحر المحيط في أصول الفقه». انظر: الدُّرر الكامنة (٣/ ٣٩٧)؛ شذرات الذَّهب (٦/ ٣٣٥).

(٧) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٠٧).

والهيتمي[١]، وابن قدامة[٢]، وغيرهم.

* الصُّورة الثَّانية: إتلاف المصحف وتمزيقه.

* حكمها: لا خلاف بين أهل العلم ـ رحمهم الله ـ في تحريم إتلاف المصاحف على وجه الاستخفاف، بل قد صرَّح بعضهم بكون ذلك باباً من أبواب الرِّدَّة[٣]، والعياذ بالله من هذا الحال.

فإن كان الإتلاف لا على وجه الاستخفاف، ويمكن الانتفاع به، فلا يجوز إتلافه، صرَّح بذلك غير واحد من أهل العلم، كابن عبد الهادي الحنبلي[٤] رحمه الله حيث قال: «ولا يجوز دفن مصحف صحيح، ولا غسله»[٥].

الحالات التي يجوز فيها إتلاف المصاحف:

جوَّز أهل العلم ـ رحمهم الله ـ إتلاف المصاحف إذا تحقَّق فيها واحد من جملة أسباب[٦]:

١ ـ إذا كانت عتيقةً باليةً قد تعطَّل نفعُها.

٢ ـ إذا تنجَّست بما يتعذَّر معه تطهيرها.

٣ ـ إذا دخلها خلل يُخاف معه على الجُهَّال من الضَّلال، إمَّا لكثرة السَّقْط فيها، أو كثرة اللَّحن، أو دُسَّ فيها ما ليس منها، أو كان رَسْمُها مخالفاً لرسم المصحف الإمام.

---

(١) انظر: الفتاوى الحديثية (ص١٦٣). (٢) انظر: المغني (٣/ ١٥٠).

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٢٠٢)؛ مجموع فتاوى ابن تيمية (١٢/ ٣٨٢)؛ الآداب الشرعية (٢/ ٢٩٧).

(٤) هو جمال الدِّين يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الهادي، الحنبلي، ولد سنة (٨٤٠هـ) من أهل الصَّالحية بدمشق. محدِّث، فقيه، نحوي، صرفي، مشارك في عدَّة علوم، وتوفِّي بدمشق سنة (٩٠٩هـ). من تصانيفه الكثيرة: «النِّهاية في اتِّصال الرِّواية»، و«الميرة في حلِّ مشكل السِّيرة»، و«إرشاد السَّالك إلى مناقب مالك»، وغيرها.
انظر: شذرات الذَّهب (٨/ ٤٣).

(٥) مغني ذوي الأفهام، لابن عبد الهادي (ص٢٥).

(٦) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٧٢)؛ تفسير القرطبي (١/ ٥٤ ـ ٥٥)؛ الآداب الشرعية (٢/ ٢٩٦)؛ المعيار المعرب، للونشريسي (١/ ٢٩ ـ ٣٠)؛ تحفة المحتاج وحواشيها، للهيتمي (١/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤)؛ المُتْحَف في أحكام المصحف (ص٣٧ ـ ٤١).

* الصُّورة الثَّالثة: إدخال المصحف في أماكن التَّخلِّي.

* حكمها: لا خلاف بين أهل العلم في حظر إدخال المصحف في أماكن التَّخلِّي ونحوها لغير ضرورة؛ لكون الدُّخول بها مع انتفاء الضَّرورة ضرباً من الامتهان، وإخلالاً بما يجب لها من التَّعظيم.

وجمهور أهل العلم ـ رحمهم الله ـ على تحريم الدُّخول بالمصحف إلى الخلاء، وأماكن قضاء الحاجة، سواء كان ذلك في البنيان أو خارجها، ما لم تدع إلى ذلك ضرورة[١].

* الصُّورة الرَّابعة: إدخال المصحف في القبر.

* حكمها: صرّح غير واحد من أهل العلم بتحريم دفن المصحف مع الميّت في القبر؛ لكون ذلك بدعة في الدِّين، إذ لم ينقل عن السَّلف الصالح أنهم فعلوه، وفيه تعريض المصحف للتَّلوُّث بصديد الميّت إذا انفجر.

وقد أفتى بعض أهل العلم بوجوب نبش القبر إذا دفن فيه مصحف، لا سيّما إذا طُمِعَ بالانتفاع بالمصحف، بأن يخرج سليماً، وأمِنَ من كشف عورة الميّت.

وبعضهم أفتى بعدم انفاذ وصيَّة منْ أوصى بدفن المصحف معه؛ لأنه يؤول إلى امتهان القرآن وتلويثه، وهو أمر محرّم[٢].

* الصُّورة الخامسة: بلع شيء من المصحف.

* حكمها: الظَّاهر من كلام أهل العلم ـ رحمهم الله ـ أنه لا يجوز لأحد أن يبتلع شيئاً من المصحف، لا على سبيل الاستشفاء، ولا غيره؛ لكونه بدعة في الدِّين، وامتهاناً للكتاب المبين، وذلك بتعريضه لأخلاط الجوف المستقذرة، وقد صرَّح غير واحد من أهل العلم بتحريم بلْعِ قرطاسٍ كُتِبَ فيه قرآنٌ، أو اسمٌ من أسماء الله تعالى، وممّن صرَّح بذلك: الهيتمي[٣]،

---

(١) انظر: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد، للمرداوي (١/ ٩٤)؛ حاشية ابن عابدين (١/ ١١٩)؛ المغني (١/ ١٥٨).

(٢) انظر: تحفة المحتاج (٣/ ١٢٧)؛ حاشية ابن عابدين (١/ ٦٧٠)؛ المعيار المعرب (١/ ٣١٩).

(٣) انظر: الفتاوى الحديثة (ص١٦٥).

والرملي(١)(٢)، والعبَّادي(٣)(٤) من علماء الشّافعية ـ رحمهم الله جميعاً.

* **الصُّورة السَّادسة: التَّبرُّك بالمصحف.**

* **حكمها:** إنَّ التّبرُّك بالمصحف بوضعه في المنزل، أو المكتب، أو السيارة، دون القراءة فيه البتّة، يُعَدُّ ضرباً من البدع، وصورةً فجّة من صور هجره والاستهانة به، واستعماله في غير ما أُنزل له(٥).

فقد جاء عن أبي أمامة ﷺ أنه قال: «اقرؤوا القُرآنَ ولا تغُرَّنَّكُمْ هذه المصاحفُ المُعَلّقَةُ، فإنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ بِالنَّارِ قلْباً وَعَى القُرآن»(٦).

وجاء في (الآداب الشّرعية) عن ابن الجوزي ﷺ: «وينبغي لمن كان عنده مصحف، أن يقرأ فيه كلَّ يوم آيات يسيره؛ لئلّا يكون مهجوراً»(٧).

* **الصُّورة السَّابعة: تلويث المصحف.**

* **حكمها:** لا خلاف بين أهل العلم ـ رحمهم الله ـ في تحريم تلويث المصحف بأيِّ نوع من أنواع الملوّثات؛ بل صرَّح بعض أهل العلم بأنه لا يحل تلويث المصحف بما هو مستقذر، ولو كان ذلك طاهراً، كالرِّيق أو البزاق مثلاً،

---

(١) هو محمد بن أحمد بن حمزة الرّملي، المنوفي، المصري، الشّافعي، ولد بالقاهرة سنة (٩١٩هـ) وولي إفتاء الشّافعية، ومن تصانيفه: «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج للنووي»، و«شرح العقود في النّحو»، و«غاية البيان في شرح زبدة الكلام». توفي سنة (١٠٠٤هـ). انظر: معجم المؤلفين (٣/ ٦١).

(٢) انظر: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (١/ ١٢٦).

(٣) هو أحمد بن قاسم العبّادي، القاهري، الشّافعي (شهاب الدّين) عالم، فقيه. توفي بالمدينة سنة (٩٩٤هـ). من تصانيفه: «غاية الاختصار في فروع الفقه الشافعي»، و«الحواشي والنّكات والفوائد»، و«المحررات على مختصر السّعد في المعاني والبيان» وغيرها. انظر: معجم المؤلفين (١/ ٢٣٠).

(٤) انظر: حاشية العبادي على تحفة المحتاج (١/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

(٥) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٧٠).

(٦) رواه الرازي في «فضائل القرآن وتلاوته» (ص١٥٤) (رقم ١٢٥)؛ والبخاري في «خلق أفعال العباد» (١/ ٨٧) (رقم ٢٧٣)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٣٣) (رقم ٣٠٠٧٩)؛ والدّارمي في «سننه» (٢/ ٣٠٦) (رقم ٣٣١٩)؛ وصحّح إسناده الحافظُ ابنُ حجر في «فتح الباري»: (٩/ ٧٩).

(٧) الآداب الشرعية (٢/ ٣٠٩).

ولقد اشتدَّ نكير بعض أهل العلم على مَنْ اعتاد بَلَّ الإصبع بريقه عند تقليب ورق المصحف ليسهل عليه ذلك، ولو لم يكن بصنيعه هذا قاصداً لتلويث المصحف[١].

فإنْ توفَّر قَصْدُ التَّلويث فالظَّاهر أنَّ القول بتكفيره محلُّ وفاق بين أهل العلم. ونصَّ أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي[٢] رحمه الله - في فنونه - على أنَّ مَنْ قَصَدَ كَتْبَ القرآن بنجس إهانةً له، فالواجب قتلُه[٣].

* الصُّورة الثَّامنة: وطء المصحف.

* حكمها: لا خلاف بين أهل العلم - رحمهم الله - في كفر مَنْ وَضَعَ رجلَه على المصحف مستخفّاً به؛ وكون ذلك باباً من أبواب الرِّدَّة، وصنيعاً يُشعر بإسقاط حرمة المصحف، وكذلك الجلوس مباشرة على المصحف استخفافاً به[٤].

فإنْ كان مضطرّاً إلى وطء المصحف، أو الجلوس عليه فقد صرَّح بعدم كفره غيرُ واحد من أهل العلم، إعمالاً للعمومات الدَّالة على رفع الإثم عن المضطر.

---

(١) انظر: حاشية الشرواني على تحفة المحتاج (١/ ١٥٣).

(٢) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل، الحنبلي (أبو الوفاء) عالم فقيه، أصولي، مقرئ، واعظ. ولد ببغداد سنة (٤٣١هـ)، له مؤلفات كثيرة في الفقه وأصوله، من أشهرها: «كتاب الفنون في شتّى العلوم - فيما يزيد عن مائتي مجلد»، و«الفصول»، و«المفردات»، و«عمدة الأدلة». توفي سنة (٥١٣هـ).

انظر: الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ١٤٢)؛ سير أعلام النبلاء (١٢/ ١٠٣).

(٣) انظر: الفروع، لابن مفلح (١/ ١٩٣)؛ كشاف القناع عن متن الإقناع (٦/ ١٦٨).

(٤) انظر: الشّفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٣٠٤)؛ قواعد الأحكام، لابن عبد السلام (١/ ١٩)؛ التبيان، للنووي (ص٢٠٢، ٢٣٢)؛ الفروع (١/ ١٩٣)؛ تحفة المحتاج وحواشيها (١/ ٦١، ١٦٠)؛ الفتاوى الهندية، للشّيخ نظام وجماعة من علماء الحنفيّة بالهند (٥/ ٣٢٢)؛ حاشية ابن عابدين (٣/ ٥٦).

الفصل الثالث

هجر استماع القرآن

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: تعريف السَّماع وأنواعه.

المبحث الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن.

المبحث الثالث: آداب استماع القرآن.

المبحث الرابع: فضائل استماع القرآن.

المبحث الخامس: حُكْمُ الاستماعِ للقرآن وحُكْمُ الإعراضِ عنه.

المبحث السادس: الآثار الحسنة لاستماع القرآن.

المبحث الأوَّل

تعريف السَّماع وأنواعه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف السَّماع.

المطلب الثاني: أنواع السَّماع.

المطلب الثالث: أقسام النَّاس في سماع القرآن.

المطلب الأول

تعريف السَماع

أولاً: «السَّماع» لغة:

جاء السَّماع في اللُّغة مصدراً مشتقًا من الفعل (سَمِعَ) الذي يدلُّ على إدراك الشَّيء بالأُذن. كما في قوله تعالى: ﴿... أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

يُقال: سَمِع الشَّيء ـ بالكسر ـ (سَمْعاً) و(سَمَاعاً)، وقد يُجمع على (أَسْمَاع) وجَمْع الأسماع (أَسَامع)[١].

استعمالات «السَّمع» في القرآن:

ذكر عدد من علماء اللُّغة لهذا الفعل ومشتقّاته استعمالات عديدة، وسوف نَعْرِضُ للمعاني التي وردت في القرآن، وتتعلّق بموضوع البحث على النَّحو الآتي:

١ ـ يأتي السَّمع بمعنى القبول والعمل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١].

أي: ما تُسمع إلّا منْ يؤمن بها، وأراد بالإسماع ههنا القبول والعمل بما يسمع؛ لأنه إذا لم يقبل ولم يعمل فهو بمنزلة منْ لم يسمع[٢].

٢ ـ يأتي السَّمع بمعنى الاستجابة، كما في قول المصلّي: (سَمِعَ اللهُ لمن حمده).

أي: أجاب الله حَمْده وتقبّله، وكما في دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُعَاءٍ لا يُسْمَعُ»[٣]. أي: لا يُستجاب ولا يعتدُّ به، فكأنّه غير مسموع[٤].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (١/ ٥٧٠)؛ لسان العرب (٦/ ٣٦٣)، مادة: (سمع).

(٢) انظر: مختار الصّحاح (ص١٥٤)، مادة: (سمع).

(٣) رواه النّسائي، كتاب الاستعاذة، باب: الاستعاذة من نفس لا تشبع (٨/ ٢٦٣) (ح٥٤٦٧)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن النسائي»: (٣/ ١١١٢) (ح٥٠٥٠).

(٤) انظر: لسان العرب (٦/ ٣٦٤).

٣ - يُعبَّر بالسَّمع تارة عن الأذن، كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، فلا يسمعون ما يفيدهم[١].

٤ - يعبَّر بالسَّمع تارة عن الفعل (أي: إدراك الشَّيء بالأذن)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢][٢].

٥ - يعبَّر بالسَّمع تارة عن الفهم، كما في قولهم: (لم تسمع ما قلتُ) أي: لم تفهم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. أي: فهمنا وارتسمنا.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا﴾ [الأنفال: ٢٣]. أي: أفهَمَهُم بأن جعل لهم قوّةً يفهمون بها[٣].

ثانياً: «السَّماع» اصطلاحاً:

* عرَّفه المُناوي[٤] رحمه الله بقوله: «السَّماع: فَهم (السَّامع) ما كُوشِف به من البيان»[٥]. والمقصود هنا: سماع التَّدبر والتَّفكر لا مجرَّد السَّماع.

* وذكر ابن القيِّم رحمه الله حقيقته بقوله: «وحقيقة السَّماع: تنبيه القلب على معاني المسموع، وتحريكه عنها طلباً أو هرباً، وحبّاً أو بغضاً»[٦].

---

(١) انظر: تفسير السعدي (١/٣٥).
(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص٢٤٨)، مادة: (سمع).
(٣) انظر: المصدر نفسه (ص٢٤٩).
(٤) هو عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين بن يحيى بن محمد الحدادي ثم المُناوي، القاهري، الشّافعي، ولد سنة (٩٥٣هـ)، وتوفي سنة (١٠٢١هـ)، نبغ في العربية والتّفسير والحديث والأدب، وقد خلط بعضهم بينه وبين ابنه محمد بن عبد الرؤوف المتوفى سنة (١٠٢٢هـ)، ولابنه هذا شرح على التائية الكبرى للفارضي. ولعبد الرؤوف المُناوي تصانيف كثيرة منها: «الجامع الأزهر من حديث النبيّ الأنور»، و«إتحاف النّاسك بأحكام المناسك»، و«الجواهر المضية في الأحكام السُّلطانية» وغيرها.
انظر: مقدمة فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمُناوي (١/٩ - ١٠).
(٥) التّوقيف على مهمّات التّعاريف، للمناوي (ص١٩٧).
(٦) مدارج السالكين (١/٥١٧).

فالاستماع إذاً: هو قصد السّماع بغية فهم المسموع، أو الاستفادة منه[1].

ثالثاً: الفرق بين (السَّماع) و(الاستماع) و(الإنصات):

يتعيَّن علينا ـ قبل الدُّخول في غِمار مباحث «استماع القرآن» ـ أن نُفرّق بين السَّماع، والاستماع، والإنصات[2].

١ ـ السَّماع: هو مجرّد استقبال الأذن لذبذبات صوتية من مصدر مُعيَّن، دون إعارتها انتباهاً مقصوداً. فقد يكون بقصد، أو بدون قصد. فالإنسان يسمع كلّ ما يقال حوله، وقد ينتبه إلى ما يسمع وقد لا ينتبه.

٢ ـ الاستماع: هو مهارة يُعطي فيها المستمعُ اهتماماً خاصّاً، واهتماماً مقصوداً لما تتلقّاه أذنه من أصوات؛ ليتمكّن من استيعاب ما يُقال.

فنلحظ هنا أنّ مرتبة الاستماع أعلى من السّماع؛ لأنَّ الاستماع لا بدَّ أن يتوفَّر فيه القصد، ولذلك أمرنا الله تعالى عند تلاوة القرآن علينا بقوله: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟﴾ ولم يقل: «اسمعوا».

٣ ـ الإنصات: هو المرتبة الأعلى؛ لأنَّ فيه تركيزاً أكبر، من الانتباه والإصغاء والسُّكون، من أجل هدف محدَّد.

السَّمع أهمُّ حاسَّة للتَّلقِّي:

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الاستماع مهارةٌ تحتاج إلى درجة من التَّركيز وصفاء الذِّهن، وغالباً ما يلازمها سكونٌ وإنصات؛ لإدراك المعاني المقصودة التي يتحقّق بها غَرض المُلْقي، فالإحساس بالسَّمع مركز هامٌّ من مراكز الإدراك والفهم، لما يجري حول الإنسان من أحداث.

والإنسان الرَّاشد يتعلَّم عن طريق السَّمع، أكثر ممَّا يتعلَّم عن طريق أيّة حاسَّة أخرى، وقد يكون ذلك عائداً لأسباب عدَّة، منها: أنّ مدى السّمع أكبر ممّا تصل إليه أيّة حاسّة أخرى منفردة كالبصر مثلاً. وأنَّ أوّل ما يعمل من حواسّ عند

---

(١) انظر: المصباح المنير (ص١٥٠)، مادة: (سمع)؛ الفروق في اللُّغة (ص٨١)؛ حاشية القليوبي على شرح المنهاج (٣/ ٢٩٧).

(٢) انظر: المعجم الوسيط (ص٤٤٩).

الإنسان هو السّمع، وهو أيضاً آخر حاسّة تموت، وهو من ناحية التّركيب الفيزيولوجي للدّماغ أعمق في التّركيب من الحواسّ الأخرى كالبصر مثلاً، ولعلّ هذا من أسرار تقديمه في مُعظم الآيات، إنْ لم نقُلْ جميع الآيات، التي جَمعت بين السّمع والبصر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦][1].

المطلب الثاني

أنواع السَّماع

قسّم العلّامة ابن القيّم رحمه الله «السّماع» إلى ثلاثة أنواع، وأطال في ذلك وأجاد، وخلاصة هذه الأنواع فيما يلي[2]:

النّوع الأول: السَّماعُ المَرْضِيُّ:

فهذا السّماع قد أمر الله به عباده، وأثنى على أهله، ورضي عنهم به، وذمّ المعرضين عنه ولعنهم، وجعلهم أضلّ من الأنعام سبيلاً، وهم القائلون في النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

فالله تعالى أوردهم النّار؛ لأنهم أعرضوا عن سماع آياته المتلوّة التي أنزلها على رسوله ﷺ.

السّماع المَرْضِي يَمُرُّ بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: سماع الإدراك.

وفي هذه المرحلة يكون السّماع بحاسّة الأذن، كما في قول مؤمني الجنّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ ـ ٢]. وقولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

---

(١) انظر: أثر سماع القرآن الكريم على مستوى الأمن النّفسي (رسالة ماجستير «تخصّص علم النّفس التّربوي» ـ جامعة اليرموك ـ الأردن) للباحثة: عندليب بنت أحمد عبد الله (ص١٣ ـ ١٤).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥١٧ ـ ٥٢٣).

المرحلة الثَّانية: سماع الفهم.

وهذا السَّماع منفي عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [الروم: ٥٢].

كما أنه منفي عن الكفار بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]. أي: لو علم الله عزَّ وجلَّ في هؤلاء الكفَّار قبولاً وانقياداً لأفهمهم، وإلَّا فَهُم قد سمِعوا سَمْعَ الإدراك ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: ولو أفهمهم لما انقادوا، ولا انتفعوا بما فهموا؛ لأنَّ في قلوبهم من داعي التَّولِّي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

المرحلة الثَّالثة: سماع القبول والإجابة.

ومن أمثلة ذلك: قول المؤمنين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. فإنَّ هذا سمْعُ قبولٍ وإجابةٍ، مثمرٌ للطَّاعة.

وسماع القبول والإجابة متضمِّن للمراتب الثَّلاث؛ لأنَّ المؤمنين أدركوا المسموع، وفهموه، واستجابوا له، فاستحقُّوا بذلك محبَّة الله لهم، ورضاه عنهم، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

فكلُّ سماع في القرآن مَدَح اللهُ أصحابَه، وأثنى عليهم، وأمَر به أولياءه: فهو هذا السَّماع.

وهو سماع الآيات، لا سماعُ الأبيات، وسماع القرآن، لا سماع مزامير الشَّيطان، وسماع كلام ربِّ الأرض والسَّماء، لا سماع قصائد الشُّعراء، وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنِّين والمطربين. فحرام على قلب قد تربَّى على غذاء السَّماع الشَّيطانيِّ، أن يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن.

فهذا السَّماع حادٍ يحدو القلوب، إلى جوار علَّام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، فليس في نعيم أهل الجنَّة أعلى من رؤيتهم وجهَ اللهِ محبوبِهم ﷻ عياناً، وسماع كلامِه منه(١).

---

(١) انظر: المصدر نفسه (١/ ٤٨٥).

النوع الثاني: السَّماعُ المنهيُّ عنه:

فهذا سماع يُبغضه الله ويكرهه، وقد نهى عنه، ومدح المعرضين عنه، وهو سماع كلِّ ما يضرُّ العبد في قلبه ودينه؛ كسماع الباطل كلِّه، وكسماع اللَّغو الذي مدح التَّاركين لسماعه والمعرضين عنه بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

واللَّغو في اللُّغة: كلُّ ما هو باطل، ولا يفيد فائدة[1]. ومعنى ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾: أكرموا أنفسهم عن الدُّخول فيه. قال ابن مسعود ﷺ: «إنَّ الغناء يُنبت النِّفاق في القلب كما ينبت الماءُ البقلَ»[2].

النوع الثالث: السَّماعُ المباح:

لم يتحدَّث ابن القيِّم رحمه الله عن أمثلة للسماع المباح، وقد فصّل أبو حامدٍ الغزالي رحمه الله أنواعه، وذكر منها: غِناءَ الحجيج لأشعارٍ تصف الكعبة، والمقامَ، وزمزمَ، وسائرَ المشاعر؛ لما في ذلك من تهييج الشَّوق إلى حجِّ بيت الله تعالى، ومنها: ما يعتاده النَّاسُ لتحريض النَّاسِ على الغزو، ومنها: السَّماع في أوقات السُّرور تأكيداً للسُّرور وتهييجاً له، إن كان ذلك السُّرور مباحاً[3].

المطلب الثالث

أقسام النَّاس في سماع القرآن[4]

انقسم النَّاس ـ مسلمهم وكافرهم، برُّهم وفاجرهم ـ في سماعهم للقرآن العظيم إلى أربعة أصناف، كما ذكر ذلك ابن تيميَّة رحمه الله[5]:

الصِّنف الأوَّل: مُعْرِض مُمتنع عن سماع القرآن:

وهؤلاء هم أئمَّة الكفر الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

---

(١) انظر: تفسير السمعاني (٤/ ٣٥).
(٢) انظر: تفسير البغوي (٣/ ٣٠٣).
(٣) انظر: إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢٧٧ ـ ٢٧٩).
(٤) المقصود بسماع القرآن هنا: سماع القبول والإجابة.
(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٨ ـ ١٥).

الصِّنف الثَّاني: سَمِعَ الصَّوتَ ولم يفقه المعنى:

وهؤلاء هم عامَّة الكفار، من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وأمثلة ذلك كثيرة في الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

ومَثَلُ هؤلاء ـ الذين يسمعون الصَّوت ولا يفقهون المعنى ـ كَمَثَلِ مَنْ يعلم وصفاً مذموماً، ويكون هو متَّصفاً به، أو بعضاً من جنسه، ولا يعلم أنه داخل فيه.

وهؤلاء شرٌّ ـ عند الله تعالى ـ من شرار الدَّواب؛ لأنَّ الله أعطاهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة؛ ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه[1]، فهؤلاء لا خير فيهم بنصِّ كلام الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ ـ ٢٣].

ودلَّت الآية الكريمة على أنه ليس كلُّ مَنْ سمع وفقه يكون فيه خير، بل قد يفقه ولا يعمل بعلمه، فلا ينتفع به ولا يكون فيه خير، ودلَّت أيضاً على أنَّ إسماع التَّفهيم إنَّما يُطلب لمن فيه خير؛ لأنَّه هو الذي ينتفع به[2].

الصِّنف الثَّالث: فَقِه المعنى ولم يَقْبله:

وهؤلاء هم اليهود الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]. وقال تعالى فيهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٢/١٩٦).

(٢) تأمَّل نماذجَ أيضاً لهذا الصِّنف من النَّاس في آيات السُّور الآتية، وأرقامها: (يونس: ٤٢ ـ ٤٤) (الإسراء: ٤٥ ـ ٤٧) (الكهف: ٥٧) (الأنفال: ٢٠).

﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

فاليهود وإن سمعت قلوبُهم الخِطابَ وفقهته لا تقبله، ولا تؤمن به، لا تصديقاً له، ولا طاعةً، وإنْ عرفوه، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ولا يقتصر الأمر على اليهود فقط، ففي عالمنا اليوم نجد طوائف من العلمانيين والعقلانيين وغيرهم الذين يفقهون المعنى ولا يقبلونه.

الصِّنف الرَّابع: سَمِعَ القرآنَ سماعَ فِقْهٍ وقبولٍ:

وهؤلاء هم المؤمنون بالقرآن العظيم، المنقادون له ظاهراً وباطناً، وقد أثنى الله تعالى عليهم في مواضع كثيرة من القرآن، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١].

المبحث الثاني

مظاهر هجر استماع القرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأوّل: مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفّار.

المطلب الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين.

المطلب الأول

مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار

لولا أنّ الله ﷻ ذكر في كتابه الكريم أنّ أقواماً أعرضوا وامتنعوا عن استماع القرآن ـ طوعاً واختياراً ـ لما كان يتصوّر المؤمن، ذو الفطرة السَّليمة، أنَّ أحداً من البشر يجرؤ على حرمان نفسه ـ في الدُّنيا ـ من التَّلذُّذ بكلام الله تعالى، وعلى هلاكها في الآخرة.

وهذا النَّوع من البشر ـ المُعرض عن سماع القرآن ـ لا خير فيه، بل هو من شرار الدَّواب، الذين وهب الله تعالى لهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ومع ذلك استعملوها فيما يعود عليهم بالضَّرر، وجحدوا نعمة الله وهم يعلمون.

وإعراض النَّاس عن استماع القرآن يأخذ مظاهر عديدة: فتارة بالتَّواصي بعدم السَّماع، وتارة بالإعراض والاستكبار عن السَّماع، وتارة بالتَّعامي والتَّصامّ عن السَّماع، وتارة بالاستهزاء حال السَّماع، وتارة بالضَّجر والتأفُّف، وتارة بالإزلاق بالعيون، وتارة بالتَّهاون والتَّغافل عن السَّماع، وهذا ما سنتناوله بالتّفصيل والبيان، من خلال بسط مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار.

١ ـ الإعراض عن سماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

فمن أكبر الجرم، وأعظم الظُّلم للنَّفس أن يُعرض الإنسان عن القرآن العظيم، الذي فيه سعادته في الدُّنيا، ونجاته يوم القيامة، فلم يفتح مسامعه للآيات البيِّنات، ولم يتذكَّر بما ذُكِّر به، ونسي ما قدَّمت يداه من الكفر والمعاصي ولم يتفكَّر في عاقبتهما.

فجاءت عقوبته من جنس عمله: بأنْ سُدّت عنهم أبواب الهداية، وجُعلت

الأغطيةُ المحكمة على قلوبهم، وجُعِل الصَممُ في آذانهم يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع بها، جزاء وفاقاً.

* وحكى الله تعالى - في موضع آخر - إعراض الكفار عن القرآن العظيم بقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٤ - ٥].

تُبيِّن هذه الآية الكريمة أنَّ أكثر الخلق معرضون عن القرآن الكريم، لا يسمعون له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم به الحجَّة الشَّرعية عليهم(١).

وتَبجَّح المعرضون: بأنَّ قلوبهم في أغطية فلا تصل إليها الآيات، وآذانهم صمَّاء فلا تسمع الآيات المتلوَّة، وضربوا حجاباً معنوياً بينهم وبين النبيِّ الكريم ﷺ؛ لقطع جميع منافذ الاتصال، إمعاناً في العناد من جهة، وبغية تيئيسه ﷺ من جهة أخرى؛ ليكُفَّ عن دعوتهم بالقرآن العظيم، لما كانوا يجدونه في قلوبهم من وقع آياته عليهم، فأيُّ إعراض أكبر من ذلك؟(٢).

٢ - الاستكبار عن سماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

فهذا أعظم من مجرَّد الإعراض؛ لأنَّ إعراضه إعراضُ استكبار، لا إعراض تفريط في الخير وزهد فيه فحسب، ولذلك بُشِّر هذا المستكبر المُعرض عن القرآن الكريم، بالعذاب المؤلم لقلبه وبدنه في الآخرة، جزاءً لاستكباره عن سماع القرآن في الدُّنيا.

* ولا يليق بمَنْ يُعرض عن القرآن، ويتكبَّر عن سماع آياته إلَّا التَّهديد والتَّنكيل، والسُّخرية منه، قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧ - ٨].

فتُصوِّر هذه الآيات الكريمات جانباً من استقبال المشركين للقرآن،

---

(١) انظر: تفسير السعدي (١/ ٧٤٤). (٢) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٣١٠٨).

وإصرارهم على باطلهم، واستكبارهم عن سماع كلمة الحقّ المبين، ومكابرتهم في هذا الحقّ كأنّه لم يطرق آذانهم.

وهذه الصُّورة البغيضة تتكرَّر في كلّ زمان ومكان، فكم في الأرض من يسمع آيات الله تتلى عليه، ثمّ يُصِرُّ مستكبراً كأنّه لم يسمعها؛ لأنّها لا تُوافق هواه، ولا تسير مع مألوفه، ولا تعاونه على باطله، ولا تُقِرُّه على شرِّه، ولا تتمشّى له مع اتّجاه[1].

٣ ـ التَّواصي بعدم سماع القرآن:

من أبرز مظاهر هجر سماع القرآن: ما دعا إليه أئمّة الكفر ـ وصيّةً لأتباعهم ـ بعدم السّماع للقرآن الكريم ابتداء، خشية أن يؤمنوا به بعد استماعهم له، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولكنّ مكرهم ذهب أدراج الرِّياح وغلب القرآن العظيم؛ لأنّه يحمل سرّ الغلب، إنّه الحق؛ والحقُّ غالب مهما جهد المبطلون[2].

ومن مظاهر التَّواصي فيما بينهم بعدم سماع القرآن: أن بعضهم يُعنِّف بعضاً ويلومه، ويعيب عليه، إذا ما حاول ـ قاصداً أو ناسياً ـ سماع القرآن، يقول الله تعالى حاكياً هذا التَّواصي فيما بينهم: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢ ـ ٣].

لقد نعتوا القرآن بالسِّحر، ونعتوا أنفسهم بالإبصار، وحقيقة الأمر على غير ذلك، فما القرآن إلّا وحي مؤثّر من خالقهم، وما ادّعاؤهم الإبصار إلّا محاولة تبريرٍ ضعيفة، وهروب منهزمة، يسترون تحتها ما في نفوسهم، من استكبار وعتو، وتواصٍ على عدم الانصياع للحقّ، وحرصٍ على استخدام كلّ الأساليب الإعلاميّة، التي تمنع وصول أيّ أثر لهذا البثّ القرآنّي المؤثّر في النفوس[3].

---

(١) انظر: المصدر نفسه (٥/ ٣٢٢٤). (٢) انظر: المصدر نفسه (٥/ ٣١٢٠).

(٣) انظر: الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، د. محمد عطا أحمد يوسف، مجلة الشريعة

٤ ـ البطش بمن يقرأ القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ [الحج: ٧٢].

ومن أبرز مظاهر هجر سماع القرآن: أن تغضب النُّفوس، وتعبس الوجوه، ويصيب القلوب من الغمِّ والحزن والكراهية لدى سماع القرآن.

فهذا هو حال الكفَّار عند سماعهم للقرآن العظيم، تكاد هذه الكراهية لسماع الآيات أن تتحوَّل إلى البطش والفتك بمَنْ يقرأ عليهم القرآن.

٥ ـ التَّعامي والتَّصام عن القرآن:

كان النبيُّ ﷺ يجتهد في إيصال حقائق القرآن الإيمانية إلى قومه ولا يزيدهم ذلك إلَّا تصميماً على الكفر، وتمادياً في الغيِّ، فقال تعالى مبيِّناً حالهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢ ـ ٤٣].

فقد كان فريق منهم يستمعون إلى النبيِّ ﷺ ـ وقت قراءته للوحي ـ لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التَّفرُّج والتَّكذيب، وتطلُّب العثرات، وهذا استماع غير نافع، فقد انسَدَّ عليهم باب التَّوفيق، وحُرِموا من فائدة الاستماع.

فلو جهر النبيُّ ﷺ بالقرآن، فإنهم لا يستمعون القول. فإذا كان من المحال إسماع الأصمِّ، الذي لا يعقل الكلام، فهؤلاء المتصامُّون كذلك، ممتنع إسماعك إيَّاهم إسماعاً ينتفعون به.

وحتَّى نظرهم إليك لا يفيدهم؛ لأنهم تعاموا عن الحقِّ، فكما أنَّك لا تهدي العمي، فكذلك لا تهدي هؤلاء. فإذا فسدت عقولهم، وأسماعهم، وأبصارهم ـ التي هي الطُّرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق ـ فأنَّى لهم أن يهتدوا؟[١].

والمقصود من ذلك: تسلية النبيِّ ﷺ، بأنَّ هؤلاء المتعامين المتصامِّين قد بلغوا في مرض العقل إلى حيث لا يقبلون العلاجَ. والطَّبيبُ إذا رأى مريضاً لا

= والدراسات الإسلامية ـ جامعة الكويت (عدد: ٣٦) (شعبان ١٤١٩) (ص٦٩ ـ ٧٠).

(١) انظر: تفسير السعدي (٢/ ٣٢١).

يقبل العلاجَ أعرض عنه، ولم يستوحش من عدم قبوله للعلاج، فكذلك وجب عليك ـ أيُها النبيُّ الكريم ﷺ ـ ألّا تستوحش من إعراضهم عن سماع القرآن[١].

* وبيَّن الله تعالى ـ في موضع آخر ـ أنّ صممهم وعماهم كان بسبب كونهم في ضلال مبين: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠].

* وفي موضع ثالث تَبَيَّن أنَّ حالتهم أعظم من الصَّمم؛ لأنَّ الأصم قد يستطيع السَّمع إذا صِيح به، وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة[٢]: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

٦ ـ الاستهزاء حال سماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

يُخبر تبارك وتعالى عن كفر قريش وعتوِّهم وتمرُّدهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنّهم يقولون ـ استهزاءً: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾.

قال ابن الجوزي ﷺ: «وفي قوله: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ قولان:

أحدهما: قد سمعنا منك ولا نُطيعك.

والثّاني: قد سمعنا قبل هذا مثله»[٣].

«ومن عجيب بُهتانهم أنّ الرّسول ﷺ تحدّاهم بمعارضة سورة من القرآن، فعجزوا عن ذلك وأُفحِموا، ثمّ اعتذروا بأنَّ ما في القرآن أساطير الأوّلين، وأنّهم قادرون على الإتيان بمثل ذلك»[٤].

٧ ـ الضَّجر والتَّأفُّف.

يستشعر الكفّار ثِقَلَ هذا القرآن على نفوسهم، ويتضجَّرون بما يجدون فيه

---

(١) انظر: التفسير الكبير (١٧/ ٨١).
(٢) انظر: المصدر نفسه (٢١/ ١٤٧).
(٣) زاد المسير (٣/ ٢٦٤).
(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٨٣).

من عجائب الخطاب وروائع البيان، فلا يسعهم إلّا أن يُعرضوا عن سماعه، ويطالبوا النبيّ الكريم ﷺ أن يأتي بقرآنٍ غيره، أو يبدِّله، ويسجِّل القرآن عرْضَهم هذا في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

إنه طلب عجيب لا يصدر عن جدٍّ، إنما يصدر عن عبث وهزل، وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن العظيم وجديَّة تنزيله(١).

فقبَّحهم الله، ما أجرأهم على الله، وأشدَّهم ظلماً، وإعراضاً عن سماع كتابه! كيف يتجرّؤون بهذه المقولة: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾؟

فإذا كان الرَّسول العظيم ﷺ، يأمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ أي: ما ينبغي، ولا يليق بي ذلك؛ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء.

فهذا قول خير البريَّة، وأدبه مع أوامر ربِّه ووحيه. فكيف بهؤلاء السُّفهاء الضَّالين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟(٢).

٨ ـ بُغض سماع القرآن وكراهية قارئه:

جارحة العين خلقها الله للرُّؤية، وقد يصدر عنها بعض الحركات، أو الإشارات التي تنبئ عن حالة صاحبها النَّفسيَّة، والقرآن الكريم يسجِّل حركةً حادَّة لجارحة العين، تصدر من المعاندين من أهل الكفر عند سماعهم للقرآن، يقول سبحانه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

«والزَّلَق: بفتحتين ـ زَلَلُ الرِّجلِ من ملامسة الأرض من طين عليها أو دهن»(٣).

فالإزلاق ـ إذاً ـ حركة في قدَم الإنسان، تجعلها تزلق، وتفقد توازنها وثباتها على الأرض. وقيل في معنى يزلقونك: يصيبونك بأعينهم.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٧٧٠).
(٢) انظر: تفسير السعدي (٢/ ٣٠٨).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٠٠).

وقيل: ليس المراد أنّهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنّما أراد أنّهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكادُ يُسقطك[1].

«فهذه النَّظَرات تكاد تُؤثّر في أقدام الرَّسول ﷺ فتجعلها تزلُّ وتزلق، وتفقد توازنها على الأرض وثباتها! وهو تعبير فائق عمّا تحمله هذه النّظَرات من غيظ وحنَق، وشر وحسد، ونقمة وضغن، وحُمّى وسُم، مصحوبة هذه النّظرات المسمومة بالسّبّ القبيح، والشّتم البذيء، والافتراء الذّميم: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾»[2].

٩ ـ التّهاون والتّغافل عن سماع الوحي:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

يُخبر الله تعالى عن المنافقين في بلادتهم وقلّة فهمهم حيث كانوا يحضرون عند النبيّ ﷺ فيسمعون كلامه وتلاوته ظاهراً، وفي حقيقة الأمر لم يُصغوا أسماعهم.

فإذا خرجوا قال بعضهم ـ لمن شاء من المؤمنين الذين علموا وانتفعوا: ماذا قال محمد [ﷺ] آنفاً؟

فمنهم: مَنْ يقول هذا استخفافاً. أي: ما معنى ما قال، وما نَفْعه، وما قَدْره؟ ومنهم: مَنْ كان يقول ذلك جَهالةً ونسياناً؛ لأنّه كان في وقت الكلام مُقبلاً على الدُّنيا، فكان القول يمرُّ عليه صفحاً[3].

وهذا من أعظم مظاهر هجر سماع الوحي؛ لأنهم حضروا بأبدانهم، وغابت قلوبهم وعقولهم، فهم يسمعون الأصوات فقط، دون أن يعوا مضمون القول. فهؤلاء هم المنافقون الذين ختم الله على قلوبهم؛ لعدم توجُّههم نحو الخير أصلاً.

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٤/ ٤٥٦)، تفسير القرطبي (١٨/ ٢٤٤).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٧١).
(٣) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١١٤).

المطلب الثاني

مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين

لا يقتصر هجر استماع القرآن على الكفَّار أو المنافقين بل يتعدّاه إلى فئات من المسلمين الذين تشبّهوا بهؤلاء بإعراضهم ـ في كثير من الأحايين ـ عن سماع القرآن العظيم، مع إيمانهم به، ونحن لا نقصد بعرضنا لمظاهر هجر استماع القرآن عند المسلمين ـ هنا ـ عقد مقارنة بينهم، وبين الكفَّار، أو الجمع بين الحدّ المشترك بينهما في هجر السَّماع، فشتَّان بين هجر الكفَّار، وبين هجر المسلمين للسّماع، فالمقصود: هو التّنبيه على هذا السُّلوك الغير لائق من المسلم في التّعامل مع القرآن، وأنّه بذلك قد يتشبّه بالكافرين، فهل يرضى لنفسه هذا الشَّبه؛ لعلّه يرتدع ويعود إلى رشده!

وهذا الإعراض يأخذ عدّة مظاهر: فربّما يكون بالتّشاغل بالغناء أو قنوات البثّ الفضائي عن سماع القرآن، وربَّما يكون بالصّياح والضُّوضاء في مجالس القرآن، أو يكون بالإعراض عن تفهُّم القرآن وتدبُّره حال سماعهم بأمور مباحة أو محرَّمة، وهذا ما ستتناوله بالتّفصيل والبيان، من خلال النّقاط الآتية:

١ ـ التّشاغل بالغناء عن استماع القرآن:

من أبرز المظاهر التي أدّت بكثير من المسلمين ـ إلّا منْ رحم الله ـ إلى هجر القرآن الكريم: استماع الغناء والموسيقى، ويلحق بذلك عكوف كثير من جمهور المسلمين أمام قنوات البثّ الفضائي لمشاهدة ما حرّم الله تعالى عليهم من ألوان الفسق والفجور، ولا أزيدُ في هذا المقام على كلام ابن القيم رحمه الله ـ الذي أجاد وأفاد بقلمه العذب السّيّال ـ وهو يصف لنا تأثير الغناء على النّاس، في صدّهم عن استماع القرآن العظيم، إذ يقول:

«ومن مكايد عدوّ الله ومصايده، التي كاد بها مَنْ قلّ نصيبه من العلم والعقل والدّين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المُكاء، والتّصدية، والغناء بالآلات المحرّمة، الذي يصُدُّ القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان. فهو قرآن الشّيطان، والحجاب الكثيف عن الرّحمن، وهو

رُقْية اللّواط والزّنا، وبه ينالُ العاشق من معشوقه غاية المنى. كاد به الشّيطان النُّفوس المبطلة، وحسّنه لها مكراً منه وغروراً، وأوحى إليها الشُّبَه الباطلة على حُسْنه فقبلتْ وحْيه واتّخذت لأجله القرآن مَهْجوراً.

فلو رأيتهم عند ذيّاك السّماع وقد خَشَعَتْ منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات. وعكفت قلوبهم بكلّيتها عليه. وانصبّت انصبابةً واحدةً إليه، فتمايلوا له ولا كتمايل النَّشوان، وتكسّرُوا في حركاتهم ورَقْصِهم، أرأيت تكسُّر المخانيث والنّسوان؟...

فيا رحمةً للسُّقوف والأرض من دَكِّ تلك الأقدام، ويا سوأتاه من أشباه الحمير والأنعام، ويا شماتة أعداء الإسلام بالَّذين يزعمون أنهم خواصُّ الإسلام، قضوا حياتهم لذّةً وطرباً، واتّخذوا دينهم لهواً ولعباً. مَزامير الشيطان أحبُّ إليهم من استماع سُور القرآن، ولو سمع أحدُهم القرآنَ من أوله إلى آخره لما حرّك له ساكناً، ولا أزعج له قاطناً، ولا أثار فيه وَجْداً، ولا قدح فيه من لواعِج الشّوق إلى الله زَنْداً، حتى إذا تُلِي عليه قرآنُ الشَّيطان، وولَجَ مَزْمورُه سَمْعَه، تفجرت يَنابيعُ الوَجْد من قلبه على عينيه فجرتْ، وعلى أقدامه فرقَصتْ، وعلى يديه فصفّقت، وعلى سائر أعضائه، فاهتزّت وطَرِبت، وعلى أنفاسِه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت.

فيا أيُّها الفاتن المفتون، والبائع حَظَّه من الله بنصيبه من الشّيطان صَفْقة خاسر مغبون، هلّا كانت هذه الأشجانُ، عند سماع القرآن؟»[1].

ويضيف ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ـ في موضع آخر ـ مبيّناً الفَرْقَ بين ذوق المتقدّمين من السّلف الصّالح، والمتمثّل في حبِّ استماع القرآن، وبين ذوق المتأخّرين، والمتمثّل في حبِّ سماع مزمار الشّيطان، قائلاً:

«والسّلف الصالح كانوا يجدون الأذواق الصحيحة المتصلةَ بالله في الأعمال الصّحيحة المشروعة، وفي قراءة كتاب الله وتدبُّره واستماعِه، وفي مُزاحمة العلماء بالرُّكب، وفي الجهاد في سبيل الله، وفي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر،

---

(١) إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيطان (١/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥).

وفي الحبِّ في الله، والبغض فيه، وتوابع ذلك. فصار ذوْقُ المتأخِّرينَ إلَّا مَنْ رحم الله في اليَرَاعِ[١] والدُّفِّ والمَوَاصِيلِ والأغاني المطرِبة، وفي الصُّوَر المستَحْسَنَةِ والرَّقص والزعقَاتِ، وتعطيل ما يُحبُّهُ الله ويرضاه من عبوديَّته المخالفة لهوى النُّفوس.

فشتَّان بين ذوق الألحان وذوق القرآن، وبين ذوق العُود والطُّنْبُورِ، وذوق «المؤمنين» و«النُّور»، وبين ذوق الزَّمْرِ وذوق «الزُّمَرِ»، وبين ذوق النَّاي وذوق «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ القَمَرُ»، وبين ذوق المواصيل والشَّبابات وذوق «يس» و«الصَّافَّاتِ»، وبين ذوق غناء الشِّعر، وذوق سورة «الشُّعراء»، وبين ذوق سماع المكاء والتَّصدية، وذوق «الأنبياء»، وبين الذَّوق على سماعٍ تُذْكَرُ فيه العُيُون السُّود والخُصور والقُدُود، وذوق سماع سورة «يونس» و«هود»، وبين ذوق الواقفين في طاعة الشَّيطان على أقدامِهم صَوَافَّ؛ وذوق الواقفين في خدمة الرَّحمن في سورة «الأنعام» و«الأعراف»، وبين ذوق الواجدين على طرب المثالث والمثاني، وذوق العارفين عند استماع «القرآن العظيم» و«السَّبع المثاني»، وبين ذوق أولي الأقدام الصَّافَّات في حظيرة سماع الشَّيطان، وذوق أصحاب الأقدام الصَّافَّات بين يدي الرَّحمن»[٢].

رحم اللهُ ابنَ القيم رحمةً واسعة، كيف لو رأى تطوُّر هذه المعازف القديمة إلى آلات حديثة، كالكمنجة، والقانون، والأورج، والبيانو، والغيثار، وغيرها، بل إنَّها في الطَّرب والنَّشوة والتَّأثير أشدُّ أثراً من المعازف القديمة التي ورد تحريمها في بعض الأحاديث.

وتتفاقم المصيبة ويعظم الجرم إذا عُرض الغناء اليوم بصورة فجَّة وفاضحة ومزرية في ما يُسمَّى بـ «الفيديو كليب»، فكيف لقلوب ترى وتسمع هذه الفضائح والمنكرات، أن تُقبل ـ بعد ذلك ـ على استماع القرآن العظيم؟!

---

(١) اليَرَاعُ: القَصَبة التي يُصفر بها الرَّاعي. انظر: لسان العرب (١٥/٤٤٣)، مادَّة: (يرع).

(٢) كشف الغطاء عن حُكم سماع الغناء، لابن القيم (ص١٠٧ ـ ١٠٨)، تحقيق: ربيع بن أحمد خلف.

٢ ـ سماع الطَّرب:

من مظاهر هجر استماع القرآن طَربُ السّماع إلى صوت القارئ والانفعال بجماله وعذوبته والاشتغال به عن تدبُّر آياته والانتفاع به، فلا يتّعِظون في مواضع العِظَة ولا ينتهون في مواضع النَّهي، بل الأشدُّ من ذلك تراهم ينفعلون برفع الأصوات بعباراتٍ من مثل: «الله»، «الله يفتح عليك»، «ياسلام»، «الله الله»، «زدنا يا سيدنا الشّيخ زدنا» والشّيخ يقرأ قوله تعالى: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢]، فماذا يريد من الزّيادة؟! وهذا السّماع بدعة محدثة، وصارفة عن فهم وتدبُّر القرآن العظيم والانتفاع بمواعظه.

جاء في (الفتاوى الهنديّة):

«رفع الصّوت عند سماع القرآن والوعظ مكروه، وما يفعله الذين يدّعون الوجْدَ[1] والمحبّة لا أصل له، وَيُمنع الصُّوفية من رفعِ الصَّوت وتخريقِ الثّياب»[2].

فأين نحن من سلفنا الصّالح؟ وهم القدوة، وقد اتّخذنا القرآن أغاني، فالقارئ يتفنّن في التّنغيم والتّلحين، ويخرج به عن سنن التّرتيل وقواعد التّجويد، ويعيد الآية عند استحسان السّامعين للنّغْمة وطلبهم الإعادة، والسّامع يستخِفُّه الطّرب، لا من معاني القرآن، بل من حسن التّوقيع، وأفانين الألحان، ولو أنَّ أعجمياً ـ لا يعرف القرآن ـ سمع هؤلاء لحسب أنّهم يردّدون ألحان المطربين لا كلام ربِّ العالمين.

وهذا النّوع من المستمعين عن آيات الله معرضون، لا يفقهون شيئاً ممّا يسمعون، ولا يُحدث سماع القرآن في قلوبهم من الأثر إلّا ما تُحْدثه أغنية أو لحن. بل ربّما تأثّروا بكلمات بعض الأغاني أكثر من تأثُّرهم بسماع القرآن.

فكيف يرجون ثواباً، ويقصدون التّعبُّد بالقراءة والسّماع، والأمر على ما وصفنا ـ حال سماعهم: من حركات طائشة، وكلمات مبتدعة، وصياح

---

(١) المقصود بالوَجْد: المحبّة والهوى. انظر: لسان العرب (٢١٨/١٥)، مادة: (وجد).
(٢) الفتاوى الهندية (٣١٩/٥).

وضوضاء، واستحسان للنّغمات، وإغراء بالمزيد منها، وطلب الإعادة للآية لحسن التّوقيع، وانتهاك لحرمة المساجد، وتجاوز في القراءة للحدود المرويّة عن أئمّة القُرّاء رحمهم الله تعالى.

فأين خشية الله، والخوف منه عند سماع آيات العذاب التي تنخلع من هولها القلوب؟ وأين الإنصات والخشوع والتّفكُر؟ وأين التّوبة والاستغفار من الذُّنوب عند استماع كلام ربّ العالمين؟[1].

٣ ـ التّشاغل عن استماع القرآن:

وهو حال كثير من المسلمين ـ إلا منْ رحم الله ـ حيث يستمعون إلى القرآن العظيم وقلوبهم مغلقة وآذانهم صمّاء، فلا يفقهون شيئاً ممّا يسمعون، ولا يُعيرونه اهتماماً؛ لأنّ المُعرض لا يسمع حقيقة، وإذا سمع لا يعي، أجسامهم حاضرة، وعقولهم وقلوبهم غائبة، يسمعون الأصوات دون أن يفهموا مضمون القول؛ لأنّ قلوبهم قد حُجبت عن استماع القرآن بأنواعٍ من المعاصي والآثام؛ من هوى، أو لَهوٍ محرم، أو انشغال بالدُّنيا على حساب الآخرة، ولهم نصيب من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

وتراهم يتحدّثون ويضحكون، وربّما تلفّظوا ببذيء الكلام والقرآن يتلى على مسامعهم، أو لعبوا النّرد أو الورق والقرآن يتلى، أو سبّ أحدُهم وفجر وشَتَمَ والقرآن يُتلى على مسامعه، وربّما كانوا على حالٍ تُعاكس حال الآية التي تتلى عليهم؛ فترى أحدهم يُلاحق امرأة بنظراته والقارئ يتلو: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. أو يسبُّ ويشتم والقارئ يتلو: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. أو يسيء لجاره ويؤذيه والقارئ يتلو: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء. ٣٦][2].

---

(١) انظر: القرآن: آداب تلاوته وسماعه، لحسنين محمد مخلوف (ص٢٤ ـ ٢٦)؛ فقه قراءة القرآن الكريم (ص٤٩).

(٢) انظر: أنوار القرآن (ص١٥٦).

وقد حذّر الله تعالى المؤمنين من الإعراض عن استماع القرآن؛ لئلا يكون حالهم ـ في هذا الإعراض ـ كحال الكفّار الذين أعرضوا عن سماع كلام الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠ ـ ٢١].

إنّ سماع القرآن ليس بالتّمني والتّحلي، والادّعاء بمجرد السماع، لكنّه ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال. فهؤلاء الكفّار ادّعوا السّماع، وهو ممّا حذّر الله منه المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ فدعواهم فارغة لا حقيقة لها؛ لأنهم سمعوا بآذانهم فقط دون قلوبهم، فأخبر الله تعالى أنهم لا يسمعون سماع تدبُّر واتّعاظ، ولذلك أنزلهم منزلة منْ لم يسمع أصلاً، بجعل سماعهم بمنزلة العدم. فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكون حالهم كحال هؤلاء في الإعراض عن استماع مواعظ القرآن وحُججه[١].

وهو ما أكدّ عليه القرطبيُّ رحمه الله بقوله: «فدلّت الآية على أن قول المؤمن: سمعتُ وأطعتُ، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله. فإذا قصّر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهي فاقتحمها، فأيُّ سمْع عنده وأيُّ طاعة! وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يُظهر الإيمان، ويُسِرُّ الكفر؛ وذلك هو المراد بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يعني بذلك المنافقين، أو اليهود، أو المشركين»[٢].

---

(١) انظر. تفسير القاسمي (٤/ ٢٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٧٠).

المبحث الثالث

آداب استماع القرآن

اداب استماع القرآن

أمْرُ اللهِ النَّبيين والمؤمنين بالاستماع:

ذكر الله تبارك وتعالى حال المؤمنين عند استماع آيات القرآن المجيد، بأنهم يُلقون إليها الأسماع في إصغاء وخشوع، وأدب وخضوع، وصمت وادّكار، وتفكُّر واعتبار، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقبل ذلك أمر الله تعالى النَّبيِّين بالاستماع للوحي عند تلاوته، ونهاهم عن الانشغال عن الاستماع لما يوحى بأيِّ شيء، ولو بتلاوة الوَحْي نفسه، قال تعالى لموسى ﷺ: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]. وكان النبيُّ ﷺ إذا قرأ عليه جبريل ﷺ القرآن تعجَّل بالقراءة خلفه خشية النِّسيان، فقال الله له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩]. وقال للمؤمنين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. **فقد جعل الله تعالى الاستماع والإنصات للتِّلاوة مناط الرَّحمة**؛ ليُعلم أنَّ اللَّغو عند قراءته والتَّصدية والمكاء، والجَلَبة والضَّوضاء من موانع الرَّحمة، وهو يتنافى مع آداب الاستماع الذي يُحبُّه الله تعالى ويرضى عنه، من سكون الجوارح، وغضِّ البصر، والإصغاء بالسَّمع، وحضور القلب، والعزم على العمل[1].

والاستماع الصَّحيح قد جعله سفيان الثَّوري[2] رَحِمَهُ اللهُ بداية العلم المؤدِّي إلى

---

(١) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص٩٩ ـ ١٠١).

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثَّوري، نسبةً إلى (ثور) أحد أجداده، ولد سنة (٩٧هـ)، وكان إماماً من أئمة المسلمين في العلم والفقه والحديث، ثقةً، حجّةً، ثبتاً، حتى قال عنه

العمل، فقال: «أوّلُ العلم الاستماع، ثمّ الإنصات، ثمّ الحفظ، ثمّ العمل، ثمّ النَّشْر»[(١)].

والقارئ والسّامع شريكان في فضل التّلاوة وآدابها، إلا أنّ القارئ لانشغاله بنطق الآيات ومخارج الحروف، وحرصه على النُّطق الصّحيح، وخوفه الخطأ، وخاصّة إذا كانت قراءته في جمع من النّاس، فله آدابه...

فالقارئ آلته اللّسان، واللّسان يُعبّر عمّا في القلب والعقل، ومعنى هذا أنّ قلبه يسبق لسانه، وأمّا المستمع فآلته الأذن التي تصبُّ في القلب والعقل، فأذنه تسبق قلبه، فلهذا الاعتبار له آدابه الخاصّة به.

وبشكل عامٍّ فإنَّ آداب الاستماع هي آداب التّلاوة مع بعض الفروق بينهما بسبب ظروف السّماع، واختلافها عن ظروف التّلاوة أحياناً.

وقد حصر أبو حامدٍ الغزاليُّ ﵀: الآداب الباطنة لقارئ القرآن، في عشرة آداب[(٢)]، وأسهب في سردها، فقمتُ باختصارها وتغيير سياقها إلى آداب الاستماع ـ باعتبار اشتراك السّامع والقارئ في القرآن، هذا بسماعه، وهذا بقراءته ـ وأضفتُ إلى ذلك شيئاً من كلام العلّامة ابن القيّم، وبعض أهل العلم، وخرجتُ هذه الآداب في حُلّة جديدة تتناسب وحال السّماع، وهي على النّحو التّالي[(٣)]:

= ابن معين وغيره: «أمير المؤمنين في الحديث»، توفّي بالبصرة سنة (١٦١هـ). انظر: الطّبقات الكبرى (٦/ ٣٧١ ـ ٣٧٤)؛ البداية والنّهاية (١٠/ ١٣٤).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٢٨٧). وانظر: سنن الدّارمي (١٠٧١) (رقم ٣٣٠) بلفظ آخر.

(٢) هي:
١ ـ فهم أصل الكلام. ٢ ـ التّعظيم. ٣ ـ حضور القلب.
٤ ـ التّدبُّر. ٥ ـ التّفهُّم. ٦ ـ التّخلّي عن موانع الفهم.
٧ ـ التّخصيص. ٨ ـ التّأثُّر. ٩ ـ التّرقّي.
١٠ ـ التّبرّي.
انظر: إحياء علوم الدّين (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨٨).

(٣) انظر: كيف نتأدّب مع المصحف، لمحمد رجب فرجاني (ص٢١٧ ـ ٢٢٨)؛ كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي (ص١٩٨ ـ ٢٠٨)؛ حقُّ التلاوة، حسني شيخ عثمان (ص٣٩٩ ـ ٤٠٠).

١ ـ تعظيم المتكلِّم:

ينبغي لسامع القرآن أنْ يُحضر في قلبه عظمة المتكلِّم، فهو ربُّ الأرباب، مالك كلِّ شيءٍ، قيُّوم السَّماوات والأرض، ويستحضر صفات الكمال والجمال والجلال في قلبه، وهو يستمع إلى كلام ربِّ العزَّة، ويعلم أنَّ ما يُتلى ليس من كلام البشر، وكما أنَّ ظاهر غلاف المصحف وورقه محفوظ عن ظاهر بشرة اللامس إلَّا إذا كان متطهِّراً، فكذلك معاني القرآن ـ بِحكم عزِّه وجَلالِه ـ محجوبة عن قلب الإنسان إلَّا إذا كان متطهِّراً من كلِّ رجس، ومستنيراً بنور التَّعظيم والتوقير.

وكما لا يصلحُ لِلمْسِ غلافِ المصحف كلُّ يدٍ، فلا يصلح لتلاوة حروفه كلُّ لسانٍ، ولا لنيل معانيه كلُّ قلبٍ، ولا لسماع آياته كلُّ أذن.

٢ ـ استشعار عظمة الكلام وعلوِّه:

بمعنى أن يستشعر عظمة القرآن، وأنَّ هذه العظمة هي من عظمة المتكلِّم به سبحانه، لذا فهو ليس كلام البشر، ولا يقاربه كلام أحد من البشر بوجه من الوجوه، وأنَّه يعلو ولا يُعلى عليه، وأنَّه محكم النَّظْم، دقيق المعنى، لا تعارض فيه، ولا اختلاف، والسَّعيدُ مَنْ وُفِّقَ إلى فهم واستشعار معانيه، وعلى مستمعه أن يتأمَّل في فضل الله تعالى ولطفه بخلقه، حيث خاطبهم بهذا الكلام العظيم الشَّريف، وتكفَّل ـ تفضُّلاً منه ورحمةً ـ بتيسير إفهامهم إيَّاه. ولولا ذلك لعجزت أفهام العباد عن إدراك كلام الله الذي تجلَّى في شكل كلماتٍ وحروفٍ منطوقة ومسموعة أو مكتوبة.

ولولا تثبيت الله عزَّ وجلَّ لموسى ﷺ لما أطاق سماع كلامه، كما لم يُطق الجبل تجلِّي ذي العرش فصار دكّاً، وغيره من البشر ـ سوى الأنبياء ـ من باب أولى.

٣ ـ حضور القلب عند السَّماع:

ومعنى حضور القلب: هو أن يكون القلب متأهِّباً في شوقٍ إلى تلقِّي ما تسمعه الأذن لا ينصرف عنه، فقد تكون الأذنُ سامعةً والقلبُ مشغولاً بهمومٍ أو

خواطر، ولذلك ينبغي على مستمع القرآن الكريم أن يطرد حديث النّفس أثناء استماعه، ويتولّد هذا من التّعظيم، فإنّ المعظّم لكلام الله يستبشر به، ويأنس له، ولا يغفل عنه.

٤ ـ تدبُّر المسموع:

وهو وراء حضور القلب مباشرة، فإنّه ربّما لا يتفكّر في غير القرآن، ولكنّه يقتصر على سماعه دون تدبُّر، والمقصود الأعظم من القراءة والسّماع هو التّدبر، والله تعالى ما أمر القارئ بالتّرتيل ظاهراً بقوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. إلّا ليحصل التدبُّر له، وللمستمع في الباطن، إذ لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا قراءة لا تدبُّر فيها.

أحوال النّاس في انتفاعهم بالقرآن:

ذكر ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حال النّاس عند سماعهم للقرآن العظيم وانتفاعهم به، مسترشداً ومهتدياً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. قائلاً: «النّاس ثلاثةٌ:

الأوّل: رجل قلبه ميِّت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست الآيةُ ذكرى في حقّه.

الثّاني: رجل له قلبٌ حيٌّ مستعدٌ، لكنّه غير مستمع للآيات المتلوّة... وقلبُه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا تحصل له الذّكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثّالث: رجلٌ حيُّ القلبِ مُستعدٌ، تُليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السّمعَ وأحضر قلبَه، ولم يَشْغَلْهُ بغير فَهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، مُلْقي السمعَ، فهذا القسْم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوّة.

فالأوّل: بمنزلة الأعمى الذي لا يُبصر.

والثّاني: بمنزلة البصير الطّامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثّالث: بمنزلة البصير الذي قد حدّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصرَه،

وقابله على توسُّطٍ من البُعد والقُرْب، فهذا هو الذي يراه»[1].

٥ ـ تفهُّم الآيات المسموعة:

فيتأمّل معانيَ أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله؛ ليستدلَّ بعظمة الفعل على عظمة الفاعل، ويتأسّى بأحوال الأنبياء والصِّدّيقين والأولياء والصَّالحين والمتَّقين، ويعتبر بأحوال الكافرين والمكذِّبين والظّالمين والمنافقين والمتكبِّرين.

وبالجملة فإنَّ القرآن يشتمل على ما تحتاج إليه البشرية في الدُّنيا، وما ينتظرها في الآخرة، ففيه العقيدة، والتشريع، والسُّلوك، فعلى المستمع ـ عندما يستمع شيئاً ممّا ذُكر ـ أن يتمثَّله في قلبه، ويتخيّله في نفسه، ويتصوّره في عقله، حتى يتأثَّر به في كلِّ حال.

«فإذا حصل المؤثِّر، وهو القرآن؛ والمحلُّ القابل، وهو القلب الحيُّ؛ ووُجد الشَّرط، وهو الإصغاء؛ وانتفى المانع، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر ـ حصل الأثر، وهو الانتفاع والتّذكُّر»[2].

٦ ـ التَّخلِّي عن موانع الفهم:

إنّ أكثر النّاس مُنعوا من فهم معاني القرآن المجيد لأسباب وحُجب أسدلها الشَّيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن.

موانع فَهْم القرآن:

هناك موانع وحُجب كثيرة تحول دون فهم السامع لكلام الله تعالى، وقد تحدَّث الغزاليُّ عن أهمِّها، وحصرها في أربعة أمور[3]، وهي على النَّحو التّالي:

أوّلا: أن تكون الهمَّة منصرفةً إلى تحقيق الحروف، وهو أن يستمع السّامع وهمّته منصرفة إلى تتبُّع القارئ، كيف يُخرج الحروف من مخارجها، يتربّص به وينتظر منه الخطأ ليشنِّع عليه، وذلك دون الالتفات إلى معاني الكلمات، وهذه

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٧٥). (٢) الفوائد (ص١٦).

(٣) انظر: إحياء علوم الدّين (١/ ٢٨٤).

وسوسة من الشّيطان الرّجيم؛ ليصرف النّاس عن تفهُّم معاني الآيات والكلمات.

ثانياً: أن يكون مقلِّداً لمذهب سمعه بالتّقليد، وجَمَد عليه، وثبت في نفسه التّعصُّب له بمجرد الاتّباع للمسموع، من غير وصولٍ إليه ببصيرة ومشاهدة.

كحال الفرَق التي ضلّت في جانب العقيدة، وأوّلت الأسماء والصّفات إمّا بالتّمثيل، أو التّعطيل، أو غير ذلك.

ثالثاً: أن يكون مُصرّاً على ذنب، أو متّصفاً بكبْر، أو مبتلى ـ في الجملة ـ بهوى في الدُّنيا مطاع، فإنّ ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالصّدأ على المرآة يمنع انعكاس المرئيّات عليها، وذلك يمنع الحقّ من أن يتجلّى في القلب، وهو أعظم وأخطر حجاب.

رابعاً: أن يعتقد حصر معاني آيات القرآن العظيم فيما تلقّنه من تفسير.

٧ ـ أنْ يُقَدِّر ـ في نفسه ـ أنَّه المقصود بكلِّ آية سَمِعَها:

فإن سمع أمراً أو نهياً فليستشعر أنه المقصود بذلك الأمر أو النّهي، وإن سمع وعداً أو وعيداً قدّر كذلك أنه الموعود أو المتوعّد، وإن سمع قصص الأوّلين قدّر أنه المقصود بسياق العبر والعظات وحسن الأخلاق التي بها، فَيُقوِّم نفسَه على هداها.

وقد أكّد ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا المعنى بقوله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن: فاجْمعْ قلبك عند تلاوته وسماعه، وألْقِ سمعك، واحضر حضور مَنْ يخاطبه به مَنْ تكلّم به سبحانه منه إليه، فإنّه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ»[1].

٨ ـ التّأثُّر بالآيات المسموعة:

وهو أن يتأثّر قلبه بآثار مختلفة باختلاف الآيات، فيكون له ـ بحسب كلِّ فهم ـ حالة من الحزن والخوف والأمل والرّجاء والاستبشار.

فعلى سبيل المثال: يرتعد خوفاً عند الوعيد وذكر النّار، ويستبشر فرحاً عند

---

(١) المصدر السابق (ص١٥).

الوَعْد وذكر الجنَّة، ويُطأطئ رأسه خضوعاً عند ذكر الله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ويَخْفضُ صوته وينكسر في باطنه حياءً من قبح مقالة الكفّار ما يستحيل على الله عزّ وجلّ، كذكرهم لله تعالى ولداً وصاحبةً، وغير ذلك من الأمور الدّالة على عدم تعظيمهم لله تعالى، وقلّة أدبهم في دعاويهم.

٩ ـ التَّرقِّي في استماع القرآن:

والمقصود بذلك: أن يترقّى إلى أن يسمع الكلام من الله تبارك وتعالى، لا من نفسه إن كان قارئاً، ولا من غيره إن كان سامعاً.

درجات القراءة والسَّماع ثلاث:

أدناها: أن يقدِّر العبد كأنّه يسمعه من الله تعالى، واقفاً بين يديه؛ والله ناظر إليه ويسمع منه، فيكون حاله حينئذٍ هو: التّملُّق والتّضرُّع والابتهال.

الثّانية: أن يشهد بقلبه كأنَّ الله عزّ وجلّ يراه ويخاطبه بألطافه، ويناجيه بإنعامه، فحاله هنا: الحياء والتّعظيم، والإصغاء والفهم.

الثّالثة: أن يرى في الكلام المتكلِّم، وفي الكلمات الصّفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى سماعه، ولا إلى تعلُّق الإنعام به، من حيث إنه مُنْعم عليه، بل يكون مقصور الهمّ على المتكلِّم، موقوف الفكر عليه، كأنّه مستغرق بمشاهدة المتكلِّم عن غيره. وهذه درجة المقرّبين، وما قبلها درجة أصحاب اليمين، وما خرج عن ذلك فهي درجات الغافلين.

وعن الدّرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصّادق[1] رحمه الله فقال: «والله لقد تجلّى اللهُ عزّ وجلّ لخلقه في كلامه، ولكنّهم لا يُبصرون»[2].

ففي مثل هذه الدّرجة تعظم الحلاوة ولذّةُ المناجاة. ولذلك قال بعض

---

(١) هو أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، الشّهير بجعفر الصّادق؛ لصدقه في مقالته. ولد سنة (٨٠هـ). فضله أشهر من أن يُذكر، وهو من الأئمّة الثّقات الفقهاء المشاهير، أخرج له البخاريُّ ومسلمٌ وسائر أصحاب السُّنن، توفّي سنة (١٤٨هـ) ودفن بالبقيع.
انظر: تقريب التّهذيب (١/ ١٣٢)؛ وفيّات الأعيان (١/ ٣٢٧).

(٢) إحياء علوم الدّين (١/ ٢٨٧). وانظر: فيض القدير (٦/ ٢٨٥).

الحكماء: «كنتُ أقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، حتّى تلوته كأنّي أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثمّ رُفعت إلى مقام فوقه، كنت أتلوه كأنّي أسمعه من جبريل عليه السلام يُلقيه على رسول الله ﷺ، ثمّ جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلِّم به، فعندها وجدتُ له لذّةً ونعيماً لا أصبر عنه»(١).

١٠ ـ التّبرُّؤ من الحَوْل والقوّة حال السّماع:

إذ لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، فيتحاشى النّظر إلى نفسه بعين الرِّضا والتّزكية، فإذا سمع آيات الوعد والمدح للصّالحين، فلا يشهد لنفسه بالصّلاح، بل يتشوّق إلى أنْ يُلحقه الله عزّ وجلّ بهم، وإذا سمع آيات المقت وذمّ العصاة والمقصّرين شهد على نفسه، وقدّر أنّه المخاطب خوفاً وإشفاقاً. قيل ليوسف بن أسباط(٢) رحمه الله: «إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ فقال: بماذا أدعو!! استغفر الله عزّ وجلّ من تقصيري سبعين مرّة»(٣).

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٨٨).

(٢) هو يوسف بن أسباط بن واصل الشّيباني الكوفي (أبو محمد)، الزّاهد الصّالح، له مواعظ وحكم، نزل قريةً يُقال لها: سيلحين، بين أنطاكية وحلب، قال يحيى بن معين: ثقة. وقال العجليُّ: صاحب سُنّة وخير. وقال الخطيب البغداديُّ: كان صالحاً عابداً إلّا أنّه يغلط في الحديث كثيراً. وقال البخاريُّ: كان قد دفن كتبه فصار لا يجيء بحديثه كما ينبغي. كان من عُبّاد أهل الشّام وقرّائهم، توفّي سنة (١٩٥هـ).
انظر: تهذيب التّهذيب (١١/ ٣٥٨)؛ الوافي بالوفيّات، للصفدي (٢٩/ ٤٥).

(٣) إحياء علوم الدِّين (١/ ٢٨٨).

المبحث الرَّابع

فضائل استماع القرآن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: استماع القرآن سبب لرحمة الله.

المطلب الثاني: استماع القرآن سبب لهداية الثَّقَلين.

المطلب الثالث: استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين.

فضائل استماع القرآن

القرآن مُتعبَّد بسماعه:

إذا كان القرآن العظيم يُتعبَّد بتلاوته؛ لأنه كتابٌ مبارك، فإنَّ من بركته أنَّه مصدر للخير العَميم، فهو أيضاً يُتعبَّد بسماعه.

وكان رسول الله ﷺ يُحبُّ أن يَسمع القرآن من غيره، وأمر عبدَ الله بن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه القرآن وهو يستمع له، فخشع لسماع القرآن منه، حتى ذرفت عيناه الشّريفتان ﷺ كما سيأتي معنا لاحقاً.

وطَلَبُ استماع القراءة من القارئ حَسَنِ الصَّوت الذي يجيد التِّلاوة أمر متَّفق على استحبابه، وهو عادة الأخيار، والصالحين من سلف هذه الأمّة، فللتِّلاوة المتقَنة أكبر الأثر في فهم معاني القرآن، وزيادة الإيمان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

«ووجه ذلك: أنهم يُلقون له السَّمع، ويُحضرون قلوبَهم لتدبره فعند ذلك، يزيد إيمانهم»[١]. فهؤلاء المؤمنون عند استماعهم لآيات القرآن العظيم يُلقون إليها الأسماع في إصغاء وخشوع، وأدب وخضوع، وتفكُّر واعتبار.

وأمَّا الكافر بخلاف المؤمن، فإنَّه إذا سمع كلام الله تعالى لا يتأثَّر به، ولا يتغيَّر حالُه، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله إلَّا مَنْ أراد له الله تعالى السَّعادة في الدُّنيا والآخرة واستجاب للقرآن وقليلٌ ما هم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ

(١) تفسير السعدي (٢/ ١٨٨).

﴿رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥][(١)].

ولا بد من التّقيُّد بهدي رسول الله ﷺ عند الاستماع من الإنصات، والاستجابة له ثم التّدبُّر الذي يزيل الغشاوة، ويحرّك القلوب للعمل.

وفضائل استماع القرآن العظيم كثيرة ومتنوّعة، سيكون الحديث عن أهمّها من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

استماع القرآن سبب لرحمة الله

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

لقد أمر الله سبحانه عباده بالاستماع للقرآن والإنصات له لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح وليتوصّلوا بذلك إلى رحمة الله تعالى.

«قال اللّيث: يقال: ما الرَّحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن؛ لقول الله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. و«(لَعَلَّ) ـ من الله ـ واجبة»[(٢)].

أي: لعلّكم تنالون الرّحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله تعالى.

«والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظّاهر، بترك التّحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه. وأما الاستماع له، فهو أن يُلقي سمعَه، ويُحضر قلبه، ويتدبر ما يسمع.

فإنّ منْ لَازمَ على هذين الأمرين، حين يُتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً، وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدّداً، وهدى متزايداً، وبصيرة في دينه. ولهذا رتّب الله حصول الرحمة عليهما.

فدلّ ذلك، على أن مَنْ تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يسْمع له ولم يُنصِت، أنه محروم الحظّ من الرحمة، قد فاته خير كثير»[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٤٣).
(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٣).
(٣) تفسير السعدي (٢/ ١٨٥).

وليس هناك سبب نزول يُخَصِّصُ الآيةَ بالصَّلاة المكتوبة وغير المكتوبة، ذلك أن العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب. والأقرب أن يكون ذلك عاماً لا يُخَصِّصه شيء، فالاستماع إلى هذا القرآن والإنصات له هو الأليق بكتاب الله العظيم، وبجلال قائله سبحانه.

وحَيْثُما قُرِئ القرآن، واستمعتْ له النفس وأنصتت، كان ذلك أرجى لأن تعي وتتأثَّر وتستجيب؛ فكان ذلك أرجى أن تُرْحَمَ في الدُّنيا والآخرة جميعاً[١].

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أن الاجتماع للقرآن وتدارسه واستماعه له فوائد عظيمة وجليلة، منها حصولهم على رحمة الله تعالى، في قوله ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْت مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُم، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُم الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُم المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُم الله فِيمَنْ عِنْدَهُ»[٢].

المطلب الثاني

استماع القرآن سبب لهداية الثَّقَلين

لقد بَيَّنَ الله تعالى أن القرآن العظيم مصدر الهداية في الدُّنيا والآخرة، ومَنْ تمسَّك به تلاوةً واستماعاً وتدبراً وعملاً فلن يضلَّ ولن يشقى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

واستماع القرآن خاصَّة من الأعمال الصَّالحة الجليلة التي بَشَّرَ القرآنُ أصحابَها بالهداية، وَوَصَفهم بأنهم أصحاب عقول سليمة وراشدة، في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨].

هذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتَّبعون أحسن الأقوال، و﴿ٱلْقَوْلَ﴾ في الآية

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٤٢٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر (٤/ ٢٠٧٤) (ح٢٦٩٩).

جنس، يشمل كلّ قول، فهم يستمعون جنس القول، ليميزوا بين ما ينبغي إيثاره، مما ينبغي اجتنابه.

ولا شكّ أنّ أحسن القول على الإطلاق هو كلام الله تعالى، ثم كلام رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]. وأحسن الكتب المنزّلة من كلام الله تعالى هذا القرآن العظيم.

وهنا فائدة مهمة وهي: أنه تعالى لمّا أخبر عن هؤلاء الممدوحين، أنهم يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، كأنّ سائلاً يسأل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه، حتى نتّصِف بصفات أُولي الألباب، وحتى نعرف أنّ منْ آثرهُ على غيره فهو منْ أولي الألباب؟

قيل له: نعم، أحْسنُه ما نصّ اللهُ تعالى عليه بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ...﴾ الآية.

فهؤلاء الذين يستمعون القرآن العظيم ويتّبعونه هم الذين هداهم الله تعالى لأحسن الأخلاق والأعمال الظّاهرة والباطنة، وهؤلاء هم أُولوا العقول الزّكية. وَمِنْ لُبِّهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن وغيره، وآثروا ما ينبغي إيثاره على ما سواه.

وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يُميز بين حسن الأقوال وقبيحِها، ليس من أهل العقول الصّحيحة. أو الذي يُميز، لكن غلبت شهوتُه عقْله، فبقى عقلُه تابعاً لها، فلم يؤثر الأحسن، كان ناقصَ العقل[1].

والقرآن الكريم بوصفه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يحمل مقوّمات الهداية الذّاتيّة، والتي إذا تجرّد المستمع إليه من شوائب النّفس وعبادة الهوى، تمكّنت الهداية من قلب مستمعه.

ولذلك جعل الله تعالى سماع القرآن العظيم من أسباب هداية الكفّار ودخولهم في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

---

(١) انظر تفسير السعدي (٤/ ٣١٥).

وأثر استماع القرآن من الهداية غير مقتصر على الإنس فقط، بل يتعدّاهم إلى الجنّ أيضاً. فقد جعل الله تعالى استماع القرآن سبباً لهداية الجنّ ودخولهم في الإسلام، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

فهؤلاء نفر من الجنّ أراد الله تعالى لهم الخير فصرفهم إلى رسوله ﷺ، لسماع القرآن الكريم، ولتقوم عليهم الحجّة، وتتمّ عليهم النّعمة، ويكونوا منذرين لقومهم. وذلك: أنهم لَمَّا حضروه قالوا: أنصتوا. فلما أنصتوا، فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، ثم وَلّوا إلى قومهم منذرين ومبشرين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٠].

والنّاس يخسرون الخسارة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن العظيم، وإنّ الآيةَ الواحدة لتصنع أحياناً في النفس ـ حين تسمع لها وتُنصت ـ أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والطُّمأنينة والرّاحة، والنُّقلة البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة، مما لا يدركه إلّا مَنْ ذاقه وعَرَفه[1].

وتأمّلْ معي هذه اللّفتة الجميلة في قول الجنّ: ﴿أَنصِتُوا۟﴾ وما توحي به من أهميّة الإنصات حال السّماع للقرآن، وأنّ الإنصات سببٌ في انفتاح القلب للمعاني القرآنيّة، فيكون الإنصات هو الخطوة الأولى في طريق الهداية، ولو أنَّ كفّار قريش وغيرهم أنصتوا كما أنصت الجنُّ إلى القرآن لاهتدوا إلى الحقّ، ولكنّهم رفضوا الإنصات ابتداءً، فامتنعت عنهم الهداية، وإلّا، فكلام الله، قطعيُّ الدّلالة على أنّ كلّ مَن استمع إليه وأنصت تحقّقت له الهداية، بصريح قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فليت شعري، هل من منصتٍ إلى كلام الله؛ لتحقّق له الهداية!

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٤٢٦).

المطلب الثالث

استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين

المؤمنون عند تلاوتهم لكتاب الله تعالى أو استماعهم له تخشع قلوبهم وتذرف عيونهم، ويُقبلون على ربِّهم راغبين راهبين، ومن ذنوبهم مستغفرين، وفي رضاه طامعين، ومن غضبه وعقابه وَجِلين.

ذلك كان شأن الصَّحابة ﷺ عند استماعهم وتلاوتهم للقرآن العظيم وقدوتهم في ذلك نبيِّنا محمد ﷺ إمام الخاشعين الذي قال عنه ابن مسعود ﷺ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ» قالَ: قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنزِلَ؟ قالَ: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». قَالَ: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. قالَ لِي: «كُفَّ، أَوْ أَمْسِكْ» فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ[١].

وعند مُسلمٍ: قال ابنُ مسعود ﷺ: رَفَعْتُ رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ. وفي رواية: فَبَكَى[٢].

«قال ابن بطَّال: يحتمل أنْ يكون أَحَبَّ أَنْ يَسْمَعَه من غيره ليكون عَرْضُ القرآن سُنَّةً، ويحتمل أن يكون لكي يتدبَّره ويتفهَّمه، وذلك أن المستمع أقوى على التدبُّر، ونَفْسه أخلى وأنشط لذلك من القارئ؛ لاشتغاله بالقراءة وأحكامها»[٣].

ومن الفوائد التي ذكرها النَّووي ﷺ عند شرحه لهذا الحديث: «استحبابُ استماعِ القراءةِ، والإصغاءِ لها، والبكاءِ عندها، وتدبُّرِها، واستحبابُ طلبِ القراءةِ من غيرِه لِيستَمِعَ له، وهو أبلغُ في التفهُّم، والتدبُّر من قراءته بِنَفْسِه، وفيه تواضع أهل العلم والفضل ولو مع أتباعهم»[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: البكاء عند قراءة القرآن (٣/ ١٦٢٧) (ح٥٠٥٥)، وباب: منْ أحبَّ أنْ يستمع القرآن منْ غيره (٣/ ١٦٢٥) (ح٥٠٤٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل استماع القرآن وطلب القراءة منْ حافظ للاستماع، والبكاء عند القراءة والتدبر (١/ ٥٥١) (ح٨٠٠).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ١١٧).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٣٢٩).

وهذه هي سنّة الأنبياء وطريقتهم جميعاً ـ عليهم السّلام ـ عند استماعهم لكلام الله تعالى وآياته تفيض أعينهم بالدُّموع، وتخضع وتخشع قلوبهم وتتأثّر من كلام الرّحمن جلّ جلاله، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩﴾ [مريم: ٥٨].

فهؤلاء الأنبياء العظماء من أبرز صفاتهم أنهم إذا سمعوا آيات الله تعالى تتلى عليهم تأثروا تأثراً عظيماً، يحصل لهم منه البكاء والسُّجود، وقشعريرة الجلود، ولين القلوب والجلود كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣]. ﴿وَبُكِيّٗا﴾ جمعُ باكٍ(١).

عن أبي معْمرٍ قال: «قرأ عُمرُ بنُ الخطاب ﷺ سورة مريم، فسجدَ، وقال: هذا السُّجودُ، فأين البُكيُّ؟ يريد البكاء»(٢).

فهؤلاء الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ وَمَنْ معهم بمَنْ هدى الله تعالى واجتبى من الصّالحين من ذريّتهم، صفتهم البارزة إذا استمعوا لآيات الرّحمن تتلى عليهم ﴿خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ لأنهم أتقياء أصحاب قلوب حيّة، ترتعش قلوبهم لذلك، فلا تسعفهم الكلمات للتّعبير عمّا يُخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض أعينهم بالدُّموع ويخرُّون لعظمة الله وكلامه سُجّداً وبكيّاً(٣).

وهذه هي صفة أهل العلم كذلك، أنهم إذا استمعوا لكلام الله تعالى تأثّروا فبكوا وزادهم ذلك خشوعاً وعلماً ويقيناً، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

قال القرطبي رحمه الله: «هذه مبالغةٌ في صفتهم ومدْحٌ لهم وَحُقَّ لكلِّ مَنْ تَوَسَّمَ

---

(١) انظر: أضواء البيان (٤/ ٣٣٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٧٣ ـ ٧٤)، وأورده السيوطي في «الدُّر المنثور» (٤/ ٢٧٧)، ونسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن جرير، والبيهقي في «الشعب»، عن عمر ﷺ.

(٣) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٣١٤).

بالعلم وحصَّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذِل. وفي مسند الدّارمي أبي محمد[١] عن التّيميّ قال: منْ أوتي من العلم ما لم يُبْكِهِ لخليقٌ ألّا يكون أوتي علماً [ينفعه]؛ لأن الله تعالى نَعت العلماء، ثم تلا هذه الآية[٢]. ذكره الطّبري رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً[٣].

والأذقان جمع ذَقْن، وهو مجتمع اللّحْيين. وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: الأذقان عبارة عن اللّحى، أي يضعونها على الأرض في حال السُّجود، وهو غاية التّواضع»[٤].

(١) هو عبد الله بن عبد الرّحمن بن الفضل بن بهرام السّمرقندي، الدّارمي، الحافظ، محدّث، حافظ، مفسّر، فقيه، طوّف الأقاليم، ولد سنة (١٨١هـ)، ومن تصانيفه: «سنن الدّارمي»، و«الثّلاثيّات»، توفّي سنة (٢٥٥هـ).
انظر: تذكرة الحفّاظ (٢/ ١٠٥)؛ تهذيب التّهذيب (٥/ ٢٩٤).

(٢) رواه الدّارمي في «سننه»، كتاب المقدّمة، باب منْ قال: العلمُ الخشيةُ وتقوى الله (١/ ٨٥) (رقم ٢٩١).

(٣) انظر: جامع البيان (١٥/ ١٢١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨). وانظر: تفسير البيضاوي (٣/ ٤٧١)؛ تفسير ابن كثير (٥/ ١٣٤).

المبحث الخامس

حُكم الاستماعِ للقرآن وحُكم الإعراضِ عنه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حُكم الاستماع للقرآن.

المطلب الثاني: حُكم الإعراض عن استماع القرآن.

المطلب الاول

حُكم الاستماع للقرآن

الأصل أنَّ الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم ـ حين يقرأ ـ واجب، إن لم يكن هناك عذر مشروع لترك الاستماع، وهو قول عامّة المفسرين ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

قال أبو حيّان الأندلسي رحمه الله في معنى الآية: «أمر باستماعه إذا شُرِع في قراءته، وبالإنصات، وهو السُّكوت مع الإصغاء إليه؛ لأنَّ ما اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرّحمة حريٌّ بأن يُصغى إليه، حتّى يحصل منه للمنصت هذه النّتائج العظيمة، وينتفع بها، فيستبصر من العمى، ويهتدي من الضّلال، ويرحم بها»[١].

(مسألة): اختلف أهل التّأويل في الحال التي يجب على السّامع استماعُ القرآن والإنصاتُ له إلى عدّة أقوال، أوصلها ابن الجوزي رحمه الله إلى خمسة أقوال[٢]، وأشهرها قولان:

القول الأوّل: إنَّ ظاهر الآية يقتضي وجوب الاستماع والإنصات ـ عند قراءة القرآن ـ في الصّلاة وغيرها. وهو الرّاجح إنْ شاء الله تعالى.

قالوا: صحيحٌ أنّ الآية نزلت لنسخ جواز الكلام أثناء الصّلاة، إلّا أنّ العبرة لعموم اللّفظ لا لخصوص السّبب، ولفظُها يعمُّ قراءة القرآن في الصّلاة وغيرها، وهو قول أكثر أعلام المفسّرين.

وممّن ذهب إلى ذلك: القرطبيُّ[٣]، والشوكانيُّ[٤]، وأبو السُّعود[٥]، والثّعالبي[٦]،

(١) البحر المحيط (٤/ ٤٥٢). (٢) انظر: زاد المسير (٣/ ٢٣٨).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٥٣).

(٤) انظر: فتح القدير (٢/ ٢٨٠).

(٥) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (٣/ ٣١٠).

(٦) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٧٨).

وابن جزي الكلبي[(١)(٢)]، والسعدي[(٣)]، رحمهم الله تعالى.

ونقل أبو حيّان ـ في تفسيره ـ عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ قوله: «هي على عمومها، ففي أيِّ موضعٍ قُرئ القرآن، وجب على كلِّ حاضر استماعه، والسُّكوت عنده»[(٤)].

ثمّ قال أبو حيّان رَحِمَهُ اللهُ: «والظّاهر استدعاء الاستماع والإنصات إذا أخذ في قراءة القرآن، ومتى قُرئ»[(٥)].

القول الثّاني: إنَّ المراد من ذلك الإنصات في الصَّلاة، وفي الخُطبة. وهو اختيار الإمام ابن جرير الطّبري[(٦)]، وتبعه في ذلك الحافظ ابن كثير[(٧)] رحمهما الله تعالى؛ لوجود الأدلّة على وجوب الإنصات والاستماع لقراءة القرآن في هذين الموضعين، وعدم وجوبه في غيرهما.

الردُّ على القول الثاني:

ردُّ الشّوكاني رَحِمَهُ اللهُ على مَنْ خصَّ الإنصات في الصَّلاة دون غيرها بقوله: «قيل: هذا الأمر خاصٌّ بوقت الصّلاة عند قراءة الإمام، ولا يخفاك أنّ اللّفظ أوسع من هذا، والعامُّ لا يُقْصر على سببه، فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كلِّ حالةٍ، وعلى أيِّ صفةٍ ممّا يجب على السّامع»[(٨)].

وردَّ الثّعالبي رَحِمَهُ اللهُ ـ كذلك ـ على مَنْ قَصَر الإنصات على حالة الخُطبة دون غيرها بقوله: «وأمّا قول منْ قال: إنّها في الخُطبة ـ فضعيفٌ؛ لأنّ الآية مكّيّة،

(١) هو محمد بن أحمد بن جُزيّ الكلبي المالكي (أبو القاسم) من أهل غرناطة، ولد سنة (٦٩٣هـ) عكف على العلم واشتغل بالنّظر والتّدوين، كان فقيهاً حافظاً. نبغ في الأصول والقراءات، والحديث، والتّفسير، والأدب. ألّف الكثير في شتّى الفنون، توفّي وهو يُمرِّض النّاس يوم معركة طريف سنة (٧٤١هـ). من مؤلفاته: «تقريب الوصول إلى علم الأصول»، و«وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم»، و«أصول القرّاء السّتة غير الإمام نافع» انظر: طبقات المفسّرين (٢/ ٨٥).

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٥٩).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٣١٤).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٤٥٢).

(٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٦) انظر: جامع البيان (٩/ ١٦٢).

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٨١).

(٨) فتح القدير (٢/ ٢٩٦).

والخُطبة لم تكن إلّا بعد الهجرة، وألفاظ الآية ـ على الجملة ـ تتضمّن تعظيم القرآن وتوقيره، وذلك واجبٌ في كلِّ حالةٍ»[١].

(مسألة): هل وجوب الإنصات للقرآن مُطلق أم مُقيَّد؟

قد يؤدِّي حَمْلُ هذه الآية على ظاهرها والقولُ بالوجوب إلى حرج، فقد يُقرأ القرآن بمحضر صانعٍ في صنعته، أو مُدرِّس في المدرسة، أو الجامعة أو نحوها، فلو وجب عليه الاستماع وجوباً مطلقاً لوقع النّاس في الحرج. وخاصّةً ما نراه في بعض الأحيان من قراءة القرآن في المساجد، وفي الشّوارع، وعند بائعي أشرطة التّسجيل. ثم قد يقرأ قارئ في الصّلاة جهراً فهل يجب على النّاس الاستماع له؟

وربّما وقعت التّلاوة بصوت مرتفع في أماكن الاشتغال، ويكون السّامع في حالة اشتغال، كالأسواق التي بُنيت لتعاطي أسباب الرّزق، والبيوت في حالة انشغال أهل البيت في الكنس والطّبخ والتّنظيف وغير ذلك.

ومن الخطأ رفع قراءة القرآن في المآذن ـ خارج الصّلاة ـ كما يُفعل في بعض البلاد الإسلامية، وقد يوجد قرب المسجد المرضى والمشغولون، والنّائمون.

وهكذا نجد صوراً كثيرة يُقرأ فيها القرآن جهراً، ولا يمكن الجمع بين استماع القرآن وأداء المصالح الأخرى ـ التي تقدّمت ـ في آنٍ واحدٍ، فلم يجعل الله قلبين في جوف البشر. **لذلك فالآية ليست على عمومها الظّاهر مطلقاً**[٢].

وهذا ما أشار إليه ابن عاشور رحمه الله بقوله: «وقد اتّفق علماء الأمّة على أنّ ظاهر الآية بمجرّده في صور كثيرة مؤوّل، فلا يقول أحد منهم بأنّه يجب على كلّ مسلم إذا سمع أحداً يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع ويُنصت، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعته، فلو وجب عليه الاستماع لأُمر بترك عمله،

---

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٧٨).

(٢) انظر: الأحكام الشرعية لقراءة القرآن الكريم، د. محمود أحمد الأطرش (ص٦٣)؛ كيف نتوجّه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها، د. نور الدين عتر (ص٧٧).

ولكنّهم اختلفوا في محمل تأويلها: فمنهم مَنْ خصَّها بسببٍ رأوا أنه سببُ نزولها، . . .

ومنهم مَنْ أبقى أمْر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم، ولكنَّهم تأوّلوه على أمر النّدب، وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكيّة»[١].

وأمّا فقهاء الحنفيّة فقد اختلفوا في وجوب الإنصات: هل هو وجوبٌ عيني، أو وجوب كفائي؟ فقد جاء في حاشية ابن عابدين[٢]: «الأصل أنَّ الاستماع للقرآن فرض كفاية؛ لأنه لإقامة حقّه، بأن يكون مُلْتَفتاً إليه غير مُضيِّع، وذلك يحصل بإنصات البعض، كما في ردّ السّلام، حين كان لرعاية حقِّ المسلم، كفى فيه البعض عن الكلّ. . .

ونقل الحموي عن أستاذه قاضي القضاة يحيى، الشّهير بمنقاري زاده: أنَّ له رسالةً حقّق فيها، أنَّ سماع القرآن فرض عين»[٣].

وبناءً على ما تقدَّم: يُمكن الجمع بين الأقوال في مسألة الإنصات للقرآن، بأن يُقال: الاستماع والإنصات للقرآن الكريم يدور حُكمه بحسب المقام الذي يُقرأ فيه.

فإنْ كان في الصّلاة، أو كان المقام ـ الذي يقرأ فيه ـ مقام قراءة للقرآن، كأن تنتفي عن السّامع موانع الإنصات ـ المعتبرة شرعاً ـ فيجب عليه الاستماع والإنصات.

أمّا ما عدا ذلك من الأحوال المختلفة، التي يتنقّل بينها المسلم من عمل، أو حديث أهل، أو جلوس على طعام، أو تدارس للفقه أو العلم في المساجد والمدارس والجامعات، أو ما أشبه ذلك. فالاستماع والإنصات يُستحب ولا

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٤١١).

(٢) هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن عابدين الدمشقي، فقيه الدّيار الشّامية، وإمام الحنفيّة في عصره، ولد سنة (١١٩٨هـ). ومن مصنّفاته: «ردّ المحتار على الدّرّ المختار» المعروف بحاشية ابن عابدين، و«عقود اللآلي في أسانيد العوالي»، و«الرّحيق المختوم في الفرائض». توفّي بدمشق سنة (١٢٥٢هـ).
انظر: معجم المؤلّفين (٣/ ١٤٥)؛ الأعلام (٦/ ٤٢).

(٣) حاشية ابن عابدين (١/ ٥٤٦).

يجب. ويُعذر المستمع ـ والحالة هذه ـ بترك الاستماع لتلاوة القرآن الكريم، ولا يكون آثماً بذلك.

وإنّما سقط إثم ترك الاستماع للقرآن في حالات الاشتغال دفعاً للحرج عن النَّاس. قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨][١].

المطلب الثاني

حُكم الإعراض عن استماع القرآن

الإعراض عن استماع القرآن لا يخلو إمّا أن يكون إعراضاً مع عدم الإيمان به، وعدم الانقياد والتّسليم له، وعدم قبوله. أو إعراضاً عن سماعه مع الإيمان به، والتّسليم له، وقبوله. فلكلٍّ حُكْمُه الذي يتعلّق به، ويترتّب عليه، وهذا ما سنتناوله بالتّفصيل في هذا المطلب، من خلال النّقاط الآتية:

أولاً: الإعراض عن استماع القرآن مع عدم الإيمان به:

هذا النّوع من الإعراض هو إعراض الكفّار والمشركين والمنافقين ـ النّفاق الأكبر المخرج عن الملّة. الذين أعرضوا عن سماع القرآن بالكلّية مع عدم الإيمان به، وعدم الانقياد له ظاهراً وباطناً.

وبادئ ذي بدء يُقال:

إنّ الإيمان بالله تعالى يتضمّن طاعةً وانقياداً، وتسليماً وقبولاً، كما قال المرْوزي[٢] رحمه الله في معنى الإيمان: «الإيمان بالله: أنْ تُوحّده، وتُصدّق به بالقلب واللّسان، وتخضع له، ولأمره، بإعطاء العزم للأداء لما أمره، مجانباً

---

(١) انظر: الموسوعة الفقهية (٤/٨٦)؛ فقه قراءة القرآن الكريم (ص٥١).

(٢) هو الإمام أبو عبد الله، محمد بن نصر بن الحجّاج المرْوزي، فقيه، أصولي، محدّث، حافظ. ولد ببغداد سنة (٢٠٢هـ)، ونشأ بنيسابور، وتفقّه بمصر على أصحاب الشّافعي. قال الحاكم عنه: «إمام عصره بلا مُدافعة في الحديث». وقال الذّهبي: «يقال: إنه كان أعلم الأئمة باختلاف العلماء على الإطلاق». سكن سمرقند إلى أن توفي بها سنة (٢٩٤هـ). من مصنفاته: «الصلاة»، و«الوتر»، و«الورع»، و«قيام الليل»، و«المسائل في النجوم» وغيرها. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/٣٣ ـ ٤٠).

للاستنكاف، والاستكبار، والمعاندة، فإذا فعلتَ ذلك لزمتَ محابَّه، واجتنبت مساخطه»(١).

وإذا كان الإيمان يُعَدُّ خضوعاً واستجابة وقبولاً لدين الله تعالى، فإنّ الإعراض يُنافي ذلك ويضادُّه، ومنه الإعراض بالكلِّيَّة عن استماع القرآن، إمَّا تواصياً بعدم سماعه، أو إعراضاً واستكباراً عن سماعه، أو تعامياً وتصامّاً عن سماعه، أو استهزاءً به حال السَّماع بالضَّجر والتَّأفُّف، أو إزلاقاً بالعيون حال السَّماع، أو تهاوناً وتغافلاً عن سماعه، على ما تقدَّم تفصيل ذلك في: «مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار».

فهذه المظاهر من الإعراض تُعدُّ ناقضاً من نواقض الإيمان العملية، وهو الإعراض التامُّ عن سماع القرآن العظيم، وتُعَدُّ كذلك تكذيباً بالرَّسول ﷺ، بل تولِّياً عن طاعته، وامتناعاً عن اتِّباع ما أُنزل إليه من الوحي، ومن ثم فهو كُفْرٌ مخرج عن الملَّة.

ويذكر ابن القيِّم رحمه الله الفرقَ بين المُعرِض المُفرِّط وبين العاجز قائلاً: «كلُّ مَنْ أعرض عن الاهتداء بالوحي ـ الذي هو ذِكْرُ الله ـ فلا بد أن يقول يوم القيامة: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

فإنْ قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنَّه على هدى، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضُّلال، الذي منشأه الإعراض عن الوحي، وما جاء به الرَّسول ﷺ، ولو ظنَّ أنه مهتدٍ، فإنَّه مفرِّط بإعراضه عن اتِّباع داعي الهدى، فإذا ضلَّ فإنَّما أُتِيَ من تفريطه وإعراضه، وهذا بخلاف منْ كان ضلاله لعدم بلوغ الرِّسالة، وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حُكم آخر، والوعيد في القرآن إنَّما يتناول الأوَّل، وأمَّا الثَّاني فإنَّ الله لا يعذِّب أحداً إلَّا بعد إقامة الحجَّة عليه»(٢).

ويقول ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾

---

(١) تعظيم قدر الصَّلاة (١/ ٣٩٢).
(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٤٣ ـ ٤٤).

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طـه: ٩٩ ـ ١٠١]: «وهذا عامٌّ في كلِّ مَنْ بلغه القرآن من العرب والعجم، وأهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فكلُّ مَنْ بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمَنِ اتَّبعه هُدي، ومَنْ خالفه وأعرض عنه ضلَّ وشقي في الدُّنيا، والنَّارُ موعده يوم القيامة»[1].

وبناءً على ما تقدَّم: فإنَّ الإعراض عن استماع القرآن بالكلِّيَّة ينافي الإيمان ويضادُّه، بل هو حقيقة النِّفاق الأكبر، الذي حكاه الله تعالى عن المنافقين في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

فالذي يهجر القرآن، فلا يؤمن به، ولا يسمعه، ولا يصغي إليه، فهو كافر خارج عن ملَّة الإسلام.

ثانياً: الإعراض عن استماع القرآن مع الإيمان به:

قد يُعْرِضُ المسلم ـ أحياناً ـ عن استماع القرآن العظيم مع إقراره بأنَّ القرآن كلام الله تعالى يجب اتِّباعه؛ بسبب تكاسلٍ وتهاون، أو ضعف إيمان، أو تشاغل عنه بمال، أو بنين، أو غناء ونحوه من متابعة البثِّ الفضائي.

وربَّما تجد بعض المسلمين لا يستمعون إلى القرآن الكريم إلَّا نادراً؛ عند حلول شهر رمضان مثلاً، أو عند نزول مصيبة به، كمرض أو وفاة قريب له، أو غير ذلك من الأمور التي تُلْجِئُهُ إلى استماع القرآن.

فلا ريب ـ والحالة هذه ـ أنه مُقصِّر ومؤاخذ بإعراضه عن استماع القرآن، لكن من الصُّعوبة بمكان تعميم حُكم واحد وتنزيله على هذه الأحوال المختلفة في صورها، والحدُّ المشترك بينها هو: هجر استماع القرآن قِلَّة أو كَثرة.

ومن المتَّفق عليه ـ فيما سبق ـ أنَّها معصية لله، مؤاخذ بسببها؛ لأنه قصَّر، وأعرض باختياره عن استماع القرآن الكريم، ويتوقَّف كون هذه المعصية كبيرة أو صغيرة على نوع المخالفة ذاتها، فأمره إلى الله ـ والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٣٢٣).

المبحث السَّادس

الآثار الحسنة لاستماع القرآن

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الإعجاز التّأثيري للقرآن.

المطلب الثاني: أثر استماع القرآن في الملائكة.

المطلب الثالث: أثر استماع القرآن في النَّبيِّ ﷺ.

المطلب الرابع: أثر استماع القرآن في المؤمنين.

المطلب الخامس: أثر استماع القرآن في أعدائه وخصومه.

المطلب السادس: أثر استماع القرآن في النَّصارى.

المطلب السابع: أثر استماع القرآن في الجنِّ.

المطلب الأول

الاعجاز التأثيري للقرآن

إنَّ المتأمِّل لوجوه الإعجاز القرآني يجده تعدَّى حدود المعاني والمعارف، فلا يقتصر إعجازه فقط على عظمة سَبْكه ونَظْمه، أو على ما يحويه من معارف غير متعارضة وعلوم ظاهرة، وما يتضمَّنه من أخبار ثابتة، بل مع كلِّ هذه الوجوه نجد وجهاً آخر غاية الأهمية، وهو تأثيره في سامعيه، فالقرآن له تأثير عجيب على سامعيه، يظهر في صورٍ وأشكالٍ متعدِّدة، فبمجرّد الاستماع إليه ـ وإن لم يُفْهم المقصود منه ـ تجد القلوبَ قد انفتحت، والنُّفوسَ قد اطمأنَّت، والهدوءَ والسَّكينةَ قد حَلّا بمستمعه، وهذا الإعجاز التَّأثيري يتعدّى مَنْ آمن به إلى مَنْ أنكره أو كَفَر به.

ولهذا فقد اختار أبو سليمان الخطَّابي ﷺ الإعجاز التَّأثيري للقرآن كأهمِّ وَجْهٍ من وجوه الإعجاز فيه، فقال ـ في رسالته (بيان إعجاز القرآن):

«قلتُ: في إعجاز القرآن وجهٌ آخر، ذهب عنه النَّاس، فلا يكاد يعرفه إلَّا الشَّاذ من آحادهم، وذلك صنيعُه بالقلوب، وتأثيره في النُّفوس، فإنَّك لا تسمع كلاماً غير القرآن ـ منظوماً ولا منثوراً ـ إذا قَرَع السَّمع خلص له إلى القلب من اللَّذة والحلاوة في حالٍ، ومن الرَّوعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النُّفوس، وتنشرح له الصُّدور، حتَّى إذا أخذَتْ حظَّها منه، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشَّاها الخوف والفَرَق، تقشعرُّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النَّفس ومضمراتها وعقائدها الرَّاسخة فيها؛ فكم من عدوٍّ للرَّسول ﷺ من رجال العرب وفتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم، أن يتحوّلوا عن رأيهم الأوَّل، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً، وكفرهم إيماناً»[1].

---

(١) بيان إعجاز القرآن، للخطّابي (ص٧٠ ـ ٧١)، ضِمْنَ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،

إذاً في القرآن العظيم سِرٌّ خاصٌّ، يشعر به كلُّ مَنْ يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها. يشعر أنّ هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التّعبير. وأنّ هنالك عنصراً ما ينسكب في الحسّ بمجرّد الاستماع لهذا القرآن. يدركه بعض النّاس واضحاً ويدركه بعض النّاس غامضاً. هذا العنصر الذي ينسكب في الحسّ، يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصُّور والظّلال التي تُشِعُّها؟ أهو التّأثير القرآنيّ الخاصُّ المتميّز عن سائر القول المصوغ من اللُّغة؟ أهي هذه العناصر كلُّها مجتمعة؟ أم إنّها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟(١)".

دراسة معاصرة تُثبت تأثير القرآن:

في محاولة للكشف عن تأثير القرآن على سامعيه، استُعملت أجهزةُ المراقبة الإلكترونيّة، المزوّدة بالحاسوب؛ لقياس أيِّ تغييرات فسيولوجيّة، عند عددٍ من المتطوّعين الأصحّاء، أثناء استماعهم لتلاوات قرآنيّة، وقد تمّ تسجيل وقياس أثر القرآن الكريم، عند عددٍ من المسلمين المتحدّثين بالعربيّة بالنّسبة لغير المتحدّثين بالعربيّة. مسلمين كانوا أو غير مسلمين. فقد تُليت عليهم مقاطِعُ من القرآن الكريم باللُّغة العربية، ثمّ تُليت عليهم ترجمةُ هذه المقاطع باللُّغة الإنجليزية. وفي كلّ هذه المجموعات أثبتت التّجارِبُ المبدئيّة وجود أثرٍ مهدّئ للقرآن بنسبة (٩٧٪) لدى هذه المجموعات التّجريبيّة، وهذا الأثر ظهر في شكْل تغيُّرات فسيولوجيّة، تدلُّ على تخفيف درجةِ توتُّرِ الجهاز العصبي التّلقائي.

ولقد ظهر من الدّراسات المبدئيّة أنّ تأثير القرآن على التّوتُّر، يمكن أن يُعزى إلى عاملين:

الأوّل: صوت القرآن الكريم في كلمات عربيّة، بِغَضِّ النّظر عمّا إذا كان المستمع قد فهمها أو لم يفهمها، وبِغَضِّ النّظر عن إيمان المستمع.

= للخطابي، والرماني، والجرجاني ـ تحقيق: د. محمد زغلول سلام وآخرين. دار المعارف ـ مصر ١٣٧٦هـ.

(١) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٩٩).

الثَّاني: معنى المقاطع القرآنية، حتَّى ولو كانت مُقتصَرة على الترجمة الإنجليزية، بدون الاستماع إلى الكلمات القرآنيَّة باللُّغة العربيَّة(١).

المطلب الثاني

اثر استماع القرآن في الملائكة

تحبُّ الملائكة الكرام ﷺ استماع القرآن الكريم، وتحفُّ مجالسه، وتتنزل أحياناً لاستماعه وللإنصات له، وقد وضحت الأدلَّة - من الكتاب والسنَّة - هذا الأمر، وبيَّنته بياناً شافياً، فمن ذلك:

* قوله تبارك وتعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

والمقصود بقوله ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾: «قال مجاهدٌ: صلاة الفجر»(٢). أي أنَّ القرآن الذي يتلوه الإمام في صلاة الفجر تشهده وتحضره الملائكة (ملائكة اللَّيل وملائكة النَّهار)(٣).

وإنَّما عبَّر عن صلاة الصُّبح بقرآن الفجر؛ لأنَّ القرآن يقرأ فيها أكثر من غيرها، وهذا هو هَدْي النبيِّ ﷺ في إطالة القراءة في صلاة الفجر أكثر من غيرها في سائر الصَّلوات المفروضة، فكان يقرأ فيها ما بين السِّتين إلى المائة آية(٤).

* عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «فَضْلُ صَلَاةِ الجَمْعِ عَلى صَلَاةِ الوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وتَجْتمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ في صَلَاةِ الصُّبْحِ». يَقُولُ أبو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾(٥).

---

(١) انظر: أثر سماع القرآن الكريم على مستوى الأمن النَّفسي (ص١٢ - ١٣)، نقلاً عن: المؤتمر السَّنوي السَّابع عشر للجمعيَّة الطِّبية الإسلاميَّة بأمريكا الشَّمالية، ١٩٨٤م.

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٤٦١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥)؛ تفسير القرطبي (٢/ ٢٩٨).

(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٧٧).

(٥) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٣/ ١٤٦١) (ح٤٧١٧).

* ومن أثر استماع القرآن في الملائكة الكرام ﷺ استغراقهم في السَّماع حتَّى كادوا يَظهرون للنَّاس وذلك عندما تنزَّلت ودنت من الصَّحابي الجليل أُسيد بن حُضير ﷺ وهو يقرأ في صلاة اللَّيل، والشَّاهد من الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ قال له ـ بعد أن أخبره أسيدٌ ﷺ بما حصل له تلك اللَّيلة: «تِلْكَ المَلائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لا تَتَوارَى مِنْهُمْ»(١).

ومن فوائد الحديث: فضيلة الجهر بقراءة القرآن في صلاة اللَّيل، وأنَّها سبب لحضور الملائكة ودنوِّها من القارئ.

وأشار قولُه ﷺ: «لا تَتَوارَى مِنْهُمْ» إلى أنَّ الملائكة ـ لاستغراقهم في الاستماع ـ كادوا يظهرون للناس على خلاف جبلَّتهم من الاختفاء، الذي هو من شأنهم(٢).

* وعن عليٍّ ﷺ أنه أَمَرَ بالسِّواكِ، وقال: قال رسولُ الله ﷺ:

«إنَّ العَبْدَ إذا تَسَوَّكَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَامَ المَلَكُ خَلْفَهُ، فَيَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِهِ، فَيَدْنُو منه ـ أو كَلِمَةً نَحْوَها ـ حتَّى يَضَعَ فَاهُ عَلَى فِيْهِ، فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيْهِ شَيءٌ مِنَ القُرآنِ إِلَّا صَارَ في جَوْفِ المَلَكِ، فَطَهِّرُوا أَفْوَاهَكُم لِلقُرآنِ»(٣).

* ومن أثر استماع القرآن في الملائكة كذلك، أنَّها تحفُّ مجالس القرآن لتستمع وتنصت، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ،

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: نزول السَّكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٣/ ١٦١٧) (ح٥٠١٨).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٨١).

(٣) رواه المنذري في «التَّرغيب»، واللَّفظ له، كتاب الطَّهارة، باب: التَّرغيب في السِّواك وما جاء في فضله (١/ ١٠٢) (ح٢١٥)؛ والبيهقي في «السُّنن الكبرى»، باب: تأكيد السِّواك عند القيام إلى الصَّلاة (١/ ٣٨) (ح١٦١)؛ وعبد الرزاق في «مصنَّفه»، باب: حسن الصَّوت (٢/ ٤٨٧) (ح٤١٨٤)؛ وابن أبي شيبة في «مصنَّفه»، باب: ما ذُكِرَ في السِّواك (١/ ١٥٦) (ح١٧٩٩)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب والترهيب»: (١/ ٢٠٤) (ح٢١٥)؛ و«السِّلسلة الصَّحيحة»: (٣/ ٢١٤) (ح١٢١٣).

إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ(١)، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»(٢).

المطلب الثالث

اثر استماع القرآن في النبي ﷺ

كان النَّبيُّ ﷺ يحبُّ استماع القرآن العظيم؛ وتطيب نفسه حين استماعه له، ويظهر أثر الاستماع عليه بالتَّأثُّر والخشوع والبكاء. ولا عجب من ذلك فهو أرقُّ النَّاس قلباً، وأسرعهم دمعة، وأعظمهم تأثُّراً بالقرآن الكريم، فقد كان أعرف الخلق بالله، وأشدَّهم له خشية. ومن هذه المواقف المباركة ما يلي:

١ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ» قالَ: قُلْتُ: أقرأُ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنزِلَ؟ قال: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». قَالَ: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حتَّى إذَا بلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. قالَ لِي: «كُفَّ، أَوْ أَمْسِكْ» فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ(٣).

وعند مُسلمٍ: قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: رَفَعْتُ رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلى جَنْبِي فرفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ. وفي روايةٍ: فَبَكى(٤).

٢ ـ قال النبيُّ ﷺ لأبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ(٥) لِقِراءَتِكَ البَارِحَةَ! لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْماراً(٦) مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»(٧).

---

(١) (حفَّتْهم الملائكةُ): أي دارت حولهم.
انظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ٤٠٨)، مادَّة: (حفف).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذِّكر (٤/ ٢٠٧٤) (ح٢٧٠٠).

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٦٢٧) (ح٥٠٥٥)، وتقدَّم تخريجه في المبحث الرَّابع.

(٤) رواه مسلم (١/ ٥٥١) (ح٨٠٠)، وتقدَّم تخريجه في المبحث الرَّابع.

(٥) قوله: (لو رأيْتني وأنا أستَمِعُ) الواو فيه للحال. وجواب لو محذوف، أي: لأعجبك ذلك.

(٦) المراد بالمزمار هنا: الصَّوت الحسن. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٠).

(٧) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصَّوت بالقرآن (١/ ٥٤٦) (ح٧٩٣).

٣ ـ عن عائشةَ، زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ، قالت: أبطأتُ على عهدِ رسولِ الله ﷺ ليلةً بعد العِشَاءِ. ثُمَّ جِئْت فقال: «أَيْنَ كُنْتِ؟». قلتُ: كنتُ أستمِعُ قراءةَ رجلٍ مِنْ أصحابِك لمْ أسمَعْ مِثْلَ قراءته وَصوتِهِ مِنْ أحدٍ. قالتْ: فَقَام وقُمْتُ معه حتَّى اسْتَمَعَ له. ثمَّ الْتَفَت إليَّ فقال: «هَذاَ سَالِمٌ، مَوْلَى أبي حُذَيْفَةَ. الحَمْدُ لله الَّذي جَعَلَ في أُمَّتِي مِثْلَ هَذَا»[(١)].

٤ ـ ولا أدلّ على محبَّة النبيّ ﷺ لاستماع القرآن الكريم من قول فاطمة رضي الله عنها: أَسَرَّ إليَّ النبيُّ ﷺ: «أَنَّ جِبْرِيلَ كانَ يُعَارِضُني بِالقُرآنِ كُلَّ سَنَةٍ، وَإِنَّهُ عَارَضَني العَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي»[(٢)].

قال ابن حجر رحمه الله: «والمُعارضة: مفاعلة من الجانبين، كأنّ كلاً منهما كان تارة يقرأ والآخر يستمع»[(٣)].

وخلاصة القول: إنَّ المواقف والمواضع التي تُبرز تأثُّر النَّبيِّ ﷺ عند استماعه للقرآن كثيرة، بَيْد أنَّ ذلك لا غرابةَ فيه، إذ كيف لا يتأثّر الرّسول ﷺ بالقرآن وهو أتقى الخلق، وعليه أُنزل القرآن؟ وقد رأى الملائكة، وعُرج به إلى السماء، وسمع صرير الأقلام، ورأى من آيات ربّه ما رأى؟ فتأثُّره بالقرآن أمر لا يحتاج إلى دليل أو برهان.

المطلب الرابع

أثر استماع القرآن في المؤمنين

إنَّ أثر القرآن العظيم فيمَنْ يسمعه ليس خاصّاً بالملائكة الكرام، أو بالنَّبيِّ ﷺ فقط، بل يمتدُّ ليشمل سائر البشر؛ مؤمنهم وكافرهم، ولكن الأثر يختلف باختلاف الشَّخص نفسه؛ فإذا كان القرآن يُحدث أثراً في قلب ونَفس

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الصّلاة، باب: في حسن الصَّوت بالقرآن (١/ ٤٢٥) (ح١٣٣٨)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٢٢٣) (ح١١٠٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: كان جبريلُ يَعْرِضُ القرآنَ على النبيِّ ﷺ (٣/ ١٦١٢).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٥٥).

الكافر، إلَّا أنَّ هذا الأثر لا ينعكس على حياته، ولا على سلوكه، بل يُحاول أن يكتم هذا الأثر كي لا يظهر على ملامحه، ويفتضح أمره، فيتلاشى أثر القرآن أمام عناده واستكباره، أمَّا المؤمنون فقد امتثلوا لآيات الله تعالى، لتعملَ في قلوبهم عملها من التَّأثُّر والخوف والخشوع وزيادة الإيمان، ويظهر هذا التَّأثُّر جليّاً في انفعالاتهم وملامحهم عند سماعهم للقرآن، وكذلك يظهر في سلوكهم وحياتهم، ولنتتبَّع بعض الآيات التي عبَّرت عن ذلك وأظهرته، ومنها:

١ ـ يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

هكذا كان الصَّحابة رضي الله عنهم يتأثَّرون عند قراءة القرآن أو سماعه، لرقَّةٍ في قلوبهم، وخشوعاً وخضوعاً عند كلام الله تعالى، مع ما يكون من الوَجَل والخوف والبكاء، فعن عبدِ اللهِ بنِ عُروةَ بنِ الزُّبير قال: قلتُ لجدَّتي أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رضي الله عنهما: «كيف كان أصحابُ رسولِ الله يفعلون إذا قُرئ القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عزَّ وجلَّ تدمع أعينُهم وتقشعرُّ جلودُهم»(١).

وكثير من العلماء الذين تناولوا قضيَّة إعجاز القرآن بالبحث والتَّصنيف، يستشهدون بهذه الآية على ما للقرآن من تأثير في نفوس سامعيه، وخاصَّة إذا كانت مؤمنةً بالله تعالى(٢).

وقد أجرى ابن كثير رحمه الله مقارنةً بين نوعين من المتلقِّين لهذه الآية، فقال: «هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبَّار، المهيمن العزيز الغفَّار، لما يفهمون منه من الوَعْد والوعيد، والتَّخويف والتَّهديد، تقشعرُّ منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمِّلون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفَّار من وجوه:

أحدِها: أنَّ سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات،

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٧٧)؛ الدُّر المنثور (٧/ ٢٢٢).

(٢) انظر: الإعجاز التَّأثيري للقرآن الكريم، د. محمد عطا أحمد، مجلَّة الشَّريعة والدِّراسات الإسلامية ـ جامعة الكويت (عدد ٣٦) (شعبان ١٤١٩) (ص٥٣).

من أصوات القَيْنات[(١)].

الثَّاني: أنَّهم إذا تُليت عليهم آيات الرَّحمن خرُّوا سجَّداً وبكيّاً، بأدب وخشية، . . . لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مُصغين إليها، فاهمين بَصِيرين بمعانيها؛ فلهذا يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعةٍ لغيرهم.

الثَّالث: أنَّهم يَلْزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصَّحابة ﷺ عند سماعهم كلام الله ـ من تلاوة رسول الله ﷺ ـ تقشعرُّ جلودهم، ثمَّ تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخون ويتكلَّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسُّكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقِدْح المُعَلَّى في الدُّنيا والآخرة»[(٢)].

٢ ـ ومن الآيات التي تُظْهِرُ أثر استماع القرآن في المؤمنين، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

لقد حاز المؤمنون ـ عند ربِّهم ـ درجةً سامقة رفيعة؛ لتأثُّرهم بالقرآن المجيد، تأثُّراً عمليّاً صادقاً، له نتائجه في واقع حياتهم وحياة مجتمعهم.

وقد وَصَفَ الصَّحابيُّ الجليل أبو الدَّرداءِ ﷺ هذا الوَجَل المذكورَ في الآية، بقوله لشَهْرِ بن حَوْشَب: «الوَجَلُ في القلب كإحراق السَّعَفَة، أما تجد له قُشَعْرِيرةً؟ قال (شَهْرُ بن حَوْشَب): بلى. قال: إذا وجدتَ ذلك في القلب فادعُ الله، فإنَّ الدُّعاء يُذهب ذلك»[(٣)].

فهذا الوَجَل ارتعاشةٌ قلبيَّة تنتاب المؤمن حين يُتلى عليه القرآن العظيم؛ بما فيه من أوامرَ ونواهٍ وزواجر، فيغشاه جلالُه، وينتفض منه مهابةً، ويتمثَّل عظمة الله إلى جانب تقصيره، فينبعث إلى العمل والطَّاعة[(٤)].

ولقد واجه سيِّد قطب رَحِمَهُ الله مثل هذه الحالة فقال: «كنت بين رفقة نسمر

---

(١) القَيْنات: المُغَنِّيات.
(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٩٢).
(٣) رواه الطَّبري في «تفسيره» (٦/ ٢٢٤) (رقم ١٥٧٠٥)؛ والسُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٤/ ١١).
(٤) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٤٧٥).

حينما طَرَق أسماعنا صوت قارئ لنقرآن من قريب، يتلو سورة النَّجم. فانقطع بيننا الحديث، لنستمع وننصت للقرآن الكريم. وكان صوت القارئ مؤثِّراً وهو يرتِّل القرآن ترتيلاً حَسَناً.

وشيئاً فشيئاً عِشْتُ معه فيما يتلوه...

فلمَّا سمعتُ: ﴿فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢]. كانت الرَّجفة قد سَرَت من قلبي حقّاً إلى أوصالي، واستحالت رجفة عضليَّة ماديَّة ذات مظهر ماديّ، لم أملك مقاومته. فظلَّ جسمي كلُّه يختلج، ولا أتمالك أن أثبِّته، ولا أن أُكَفْكِفَ دموعاً هاتنة، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة»[١].

٣ ـ ونختم بهذه الآية الكريمة التي تُظهر أثر استماع القرآن في المؤمنين، وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

فهذا ثناء من الله تعالى على المؤمنين، الَّذين من وَصْفِهم التَّأثُّر والبكاء عند سماعهم لآيات الرَّحمن، ولم يكونوا كالَّذين إذا سمعوا آيات الله خرُّوا عليها صمّاً وعُمياناً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «المراد به القرآن خاصَّة، وأنَّهم كانوا يسجدون ويبكون عند تلاوته»[٢].

وقال النوويُّ رحمه الله: «البكاء عند تلاوة القرآن صفة العارفين، وشعار الصَّالحين»[٣]. ولهذا قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم فسجد، وقال: «هذا السُّجود، فأين البكيُّ؟» يريد: فأين البكاء[٤].

وكان عبد الأعلى التَّيمي رحمه الله يقول: «مَنْ أوتي من العلم ما لا يُبْكِيهِ لخليق ألَّا يكون أُوتي علماً؛ لأنَّ الله نَعَت العلماء، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩]»[٥].

---

(١) المصدر نفسه (٦/ ٣٤٢١).
(٢) تفسير القرطبي (١١/ ١٢٧).
(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٤٤)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٩٨).
(٤) رواه الطَّبري في «تفسيره» (٩/ ١٢٩) (رقم ٢٣٧٧٩)؛ وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤١٢).
(٥) رواه ابن المبارك في «الزُّهد» (ص٤١) (رقم ١٢٥)؛ والطَّبري في «تفسيره» (٩/ ٢٢٣) (رقم ٢٢٨٠٠).

المطلب الخامس

اثر استماع القرآن في اعدائه وخصومه

بلغ تأثير القرآن العظيم مبلغاً خرق به العادة المعهودة من تأثير الكلام في النُّفوس، واستيلائه على قلوب المخاطَبين استيلاءً كالقهر وما هو بالقهر، وفعله في قلوبهم كالسِّحر وما هو بالسِّحر، لا يختصُّ ذلك بالأنصار دون الخصوم، ولا بمحالفيه دون مخالفيه، ولقد أثَّر في الأعداء كما أثَّر في الأتباع، وبيان ذلك على النَّحو التالي:

١ ـ تأثُّر عتبة بن ربيعة بالقرآن:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنه قال: اجتمعتْ قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلَمَكُم بالسِّحر والكهانة والشِّعر، فليأتِ هذا الرَّجل الذي فرَّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلِّمه ولينظرْ ماذا يردُّ عليه.

فجاءه عُتبة بن ربيعة(١) وكلَّمه كلاماً طويلاً، حتَّى إذا فرغ عتبة، قال له النبيُّ ﷺ: «فَرَغْتَ يا أبا الوليد؟» قال: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٥].

واستمرّ النبيُّ ﷺ يقرأ حتَّى بلغ قولَه تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

فأمسكَ عُتبة على فيه، وناشده الرّحم أن يكفَّ عنه، ثم قام عُتبة إلى أصحابه.

فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

---

(١) هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي، كان من عتاة المشركين، وأشدِّهم على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين حرباً وإيذاء، كان ممّن دعا عليهم رسولُ الله ﷺ بأعيانهم. انظر: البداية والنّهاية (٣/ ٢٧٣).

ـ وكان فيما قال لهم: يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، خَلُّوا بين هذا الرّجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعتُ نبأ... قالوا: سَحَرَكَ واللهِ يا أبا الوليد بلسانه(١).

هكذا كان أثر سماع القرآن في أعدائه يُعتبر مفاجأة مذهلة، لم تعتدها آذانُهم ولا عقولُهم، ولم يعهدوا في ثقافتهم مثل هذا الخطاب الذي فاق ـ في بلاغته وتأثيره ـ كلَّ ما سمعته آذانهم من قبل ـ شعراً كان أو نثراً.

٢ ـ تأثُّر زعماء المشركين بالقرآن:

زعماء المشركين مع عنادهم كان يُسارق بعضُهم بعضاً، فربَّما خرج أحدُهم في جُنْح اللّيل المظلم ما يُخرجه إلّا استيلاء القرآن على مشاعره، يبحث عمَّن يتلو القرآن في هدأة اللّيل، وقد أرخى سدوله؛ فهذا أبو سفيان ابن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلِّي من اللّيل في بيته، فأخذ كلُّ رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتّى إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطّريق فتلاوموا، وقال بعضُهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثمّ انصرفوا... وحصل في اللّيلة الثّانية ما حصل في الأولى... وحين التقوا في اللّيلة الثّالثة، قال بعضُهم لبعض: لا نبرح حتّى نتعاهدَ ألّا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثمّ تفرّقوا.

هكذا كان تأثير القرآن في الأعداء، يخلع منهم القلوب، فيطير النّوم من عيونهم، ويبحثون عن سكن لها حتّى إذا ما وجدوه وكادوا أن يستكينوا له

---

(١) انظر: دلائل النّبوة، لإسماعيل بن محمد الفضل التيمي الأصبهاني (٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢) (رقم ٢٥٨)؛ ومسند أبي يعلى (٣/ ٣٥٠) (رقم ١٨١٨)؛ ومصنف ابن أبي شيبة (٣٣٠٧) (رقم ٣٦٥٦٠). وقال عنه الهيثمي في «مجمع الزّوائد» (٦/ ٢٠): «رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي، وثّقهُ ابنُ معين وغيره، وضعّفه النسائي وغيره، وبقيّة رجاله ثقات».
وفي رواية أخرى: أن الذي سمع من النبيّ ﷺ سورة فُصّلت وحدثت معه هذه القصة هو الوليد بن المغيرة.
انظر: تفسير الطّبري (٢٨/ ١٥٥ ـ ١٥٧)؛ الدُّر المنثور (٧/ ٣٠٨).

أخذتهم العزّة بالإثم، فارتدُّوا على أدبارهم ما يمنعهم إلّا العناد.

ولهذا حين سأل الأخنس أبا جهل عن رأيه فيما سمعه من النبيّ ﷺ قال: ماذا سمعت!! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشَّرفَ، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتّى إذا تجاذبنا على الرُّكب وكنّا كفرسَي رهان، قالوا: منّا نبيٌّ يأتيه الوَحْي من السّماء، فمتى نُدرك مثل هذه!! والله لا نؤمن أبداً ولا نصدِّقه(١).

٣ ـ تأثُّر الطُّفيل بن عَمْرٍو بالقرآن:

تحكي لنا كتب السِّيرة قصَّةَ رجل من اليمن من قبيلة دَوس قَدِم مكّة في العام الحادي عشر من النبُّوة، ألا وهو الطُّفيل بن عمرو الدَّوسي ؓ، فاستقبله أهل مكّة قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجلَّ تحيَّة وأكرم تقدير، وقالوا له: «إنَّك قَدِمْتَ بلادنا، وإنَّ هذا الرَّجلَ ـ وهو الذي بين أظهرنا ـ فرَّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وإنما قوله كالسِّحر يُفرِّقُ بين المرءِ وابنه، وبينَ المرء وأخيه، وبين المرءِ وزوجه، وإنما نخشى عليكَ وعلى قومك ما قد حلّ علينا، فلا تُكلِّمْه، ولا تَسْمَعْ منه، قال: فواللهِ ما زالُوا بي، حتّى أجمعتُ ألّا أسمعَ منه شيئاً، ولا أُكلِّمَه حتّى حشوتُ في أذنيَّ ـ حين غدوتُ إلى المسجد ـ كُرْسُفاً؛ فَرَقاً من أن يَبْلُغَني شيءٌ من قوله. قال: فغدوتُ إلى المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ قائمٌ يُصلِّي عند الكعبة، فقمتُ قريباً منه، فأبى الله إلّا أن يُسمِعَني بعضَ قوله، فسمعتُ كلاماً حَسَناً، فقلتُ في نفسي: واثكل أمّياه، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يَخفى عليّ الحَسَنُ من القبيح، فما يمنعُني أن أسمع من هذا الرَّجل ما يقول؟ فإن كان ما يقولُ حَسَناً، قبلتُ، وإن كان قبيحاً، تركتُ. قال: فمكثتُ حتّى انصرف رسولُ الله ﷺ إلى بيته، فتبعتُه حتى إذا دخل بيتَه دخلتُ عليه، فقلتُ: يا محمد! إنَّ قومَك قد قالُوا لي: كذا وكذا، فَواللهِ ما بَرِحُوا يُخوِّفوني أمرَك حتّى سددتُ أذنيَّ بِكُرْسُفٍ لئلا أسمعَ قولَك، ثمّ أبى الله إلّا أن يُسمِعَنيه، فسمعتُ قولاً حَسناً، فاعرضْ عليَّ

---

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق (٤/١٦٩)؛ والسِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٢/١٥٧)؛ ودلائل النُّبوة (٢/٢٠٦)؛ الدُّر المنثور (٥/٢٩٩)؛ وتفسير ابن كثير (٣/٤٥)؛ والجواب الصَّحيح لمن بدّل دين المسيح، لابن تيميّة (٥/٣٧٩)؛ والخصائص الكبرى، للسُّيوطي (١/١٩٢).

أمرك، فعرضَ عليَّ رسولُ الله ﷺ الإسلامَ، وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعتُ قولاً قطُّ أحسنَ منه، ولا أمراً أعدلَ منه، فأسلمتُ، وشهدتُ شهادةَ الحقِّ»[(١)].

٤ ـ تأثُّر جُبير بن مُطعم بالقرآن:

عن جُبير بن مُطعم ﷺ، قال: «سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ، يَقْرَأُ في المغْرِبِ بالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧]. كَادَ قَلْبِي أنْ يَطِيْرَ»[(٢)].

قال ابن كثير ﷺ: «وكان جُبَيرٌ ـ لمَّا سمع هذا ـ بعدُ مشركاً على دين قومه، وإنَّما كان قَدِمَ في فداء الأُسارى بعد بدر، وناهيك بمن تُؤثِّرُ قراءتُه في المشرك المِصرِّ على الكفر، فكان هذا سبب هدايته، ولهذا كان أحسن القراءات ما كان عن خشوعٍ من القلب»[(٣)].

٥ ـ حادثة سجود المشركين مع المسلمين:

إذا كنَّا قد عرضنا لأثر القرآن على أعدائه في صور فردية، تصدر عن أفراد بعينهم، فليس أبلغ ولا أعمق في الدَّلالة على مدى أثر القرآن على سامعيه من أعدائه من تلك الصُّورة الجماعيَّة، حيث ضرب لنا كفَّار قريش مثلاً واقعياً يبيِّن أثر القرآن العظيم على قلوبهم ـ رغم كفرهم ـ فلم يتمالكوا أنفسهم عندما قرأ رسول الله ﷺ «النَّجم» وسجد، فسجدوا وهم مشركون، وهم يمارون في الوَحْي والقرآن، وهم يجادلون في الله ورسوله، وإنَّما سجدوا تحت وطأة القرآن، وسلطانه على الكون كلِّه.

فعن ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قال: «سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بالنَّجْمِ، وسَجَدَ مَعَهُ المُسْلِمونَ

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٦٢٤ ـ ٦٢٥). وانظر: السِّيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٢٢٦)؛ ودلائل النبوة، للبيهقي (٥/ ٣٦٠)؛ ودلائل النبوة، للأصبهاني (١/ ٢١٢)؛ وتاريخ مدينة دمشق (٢٥/ ١٣)؛ والبداية والنهاية (٣/ ٩٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب التَّفسير، باب: سورة الطُّور (٦/ ٥٨) (ح٤٨٥٤).

(٣) فضائل القرآن (ص١٩٤).

والمُشرِكُونَ، والجِنُّ والإنْسُ»[١].

٦ ـ تأثُّر أهل المدينة بالقرآن:

صدق القائلون: «فُتحت الأمصار بالسّيوف، وفُتحت المدينة بالقرآن»[٢].
فقد كان القرآن الكريم هو السّلاح الحاسم في تحويل أهل المدينة ـ خزرجِهم وأوسِهم ـ من الشِّرك والوثنيَّة إلى الإسلام والقرآن.

ففي بيعة العقبة الأُولى دار هذا الحوار بين النبيِّ ﷺ، ونفر من خزرج المدينة ـ وكانوا ستَّة نفر:

قال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج.

قال: «من موالي اليهود؟» ـ أي: حلفائهم ـ قالوا: نعم. قال: «أفلا تجلسون أكلِّمكم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله تعالى، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فآمنوا وصدَّقوا[٣].

وبعد ذلك أرسل النبيُّ ﷺ مصعبَ بنَ عميرٍ، وعبد اللهِ ابنَ أمِّ مكتومٍ رضي الله عنهما إلى المدينة؛ ليعلِّما النّاس القرآن[٤].

المطلب السادس

أثر استماع القرآن في النَّصارى

أخبر الله تبارك وتعالى بأنّ بعض النّصارى استمعوا للقرآن العظيم، وتأثَّروا به، ممَّا دفعهم إلى الإيمان بالرَّسول ﷺ والدُّخول في الإسلام، بعد ما فاضت أعينُهم بالدّمع ممَّا عرفوا من الحقِّ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التّفسير، باب: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ (٣/ ١٥٤٥) (ح٤٨٦٢).
(٢) الشّفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٢١٧).
(٣) انظر: السّيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٢٧٧)؛ دلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ٤٣٤)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/ ٢٢٠)؛ تاريخ الإسلام، للذّهبي (١/ ٢٩٠)؛ صفة الصّفوة، لابن الجوزي (١/ ١٢٠).
(٤) انظر: السّيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٤٣٤)؛ الكامل في التّاريخ، لابن الأثير (٢/ ٦٧)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/ ٢٦٠).

ولم يُسمِّ الله تعالى لنا أسماء هؤلاء القوم من النَّصارى، ويمكن أن يُراد بهم النَّجاشي وأصحابُه، أو غيرُهم ممَّن أثَّر فيهم استماع القرآن، وذلك بأنَّهم أقرب النَّاس وِداداً للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥].

اللَّام في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لام القَسَم، والمقصود منها التَّأكيد، وزادته نون التَّوكيد تأكيداً. والتَّقدير: قَسَماً إنَّك تجدُ اليهودَ والمشركين أشدَّ النَّاس عداوة للمؤمنين.

والسَّبب في ذكر اليهود مع المشركين: هو اجتماع الفريقين على عداوة المسلمين، فقد ألَّف بينهم بُغض الإسلام؛ فاليهود: للحسد على مجيء النُّبوَّة من غيرهم، والمشركون: للحسد على أنْ سَبَقَهم المسلمون بالهداية إلى الدِّين الحقِّ ونبذ الباطل.

وَذَكَر الله تعالى أنَّ النَّصارى أَلْيَنُ عريكةً من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾.

والمقصود: أنَّ النَّصارى أقرب النَّاس من أهل المِلل المخالفة للإسلام.

فهذان طرفان في معاملة المسلمين: ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾ و﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾.

وبين الطَّرفين فِرَقٌ متفاوتة في بُغض المسلمين، مثل المجوس والصَّابئة وعبدة الأوثان أو المعطِّلة[1].

---

(١) انظر: التفسير الكبير (١٢/٥٦)؛ التحرير والتنوير (٥/١٨٣).

والسّبب في اقتراب مودّة النّصارى من المسلمين: هو وجود القسّيسين[١] والرُّهبان[٢] بينهم، لما هو معروف بين العرب من حُسْن أخلاق القسّيسين والرُّهبان، وتواضعهم وتسامحهم. وكانوا منتشرين في جهات كثيرة من بلاد العرب يعمّرون الأدْيِرَة والصّوامع والبِيَع، وأكثرهم من عرب الشّام، الذين بلغتهم دعوة النّصرانية عن طريق الرُّوم، فقد عرفهم العرب بالزُّهد ومسالمة النّاس، فوجود هؤلاء فيهم، وكونهم رؤساء دينهم، كان سبباً في صلاح أهل ملّتهم[٣].

قال الطبريُّ رحمه الله: «والصّواب في ذلك من القول عندنا أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْره أخبر عن النَّفَر الذين أثنى عليهم من النّصارى بقرب مودّتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أنَّ ذلك إنّما كان منهم؛ لأنَّ منهم أهل اجتهاد في العبادة وترهيب في الدّيارات والصّوامع، وأنَّ منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين لتواضعهم للحقّ إذا عرفوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبيّنوه؛ لأنهم أهل دينٍ واجتهادٍ فيه ونصيحة لأنفسهم في ذات الله، وليسوا كاليهود الذين قد دَرِبُوا بقتل الأنبياء والرُّسل ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه»[٤].

ويعضد هذا: ما ذكره الطّبريُّ[٥]، والواحديُّ[٦]، وكثير من المفسّرين. عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ وغيرهما: أنَّ المَعْنِيَّ في هذه الآية ثمانيةٌ من نصارى الشّام، كانوا في بلاد الحبشة، وأتوا المدينة سنة سبعٍ للهجرة، مع اثنين وستّين راهباً من الحبشة، مصاحبين للمسلمين الذين رجعوا من هجرتهم بالحبشة، وسمعوا القرآن وأسلموا.

---

(١) القِسّيسون: هم خطباء النّصارى وعلماؤهم، واحِدُهم: قِسّيس وقَسٌّ أيضاً، وقد يُجمع على قسوس. انظر: المفردات في غريب القرآن (ص٤٠٤)، مادّة: «قس». تفسير الطّبري (٧/ ٣).

(٢) الرُّهبان: جَمْع راهِب، مِثْلُ رُكْبان جمع راكب، وفُرْسان جمع فارس. والرَّاهب من النّصارى: المنقطع في دَيْرٍ أو صَوْمَعة للعبادة. مشتقٌّ من الرّهبة، وهي الخوف. انظر: المفردات في غريب القرآن (ص٢٠٩)، مادّة: «رهب». تفسير الطبري (٧/ ٣).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٥/ ١٨٤).

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٤).

(٥) انظر: المصدر نفسه (٧/ ٢).

(٦) انظر: تفسير الواحدي (١/ ٣٣٢).

فالإشارة إليهم في هذه الآية تذكير بفضلهم، وهي من آخِرِ ما نزل[١].

تأثُّر القِسِّيسين والرُّهبان بسماع القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

إذا سمع هؤلاء القِسِّيسون والرُّهبان القرآن العظيم يُتلى عليهم «اهتزَّت مشاعرهم، ولانتْ قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدَّمع تعبيراً عن التأثُّر العميق العنيف بالحقِّ الذي سمعوه. والذي لا يجدون له في أوَّل الأمر كَفاءً من التَّعبير إلا الدَّمع الغزير ـ وهي حالة معروفة في النَّفس البشرية حين يبلغ بها التأثُّر درجةً أعلى من أنْ يفي بها القول، فيفيض الدَّمع؛ ليؤدِّي ما لا يؤدِّيه القول؛ وليطلق الشُّحنة الحبيسة من التأثُّر العميق»[٢].

المقصود بفيض العين:

وفيض العين من الدَّمع فيه وجهان:

١ ـ أنَّ أعينهم تمتلئ من الدَّمع حتَّى يسيلَ منها، كفيض النَّهر. وفيض الإناء، وهو سيلانه عند شدَّة امتلائه.

٢ ـ أنَّ المراد المبالغة في وصفهم بالبكاء، فَجُعلت أعينهم، كأنَّها تفيض بأنفسها[٣].

وسبب فيضها: «ما عرفوا عند سماع القرآن من أنَّه الحقُّ الموعودُ به»[٤].

تأثُّر النَّجاشي وأساقفتِه بسماع القرآن:

حصلت قِصَّة أخرى ـ قبل ذلك ـ للنَّجاشي وأساقفته عند استماعهم للقرآن يتلى عليهم:

فعن أمِّ سلمة رضي الله عنها، أنها قالت في شأن هجرتهم إلى الحبشة، (بلاد

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٥/ ١٨٦). (٢) في ظلال القرآن (٢/ ٩٦٢).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٥)؛ التفسير الكبير (١٢/ ٥٧).
(٤) التحرير والتنوير (٥/ ١٨٧).

النّجاشي)... فقال النّجاشي(١): فهل معكم شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته، فأمرهم فنشروا المصاحف حوله.

فقال لهم جعفر بن أبي طالب ﷺ: نعم، فقرأ عليهم صدراً من: سورة كهيعص. فبكى ـ والله ـ النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتّى أخضلوا مصاحفهم(٢).

المطلب السابع

اثر استماع القرآن في الجن

أمَر الله تعالى رسولَه ﷺ بأنْ يُعلِمَ المسلمين وغيرَهم بأنَّ الله عزَّ وجلَّ أوحى إليه وقوعَ حَدَثٍ عظيم في دعوته المباركة، أقامَهُ الله تكريماً لنبيِّه الكريم ﷺ، وتنويهاً بالقرآن العظيم، وهو أن سخَّر له نفراً من الجنّ لاستماع القرآن، والاهتداء به؛ وهو من الأدلّة التي تدلُّ على أنَّ الجنّ استمعوا القرآن من النبيّ ﷺ، فآمنوا به، وصدَّقوه، وانقادوا له، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

ويُعَدُّ إيمانُ الجنّ بالنبيّ ﷺ، وتأثُّرهم بالقرآن، تأييداً من الله تعالى لنبيِّه

---

(١) النّجاشي: لقبٌ يُلقّب به ملوك الحبشة، كما يُقال لملك الفُرْس: كسرى، ولملك الرُّوم: قيصر، ونجاشي الحبشة المَعْنِيُّ هنا هو: أصحمة بن أبحر، وكان ملكاً صالحاً، لبيباً ذكيّاً، وعالماً عادلاً، شهد له الرَّسولُ ﷺ بالإسلام والصّلاح، وصلّى عليه حين مات، وهو الذي آوى المسلمين في هجرتهم إلى الحبشة، وأكرمهم، ودفع عنهم أذى قريش. توفّي ﷺ سنة (٩هـ)، وقيل: قبل ذلك.

انظر: السِّيرة النبوية، لابن كثير (٢/ ٢٩ ـ ٣٠).

(٢) قِطعةٌ من خبر مُطَوَّل، رواه: ابن إسحاق في «المغازي» (١/ ٢١١)؛ وابن هشام في «السيرة النبوية» (١/ ٢١٧)؛ وأحمد في «المسند» (١/ ٢٠١) (ح١٧٤٥) (٥/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢) (ح٢٢٦٤٥)؛ وأورده الهيثمي في «مجمع الزّوائد» (٦/ ٢٤ ـ ٢٧). وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصّحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرّح بالسّماع».

وصحّح إسنادَه: الألباني في «تخريج فقه السُّنّة» (ص١٥٤)، والأرناؤوط في «تخريج زاد المعاد» (٣/ ٢٩).

الكريم ﷺ، حيث جعله مُصَدَّقاً عند الثَّقلين، ومعظَّماً في العالَمَيْن، وذلك لم يحصل لرسولٍ قبله.

الحكمة من نزول القرآن بخبر الجن:

أشار ابن عاشور رحمه الله إلى الحكمة من نزول القرآن بِخَبَر الجنِّ قائلاً: «والمقصود من نزول القرآن بخَبَر الجنِّ: توبيخُ المشركين بأنَّ الجنَّ ـ وهم من عالَم آخَر ـ عَلِموا القرآن، وأيقنوا بأنّه من عند الله، والمشركون ـ وهم من عالم الإنس، ومن جنس الرَّسول ﷺ المبعوث بالقرآن، وممَّن يتكلَّم بلغة القرآن ـ لم يزالوا في ريب منه، وتكذيب وإصرار، فهذا موعظة للمشركين بطريق المضادَّة لأحوالهم»[١].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «والذين أمر الرَّسولُ ﷺ بأنْ يقول لهم إنه أوحي إليه بخبَر الجنِّ: هم جميع النَّاس الذين كان النبيُّ ﷺ يبلِّغهم القرآن، من المسلمين والمشركين، أراد الله إبلاغهم هذا الخبر؛ لما له من دلالة على شرفِ هذا الدِّين، وشرفِ كتابه، وشرفِ مَنْ جاء به، وفيه إدخال مسرَّة على المسلمين، وتعريضٌ بالمشركين؛ إذْ كان الجنُّ قد أدركوا شرف القرآن، وفهموا مقاصده، وهم لا يعرفون لغته، ولا يدركون بلاغته، فأقبلوا عليه، والذين جاءهم بلسانهم، وأدركوا خصائص بلاغته، أنكروه، وأعرضوا عنه»[٢].

وقد جاء مثل ذلك عن الرّازي رحمه الله، وأشار إليه بقوله: «وفيه فوائد.

إحداها: أن يعرفوا بذلك أنه ﷺ كما بُعِثَ إلى الإنس، فقد بُعث إلى الجنّ. وثانيها: أن تعلم قريش أنَّ الجنَّ ـ مع تمرُّدهم ـ لمَّا سمعوا القرآن عرفوا إعجازه، فآمنوا بالرَّسول. وثالثها: أن يعلم القوم أنَّ الجنَّ مكلَّفون كالإنس. ورابعها: أن يعلم أنَّ الجنَّ يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا. وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان، وفي كلِّ هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها النَّاس»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/٤٨ ـ ٤٩). (٢) المصدر نفسه (٢٩/٢٠٥ ـ ٢٠٦).
(٣) التفسير الكبير (٣٠/١٣٦).

وعلى كلِّ حال: فهؤلاء النَّفر من الجنّ حصل لهم شرف توحيد الله تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته، وصدقِ رسوله ﷺ، وصدقِ القرآن، والتأثُّر بسماعه، فصاروا من خيرة المخلوقات، فأكرموا ـ في الدُّنيا ـ بشرف الدَّعوة إلى الله تعالى، وأكرموا ـ في الآخرة ـ بالفوز بالجنَّة، فلم يكونوا مِمَّنْ ذَرَأَ الله لجهنَّم من الجنّ والإنس.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

* وأمَّا الأدلَّة من السنَّة: فهناك الأحاديث الكثيرة والرّوايات المتكاثرة التي تُثبت تأثُّر الجنّ بما سمعوه من القرآن، وأقتصر في هذا الصّدد على روايةٍ ـ في صحيح البخاري ـ وردت عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما حيث قال:

«انْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ في طَائِفةٍ من أصْحَابِهِ، عامِدِينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وقَدْ حِيلَ بين الشَّياطين وبَيْنَ خَبرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ عليهم الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشّياطِينُ، فقَالُوا: ما لَكُم؟ فقالُوا: حِيلَ بيْننا وبَيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ علَيْنا الشُّهُبُ، قالَ: ما حالَ بينكمْ وبيْنَ خَبرِ السَّمَاءِ إلَّا شيءٌ حَدَثَ، فاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا ما هذا الأمْرُ الَّذِي حَدَثَ. فانْطَلقُوا، فضَرَبُوا مَشَارِقَ الأرْضِ وَمَغَارِبَهَا، يَنْظُرُونَ ما هذا الأمْرُ الذِي حَالَ بيْنَهُمْ وبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ[1] إلَى رَسُولِ الله ﷺ بِنَخْلَةَ[2]، وَهوَ عَامِدٌ إلى

---

(١) (تِهَامَة): اسمٌ لكلِّ مكانٍ غير عالٍ من بلاد الحجاز، سُمِّيت بذلك لِشدَّة حرِّها اشتقاقاً من التَّهَم بفتحتين، وهو شدَّة الحرِّ وسكون الرِّيح.

(٢) (نَخْلَة): موضع بين مكّة والطَّائف، قال البكريُّ: على ليلة من مكّة. وهي التي يُنسب إليها بطن نخل. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٦٦٠).

سُوقِ عُكاظٍ(١)، وَهوَ يُصَلّي بِأصحَابهِ صَلاةَ الفَجرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ تَسَمَّعُوا لهُ(٢)، فقالُوا: هذَا الَّذي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبيْنَ خَبر السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ رَجعُوا إلى قَوْمِهِمْ، فقَالُوا: يا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن ١ ـ ٢]. وَأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ عَلى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]. وإنَّمَا أُوحِيَ إليْهِ قَوْلُ الجِنِّ»(٣).

ومن الفوائد التي ذكرها ابن حجر رحمه الله ـ بعد شرحه للحديث ـ قوله: «وفي الحديث إثباتُ وجودِ الشّياطين والجنّ، وأنها لمسمًّى واحد، وإنّما صارا صِنفين باعتبار الكفر والإيمان، فلا يُقال لمن آمن منهم إنّه شيطان،. . . وأنَّ الاعتبار بما قضى الله للعبد من حُسْن الخاتمة، لا بما يظهر منه من الشرّ، ولو بلغ ما بلغ؛ لأنّ هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان، بمجرد استماع القرآن، لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشّر، ما اختارهم للتّوجُّه إلى الجهة التي ظهر له أنّ الحَدَث الحادث من جهتها. ومع ذلك فغلب عليهم ما قضى لهم من السّعادة بحسن الخاتمة، ونحو ذلك قصّة سحرة فرعون»(٤).

وقد عقّب ابن كثير رحمه الله ـ بعد أن أوْرَدَ الطُّرقَ والرّوايات، التي تفيد استماع الجنّ للقرآن وتأثُّرهم به ـ قائلاً: «فهذه الطُّرق كلُّها تدلُّ على أنه ﷺ ذهب إلى الجنّ قَصْداً، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله ﷻ، وشَرع الله لهم على

---

(١) (سُوق عُكَاظ): هو موسم معروف للعرب. بل كان من أعظم مواسمهم، وهو نخل في وادٍ بين مكّة والطّائف، وهو إلى الطّائف أقرب، بينهما عشرة أميال، وهو وراء قرن المنازل بمرحلة من طريق صنعاء اليمن. وقال البكريُّ: أوّل ما أُحدثت قبل الفيل بخمس عشرة سنة، ولم تزل سُوقاً إلى سنة تسعٍ وعشرين ومائة، فخرج الخوارج الحروريّة فنهبوها فتُركت إلى الآن، وكانوا يُقيمون به جميع شوال، يتبايعون ويتفاخرون، وتنشد الشُّعراء ما تجدَّد لهم، وقد كثر ذلك في أشعارهم كقول حسّان:

سَأَنْشُرُ إنْ حَيِيْتُ لكم كَلاماً   يُنْشَرُ في المَجَامِعِ مِنْ عُكَاظِ

انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٨٥٥).

(٢) (تَسَمَّعُوا له): أي قصدوا لسماع القرآن، وأصغوا إليه.

(٣) رواه البخاري، كتاب التّفسير، باب: تفسير سورة الجنّ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ (٣/ ١٥٧٣) (ح٤٩٢١).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٨٦١).

لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتمل: أنّ أوّل مرّة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس ﵄. ثمّ بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود.

وأمّا ابن مسعود ﵁ فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجنّ ودعائِه إيَّاهم، وإنّما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبيّ ﷺ أحدٌ سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريق البيهقي.

وقد يحتمل: أن يكون أوّل مرّة خرج إليهم لم يكن معه ابنُ مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرّواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهي عند مسلم. ثمّ بعد ذلك خرج معه ليلةً أخرى، والله أعلم»[1].

﴿ وممّا يدلُّ ـ كذلك ـ على صدق إيمان الجنّ وتأثُّرهم بسماع القرآن العظيم، أنّهم قابلوا الآيات التي تُتلى عليهم بالشُّكر القولي.

فعن جابر ﵁ قال: خرَجَ رسولُ الله ﷺ؛ على أصْحَابِه فقرأ عليهم سُورَةَ الرّحمن مِنْ أوّلها إلى آخِرِها فسكَتُوا، فقال:

«لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الجِنِّ لَيْلَةَ الجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُوداً مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣][2]، قالوا: لا بِشَيءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمْدُ»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩٧).

(٢) وتكررت بعدها (٣٠) مرّة.

(٣) رواه الترمذي (٥/ ٣٩٩) (ح٣٢٩١)؛ والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥١٥) (ح٣٧٦٦) وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». ووافقه الذّهبي.
وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٣/ ١١٢) (ح٢٦٢٤).
و«الصّحيحة»: (٥/ ١٨٣) (ح٢١٥٠).

الفصل الرابع

هجر تعلم القرآن وتعليمه

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر هجر تعلُّم القرآن وتعليمه.

المبحث الثاني: آداب مُعلِّم القرآن ومتعلِّمه.

المبحث الثالث: فضائل تعلُّم القرآن وتعليمه.

المبحث الرابع: أحكام تعلُّم القرآن وتعليمه.

المبحث الخامس: همَّة السَّلف في تعلُّم القرآن وتعليمه.

المبحث الأول

مظاهر هجر تعلّم القرآن وتعليمه

الإعراض عن تعلُّم القرآن وتعليمه ـ في الواقع المُعاصر ـ يأخذ مظاهر عدّة، فربَّما كان تشاغلاً بأمر من أمور الدُّنيا، أو كان زهداً في تعلُّم القرآن وتعليمه، أو كان تكاسلاً عن التّعلم والتّعليم، أو جهلاً بفضائل تعلُّم القرآن وتعليمه، أو غير ذلك.

وفي هذه العُجالة سَنُجْمل مظاهر هجر تعلُّم القرآن وتعليمه في النّقاط الآتية:

أولا: مظاهر هجر تعلُّم القرآن:

١ ـ قلَّة احتساب الأجر، وضعف النيَّة في تعلُّم القرآن.

٢ ـ العَبَث والفوضى في مجلس التّعليم، وعدم الانضباط.

٣ ـ الانتظام لفترة وجيزة من الوقت، ثمَّ ترك حلقة التّعليم بلا رجعة.

٤ ـ كثرة الغياب أو التّأخُر في المجيء إلى حلقة التّعليم.

٥ ـ عدم وضوح الهدف والغاية من تعلُّم القرآن.

٦ ـ عدم التزام الأدب في حمل المصحف ووضعه، أو الكتابة عليه، أو تمزيق بعض أوراقه من قبَل صغار المتعلّمين.

٧ ـ التّقصير في الحفظ والمراجعة والأداء، وعدم الحرص على تحسين المستوى في ذلك.

٨ ـ عدم تخصيص أوقات لمراجعة القرآن.

٩ ـ الانقطاع عن حلقة التّعليم لفترات طويلة، ثمّ العودة.

١٠ ـ التّسرُّب من حلقة التّعليم، وإيهام الأهل بالذّهاب إليها والانتظام فيها، مع أنَّ الواقع خلاف ذلك.

١١ ـ اعتناء المتعلّمين بالكمّ دون الكيف أثناء عمليّة التّعليم.

١٢ ـ انحراف أذهان الطّلاب، بل وأجسادهم إلى مواطن اللّعب واللّهو نتيجة قربها من مكان حلقة التّعليم[1].

١٣ ـ جَعْلُ تعلُّم القرآن وسيلة لنيل جوائز مسابقات تحفيظ القرآن، أو للتّعيين في وظيفة إمام مسجد، أو للتّدريس في مدرسة أو حلقة تحفيظ، أو للقبول في جامعة أو كليّة، أو للقراءة في المآتم والعزاء.

١٤ ـ عدم استشعار فضائل تعلُّم القرآن.

١٥ ـ جَعْلُ تعلُّم القرآن مقتصراً على المراحل الدّراسية النّظامية مع عدم كفايتها.

١٦ ـ تعلُّم الفقه والحديث وعلوم الشّريعة الأخرى قبل القرآن الكريم.

١٧ ـ تقدُّم السن مع عدم تعلُّم القرآن حياءً أو تكبُّراً.

١٨ ـ الحصول على شهادات عالية في مختلف التّخصُّصات مع عدم إتقان القرآن الكريم.

١٩ ـ الزُّهد في تخصُّصات علوم القرآن والتّجويد.

٢٠ ـ تبوُّء المناصب المختلفة في الوزارات والشّركات والمؤسّسات والهيئات مع ضعف العناية بتعلُّم القرآن.

٢١ ـ بعض الفُسّاق يتعلمون التّجويد لتحسين مخارج الحروف من أجل أداء أفضل في الغناء، زعموا!!

ثانياً: مظاهر هجر تعليم القرآن:

١ ـ إقبال المعلّم على تعليم القرآن لدافعٍ مادّي بحت، واعتبار التّدريس مجرّد أداء وظيفي لا غير.

٢ ـ استعمال معلّم القرآن طلّابه في نيل مآربه ومصالحه الخاصّة.

---

(١) انظر: نحو أداء متميِّز لحلقات تحفيظ القرآن الكريم، سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي (ص٥٢ ـ ٥٦).

٣ ـ الإقبال على تعليم أبناء الأغنياء دون الفقراء.

٤ ـ قلّة احتساب الأجر في تعليم القرآن، وضعف النيّة.

٥ ـ عدم استشعار فضائل تعليم القرآن.

٦ ـ عدم تفرُّغ المعلّم للحلقة ذهنياً أو زمنياً، أو إتيانه إليها مُنْهك القوى، خائر الجسد.

٧ ـ كثرة غياب المعلّم أو تأخُّره في المجيء إلى حلقة التّعليم.

٨ ـ تصدُّر المعلّمين غير المتقنين لتدريس القرآن.

٩ ـ سوء الخُلُق مع المتعلّمين، وعدم الرِّفق بهم، وعدم الصَّبر على أخطائهم.

١٠ ـ ألّا يكون المعلّم قدوة حسنة لطلّابه في المظهر، أو السُّلوك.

١١ ـ سوء القيام بتأديب المتعلّمين إفراطاً أو تفريطاً.

١٢ ـ عدم وضوح الهدف والغاية من تعليم القرآن.

١٣ ـ ازدراء شخصيّة معلّم القرآن في وسائل الإعلام.

المبحث الثاني

آداب مُعلم القرآن ومُتعَلمه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: آداب مشتركة بين معلِّم القرآن ومتعلِّمه.

المطلب الثاني: آداب معلِّم القرآن.

المطلب الثالث: آداب متعلِّم القرآن.

المطلب الأول

آداب مشتركة بين معلم القرآن ومتعلمه

معلِّم القرآن ومتعلِّمه شريكان في المسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقهما، وهي حمل كتاب الله تعالى؛ وهذه نعمة عظيمة، ومنَّة جليلة، تستوجب الشُّكر الدَّائم، وهي في الوقت ذاته حُجَّة لهما أو عليهما، فلا بدَّ لهما من التَّحلِّي بمجموعةٍ من آدابٍ؛ للمحافظة على هذه النِّعمة الكبيرة، مع الأخذ في الاعتبار أنَّ معلِّم القرآن مُضاعف المسؤوليَّة.

وسأقتصر في هذا الشَّأن على ذكر أدبين مهمَّين، بل هما أصلان عظيمان يجب العمل بهما؛ لأنهما كالأساس للبناء، فلا يقوم الفرع إلَّا بأصل، وهما على النَّحو الآتي:

١ ـ التمسُّك بمنهج السَّلف في الاعتقاد:

يعدُّ الالتزام بأصل الاعتقاد الذي كان عليه السَّلف الصَّالح، وبراءة المرء من المُحدَثات والبدع من أكبر منن الله عليه.

وسلامة الاعتقاد مطلب شرعي، ومن أوَّلِ الصفات التي ينبغي أن يتحقَّق بها معلِّم القرآن ومتعلِّمه.

ذلك أنَّ رجل العقيدة السَّلفية سهم يندفع في تحقيق أهدافه، قد أنارت عقيدتُه بصيرته، فهو يعيش ويموت من أجلها، ويرضى بكلِّ أذى في سبيلها، ويبذل جهده ووقته وكلَّ غالٍ ونفيس في ظلِّها، فرجل العقيدة السَّلفية أعظم ذُخرٍ لها، وأكبر رصيد نُعِدُّه في سبيل نصرتها[(١)].

وسلامة الاعتقاد من المقوِّمات الأساسيّة لمعلِّم القرآن، الذي يتصدَّى للتَّعليم والتَّربية في حلقات القرآن؛ لأنَّ ذلك يُثمر الاستقرار القلبي، فيصبح اعتقاده

---

(١) انظر: المسؤولية، د. محمد أمين المصري (ص٤٠).

القلبي متوافقاً مع قوله اللفظي، وسلوكه العملي[١].

ورجل العقيدة الصحيحة يستطيع أن يحقق أهداف الحلقات القرآنيَّة، بغرس بذرة الإيمان في نفوس النّاشئة، وبناء لبنة عقيدة التّوحيد الخالصة، بحيث يجتمع تعلُّم القرآن مع نقاء الفطرة، فتنمو الثّمرة، وتؤتي أكلها، فيحصل النفع بإذن الله[٢].

ولقد كان أئمّة القُرّاء الأوائل على هذا المنهج الواضح في التّمسُّك بمنهج السّلف في الاعتقاد، والتّحذير من البدع والضّلالات.

فعلى سبيل المثال نجد أنّ الإمام المُقرئ عثمان بن سعيد (أبا عمرو الدّاني رحمه الله)[٣] ألّف: (الرّسالة الوافية لمذهب أهل السُّنة في الاعتقادات وأصول الدّيانات)، التي تنضح بمعتقد أهل السُّنة والجماعة، وتمتاز بسبك الأدلّة في مواضعها، كما أنّها خلت من علم الكلام[٤].

وفي منظومته الموسومة بـ (الأرجوزة المنبّهة) ـ وهي قصيدة رَجَزيّة تقع في نحو (١٣٠٠) بيت ـ أوضَحَ أصول القراءة ومتعلّقاتها، وأصول الدّين، فذكر من صفات الشّيوخ الذين يؤخذ عنهم العلم ما يلي[٥]:

فَاقْصِدْ شُيُوخَ العِلْمِ والرِّوَايَهْ ... ومَنْ سَمَا بِالفَهْمِ وَالدِّرَايَهْ

---

(١) انظر: مهارات التّدريس في الحلقات القرآنية، د. علي بن إبراهيم الزهراني (ص٦٨).

(٢) انظر: المقوّمات الشّخصية لمعلّم القرآن الكريم، د. حازم سعيد حيدر (ص٩).

(٣) هو عثمان بن سعيد (أبو عمرو الدّاني) المالكي، ويقال له: ابن الصّيرفي، وعُرف بالدّاني لسكناه دانيَة، ولد سنة (٣٧١هـ)، كان أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه. قال الذّهبي رحمه الله: «وما زال القرّاء معترفين ببراعة أبي عمرو الدّاني وتحقيقه وإتقانه، وعليه عمدتهم فيما ينقله من الرسم والتّجويد والوجوه». توفّي سنة (٤٤٤هـ). له أكثر من مائة مصنّف، منها: «التيسير في القراءات السّبع»، و«المقنع في رسم المصحف ونقطه»، و«البيان في عدّ آي القرآن».
انظر: طبقات الحفّاظ، للسيوطي (١/٤٢٨)؛ سير أعلام النبلاء (١٨/٧٧).

(٤) انظر: الرّسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الدّيانات، لأبي عمرو الدّاني، تحقيق: د. محمد بن سعيد القحطاني ـ مقدّمة المُحقّق: (ص٨ ـ ٩).

(٥) انظر: الأرجوزة المنبّهة على أسماء القرّاء والرُّواة وأصول القراءات وعقد الدّيانات بالتّجويد والدّلالات، تحقيق: محمد بن مجقان الجزائري (ص١٦٨).

مِـمَّـنْ رَوَى وَقَـيَّـدَ الأَخْـبَـارَا ... وانْـتَـقَـدَ الـطُّـرُقَ وَالآثَـارَا
وَفَـهِـمَ الـلُّـغَـاتِ والإِعْـرَابَـا ... وَعَـلِـمَ الـخَـطَـأَ وَالـصَّـوَابَـا
وحَـفِـظَ الـخِـلَافَ والـحُـرُوفَـا ... ومَـيَّـزَ الـوَاهِـيَ وَالـمَـعْـرُوفَـا
وَجَـمَـعَ الـتَّـفْـسِـيرَ والأَحْـكَـامَـا ... وَلَازَمَ الـحُـذَّاقَ وَالأَعْـلَامَـا
وَصَـحِـبَ الـنُّـسَّـاكَ والأَخْـيَـارَا ... وَجَـانَـبَ الأَرْذَالَ والأَشْـرَارَا
واتَّـبَـعَ الـسُّـنَّـةَ والـجَـمَـاعَـهْ ... وَقَـامَ للهِ بِـحُـسْـنِ الـطَّـاعَـهْ

وقال أيضاً(١):

وَجَـانِـبِ الأَرَاذِلَ الـمُـبْـتَـدِعَـهْ ... وَاعْمَلْ بِقَوْلِ الفِرْقَةِ المُتَّبِعَهْ(٢)

وقال في بيان بعض مسائل العقيدة(٣):

وَمِـنْ عُـقُـودِ الـسُّـنَّـةِ الإِيـمَـانُ ... بِـكُـلِّ مَـا جَـاءَ بِـهِ الـقُـرْآنُ
وَبِـالـحَـدِيثِ الـمُـسْـنَـدِ الـمَـرْوِيِّ ... عَـنِ الأَئِـمَّـةِ عَـنِ الـنَّـبِـيِّ
فَـمِـنْ صَـحِـيحِ مَـا أَتَـى بِـهِ الأَثَـرْ ... وَشَاعَ فِي النَّاسِ قَدِيماً وَانْتَشَرْ
نُـزُولُ رَبِّـنَـا بِـلَا امْـتِـرَاءِ ... فِـي كُـلِّ لَـيْـلَـةٍ إِلَـى الـسَّـمَـاءِ
مِـنْ غَـيْـرِ مَـا حَـدٍّ وَلَا تَـكْـيِـيـفِ ... سُـبْـحَـانَـهُ مِـنْ قَـادِرٍ لَـطِـيـفِ
وَرُؤْيَـةُ الـمُـهَـيْـمِـنِ الـجَـبَّـارِ ... وَأَنَّـنَـا نَـرَاهُ بِـالأَبْـصَـارِ
يَـوْمَ الـقِـيَـامَـةِ بِـلَا ازْدِحَـامِ ... كَـرُؤْيَـةِ الـبَـدْرِ بِـلَا غَـمَـامِ

٢ ـ الإخلاص لله تعالى:

يجب على كلِّ مكلَّف أن يُخلص قصده لله تعالى في سائر أعماله الظّاهرة والباطنة، فكيف بمن ارتبط بكتاب الله تعالى تعلُّماً وتعليماً؟

وقد أمر الله تعالى بإخلاص العمل له ـ وهو الذي يراد به وجهُ الله تعالى لا غيره ـ في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

(١) انظر: المصدر نفسه (ص١٧٤).
(٢) وَهُمْ أهل السنَّة والجماعة، والفرقة النَّاجية من أهل الحديث، المتَّبعون لما كان عليه صدر هذه الأمَّة.
(٣) انظر: المصدر نفسه (ص١٧٨، ١٩٤ ـ ١٩٥).

قال القُشَيْري[١] رحمه الله: «الإخلاص: إفرادُ الحقِّ سبحانه في الطَّاعة بالقصد، وهو أن يُريدَ بطاعته التَّقرُّب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنُّع لمخلوق، أو اكتساب صفة حميدة عند النَّاس، أو محبَّة مدحٍ من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التَّقرُّب إلى الله تعالى.

ويصحُّ أن يُقال: الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين»[٢].

والله تبارك وتعالى ابتلى عباده بالشَّريعة؛ ليظهر منهم حسن العمل، فقال تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أخلصُه وأصوبُه، وإنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً وصواباً. والخالص: إذا كان لله عزَّ وجلَّ، والصَّواب: إذا كان على السُّنَّة»[٣].

وقد يؤدِّي عدم الإخلاص في تعلُّم القرآن وتعليمه إلى إلقاء صاحبه في النَّار، والعياذ بالله.

فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ كَذَبْتَ، ولكِنَّك قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وعَلَّمَهُ، وقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ

---

(١) هو أبو القاسم، عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النَّيسابوري، القُشَيري، الشَّافعي، صوفي، مفسِّر، فقيه، أصولي، محدِّث، واعظ، ولد سنة (٣٧٦هـ)، وتوفي بنيسابور سنة (٤٦٥هـ). من تصانيفه: «التَّيسير في التَّفسير»، و«الفصول في الأصول»، و«الجواهر الثَّمينة».
انظر: سير أعلام النُّبلاء (١١/ ١٩٨)؛ طبقات الشَّافعية (٣/ ٢٤٣).

(٢) الرِّسالة القشيريَّة، لعبد الكريم القشيري (ص٢٠٧ ـ ٢٠٨). وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٤٢).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٤)؛ تفسير البغوي (٨/ ١٧٦).

تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وقَرَأْتَ القُرآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ...» الحديث(١).

ولذلك يعدُّ العمل الخالي من النيّة الصّالحة كالجثة الهامدة، التي لا روح فيها، وقد فرض الله عزّ وجلّ عبوديّةً على المسلم في كلّ عمل يعمله، وممّا لا مراء فيه أنّ تعلُّم القرآن وتعليمه من أجلّ القربات وأعظمها أجراً، وكلّما أخلص المرء لله لم يتعثّر في سيره، وأُعطي توفيقاً بقدر ما في قلبه من الصّدق والإخلاص(٢).

ولِعِظَمِ هذا الأمر وأهميّته في مقاصد المكلَّفين، وفيما يتعبّدون به ربّهم، تمنّى ابن أبي جمرة الأندلسي(٣) رحمه الله أنْ يتفرّغ بعضُ أهل العلم كي يعلِّمَ النّاس مقاصدهم، فقال: «وددت أنّه لو كان من الفقهاء مَنْ ليس له شُغل إلّا أنْ يُعلِّم النّاس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتّدريس في أعمال النيّات ليس إلّا، فإنّه ما أُتِيَ على كثير من النّاس إلّا من تضييع ذلك»(٤).

ويرتبط بهذا بالضّرورة: ألّا يقصد بتعلُّم القرآن وتعليمه توصُّلاً إلى غرض من أغراض الدُّنيا من مال، أو رياسة، أو وجاهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عند النّاس، أو صرف وجوه النّاس إليه، أو نحو ذلك(٥).

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: منْ قاتل للرّياء والسُّمعة استحقّ النّار (٣/ ١٥١٤) (ح١٩٠٥).

(٢) انظر: المقوّمات الشّخصية لمعلّم القرآن الكريم (ص١٢).

(٣) هو عبد الله بن أبي جمرة السّبتي، المالكي، خطيب غرناطة (أبو محمد) توفّي وهو على المنبر يوم الجمعة سنة (٧١٠هـ).
انظر: ذيل التّقييد في رواة السنن والمسانيد، لأبي الطيّب الفاسي (٢/ ٧٠).

(٤) المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيّات، لابن الحاج (١/ ٣).

(٥) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٤٦).

وَجْهُ الله ﷻ، لا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ» يعني: رِيحَها(١).

وعن كعْبِ بنِ مالكٍ ﷺ قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ»(٢).

قال الذَّهبي(٣) ﷺ: «قد يكون طلبُ العلم ـ الذي هو الواجب والمستحبُّ المتأكِّد ـ مذموماً في حقِّ بعض الرِّجال كمن طلبَ العلم ليجاريَ به العلماءَ، ويماريَ به السُّفهاءَ، وليصرفَ به الأعين إليه، أو ليعظَّمَ ويقدَّمَ، وينالَ من الدُّنيا المالَ والجاه والرِّفعة، فهذا أحدُ الثَّلاثة الذين تُسجَّر بهم النَّار»(٤).

وتأتي أهميَّة تصفية النيَّة من الشَّوائب، وإخلاصها لله تعالى في فاعليَّة العمليَّة التَّعليمية والتَّربوية من كونها أساساً لقبول عمل المعلِّم والمتعلِّم ورفع عملهما الصَّالح، ومن الجانب الآخر فإنَّ معلِّم القرآن قدوةٌ لطلَّابه، فإذا كان خالي الوفاض أو مُكدَّر المورد في هذه الصِّفة، فكيف يُؤثِّر في المتعلِّمين، ويحقِّق أهدافه التَّعليمية والتَّربوية؟(٥).

---

(١) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب: في طلب العلم لغير الله (٣/ ٣٢٣) (ح٣٦٦٤)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٢/ ٦٩٧) (ح٣١١٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب العلم، باب: فيمن يطلب بعلمه الدُّنيا (٥/ ٣٢) (ح٢٦٥٤)؛ وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٢/ ٣٣٧) (ح٢١٣٨).

(٣) هو الإمام محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التُّركماني الأصل، الفارقي، ثم الدِّمشقي، الذَّهبي، الشَّافعي (أبو عبد الله) مُحدِّث، مؤرِّخ، ولد بدمشق سنة (٧٥٩هـ)، وسمع بها وبحلب وبنابلس وبمكَّة وبمصر، وسمع منه خلقٌ كثير، كان إماماً في الحفظ، والجرح والتَّعديل، توفِّي بدمشق سنة (٨١٩هـ) ودفن بمقبرة الباب الصَّغير. وله تصانيف كثيرة منها: «ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال»، و«طبقات الحفَّاظ»، و«الإعلام بوفيَّات الأعلام»، و«تجريد أسماء الصَّحابة»، و«سير أعلام النُّبلاء». انظر: طبقات الشَّافعية (٥/ ٢١٦)؛ الدُّرر الكامنة (٣/ ٣٣٧).

(٤) طلب العلم وأقسامه، للذَّهبي (ص٢١٠ ـ ٢١١).

(٥) انظر: المقوِّمات الشَّخصية لمعلِّم القرآن الكريم (ص١٣).

المطلب الثاني

آداب معلم القرآن

من المعلوم بداهةً أنَّ الفرع يَتْبع الأصل، وأنّه لا يستقيم الظلُّ والعودُ أعوج، وأنّ لكلّ مقتدٍ مَثلاً يحتذيه.

والمعلّمون بعامة، ومعلّمو القرآن بخاصّة هم القدوة لطلّابهم، فالواجب على مُعلّم القرآن أن يسلك مسلكاً حسناً في تعليم منْ يعلّمهم، فلا يريبهم من نفسه ما ينفّرهم، ويتحلّى بصفات الحلم والرّأفة والأمانة، والصّدق والإخلاص، وأنْ يحنو عليهم كما يحنو على أبنائه.

وقد اعتنى معلّمو القرآن من السّلف الصّالح بطلّابهم، فأوْلوهم كلّ رعاية وعناية، وكانوا قدوة صالحة لهم في حبّ كلام الله تعالى وتعظيمه والإقبال عليه، مع التّحلي بأخلاقه، والتأدُب بآدابه، ورعاية حقوقه، وأقبلوا على طلّابهم بكلّ حفاوة وترغيب، وشَمِلوهم بكلّ عطف ولين، ومحّضوا لهم النّصيحة وتابعوهم بالتّوجيه والتّسديد والإرشاد.

ومن هنا كان اهتمام علماء المسلمين بوضع عدد من القواعد والضّوابط أو الآداب التي يجب أن يلتزم بها معلّمو القرآن الكريم أثناء قيامهم بهذه المهمّة الشريفة المباركة، ومن هؤلاء: الآجُرّي[١]، وأبو حامد الغزالي[٢]، والنّووي[٣] وغيرهم، رحمهم الله تعالى.

فلا بدّ لمعلّم القرآن أن يلتزم جملةً من الآداب؛ ليكون على قدر المسؤوليّة، والمهمّة الجسيمة الملقاة على عاتقه، والتي منها:

١ ـ الاستقامة على دين الله تعالى:

المقصود من ذكر صفة الاستقامة لمعلّم القرآن، التّنبيه على أن يواطئ قوله

---

(١) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص٣٥ ـ ٦٥).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٤٨/١) وما بعدها.

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٤١ ـ ٥٩).

وعمله ما يحمل من كلام الله؛ ليكون القرآن العظيم حجَّةً له، لا عليه، وليرفعه الله به، وينفع بتعليمه.

والاستقامة صفة تجعل من معلِّم القرآن أنموذجاً كريماً، وقدوة صالحة في نَظَرِ طلَّابه، والمقصود بالاستقامة هنا هو الصِّدق والأمانة، والعدل والوفاء، والالتزام بأحكام الشرع الحنيف، والتمسُّك بالكتاب والسنّة ظاهراً وباطناً.

فقد ذكر العلماء أنَّ من شرط معلِّم القرآن وصفته أن يكون ثقةً مأموناً، ضابطاً، متنزِّهاً عن أسباب الفسق، ومُسقطات المروءة(١).

وينبغي له كذلك أن يكون ملتزماً بالفرائض والواجبات، ومحافظاً على المندوبات بحسب الاستطاعة، مجتنباً للمحرّمات، مبتعداً عن المكروهات بقدر الطَّاقة، محاسباً نفسه على هفواته وزلّاته، حريصاً على ما يُصلح دينه(٢).

عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: «ينبغي لحامل القرآن أنْ يُعرف بليله إذا النَّاس نائمون، وبنهاره إذا النّاس مُفطرون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبتواضعه إذا النّاس يختالون، وبحزنه إذا النّاس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا النّاس يخوضون»(٣).

وممَّا ينبغي لمعلِّم القرآن الاعتناء به، أن يُحافِظ ويداوم على تلاوة القرآن، دون الاكتفاء بالتَّسميع للطَّلبة عند المراجعة، فيقتصر على سماع القرآن دون تلاوته، مما يوقعه في هجر تلاوة القرآن.

وممّا يجب على المعلِّم أن يأخذ نفسه به، وينشِّئ طلَّابه عليه، البعد عن الأساليب المبتدعة في القراءة، التي أُحدثت بعد القرون المُفضَّلة(٤).

---

(١) انظر: منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري (ص٥٨).

(٢) انظر: المدارس والكتاتيب القرآنية وقفات تربوية وإدارية، سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي (ص١٣).

(٣) رواه أحمد في «كتاب الزهد» (ص١٦٢)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٩)؛ والسخاوي في «جمال القراء» (ص٢٨)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٢٣١) (رقم ٣٥٥٨٤)؛ والنووي في «التبيان» (١/ ٢٩)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢١)؛ والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص٥٠).

(٤) انظر: المقوّمات الشّخصية لمعلِّم القرآن الكريم (ص١٣ ـ ١٤).

٢ ـ حسن الخُلق مع المتعلِّمين:

من المبادئ المهمَّة التي ينبغي لمعلِّم القرآن أن يعتني بها، ويعرف حدودها وثمارها الأُخروية والدُّنيوية هو حسن الخلق، ويتأكَّد هذا ـ في حقِّ معلِّم القرآن ـ من جانبين:

أ ـ أنَّه من حملة كتاب الله، فهو من العلماء، والعلماء هم ورثة الأنبياء في العلم، فكذلك ينبغي عليهم أن يرثوهم في الأخلاق، وقد أثنى الله تعالى على نبيِّه الكريم ﷺ بأعظم خَلَّة يتحلَّى بها بشر، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ب ـ أنَّ مَنْ تصدَّى لتعليم النَّاس ومخالطتهم، ينبغي أن يتحلَّى بحسن السِّياسة وتدبير الأمور؛ لأنَّه سيواجه منهم ما يكره في بعض الأحيان[١].

وقد اعتنى السَّلف الصَّالح بهذا وامتثلوه قولاً وعملاً، وسيرهم العطرة مع طلَّابهم خير شاهدٍ على ذلك[٢].

* فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه كان يقول: «تعلَّموا العلمَ، وتعلَّموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تُعلِّمون، ولا تكونوا جبابرة العلماءِ، فلا يقوم علمُكم مع جَهْلِكم»[٣]. فإذا كان العلم هو: القرآن، فالمسؤوليَّة أعظم.

* وهم بهذا الصَّنيع يسيرون على هدي القرآن، ويمتثلون أمره: «كان أبو العالية رحمه الله إذا دخل عليه أصحابه وطلَّابه ليقرئهم رحَّب بهم، ووطَّأ كنفَه لهم، وألان القول معهم، ثمَّ يقرأ قولَه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]»[٤].

* وقد ذكر مَنْ ترجم للإمام المقرئ نافع بن أبي نُعيم المدنيِّ رحمه الله ـ أحدِ

---

(١) انظر: المصدر نفسه (ص١٥).
(٢) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم (ص٩٨ ـ ١٠٠).
(٣) رواه أحمد في «الزهد» (ص١٧٧)؛ والآجُرِّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص٦١)؛ وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٣٥).
(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٢١). وانظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١١).

القرّاء السّبعة ـ أنَّ من أسباب إقبال الطلّاب على أخذ القراءة عنه وملازمته، ما كان عليه من حسن الخلق، وصباحةِ الوجه وطلاقتِه، وكرمِه وجودِه على طلابه وغيرهم، يقول عيسى بن مينا قالون: «كان نافع من أطهر النّاس خُلُقاً، ومن أحسن النّاس قراءةً، وكان زاهداً جواداً»[1].

وجاء أيضاً عنه: «كان يُسَهِّلُ القرآنَ لمن قرأ عليه»[2].

فلا غرابة ـ بعد ذلك ـ أنْ نجد من أهل العلم من يُعنى بهذا الجانب، ويؤكِّد عليه في مواضع مختلفة من مصنَّفاته؛ لما له من أثر إيجابيٍّ في تقوية الرّوابط الاجتماعيّة بين المعلّم والمتعلّم، ومن ذلك:

* ما قاله الماوردي[3] رحمه الله: «ومن أدبهم: ألّا يُعنِّفوا مُتعلّماً، ولا يُحقِّروا ناشئاً، ولا يستصغروا مُبتدئاً، فإنّ ذلك أدعى إليهم وأعطف عليهم، وأحَثُّ على الرّغبةِ فيما لديهم»[4].

* ومن الآداب التي ذكرها النّووي رحمه الله في حقِّ معلِّمي القرآن:

«وينبغي ألّا يتعاظم على المتعلّمين بل يلين لهم، ويتواضع معهم، فقد جاء في التّواضع لآحاد النّاس أشياءُ كثيرة معروفة، فكيف بهؤلاء الذين هم بمنزلة أولاده، مع ما هم عليه من الاشتغال بالقرآن، مع ما لهم عليه من حقِّ الصُّحبة وتردُّدهم عليه»[5].

---

(١) معرفة القراء الكبار (ص٦٥)؛ غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٣٣٣).
(٢) غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٣٣٣).
(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد المشهور بالماوردي الإمام الفقيه، قيل له الماوردي؛ لعمل عائلته بصناعة ماء الورد وبيعه، ولد سنة (٣٦٤هـ) بالبصرة، وطلب فيها العلم على المذهب الشّافعي، ثم رحل إلى بغداد وتتلمذ على يد رئيس الشّافعية هناك الشّيخ الإسفرايني، ثمّ تقلّد رئاسة الشّافعية بعده، وله مؤلّفات عديدة منها: «الحاوي الكبير»، و«الأحكام السّلطانية» وغيرها. توفّي سنة (٤٥٠هـ).
انظر: البداية والنّهاية (١٢/ ٨٥)؛ طبقات الشّافعية (٥/ ٢٦٧).
(٤) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص٩١).
(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٥٤).

٣ ـ بذل النَّصيحة للمتعلِّمين:

ينبغي لمعلِّم القرآن أن ينصح المتعلِّمين، ويبذل لهم كلَّ ما عنده من علم، فالنَّصيحة من صفات الأنبياء ﷺ قال الله تعالى مُخبراً عن هودٍ ﷺ: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقال عن نوحٍ ﷺ: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وأصل النُّصح: إخلاص النِّيَّة من شوائب الفساد في المعاملة؛ بخلاف الغِش(١).

* وعلى المعلِّم أن يبادرَ إلى سؤال المتعلِّمين، ويبتدئهم بالفائدة، ويحرِّضهم على أخذ ما عنده من علم، كما فعَل عليُّ بن أبي طالب ﷺ مع طلَّابه حيث قال لهم: «سلوني، فوَاللهِ لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلَّا حدَّثتكم به، وسلوني عن كتاب الله؛ فَوَالله ما منه آية إلَّا وأنا أعلم بليلٍ نزلت أم بنهار، أم بسَهْلٍ أم بجبل... أيُّها النَّاس تعلَّموا العلم، واعملوا به، ومَنْ أشكل عليه شيء من كتاب الله فليسألني عنه»(٢).

* وعن سعيد بن جُبير(٣) ﷺ قال: «إنَّ ممَّا يَهُمُّني، أنِّي وددْتُ أنَّ النَّاس، قد أخذوا ما معي من العلم»(٤).

ومن وصايا المعلِّمين لطلابهم والأمَّة من بعدهم ـ إضافةً لما سبق(٥).

* عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: «إنَّما هذه القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن،

---

(١) انظر: حق القرآن الكريم على الناس (ص١٧٣).

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٤ ـ ١١٥).
وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٥٩٩).

(٣) هو سعيد بن جُبير بن هشام الأسدي، مولاهم، الكوفي، أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد، من أئمة السَّلف، من الطَّبقة الثَّالثة، ومن الفقهاء والعلماء الصَّالحين الثِّقات، وكان عابداً فاضلاً ورعاً، خرج مع ابن الأشعث على الحجَّاج والي بني أميَّة، فلمَّا تمكَّن منه الحجَّاج قتله، وذلك سنة (٩٥هـ)، وعمره (٤٩)، وقيل (٤٧) سنة.
انظر: تهذيب التَّهذيب (٤/ ١١ ـ ١٤).

(٤) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٦)؛ وأبو نُعيم في «الحلية» (٤/ ٢٨٣)؛ والمزِّي في «تهذيب الكمال» (١٠/ ٣٦٧).

(٥) انظر: منهج السلف في العناية بالقرآن (ص٩٢ ـ ٩٣).

ولا تشغلوها بغيره»[1].

* وكان أبو العالية ﷺ يقول لطلابه: «تعلّموا القرآن، فإذا تعلّمتموه فلا ترغبوا عنه، وإيَّاكم وهذه الأهواء فإنَّها تُوقع بينكم العداوة والبغضاء، وعليكم بالأمر الأوّل الذي كانوا عليه قبل أن يتفرّقوا»[2].

* وقال مالك بن دينار[3] ﷺ: «ماذا زرَعَ القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن إنَّ القرآن ربيعُ المؤمن، كما أنَّ الغيث ربيعُ الأرض»[4].

* وفي حثِّ المتعلِّمين على تعاهد الحفظ، يقول الضَّحَّاك بن مزاحم[5] ﷺ: «ما من أحد تعلَّم القرآنَ فنسيه إلَّا بذنب يُحْدِثُه؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وإنَّ نسيان القرآن من أعظم المصائب»[6].

٤ ـ التدرُّج في التَّعليم والتَّربية:

البداءة بتعليم الأصول والكليّات قبل الفروع والجزئيّات، يُعَدُّ السلَّم السوي في مراتب التَّعليم، وهو أدعى لثبات العلم ورسوخه لدى المتعلِّم.

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣١). (٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢١٨).

(٣) هو مالك بن دينار البصري (أبو يحيى) من موالي بني سامة بن لؤي القرشي، كان عالماً زاهداً، كثير الورع، قنوعاً، له مناقب عديدة، وآثار شهيرة، قال ابن حجر ﷺ: «صدوقٌ عابد، من الخامسة». توفِّي سنة (١٣١هـ) بالبصرة قبل الطَّاعون بيسير.
انظر: وفيّات الأعيان (٤/ ١٣٩)؛ تقريب التهذيب (١/ ٥١٧).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٥٨).

(٥) هو الضَّحاك بن مزاحم الهلالي، الخراساني، تابعيٌّ، جليلٌ، إمامٌ في التَّفسير، قال الثَّوري ﷺ: «خذوا التَّفسير عن أربعة: مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبير، والضَّحاك». قال في تقريب التَّهذيب: «صدوقٌ، كثيرُ الإرسال». وثَّقه ابن حبَّان وأحمد، وضعَّفه يحيى بن سعيد القطَّان، توفِّي سنة (١٠٥هـ).
انظر: البداية والنِّهاية (٩/ ٢٢٣)؛ تقريب التهذيب (١/ ٣٧٣).

(٦) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٠٤)؛ وابن المبارك في «الزُّهد» (ص٨٥)؛ وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (١٠/ ٤٧٨)؛ وابن كثير في «فضائل القرآن» (ص٢٢٢).

وقد قرَّر المنهجُ النَّبوي المبارك هذه الطَّريقةَ في التَّعليم:

عَنْ جُنْدُبِ بنِ عبْدِ اللهِ قال: «كُنَّا مَعَ النبيِّ ﷺ، وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ[١]، فَتَعلَّمْنا الإيمَان قَبْلَ أنْ نَتَعَلَّمَ القُرآن، ثُمَّ تعلَّمْنا القُرآن، فَازْددْنا بِهِ إيمَانَاً»[٢].

وسَرَى هذا المنهج على الصَّحابة الكرام عموماً، فقد أخبر ابن عمر ﷺ - وهو من صغار الصَّحابة - فقال: «لقد عشتُ بُرْهةً من دهري وإنَّ أَحَدَنا يُؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السُّورة على رسول الله ﷺ فنتعلَّم حلالَها وحرامَها، وما ينبغي أن نقف عنده منها، كما تُعلَّمون أنتم القرآنَ...»[٣].

ثمَّ بيَّن ابن عمر ﷺ أنَّ هذا المنهج طرأ عليه تغيير في جيل التَّابعين، فقال عن بعض مَنْ شاهَدَ طريقته في تعلُّم القرآن:

«... ثم لقد رأيتُ رجالاً يُؤتى أحدُهم القرآنَ قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، ما يدري ما آمِرُه، ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نَثْرَ الدَّقَل[٤]»[٥].

وهذه حقيقة مرّة نلحظها اليوم في بعض رُوَّاد حِلَق القرآن، ومَنْ يحفظ القرآن، فتجد الواحد منهم من أبعد النَّاس خُلُقاً وأدباً وسلوكاً عمَّا يحفظه في صدره من القرآن، وما ذاك إلَّا للتَّحوُّل عن المنهج الصَّحيح في الأخذ والتَّلقي، فأصبح الأمر مجرَّد ألفاظ يردِّدها! ويحفظها، دون أن يكون لها مسلك إلى قلبه.

ولهذا يجب على كلِّ معلِّم للقرآن أن يكون حكيماً في تعليمه، متفهِّماً لما

---

(١) (حَزَاوِرَة): جَمْع حَزْوَرٍ وحَزَوَّرٍ، وهو الذي قارَبَ البلوغ، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٨٠).

(٢) رواه ابن ماجه في «المقدِّمة» (١/ ٢٣) (ح٦١).

(٣) رواه الطَّبراني في «الأوسط». انظر: مجمع البحرين في زوائد المعجمين، للهيثمي (١/ ٤٨٢)، وَحَسَّنه المحقِّق؛ والسُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٢/ ٦٩)؛ والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (٣/ ١٢٠) (رقم ٥٠٧٣)؛ والحاكم في «المستدرك» (١/ ٩١) (رقم ١٠١). وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرفُ له علَّة، ولم يخرجاه». وقال الذَّهبي: «على شرطهما ولا علة له».

(٤) (الدَّقَل): رديء التمر ويابِسُه. النهاية في غريب الحديث (٢/ ١٢٧).

(٥) تتمّة الحديث نفسه.

يعطيه، قال تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾: «حُلَماءَ فُقهاءَ»[١]. وقال الإمام البخاريُّ[٢] رحمه الله: «وَيُقال: الرَّبَّانيُّ الذي يُربِّي النَّاس بصغار العلم قبل كِبارِه»[٣].

فالمعلِّم اللَّبيب هو الذي يبدأ بالأمور السهلة الواضحة، قبل المسائل الدقيقة الشَّائكة[٤]، فيراعي مدارك المتعلِّمين، ومستوياتهم، وأعمارَهم، ويعطي كلاً ما يناسبه[٥].

وعلى ضوء ما سبق فإنَّه يتعيَّن على معلِّم القرآن استخدام أسلوب التَّدرج في التَّعليم والتَّأديب؛ لأنَّ الوصول بالمتعلِّم إلى الكمال التَّربوي لا يتم إلَّا بالتَّدرج، وأيُّ استعجالٍ في التَّعليم، أو التَّربية في الحلقات القرآنية، دون مراعاة هذه القاعدة، فإنه يعني الفشل التَّربوي، والإخفاق في تحقيق الأهداف التربويَّة[٦].

٥ ـ الرِّفق بالمتعلِّمين:

يُعَدُّ الرِّفق من الأصول المهمَّة في التَّعليم والتَّربية؛ لأنَّ الرِّفق ما كان في شيء إلَّا زانه، وما نُزِعَ من شيء إلَّا شانه، والله تعالى رفيق يحبُّ الرِّفق:

عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «يا عَائِشَةُ! إنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٥٠).

(٢) هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (أبو عبد الله) صاحب أصحِّ كتابٍ بعد كتاب الله، وهو صحيح البخاري، اتَّفقت الأمَّة على إمامته في الحديث، قال ابن حجر: «جَبَلُ الحفظ، وإمام الدُّنيا في فقه الحديث». توفِّي سنة (٢٥٦هـ)، وعمره (٦٢) سنة. انظر: تقريب التَّهذيب (٢/ ١٤٤).

(٣) صحيح البخاري (١/ ٥٠).

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٢١٣).

(٥) انظر: المقوِّمات الشَّخصية لمعلِّم القرآن الكريم (ص٣٥ ـ ٣٦).

(٦) انظر: مهارات التَّدريس في الحلقات القرآنية (ص٢٢٢)؛ نحو أداء متميِّز لحلقات تحفيظ القرآن الكريم (ص٤٥ ـ ٥٧).

الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ[(١)] مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»[(٢)].

وعلى معلِّم القرآن أن يسلك بالمتعلِّمين سبيل الرِّفق في التَّعليم، فلا يشدِّد عليهم، ولا يلقاهم بما يكرهون؛ لئلَّا ينفروا من قول الحقِّ واتِّباع الهدى.

ولأهميَّة الرِّفق في التَّعليم أوصى به النبيُّ ﷺ في قوله: «عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا، ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا، وإذا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ»[(٣)].

وتزداد أهميَّة التَّعليم برفقٍ لدى الصِّغار، الذين يحملون في حناياهم أحاسيس مرهفة، أو لدى غلاظ الطِّباع، الذين لم يتأدَّبوا بعلم، أو مجالسةٍ، ممَّا يُحمِّل المعلِّم عبئاً كبيراً ومسؤوليَّة زائدة، يحتسب أجرها عند الله تعالى.

ويُعتبر النبيُّ ﷺ أكبر المعلِّمين، وأعظمهم في العالم؛ إذ ساهم ـ برفقه وحلمه وحسن خلقه ـ في ضبط سلوك الكبار والصِّغار، والعرب والعجم، وأهل المدن والبادية، مستخدماً أساليب التَّربية والتَّعليم التَّدريجي، والرِّفق، واليسر، والرحمة، ممَّا أدَّى إلى ضبط سلوك ملايين البشر ضَبْطاً ذاتياً، فكوَّن المعلومات، والمهارات، والعقائد الصَّحيحة، والاتِّجاهات الراسخة، على مدى الزمن[(٤)].

ومن صور رفق المعلِّم بالمتعلِّم: ألَّا يَرُدَّ لكونه غير صحيح النِّيَّة بطلبه القرآن، قال النَّووي ﷺ: «قال العلماء: ولا يمتنع من تعليم أحدٍ لكونه غير صحيح النِّيَّة، فقد قال سفيان وغيره: طلبُهم للعلم نيَّة. وقالوا: طَلَبْنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلَّا لله. معناه: كانت عاقبته أنْ صار لله تعالى»[(٥)].

---

(١) (ويُعْطِي على الرِّفْقِ): أي يُثِيبُ عليه ما لا يُثيب على غيره. وقيل: يتأتَّى به من الأغراض، ويَسْهل من المطالب، ما لا يتأتَّى بغيره.
انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٤٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصِّلة والآداب، باب: فضل الرِّفق (٤/ ٢٠٠٤) (ح٢٥٩٣).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٩٥) (ح٢٤٥)؛ وأحمد في «المسند» (١/ ٢٨٣) (رقم ٢٥٥٦)؛ وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصَّحيحة»: (٣/ ٣٦٤) (ح١٣٧٥)؛ و«صحيح الأدب المفرد»: (ص١٠٩) (ح١٨٤).

(٤) انظر: حق القرآن الكريم على الناس (ص١٧٤ ـ ١٧٥).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٥٨). وانظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص٤٧)؛ منجد المقرئين ومرشد الطالبين (ص٦٣).

ومن صور الرِّفق كذلك: أن يتخوَّل المعلِّم الرَّد اللَّطيف على المتعلِّم حين خطئه، قال الآجُرّي تَعْلَلهُ - في أخلاق المقرئ: «وينبغي لمن قرأ عليه القرآن فأخطأ فيه، أو غلط ألّا يعنِّفه، وأن يرفق به، ولا يجفو عليه، فإنّي لا آمن أن يجفوَ عليه فينفر عنه، وبالحريِّ ألّا يعود إلى المسجد»[1].

وهذا كلام دقيقٌ من عالم حكيم مُجرِّب، فالعنف من أسباب النُّفور والابتعاد، فلا بدَّ أن يكون ردُّ المعلِّم على المتعلِّم بطريقة لطيفة، لا تعنيف فيها ولا زجر، ولا استعجال، ويتمنّى بقلبه أن يفتح الله تعالى على الطّالب ليأتيَ بالصّواب، فإنْ عجز أرشده بأنْ يأتيَ بآية قبلها، فهو أدعى لاستذكاره واستحضاره، فإنْ غلب عليه الخطأ أرشده إلى التَّوبة من الذُّنوب، والمراجعة المُتقنة، والبعد عن كلِّ سبب يؤدِّي لضعف الحفظ[2].

٦ - الصَّبر على المتعلِّم:

خُلُق الصَّبر من الأخلاق العظيمة التي مَنْ تحلَّى بها نال العلا، ومعلم القرآن يحتاج إلى الصَّبر في رسالته العظيمة، فهو من الهداة إلى الله تعالى، المتمسّكين بكتابه، فهو من أئمّة الدِّين الذين يحتاجون للصّبر واليقين، وهما ركنا الإمامة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال عنه النّبي ﷺ: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»[3].

قال ابن رجب[4] رَحِمَهُ اللهُ: «والضّياء: هو النُّور الذي يحصل فيه نوعُ حرارةٍ وإشراق كضياء الشّمس، بخلاف القمر فإنه نورٌ مَحْض، فيه إشراق بغير إحراق،

(١) أخلاق حملة القرآن (ص٦٠).

(٢) انظر: المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم (ص٣٨ - ٣٩).

(٣) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء (١/٢٠٣) (ح٢٢٣).

(٤) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي، ثم الدّمشقي، الحنبلي (أبو الفرج) الحافظ، المحدِّث، الفقيه، الواعظ، ولد ببغداد سنة (٧٣٦هـ)، يُعدُّ أعرف أهل عصره بالعلل، وتتبُّع الطُّرق. توفي سنة (٧٩٥هـ). وله مصنّفات عديدة، منها: «شرح جامع التِّرمذي»، و«لطائف المعارف»، و«ذيل طبقات الحنابلة».
انظر: شذرات الذّهب (٦/٣٣٩)؛ طبقات الحفّاظ (ص٥٤٠).

قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. ولمَّا كان الصَّبر شاقّاً على النُّفوس، يحتاج إلى مجاهدةِ النَّفس وحبْسِها، وكفِّها عمَّا تهواه، كان ضياءً»[١].

والمراد أنَّ الصَّبر كلُّه خير، وهو محمود، ولا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمرّاً على الصَّواب[٢]. فلا بدّ للمعلِّم من الصَّبر على الجلوس الطَّويل للتَّعليم والقراءة، والصَّبر على أخلاق المتعلِّمين وما يصدر عنهم ـ أحياناً ـ من نقائص، فهو محتاج دائماً للصَّبر.

وقد حثَّ النَّووي رحمه الله المعلِّمين على الصَّبر على جفاء بعض المتعلِّمين وسوء أدبهم فقال: «وينبغي أنْ يحنو على الطالب، ويعتني بمصالحه، كاعتنائه بمصالح ولده ومصالح نفسه، ويُجري المتعلِّم مجرى ولده في الشَّفقة عليه، والاهتمام بمصالحه، والصَّبر عنى جفائه، وسوء أدبه، ويعذره في قلَّة أدبه في بعض الأحيان، فإنَّ الإنسان مُعرَّض للنَّقائص، لا سيَّما إذا كان صغير السِّن»[٣].

ومن صور الصَّبر على جفاء المتعلِّمين وشدَّتهم أحياناً: ما جاء عن أبي بكر شُعبة بن عيَّاش[٤] رحمه الله أنه قال: «تعلَّمتُ من عاصمٍ[٥] القرآن، كما يتعلَّم الصبيُّ من المعلِّم، فلقي منِّي شدَّةً، فما أُحسن غير قراءتِه، وهذا الذي أُحدِّثك به من القراءات، إنَّما تعلَّمته من عاصمٍ تعلُّماً»[٦].

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٥٨٠ ـ ٥٨١).
(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ١٠١).
(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٥٣).
(٤) هو أبو بكر بن عيَّاش بن سالم الأسديُّ الكوفيُّ، المقرئ، الحَنَّاط، مشهور بكنيته، والأصحُّ أنَّها اسمه. وقد اختُلِف في اسمه على عشرة أقوال. ثقةٌ، عابدٌ، إلَّا أنه لمَّا كبر ساء حفظه، وكتابه صحيح. توفِّي سنة (١٩٤هـ) وقد قارب المائة.
انظر: تقريب التَّهذيب (١/ ٦٢٤).
(٥) هو عاصم بن بَهْدلة، وهو ابن أبي النَّجود، الأسديُّ بالولاء، الكوفيُّ (أبو بكر) المقرئ. صدوقٌ له أوهام، حُجَّة في القراءة. توفِّي سنة (١٢٨هـ).
انظر: تقريب التَّهذيب (١/ ٢٨٥).
(٦) سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٠٢)؛ معرفة القراء الكبار (١/ ١٣٧).

من دواعي الصَّبر:

فلا غنى للمعلِّم عن الصَّبر، فربَّما كان المتعلِّم بطيء الفهم، ضعيفَ الحفظ - وهي حالة لا يَدَ له فيها، فهي خارجة عن إرادته - فإن اسْتعجَلَه فلن يحقِّقَ معه هدفاً، وربَّما أربكه، فيكون سبباً في اضطِّرابه وتَلَجْلجه بالقراءة، وبذلك يتعسَّر عليه الحفظ والفهم[1].

«وممَّا يُؤكِّد ضرورة الصَّبر على المتعلِّمين في الحلقات القرآنية في هذا العصر أكثر من أيِّ وقتٍ مضى: ما أفرزه التَّقدُّم المعرفي، والتَّقني، وانتشار وسائل الاتِّصال التي جعلت العالم كقرية واحدة، فأدَّى ذلك إلى اتِّساع ثقافة التَّلاميذ، وزيادة حجم التَّناقض السُّلوكي عند الجماعات المرجعيَّة للمتعلِّم، كلُّ هذا أوجد عنده مشكلات وسلوكيات متنوِّعة غير التي كانت بالأمس.

وهذا يتطلَّب جهْداً من المعلِّم في الحلقات القرآنيَّة، ويحتاج إلى الحلم، والصَّبر، والتَّدرُّج؛ لينجحَ في معالجة تلك المشكلات، ويغرس في نفوسهم الأخلاق الحسنة، ويحقِّقَ أهداف الحلقات التربويَّة، وبدون هذا الخُلُق قد يتسرَّب التلاميذ من الحَلَقات، فلا يعودون إليها؛ لأنَّ المعلِّم إذا لم يحلُمْ ويصبِرْ كان ما يُفسد أكثر ممَّا يُصلح»[2].

المطلب الثالث

آداب متعلِّم القرآن

سبق الكلام عن جملة من الآداب التي ينبغي أن يلتزمها معلِّم القرآن الكريم أثناء تصدِّيه لهذه المهمَّة العظيمة، وهناك - كذلك - آداب لا بدَّ أن يتحلَّى بها متعلِّم القرآن، لا تقِلُّ أهميَّة عن آداب معلِّمه؛ لتساعد المعلِّمَ على المضيِّ في تعليمه.

وقد أشار بعض العلماء الأجِلَّاء إلى جملةٍ من الآداب التي ينبغي للمتعلِّم

---

(١) انظر: كيف نتأدب مع المصحف (ص١٣٢).

(٢) مهارات التدريس في الحلقات القرآنية (ص٧٥ - ٧٦). وانظر: المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم (ص٣٩ - ٤٠).

أن يضعها نصب عينيه، ويُلزم نفسه بتطبيقها أثناء قيامه بعملية التعلُّم، ومن هؤلاء: الآجُرّي(١)، وأبو حامدٍ الغزالي(٢)، والنّووي(٣) وغيرهم رحمهم الله تعالى، وهي على النّحو الآتي:

١ ـ تطهير القلب:

هذا شرط أساس في تعلُّم القرآن الكريم، فهو كالزَّرع لا ينبت إلَّا في تربة خصبة صالحة، أمَّا الأرض السَّبِخَة أو المريضة فلا ينبت فيها زرع، وإنْ نبت بعض الشَّيء لا ينمو، وإنْ نما لا يُثمر، وإن أثمر لا يأتي بجيِّد الثَّمر، فالقرآن الكريم لا ينمو ولا يُثمر إلَّا في القلب الطَّيب الصَّالح الطَّاهر، فلا بدّ أن يكون المتعلِّم نظيفاً طاهراً من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف والعادات؛ لأنّ تعلُّم القرآن عبادة القلب، وصلاة السِّر، وكما لا تصحُّ الصَّلاة إلَّا بالطَّهارة الظَّاهرة للبدن والملابس والمكان، فكذلك لا تصحُّ العبادة الباطنة ـ عبادةُ القلب ـ إلَّا بطهارته من النِّفاق والمكر والخبث، والحقد والحسد والعداوة والبغضاء(٤).

ومن أجل ذلك أكَّد النبيُّ ﷺ على أهميّة صلاح القلب لإصلاح الأعضاء كلّها في قوله: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»(٥).

٢ ـ الزُّهد في الدُّنيا:

فلا تكون الدُّنيا ومطالبها أكبر همّه، وكلّ شُغله، فيتخفّف منها ما استطاع؛ وذلك لأنه جنّد نفسَه وعقله لطلب أشرف العلوم ـ علم القرآن ـ وما دام كذلك ينبغي أن يكرّس جهده، ويجمع همّته على التّحقيق والإجادة حتّى يحصل له حفظ

---

(١) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص٦٧ ـ ٧١).
(٢) انظر: إحياء علوم الدين (١/٤٨) وما بعدها.
(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٦١ ـ ٦٩).
(٤) انظر: إحياء علوم الدين (١/٤٨)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص٦١).
(٥) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: فضل منْ استبرأ لدينه (١/٤١) (ح٥٢)؛ ومسلم، كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشُّبهات (٣/١٢١٩) (ح١٥٩٩).

القرآن وفهمه والعمل به»[١].

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «لا يُفلح في هذا الشأن ـ يعني بلوغ شرف العلم ـ إلَّا مَنْ أثْكَلَ أبويه، وأتْلَفَ مالَه، وجعل المسألَة أمامه، وأغلقَ دُكَّانه، وأحْرَق قلبَه الجوعُ، وتعلَّق في شعره القَمِلُ، ولم يَقُلْ واغربتاه»[٢].

وأنشد بعضُهم:

بِقَدْرِ الكَدِّ تُكْتَسَبُ المَعَالِي ... ومَنْ طلَبَ العُلا سَهِرَ اللَّيالي
تَرُومُ العِلْمَ ثُمَّ تَنامُ لَيْلاً ... يَغُوصُ البَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللآلي[٣]

«وقال بعضُهم: العلم لا يُحصَّلُ إلَّا باستناد الحَجر، وافتراش المَدَر، وإدمان الجوع والسَّهر.

وقال آخر: لن يُدرِكَ العلم مَنْ لا يُطيلُ درسَه، ولا يَكُدُّ نَفْسَه»[٤].

٣ ـ التَّواضع للمعلِّم:

* قديماً قالوا: (ضاع العلمُ بين كبرياءٍ وحياءٍ). فالكبرياء والغرور يمنعان صاحبهما عن السُّؤال والاستفادة، والحياء كذلك يمنعه، فالأوَّل منعاً من إظهار جهله، والثَّاني خجلاً وخوفاً، وكلاهما من آفات العلم. إلَّا أنَّ الكبرياء أشدُّ وأعظم، ففيه سوء أدب.

وإذا كان المعلِّم مطالَباً بالتَّواضع، فالمتعلِّم أولى أن يُطلب منه ذلك، وإذا كان يتصادف أحياناً أن يكون المعلِّم أصغر من المتعلِّم، أو أقلَّ منصباً، فإنَّ هذا لا يسقط هذا المطلب، ولذا قيل:

العِلْمُ حَرْبٌ لِلْفَتى المُتَعالي ... كالسَّيلِ حَرْبٌ لِلْمكان العَالِي[٥]

يقول أبو حامدٍ الغزالي رحمه الله: «فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبَّر على المعلِّم، ومن تكبُّره على المعلِّم أنْ يستنكفَ عن الاستفادة، إلَّا من المرموقين

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ٥٠).

(٢) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف، لجمال الدين محمد الجيشي، (ت٧٨٢هـ) (١/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

(٣) انظر: ديوان الإمام الشافعي (١/ ٩٠).

(٤) المصدر السابق (١/ ١٨٧).

(٥) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٦٢).

المشهورين، وهو عين الحماقة، فإنّ العلم هو سبب النَّجاة والسَّعادة، ومنْ يطلب مهْرباً من سبُعٍ ضارٍ يفترسه، لم يفرّق بين أن يُرشده إلى الهرب، مشهور أو خامل، وضراوة سباع النّار بالجهّال بالله، أشدُّ من ضراوة كلِّ سَبُع»[١].

ومن صور تواضع المتعلِّمين مع مشايخهم، وتذلُّلِهم لأجل الإفادة منهم:

* ما جاء في سيرة التّابعي الجليل عمرو بن قيس المُلائي[٢] ﷺ، كان إذا أتى الرَّجلَ من أهل العلم جثى على ركبتيه، ثم يقول: «علِّمني ممَّا علَّمك الله»، يتأوّل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦][٣].

* وكان سعيد بن جُبير ﷺ يُجلُّ شيخه ابن عباس ﷺ، ويعرف له قدره، ولودّ أن قبّل رأسه احتراماً له، يقول: «كنتُ أسمع الحديث من ابن عباس، فلو أذن لي لقبّلت رأسه»[٤].

* ومن تواضع سفيان الثَّوري ﷺ، واعترافه لشيخه (الإمام عمرو ابن قيس المُلائي ﷺ) بالفضل في تعليمه، وتوجيهه، وصبره على ذلك، ما قاله: «عمرو بن قيس هو الذي أدّبني، وعلّمني قراءة القرآن، وعلّمني الفرائض»[٥].

٤ ـ الدُّعاء للمعلِّم والاعتراف بفضله:

ينبغي للمتعلِّم أن يعترف بفضل معلّمه عليه، وأن يُقرّ بأنَّ العلم الذي أفاده إنّما كان من جهة معلِّمه، فمن حقّه عليه أنْ يدعوَ له، كما جاء عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا، فادْعُوا لَهُ، حتَّى يَعْلَمَ أنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[٦].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٥٠).

(٢) هو الإمام المقرئ عمرو بن قيس المُلائي، سمّي بذلك؛ لأنه كان يبيع الملاء (أبو عبد الله) من عبّاد أهل الكوفة وقرّائهم، قال أبو زرعة: «ثقةٌ، مأمون»، وقال ابن حجر: «ثقةٌ، متقنٌ، عابد، من السّادسة، مات سنة بضع وأربعين».
انظر: تقريب التّهذيب (١/ ٤٢٦)؛ سير أعلام النّبلاء (٦/ ٢٥٠).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠٢).

(٤) حلية الأولياء (٤/ ٢٨٣)؛ طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧٠).

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠١)؛ وانظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٥٠).

(٦) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٦٨) (ح٥٣٦٥)؛ والبخاري في «الأدب المفرد»، باب:

قال السّعدي[١] كَثَلَثهُ: «وينبغي للمتعلّم أن يُحسِن الأدب مع معلّمه، ويحمد الله إذ يسّر له منْ يعلّمه من جهله، ويُحييه من موته، ويُوقظه من سنته، وينتهز الفرصة كلّ وقت في الأخذ عنه، ويُكثر من الدُّعاء له حاضراً وغائباً»[٢].

ومن صور الدُّعاء للشّيوخ:

* ما جاء عن يحيى بن سعيد القطّان[٣] كَثَلَثهُ قال: «أنا أدعو الله للشّافعي، أخصُّه به»[٤].

ومن صور الدُّعاء للشُّيوخ، والاعتراف لهم بالفضل:

* ما قاله الإمام أحمد[٥] كَثَلَثهُ: «هذا الذي ترون، كلُّه أو عامّته من الشافعي، وما بتُّ منذ ثلاثين سنة إلّا وأنا أدعو الله للشّافعي، وأستغفر له»[٦].

= منْ صُنع إليه معروف فلْيكافئه (١/ ٨٥) (ح٢١٦)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (ص٩٨) (ح١٥٨)؛ و«الصّحيحة» (١/ ١١٠) (ح٢٥٤).

(١) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تميم، نشأ في بلاد القصيم، ودرس على علماء الحنابلة هناك، وكان ذا معرفة تامّة في الفقه، وكان مشتغلاً بكتب ابن تيميّة وابن القيّم واستفاد من ذلك خيراً كثيراً. له كتاب: «تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان»، و«القول السّديد في مقاصد التّوحيد» وغيرهما. توفّي سنة (١٣٧٦هـ). انظر: مقدّمة كتاب «تيسير الكريم الرّحمن».

(٢) الفتاوى السعدية (ص١٠١).

(٣) هو يحيى بن سعيد القطّان، إمام الحديث والجرح والتّعديل، ثقةٌ، مُتقنٌ، حافظٌ، وإمام قدوة، من كبار الطّبقة التّاسعة، توفّي سنة (١٩٨هـ)، وعمره (٧٨) سنة.
انظر: تقريب التّهذيب (٢/ ٢٤٨).

(٤) تاريخ مدينة دمشق (٥١/ ٣٢٤)؛ معجم الأدباء، لياقوت الحموي (٥/ ٢١٠)؛ تاريخ الإسلام (١٤/ ٣١٤).

(٥) هو الإمام أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (أبو عبد الله) ولد سنة (١٦٤هـ) ببغداد، رحل إلى سائر الأقطار، اشتهر بالحفظ والإتقان، مع التُّقى والصلاح، والقوة في الحقّ واتّباع السنّة، وبلغت شهرته الآفاق، خاصّةً بعدما وقف وقفته المشهورة أمام بدعة القول بخلق القرآن، وبها أعزّ الله أهل السنّة إلى اليوم، توفّي سنة (٢٤١هـ).
انظر: البداية والنّهاية (١٠/ ٣٢٥).

(٦) تهذيب التهذيب (٩/ ٢٥)؛ تهذيب الكمال (٢٤/ ٣٦٥).

٥ ـ اختيار المعلِّم الأصلح والأعلم:

ليتخيّر المتعلِّمُ المعلِّمَ الأكثر ديانة وصلاحاً، فلا ينبغي له أن يقصد من المعلِّمين إلّا مَنْ ثبتت أهليتُه العلميّة وظهرت ديانته(١).

* عن محمد بن سيرين(٢) رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إنَّ هذا العِلْمَ دِينٌ، فانْظُروا عمَّنْ تأخُذون دِينَكُمْ»(٣).

* يقول أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنت أرحل إلى الرَّجل مسيرة أيّام، فأوّل ما أتفقَّد من أمره صلاته، فإن وجدْتُه يقيمها ويتمُّها، أقمت وسمعت منه، وإن وجدْتُه يُضيعها، رجعتُ ولم أسمع منه، وقلت: هو لغير الصَّلاة أضيع»(٤).

ومن أمثلة اختيار المعلِّم الأعلم:

* ما جاء عن أبي بكرٍ شعبة بن عيَّاش رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه قال: «ما رأيتُ أحداً أقرأ من عاصمٍ، فقرأتُ عليه، وما رأيتُ أحداً أفْقَه من المغيرة ـ يعني: ابن عبد الرَّحمن بن الحارث المخزومي(٥) ـ فلَزِمْتُه»(٦).

---

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٦٢).

(٢) هو محمد بن سيرين بن أبي عمرة البصري، أبو بكر، إمام وقته. مولى أنس بن مالك. قال الذَّهبي: «كان فقيهاً، إماماً، غزيرَ العلم، ثقةً، ثبتاً، علَّامةً في التَّعبير، رأساً في الورع». توفي سنة (١١٠هـ). انظر: سير أعلام النُّبلاء (٤/٦٠٦)؛ تذكرة الحفَّاظ (١/٧٧)؛ تهذيب التَّهذيب (٩/٢١٤).

(٣) رواه مسلم في «مقدّمة صحيحه» (١/١٤).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٢٠). وانظر: تاريخ مدينة دمشق (١٨/١٧٦)؛ الرحلة في طلب الحديث، لأبي بكر البغدادي (ت٤٦٣هـ) (١/٩٣)؛ صفة الصفوة (٣/٢١٢).

(٥) هو المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله المخزومي، من الطَّبقة الأولى من أصحاب مالك من أهل المدينة، ولد سنة (١٢٤هـ). قيل: لا بأس به، خرّج عنه البخاري. وقال يحيى: هو ثقة. كان فقيه المدينة بعد الإمام مالك، عَرَض عليه الرَّشيد القضاءَ بالمدينة فأبى، وقال: واللهِ ـ يا أمير المؤمنين ـ لأن يختنقني السُّلطان أحبُّ إليَّ من القضاء، فأعفاه. وله كُتب فقه قليلة، توفِّي سنة (١٨٨هـ).
انظر: الدِّيباج المذهَّب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (١/٣٤٧).

(٦) انظر: معرفة القراء الكبار (١/١٣٨)؛ سير أعلام النبلاء (٨/٥٠٣).

٦ ـ التّبكير إلى مجلس الدّرس:

الأصل في المتعلّم أن يجدّ ويجتهد في تعلُّم القرآن الكريم، بل كان السّلف الصّالح يتسابقون إلى مجالس العلم ويبكّرون في الحضور إليها، ومن أمثلة ذلك:

* قول محمد بن علي السُّلمي رحمه الله: «قمتُ ليلةً للأذان الأكبر لأخذ النّوبة على ابن الأخرم(١)، فخرجتُ إلى مسجد معاوية، فوجدتُ قد سبقني ثلاثون قارئاً، فلم تلحقْني النّوبة إلى العصر»(٢).

٧ ـ التّحلّي بالأدب في مجلس التّعليم:

من الأفضل للمتعلّم: ألّا يجيء إلى القرآن إلّا وهو في كامل الحال، متطهّراً نظيفاً، ولا يتخطّى رقاب النّاس، بل يجلس حيث ينتهي به المجلس، إلّا أن يأذن له المعلّم في التقدّم أو يعلم من حالهم إيثار ذلك.

والتأدُّب ليس مطلوباً من المتعلّم تجاه معلّمه فقط: بل هو مطلوب منه تجاه زملائه، وحاضري مجلس العلم، فهذا جزء أساس من تأدُّبه مع المعلّم وصيانة مجلسه.

ومن مظاهر هذا التأدُّب: ألّا يرفع صوته من غير حاجة، ولا يضحك، ولا يُكثر الكلام من غير حاجة، ولا يعبث بيده ولا غيرها، ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً بلا داعٍ، بل يكون متوجّهاً إلى المعلّم مُصغياً إلى كلامه.

وعلى المتعلّم: أن يكون على درجة من دقّة الملاحظة، بحيث لا يقرأ على المعلّم إذا لاحظ انشغال قلبه، وملله، وضيقه وحزنه وجوعه وعطشه ونعاسه وقلقه، ونحو ذلك ممّا يحول بينه وبين الوفاء بمهمّة التّعليم، وفقاً لما يجب أن يكون من كمال النّشاط وعلوّ الهمّة(٣).

---

(١) هو محمد بن النّضر بن مرّ بن الحرّ الرّبعي الدّمشقي بن الأخرم (أبو الحسن) كانت له حلقة عظيمة بجامع دمشق، يقرؤون عليه من بعد الفجر إلى العصر، قال الشّنبوذي: «قرأتُ عليه فما رأيت أحسن معرفةً منه بالقرآن، ولا أحفظ، وكان يحفظ تفسيراً كثيراً ومعاني». توفّي رحمه الله سنة (٣٤١هـ)، وعمره (٨١ سنة).
انظر: سير أعلام النّبلاء (١٥/ ٥٦٤).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (٥٦/ ١٢٣). وانظر: معرفة القراء الكبار (١/ ٢٩٢).

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٦٥).

ومن أمثلة مراعاة المتعلِّم ظروف معلِّمه وعدم إزعاجه، والحرص على راحته:

* ما قاله الأعمش(١) رحمه الله: «ما رأيت مثل طلحة ـ يعني ابن مصرف اليامي(٢) ـ إذا كنتُ قائماً فقعدت قطع القراءة، وإن كنت محتبياً فحللت حبوتي قطع القراءة، كراهية أن يكون قد أملَّني»(٣).

* وقال أيضاً: «كان طلحة بن مصرف يجيئني فأقريه، فلا يطلبني حتى أخرج، فإن تنحنحت أو سعلت قام»(٤).

* وحكى أيضاً أدب هذا المتعلِّم معه، فقال: «كان طلحة يجيء فيجلس على الباب فتخرج الجارية وتدخل، لا يقول لها شيئاً، حتّى أخرج فيجلس ويقرأ، فما ظنُّكم برجل لا يخطئ ولا يلحن، فإن استندتُ على الحائط ـ أي: من الجهد والتّعب ـ قال: السّلام عليكم، ويذهب»(٥).

ويرتبط بهذا: **أن يتحمَّل المتعلِّم ما قد يظهر من المعلِّم من جفوة**، ويلتمس له العذر، بحيث لا تصدُّه هذه الجفوة عن تقبُّل ما يُلقيه عليه من معلومات، وإذا جافاه المعلم، ابتدأ هو بالاعتذار إليه، وأظهر أنَّ الذَّنب له، والعتب عليه، فذلك أنفع له في الدُّنيا والآخرة، وأبقى لقلب المعلِّم له(٦).

وقيل في هذا الشَّأن: مَنْ لم يصبر على ذلِّ التعلُّم بقي عمره في عماية الجهالة، ومَنْ صبر عليه آل أمره إلى عزِّ الآخرة والدُّنيا.

---

(١) هو سليمان بن مهران الكاهلي (أبو محمد)، المشهور بالأعمش، ولد سنة (٦٠هـ)، من الأئمة الثِّقات، قال ابن سعد: «وكان الأعمش صاحب قرآن وفرائض وعلم بالحديث». وعدَّه ابن سعد في الطّبقة الرابعة، من الكوفيين، وثّقه ابن معين وأبو حاتم، وقال أبو زرعة: إمام، توفِّي سنة (١٤٨هـ).
انظر: الطّبقات الكبرى (٦/ ٣٤٢)؛ الجرح والتّعديل (٤/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

(٢) هو طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب اليامي (أبو عبد الله) كوفي، تابعي، من الخامسة، ثقة، كان من أقرأ أهل الكوفة وخيارهم، وهو أحد الثّلاثة الذين ختموا القرآن على الأعمش. توفِّي رحمه الله سنة (١١٢هـ).
انظر: معرفة الثِّقات (١/ ٤٧٩)؛ تقريب التهذيب (١/ ٢٨٣).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨). وانظر: صفة الصفوة (٣/ ٩٦).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨).

(٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٦) انظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص٩١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذللتُ طالباً، فعززتُ مطلوباً[١].

وقد أحسن مَنْ قال:

مَنْ لمْ يذُقْ طعْمَ المَذلَّةِ ساعَةً   قَطَع الزَّمان بِأسْرِهِ مَذْلُولاً[٢]

وغنيٌّ عن البيان: أنَّ من أهمّ واجبات المتعلّم، أن يكون حريصاً على التعلُّم، مواظباً في جميع الأوقات التي يتمكّن منه فيها، ولا يقنع بالقليل مع قدرته على الكثير، ولا يُحمّل نفسَه ما لا يُطيق مخافة المَلل، وضياع ما استوعبه وحصّله، وهذا يختلف باختلاف النّاس والأحوال[٣].

وإذا كنّا نركّز على واجبات المتعلّم؛ فإنّنا نُذكّره بأنّ ذلك ـ أوّلاً وآخِراً ـ لمصلحته، بالحفاظِ على المعلّم هادئ البال، وصافي الذّهن؛ لِيُخرِجَ أثمن ما عنده.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٤٨)؛ مفتاح دار السعادة (١/١٦٨)؛ كشف الخفا ومزيل الإلباس (١/٥٠٥)؛ إحياء علوم الدين (١/٩).

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٦٦).

(٣) انظر: القرآن الكريم: رؤية تربوية، د. سعيد إسماعيل علي (ص٤٧٣ ـ ٤٧٤)؛ منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم (١٠٤ ـ ١١١).

المبحث الثالث

فضائل تعلم القرآن وتعليمه

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: مُعَلِّمُ القرآنِ وَمُتَعَلِّمُه مُتَشَبِّهٌ بالملائكة والرُّسل.

المطلب الثاني: خَيرُ النَّاس مَنْ تعلَّم القرآن وعلَّمه.

المطلب الثالث: تعلُّمُ القرآنِ وتَعْلِيمُه خَيرٌ من كنوز الدُّنيا.

المطلب الرابع: مَنْ عَلَّم آيةً كان له ثوابُها ما تُليت.

المطلب الخامس: ثَوابُ مَنْ يُعَلِّمُ الصِّغار القرآن.

فضائل تعلّم القرآن وتعليمه

ترغيب الإسلام في العلم:

لقد رَغَّبَ الإسلامُ في تعلُّم العلم وتعليمه بعامَّة، وحثَّ عليه؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ففي الآية دعوة إلى طلب العلم والحرص عليه، وقد جعله الله تعالى معياراً للتّفاضل بين النَّاس، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ولا غرابة في ذلك، بالعلم يُعبد الله تعالى، وبه يُعرف، وبه تستقيم الدُّنيا؛ لذا جعله ذلك من أفضل العبادات التي يتقرّب بها المرء إلى ربِّه جلَّ جلالُه؛ ففي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً. وَمَنْ دَعَا إلى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً»[١].

وثواب العلم يصل إلى الإنسان بعد موته مادام يُنْتَفَعُ به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[٢].

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وهذا من أعظم الأدلَّةِ على شرفِ العلمِ وفضله وعِظَمِ ثَمَرتِه؛ فإنَّ ثوابَهُ يَصِلُ إلى الرَّجلِ بعدَ موتِه مادامَ يُنتَفعُ به، فكأنَّهُ حيٌّ لم ينقطع عملُهُ معَ ما لَهُ من حياةِ الذِّكرِ والثَّناءِ، فَجَرَيانُ أجرِهِ عليهِ إذا انقَطَعَ عن النَّاسِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٤/ ٢٠٦٠) (ح٢٦٧٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٣/ ١٢٥٥) (ح١٦٣١).

ثوابُ أعمالهم حياةً ثانيةً»(١).

وتتفاوت درجات العلم ومنازله بحسب الموضوع الذي تتناوله، ولا شكَّ أنَّ أشرفَ العلوم وأجلَّها هو العلم بكتاب الله تعالى، فيكون منْ تعلَّمه وعلَّمه لغيره أشرف ممن تعلَّم غير القرآن، وإنْ علَّمه.

وقد حرص سلف الأمّة الصالح ﷺ على تعلُّم القرآن وتعليمه، وَعُرِف هذا الحرص في سلوك خيارهم وأصفيائهم، وقدوتُهم في ذلك مُعلِّم البشرية وهادي الإنسانية، رسول الله ﷺ الذي أُنزل عليه القرآن، وهو أعرف الناس بمنزلته.

والحديث عن فضائل تعلُّم القرآن العظيم وتعليمه يتمثَّل في المطالب الآتية:

المطلب الأول

مُعَلم القرآن وَمُتعَلَمُهُ مُتَشَبِّهٌ بالملائكة والرُسُل

كفى معلِّمْ القرآن ومُتعلِّمه شرفاً وفخراً أنهم متشبِّهون بالملائكة والرُّسل الكرام، فقد بعث الله تعالى جبريل ﷺ ليعلِّمَ النبيّ ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

فها هو معلِّمْ الرّسول الأوّل جبريلُ ﷺ، أفضلُ الملائكة الكرام وأقواهم وأكملُهم، نزل بالوَحْي على النبيّ ﷺ، وجبريلُ ﷺ شديد القوى الظَّاهرة والباطنة. فهو قويٌ على فعل ما أمره الله تعالى، قويٌّ على إيصال الوحْي إلى النبيّ ﷺ وتعليمه إياه، ومنعه من اختلاس الشّياطين له، أو زيادتهم فيه ما ليس منه، وهذا منْ حفْظ الله تعالى لوحيه من جهة، ومن عناية الله تعالى برسوله محمد ﷺ من جهة أُخرى، أنْ أرسَل إليه مُعلِّماً كريماً قويّاً أميناً(٢).

ومدْحُ المُعَلِّم مدحٌ للمتعلِّم فلو قال علَّمه جبريل، ولم يصفْه بهذه الصّفات الحميدة العظيمة ما كان يحصل للنبيّ ﷺ هذه الفضيلة الظّاهرة(٣).

«وهذه الآية الكريمة قد تضمَّنت أمرين:

أحدهما: أنَّ هذا الوحي الذي من أعظمه هذا القرآن العظيم، علَّمه جبريلُ النبيّ ﷺ بأمرٍ من الله.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٥).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٥/ ١٢٢).

(٣) انظر: التفسير الكبير (٢٨/ ٢٤٥).

والثاني: أنَّ جبريل شديد القوّة.

وهذان الأمران جاءا مُوَضَّحين في غير هذا الموضع.

أما الأوّل منهما: وهو كون جبريل نزل عليه بهذا الوحي وعلّمه إيَّاه، فقد جاء موضَّحاً في آياتٍ من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤].

... وأما الأمر الثاني: وهو شدَّة قوّة جبريل النَّازل بهذا الوحي، فقد ذَكَرَه في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٠]»[1].

المطلب الثاني

خيرُ الناس مَنْ تَعَلَّم القرآنَ وعلَّمه

إنّ تعلُّم القرآن العظيم والقيام بتعليمه وبيان معانيه وأحكامه للنّاس من أفضل الأعمال وأجلّ القرب، يحظى متعلّمه ومعلّمه بالخير والفضل في الدُّنيا والآخرة، وقد وردت أحاديث كثيرة تحضُّ على تعلُّم القرآن وتعليمه؛ لأنه كلام الله تعالى، فكان خير النَّاس بعد الأنبياء مَنْ اشتغل به، ومن هذه الأحاديث:

١ ـ عن عثمان بن عفَّان ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ»[2].

٢ ـ وعن عثمان بن عفَّان ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ»[3].

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٧٠٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم مَنْ تعلُّم القرآن وعلَّمه (٣/ ١٦٢٠) (ح٥٠٢٧)؛ وأبو داود، كتاب الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (٢/ ٧٠) (ح١٤٥٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٣/ ١٦٢٠) (ح٥٠٢٨).

«وقد سُئِلَ الثوري عن الجهادِ وإقراءِ القرآن[1]، فرجَّحَ الثَّاني واحْتَجَّ بهذا الحديث»[2][3].

فهذه شهادةُ حَقٍّ لأهل القرآن بأنهم خيرُ النَّاس وأفضلُهم، فلم يقل خيركم أو أفضلكم أكثركم مالاً أو أولاداً، ولا أوسعكم عقاراً أو نحو ذلك من حطام الدُّنيا الزَّائل.

وهذه هي صفات المؤمنين الصَّادقين المُتَّبعين للرَّسول ﷺ، فهم يحرصون على تعلُّم القرآن وتزكية نفوسهم به، كما يحرصون على تعليم الآخرين وإرشادهم لهديه والدَّعوة إليه فيكون نفعاً متعدِّياً.

«ولا شكَّ أنَّ الجامع بين تعلُّم القرآن وتعليمه مكمِّل لنفسه ولغيره، جامع بين النَّفع القاصر والنَّفع المتعدِّي ولهذا كان أفضل، وهو من جملة مَنْ عنى ﷻ بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. والدُّعاء إلى الله يقع بأمور شتى من جملتها تعليم القرآن وهو أشرف الجميع، وعكسه الكافر المانع لغيره من الإسلام كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]»[4].

وخير الناس وأفضلهم مَنْ تعلَّم القرآن حقَّ تعلُّمه، وعلَّمه حقَّ تعليمه، ولا يَتَمَكَّنُ من هذا إلَّا بالإحاطة بالعلوم الشَّرعية أصولها وفروعها، ومِثْلُ هذا الإنسان يُعَدُّ كاملاً لنفسه مكمِّلاً لغيره فهو أفضل المؤمنين مطلقاً، وقد ورد عن عيسى ﷺ: «من عَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّمَ يُدعى في الملكوت عظيماً» والفرد الأكمل من هذا الجنس هو النبيُّ ﷺ، ثم الأشبه فالأشبه[5].

قال القرطبيُّ ﷺ: «قال العلماء: تعليم القرآن أفضل الأعمال؛ لأن فيه

---

(١) أي: تعليمه للناس.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٩٧).
(٣) كلام الإمام سفيان الثوري ﷺ ينسحب على الجهاد غير المُتَعَيِّن، أما إذا انتهكت حرمات المسلمين وتَعَيَّنَ الجهادُ قُدِّم على إقراءِ القرآن.
(٤) المصدر نفسه (٩/ ٩٦).
(٥) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/ ٢٢٩).

إعانةً على الدِّين، فهو كتلقين الكافر الشَّهادةَ لِيُسْلِمَ»[١].

وبعض أهل العلم حَمَلَ الحديثين بخير النَّاس وأفضلهم باعتبار التَّعلم والتَّعليم: قال الطِّيبي رحمه الله: «أي خير النَّاس باعتبار التعلُّم والتعليم مَنْ تعلَّم القرآن وعلَّمه»[٢].

معنى التَّعلُّم والتَّعليم:

«تعلُّمُ القرآنِ وتعليمُهُ يتناولُ تعلُّمَ حروفه وتعليمَها، وتعلُّمَ معانيه وتعليمَها، وهو أشرفُ قِسْمَيْ تعلُّمِهِ وتعليمِهِ؛ فإنَّ المعنى هو المقصودُ، واللَّفظُ وسيلةٌ إليه، فتعلُّمُ المعنى وتعليمُهُ تعلُّمُ الغايةِ وتعليمها، وتعلُّمُ اللَّفظِ المُجَرَّدِ وتعليمُهُ تعلُّمُ الوسائلِ وتعليمُها، وبينهما كما بينَ الغاياتِ والوسائلِ»[٣].

* وهنا مسألتان من الأهمية بمكان أَوْرَدَهُما الحافظ ابن حجر رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث، وأجاب عليهما:

(المسألة الأولى): «فإن قيل: فيلزم على هذا أن يكون المُقرئ أفضلَ من الفقيه.

قلنا: لا؛ لأن المخاطبين بذلك كانوا فقهاءَ النفوس لأنهم كانوا أهل اللِّسان، فكانوا يدرون معاني القرآن بالسَّليقة أكثر مما يدريها مَنْ بعدهم بالاكتساب، فكان الفقهُ لهم سجية، فَمَنْ كان في مثل شأنهم شاركهم في ذلك، لا مَنْ كان قارئاً أو مُقرئاً مَحْضاً لا يفهم شيئاً من معاني ما يَقرؤه أو يُقرئه»[٤].

(المسألة الثانية): «فإن قيل: فيلزم أن يكون المقرئ أفضلَ ممن هو أعظم غناءً في الإسلام بالمجاهدة والرِّباط والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر مثلاً.

قلنا: حرفُ المسألةِ يدور على النَّفع المتعدِّي، فَمَنْ كان حصوله عنده أكثر كان أفضل، فلعلّ «مِنْ» مُضمرة في الخبر، ولا بد مع ذلك مِنْ مراعاة الإخلاص في كلِّ صنف منهم. ويحتمل أن تكون الخيريَّة وإن أُطلقت لكنها مقيَّدة بناس

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار (ص١٤٤). (٢) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٤).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٩٦).

مخصوصين خُوطبوا بذلك كان اللائق بحالهم ذلك، أو المراد خير المتعلّمين مَنْ يُعلِّم غيرَه لا مَنْ يقتصر على نفسه، أو المراد مراعاة الحيثيّة؛ لأن القرآن خير الكلام، فمتعلّمه خيرٌ مِنْ مُتعلّمِ غيرِه بالنسبة إلى خيريةِ القرآن، وَكَيْفَما كان فهو مخصوص بِمَنْ عَلَّم وتَعلَّم بحيثُ يكون قد عَلِمَ ما يجبُ عليه عَيْناً»[١].

المطلب الثالث

تعلُّمُ القرآن وتَعْلِيمُه خيرٌ من كنوز الدنيا

١ - عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ[٢]. فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ[٣] كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ[٤] أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ[٥] فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ[٦]، فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله ﷻ

---

(١) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) (الصُّفَّة): موضعٌ مُظلّل من المسجد النّبوي الشّريف كان فقراء المهاجرين يأوون إليه، وهم المسمون بأصحاب الصُّفّة، وكانوا أضياف الإسلام.
انظر: لسان العرب (٤/ ٢٤٦٤)، مادة: (صفف).

(٣) (يغدو): أي: يذهب في الغَدوة وهي أول النهار.

(٤) (بطحان): بضم الباء وسكون الطاء، وقيل: بالفتح والسكون، وقيل بالفتح والكسر، وهو أحد أودية المدينة الثّلاثة، وهي: بطحان والعقيق وقناة.
انظر: معجم البلدان (١/ ٥٢٩).
وسمّي بطحان بذلك: لسعته وانبساطه من البطح، وهو البسط.
انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/ ٢٣١).

(٥) (العقيق): قيل: أراد العقيق الأصغر، وهو على ثلاثة أميال أو ميلين من المدينة، وخَصَّهما بالذِّكر؛ لأنهما أقرب المواضع التي يُقام فيها أسواق الإبل إلى المدينة، والظّاهر أنّ (أو) للتنويع.
انظر: عون المعبود (٤/ ٢٣١).

(٦) (كَوماوين): مثنى كوماء، فقُلبت الهمزةُ في التثنية واواً، وناقة كوماء: عظيمة السّنام طويلته. وأصل الكوم العلو، أي: فَيُحَصِّلُ ناقتين عظيمتي السنام، وهي من خيار مال العرب.
انظر: لسان العرب (٥/ ٣٩٥٨)، مادة: (كوم)؛ عون المعبود (٤/ ٢٣١).

خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ. وَثَلاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ. وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ. وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ؟»[1].

٢ ـ وعند أبي داود بلفظ:

«أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَى بُطْحَانَ، أو الْعَقِيقِ، فَيَأْخُذَ نَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ[2] بِغَيْرِ إِثْمٍ[3] باللهِ ﷻ ولا قَطْعِ رَحِمٍ[4]؟»، قالُوا: كُلُّنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قال: «فَلأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ إلى المَسْجِدِ فَيَتَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَإِنْ ثَلاثٌ فَثَلاثٌ مِثْلَ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ»[5].

لقد ضَرَبَ النبيُّ ﷺ هذا المثلَ بصورة عجيبة معبِّرة في الحثِّ على تعلُّم القرآن العظيم والحثُّ على قصد بيوت الله تعالى لتعلُّم القرآن؛ لما فيها من السَّكينة والطُّمأنينة، ولقطع علائق القلب عن شواغل الدُّنيا، وبيَّن أنَّ آيةً واحدة يتعلَّمها المسلم خير من الدُّنيا وما فيها.

«والحاصل أنه ﷺ أراد ترغيبهم في الباقيات وتزهيدهم من الفانيات فذكره هذا على سبيل التَّمثيل والتَّقريب إلى فهم العليل، وإلَّا فجميع الدُّنيا أحقر من أن يُقابلَ بمعرفة آية من كتاب الله تعالى، أو بثوابها من الدَّرجات العُلى»[6].

وسببُ التَّمثيل بالإبل: أنها كانت أعزَّ وأثمنَ أموال العرب في صدر الإسلام، لا يملكها إلَّا الأغنياء منهم، فرغَّبَ النبيُّ ﷺ أصحابه إلى ما هو أفضل

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن في الصَّلاة وتعلمه (١/ ٥٥٢) (ح٨٠٣)؛ وابن حبان في «صحيحه»، كتاب العلم، باب: الحث على تعليم كتاب الله (١/ ٣٢١) (ح١١٥).

(٢) (زهراوين): أي: سميتين مائلتين إلى البياض من كثرة السِّمَن.

(٣) (بغير إثم): كسرقة وغَصْبٍ، سمَّى موجب الإثم إثماً مجازاً.

(٤) (ولا قطع رحم): أي: بغير ما يوجبه، وهو تخصيص بعد تعميم. انظر: عون المعبود (٤/ ٢٣١).

(٥) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (٢/ ٧١) (ح١٤٥٦)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٧٣) (ح١٢٩٢).

(٦) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/ ٢٣١).

من ذلك، بأن يكون لهم رصيد من الحسنات عند الله ﷻ أعظم من الإبل عند أصحابها في الدُّنيا، وذلك بأن يتعلَّموا كلامَ الله تعالى، فكلُّ آية يتعلَّمُها المسلم هي في ميزان حسناته أفضل من ناقةٍ عظيمة السَّنام، سالمة من العيوب لو تَصدَّق بها[1].

قال ابن حبان رحمه الله - بعد أنْ أوْرَدَ هذا الحديث في صحيحه: «هذا الحديث أُضْمِرَ فيه كلمة، وهي: (لو تَصَدَّقَ بها) يريد بقوله: فيتعلَّم آيتين من كتاب الله خير من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث لو تَصدَّق بها؛ لأن فضل تعلُّم آيتين من كتاب الله أكبر من فضل ناقتين وثلاث وأعدادهن من الإبل لو تصدَّق بها؛ إذ محال أنْ يُشَبَّه مَنْ تعلَّم آيتين من كتاب الله في الأجر بمن نال بعض حطام الدُّنيا»[2].

وهذا الذي ذَكَرَه ابنُ حبان هنا حَسَنٌ وجميل، يُذَكِّرنا بأجر التَّبكير إلى صلاة الجمعة، وفيه قال النبيُّ ﷺ: «مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً...» الحديث[3].

ولا شكَّ أنَّ أجر تعلُّم آية من كتاب الله تعالى عظيم كبير إذا قِسناه على ما جاء في الحديث الآنف الذِّكر من أنَّ المسلم إذا حضر صلاة الجمعة في السَّاعة الأولى فكأنما تَصدَّق ببدنة، أي: بناقة.

وفي الحديث وُصِفَتْ الناقة بأنها كوماء زهراء، أي: عظيمة السَّنام، كثيرة اللَّحم، مائلة إلى البياض من عِظَمِ السِّمَن، هي مِنْ خيار أموال العرب آنذاك. وهذا أفضل من التَّصدق بمجرد ناقة، كما جاء في حديث التَّبكير إلى صلاة الجمعة، والله تعالى أعلم.

وقد رغَّب النبيُّ ﷺ في تعلُّم الخير وتعليمه للناس، وعَدَّه كأجر حاجٍّ، تاماً حَجَّتُه في قوله: «مَنْ غَدَا إِلَى المَسْجِدِ لا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْراً أَوْ يُعَلِّمَهُ، كان له

(١) انظر: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن (ص٣١ - ٣٢).
(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١/ ٣٢٢).
(٣) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب: فضل الجمعة (١/ ٢٦٤) (ح٨٨١).

كَأَجْرِ حَاجٍّ، تاماً حَجَّتُهُ»(١).

ولا ريبَ أن تعلُّمَ القرآن وتعليمَه يأتي في مُقدِّمة الخير الذي يُعلَّم أو يُتعلَّم؛ ذلك أنه كلام الله جلَّ جلالُه.

وفي حديث آخرَ أخبَرَ النبيُّ ﷺ أنَّ متعلِّم الخير ومُعلِّمه بمنزلة المجاهد في سبيل الله تعالى بقوله: «مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذا، لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أو يُعَلِّمُهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ المُجَاهِدِ في سَبِيلِ الله. وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلى مَتَاعِ غَيْرِهِ»(٢).

وجَدِيرٌ بِمُتعلِّم القرآن ومعلِّمه أن يُنَزَّلَ منزلة المجاهد في سبيل الله تعالى؛ ذلك أنه جاهد نفسَه وهواها، وجاهد الشَّيطانَ، وصبر وصابر ورابط في هذه الحِلَقِ المباركة، وترك الدُّنيا وزينتها، فاستحق هذا الشَّرف العظيم تفضُّلاً من الله تعالى ومِنَّة.

وكان الصَّحابة وتابعوهم أحرصَ الناس على تعلُّم وتعليم كتاب الله ﷻ وحَثِّ الناس وتشجيعهم على احتساب الأجر في ذلك، وفيما يأتي طائفة من أخبارهم المباركة:

١ ـ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «لو جُعِلَ لأحدٍ خَمسُ قَلائِصَ(٣)؛ إنْ صلى الغداةَ بالقريةِ لَبَاتَ يَقُولُ لأَهْلِهِ: لَقَدْ آنَ لي أنْ أَنْطَلِقَ. واللهِ لا يَقْعُدُ أحدُكُم فَيَتَعَلَّمَ خَمْسَ آياتٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَلَهُنَّ خيرٌ له مِنْ خَمْسِ قَلائِصَ وخَمْسِ قَلائِصَ»(٤).

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٩٤) (ح٧٤٧٣)؛ والمنذري في «الترغيب والترهيب»، كتاب العلم، باب: الترغيب في الرحلة في طلب العلم (ح٣)، وقال: «رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به». وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٤٥) (ح٨٦): «حسن صحيح». والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٦٩) (ح٣١١) بلفظ: «... أجر معتمر تام العمرة» وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذَّهبي.

(٢) رواه ابن ماجه في «المقدِّمة»، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (١/ ٨٢) (ح٢٢٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه»: (١/ ٤٤) (ح١٨٦).

(٣) (القلائص): جَمْعُ قلوص، وهي النَّاقة الشَّابَّة، وتُجْمَعُ على قِلاص وقُلُص أيضاً. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٠٠).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٣٣) (رقم ٣٠٠٧٥).

٢ ـ عن أبي عبيدة عن أبيه عن عبد الله بن مسعود ﷺ: «أنه كان يُقرِئ القرآن، فَيَمُرُّ بالآية، فيقول للرَّجُلِ: خُذْها، فوَاللهِ لَهِيَ خَيْرٌ مِمّا على الأرض من شَيءٍ»[(١)].

٣ ـ وعن الأعمش قال: مَرّ أعرابيٌّ بِعَبْدِ الله بن مسعود، وهو يُقرِئ قوماً القرآن، أو قال: وعنده قوم يَتعلَّمون القرآنَ، فقال: ما يصْنَع هؤلاء؟ فقال ابنُ مسعودٍ: «يَقْتسِمُون مِيراثَ محمدٍ ﷺ»[(٢)].

وأجرُ تعلُّم وتعليمِ القرآن العظيم ليس حَكْراً على الصَّحابة الكرام وتابعيهم، وإنما هو لكل مَنْ يحذو حذوهم ويسير على خُطاهم المباركة في تعلُّم كتاب الله تعالى إلى يوم الدِّين، وذلك فضل اللهِ يؤتيه مَنْ يشاء، واللهُ ذو الفضل العظيم، نسألُ اللهَ تعالى من فضله ومَنِّه وكَرَمِه، إنه جوادٌ كريم.

المطلب الرابع

مَنْ علَّم آيةً كان له ثوابُها ما تُليت

لا ريب أنَّ تعليم النَّاس القرآن العظيم مِنَ النَّفْع المُتعدِّي، وهو مما يَلْحَقُ المُعَلِّم مِنْ عَمَلِه الصَّالح وحسناتِه بعد موته.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ المُؤمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوتِه، عِلْماً عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَداً صَالِحاً تَرَكَهُ، وَمُصْحَفاً وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِداً بَنَاهُ أَوْ بَيْتاً لابْنِ السَّبِيل بَنَاهُ، أو نَهَراً أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِه. يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوتِهِ»[(٣)].

---

(١) رواه أبو عبيد القاسم في «فضائل القرآن» (ص٥٢). وانظر: فضائل القرآن، لابن الضريس (ص٤٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٦٦): «رواه الطبراني، ورجاله ثقات».

(٢) رواه أبو عبيد القاسم في «فضائل القرآن» (ص٥١)؛ وأورده الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٣ ـ ١٢٤)، باب: فضل العالم والمتعلِّم، من رواية الطَّبراني في «الأوسط» وقال: «إسناده حسن».
وانظر: جامع الأصول (١/ ٢٩١ ـ ٢٩٢)، وهو فيهما عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) رواه ابن ماجه، في «المقدِّمة» واللَّفظ له، باب: ثواب معلِّم النَّاس الخير (١/ ٨٨)

وتعليم النَّاس القرآن داخلٌ في قوله ﷺ: «عِلْماً عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ».

وكذلك فإنَّ تعليم النَّاس القرآن العظيم داخلٌ في عموم الدَّلالة على الخير، والمشار إليه في قوله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[(١)].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فيه فضيلةُ الدَّلالة على الخير والتَّنبيه عليه والمساعدة لفاعله، وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات، لا سيما لمن يعمل بها مِنَ المُتَعَبِّدين وغيرهم. والمراد بـ (مثل أجر فاعله) أنَّ له ثواباً بذلك الفِعْلِ كما أنَّ لفاعِله ثواباً، ولا يلزم أن يكون قَدْرُ ثوابِهما سواء»[(٢)].

«وذهب بَعْضُ الأئمة إلى أن المثل المذكور في هذا الحديث ونحوه إنما هو بغير تضعيف.

وقال القرطبي: إنَّه مثله سواء في القَدْر والتَّضعيف؛ لأنَّ الثَّواب على الأعمال إنَّما هو بِفَضْلٍ من الله يهبه لمن يشاء على أيِّ شيءٍ صَدَرَ منه، خصوصاً إذا صَحَّت النية التي هي أصل الأعمال في طاعةٍ عَجَزَ عن فِعْلِها لِمَانِعٍ مَنَعَ منها، فلا بُعْدَ في مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر والفاعل، أو يزيد عليه»[(٣)].

وفي رأي القرطبي رَحِمَهُ اللهُ ما يُضاعف الأمل في الدَّلالة على العمل.

وقد جاء أجر تعليم القرآن منصوصاً عليه صراحة حتَّى لو كانت آيةً واحدةً في قوله ﷺ: «مَنْ عَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ، كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا ما تُلِيَتْ»[(٤)].

= (ح٢٤٢)؛ وابن خزيمة في «صحيحه» (٤/ ١٢١) (ح٢٤٩٠)؛ وحسَّنه المُناوي في «فيض القدير» (٢/ ٥٤٠) (ح٢٤٩٧)؛ ووافقه الألباني في: «صحيح ابن ماجه» (١/ ٤٦) (ح١٩٨)؛ و«صحيح الجامع» (١/ ٤٤٣) (ح٢٢٣١)؛ و«أحكام الجنائز» (١٧٦)؛ و«الإرواء» (١٠٧٩).

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله (٣/ ١٥٠٦) (ح١٨٩٣).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/ ٤١ ـ ٤٢).

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٤/ ٢٦ ـ ٢٧).

(٤) صححه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٣/ ٣٢٣) (ح١٣٣٥) وقال: «أخرجه سهل القطَّان في: «حديثه عن شيوخه» (٤/ ٢٤٣/ ٢).

ثم ساق رجال الإسناد وقال: «وهذا إسناد جيِّدٌ عزيز، رجاله ثقات، رجال مسلم، غير محمد بن الجهم، وهو ابن هارون، الكاتب السمري، ترجمهُ الخطيب (٢/ ١٦١) برواية جماعة من الثِّقات عنه، وقال: «وقال الدَّارقطني: ثقةٌ، صدوق».

وهذا من الآثار الحسنة التي تُكتب في ميزان معلّم القرآن؛ لأنه كان السّبب المباشر في تعليمها.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

«فالمراد بـ ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ ما عَمِلوا من الأعمال قبل الموت؛ شُبّهَتْ أعمالُهم في الحياة الدنيا بأشياء يُقدّمونها إلى الدّار الآخرة كما يُقدّم المسافِرُ ثقْلَه وأحْمالَه.

وأما الآثار فهي آثار الأعمال وليست عَيْنَ الأعمالِ بقرينةِ مقابلتِه بـ ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ مثل ما يتركون من خير أو يثير بين الناس وفي النفوس»[1].

وللمفسّرين قولان في قوله تعالى: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾:

القول الأوّل: تُكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها مِنْ بعدهم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرّاً فشرٌّ.

ويشهد له قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[2].

«فكُلُّ خيرٍ عَمِلَ به أحدٌ من النّاس، بسبب عِلْم العبد، وتعليمه، أو نُصحه، أو أمرِه بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو عِلمٍ أودَعَه عند المتعلمين، أو في كُتب يُنتفع بها في حياته وبعد موته، أو عَمِل خيراً، مِنْ صلاةٍ، أو زكاة، أو صدقة، أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عَمِلَ مسجداً، أو محلاً من المحال، التي يرتفق بها النّاس، وما أشبه ذلك، فإنها من آثارِه، التي تُكْتَبُ له، وكذلك عَمَلُ الشرّ»[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٠٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشقّ تمرة أو كلمة طيّبة (٢/ ٧٠٥) (ح١٠١٧).

(٣) تفسير السعدي (٤/ ٢٣٠).

القول الثَّاني: إنَّ المرادَ بذلك آثارُ خُطاهُم إلى الطَّاعة أو المعصية.

ويشهد له قولُ جابرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما، قالَ: خَلتِ البِقَاعُ حَوْلَ المَسْجِدِ. فأَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ ينتقلُوا إلى قرْبِ المَسْجِدِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ. فَقَالَ لَهُمْ: «إنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُم تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ المَسْجِدِ» قَالُوا: نَعَمْ. يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ. فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلِمَةَ! دِيَارَكُمْ، تُكْتَبْ آثَارُكُمْ[١]، دِيَارَكُمْ، تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»[٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأوَّل، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتب، فلأنْ تُكتَبَ تلك التي فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى»[٣].

المطلب الخامس

ثَوَابُ مَنْ يُعَلِّمُ الصغار القرآن

أولى النَّاس بتعليم القرآن العظيم هم أولادنا الصِّغار، وهذا التَّعليم سُنَّة مُتَّبعة عند سلفنا الصَّالح رضي الله عنهم أجمعين:

١ ـ فعن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رحمه الله قال: إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ المُفَصَّلَ هُوَ المُحْكَمُ. قالَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: تُوُفِّي رسُولُ اللهِ ﷺ، وأنا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وَقَدْ قَرَأْتُ المُحْكَمَ[٤].

٢ ـ وعَنْ سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ رحمه الله، عَنِ ابنِ عَباسٍ رضي الله عنهما: جَمَعْتُ المُحْكَمَ في عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: وَما المُحْكَمُ؟ قَالَ ـ أي ابن عباس ـ: المُفَصَّلُ[٥].

---

(١) (دِيارَكم، تُكْتَبْ آثارُكم): معناه الْزَموا دياركم، فإنكم إذا لزمتموها كُتِبَتْ آثاركم وخطاكم الكثيرة إلى المسجد. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٥/ ١٦٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد (١/ ٤٦٢) (ح٦٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٩١).

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: تعليم الصِّبيانِ القرآن (٣/ ١٦٢٢) (رقم ٥٠٣٥).

(٥) رواه البخاري، الكتاب نفسه، والباب نفسه،(٣/ ١٦٢٢) (رقم ٥٠٣٦).

قال ابن كثير ﷺ: «فيه دلالة على جواز تعليم القرآن في الصِّبَا، وهو ظاهر، بل قد يكون مُستحبّاً أو واجباً؛ لأنَّ الصبيَّ إذا تعلّم القرآنَ بلغ وهو يعرف ما يُصلّي به، وحِفظُه في الصِّغر أولى من حِفظِهِ كبيراً، وأشدُّ عُلوقاً بخاطره، وأرسخُ وأثبتُ، كما هو المعهود من حال الناس»(١).

جزاء الوالدين:

أمّا أجر الوالدين اللَّذين يعلِّمان أولادَهما كتابَ الله ﷻ ويصبران على ذلك، فهو أجر عظيم يتناسب وتعبهما وصبرهما وتحملهما المشقّة في ذلك، بِأَنْ يُكْسَوَا حُلَّتَين لا يقومُ لهما أهْلُ الدُّنيا:

فعن بُريدَةَ بن الحُصَيبِ ﷺ قال: كُنْتُ عند رَسُولِ الله ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إن القُرآنَ يَلْقَى صَاحِبَه يومَ القِيَامةِ حينَ يَنشقُّ عنه قَبْرُهُ كالرَّجُلِ الشَّاحِبِ(٢)، فيقولُ له: هَلْ تَعرِفُني؟ فَيَقُولُ: ما أعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أنا صَاحِبُكَ القُرآنُ الذي أظْمَأْتُكَ في الهَوَاجِرِ(٣)، وأَسهَرْتُ لَيْلَكَ، وإِنَّ كُلَّ تاجرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِه، وإِنَّكَ اليومَ مِنْ وَرَاءِ كلِّ تِجَارَةٍ، فيُعطَى المُلْكَ بِيَمِينِهِ، والخُلْدَ بشِمالِه، ويُوضَعُ على رأسِهِ تَاجُ الوَقارِ، ويُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَينِ لا يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنيا، فَيَقُولانِ: بِمَ كُسِينَا هذا؟ فَيُقَالُ: بِأخْذِ وَلَدِكُمَا القُرآنَ.

ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ، واصْعَدْ في دَرَجِ الجَنَّةِ وغُرَفِها، فَهُوَ في صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذّاً(٤) كانَ، أو تَرْتِيلاً(٥)»(٦).

---

(١) فضائل القرآن (ص٢٢٦).
(٢) (الشَّاحِب): هو المتغيِّر اللَّون لعارضٍ من مرض، أو سفر، أو نحوهما. «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ٤٤٨)، مادة: (شحب).
(٣) (الهَوَاجِر): جَمْعُ هاجرة، وهو نصف النهار عند زوال الشَّمس إلى العصر، عند اشتداد الحر. انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٤٤)، مادة: (هجر).
(٤) (هَذّاً): الهَذُّ والهَذَذُ بفتح الهاء: هو سرعة القراءة وسرعة القطع، يقال: هَذَّ القرآنَ يَهُذُّه هَذّاً: إذا أسرع في قراءته وسَرْدِه. انظر: لسان العرب (٦/ ٤٦٤٣)، مادة: (هذذ).
(٥) (ترتيلاً): ترتيل القراءة: هو التأنِّي فيها والتَّمهل وتبيين الحروف والحركات. «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ١٩٤)، مادة: (رتل).
(٦) رواه مُطوَّلاً أحمد في «المسند» (٥/ ٢٣٨) (ح٢٣٠٠٠) وقال محقِّقو المسند (٣٨/ ٤٢)

وفي حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ قال: «... وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَين، لا تَقُومُ لَهُمْ الدُّنيا وما فِيها، فَيَقُولان: يارَبِّ! أنَّى لَنَا هذا؟ فَيُقَالُ: بِتَعْلِيمِ وَلَدِكُما القُرآنَ...» الحديث[1].

وَحُقَّ لهذين الوالِدين أن يَعْجَبا ويَدْهَشا مِنْ هذا الإنعام العظيم الذي حَصَلا عليه من حيث لا يحتسبان، فعندما يُكْسَى هذان الوالدان حُلَّتَين عظيمتين من حُلَلِ الجنة أغلى وأثمن من الدُّنيا وما فيها، يتساءلان في دهشة: مِنْ أين لنا مِثْلُ هاتين الحلَّتين وليس لنا ـ فيما نعلم ـ من العمل والطَّاعات ما يؤهِّلُنا للفوز بهذه الكرامة العظيمة؟

فَيُجابان: بتعليم ولدكما القرآن وصبركما عليه وإخلاص النُّصح له. وهكذا فإنَّ صاحب القرآن مِنْ أبَرِّ الناسِ بوالديه، ولو عَلِمَ كُلُّ والِدين ما يحصل لهما عند الله تعالى من الكرامة والرِّفعة بأخذ ولدهما للقرآن العظيم لبادرا إلى دفع أولادهما دفعاً، وحثِّهم حثاً على تعلُّمِ القرآن الكريم وتلاوته وتدبُّره[2].

وقد أحسن الشَّاطبيُّ[3] رَحِمَهُ اللهُ حينما قال:

= (ح٢٢٩٥٠): «إسناده حسن في المتابعات والشواهد، من أجل بشير بن المهاجر الغَنَوي، وباقي رجاله ثقات رجال الشَّيخين، وحسَّنه الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٦٢)، ولبعضه شواهد يَصِحُّ بها».
ورواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٦/ ١٢٩) (ح٣٠٠٤٥)؛ وعبد الرزاق في «مصنَّفه» (٣/ ٣٧٤) (ح٦٠١٤).
وذكره البوصيري في «مصباح الزُّجاجة» (٣/ ١٨٧) (ح١٣٢١) وقال: «هذا إسناد رجاله ثقات». وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٥٩)، وقال: «روى ابن ماجه منه طرفاً، ورواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».
ورواه مُخْتَصَراً الحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٤٢) (ح٢٠٤٣) وقال: «حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذَّهبي. وابن ماجه (٢/ ١٢٤٢) (ح٣٧٨١)؛ وأحمد في «المسند» (٥/ ٣٥٢) (ح٢٣٠٢٦).

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٥١) (ح٥٧٦٤)؛ وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦/ ٧٩٢) (ح٢٨٢٩) وقال: «الحديث حسنٌ أو صحيح؛ لأن له شاهداً من حديث بريدة بن الحصيب مرفوعاً بتمامه».
(٢) انظر: أنوار القرآن (ص١٨١ ـ ١٨٢).
(٣) هو القاسم بن فِيرُّهْ ـ ومعناه بلغة عَجَمَ الأندلس: الحديد ـ بن خلف بن أحمد الشاطبي

فَيا أيُّهَا القَارِي بِه مُتَمَسِّكاً ... مُجِلاً لَهُ في كُلِّ حَالٍ مُبَجِّلا
هنِيئاً مَرِيئاً وَالِدَاكَ عليهِما ... مَلابِسُ أنْوَارٍ مِنَ التَّاجِ والحُلَا
فَمَا ظَنُّكُمْ بِالنَّجْلِ عِنْدَ جَزائِهِ ... أُولَئِكَ أَهْلُ الله وَالصَّفْوَةُ المَلَا[1]

وهذا منَ الآثار الحسنة التي تُكتب في ميزان الوالدين، لأنهما السَّبب المباشر في تعليم هذا الولد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢]. كما مَرّ بنا في المطلب الرَّابع من هذا المبحث.

فليتنافس في هذا الآباء ما دام صلاح الأولاد راجعاً إليهم في النِّهاية، ثمَّ لما يترتّب على ذلك من البعد عن مواطن الشَّر إلى مجال الخير.

= الرعيني الأندلسي، ولد ضريراً سنة (٥٤٨هـ) بشاطبة، من الأندلس، كان أعجوبةً في الذّكاء، كثيرَ الفنون، غايةً في القراءات، حافظاً للحديث، بصيراً بالعربية، شافعي المذهب. قال ابن خِلّكان: «كان إذا قُرِئ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ، تُصحّح النُّسخ من حفظه». توفي بمصر سنة (٥٩٠هـ)؛ انظر ترجمته بتوسُّع في مقدمة كتابه: حرز الأماني ووجه التّهاني في القراءات السّبع (ص٣ ـ ١٠).

(١) انظر: حِرزُ الأماني ووجهُ التّهاني في القراءات السّبع (ص١٢ ـ ١٣).

المبحث الرابع

أحكام تعلم القرآن وتعليمه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حُكم تعلُّم القرآن وتعليمه.

المطلب الثاني: حُكم تعليم القرآن لغير المسلم.

المطلب الثالث: حُكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن.

أحكام تعلم القرآن وتعليمه

ثبت عنه ﷺ أنه حرص على تعليم أصحابه القرآن، إمَّا بنفسه، وإمَّا بتوكيل بعض أصحابه للقيام بهذه المهمَّة العظيمة.

ومن النَّوع الأول ما ورد عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: «كان رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمنا القرآنَ، فإذا مَرَّ بِسِجُودِ القُرآنِ سَجَدَ وسَجَدْنَا مَعَهُ»(١).

ولاشتهار هذا الأمر عن رسول الله ﷺ صار أصلاً يُقاس عليه غيره، ومن هذا القبيل قَولُ جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ في الأُمورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرآنِ»(٢).

فإذا طَرأ ما يمنع رسولَ الله ﷺ من مباشرة ذلك بِنَفْسِه وَكَّلَ بعضَ أصحابه للقيام بمهمة تعليم القرآن ـ وهذا من النَّوع الثاني.

ومنه ما ورد عن عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُشْغَلُ، فَإِذا قَدِمَ رَجُلٌ مُهَاجِرٌ على رَسُولِ اللهِ ﷺ دَفَعَهُ إلى رَجُلٍ مِنَّا يُعَلِّمُهُ القُرآنَ»(٣).

وعن أبي موسى رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ مُعاذاً وأبا مُوسَى إلى اليَمَنِ، فَأَمَرَهُمَا أَنْ يُعَلِّما النَّاسَ القُرآنَ»(٤).

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ١٥٧) (ح٦٤٦١)، وقال محقِّقو المسند (١٠/ ٤٨٧) (ح٦٤٦١): «حديث صحيح». ورواه مسلم بنحوه في: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب: سجود التِّلاوة (١/ ٤٠٥) (ح٥٧٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب التهجُّد، باب: ما جاء في التَّطوع مثنى مثنى (١/ ٣٤٦) (ح١١٦٢).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٢٤) (ح٢٢٨١٨)، وقال محقِّقو المسند (٣٧/ ٤٢٦) (ح٢٢٧٦٦): «إسناده حسن».
والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٤٠١) (ح٥٥٢٧)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».
والطَّبراني في «مسند الشَّاميين» (ح٢٢٣٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٤٤٤).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٩٧) (ح١٩٥٦٢)، وقال محقِّقو المسند (٣٢/ ٣١٥) =

وعلى هذا النهج سار السّلف الصّالح بعد رسول الله ﷺ، بحيث لم يَخلُ عصر من مُعَلّمي القرآن الحريصين على تبليغه للنّاس، وقد أثمرت جهود هؤلاء الأخيار وأدّت إلى تواتر القرآن جيلاً بعد جيل حتى وصل إلينا ـ بحمد الله تعالى ـ غضاً طرياً[١].

والحديث عن حُكم تعلُّم القرآن وتعليمه يتمثَّل في المطالب الآتية:

المطلب الأول

حُكم تعلُّم القرآن وتعليمه

تعلُّم القرآن وتعليمه فرض كفاية على المسلمين، فإذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، إلَّا ما تصح به الصَّلاة من القرآن بالإجماع[٢]، وهو الفاتحة؛ لأنَّ من القواعد المتقرِّرة في الشَّريعة أنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجب، والصَّلاة واجبة ولا تتمُّ إلَّا بقراءة الفاتحة[٣].

وأمَّا ما سوى الفاتحة فتعلُّمه فرض كفاية على الجميع، ومستحب بالإجماع[٤]، والأدلّة على ذلك ـ بالإضافة لما تقدّم ـ متوافرة، فمنها:

١ ـ عن عثمان بن عفّان ؓ، عن النبيِّ ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ»[٥].

٢ ـ وعن عثمان بن عفّان ؓ قال: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أفضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ

= (ح١٩٥٤٤): «إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشّيخين، غير طلحة بن يحيى ـ وهو ابن طلحة بن عبيد الله التّيمي ـ فمن رجال مسلم».

(١) انظر: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم (ص٢٤ ـ ٢٦).

(٢) انظر: مراتب الإجماع، لابن حزم (ص١٥٦)؛ الإقناع، للحجاوي (١/١٤٨)؛ منتهى الإرادات، لابن النجار (١/١٠٤)؛ حاشية الروض المُربع، لابن قاسم (٢/٢٠٧).

(٣) انظر: الأحكام الفقهية الخاصّة بالقرآن الكريم (ص١١ ـ ١٢).

(٤) انظر: المصادر السّابقة، والصّفحات نفسها.

(٥) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم منْ تعلم القرآن وعلّمه (٣/١٦٢٠) (ح٥٠٢٧)؛ وأبو داود، كتاب الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (٢/٧٠) (ح١٤٥٢).

القُرآنَ وَعَلَّمَهُ»[١].

٣ ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «خُذُوا القُرآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ، مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وسَالِمٍ، وَمُعَاذٍ، وَأُبَيِّ ابْنِ كَعْبٍ»[٢]. وهذا الحديث يُبيِّن لنا أهميَّةَ أخْذِ القرآن من مصدره الأوثق.

٤ ـ ما رواه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال له ـ بعد مُحادثة جرت بينهما، في التّحذير من الفتن: «يا حُذَيْفَةُ، تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ» ثَلاثَ مَرَّاتٍ[٣] الحديث.

٥ ـ عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تَعَلَّمُوا القُرآن، فَإِنَّهُ شَافِعٌ يَومَ القِيَامَةِ، تَعَلَّمُوا البَقَرَةَ وآلَ عِمْرَانَ، تَعَلَّمُوا الزَّهْرَاوَيْنِ...»[٤] الحديث.

وممَّن صرَّح من العلماء بأنَّ تعلُّم القرآن وتعليمه فرض كفاية النَّووي والسُّيوطي[٥].

* قال النَّووي رحمه الله: «تعليم المتعلِّمين فرض كفاية، فإن لم يكن مَنْ يصلح له إلَّا واحد تَعَيَّنَ عليه، وإن كان هناك جماعة يحصل التَّعليم ببعضهم: فإن امتنعوا كُلُّهم أثِمُوا، وإن قام به بعضُهم سقط الحرج عن الباقين، وإن طُلِب من

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم مَنْ تعلم القرآن وعلمه (٣/ ١٦٢٠) (ح٥٠٢٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: القُرّاء من أصحاب النبي ﷺ (٣/ ١٦١٣) (ح٤٩٩٩)؛ وكتاب مناقب الأنصار، باب: مناقب أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه (٣/ ١١٦٥) (ح٣٨٠٨).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب: ذكر الفتن ودلائلها (٤/ ٩٦) (ح٤٢٤٦)؛ وحسّنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٣/ ٨٠٠) (ح٣٥٧١).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٥١) (ح٢٢٢١١)؛ وعبد الرزاق في «مصنّفه» (٣/ ٣٦٥) (ح٥٩٩١)؛ والطّبراني في «الكبير» (٨/ ٢٩١) (ح٨١١٨)؛ وقال محقّقو المسند (٣٦/ ٤٨١) (ح٢٢١٥٧): «حديث صحيح، رجاله ثقات، رجال الصحيحين».

(٥) هو عبد الرّحمن بن أبي بكر الخضيري، المصري، الشّافعي، نشأ في القاهرة يتيماً، وقرأ على جماعة من العلماء، وهو كثير المؤلّفات، ومن أشهر مؤلّفاته: «الدّر المنثور في التّفسير بالمأثور»، و«الجامع الصغير في الحديث» وغيرهما. توفّي سنة (٩١١هـ). انظر: شذرات الذّهب (٨/ ٥١)؛ البدر الطّالع (١/ ٣٢٨).

أحدهم وامتنع، فأظهرُ الوجهين أنه لا يأثم، لكن يُكرَهُ له ذلك إنْ لم يكن له عذر»[1].

* وهو ما قرّره السُّيوطي رحمه الله حيث قال: «اعلم أن حفظ القرآن فرض كفاية على الأمّة... وتعليمه أيضاً فرض كفاية»[2].

المطلب الثاني

حُكم تعليم القرآن لغير المسلم

اختلف الفقهاء ـ رحمهم الله ـ في حُكم تعليم القرآن لغير المسلم على ثلاثة أقوال: الجواز، وعدمه، والكراهة.

والرّاجح في ذلك ـ والله أعلم بالصّواب: جواز تعليم القرآن لغير المسلم إذا رُجِيَ إسلامه، وعدم جواز تعليمه إذا لم يُرْجَ إسلامه.

وبهذا قال الحنفيّة[3]، وهو الوجه الصّحيح عند الشّافعية[4].

واستدلُّوا على ذلك من القرآن، والسُّنة، والمعقول:

أولاً: من القرآن:

قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

فإقامة المشرك المستجير ـ الذي طَلَب الجوار ـ عند النبيِّ ﷺ لا تخلو من عرض الإسلام عليه، وإسماعِه القرآن، وتعليميه إيّاه[5].

ثانياً: من السُّنة:

ما جاء في الكتاب الذي أرسله النبيُّ ﷺ إلى ملكِ الرُّومِ هِرقْل: «بِسْمِ اللهِ

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٥٦). (٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٦٤).

(٣) انظر: فتاوى قاضي خان (١/ ١٣٦)؛ الفتاوى الهندية (٥/ ٣٢٣).

(٤) انظر: المهذّب في فقه الإمام الشافعي، للشّيرازي (٢/ ٧٢)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص٧)؛ المجموع (٢/ ٧١)؛ روضة الطالبين وعمدة المفتين، للنووي (٥/ ١٩٠).

(٥) انظر: التحرير والتنوير (١٠/ ٢٥ ـ ٢٦).

الرَّحْمن الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّد رَسُولِ اللهِ إلى هِرَقْل عَظِيم الرُّوم، سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى، أمَّا بَعْدُ: فإنِّي أدْعُوكَ بِدعَايةِ الإسْلامِ، أسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأسْلِمْ يُؤتِكَ اللهُ أجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإنْ تَوَلَّيْتَ فَإنَّ عَلَيْكَ إثْمَ الأرِيسِيِّينَ، وَ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]»[(١)].

وجه الدَّلالة: أنّ النبيَّ ﷺ قد بعث إلى الكفار بهذا الكتاب؛ ليعرفوا ما فيه ويتدبّروه ليسلموا، وهو مُشتمل على آية من كتاب الله تعالى، فدَلَّ على جواز تعليم القرآن لغير المسلم إذا رُجِيَ إسلامه.

ثالثاً: من المعقول:

إنّ في تعليم القرآن لغير المسلم دعوةً له للإسلام، وترغيباً له في الدُّخول فيه، والاطّلاع على محاسنه وأحكامه السَّمحة، أمّا إذا لم يُرج إسلامه فلا فائدة في ذلك، بل ربّما أدّى ذلك إلى تعرُّض القرآن للإهانة فلا يجوز[(٢)].

المطلب الثالث

حُكم اخذ الأجرة على تعليم القرآن

بادئ ذي بدءٍ يُقال: الأصل أنّ رواتب الموظّفين الذين يحتاج إليهم المسلمون في أمورهم العامّة، من القضاة، والمحتسبين، ومَنْ ينفّذون الحدود، والمفتين، والأئمّة، والمدرّسين، ونحوهم من كلِّ مَنْ فرّغ نفسه لمصلحة المسلمين، فيستحقُّ الكفاية من بيت المال له ولمَنْ يعوله. ويختلف ذلك باختلاف الأعصار والبلدان لاختلاف الأحوال والأسعار.

وعليه فلا خلاف بين الفقهاء في جواز أخذ الرِّزق من بيت المال على تعليم القرآن؛ لأنَّ هذا الرِّزق ليس أُجرةً من كلِّ وجه بل هو كالأجرة[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾ الآية (٣/ ١٣٨١) (ح٤٥٥٣).
(٢) انظر: الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم (ص٥٨٧ ـ ٥٨٩).
(٣) انظر: حاشية ابن عابدين (٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨٢)؛ المغني (٦/ ٤١٧)؛ مطالب أولي النهى

وإنَّما وقع الخلاف في الاستئجار لتعليم القرآن والحديث والفقه ونحو ذلك من العلوم الشرعية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن:

وبهذا قال المتقدِّمون من الحنفيَّة[1]، والإمام أحمد في روايةٍ عنه، وبها أخذ أكثر أصحابه[2].

واستدلُّوا على ذلك بأدلَّة من الكتاب، والسُّنة، والمعقول:

أولاً: من الكتاب:

١ ـ قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

قال الشَّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة: أنَّ الواجب على أتباع الرُّسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجّاناً من غير أخذ عوَضٍ عن ذلك، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام»[3].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الآية وإن كانت خاصَّة ببني إسرائيل فهي تتناول

= في شرح غاية المنتهى، لمصطفى السيوطي الرحيباني (٣/ ٦٤١)؛ الموسوعة الفقهية (٨/ ٢٥٢) (١٣/ ١٤).

(١) انظر: المبسوط، للسرخسي(١٦/ ٣٧)؛ تحفة الفقهاء، لعلاء الدِّين السمرقندي(١/ ٣٥٧)؛ فتاوى قاضي خان (٢/ ٣٢٥)؛ الهداية (٣/ ٢٤٠)؛ المختار، للموصلي(٢/ ٥٩)؛ الفتاوى البزازية (٥/ ٣٧)؛ مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، لداما أفندي (٢/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥).

(٢) انظر: الكافي، لابن قدامة (٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤)؛ المغني (٦/ ١٣٩ ـ ١٤٠)؛ الفروع (٤/ ٤٣٥)؛ الإنصاف (٦/ ٤٥)؛ الإقناع (٢/ ٢٩٤ ـ ٣٠١)؛ دليل الطالب، لمرعي الحنبلي (ص١٤٢).

(٣) أضواء البيان (٣/ ١٨).

مَنْ فَعَل فعلهم، فمَنْ أخذ رشوة على تغيير حقٍّ أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما عَلِمه وقد تعيَّن عليه حتَّى يأخذ عليه أجراً فقد دخل في مقتضى الآية»(١).

ثانياً: من السُّنة:

١ ـ ما جاء عن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ ﷺ قال: عَلَّمْتُ ناساً مِنْ أهل الصُّفَّةِ الكتاب والقرآنَ، فأهدَى إليَّ رجُلٌ منهم قَوْساً. فقلت: ليست بمالٍ وأرمِي عنها في سبيلِ اللهِ ﷻ؟ لآتِيَنَّ رسولَ الله ﷺ، فَلأسألَنَّهُ فأتيتُهُ، فقلتُ: يا رسولَ الله! رجُلٌ أهدى إليَّ قَوْساً، مِمَّنْ كنتُ أعلِّمه الكتابَ والقرآنَ، وليست بمالٍ وأرمي عنها في سبيلِ اللهِ، قال: «إِنْ كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ تُطَوَّقَ طَوْقاً مِنْ نَارٍ، فَاقْبَلْهَا»(٢).

وفي روايةٍ أُخرى قال عُبادة ﷺ: ما ترى فيها يا رسول الله؟ فقال: «جَمْرَةٌ بَيْنَ كَتِفَيْكَ تَقَلَّدْتَهَا» أو «تَعَلَّقْتَهَا»(٣).

٢ ـ ما جاء عن أُبَيّ بن كَعْبٍ ﷺ قال: علَّمتُ رجلاً القرآن، فأهدى إليَّ قوساً، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إِنْ أَخَذْتَهَا أَخَذْتَ قَوْساً مِنْ نَارٍ» فرَدَدْتُها(٤).

٣ ـ ما جاء عن أبي الدَّرداءِ ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَخَذَ عَلَى تَعْلِيمِ القُرآنِ قَوْساً، قَلَّدَهُ اللهُ قَوْساً مِنْ نارٍ يَوْمَ القِيامَةِ»(٥).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٤٥).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الإجارة، باب: في كسب المعلِّم (٣/ ٢٦٤) (ح٣٤١٦)؛ والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٨) (ح٢٢٧٧)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٢/ ٦٥٥) (ح٢٩١٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٢٤) (ح٢٢٨١٨)؛ وأبو داود (٣/ ٢٦٥) (ح٣٤١٧)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٢/ ٦٥٥) (ح٢٩١٦).

(٤) رواه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب: الأجر على تعليم القرآن (٢/ ٧٣٠) (ح٢١٥٨)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٨) (ح١٧٥١).

(٥) رواه البيهقي في «السنن»، باب: مَنْ كره أخذ الأجرة عليه (٦/ ١٢٦) (ح١١٤٦٥)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٨٦)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/ ١٠٣٦) (ح٥٩٨٢)؛ و«الصحيحة» (١/ ١١٣) (ح٢٥٦).

ثالثاً: من المعقول:

إنَّ تعليم القرآن لا يقع إلّا قربة لله تعالى، فلم يجز أخذ العوَض عليه كالصَّلاة[١].

القول الثاني: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن:

وبهذا قال بعض المتأخّرين من الحنفيَّة[٢]، وبه قال المالكيَّة[٣]، والشَّافعية[٤]، والإمام أحمد في روايةٍ عنه[٥]، وابن حزم[٦].

واستدلُّوا على ذلك بأدلّة من السُّنة، والمعقول:

أولاً: من السُّنة:

١ ـ ما جاء عن ابنِ عبّاسٍ ﵄: أنَّ نفراً مِنْ أصْحابِ النَّبيِّ ﷺ مَرُّوا بِماءٍ، فيهمْ لَدِيغٌ أوْ سَلِيمٌ، فَعَرَضَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ المَاءِ، فَقَالَ، هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ، إنَّ في المَاءِ رَجُلاً لَدِيغاً أوْ سَلِيماً، فانْطَلق رجُلٌ مِنْهُمْ، فَقَرَأ بِفَاتِحَة الْكِتاب على شَاءٍ، فَبَرَأ، فَجَاءَ بالشَّاء إلَى أصْحَابه، فكَرِهُوا ذَلِكَ وَقالُوا: أخَذْتَ على كِتَابِ اللهِ أجراً، حتّى قَدمُوا المدينةَ، فَقالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، أخذ عَلَى كِتَابِ اللهِ أجْراً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ أحَقَّ مَا أخَذْتُمْ عَلَيْهِ أجْراً كِتَابُ اللهِ»[٧].

---

(١) انظر: الكافي (٢/ ٣٠٤)؛ المغني (٦/ ١٤١)؛ كشّاف القناع (٤/ ١٢).

(٢) انظر: المبسوط (١٦/ ٣٧)؛ فتاوى قاضي خان (٢/ ٣٢٥)؛ الهداية شرح بداية المبتدي، للمرغيناني(٣/ ٢٤٠)؛ المختار (٢/ ٥٩)؛ الفتاوى البزازية (٥/ ٣٧)؛ مجمع الأنهر (٢/ ٣٨٤)؛ حاشية ابن عابدين (٦/ ٥٥).

(٣) انظر: المدوّنة الكبرى، للإمام مالك (٤/ ٤١٩)؛ الكافي في فقه أهل المدينة، لابن عبد البر (٢/ ٧٥٥)؛ بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد (٢/ ٢٢٣)؛ الفواكه الدّواني، للنفراوي (٢/ ١٦٤)؛ بلغة السّالك لأقرب المسالك، للصاوي (٢/ ٢٤٧).

(٤) انظر: روضة الطالبين (٥/ ١٨٧)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص٤٥)؛ فتح الجواد بشرح الإرشاد، للهيثمي (١/ ٥٩٠)؛ مغني المحتاج، لمحمد الشربيني (٢/ ٣٤٤)؛ إعانة الطالبين على حلّ ألفاظ فتح المعين، للسيد البكري (٣/ ١١٣).

(٥) انظر: الكافي (٢/ ٣٠٣)؛ المغني (٦/ ١٤٠)؛ مجموع الفتاوى (٣٠/ ٢٠٥)؛ الفروع (٤/ ٤٣٥)؛ الإنصاف (٦/ ٤٥).

(٦) انظر: المحلى (٨/ ١٩٣).

(٧) رواه البخاري، كتاب الطب، باب: الشروط في الرُّقية بفاتحة الكتاب (٤/ ١٨٣٣) (ح٥٧٣٧).

٢ ـ ما جاء عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ: أنَّ نَاساً مِنْ أصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أحْيَاءِ الْعَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَبَيْنَما هُمْ كَذلِكَ، إذْ لُدِغَ سَيِّدُ أولئِكَ، فَقَالُوا: هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أوْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: إنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلَا نَفْعَلُ حَتَّى تجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً، فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعاً مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأُمِّ الْقُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ وَيَتْفِلُ، فَبَرَأَ فَأتَوْا بِالشَّاءِ، فَقَالُوا: لَا نَأخُذُهُ حَتَّى نسْألَ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَألُوهُ فَضَحِكَ وَقَالَ: «وَمَا أدْرَاكَ أنَّهَا رُقْيَةٌ، خُذُوهَا واضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ»[١].

وجه الدَّلالة: دلَّ الحديث على جواز أخذ الجُعل على تعليم القرآن، وإذا جاز أخذ الجُعل جاز أخذ الأجر؛ لأنه في معناه[٢].

٣ ـ ما جاء في حديث الواهبة المشهور، الذي رواه سَهْلُ بنُ سعدٍ السَّاعديِّ ﷺ من قولِ النبيِّ ﷺ للرَّجُلِ:

«مَاذَا مَعَكَ مِنَ القُرآنِ». قَالَ: مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كذَا، عَدَّدَهَا، فَقَالَ: «تَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ». قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرآنِ»[٣].

وجه الدَّلالة: دلَّ الحديث على جواز تعليم القرآن عِوَضاً في النِّكاح، وقائماً مقام المهر، وإذا جاز ذلك جاز أخذ الأجرة عليه في الإجارة[٤].

٤ ـ ما رواه خَارِجَةُ بنُ الصَّلْتِ عن عمِّهِ[٥] ﷺ: أنَّه أتى رسولَ الله ﷺ، فأسْلَمْ، ثمَّ أقبلَ راجعاً من عنده، فمرَّ على قوم عندهم رجلٌ مجنونٌ مُوثَقٌ بالحديد، فقال أهلُه: إنَّا حُدِّثْنَا أنَّ صاحبكم هذا[٦]، قد جاء بخير، فهل عندك

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب: الرُّقى بفاتحة الكتاب (٤/ ١٨٣٢) (ح٥٧٣٦).
(٢) انظر: المغني (٦/ ١٤٠).
(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: تزويج المُعسر (٣/ ١٦٣٨) (ح٥٠٨٧)؛ ومسلم، كتاب النكاح، باب: الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، وغير ذلك من قليل وكثير (٢/ ١٠٤٠) (ح١٤٢٥).
(٤) انظر: المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٥) قال ابن حجر ﷺ: «قيل اسمه: علاقة بن صحار، وقيل: عبد الله بن عثير».
انظر: تقريب التهذيب (٢/ ٥٧٣).
(٦) يعنون النبيَّ ﷺ.

شيء تُداويه؟ فرقيتُه بفاتحة الكتاب، فَبَرَأ، فأعطوني مِائة شاةٍ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ، فأخبرتُه، فقال:

«هَلْ إِلَّا هَذا[1]»؟ وقال مُسَدَّدٌ في مَوضع آخرَ: «هَلْ قُلْتَ غَيْرَ هَذا»؟ قلتُ: لا! قال: «خُذْهَا، فَلَعَمْرِي لَمَنْ أَكَلَ بِرُقْيَةٍ بَاطِلٍ[2]، لَقَدْ أَكَلْتَ بِرُقْيَةٍ حَقٍّ[3]»[4].

ثانياً: من المعقول:

إنَّه يجوز أخذ الرِّزق من بيت المال على تعليم القرآن، فجاز أخذ الأجرة عليه، كبناء المساجد والقناطر[5].

القول الثالث: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن عند الحاجة:

وهذا وَجْهٌ في مذهب الحنابلة[6]، وهو اختيار ابن تيميَّة رحمه الله[7].

* ولعلَّهم قالوا بذلك جمعاً بين الأدلَّة السَّابقة.

* وعملاً بعموم قول الله تعالى - في وليِّ اليتيم: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

قال الشَّنقيطي رحمه الله: «الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أنَّ الإنسان إذا لم تدعه الحاجة الضَّرورية فالأولى له ألَّا يأخذ عِوَضاً على تعليم القرآن، والعقائد، والحلال والحرام للأدلَّة الماضية. وإن دعته الحاجة أَخَذَ بقدر الضَّرورة من بيت مال المسلمين؛ لأنَّ الظَّاهر أنَّ المأخوذ من بيت المال من قبيل الإعانة على

---

(١) أي: هل قُلْتَ إلَّا فاتحة الكتاب.

(٢) جواب الشَّرط محذوف، تقديره: فعليه وِزْرُهُ وإثمُه.

(٣) أي: فلا وِزْرَ عليك. انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٩/ ٢٧٧).

(٤) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب: كيف الرُّقى؟ (٤/ ١٣) (ح٣٨٩٦)؛ وأحمد في «المسند» (٥/ ٢١٠) (ح٢١٨٨٤)؛ والحاكم في «المستدرك»، كتاب فضائل القرآن، باب: أخبار في فضائل القرآن جملة (١/ ٧٤٧) (ح٢٠٥٥)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذَّهبي. وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٧٣٧) (ح٣٢٩٧)؛ و«الصَّحيحة» (٥/ ٤٤) (ح٢٠٢٧).

(٥) انظر: المغني (٦/ ١٤١).

(٦) انظر: الفروع (٤/ ٤٣٥)؛ الاختيارات الفقهية (ص١٣٥)؛ حاشية الروض المربع (٥/ ٣٢٠).

(٧) انظر: الاختيارات الفقهية (ص١٥٣ - ١٥٤)؛ مجموع الفتاوى (٣٠/ ١٩٢ - ١٩٣، ٢٠٥).

القيام بالتّعليم لا من قبيل الأجرة. والأولى لمن أغناه الله أن يتعفّف عن أخذ شيء في مقابل التّعليم للقرآن والعقائد والحلال والحرام»[١].

التّرجيح:

يبدو أنّ أغلب الأدلّة في المسألة لم تسلم من ورود مناقشات عليها، **وأقرب الأقوال إلى الصّواب ـ والله أعلم ـ هو القول الثّالث، القائل: بجواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن عند الحاجة، وعدم جواز الأخذ عند عدمها؛ لما في ذلك من الجمع بين الأدلّة وإعمالها جميعاً**[٢].

ضوابط أخذ الأجرة على تعليم القرآن:

١ ـ الأصل في تعليم القرآن هو الاحتساب، وعدم أخذ العوض عليه، وهو عمل الأنبياء عليهم السّلام.

قال ابن تيميّة ﷺ: «أمّا تعليم القرآن والعلم بغير أجرة، فهو أفضل الأعمال، وأحبُّها إلى الله، وهذا ممّا يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام، ليس هذا ممّا يخفى على أحد ممّن نشأ بديار الإسلام. والصّحابة والتّابعون وتابعو التّابعين، وغيرهم من العلماء المشهورين عند الأمّة بالقرآن والحديث والفقه، إنّما كانوا يعملون بغير أجرة، ولم يكن فيهم منْ يعمل بأجرة أصلاً . . .

وتعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك بغير أجرة لم يتنازع العلماء في أنّه عمل صالح، فضلاً من أن يكون جائزاً»[٣].

٢ ـ إذا كان معلّم القرآن ميسور الحال ترك أخذ الأجرة، عملاً بأحاديث المنع، وجعل تعليمه زكاةً لعلمه. أمّا إذا كان المعلّم غير ميسور الحال وذا عيال ـ كما هو عليه واقع أكثر معلّمي القرآن اليوم ـ فلا بأس أن يأخذ على ذلك الأجرة، عملاً بأحاديث الجواز[٤].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٢).

(٢) انظر: الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم (ص٧٣٢ ـ ٧٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).

(٤) انظر: الثّمر الدّاني من صحيحة الألباني في فضائل القرآن وأحكامه، إبراهيم المُناوي (ص٨٧).

قال ابن تيميَّة ﷺ: «ومَنْ فَرَّق بين المحتاج وغيره ـ وهو أقرب ـ قال: المحتاج إذا اكتسب بها أمكنه أن ينوي عَمَلَها لله، ويأخذ الأجرة ليستعين بها على العبادة؛ فإنَّ الكسب على العيال واجب أيضاً، فيؤدِّي الواجبات بهذا»[١].

٣ ـ إذا كان معلِّمو القرآن من الفقراء الذين يتكسَّبون بما لا يكفي معايشهم من أيِّ عمل آخر ـ وهم كثير ـ فخير لهم أن يستغنوا بتعليم القرآن عن سؤال النَّاس.

وقد نقل ابن تيميَّة عن الإمام أحمد ﷺ قوله: «أجرة التَّعليم خير من جوائز السُّلطان، وجوائز السُّلطان خير من صلة الإخوان»[٢].

٤ ـ إذا جاز للمعلِّم أن يأخذ الأجرة على تعليمه القرآن مع حاجته إلى هذه الأجرة، فليس معناه أن يستغلَّ ظروف النَّاس وحاجتهم إليه، كأن يكون وحيداً في قرية، أو منطقة مَّا، ولا منافس له من المعلِّمين، ويجد إقبال الرَّاغبين في تعلُّم القرآن شديداً فيطلب ويغالي في طلبه، ولكن يأخذ بعفاف، ويقنع بالكفاف، ولا يعرِّض القرآن للمساومة.

٥ ـ ومن ناحيةٍ أخرى ينبغي ألَّا يَضِنَّ راغبو التَّعلم بأموالهم ولا يستكثروا ما ينفقون، بل ينبغي أن يوجِّهوا نيَّاتهم في العطاء إلى إقراض الله قرضاً حسناً، ويكون اعتقادهم هو قول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١ ـ ٢٦٢].

وبهذا يكون تعليم القرآن ميداناً تجتمع فيه فضائل العفَّة والقناعة من المعلِّمين، والإنفاق بكرم وسخاء في سبيل الله من الرَّاغبين في التَّعليم[٣].

٦ ـ إنَّ القول بجواز الاستئجار على تعليم القرآن وأخذ الأجرة على ذلك ضرورة تقتضيها مصلحة المحافظة على كتاب الله، وتعليمه لمنْ لا يحسنون

---

(١) المصدر السابق (٣٠/٢٠٧). (٢) المصدر السابق (٣٠/١٩٣).

(٣) انظر: كيف نتأدب مع المصحف (ص١٢٦ ـ ١٢٩).

قراءته؛ لأنَّ معلِّمي القرآن كغيرهم يسعون في معايشهم، وخصوصاً بعد أنْ قُطعت أعطياتهم من بيت المال، فحتَّى يتفرَّغ المعلِّمون لتعليم القرآن لا بدَّ من أجرة تُدفع لهم.

٧ ـ تعليم القرآن للمسلمين لا يقلُّ أهميَّة عن جمعه، ونسخه، وتوزيعه على الأمصار، ونَقْطه، وشَكْله من حيث المساهمة في حفظه وتعليمه. ولمَّا كان تعليم القرآن حسبةً لوجه الله تعالى قد أصبح نادراً، فاقتضى الأمر القول بجواز تعليمه بأجرة، بشرط أن يكون محتاجاً إليها.

فلو لم يُفتح باب التَّعليم بأجرة لذهب القرآن، ولا يُنكر تغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان[١].

(١) انظر: فيض الرَّحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص٣٨٧ ـ ٣٨٨، ٣٩٤).

المبحث الخامس

همَّة السَّلف في تعلُّم القرآن وتعليمه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: علوُّ همَّة المعلِّمين.

المطلب الثاني: علو همَّة المتعلِّمين.

المطلب الأول

علوُّ همَّة المعلمين

الهمَّة رزق من الله تعالى، واللهُ يبسط رزقه لمن يشاء ويقدر، ومن حكمته سبحانه أنْ فاضل بين خلقه في قواهم العملية، كما فاضل بينهم في قواهم العلميَّة.

ولقد فقه السَّلف الصَّالح عن الله تعالى أمره، وتدبَّروا حقيقة الدُّنيا، ومصيرها إلى الآخرة، فاستوحشوا من فتنها، وتجافت جنوبهم عن مضاجعها، وتناءت قلوبهم من مطامعها، وارتفعت همَّتهم على السفاسف، ولقد حفلت تراجمهم بأخبار زاخرة تشي بعلوّ همَّتهم في الثَّبات على دين الله، وقوّة عزيمتهم في حمل راية الدِّين، وتبليغ العلم الشَّرعي لطلَّابه[1].

وجلوس معلِّمي القرآن السِّنين الطِّوال لتعليم النَّاس القرآن وتبيين معانيه وأحكامه ليس بالشَّيء اليسير، فهو يحتاج إلى تضحياتٍ جسام، وهمَّةٍ عالية، وتفريغٍ للأوقات، وصبرٍ ومصابرة، ورغم ازدحام أوقاتهم بأعباء ومسؤوليَّات كثيرة يحتاجون إليها، كان تعليمهم القرآن شغلهم الشَّاغل.

وهذه بعض النَّماذج المنقولة عن السَّلف الصَّالح تُبيِّن شيئاً من علوّ همَّتهم في تعليم كتاب الله. سأذكر كلَّ واحد منها تحت عنوان يدلُّ عليه اجتهاداً منِّي، ودون تعليق عليها؛ لأنَّها من الوضوح بمكان، إلَّا ما اقتضى الحال بيانه أو أهميَّته، وهي على النَّحو الآتي:

١ ـ تَرْكُ الأوطان لأجل تعليم القرآن:

من مهامّ ولاة الأمر القيام بتوجيه الأئمّة القرّاء لتعليم النَّاس كتاب الله تعالى، أداء للأمانة وقياماً بحقّ الرِّعاية لهم.

---

(١) انظر: علو الهمّة، لمحمد أحمد المقدم (ص٢٠٩).

قال محمد بن كعب القُرظي[1] رَحِمَهُ اللهُ: «جَمَعَ القرآن خمسة: معاذ بن جبل، وعُبادة بن الصَّامت، وأبو الدَّرداء، وأُبيٌّ، وأبو أيوب. فلمَّا كان زمن عمر، كتب إليه يزيد بن أبي سفيان: إنَّ أهل الشَّام قد كثروا، وملؤوا المدائن، واحتاجوا إلى مَنْ يعلِّمهم القرآن ويفقِّههم، فأعنِّي برجال يعلِّمونهم.

فدعا عمر الخمسة، فقال: إنّ إخوانكم قد استعانوني منْ يعلِّمهم القرآن ويفقِّههم في الدِّين، فأعينوني ـ يرحمكم الله ـ بثلاثة منكم إن أحببتم، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا.

فقالوا: ما كنَّا لنتساهم، هذا شيخ كبير ـ لأبي أيوب ـ وأمّا هذا فسقيم ـ لأبيّ ـ فخرج معاذ، وعُبادة، وأبو الدَّرداء.

فقال عمر: ابدؤوا بحمص، فإنَّكم ستجدون النَّاس على وجوه مختلفة، منهم مَنْ يَلْقن[2]، فإذا رأيتم ذلك، فوجِّهوا إليه طائفة من النَّاس، فإذا رضيتم منهم، فَلْيُقم بها واحد، وليخرج واحد إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين.

قال: فقدِموا حمص فكانوا بها، حتَّى إذا رضوا من النَّاس أقام بها عُبادة بن الصَّامت، وخرج أبو الدَّرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين، فمات في طاعون عَمواس[3]. ثمّ صار عُبادة بعد إلى فلسطين وبها مات، ولم يزل أبو الدَّرداء بدمشق حتَّى مات»[4].

٢ ـ تأسيس مدارس وحِلَق تحفيظ القرآن:

يعتبر أبو الدَّرداء رضي الله عنه مؤسِّساً لمدارس وحلقات تحفيظ القرآن الكريم، فقد تصدّر للإقراء ـ كما سبق ـ في دمشق وهناك أسَّس هذا العمل العظيم:

---

(١) هو محمد بن كعب بن سليم (أبو أسعد) القرظيّ، المدنيّ. ولد سنة (٤٠هـ)، كان قد نزل الكوفة مدَّة. ثقة، عالم. توفي سنة (١٢٠هـ).
انظر: تقريب التهذيب (١/ ٥٠٤).

(٢) يَلْقن: يَفْهم ويَحْفظ. انظر: القاموس المحيط (٤/٢٦٨)، مادة: (لقن).

(٣) عَمَواس: مدينة قرب بيت المقدس. وكان الطَّاعون بها سنة (١٨هـ). انظر: معجم البلدان (١٥٧/٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٤)؛ وانظر: الطبقات الكبرى (٣٥٧/٢)؛ التاريخ الصَّغير، للبخاري (١/ ٤١).

عن سويد بن عبد العزيز ﷺ قال: «كان أبو الدَّرداء ﷺ إذا صلَّى الغداة في جامع دمشق اجتمع النَّاس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كلِّ عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدَّرداء يسأله عن ذلك»[١].

وعن مسلم بن مشكم ﷺ قال: قال لي أبو الدَّرداء ﷺ: «اعدُد منْ في مجلسنا. قال: فجاؤوا ألفاً وستَّمائة ونيِّفاً فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة، فإذا صلَّى الصُّبح، انفتل وقرأ جزءاً فيحدِّقون به يسمعون ألفاظه»[٢].

٣ ـ لم تشغله الإمارة عن تعليم القرآن:

فهذا أبو موسى الأشعري ﷺ (أمير البصرة في عهد عمر)، لم تمنعه إمارة البصرة، وكثرة مسؤوليَّاته، من تعليم النَّاس القرآن.

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: «بعثني الأشعريُّ إلى عمر، فقال عمر: كيف تركت الأشعري؟ فقلت: تركته يعلِّم النَّاس»، فقال عمر ﷺ: «إنَّه كيِّس، ولا تُسمعها إيَّاه»[٣].

٤ ـ جلس لتعليم القرآن أربعين سنة:

عن سَعْد بن عُبَيْدَةَ قال: «وَأَقْرَأَ أبو عَبْد الرحْمَنِ في إِمْرَة عُثْمَانَ حَتَّى كانَ الحجاجُ[٤]»[٥].

ومعنى ذلك: أنه عَلَّمَ الناسَ القرآنَ في مسجد الكوفة أربعين سنة، فقد بدأ

---

(١) معرفة القراء الكبار (١/ ٤١). (٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٦).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٣٤٥). وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩٠)؛ كنز العمال (١٣/ ٢٦٠) (رقم ٣٧٥٥٢).

(٤) هو الحجَّاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن مُعَتِّب بن قسي ـ وهو ثقيف ـ الثَّقفي، عاملُ عبد الملك بن مروان على العراق وخراسان، كان حازماً قويّاً ظالماً، وأمُّه: الفارعة بنت همَّام بن عروة بن مسعود الثَّقفي، مات مريضاً مُسلَّطاً عليه الزَّمهرير سنة (٩٥هـ)، وشهد مرضه الحسنُ البصري، وله: (٥٤ سنة).
انظر: وفيات الأعيان (١/ ٢٩ ـ ٥٤)؛ سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣).

(٥) صحيح البخاري (٣/ ١٦٢٠).

يعلِّم القرآن في خلافة عثمان بن عفان ﷺ إلى أيام الحجَّاج، وهو الذي روى عن عثمان حديث: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ»[١].

قال أبو عَبْدِ الرَّحمنِ السُّلَمِي: «وذَاكَ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدِي هذا»[٢].

ومعنى قول أبي عبد الرَّحمن السُّلمي: «وذَاكَ الذي أَقْعَدَني مَقْعَدِي هذا». «أي: أنّ الحديثَ الذي حَدَّثَ به عثمانُ في أفضلية مَنْ تعلّم القرآنَ وعلَّمه حمل أبا عبد الرَّحمن أنْ قَعَدَ يُعلِّمُ الناسَ القرآنَ لتحصيل تلك الفضيلة»[٣].

ومن أجل ذلك أثنى عليه الحافظ ابن كثير ودعا له بالخير فقال: «رَحِمَهُ اللهُ وأثابه، وآتاه ما طَلَبَه ورامَهُ، آمين»[٤].

٥ ـ علَّم القرآن أكثر من سبعين سنة:

(الإمام المُقرئ نافع بن عبد الرَّحمن بن أبي نُعيم المدني رَحِمَهُ اللهُ) أحد القرَّاء السَّبعة، أقرأ النَّاسَ دهراً طويلاً يزيد عن سبعين سنة؛ لأنه ممن طال عمره[٥].

وقد ذكر الذهبي رَحِمَهُ اللهُ عدداً ممّن أقرأهم نافع فقال: «وأقرأ النَّاسَ دهراً طويلاً، فقرأ عليه من القدماء: مالك، وإسماعيل بن جعفر، وعيسى بن وردان الحذَّاء، وسليمان بن مسلم بن جماز. وممَّن بعدهم: إسحاق المسيبي، والواقدي، ويعقوب بن إبراهيم بن سعد، وقالون، وورش، وإسماعيل بن أبي أويس، وهو آخر مَنْ قرأ عليه موتاً»[٦].

٦ ـ لقَّن العميانَ دهراً طويلاً:

(الإمام أبو منصور الخَيّاط البغدادي[٧] رَحِمَهُ اللهُ) تخرَّج على يديه عدد كبير من

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم مَنْ تعلم القرآن وعلَّمه (٣/ ١٦٢٠) (ح٥٠٢٧).

(٢) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٩٧).

(٤) فضائل القرآن (ص٢٠٧).

(٥) انظر: معرفة القراء الكبار (١/ ٦٤).

(٦) المصدر نفسه (١/ ١٠٧ ـ ١٠٨).

(٧) هو الإمامُ القُدوةُ المُقرئ (أبو منصور) محمد بن أحمد بن علي البغداديُّ الخيّاطُ الزّاهد.

قُرّاء القرآن، وقد وصفه الذّهبي ﷺ بقوله: «جلس لتعليم كتاب الله دهراً، وتلا عليه أمم»[١].

وقد لقّن العميان دهراً لله، وكان يُنفق عليهم، حتّى بلغ عدد مَنْ أقرأهم مِنَ العميان سبعين نَفْساً. قال الذّهبي: «ومنْ لقّن القرآن لسبعين ضريراً، فقد عمل خيراً كثيراً»[٢].

وجاء في «السّير» عن السمعاني ﷺ قال: «رُؤي (أبو المنصور) بعد موته، فقال: غفر اللهُ لي بتعليمي الصّبيان الفاتحة»[٣].

٧ ـ احتساب أجر التّعليم عند الله تعالى:

بلغ ورع معلّمي القرآن ـ من السّلف الصّالح ـ مبلغاً عظيماً في عدم أخذ الأجرة على تعليم القرآن، ومن ذلك:

* ما جاء عن أبي عبد الرّحمن السُّلمي ﷺ، أنّه جاء وفي الدّار جلال وجُزُر، فقالوا: بعث بها عمرو بن حُريث[٤] ﷺ، لأنّك علّمت ابنه القرآن. فقال: «رُدّه، إنّا لا نأخذ على كتاب الله أجراً»[٥].

* وما جاء عن ابن عُقدة[٦] ﷺ أنه كان يؤدّب ابن هشام الخزّاز، فلمّا حذق الصّبي وتعلّم، وجّه إليه أبوه بدنانير، فردّها، فظن ابن هشام أنها استُقلّت

= قال السمعاني: «صالحٌ، ثقةٌ، عابدٌ، مُلقِّن، له وِرْدٌ بين العشاءين بسُبْعٍ، وكان صاحبَ كرامات». توفي سنة (٤٩٩هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٢٢٢ ـ ٢٢٤).

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٢٢٢). (٢) المصدر نفسه (١٩/ ٢٢٢٣).

(٣) المصدر نفسه (١٩/ ٢٢٤). وانظر: معرفة القراء الكبار (١/ ٤٥٨).

(٤) هو الصحابي الجليل: عمرو بن حُريث بن عمرو بن عثمان القرشيّ المخزوميّ (من صغار الصّحابة) قيل: بأنّه ولد قبل الهجرة بسنتين، ولي إمارة الكوفة أيّام زياد وابنه عبيد الله، وتوفّي ﷺ بها سنة (٨٥هـ). انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر (٢/ ٥٣١).

(٥) انظر: الطّبقات الكبرى (٦/ ١٧٣)؛ سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٩)؛ معرفة القراء الكبار (١/ ٥٥).

(٦) هو أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرّحمن (أبو العباس) الكوفي، المعروف بالحافظ ابن عُقدة، ولد سنة (٢٠٩هـ)، وعقدة لَقبٌ لأبيه النّحوي؛ لعلمه بالتّصريف والنّحو، توفّي سنة (٣٣٢هـ). انظر: سير أعلام النُّبلاء (١٥/ ٣٤١)؛ تاريخ بغداد (٥/ ١٥).

فأضعَفَها له، فقال: «ما رددْتُها استقلالاً، ولكن سألني الصّبي أنْ أُعلّمَه القرآن، فاختلط تعليم النَّحو بتعليم القرآن، ولا أستحلُّ أن آخذ منه شيئاً، ولو دَفع إليَّ الدُّنيا»(١).

* وما رواه فضيل بن جعفر، قال: «خرج الحسن من عند ابن هبيرة فإذا هو بالقُرَّاءِ على الباب، فقال: ما أجلسكم ها هنا، تريدون الدُّخول على هؤلاء، أما واللهِ ما مخالطتهم بمخالطة الأبرار، تفرَّقوا، فرَّق الله بين أرواحكم وأجسادكم، خصفتم نعالكم، وشمَّرتم ثيابكم، وجززتم رؤوسكم، فَضَحْتُم القرَّاءَ فَضحكم الله تعالى، أما واللهِ لو زهِدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، ولكنَّكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيما عندكم، فأبعدَ اللهُ مَنْ أبعَد»(٢).

المطلب الثاني

علوُّ همة المتعلمين

إنَّ عالي الهمّة يجود بالنَّفس والنَّفيس في سبيل تحصيل غايته، وتحقيق بغيته؛ لأنه يعلم أنَّ المكارم محفوفة بالمكاره، وأنَّ المصالح والخيرات، واللَّذات والكمالات كلُّها لا تُنال إلّا بحظٍّ من المشقَّة، ولا يُعبر إليها إلّا على جسر من التَّعب.

لَولا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الجُودُ يُفْقِرُ، والإقْدامُ قَتَّالُ(٣)

ويدلُّ على تفاوت الهمم أنَّ من النَّاس مَنْ ينشط للسَّهر في سماع سمر، ولا يسهل عليه السَّهر في تعلُّم القرآن العظيم، ومنهم مَنْ يحفظ بعض القرآن، ولا يتوق إلى التَّمام، ومنهم مَنْ يعرف قليلاً من الفقه، ومنهم قنوع بصلاة ركعتين في اللَّيل، ومنهم مَنْ يطلب معالي الأمور، دون أن تكون له إرادة وسعي في

---

(١) انظر: تاريخ بغداد (٥/ ١٥)؛ سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٤٤).

(٢) رواه أبو بكر الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (١/ ٧٨) (رقم ٤٦١)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥١)؛ وأبو القاسم في «تاريخ مدينة دمشق» (٤٥/ ٣٧٧)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٦).

(٣) البيت للمتنبي.

تحقيقها، فهذا مغترٌّ بالأماني الكاذبة[1].

وما نَيْلُ المَطالِبِ بالتَّمنِّي وَلكِنْ تُؤخَذُ الدُّنْيا غِلابَا
وما استَعْصَى على قَوْمٍ مَنالٌ إذَا الإقْدَامُ كانَ لَهُمْ رِكَابَا[2]

يقول العلّامة ابن القيِّم ﷺ في هذا الشَّأن:

«وقد أجمع عقلاءُ كلِّ أمّة على أنَّ النَّعيم لا يُدرك بالنَّعيم، وأنَّ مَنْ آثر الرَّاحة، فاتته الرَّاحة، وأنَّ بحسب ركوب الأهوال، واحتمال المشاقِّ تكون الفرحة واللَّذة، فلا فرحة لمن لا هَمَّ له، ولا لذَّة لمن لا صَبْرَ له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تَعَبَ له، بل إذا تعب العبد قليلاً، استراح طويلاً، وإذا تحمَّل مشقَّة الصَّبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكلُّ ما فيه أهل النَّعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان، ولا قوّة إلّا بالله»[3].

وتعلُّم القرآن الكريم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجَدَّ فيه الطَّالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب، والمقصود من ذلك كلِّه هو لفت الأنظار إلى علوّ همّة السلف الصَّالح في تعلُّم القرآن الكريم وبذل الغالي والنَّفيس من أجل ذلك، وهذه بعض النَّماذج العالية من سيرتهم العطرة، وهي على النَّحو الآتي:

١ ـ الرِّحلة من أجل تعلُّم القرآن:

* جاء عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «واللهِ الذِي لَا إلهَ غَيْرُهُ، ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ، إلَّا أنَا أعْلَمُ أيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ، إلَّا أنَا أعْلَمُ فِيمَنْ أُنْزِلَتْ، ولَوْ أعْلَمُ أحَداً أعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تَبْلُغُهُ الإبِلُ، لَرَكِبْتُ إلَيْهِ»[4].

---

(١) انظر: علوّ الهمّة (ص٢٥). (٢) البيتان لأحمد شوقي.

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/١٥).

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: القُرَّاء من أصحاب النبي ﷺ (٣/١٦١٣) (ح٥٠٠٢)؛ ومسلم بنحوه، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن مسعود وأمّه ﷺ (٤/١٩١٣) (ح٢٤٦٣).

* وجاء عن أبي الدرداء ﷺ قال: «لو أعيتني آيةٌ من كتاب الله ﷻ، فلم أجد أحداً يفتحها عليّ إلّا بِبَرْك الغُماد[1] لرحلت إليه»[2].

* وجاء أيضاً عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «لو أعلم أن أحداً تبلغنيه الإبل أحدَثُ عهداً بالعَرْضَةِ الأخيرة[3] منّي لأتيته، أو لتكلّفْتُ أن آتيه»[4].

٢ ـ ملازمة الشُّيوخ وعَرْض القراءة عليهم:

من علوّ همّة المتعلّمين ملازمة شيوخهم وعرضهم القراءة عليهم عدّة مرّات مع العلم بتفسير الآيات وفقه أحكامها ومسائلها، والأمثلة على هذا من سيرهم العطرة كثيرة جداً، ومنها:

* ما اشتهر من ملازمة التّابعي الجليل مجاهد بن جبر ﷺ لشيخه حَبْرِ الأمّة ابن عباس ﷺ ملازمةً شديدة.

قال مجاهد ﷺ: «عَرَضْتُ القرآنَ على ابن عباس ثَلاثَ عَرَضَاتٍ، أوقفه عند كلّ آية أسأله، فيمن نزلت، وكيف كانت»[5].

* وقال عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة: «رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، حتّى سأله عن التفسير كلّه»[6].

* واشتهر عنه أنّه أخذ التفسير أيضاً عن جملة من الصّحابة، كابن عمر، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وغيرهم ﷺ.

---

(١) برك الغماد: بكسر الباء وفتحها، وكسر الغين وضمّها. وهو موضع أقصى هَجر باليمن. انظر: معجم البلدان (١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠).

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٠١). وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٢).

(٣) العرضة الأخيرة: هي التي عرضها النبي ﷺ عام توفّي، على جبريل ﷺ.

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٠٢)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (١/ ٢٤٦) (رقم ٥٩).

(٥) انظر: سنن الدارمي (١/ ٢٥٤) (رقم ١١٢٠)؛ تفسير الطبري (١/ ٨٥)؛ حلية الأولياء (٣/ ٢٨٠)؛ الطبقات الكبرى (٥/ ٤٦٦)؛ معرفة القراء الكبار (ص٣٧)؛ سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٠).

(٦) تفسير الطبري (١/ ٩٠)؛ مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٦٩).

روى السَّمرقندي في مقدِّمة تفسيره بسنده... عن ابنٍ لمجاهدٍ قال: «قال رجل لأبي: أنت الذي تُفسِّر القرآن برأيك، فبكى أبي ثمّ قال: إنّي إذاً لجريء، لقد حملتُ التّفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبيِّ ﷺ»[١].

* ومن الأئمّة الذين اشتهروا بطول ملازمة الشُّيوخ والإفادة من علومهم، نافع بن أبي نعيم المدني رحمه الله، حيث قال: «قرأتُ على سبعين من التّابعين»[٢].

٣ ـ الإقبال على الشُّيوخ والإفادة منهم:

* جاء في ترجمة علي بن حمزة الكسائي[٣] رحمه الله، ما قاله خلف بن هشام البزّار: «كنت أحضر بين يدي الكسائي، وهو يقرأ على النّاس، وينقطون مصاحفهم بقراءته عليهم»[٤].

* وقال أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري: «كانوا يُكثرون عليه حتّى لا يضبط الأخذ عليهم، فيجمعهم، ويجلس على كرسيٍّ، ويتلو القرآن من أوّله إلى آخره، وهم يسمعون ويضبطون عنه، حتّى المقاطع والمبادئ»[٥].

٤ ـ تحمُّل الشَّدائد والصِّعاب بغية تعلُّم القرآن:

* جاء عن أبي بكر شعبة بن عيّاش رحمه الله أنه قال: «اختلفتُ إلى عاصمٍ ـ

---

(١) تفسير السمرقندي (١/٣٦). وانظر: التفسير والمفسرون (١/١٠٧).

(٢) السّبعة في القراءات، لابن مجاهد البغدادي (١/٦١)؛ العبر في خبر منْ غبر، للذّهبي (١/٢٥٧)؛ معرفة القراء الكبار (١/١٠٧)؛ سير أعلام النبلاء (٧/٣٣٦).

(٣) هو علي بن حمزة بن عبد الله بن بَهْمَنْ بن فيروز (أبو الحسن) الأسدي، مولاهم الكوفي، إمامٌ في النّحو واللُّغة والقراءات، ولد سنة (١٢٠هـ) ولُقّب بالكسائي: لكساء أحرم فيه، وقيل: لأنه الْتفّ في كساء وهو يتلو على حمزة. قال ابن الأنباري: «اجتمع فيه أنّه كان أعلم النّاس بالنّحو، وواحدهم في الغريب، وواحدهم في علم القرآن». قراءته هي إحدى القراءات السّبع المتواترة. ومن مصنّفاته: «معاني القرآن»، و«مختصر في النّحو». توفّي سنة (١٨٩هـ).

انظر: وفيّات الأعيان (٣/٢٥٩)؛ سير أعلام النُّبلاء (٩/١٣١).

(٤) السّبعة في القراءات (١/٧٨)؛ نَقْطُ المصاحف، لأبي عمرو الداني (١/١٣)؛ معرفة القراء الكبار (١/١٢٢).

(٥) الوافي بالوفيات (٢١/٤٨)؛ معرفة القراء الكبار (١/١٢٣).

يعني: ابن أبي النَّجود ـ نحواً من ثلاث سنين، في الحرِّ والشِّتاء والمطر، حتَّى ربَّما استحييت من أهل مسجد بني كاهل»[١].

* وجاء عن محمد بن علي السُّلَمي رحمه الله أنه قال: «قمت ليلةً سحَراً لآخذ النَّوبة على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً»، وقال: «لم تدركني النَّوبة إلى العصر»[٢].

مَنْ يُطيق أن يفعل ما فعله السُّلَمي في زماننا؟ ومنْ من الآباء والأمَّهات يرضى أن يخرج ولده من السَّحر وظلمة اللَّيل؛ لتعلُّم القرآن، ولا يعود إلَّا بعد العصر؟!

٥ ـ تعلُّم القرآن قبل علوم الشَّريعة الأُخرى:

* جاء عن ابن خزيمة[٣] رحمه الله أنه قال: «استأذنتُ أبي في الخروج إلى قتيبة، فقال: اقرأ القرآن أوَّلاً حتى آذنَ لك، فاستظهرتُ القرآنَ، فقال لي: امكثْ حتَّى تصلِّي بالختمة، ففعلتُ، فلمَّا عيَّدنا، أذن لي، فخرجتُ إلى مرو، وسمعتُ بمرو الرُّوذ من محمد بن هشام، صاحب هشيم، فنعي إلينا قتيبة»[٤].

فهذا من علوِّ همَّة السلف الصَّالح أنَّهم لا يعلِّمون الحديث والفقه إلَّا لمن حفظ القرآن أولاً؛ لأنه أهمُّ العلوم وأساسها.

٦ ـ تَركُ الوطن والمال من أجل تعلُّم القرآن:

* جاء في سيرة يحيى بن وثَّاب الأسدي[٥] رحمه الله أنَّه دخل هو وأبوه

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٠٢). (٢) المصدر نفسه (١٥/ ٥٦٥).
وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٥٦/ ١٢٣)؛ معرفة القراء الكبار (١/ ٢٩٢).

(٣) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة، الحافظ الحُجة الفقيه (أبو بكر) السُّلمي النَّيسابوري الشَّافعي، صاحب التَّصانيف. ولد (سنة ٢٢٣هـ) وعُني في حداثته بالحديث والفقه حتى صار يُضرب به المَثل في سعة العلم والإتقان. وكان له عظمةٌ في النُّفوس وجلالة في القلوب؛ لعلمه ودينه واتِّباعه السُّنة. توفِّي (سنة ٣١١هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (٢/ ٢٥٩).

(٤) تاريخ الإسلام (٢٣/ ٤٢٤)؛ سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٧١)؛ تذكرة الحفَّاظ (٢/ ٧٢٢).

(٥) هو الإمام يحيى بن وثَّاب الأسدي الكوفي، شيخ المقرئين في زمانه، ثقة، عابد، من الرَّابعة. قال الأعمش رحمه الله: «يحيى بن وثَّاب من أحسن النَّاس قراءة، وربَّما اشتهيت

الكوفة، وكانت يومئذ حاضرة العلم والعلماء، فطلب من أبيه البقاء بها؛ ليتعلم كتاب الله ﷻ، وسنة نبيّه ﷺ، بملازمة حِلَقِ أهل العلم فيها، مُؤثراً ذلك على الذّهاب إلى بلده برفقة أهله، قائلاً لأبيه: «يا أبتِ إني آثرتُ العلمَ على المال»، فأذن له والده في المقام بالكوفة، فأقبل على القرآن الكريم، فقرأه على أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث لم يدركه، فقرأ على علقمة بن قيس، والأسود بن يزيد، وأبي عبد الرّحمن السُّلَمي، وغيرهم[1].

٧ ـ حِفْظُ القرآنِ بالرّوايات العشر:

كثيراً ما نقرأ في سير العلماء الكبار أنّ الواحد منهم قد حفظ القرآن عند سنّ العاشرة أو بعدها بقليل، ولكن أن يُحفظ القرآن بالرّوايات العشر فهذا من النّادر، ويدلُّ على علوّ في همة المتعلّم:

* جاء في ترجمة زيد بن الحسن الكندي[2] رحمه الله أنه: «حَفِظَ القرآن وهو صغير مُميِّز، وقرأه بالرّوايات العَشْر، وله عشرة أعوام، وهذا شيء ما تهيّأ لأحد قبله، ثمّ عاش حتّى انتهى إليه عَلوُّ الإسناد في القراءات والحديث»[3].

= تقبيل رأسه؛ لحسن قراءته، وكان إذا قرأ لم تحس في المسجد حركة، كأن ليس في المسجد أحد». وقال أيضاً: «كنتُ إذا رأيته قلت هذا قد وقف للحساب».
انظر: تقريب التهذيب (١/٥٩٨)؛ معرفة القراء الكبار (١/ ٦٤).

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٧٩).

(٢) هو زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي (أبو اليُمْن) المُلقّب: تاج الدّين، البغدادي المولد (سنة ٥٢٠هـ)، الدّمشقي الدّار والوفاة (سنة ٥٩٧هـ)، المقرئ، النّحوي، المحدّث، الأديب، كان أوحد عصره في فنون الآداب، وعلو السّماع، قال الذّهبي رحمه الله: «قرأ القرآن تلقيناً على أبي محمد، سِبْط الخياط، وله نحو من سبع سنين، وهذا نادر».
انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٣٣٩)؛ معرفة القراء الكبار (٢/ ٥٨٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٤).

الفصل الخامس

هجر تلاوة القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر هجر تلاوة القرآن.

المبحث الثاني: أسباب هجر التلاوة.

المبحث الثالث: آداب وأحكام تلاوة القرآن.

المبحث الرابع: فضائل تلاوة القرآن.

المبحث الأول

مظاهر هجر تلاوة القرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مظاهر هجر التِّلاوة.

المطلب الثاني: بِدَع التِّلاوة.

المطلب الأول

مظاهر هجر التلاوة

هجر تلاوة القرآن الكريم - في الواقع المعاصر - يأخذ مظاهر عدّة، وتتفاوت هذه المظاهر فيما بينها من حيث درجة تعاظمها حسب الحالة ذاتها، وحسب صاحبها؛ فربّما كان تشاغلاً بأمرٍ من أمور الدُّنيا، أو كان زهداً في أجر التّلاوة، أو تكاسلاً عنها، أو جهلاً بفضائلها الكثيرة وثمارها اليانعة، أو غير ذلك.

ومظاهر هجر التّلاوة تُجمل في نقاطٍ عدَّة، وهي:

١ - الانقطاع عن التّلاوة لفترات طويلة، فبعضهم لا يتلو القرآن إلّا يوم الجمعة، أو في شهر رمضان، أو في الحجّ أو العمرة، أو عند نزول مصيبةٍ، أو فَقْد قريب.

٢ - قلّة التّلاوة والزُّهد في أجرها.

٣ - هجر التّلاوة في البيوت، أو في وسائل التَّنقُّل المريحة أثناء السّفر، كالطّائرات، والسّيارات، والقطارات، والسُّفن.

٤ - اعتناء القارئ بالكمّ دون الكيف أثناء التّلاوة.

٥ - الجهل بأحكام التّجويد، وعدم الحرص على تعلُّمها وتطبيقها.

٦ - عدم الخشوع أثناء التّلاوة، فكثيراً ما يجول الفكر في كلّ مكان عند تلاوة القرآن.

٧ - ترك الالتزام بآداب التّلاوة، ومنها: اختيار الزّمان والمكان المناسبين، والاستعاذة قبلها، وحسن الوقف والابتداء، والوقوف عند رؤوس الآيات، والتّسبيح عند آيات التّسبيح، والتعوُّذ عند آيات العذاب، وسؤال الرّحمة عند آيات الرّحمة، والسُّجود عند المرور بآية سجدة، وهكذا.

٨ - عدم التزام الأدب في حمل المصحف أو وضعه أثناء التّلاوة، وبعض صغار القرّاء ربّما كتبوا على مصاحفهم أو مزّقوا بعض أوراقها.

٩ ـ عدم تخصيص أوقاتٍ لتلاوة القرآن، بل ربَّما كانت التّلاوة في الأوقات المفضولة.

١٠ ـ عدم استشعار فضائل وثمرات تلاوة القرآن.

١١ ـ قلّة احتساب الأجر وضعف النية في التّلاوة.

١٢ ـ ضعف الهمَّة وعدم الصبر على هذه العبادة العظيمة.

١٣ ـ عدم وضوح الهدف والغاية من قراءة القرآن.

١٤ ـ جَعْل تلاوة القرآن وسيلة ومطية لنيل حظوظٍ دنيويَّة، كالقراءة في المآتم والعزاء، وافتتاح الحفلات، وسائر المناسبات الشّرعية كشهر رمضان.

١٥ ـ الحصول على شهادات عالية في مختلف التّخصُّصات العلميَّة والأدبيَّة مع عدم إتقان تلاوة القرآن.

١٦ ـ تبوُّء المناصب القيادية في الوزارات والشّركات والهيئات والمؤسَّسات مع عدم إجادة التّلاوة.

١٧ ـ ما يفعله بعض الفسّاق من تلاوة القرآن بقصد تقوية مخارج الحروف؛ لأداءٍ أفضل في الغناء!!

١٨ ـ القراءة بقصد التّبرُّك بالقرآن دون أن يتبع ذلك عمل وتطبيق لما يتلوه.

المطلب الثاني
بِدَع التّلاوة

ابتدع بعض القرّاء في قراءة القرآن أشياء كثيرة لا تحلُّ؛ لأنَّها إمَّا زيادة على الحدّ المتّفق عليه في تلاوة القرآن، وإمَّا نقصٌ عن ذلك.

ومن هذه الأمور المبتدعة في التّلاوة ما يلي:

١ ـ التّنطُّع في القراءة، والوسوسة في مخارج الحروف:

ومعنى ذلك: التّعسُّف والإسراف المتكلّف في القراءة، وعدم القراءة بسهولة واستقامة، كما أمر تعالى بقوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. وقوله

تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. وعدم إعطاء الحروف حقّها من الصّفات والأحكام، والخروج بذلك كلّه إلى التّجويد المتكلّف.

وممّا ذكره ابن القيّم رحمه الله في سياق حديثه عن مصائد الشّيطان لبعض القرّاء: «ومن ذلك الوسوسة في مخارج الحروف، والتّنطّع فيها. . . ومنْ تأمّل هَدْي رسول الله ﷺ وإقرارَه أهلَ كلّ لسان على قراءتهم يتبيّن له أنّ التنطّع والتّشدّق، والوسوسة في إخراج الحروف ليس من سُنّته»(١).

٢ ـ الخروج بالقراءة عن لَحْن العرب(٢) إلى لُحُون العَجَم:

قال ابن القيّم رحمه الله: «قال محمد بن قتيبة في (مُشْكل القرآن): وقد كان النّاس يقرؤون القرآن بلغاتهم، ثمّ خلف من بعدهم قوم من أهل الأمصار وأبناء العَجَم ليس لهم طبْعُ اللّغة، ولا علْمُ التكلّف، فهفوا في كثير من الحروف، وزلّوا وأخلّوا، ومنهم رجل ستَر الله عليه عند العوامّ بالصّلاح، وقرّبه من القلوب بالدّين. فلم أر فيمن تتبّعْتُ في وجوه قراءته أكثر تخليطاً ولا أشدّ اضطراباً منه؛ لأنّه يستعمل في الحرف ما يدعُه في نظيره. ثمّ يؤصّل أصلاً ويخالفه إلى غيره بغير علّة، ويختار في كثير من الحروف ما لا مخرج له إلّا على طلب الحيلة الضّعيفة، هذا إلى نبْذه في قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز، بإفراطه في المدّ والهمز والإشباع، وإفحاشه في الإضْجاع والإدغام، وحمْلِه المتعلّمين على المذهب الصعْب، وتعْسيره على الأمّة ما يسّره الله تعالى، وتضييقه ما فسحه. ومن العَجب أنّه يُقرئ النّاس بهذه المذاهب، ويَكره الصّلاة بها. ففي أيّ موضع

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٢٥٢، ٢٥٤).

(٢) معنى اللَّحن: جاء في «لسان العرب» (١٢/ ٢٥٥): «اللَّحْن، واللَّحَنُ، واللَّحانَةُ، واللَّحانِيَة: تركُ الصّواب في القراءة». وجاء في «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٥): «اللَّحْنُ: صرْفُ الكلام عن سَنَنه الجاري عليه، إمّا بإزالة الإعراب، أو التّصحيفِ، وهو المذموم». وجاء في «النّهاية في غريب الحديث والأثر» (٤/ ٢٤١): «اللَّحْنُ: الميْل عن جهة الاستقامة. يُقال: لحنَ فُلانٌ في كلامه، إذا مال عن صحيح المَنْطق».
فمعنى لحن العرب، أو لحون العرب: هي قراءة الإنسان بحسب جبِلّته وطبيعته على طريقة العرب العرباء الذين نزل القرآن بلغتهم.
انظر: القرآن الكريم: تاريخه وآدابه، لإبراهيم علي عمر (ص٢٠١).

تُستعمل هذه القراءة، إنْ كانت الصَّلاة لا تجوز بها؟»[١].

٣ ـ القراءة بألحان أهل الفسق والفجور[٢]:

وَصَف أبو بكرٍ الطُّرْطوشي[٣] رحمه الله حال أصحاب الألحان ـ الذين ظهروا في القرن الرَّابع ـ أنَّ مقصودهم من قراءة القرآن وسماعه هو الوصول إلى الطَّرب والنَّغمات والألحان، لا تدبُّر القرآن، وتفهُّم معانيه، فقال: «فالتَّالي منهُم والسّامعُ لا يقصِدُون[٤] فهْمَ معانيه؛ من أمرٍ، أوْ نهْيٍ، أو وعدٍ، أو وعيدٍ، أو وعظٍ، أو تخويفٍ، أو ضَرْب مَثَلٍ، أو اقتضاءِ حُكْمٍ، أو غيرِ ذلك مما أُنزِلَ بِهِ القرآنُ، وإنَّما هُو لِلَّذةِ والطَّرَبِ والنَّغماتِ والألحانِ؛ كَنَقْرِ الأوتارِ، وأصواتِ المزاميرِ؛ كما قالَ اللهُ عز وجل يذمُّ قريشاً: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]»[٥].

ولذلك لا تتعجّب ولا تأخذك الدَّهْشة والحيْرة عندما تجد في تراجم بعض مشاهير القرّاء ـ في زماننا ـ بأنّه عارف بألحان الموسيقى والغناء، حتّى صرّح بعضهم في الإذاعة عندما كان يُسأل عن سبب شهرته؟ فأجاب: الفضل في ذلك يرجع إلى تعلُّم الألحان الموسيقيَّة! ولقد تعلَّمتُ السُّلَّم الموسيقي من بعض الفنّانين![٦].

---

(١) إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيطان (١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

(٢) لابن الكيّال الدِّمشقي رحمه الله المتوفّى سنة (٩٢٩هـ) رسالة باسم: «الأنجم الزّواهر، في تحريم القراءة بلحون أهل الفسق والكبائر» وهي مخطوطة.
انظر: تصحيح الدُّعاء (ص٢٦٥).

(٣) هو أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان الأندلسيُّ، الطُّرْطُوشيُّ، عالمُ الإسكندرية. وطُرْطُوشةُ: هي آخرُ حدِّ المسلمين من شمالي الأندلس. ولد سنة (٤٥١هـ).
قال ابن بشكُوال رحمه الله: «كان إماماً، عالماً، زاهداً، ورعاً، ديِّناً، متواضعاً، مُتقشِّفاً، مُتقلِّلاً من الدُّنيا، راضياً باليسير»، توفّي سنة (٥٢٠هـ). ومن مصنفاته: «تحريم الغناء»، و«برُّ الوالدين»، و«الرَّدُّ على اليهود».
انظر: وفيّات الأعيان (٤/ ٢٦٢)؛ النُّجوم الزّاهرة (٥/ ٢٣١).

(٤) أي: لا يريدون.

(٥) الحوادث والبدع (ص٨٧).

(٦) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص٣٢).

٤ ـ قراءة الأنغام والتَّمطيط:

وتسمَّى أيضاً: «قراءة التَّرقيص»؛ لأنَّه يُداخلها أحياناً ركض وركل ـ أي: ضرب بالقدمين.

وقيل: معنى التَّرقيص: أنَّ الشَّخص يُرَقِّص صوته كالمتكسِّر الذي يفعل الرقص. وقال بعضهم: هو أن يروم السّكتَ على السّاكن، ثم ينفر عنه مع الحركة في عَدْوٍ وهرولة[1].

قال الشَّيخ بكر أبو زيد[2] ـ حفظه الله ـ عن بدعة الترقيص: «وكنتُ أظنُّها ممَّا انقرض، لكنِّي شاهدتُها لدى بعض الطُّرقية، في ساحة مسجد الحسين بمصر عام (١٣٩١هـ)، وهم في غاية من الاستغراق، والاغترار بمشاهدة النّاس لهم، فلمَّا ناصحتُ أحدهم وجدته في غاية من الجهل، والانصراف عن النُّصح»[3].

٥ ـ قراءة التَّحزين والتَّطريب:

وهو أن يترك القارئ طباعهُ وعادته في التّلاوة، ويأتي بها على وجهٍ آخر، كأنّه حزين يكاد أن يبكي من خشوع وخضوع.

وإنَّما نُهي عن قراءة التَّحزين والتَّطريب لما فيها من الرِّياء من جهة، ومن ترديد الأصوات، وكثرة التّرجيعات من جهة أخرى[4].

٦ ـ قراءة التَّحريف:

وهو أنّ عدداً من القرآء يقرؤون بصوت واحد، ويُقطّعون القراءة، فيأتي

---

(١) انظر: القرآن الكريم: تاريخه وآدابه (ص٢٠٢).

(٢) هو بكر بن عبد الله أبو زيد، ينتهي نسبه إلى سويد بن زيد القضاعي، من قبيلة بني زيد القضاعيّة المشهورة في حاضرة الوشم، وعالية نجد، وفيها ولد عام (١٣٦٥هـ)، وبجانب دراسته النّظاميّة، لديه نحو عشرين إجازة من علماء الحرمين والرّياض والمغرب والشّام والهند وأفريقيا وغيرها. ومن أبرز مشايخه العلّامة محمد الأمين الشّنقيطي رحمه الله، حيث لازمه نحو عشر سنين، وله مشاركات قيّمة في التأليف بلغت زهاء السبعين مؤلّفاً.
انظر: فتاوى اللجنة الدّائمة (١/ ١٥ ـ ٢٣).

(٣) تصحيح الدعاء (ص٢٦٦).

(٤) انظر: جمال القراء، للسخاوي (٢/ ٥٢٨).

بعضهم ببعض الكلمة، والآخر ببعضها الآخر، فيقولون في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (أفل تعقلون) بحذف الألف، و(قالْ آمنّا) بحذف الواو، ويمدُّون ما لا يمدُّ؛ ليستقيم لهم الطّريق التي سلكوها.

فهؤلاء المُحرِّفة يحافظون على مراعاة الأصوات، ولا ينظرون إلى ما يترتّب على ذلك من الإخلال بالثواب، فضلاً عن الإخلال بتعظيم كلام الجبار[1].

٧ ـ قراءة التّرعيد:

ومعناه أنّ الشّخص يُرعد صوته بالقرآن، كأنّه يرعد من بردٍ أو ألمٍ أصابه. ومن المناسب أن أسوق كلاماً نفيساً وجامعاً للذّهبي ﷺ وهو يندب حالَ أكثر القرّاء في عصره، حيث يقول:

«فالقرّاء المُجَوِّدة: فيهم تنطُّع وتحرير زائد يؤدِّي إلى أنّ المجوِّد القارئ يبقى مصروف الهمّة إلى مراعاة الحروف والتّنطُّع في تجويدها؛ بحيث يشغله ذلك عن تدبُّر معاني كتاب الله تعالى، ويصرفه عن الخشوع في التّلاوة لله، ويُخلّيه قويَّ النّفس مُزدرياً بحُفّاظ كتاب الله تعالى، فينظر إليهم بعين المقْت، وبأنّ المسلمين يلْحنون، وبأنّ القرّاء لا يحفظون إلّا شواذّ القراءة، فليت شعري أنت ماذا عرفت، وما علْمك؟! فأمّا عملك فغير صالح، وأمّا تلاوتك فثقيلة عريّة عن الخشية والحُزْن والخوف، فالله يُوفِّقك ويبصِّرك رُشدَك، ويوقظك من رقدة الجهل والرِّياء.

وضدُّهم قرّاء النَّغَم والتَّمطيط: وهؤلاء منْ قرأ منهم بقلب وخوف، قد يُنتفع به في الجملة، فقد رأيتُ مَنْ يقرأ صحيحاً، ويُطرب ويُبكي، ورأيتُ مَنْ إذا قرأ قسّى القلوب، وأبرم النُّفوس، وبدّل كلام الله تعالى، وأسوأهم حالاً الجنائزية.

وأمّا القراءة بالرِّوايات وبالجَمْع: فأبعد شيء عن الخشوع، وأقدم شيء على التّلاوة بما يخرج عن القصد، وشعارهم في تكثير وجوه حمزة، وتغليظ تلك اللّامات، وترقيق الرّاءات.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٧٠).

اقرأ يا رجل وأعفنا من التَّغليظ، والتَّرقيقِ، وفرطِ الإمالة، والمدودِ، ووقوفِ حمزة، فإلى كم هذا؟!

وآخر منهم إنْ حضَرَ في ختمة، أو تلا في محراب؛ جعل ديدنه إحضار غرائب الوجوه، والسَّكْت، والتَّهوُّع بالتَّسهيل، وأتى بكلِّ خلاف، ونادى على نَفْسِه: أنا أبو فلان، فاعرفوني فإنِّي عارف بالسبْع.

إيش يُعمل بك؟ لا صَبَّحك الله بخير، إنَّك حجر منجنيقٍ، ورصاصٌ على الأفئدة»[1].

ولذلك أشار بعضهم فقال:

حُدودُ حُروفِ الذِّكر في لفظِ قارئ ... بِحَذْرٍ وتحقيقٍ ودورٍ مُرتَّلا
فإنِّي رأيتُ البعضَ يتلو القرآن لا ... يُراعي حُدودَ الحرفِ وَزْناً ومَنْزِلا
فمنهم بترقيصٍ ولحنٍ وَضَجَّةٍ ... ومنهم بترعيدٍ ونَوْحٍ تبدَّلا
فما كلُّ مَنْ يتلو القرآن يُقِيمُه ... ولا كلُّ مَنْ يقرا مجمَّلا
فَذَرْ نُطْقَ أعجامٍ وما اخترعوا به ... وَخُذْ نُطْقَ عُرْبٍ بالفصاحة سُؤْلا
فيا قارئ القرآنِ أجملْ أداءه ... يُضاعِفْ لك الرَّحمنُ أجراً فأجْزِلا»[2]

٨ ـ هَذُّه كَهَذِّ الشِّعر:

أمَّا هَذُّه «حذراً» بمعنى إدراج القراءة مع مراعاة أحكامها وسرعتها بما يُوافق طبعَه، ويخفُّ عليه، فلا تدخل تحت النَّهي، بل هذه من أنواع القراءة المشروعة.

٩ ـ القراءة بالإدارة:

وهي تناوب المجتمعين في القراءة جماعيّاً آيةً، أو آيات، أو سورة، أو سوراً، إلى أن يتكاملوا بالقراءة، وهذا بخلاف الاجتماع المشروع لتدارس القرآن.

---

(١) بيان زغل العلم والطلب، للذَّهبي (ص٢٥ ـ ٢٧).

(٢) القرآن الكريم: تاريخه وآدابه (ص٢٠٢ ـ ٢٠٣).

١٠ ـ قراءة القرآن في مجلس شُرْب الدُّخان:

اشتدَّ نكير العلماء على منْ قرأ القرآن الكريم وهو يشرب الدُّخان، أو في مجلسٍ يُشرب فيه، وأُفردت فيه رسائل لبعض علماء مصر.

١١ ـ القراءة والإقراء بشواذِّ القراءات:

وممّا قاله ابن الجوزيّ كَلَّلهُ في سياق ذكر تلبيس إبليس على بعض القرّاء: «فمن ذلك: أنَّ أحدَهم يشتغل بالقراءات الشّاذّة وتحصيلها، فَيُفني أكثر عمره في جمعها، وتصنيفها، والإقراء بها، ويشْغلُه ذلك عن معرفة الفرائض والواجبات، فربما رأيت إمام مسجدٍ يتصدَّى للإقراء، ولا يعرف ما يفسد الصّلاة، وربّما حمله حبُّ التّصدُّر ـ حتّى لا يُرى بعين الجهل ـ على ألّا يجلس بين يدي العلماء ويأخذ عنهم العلم، ولو تفكّروا لعلموا أنَّ المراد حفظُ القرآن وتقويمُ ألفاظه، ثمّ فهمُه، ثم العملُ به، ثمَّ الإقبالُ على ما يُصلح النّفس ويطهِّر أخلاقها، ثمّ التّشاغلُ بالمهمّ من علوم الشّرع.

ومن الغبْن الفاحش: تضييع الزّمان فيما غيره الأهم، قال الحسن البصريُّ: أُنزل القرآن ليُعمل به، فاتّخذ الناس تلاوته عملاً. يعني أنّهم اقتصروا على التّلاوة، وتركوا العمل به»[1].

١٢ ـ جَمْع القراءات في مجلس واحد:

يقع بعض القرّاء في نوعٍ من الرّياء والسُّمعة والمباهاة حين يجمع بين قراءتين فأكثر، في آية واحدة، في الصّلاة أو خارجها في مجامع النّاس.

وليس من ذلك بيانها في دروس التّفسير، وإظهار وجوه القراءات من المعلِّمين للمتعلّمين[2].

وهذا ما صرّح به ابن تيمية كَلَّلهُ بقوله: «وأمّا جمعها ـ القراءات ـ في الصّلاة، أو في التّلاوة فهو بدعة مكروهة، وأما جمعها لأجل الحفظ والدّرس

---

(١) تلبيس إبليس (ص١٣٠).

(٢) انظر: تصحيح الدُّعاء (ص٢٦٩ ـ ٢٧٢).

فهو من الاجتهاد الذي فعله طوائف في القراءة»[١].

وقال الحُصَري[٢] رحمه الله: «فليعلم إخواننا القرّاء ـ وفّقهم الله ـ أن الله تعالى قد حمّلهم أمانة تلاوة كتابه، وألزمهم فيها التّأدّب بآدابه، والاتّباع لسنّة رسوله فيها، والنّهي عمّا فيه إخلال بحقّها، أو ابتداع فيها، والقراءة سنّة مأثورة، وجعل جزاء تقصيرهم في ذلك مضاعفاً بقدر ما منحهم الله من العلم بأحكام التّلاوة؛ لذلك أدعوهم ـ هداني الله وإيّاهم ـ إلى القيام بحقّ كتابه وترك ما اعتادوه في هذا العصر من الجَمْع بين القراءات في المحافل، فإنّه ـ كما نصّ عليه الأئمة الثّقات، وهم القدوة في هذا الشأن ـ بدعة مستحدثة، غير معروفة، لا عند السّلف، ولا عند الخلف»[٣].

١٣ ـ قول السّامع للقارئ «الله، الله»:

فهذه ألفاظ شريفة ينبغي ألّا يوظّفها السامع للقارئ، والمطلوب هو التّدبّر والاستماع والإنصات، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

١٤ ـ التزام قول «صدق الله العظيم» بعد التّلاوة:

قول القائل: «صدق الله العظيم» في نفسها حقٌّ، لكن لم يثبت عن النبيّ ﷺ، أنّه قالها بعد الانتهاء من تلاوة القرآن مع كثرة قراءته وسماعه للقرآن، وكذلك لم يُعهد عن الصدر الأوّل رضي الله عنهم أنّهم كانوا يتلفّظون بذلك عند الانتهاء من تلاوتهم، ولم يُعرف ذلك عند السّلف الصالح من بعد الصحابة[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٠٤).

(٢) هو محمود بن خليل الحُصري، شيخ المقارئ المصريّة، ولد سنة (١٣٣٥هـ) وكان صاحب مخارج قويّة، وذا صوت رزين، وكان ممن يتّبع السّلف الصالح في طريقتهم في قراءة كتاب الله تعالى فما يحيد عنه قيد أنملة. وهو أوّل منْ سجّل المصحف المرتّل للإذاعة، وأوّل منْ أوفد بعثات دينية بالخارج، لتلاوة القرآن الكريم في العالم الإسلامي. توفّي سنة (١٤٠١هـ). انظر: الموسوعة الميسّرة في تراجم أئمة التّفسير والإقراء والنّحو واللّغة (٣/ ٢٥٩٢ ـ ٢٥٩٣).

(٣) القرآن: آداب تلاوته وسماعه (ص٢٩).

(٤) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٤/ ١٤٩)، فتوى رقم: (٣٣٠٣).

فالتزام هذا الذِّكر «صدق الله العظيم» بعد قراءة القرآن التزام مُخترع مُحدث لا دليل عليه، وكلُّ مُحدثٍ في العبادات فهو بدعة[١].

١٥ ـ بِدَع قراءة الفاتحة:

هناك بدع كثيرة ومتنوِّعة تتعلَّق بقراءة الفاتحة، ومن ذلك:

* قراءة الفاتحة بنيّة قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وهلاك الأعداء!

* قراءة الفاتحة عند شرط خِطْبة الزّواج، واعتقادهم أنَّ قراءتها عهد لا يُنقض، أو أنَّها تعدل أربعةً وأربعين يميناً[٢].

* قول بعضهم ـ بعد قراءة القرآن: الفاتحة[٣].

* قول بعضهم: الفاتحة على روح فلان عند أيِّ مناسبة[٤].

* قراءة الفاتحة بعد الدُّعاء من البدع[٥].

* قراءة الفاتحة بعد صلاة الفريضة[٦].

* قراءة الفاتحة جهراً بعد التّسليم من صلاة الجنازة، وعند رأس الميِّت، والمناداة بقراءة الفاتحة عند المرور بالمقابر[٧].

١٦ ـ قراءة القرآن عند القبر:

قال ابن تيميَّة رحمه الله: «والقراءة على الميِّت بعد موته بدعة»[٨].

وأكّد ذلك تلميذه ابن القيِّم رحمه الله بقوله: «وكان من هديه ﷺ، تعزيةُ أهل الميِّت، ولم يكن من هديه أن يجتمع للعزاء، ويُقرأ له القرآن، لا عند قبره ولا

---

(١) انظر: تصحيح الدعاء (ص٢٩١ ـ ٢٩٢).

(٢) انظر: السنن والمبتدعات، لمحمد بن أحمد بن عبد السلام الشقيري (ص١٩١ ـ ١٩٢)؛ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٢/٥٣٨)، فتوى رقم: (٨٩٤٦).

(٣) انظر: بدع القراء القديمة والمعاصرة، د. بكر أبو زيد (ص٢١).

(٤) انظر: أحكام الجنائز وبدعها، للألباني (ص٧).

(٥) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٢/٥٢٨)، فتوى رقم: (٥٨٨١).

(٦) انظر: المصدر نفسه (٢/٥٣٩)، فتوى رقم: (٩٥٠٩).

(٧) انظر: تصحيح الدعاء (ص٢٧٦).

(٨) الاختيارات الفقهية (ص٩٢).

غيره، وكلُّ هذا بدعة حادثة مكروهة»[١].

وأورد هنا كلاماً نفيساً للألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث يقول في السّياق نفسه: «وقراءة القرآن عند زيارة المقابر، أو عندها، لا أصل له في السُّنّة، إذ لو كانت القراءة مشروعة لفَعَلها رسول الله ﷺ وعلّمها أصحابه، لا سيّما وقد سألته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ وهي من أحبِّ النّاس إليه ـ عمَّا تقول إذا زارت المقابر، فعَلّمها السّلامَ والدُّعاء، ولم يعلّمْها أن تقرأ الفاتحةَ أو غيرها من القرآن؛ فلو أنَّ القراءة كانت مشروعة لما كتم ذلك عنها، كيف وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز كما تقرّر في علم الأصول، فكيف بالكتمان»[٢].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٥٢٧).

(٢) أحكام الجنائز وبدعها (ص٢٤١).

المبحث الثاني

أسباب هجر التلاوة

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الانشغال بالدُّنيا.

المطلب الثاني: ضعف الهمَّة.

المطلب الثالث: الجهل بثمرات قراءة القرآن.

المطلب الرابع: تقديم العلوم الأخرى على القرآن.

المطلب الخامس: الحرب المعلنة على القرآن واللُّغة.

أسباب هجر التلاوة

تمهيد:

كثير من المسلمين هجروا تلاوة القرآن هَجْراً لم تعرفه الأمّة من قبل، فربّما تمرُّ الأيّام والأسابيع بل الشّهور على بعض أبناء أمّة القرآن، وأمّة اقرأْ، من غير أن يفتح مصحفاً، أو يقرأ آيات من كتاب الله، سوى التّلاوة أثناء الصّلاة، على الرّغم من حرصهم الشّديد على قراءة الصُّحف والمجلّات، ومتابعة الفضائيّات بلهف وشوق، والتي تعرض أخبار أهل اللّهو والفساد. وكم من بيوت خربة، وصدور جوفاء تعيش بيننا، ولا تدري عن هذا الخراب شيئاً.

وهذه المظاهر المتنوّعة لهجر تلاوة القرآن ـ التي تقدّم ذكرها ـ لها أسباب كثيرة ومتعدّدة تختلف من شخص لآخر، وسأبرز ـ في عجالة ـ أهمَّ الأسباب التي تؤدّي إلى هجر التّلاوة، من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

الانشغال بالدُّنيا

لقد انشغل الناس بالدُّنيا انشغالاً أدّى بهم إلى مواصلة اللّيل بالنّهار؛ لسدّ حاجاتهم الكماليّة فضلاً عن الضّروريّة، وقلّما يجد أحدُهم وقتاً يقرأ فيه القرآن أو يستمعه، فما أن يعود إلى بيته فيجد نفسه منهكاً متعباً يتمنّى رؤية الفراش، جرّاء لهاثه وراء المصالح الدُّنيوية.

ولا أجد لهذا الصّنف من النّاس مثلاً إلّا ما قاله رسول الله ﷺ: «**فَوَاللهِ ما الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كما بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوها كما تَنَافَسُوها، وَتُلْهِيَكُمْ كما أَلْهَتْهُمْ**»[1].

(١) رواه البخاري واللفظ له، كتاب الرّقاق، باب: ما يُحذَرُ منْ زهرة الدُّنيا والتّنافس فيها

ولو يعلم هؤلاء الغاية التي خُلقوا من أجلها؛ لتغيّر حالهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

فهذا تصريح بأنّ الله تعالى خَلَقهم لعبادته، فحُقّ عليهم أن يعتنوا بما خُلقوا من أجله، وأن يُعرضوا عن حظوظ الدُّنيا بالزُّهد فيها، فإنّها دار نفاد لا محلّ إخلاد، ومركب عبور لا منزل حبور، فمُلْكها يفنى، وجديدها يبلى، وكثيرها يقلّ، وعزيزها يذلّ، وحيُّها يموت، وخيرها يفوت، ولهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العبّاد، وأعقل النّاس فيها هم الزُّهّاد، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

فينبغي للعاقل أن يعمل للآخرة، ويسعى لها، وأن يأخذ من الدُّنيا بقدر ما يوصله إلى الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

ولقد أحسن القائل:

إنّ لله عباداً فُطَنا ... طلّقوا الدُّنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلمّا علموا ... أنّها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لجّةً واتّخذوا ... صالحَ الأعمال فيها سُفُنا[1]

المطلب الثاني

ضعف الهمّة

ضعف الهمّة من الأمراض التي تكاد تعصف بالكثير من المسلمين، فلا تكاد تجد مَنْ يحافظ على شيء، أو يهتمُّ به؛ لضعف الهمّة، فما أن يمسك المرء المصحف يوماً حتّى يتركه أياماً.

= (٢٠١٩/٤) (ح٦٤٢٥)، ومسلم، كتاب الزُّهد والرّقاق (٤/ ٢٢٧٣) (ح٢٩٦١).

(١) انظر: رياض الصالحين للنووي (ص٣)؛ فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص٢٢ ـ ٢٤).

وقد تَضْعُف الهمّة عن مطلبٍ من مطالب الدُّنيا، أمّا عن مطلبٍ من مطالب الآخرة فلا، وهذا ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يتحدَّث عن ضعيف الهمّة بقوله: «لا شيء أقبح بالإنسان أن يكون غافلاً عن الفضائل الدِّينيَّة، والعلوم النَّافعة، والأعمال الصالحة، فمَنْ كان كذلك فهو من الهَمَج الرَّعاع، الذين يُكدِّرون الماء، ويغلون الأسعار، إن عاش عاش غير حميد، وإن مات مات غير فقيد، فَقْدهم راحة للبلاد والعباد، ولا تبكي عليهم السَّماء، ولا تستوحش لهم الغبراء...

وهذا الصِّنف شرُّ البريَّة، يُضيِّقون الدِّيار، ويغلون الأسعار، وعند أنفسهم أنَّهم يعلمون، ولكن ظاهراً من الحياة الدُّنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، ويعلمون ولكن ما يضرُّهم ولا ينفعهم، وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون، ويتكلَّمون ولكن بالجهل يتكلَّمون...»(١).

ومن الأدوية النَّبويَّة لعلاج ضعف الهمَّة: المداومة على الأعمال الصَّالحة والاستمرار عليها، وإن قَلَّتْ.

فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟». قَالتْ: فُلانَةُ ـ تَذْكُرُ منْ صلاتِها ـ قَالَ: «مَهْ، عَلَيْكُم بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا». وَكَانَ أَحبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ(٢).

قال ابن الجوزيّ رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّما أحبَّ الدَّائمَ لمعنيين: أحدهما: أنَّ المُقبِلَ على الله عَزَّ وَجَلَّ بالعمل، إذا تركه من غير عذر، كان كالمُعْرِض بعد الوصل، فهو مُعرَّضٌ للذَّمِّ، ولهذا ورد الوعيد في حقِّ مَنْ حفظ آيةً ثمَّ نسيها(٣)، وإنْ كان قبل

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١١٠، ١١٤).
(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: أَحَبُّ الدِّين إلى الله أَدْوَمُه (١/ ٣٨) (ح٤٣).
(٣) الحديث الوارد في ذلك ضعيف، ولفظه: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيّ أُجُورُ أُمَّتِي، حَتَّى القَذَاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ المَسْجِدِ، وعُرِضَتْ عَلَيّ ذُنُوبُ أُمَّتِي، فَلَمْ أَرَ ذَنْباً أَعْظَمَ مِنْ سُورَةٍ مِنَ القُرْآنِ، أَوْ آيَةٍ أُوتِيَهَا رَجُلٌ ثمَّ نَسِيَهَا». رواه الترمذي (٥/ ١٧٨) (ح٢٩١٦) وقال: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه. وذاكرتُ به محمد بن إسماعيل (أي: البخاري) فلم يعرفه واستغربه». وفي الحديث المُطَّلب (الرّاوي عن أنس) لم يُعرف له سماعاً من الصَّحابة، كما صرّح بذلك البخاري وابن المديني رحمهما الله.

حفظها لا يتعيّن عليه الحفظ، ولكنّه أعرض بعد المواصلة، فلاق به الوعيد، وكذلك يُكره أن يؤثر الإنسانُ بمكانه من الصّفّ الأوّل؛ لأنّه كالرّاغب عن القُرْب إلى الله ﷻ، ولهذا قال عليه الصّلاة والسّلام ـ لعبد الله بن عمْرٍو: «لا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»[(١)].

والثّاني: أنّ مُداوم الخير ملازم للخدمة، فكأنّه يتردّد إلى باب الطّاعة كلّ وقت، فلا يُنْسى من البرّ لتردُّده، وليس كمنْ لازم الباب يوماً دائماً ثمّ انقطع شهراً كاملاً»[(٢)].

وفي الحديث عدّة فوائد ذكرها النّووي ﷺ بقوله: «وفي هذا الحديث كمال شفقته ﷺ ورأفته بأمّته؛ لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم، وهو ما يمكنهم الدّوام عليه بلا مشقّة ولا ضرر، فتكون النّفس أنشط والقلب منشرحاً فتتمُّ العبادة، بخلاف منْ تعاطى من الأعمال ما يشقُّ، فإنّه بصدد أن يتركه، أو بعضه، أو يفعله بكلفة، وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم...

وفيه الحثُّ على المداومة على العمل، وأنّ قليله الدائم خير من كثير ينقطع. وإنّما كان القليل الدّائم خيراً من الكثير المنقطع؛ لأنّ بدوام القليل تدوم الطّاعة، والذّكر، والمراقبة، والنّيّة، والإخلاص، والإقبال على الخالق ﷻ، ويُثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة»[(٣)].

وهكذا كان علماؤنا ـ رحمهم الله ـ أعرف بدقائق النّفس الإنسانيّة من علماء النّفس اليوم.

= وضعّفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (ص٣٥١) (ح٥٥٨)؛ و«ضعيف الجامع الصغير» (٤/ ٩) (ح٣٧٠٢).

(١) رواه البخاري، كتاب التّهجُّد، باب: ما يُكْرَهُ منْ ترْك قيام اللّيل لمَنْ كان يقومه (١/ ٣٤٣) (ح١١٥٢)؛ ومسلم، كتاب الصّيام، باب: النّهي عن صوم الدّهر... (٢/ ٨١٤) (ح١١٥٩).

(٢) كشف المُشْكل من حديث الصّحيحين (٤/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٧١).

المطلب الثالث

الجهل بثمرات قراءة القرآن

إنَّ جَهْل الكثير من أبناء المسلمين بثمرات تلاوة القرآن، وفضائلها من الثّواب المترتِّب على ذلك، والمصالح الدُّنيويَّة والأخرويَّة، لمن أكبر الدَّواعي لهجر التّلاوة، وعدم الاعتناء بها والحرص عليها.

ولو يعلم المسلم ما في تلاوة القرآن العظيم من الفضل العظيم، والثّواب الجزيل، ومنزلة قارئه في الدُّنيا والآخرة؛ لجعله أنيسه آناء اللّيل وأطراف النّهار، وما غفل عنه طرفة عين.

ومن ثمرات التّلاوة التي جاءت بها الأحاديث الصّحيحة، والآثار الواردة عن الصّحابة والتّابعين ﷺ ما يلي:

١ ـ أن قارئ القرآن في مصافّ العظماء، ومن أفضل النّاس، وأعلاهم درجة.

٢ ـ يُكتب للقارئ عن كلِّ حرفٍ حسنةً، والحسنةُ بعشر أمثالها.

٣ ـ تشمل القارئ ظُلَّةُ الرَّحمة، ويُحاط بالملائكة، وتتنزَّل عليه السكينة.

٤ ـ يُضِيءُ اللهُ قلبَ القارئ، ويَقِيه ظلماتِ يوم القيامة، ويُبعد عنه الشّدائد.

٥ ـ القارئ رائحته زكيَّة، ومذاقُه حُلْوٌ كالأترجّة، ومن هنا فهو جليسٌ صالح يقترب إليه الصّالحون العاملون؛ لِيَشُمُّوا من عطره، وينفحوا من شَذَاه.

٦ ـ قارئ القرآن لا يحزنه الفزع الأكبر؛ لأنه في حماية الله، ولأنَّ القرآن يشفع له.

٧ ـ قارئ القرآن سبب في رحمة والديه، وإغداقهما بالنّعيم، جَزَاءَ قراءة ابنهما.

٨ ـ قارئ القرآن يرقى إلى قمّة المعالي في الجنّة، ويصعد إلى ذِرْوَةِ النّعيم.

٩ ـ يغبط الصّالحون قارئ القرآن ويتمنَّون أنْ يكونوا في درجته السّامية عند الله تعالى، ويَوَدُّون أن يعملوا مِثْلَه.

١٠ ـ قارئ القرآن تدعو له الملائكة الكرام بالرّحمة والمغفرة.

١١ ـ قارئ القرآن مُستمسك بالعروة الوثقى، ويتمتّع بالشّفاء النّاجع، ويُعصم من الزَّيغ، وينجو من الشّدائد.

١٢ ـ قارئ القرآن من أهل الله وخاصّته المتقرِّبين إليه، ومن العاملين الشّغُوفين بطاعة الله والقانتين له[١].

١٣ ـ قارئ القرآن يرتفع به درجاتٍ في الدُّنيا أيضاً، إذْ يرفع الله به أقواماً، ويخفض آخرين، ممَّن أعرضوا عنه أو هجروه.

١٤ ـ قارئ القرآن يُكتب عند الله من الذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات، والقانتين والقانتات.

١٥ ـ الماهر بالقرآن يُبعث يوم القيامة مع السَّفرة الكرام البررة.

١٦ ـ قارئ القرآن تبتعد عنه الشياطين، وتخرج من بيته.

١٧ ـ قارئ القرآن يستنير عقلُه، ويمتلئ قلبُه بالحكمة، وتتفجّر منه ينابيعُ العلم.

١٨ ـ قارئ القرآن فيه قبسٌ من النُّبوّة، غيرَ أنّه لا يُوحى إليه.

١٩ ـ حامل القرآن لا يجهل مع مَنْ يجهل؛ لأنَّ القرآن في جوفه، يحميه من الحِدَّة والغضب.

٢٠ ـ بتلاوة القرآن الكريم تعمر القلوب والبيوت، ويعُمُّها الخير والبركة.

٢١ ـ تلاوة القرآن تُورث القلب خشوعاً، والنّفس صَفاءً.

٢٢ ـ قارئ القرآن يسأل الله تعالى به فيجيبه، ولا سيَّما عند دعاء الخَتْم، فضلاً من الله تعالى وكرماً.

٢٣ ـ أهل القرآن يذكرهم الله ﷻ فيمَنْ عنده، وكفى بذلك فَضْلاً وشرفاً.

٢٤ ـ في تلاوة القرآن غِنًى لأهله، تَسْعَدُ به قلوبهم كما يَسْعَد صاحب الأموال بماله، وهو غِنًى لا دَخَل فيه[٢][٣].

---

(١) انظر: تعليق مصطفى محمد عَمَارة على «الترغيب والترهيب»، للمنذري (٢/ ٣٥٨).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (٤/ ١١٨٣).

(٣) انظر: المبحث الرابع «فضائل تلاوة القرآن» من هذا الفصل.

المطلب الرابع

تقديم العلوم الأخرى على القرآن

من تلبيس إبليس على بعض النّاس أن يشغله بطلب شتَّى العلوم سوى علم الكتاب والسُّنّة، ويوهمه أنّه على سبيل نجاة ما دام يطلب العلم، فأيُّ علم حصَّل مَنْ فاته علم الكتاب والسُّنّة؟ وأيُّ خير فاته؟ بل القرآن العظيم مُقدّم في الطلّب حتى على تعلُّم السُّنّة.

قال حذيفة رضي الله عنه: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حدِيثَيْن، رَأَيْتُ أحدَهُمَا وأنَا أنْتظِرُ الآخَرَ: حَدَّثَنا: «أنَّ الأَمَانَة نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجال، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ القُرآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ»[1].

قال ابن حجر رحمه الله: «قوله: (ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ القرآن، ثُمَّ عَلِمُوا من السُّنَّة) كذا في هذه الرّواية بإعادة (ثُمّ)، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم كانوا يتعلّمون القرآن قبل أن يتعلّموا السُّنن، والمراد بالسُّنن: ما يتلقّونه عن النبيّ ﷺ واجباً كان أو مندوباً»[2].

فعدم المنهجيّة لدى كثير من طلّاب العلم، وعدم التّلقّي عن العلماء يجعلهم يتخبّطون في الطّلب حتّى يقدّموا كلام البشر على كلام ربّ البشر، ويُقبِلوا على حفظ المتون في شتّى الفنون، وما حفظوا كلام الله الذي هو أساس العلوم وأمُّها وأهمُّها، وما هكذا فعل السّلف الصّالح، ولا هذه طريقتهم في طلب العلم، ولم يكن هذا هديهم المبارك[3].

قال شعبة بن الحجّاج[4] رحمه الله ـ لأصحابه: «يا قوم إنّكم كلّما تقدّمتم في

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب: إذا بقِيَ في حُثَالَةٍ مِنَ النّاس (٤/٢٢١٧) (ح٧٠٨٦).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٥٠).

(٣) انظر: الكلمات الحسان (ص٥).

(٤) هو شعبة بن الحجّاج بن الوَرْد العتكي، مولاهم، الواسطي، ثمّ البصري، أبو بسطام، من الثّقات الأئمة الحفّاظ المتقنين، قال ابن حجر رحمه الله: «كان الثّوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث، وهو أوّل مَنْ فتّش بالعراق عن الرّجال، وذبّ عن السُّنّة، وكان عابداً، من السّابعة». توفّي سنة (١٦٠هـ). انظر: تقريب التّهذيب (١/ ٣٥١).

الحديث تأخرتم في القرآن»[١].

ودخل بعض فقهاء مصر على الإمام الشافعي رحمه الله المسجد، وبين يديه المصحف، فقال لهم: «شغلكم الفقه عن القرآن، إنّي لأصلّي العتمة وأضع المصحف في يدي، فما أطبقه حتّى الصُّبح»[٢].

فما الذي شَغَلَنا ـ في هذا الزّمان ـ عن القرآن؟ فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، نتوب إلى الله من ضياع الأوقات والأعمار.

وسئل ابن تيميَّة رحمه الله عن الذي يُقدَّم في الطَّلب: حفظ القرآن أو العلم؟ فأجاب قائلاً: «أمّا العلم الذي يجب على الإنسان عَيْناً كعلم ما أمر الله، وما نهى الله عنه، فهو مُقدَّم على حفظ ما لا يجب من القرآن، فإنَّ طَلَب العلم الأوّل واجب، وطلب الثّاني مُستحب، والواجب مُقدّم على المستحب.

وأما طلب حِفظ القرآن: فهو مُقدّم على كثير ممّا تُسمّيه النّاس علماً: وهو إمّا باطل، أو قليل النّفع. وهو أيضاً مُقدّم في التّعلُّم في حقّ مَنْ يريد أن يتعلَّم علم الدّين من الأصول والفروع، فإنَّ المشروع في حقّ مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن، فإنّه أصل علوم الدّين، بخلاف ما يفعله كثير من أهل البدع من الأعاجم وغيرهم، حيث يشتغل أحدُهم بشيء من فضول العلم من الكلام، أو الجدال، والخلاف، أو الفروع النّادرة، أو التّقليد الذي لا يحتاج إليه، أو غرائب الحديث التي لا تثبت ولا ينتفع بها، وكثير من الرّياضيات التي لا تقوم عليها حُجّة، ويترك حِفْظَ القرآن الذي هو أهمُّ من ذلك كلّه»[٣].

وليس في هذا دعوة إلى التّكاسل أو التّباطؤ عن تحصيل العلم النّافع، ونخصُّ العلم المدني الذي يعمل على تقدُّم الأمّة ورقيّها، فنحن مع الدّاعين إلى الأخذ بأسباب الحياة والرُّقيّ بالأمة، ولكنّنا نعتب على مَنْ يُحاولون إيهامنا ـ ظلماً وبهتاناً ـ أنَّ هذه العلوم تكفي، محاولين تصنيف العلم إلى شرعي، وغير شرعي، وأنَّ لكلِّ طلّابه ودارسيه، بل إنّنا نرى أنَّ دراسة هذه العلوم ضرورة شرعيَّة تأثم

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٣)؛ تذكرة الحفاظ (١/ ١٩٦)؛ حلية الأولياء. (٧/ ١٤٥).
(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٦٢). وانظر: إحياء علوم الدّين (١/ ٢٧٩).
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٣/ ٥٤ ـ ٥٥).

الأمّة إذا لم يكن فيها منْ يعلم هذه العلوم، ولكن على طلّاب هذا العلم أن يتزوّدوا من القرآن وينهلوا من معينه الذي لا ينضب.

المطلب الخامس

الحرب المعلنة على القرآن واللُّغة

لمّا عَجَزَ أعداء الله عن السيطرة على بلاد المسلمين عن طريق الغزو العسكري، إذا بهم يلجأون إلى حيل ماكرة، وطرق ملتوية؛ للقضاء على الإسلام والمسلمين عن طريق الغزو الفكري، وعملوا على إبعاد المسلمين عن كتابهم ـ القرآن الكريم ـ الذي منه يستمدُّون منهجم وأسلوب حياتهم، ويتَّضح ذلك من خلال تصريحاتهم المعلنة.

تصريحات الأعداء ضدَّ القرآن ولغته:

* ما قاله جلادستون ـ رئيس وزراء إنجلترا ـ وقد وقف في أواخر القرن الماضي في مجلس العموم البريطاني، وقد أمسك بيده القرآن المجيد، وصاح في أعضاء البرلمان، قائلاً: «إنَّ العقبة الكئود أمام استقرارنا بمستعمراتنا في بلاد المسلمين هي شيئان، ولا بدّ من القضاء عليهما مهما كلّفنا الأمر: أوّلهما: هذا الكتاب، وسكت قليلاً، بينما أشار بيده الأخرى نحو الشّرق، وقال: هذه الكعبة»[1].

* وقال أيضاً: «ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السَّيطرة على الشَّرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»[2].

* وقال أيضاً: «لن تستقيم حالة الشّرق ما لم يُرفع الحجاب عن وجه المرأة، ويُغطّى به القرآن»[3].

ولقد لفتت العلاقةُ المتينة والرابطة القوية بين اللُّغة العربية وعلوم الإسلام المختلفة أنظار أعداء الإسلام، فقاموا بالتخطيط والتدبير للهجوم على لغة القرآن بكلِّ ما أُوتوا من قوّة، مستخدمين كل الوسائل الممكنة من أجل القضاء على هذه

---

(١) الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار والصهيونية العالمية، لمحمد فهمي عبد الوهاب (ص٧).

(٢) الإسلام على مفترق الطرق، لمحمد أسد (ص٣٩).

(٣) المرأة ومكانتها في الإسلام، لأحمد عبد العزيز الحصين (ص١٢).

اللُّغة العظيمة ـ لغةِ القرآن ـ والنَّيل منها، لا لكونها لغةً من اللُّغات الحيّة التي يتكلَّم بها قوم أو جنس معيَّن، بل لكونها لغة القرآن الكريم، ولغة المسلمين التي يتوقَّف عليها فَهْم الدِّين، واستيعاب أحكامه وتعاليمه.

وكان هاجس الوحدة بين المسلمين ممَّا يقلق أعداء الإسلام، وبما أنَّ هذه اللُّغة من العوامل الرئيسة في توحيد الأمَّة الإسلاميَّة، رأى أعداؤها أنَّ تحطيم هذه اللُّغة سيساعد بلا شك في تفتيت الوحدة الكبرى المأمولة بين الشُّعوب الإسلاميَّة، وسيُضعف الأمل في تحقيقها في العصر الحاضر[١].

* وها هو أحد الغربيِّين يقول: «متى توارى القرآنُ ومدينةُ مكَّة من بلاد العرب، يمكننا حينئذٍ أن نرى العربيَّ يتدرَّج في سبيل الحضارة، التي لم يُبعده عنها إلَّا محمدٌ [ﷺ] وكتابُه، ولا يمكن أن يتوارى القرآن حتَّى تتوارى لغتُه»[٢].

إذن هدف هؤلاء الأعداء هو إقصاء القرآن عن التَّأثير في حياة الأمَّة، لا ليتدرَّجوا في سبيل الحضارة كما يزعمون، ولكن ليسهل عليهم إذلال هذه الأمَّة، وضمان تبعيَّتها للغرب.

* وهذا الحاكم الفرنسي في الجزائر: يقول ـ في ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر: «إنَّنا لن ننتصر على الجزائريِّين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلَّمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربيَّ من وجودهم، ونقتلع اللِّسان العربيَّ من ألسنتهم»[٣].

* وهذا اللُّورد كرومر يقول: «جئت لأمحو ثلاثاً: القرآن، والكعبة، والأزهر»[٤].

* وكان الجنديُّ الإيطالي: يرتدي لباس الحرب قادماً لاحتلال بلاد الإسلام، وهو يُنشِدُ[٥] بأعلى صوته: «يا أُمَّاه! أتمّي صلاتك... ولا تبكي...

---

(١) انظر: لغة القرآن: مكانتها والأخطار التي تهددها، د. إبراهيم أبو عباة.

(٢) الفصحى لغة القرآن، لأنور الجندي (ص١٦٦)؛ أباطيل وأسمار، لمحمود شاكر (ص١٥٨).

(٣) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدو أهله، لجلال العالم (ص٣١).

(٤) الخنجر المسموم الذي طُعن به المسلمون، لأنور الجندي (ص٢٩).

(٥) هذه الأنشودة المشهورة تُسَمَّى: (أغنية الفاشيست) كانت جيوش الطَّليان الجرّارة ترنّم بها

بل اضحكي وتأمَّلي... ألا تعلمين أنَّ إيطاليا تدعوني... وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً... لأبذل دمي في سبيل سحق الأمّة الملعونة... ولأحارب الدِّيانة الإسلاميَّة... سأقاتل بكلِّ قوَّتي لمحو القرآن...»[1].

أساليب الأعداء في محاربة القرآن ولغته:

اتَّخذوا في ذلك أساليب شتَّى، منها:

١ ـ الازدراء بحَفَظة القرآن الكريم، والعلماء، والدُّعاة، وتصويرهم بصور قبيحة حتَّى يُحال بينهم وبين مجتمعاتهم.

٢ ـ السُّخرية من اللُّغة العربية ـ لغةِ القرآن الكريم ـ، ومهاجمتها من حينٍ لآخر، والدَّعوة إلى العاميَّة، وإحياء اللَّهَجات المحليَّة، ورفع شأن اللُّغات الأخرى؛ ممَّا أدَّى إلى إهمال تدريس اللُّغة العربية في المراحل التَّعليميَّة المختلفة، حتَّى نشأ جيل من أبناء المسلمين يجهل القراءة في المصحف، ولا يكاد يقرأ سطراً صحيحاً، على الرَّغم من حصوله على أعلى الشَّهادات، وإتقانه العديدَ من اللُّغات الأخرى، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

٣ ـ إغراق المجتمعات المسلمة بالحشد الهائل من الصُّحف والمجلَّات، التي تُبعد عن الله، وتُقرِّب من الشَّيطان، وتنشر الفاحشة والرَّذيلة، وأصدقُ وصفٍ لها أنَّها: حمَّالة للكذب، قتَّالة للوقت.

٤ ـ تدمير عقيدة المسلمين وأخلاقهم وذلك من خلال البثِّ المباشر، والقنوات الفضائيَّة التي تُعرَض على شاشات التِّلفاز[2].

وقد كان لهذه الأساليب الماكرة أثر كبير في انشغال المسلمين عن كتاب ربِّهم بمتابعتهم لهذه القنوات الفضائيَّة، وتلك الصُّحف والمجلَّات؛ فهجروا تلاوته، فَضْلاً عن هَجْر أحكامِه، وآدابه، والعمل بما فيه.

= برقَّة وبصوت واحد، وهي تسير مدججة بالسِّلاح في طرقات طرابلس.
انظر: عودة الحجاب، لمحمد بن أحمد المقدم (ص٩٣).

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين (٢/١٥٧).
وانظر: القومية والغزو الفكري (ص٢٠٨).

(٢) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص٢٩).

المبحث الثالث

آداب وأحكام تلاوة القرآن

آداب وأحكام تلاوة القرآن

تمهيد:

من حقّ كتاب الله علينا أن نُداوم على تلاوته، ونُكثر من قراءته، ذلك أنّ القلوب يغشاها الرَّيْنُ بمباشرة المعاصي والآثام، فيذهب بصفائها كما يغشى الصَّدأ وَجْهَ المِرآة والسَّيف، وقراءة القرآن تُزيل هذا الغطاء وتُعيد القلب المؤمن إلى حالة الإيمان والنَّقاء، وتُجدِّد فيه محبَّة العمل الصَّالح والرَّغبة في اكتسابه.

وما تقرَّب المتقرِّبون إلى ربِّهم الكريم بأفضل من تلاوة كتابه المجيد، والوقوف عند معانيه وحدوده؛ فحريٌّ بنا أن نَضْرِبَ بسهم وافر من ذلك، ومن رحمة الله بعباده وفضله عليهم: أنْ شَرَعَ لهم ما يتعبَّدون به إليه سبحانه.

ولقد جاء الإسلام بآداب عامَّة شملت جوانب الحياة، فبعدما رسخت العقيدة الصَّحيحة في قلوب النَّاس ناداهم القرآن العظيم وندبهم الرَّسول الأمين ﷺ إلى هذه الآداب العالية.

ومن تلك الآداب: آداب الاستئذان، والسَّلام، والمجالس، والكلام، والنَّوم، والأكل والشُّرب، والجوار، والعطاس والتَّثاؤب، وعشرة النِّساء، وغير ذلك في كلِّ ميادين الحياة الدُّنيا، وهناك آداب الشَّعائر الإسلاميَّة، كآداب الصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحجّ، وغيرها من العبادات.

ومن هنا: كان من باب أولى أن تكون للقرآن آدابه، فهو أحقُّ بالأدب وأجدر أن يَتأدَّب معه النَّاس؛ لأنَّه كلام الله تعالى، والقارئ يتلو كلامَ ربِّ العالمين، فكان من الأليق أن يكون المسلم في حالة المناجاة لربِّه في أحسن هيئة وأكمل صورة، ولا يكون ذلك إلَّا بسلوكه هذا المسلك.

وقد أولى سلفنا الصَّالح هذا الأمر عنايةً بالغة، معتمدين في ذلك على نصوص الوحيين: الكتابِ والسُّنَّة، وما أدَّاه إليه اجتهادهم وحرصهم على تعظيم

القرآن وإجلاله، فالتزموا آداباً في التّعامل معه، وسلكوا طُرقاً شتّى تدلّ على احترامه وتوقيره عندهم، يَدْعون غيرهم إلى ذلك إذْ أنّهم القدوة والأسوة، ويحذّرون من كلّ قولٍ أو تصرُّفٍ فيه تنقُّصه، أو الإخلال بمنزلته، بل يُنكرون على مَنْ يُخِلُّ بآدابه، وبما يجب تجاهه، أو يتهاون في ذلك، وهذا الاحترام والإجلال موصولٌ لحملته وأهلِه المعتنين به، فهم أهل الله وخاصّته.

ولكي تكون التّلاوة نافعةً تُعطي ثمارها من التّدبُّر والتّأثُّر والاستقامة، وتؤدّى كما كان يؤدّيها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﵃، فلا بدَّ من ملاحظة آدابها وأحكامها، والالتزام بذلك قُبيل التّلاوة وأثناءها[1]، وهي على النّحو الآتي.

١ ـ إخلاص النّيّة لله تعالى:

ينبغي أن يكون قارئ القرآن الكريم مُخلصاً في نيّته، متجرّداً من كلّ غرض دنيوي، يبتغي الأجر والثّواب من المولى تبارك وتعالى، وأن يحذر الرّياءَ والإعجاب بالنّفس؛ لأنّ التّلاوة أحدُ أفعال المكلّف التي يُشترط لصحّتها وقبولها عند الله تعالى النّيّة الخالصة لوجهه الكريم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

قال النّووي ﵀ في سياق كلامه عن آداب قارئ القرآن: «وينبغي ألّا يقصدَ به توصُّلاً إلى غرض من أغراض الدّنيا من مال، أو رياسة، أو وجاهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عند الناس، أو صرف وجوه النّاس إليه، أو نحو ذلك»[2].

---

(١) من أشهر الذين تحدّثوا عن آداب تلاوة القرآن الكريم: أبو بكر الآجرّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص٧٣ ـ ٨٣)؛ وأبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدّين» (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨٨)؛ والقرطبي في «التّذكار في أفضل الأذكار» (ص١٧١ ـ ١٨٩)؛ والنّووي في «التّبيان في آداب حملة القرآن» (٩٥ ـ ١٩٥)؛ و«الأذكار» (ص١٥٣ ـ ١٦٦)؛ وابن مُفلح في «الآداب الشّرعية» (٢/ ٣٠١ ـ ٣١٢)؛ وابن قدامة المقدسي في «مختصر منهاج القاصدين» (ص٥٤ ـ ٥٧)؛ والسّيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (ص٢٥٦ ـ ٢٨١).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٨ ـ ١٩).

٢ ـ العمل بالقرآن:

وذلك بتحليل حلاله، وتحريم حرامه، والوقوف عند نهيه، والامتثال بأمره، والعمل بمحكمه، والإيمان بمتشابهه، وإقامة حدوده وحروفه.

ولقد ورد نهي شديد، ووعيد أكيد، فيمَنْ آتاه اللهُ القرآنَ ثمَّ لم يعمل به، فقد جاء من حديث سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ ﷺ في رُؤْيَا النبيّ ﷺ الطَّويلة: «... قَالَا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ، أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هذَا، حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ...».

(ثُمَّ بيَّنَ له ذلك ﷺ)

«... وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ...» الحديث(١).

٣ ـ إجلال القرآن وتعظيمه:

يجدر بقارئ القرآن الكريم أن يراعيَ أثناء تلاوته لكتاب الله تعالى ما يتناسب وعظمة القرآن وجلاله فيستشعر أنَّه يُناجي الله تبارك وتعالى، وأنَّ الله يُناجيه، ويجتنب كلَّ ما من شأنه أن يُخِلَّ بأدب المناجاة كالضَّحك، والحديث، والعبث باليد، والنَّظر إلى ما يُلهي، أو لا يجوز النَّظر إليه، ونحو ذلك(٢).

٤ ـ تلاوة القرآن على طهارة:

يُستحب للقارئ أن يقرأ القرآن وهو على وضوء وطهارة، وهذا أيضاً من إجلال القرآن الكريم:

* عن أبي الجُهَيْمِ ﷺ قال: «أَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَحْوِ بِئْرِ جَمَلٍ، فَلَقِيَهُ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين (١/٤١١) (ح١٣٨٦).
(٢) انظر: المصدر السابق (ص١٢٠).

وَرَجُلٌ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى الجِدَارِ، فَمَسَحَ بِوَجْهِهِ وَيَدَيْهِ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»(١).

فإذا كان هذا في مُجرّد ردِّ السلام؛ فلأن يكون في تلاوة كتاب الله تعالى ـ التي هي أعظم الذِّكر ـ من باب أولى(٢).

* وعن المُهَاجِرِ بنِ قُنْفُذٍ: أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وهو يَبُولُ، فَسَلَّمَ عليه، فلم يَرُدَّ عليه حتى توضأ، ثُمَّ اعْتَذَرَ إليه، فقال:

«إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَذْكُرَ اللهَ ﷻ إِلَّا عَلَى طُهْرٍ»، أو قال: «عَلَى طَهَارَةٍ»(٣).

قال النّووي رحمه الله: «فإنْ قرأ مُحدِثاً جاز ذلك بإجماع المسلمين، والأحاديث فيه كثيرة معروفة. قال إمام الحرمين: ولا يقال ارتكب مكروهاً، بل هو تارك للأفضل»(٤).

٥ ـ اختيار الوقت المناسب:

تلاوة القرآن العظيم جائزة في كلِّ الأوقات، ولا تُكره في شيء منها بسبب ذلك الوقت نفسه، وهناك أوقات لها أولوية يتجلّى الله تعالى فيها على عباده، وتتنزل فيها فيوضات رحمته، وأفضلها ما كان في الصَّلاة، ثمَّ ما كان في الثُّلث الأخير من اللَّيل وقت السحر، ثمَّ قراءة اللَّيل، ثمَّ قراءة الفجر، ثمَّ قراءة الصُّبح، ثم باقي أوقات النَّهار(٥).

وتزداد المثوبة مع ازدياد المشقَّة في قراءة القرآن والاستعداد لها، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]. ومع وجود أولويَّة

---

(١) رواه البخاري، كتاب التيمُّم، باب: التيمُّم في الحَضَر، إذا لم يجد الماء وخاف فَوْتَ الصَّلاة (١/ ١٢٦) (ح٣٣٧).

(٢) انظر: الكلمات الحسان (ص٢٠٢).

(٣) رواه أبو داود (١/ ٥) (ح١٧)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٦) (ح١٣).

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٩٧).

(٥) انظر: المصدر نفسه (ص١٨٩)؛ المجموع (٢/ ١٩١)؛ الأذكار (ص١٥٦)؛ الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٩٢).

لبعض الأوقات في قراءة القرآن، فإنَّ المسلم مدعوٌ إلى قراءة القرآن في أيِّ وقت يتسنَّى له ذلك. سواء كان في عمله، أو بيته، أو سفره، أو حضره، أو وقت راحته.

ومع كثرة مشاغل الحياة الدُّنيا وضغوطها في العصر الحاضر، يجْدُرُ بالمسلمين أن ينتهزوا كلَّ فرصة لهذه العبادة الجليلة، وقد تيسَّر ذلك ما لم يتيسَّر من قَبْلُ قراءةً واستماعاً، بما قدَّمه العلم من مصاحف بأحجام متنوّعة، أو أجزاءٍ متفرّقة من القرآن، أو تسجيلاتٍ مسموعة أو مرئيَّة(١).

٦ ـ اختيار المكان المناسب:

يُستحب أن تكون التّلاوة في مكان نظيف مُختار، ولهذا استحبَّ جماعة من أهل العلم أن تكون قراءة القرآن في المسجد؛ لكونه جامعاً للنَّظافة وشرف البقعة(٢)، وحبَّذا لو خَصَّص المسلم ركناً في بيته يفرّغه من الموانع والشَّواغل والتَّشويش، ويُبعد عنه الضَّجيج والصِّياح والكلام الدُّنيوي ولعب الأطفال وعبثهم(٣).

وقد ذكر القرطبيُّ رحمه الله من آداب تلاوة القرآن: «ألّا يُقرأ في الأسواق، ولا في مواطن اللّغط واللّغو، ومجمع السُّفهاء، ألا ترى أنَّ الله تعالى ذَكَرَ عباد الرَّحمن وأثنى عليهم بأنهم: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. هذا المرور بنفسه، فكيف إذا مَرَّ بالقرآن الكريم تلاوةً بين ظهراني أهل اللّغو ومجمع السُّفهاء؟»(٤).

وأمَّا التّلاوة في الطَّريق، وعلى الراحلة، ونحو ذلك، فالصحيح أنّها جائزة، غير مكروهة إذا لم ينشغل القارئ عن قراءته.

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَهُوَ

---

(١) انظر: كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها (ص٣٩).
(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٠٠).
(٣) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص٥١).
(٤) التذكار في أفضل الأذكار (ص١٨٤ ـ ١٨٥).

يَقْرَأُ عَلَى رَاحِلَتِهِ سُورَةَ الفَتْحِ»[1].

وهي سُنَّةٌ لا بد من إحيائها في ركوبنا لمختلف وسائل التَّنقُّل المريحة في هذا الزَّمان خصوصاً أنَّ بعض رحلات التَّنقُّل البريَّة، أو الجوية، أو البحرية تستغرق السَّاعات الطِّوال وَرُبَّما الأيام المتابعة.

فإنِ انشغل عنها كانت مكروهةً مخافةَ الخلْط، كما تُكره القراءةُ في الأماكن المستخبثة، مثل الحمّام وغيرها[2].

وعلى كلِّ حال: فينبغي أن يكون المكان خالياً من كلِّ ما يَشْغل البالَ، ويَحْصل من وجوده الوسواس والاشتغال، فإنَّ ذلك أقرب إلى حضور القلب، وأبعد عن الرِّياء والمباهاة، وأعون على تدبُّر ما يتلوه من الآيات، ولا ريب أنَّ هذه الحالة ممَّا يُخالفها[3].

٧ ـ حُسْنُ الجِلْسَة واستقبال القبلة:

لا بدَّ للقارئ من جِلسة مناسبة وهيئة صالحة تَظْهر فيها عبوديَّته لله، ويبرز فيها تذلُّله وخضوعه؛ ليكون ذلك أعونَ على الانتفاع بالتِّلاوة.

قال القرطبيُّ رحمه الله: «يُستحب أن يستوي له قاعداً إن كان في غير صلاة، ولا يكون متكئاً»[4].

أفضل اتِّجاه استقبال القبلة:

ويستحبُّ للقارئ أن يستقبل القبلة[5]؛ لأنَّ هذا أفضل اتِّجاه، والقبلة هي الجهة التي يتوجَّه إليها العابدون، والدَّاعون، والمتقرِّبون إليه تعالى، كيف وقد حثَّهم على ذلك بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

قال النَّووي رحمه الله: «وهذا هو الأكمل، ولو قرأ قائماً، أو مضطجعاً، أو في

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: القراءة على الدَّابَّة (٣/ ١٦٢١) (ح٥٠٣٤).
(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٠٢).
(٣) انظر: الكلمات الحسان (ص٢٠٣).
(٤) التِّذكار في أفضل الأذكار (ص١٧٢).
(٥) انظر: المصدر نفسه (ص١٧٣)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٠٢).

فراشه، أو غير ذلك من الأحوال جاز، وله أجر، ولكن دون الأوّل»[1].

وذلك لأنّ الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَّكِئُ في حِجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ، فَيَقْرَأُ القُرآنَ»[2].

وهذه من الأفعال التي كان يعملها رسولُ الله ﷺ أحياناً لبيان جوازها، ولكن يُؤخَذُ منها أنه ﷺ كان يقرأ القرآن في سائر أحواله.

وقد ثَبَتَ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إنّي لأَقْرَأُ حِزْبي[3] وأنا مُضْطَجِعَةٌ على سَرِيري»[4].

٨ ـ استحباب تنظيف الفَم بالسِّواك:

يُستحب للقارئ أن ينظِّف فاه بالسِّواك[5]؛ تأدُّباً مع كلام الله وإجلالاً له، وتطهيراً لفمه، وإرضاءً لربِّه، ولأنّ التّلاوة عبادة لسانيّة فتنظيف الفم وتطييبه عند ذلك أدب حسن.

عن عائشة رضي الله عنها، عن النّبيّ ﷺ قال: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»[6].

وكان النّبيُّ ﷺ يَتأدّب مع كلام ربّه تعالى، ويطيّب فاه بالسّواك في قيامه لصلاة اللّيل: عن حُذيفةَ رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، إذَا قَامَ مِنَ اللَّيلِ، يَشُوصُ فَاهُ بِالسِّوَاكِ»[7].

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٠٤).
(٢) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب: الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد (١/ ٢٤٦) (ح٣٠١).
(٣) هو مقدار معلوم من القرآن تُواظب عليه فتقرؤه يومياً.
(٤) رواه الفريابي في «فضائل القرآن»، (ص٢٣٠) (رقم ١٥٤)؛ وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١١٩) (رقم ١٩١، ١٩٢).
(٥) انظر: الأذكار (ص١٦٠)؛ التبيان (ص٩٥).
(٦) رواه النسائي (١/ ١٠) (ح٥)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٤) (ح٥)؛ و«الإرواء» (١/ ١٠٤) (ح٦٥)؛ و«صحيح الجامع» (١/ ٦٨٨) (ح٣٦٩٥).
(٧) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب: السواك (١/ ٩٨) (ح٢٤٥).

وَيُستأنس لذلك أيضاً بقولِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ: «إنَّ أَفْوَاهَكُمْ طُرُقٌ لِلْقُرآنِ، فَطَيِّبُوهَا بِالسِّوَاكِ»(١).

٩ ـ الاستعاذة عند افتتاح التِّلاوة:

يُسَنُّ للقارئ الاستعاذة قبل التِّلاوة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

فهذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيِّه ﷺ، إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرَّجيم، وهو أمر ندب وليس بواجب(٢). والاستعاذة ليست آيةً من القرآن بالإجماع.

والحكمة منها ظاهرة؛ وهي ألا يُلَبِّسَ الشَّيطان على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبُّر والتَّفكر(٣).

* وجاء عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قال: كان رَسُولُ اللهِ ﷺ، إذا قام مِنَ اللَّيلِ كَبَّر ثُمَّ يَقولُ:

«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ». ثُمَّ يَقُولُ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ثلاثاً. ثُمَّ يَقولُ: «اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً» ثَلاثاً، «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ(٤) وَنَفْخِهِ(٥) وَنَفْثِهِ(٦)»، ثُمَّ يَقْرَأُ(٧).

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ١٠٦) (ح٢٩١)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٥٣) (ح٢٣٦)؛ و«الصحيحة» (٣/ ٢١٤) (ح١٢١٣).

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٠٦)؛ التذكار في أفضل الأذكار (ص١٧٣)؛ الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٦٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٦٠٨).

(٤) (هَمزة): هَمَزَ الشَّيطانُ الإنسانَ هَمْزاً: هَمَسَ في قلبه وَسْواساً. وهَمَزَاتُ الشَّيطان: خَطَراتُه التي يُخطِرُها بقلب الإنسان.
انظر: لسان العرب (١٥/ ١٣٢)؛ مادة: (همز).

(٥) (نَفْخه): النَّفْخ: الكِبْر؛ لأنَّ المُتَكَبِّرَ يتعاظم ويجمع نَفْسَه ونَفَسَه، فيحتاج أن ينفخ. انظر: لسان العرب (١٤/٢٢٨)، مادة: (نفخ).

(٦) (نَفْثِهِ): النَّفْثُ: الشِّعْر. وسُمِّي النَّفْثُ شعراً؛ لأنَّه كالشيء يَنْفُثُه الإنسانُ من فيه، مِثل الرُّقية. انظر: لسان العرب (١٤/ ٢٢٣)، مادة: (نفث).

(٧) رواه أبو داود (١/ ٢٠٦) (ح٧٧٥)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»

الآية والحديث فيهما صيغتان للاستعاذة:

الأولى: أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم.

الثَّانية: أعوذ بالله السَّميع العليم من الشَّيطان الرَّجيم من همزه ونفخه ونفثه. فيستحبُّ للقارئ أن يعمل بهذه وهذه.

البدء بالاستعاذة خاصٌّ بالقرآن الكريم:

لا تُشرع الاستعاذة بين يدي كلام محبوب غير قراءة القرآن العظيم؛ فبعض النَّاس يذكر الاستعاذة عند البدء بذكر حديثٍ أو موعظة، ونحو ذلك، فهذا لا أصل له[١]. وهو مقتضى ما نبَّه عليه ابن القيِّم رحمه الله في سياق فوائد الاستعاذة ـ إذ قال: «ومنها: أنَّ الاستعاذة قبل القراءة إعلامٌ بأنَّ المأتيَّ به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تُشرع الاستعاذة بين يدي كلامٍ غيره، بل الاستعاذة مقدِّمة وتنبيه للسَّامع أنَّ الذي يأتي بعدها هو التِّلاوة، فإذا سمع السَّامعُ الاستعاذةَ استعدَّ لسماع كلام الله تعالى، ثمَّ شُرعَ ذلك للقارئ، وإنْ كانَ وَحْدَه، لِمَا ذكرنا من هذه الحِكَم وغيرها»[٢].

١٠ ـ البَسْملة[٣]:

ودليلُ سُنِّيَّتِها: ما جاء عن أنسٍ رضي الله عنه، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، إذْ أَغْفَى إغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّماً، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ». فَقَرَأَ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر] الحديث[٤].

= (١٤٨/١) (ح٧٠١).

(١) انظر: تصحيح الدعاء (ص٢٧٣).

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٩٢/١).

(٣) جاء في كتاب «تصحيح الدُّعاء» (ص٢٧٤): «عبارة البسملة، نَحْتٌ لقولك: «بسم الله الرحمن الرحيم» بخلاف: «التَّسمية» فهي عبارة عن قول: «بسم الله» وقيل: «عن ذكر الله، بأيِّ لفظٍ كان، وحصل تَسمُّح في الإطالة».

(٤) رواه مسلم، كتاب الصَّلاة، باب: حُجة منْ قال: البسملة آية من أول كلِّ سورة،

ومعنى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: أي «بدأتُ بعون الله وتوفيقه وبركته، وهذا تعليم من الله تعالى لعباده ليذكروا اسم الله تعالى عند افتتاح القراءة وغيرها؛ حتَّى يكون الافتتاح ببركة اسم الله»[1]. فالإتيان بالبسملة من باب التبرُّك والتيمُّن بذكر اسم الله[2].

فينبغي للقارئ أن يحافظ على قراءة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أوَّل كلِّ سورة، سوى سورة (التَّوبة) فإنَّ أكثر العلماء قالوا: إنَّها آية، حيث كُتبت في المصحف، وقد كُتبت في أوائل السُّور كلِّها إلَّا سورة (التَّوبة).

وذلك لأنَّ الصَّحابة الكرام ﷺ اختلفوا فيما بينهم: هل هي تتمَّة لسورة الأنفال أو أنَّها سورة مستقلَّة بذاتها، فرأوا أن يفصلوها في المصحف ولا يضعوا قبلها البسملة[3].

١١ ـ حَصْر الفكر أثناء التِّلاوة:

لا بدَّ من الإقبال بالكليَّة على القراءة، وتفريغ النَّفس من شواغلها، قبل البدء بالتِّلاوة؛ وذلك لأنَّ المُلهيات تُلِحُّ على النَّفس وتَعْرِض لها.

كذلك ينبغي أنْ يُحْصَرَ الفِكْرُ على القرآن وحده، ويُمْنَعَ من الشُّرود والتَّجوال في مُغْرِيات الحياة الدُّنيا.

ومن تفريغ النَّفس من شواغلها ألَّا يكون القارئ جائعاً، أو عطِشاً، أو مهموماً قَلِقاً مضطرباً، أو يعيش في برد شديد، أو حرٍّ مؤذٍ، أو جالساً في مكان

= سوى براءة (١/ ٣٠٠) (ح٤٠٠).

(١) تفسير السمرقندي (١/ ٣٧)؛ تفسير القرطبي (١/ ٩٨).

(٢) ذكر العزُّ بن عبد السَّلام ﷺ فائدةً جامعة فقال: «أفعال العباد على ثلاثة أقسام: ما سُنَّت فيه التَّسمية: كالوضوء، والغسل، والتَّيمُّم، وذبح المناسك، وقراءة القرآن، ومنه أيضاً مباحات كالأكل والشُّرب والجماع. وما لم تُسَنَّ فيه: كالصَّلاة، والأذان؛ والحجِّ والعمرة، والأذكار، والدَّعوات. وما تكره: وهي المُحرمات؛ لأنَّ الغرض من التسمية: التَّبرُّك في الفعل المشتمل عليه، والحرام لا يُراد كثرته وبركته، وكذلك المكروه».
نقلاً عن: تصحيح الدعاء (ص٢٧٤).

(٣) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٠٦)؛ التذكار في أفضل الأذكار (ص١٧٣)؛ الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٦٣).

عامٌ ينظر فيه للغادين والرَّائحين وينشغل بهم، أو جالساً أمام التّلفاز، عيناه في القرآن، وأذناه تستمع إلى التّلفاز.

فإذا ما حصر القارئ فكره أثناء التّلاوة وجعله مع القرآن، فسيخرج بزادٍ عظيم من التّلاوة(١).

١٢ ـ استحباب التَّرتيل وكراهية السُّرعة المفرطة:

اتَّفق العلماء ـ رحمهم الله ـ على استحباب التَّرتيل(٢). قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

أي: بَيِّنِ القرآنَ إذا قرأته تبييناً، وترسَّلْ فيه ترسُّلاً(٣).

والتَّبيين يحصل بعدم الاستعجال في القراءة، وذلك بتوفيتها حقَّها من الإشباع(٤).

قال البغوي رحمه الله: «ترتيل القراءة: التَّأنِّي والتَّمهُّل، وتبيين الحروف والحركات، تشبيهاً بالثَّغر المرتَّل، وهو المشبَّه بنَوْر الأقحوان»(٥).

وقال الرَّازي رحمه الله: «التَّرتيل: هو أن يذكر الحروف والكلمات مُبيَّنة ظاهرة. والفائدة فيه: أنَّه إذا وقعت القراءة على هذا الوجه فَهِمَ من نفسه معاني تلك الألفاظ، وأفهَمَ غيرَه تلك المعاني، وإذا قرأها بالسُّرعة لم يَفْهم، ولم يُفْهم، فكان التَّرتيل أولى»(٦).

وجاء في (التَّسهيل لعلوم التَّنزيل): «التَّرتيل: هو التَّمهُّل، والمدُّ، وإشباع الحركات، وبيان الحروف، وذلك مُعِينٌ على التَّفكُّر في معاني القرآن، بخلاف الهذِّ الذي لا يفقه صاحبُه ما يقول»(٧).

---

(١) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص٥٣ ـ ٥٤).
(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص١١٤).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٤/١٥٣)؛ وجاء في (مختار الصّحاح) (ص٩٨): «والتَّرتيل في القراءة: التَّرسُّل فيها والتَّبيين من غير بَغْي».
(٤) انظر: لسان العرب (١١/٢٦٥)، مادَّة: «رتل».
(٥) شرح السنة (٢/٤٦٥). (٦) التفسير الكبير (١/٦٠).
(٧) (٤/١٥٧).

ومما تقدَّم يتبيَّن لنا أنَّ التَّرتيلَ أقربُ إلى الإجلال والتَّقدير، وأشدُّ تأثيراً في القلوب، فكيف وقد أُمِرَ به وأُكِّدَ عليه في الشَّرع، فَفِعله التزام بِهَدْي النَّبيِّ ﷺ في تلاوة القرآن.

وقد امتثل ﷺ أَمْرَ رَبِّه فرتَّل القرآنَ ترتيلاً:

* فعن قَتَادَةَ رحمه الله قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بنَ مَالِكٍ عن قِرَاءَةِ النبيِّ ﷺ فقال: «كان يَمُدُّ مَدّاً»(١).

* وعن قَتَادَةَ رحمه الله قَالَ: سُئِلَ أَنَسٌ: كَيْفَ كانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ؟

فَقَالَ: «كَانَتْ مَدّاً، ثُمَّ قَرَأَ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيم» يَمُدُّ بِبِسْمِ اللهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيم»(٢).

* وَتَصِفُ حَفْصَةُ رضي الله عنها قِراءةَ النبيِّ ﷺ فتقول: «كان يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُهَا، حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا»(٣).

التَّحذير من الاستعجال في التِّلاوة:

كَرِه كثير من السَّلف من الصَّحابة ومَنْ بعدهم؛ العجلةَ المفرطة في تلاوة القرآن الكريم، ولو كان الباعث على ذلك الحصول على قدرٍ أكبر من الحسنات؛ لأنَّ الاستعجال يُفَوِّت مصلحةً كُبرى، وهي تدبُّر آيات القرآن، والتأثُّر بها.

* وللصَّحابيِّ الجليل عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه كلامٌ في ذمِّ الإسراع في تلاوة القرآن: فقد جاءه رجل فقال له: إنِّي لأَقرَأُ المُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ.

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: «هذّاً كَهَذِّ الشِّعْرِ(٤)؟ إنَّ أَقْوَاماً يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ

---

(١)(٢) رواهما البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: مدّ القراءة (٣/ ١٦٢٥) (ح٥٠٤٥، ٥٠٤٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جواز النَّافلة قائماً وقاعداً (١/ ٥٠٧) (ح٧٣٣).

(٤) (هذّاً كَهَذِّ الشِّعْر): نصبه على المصدر. أي أتهذُّ القرآن هذّاً، فتسرع فيه كما تسرع في قراءة الشِّعر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٥٤). وقال النَّووي رحمه الله: «قوله (كهذِّ الشِّعر) معناه: في حفظه وروايته لا في إنشاده وترنُّمه؛ لأنه يُرتَّل في الإنشاد والتَّرنُّم، في العادة». «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ١٠٥).

تَرَاقِيَهُمْ(١). وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ، نَفَعَ...»(٢).

* وعن أبي جَمْرَةَ(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «قلتُ لابن عبّاسٍ: إنّي سريعُ القراءة، وإنّي أقرأ القرآنَ في ثلاثٍ، فقال: لأنْ أقرأ البَقَرَةَ في ليلةٍ فأَدَبَّرَهَا وأُرتِّلَهَا؛ أحبُّ إليَّ من أن أقرأ كما تقول»(٤).

وفي رواية: «فإنْ كُنتَ فاعِلاً لا بُدَّ، فاقرأهُ قِراءةً تُسْمِعُ أُذُنَيكَ ويَعِيهِ قَلْبُكَ»(٥).

* وسُئِلَ مُجاهدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عن رَجُلَين: قرأ أحدُهما البقرةَ، وقرأ الآخَرُ البقرةَ وآلَ عمرانَ، فكان رُكوعُهما وسُجودُهما وجُلوسُهما سَوَاءً. أيُّهما أفضلُ؟ قال: الذي قرأ البقرةَ. ثمَّ قرأ مجاهدٌ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦](٦).

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُستحبُّ أن يؤدِّي لكلِّ حرف حقَّه من الأداء حتَّى يبرز

(١) (لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ): أي لا يجاوز القرآنُ تراقِيَهم ليصل إلى قلوبهم، فليس حظُّهم منه إلَّا مروره على ألسنتهم. والتَّراقي: جمع ترقوة، وهي العظم الذي بين ثغرة النَّحر والعاتق، وهما ترقوتان من الجانبين. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٨٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: ترتيل القراءة واجتناب الهذِّ، وهو الإفراط في السُّرعة (١/ ٥٦٣) (ح٨٢٢).

(٣) هو نصر بن عمران الضُّبَعيّ البصري، أحد الأئمة الثِّقات. أقام مع ابن عباس رضي الله عنه بالبصرة شهرين. توفِّي سنة (١٢٧هـ). انظر: سير أعلام النُّبلاء (٥/ ٢٤٣).

(٤) رواه ابن كثير في «فضائل القرآن» (ص٢٣٦). وقال محقِّقه (أبو إسحاق الحويني): «إسناده صحيح». ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٧٤)؛ والأجرّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص٨٩).

(٥) رواه البيهقي في «السُّنن الكبرى» (٢/ ٣٩٦) (رقم ٣٨٧٦) و(٣/ ١٣) (رقم ٤٤٩١)؛ وفي «شعب الإيمان» (٢/ ٣٩٢) (رقم ٢١٥٩)؛ وابن المبارك في «الزُّهد» (١/ ٤٢٢) (رقم ١١٩٨). وقال محقِّق «الفضائل» (أبو إسحاق الحويني): «إسناده صحيح». انظر: حاشية الفضائل (ص٢٣٧).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢١٩) (رقم ٢٢٧٨٣)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٢٥٦) (رقم ٨٧٣٥)؛ والأجرّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص٩٠)؛ وابن عبد البر في «الاستذكار» (٢/ ٤٧٨).

الكلام باللفظ تماماً...، وإذا كان له بكلّ حرفٍ عشر حسنات، فينبغي له ألا يهمل حرفاً أثبته إمامٌ، فيكون قد أتى على جميع القرآن، ولم يُبْقِ شيئاً، فتكون ختمةٌ أصحّ من ختمة إذا ترخّص بحذف ما لا يضرُّ حَذْفُه، ألا ترى أنَّ صلاة مَنِ استوى في جميع شرائطها أتمُّ ممَّن ترخّص بترك ما يجوز تركه»[١].

(مسألة) أيهما أفضل التّرتيل وقلّة القراءة أو السُّرعة مع كثرتها؟

قال بعضهم: إنّ ثواب قراءة التّرتيل أجلُّ قدراً، وثواب الكثرة أكثر عدداً؛ لأنّ بكلِّ حرف عشر حسنات»[٢].

ولقد تناول ابن حجر ﷺ هذه المسألة بالتّحقيق وفصّل فيها قائلاً: «والتّحقيق أنّ لكلٍّ من الإسراع والتّرتيل جهة فَضل، بشرط أن يكون المسرع لا يخلُّ بشيء من الحروف والحركات والسُّكون الواجبات، فلا يمتنع أنْ يفضل أحدُهما الآخرَ وأنْ يستويا، فإنَّ مَنْ رتّل وتأمّل كَمَنْ تصدّق بجوهرة واحدة مثمنة، ومَنْ أسرع كَمَنْ تصدّق بعدّة جواهر لكنْ قيمتُها قيمة الواحدة، وقد تكون قيمة الواحدة أكثر من قيمة الأخريات، وقد يكون بالعكس»[٣].

١٣ ـ استحباب تحسين الصّوت بالقرآن:

نقل النّووي ﷺ الإجماع على ذلك، فقال: «أجمع العلماء ﷺ من السّلف والخلف من الصّحابة والتّابعين، ومَنْ بعدهم من علماء الأمصار أئمّة المسلمين على استحباب تحسين الصّوت بالقرآن»[٤].

يدلُّ على ذلك ما رواه البَراءُ ﷺ قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١] في العِشَاءِ، وَمَا سَمِعْتُ أَحَداً أَحْسَنَ صَوْتاً مِنْهُ، أَوْ قِرَاءَةً»[٥].

---

(١) التّذكار في أفضل الأذكار (ص١٧٥).
(٢) انظر: النشر في القراءات العشر (١/٢٠٨)؛ الإتقان في علوم القرآن (ص٢٦٤).
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/٨٩).
(٤) التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٤٤).
(٥) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: القراءة في العشاء (١/٢٣٦) (ح٧٦٩).

وفي استحباب تحسين الصَّوت بالقرآن وردت أحاديث عدَّة، منها:

* ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَأْذَنِ اللهُ لِشَيْءٍ ما أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالقُرآنِ»[(١)].

قال ابن كثير كَثَلَثهُ: «ومعناه أنَّ الله تعالى ما استمع لشيء، كاستماعه لقراءة نبيٍّ يجهر بقراءته ويحسِّنها، وذلك أنَّه يجتمع في قراءة الأنبياء طِيبُ الصَّوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك، وهو ﷻ يسمع أصوات العباد كلِّهم برِّهم وفاجِرهم»[(٢)].

* وما رواه أبو هريرة ﷺ ـ أيضاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرآنِ»[(٣)].

* وما رواه البراء بن عازب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «زَيِّنُوا القُرآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»[(٤)].

«والمراد من تحسين الصَّوت بالقرآن: تطريبُه، وتحزينُه، والتَّخشُّعُ به»[(٥)].

وذَكَر ابن القيِّم كَثَلَثهُ الحكمةَ من استحباب تزيين القرآن بالصَّوت، فقال: «لأنَّ تزيينه، وتحسين الصوت به، والتَّطريب بقراءته أوقعُ في النُّفوس، وأدعى إلى الاستماع والإصغاء إليه، ففيه تنفيذٌ لِلَفظه إلى الأسماع، ومعانيه إلى القلوب؛ وذلك عَوْن على المقصود، وهو بمنزلة الحلاوة التي تُجْعَلُ في الدَّواءِ لِتُنْفِذَهُ إلى موضع الدَّاء، . . . لا تُخرِجِ الكلام عن وضعه، ولا تحول بين السَّامع وبين فَهمه، ولو كانت متضمِّنةً لزيادةِ الحروفِ كما ظنَّ المَانِعُ منها؛ لأخْرَجَتِ الكلمَةَ عن مواضعها، وحالت بين السَّامع وبين فَهْمِها، ولم يَدْرِ ما معناها، والواقعُ بخلاف ذلك»[(٦)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن (٣/ ١٦١٩) (ح٥٠٢٣).
(٢) فضائل القرآن (ص١٧٧ ـ ١٧٨).
(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ [الملك: ١٣] (٤/ ٢٣٥١) (ح٧٥٢٧).
(٤) رواه أبو داود (٢/ ٧٤) (ح١٤٦٨)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٧٥) (ح١٣٠٣).
(٥) فضائل القرآن، لابن كثير (ص١٩٠).
(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠).

قال النَّووي كَلَلهُ: «فيستحب تحسين الصَّوت بالقراءة وترتيبها، ما لم يخرج عن حدّ القراءة بالتمطيط، فإنْ أفرط حتى زاد حرفاً، أو أخفاه فهو حرام»[(١)].

بين التَّغنِّي المحمود والمذموم:

قال ابن القيِّم كَلَلهُ: «وفَصْلُ النِّزاعِ، أنْ يُقال: التَّطريب والتَّغنِّي على وجهين:

أحدُهما: ما اقتضته الطَّبيعة، وسمحت به من غير تكلُّف، ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خُلِّي وطَبْعَه، واسترسلت طبيعتُه؛ جاءت بذلك التَّطريب والتَّلحين، فذلك جائز، وإنْ أعان طبيعتَه بفضل تزيينٍ وتحسينٍ، كما قال أبو موسى ﷺ للنَّبيِّ ﷺ: «لو عَلِمْتُ أنَّكَ تَسْمَعُ لحبَّرتُه لك تحبيراً»[(٢)]، . . . فهذا هو الذي كان السَّلفُ يَفْعلونه، ويستمعونه، وهو التَّغنِّي الممدوحُ المحمود، وهو الذي يتأثَّر به التَّالي والسَّامع، . . .

الوجه الثَّاني: ما كان من ذلك صِنَاعَةً من الصَّنائع... كما يُتَعَلَّمُ أصواتُ الغناء بأنواع الألحان البسيطة، والمركَّبة على إيقاعات مخصوصة، وأوزانٍ مخترعة، لا تحصل إلَّا بالتَّعلُّم والتَّكلُّف، فهذه هي التي كَرِهَها السَّلف، وعابوها، وذمُّوها، ومنعوا القراءةَ بها . . .

وكلُّ مَنْ له عِلْم بأحوال السلف، يعلم قَطْعاً أنَّهم بُرآء من القراءة بألحان الموسيقى المُتكلِّفة التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنَّهم أتقى لله من أن يقرؤوا ويُسوِّغوها، ويعلم قطعاً أنَّهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتَّطريب، ويُحسِّنون أصواتَهم بالقرآن، ويقرؤونه بِشَجَىً تارة، وبطَرَبٍ تارة، وبشوْقٍ تارة، وهذا أمر مركوزٌ في الطِّباع تقاضيه، ولم يَنْهَ عنه الشَّارع، مع شدَّة تقاضي الطِّباع له، بل أرشد إليه وندب إليه، وأخبر عن سماع الله لمنْ قرأ به»[(٣)].

والمقصود الأعظم من تحسين الصَّوت: هو أن يكون قنطرة إلى تدبُّر القرآن وتفهُّمه، والخشوع والخضوع والانقياد للطَّاعة.

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٤٥ ـ ١٤٦).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (١٦/ ١٦٩) (ح٧١٩٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٢٩) (ح٥٩٦٦). وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣).

١٤ ـ النَّهي عن القراءة بالألحان المُطَرِّبة[1]:

القرآن الكريم ينزَّه ويجلُّ ويعظَّم عن تلاوته بالأصوات والنَّغَمَات المُحْدَثة، المركَّبة على الأوزان، والأوضاع المُلْهِية وأصوات المزامير[2].

ولقد حذَّر النبيُّ ﷺ من زمانٍ يأتي يتَّخذ النَّاسُ فيه القرآنَ للغناء والمزامير:

فعن عُلَيم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ خِصَالاً سِتّاً: إِمْرَةَ السُّفَهَاءِ، وَكَثْرَةَ الشُّرَطِ، وَقَطِيعَةَ الرَّحِمِ، وَبَيْعَ الحُكْمِ، وَاسْتِخْفَافاً بِالدَّمِ، وَنَشْواً يَتَّخِذُونَ القُرآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَ الرَّجُلَ لَيْسَ بِأَفْقَهِهِمْ وَلَا أَعْلَمِهِمْ، مَا يُقَدِّمُونَهُ إِلَّا لِيُغَنِّيَهُمْ»[3].

قال الإمام مالك[4] رحمه الله: «ولا تُعجِبُني القراءةُ بالألحان، ولا أُحِبُّها في رمضانَ ولا في غيره؛ لأنه يُشبهُ الغناءَ، ويُضْحَكُ بالقرآنِ، فيُقالُ: فلانٌ أقرأُ من فُلانٍ[5]»[6].

---

(١) المراد بالألحان المُطَرِّبة: هي التي تُشبه الغناء، وربّما وقع ذلك من بعض أئمة المساجد في زماننا هذا، علموا أم لم يعلموا، فيخيّل لك عند سماع قراءتهم أنك تسمع أغنية، من تقليب الصّوت، وتغيير النّغمات، نسأل الله لنا ولهم الهداية.
انظر: كتاب الآداب، فؤاد الشلهوب (ص٢٥).

(٢) انظر: فضائل القرآن، لابن كثير (ص١٩٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٤) (ح١٦٠٨٣)؛ وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٦٦)؛ وابن كثير في «فضائل القرآن» (ص١٩٧)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٥٢٩) (ح٣٧٧٣٦)؛ وابن عبد البر في «التّمهيد» (١٨/ ١٤٧) و«الاستذكار» (٣/ ١١٨)؛ وصحّحه الألباني في «الصّحيحة» (٢/ ٧٠٩) (ح٩٧٩)؛ و«صحيح الجامع» (١/ ٥٤٣) (ح٢٨١٢).

(٤) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي (أبو عبد الله) الإمام الفقيه، والمحدّث الحافظ، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمّة الأربعة، يُنسب إليه المذهب المالكي، روى عن كثير من التّابعين، وروى عنه خلق كثير من المحدّثين الحفّاظ، وكان في غاية الدّقّة والثّقة في الحديث، ويُعَدُّ في الطّبقة السّابعة من التّابعين من أهل المدينة، له مصنّفات أشهرها: «الموطّأ»، توفّي سنة (١٧٩هـ) وعمره (٨٥) سنة.
انظر: تقريب التّهذيب (٢/ ٢٢٣)؛ البداية والنّهاية (١٠/ ١٧٤).

(٥) أي: يصير فيه نوع تنافس قد يُفضي إلى العداوة!

(٦) المدخل إلى كتاب الإكليل، لأبي عبد الله الحاكم (٣/ ١١٠)؛ الحوادث والبدع (ص٨٣).

وجاء في (الآداب الشرعية): «وكره أحمد قراءة الألحان، وقال: هي بدعة»[١].

وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله عن القوم يجتمعون، ويقرأ لهم القارئ قراءة حزينة؟ فقال: «إن كان يقرأ بقراءة أبي موسى رضي الله عنه فلا بأس». وقال في قراءة الألحان: «أخذوها من الغناء لا تسمع منهم»[٢].

أسباب تحريم الألحان المُطرِّبة:

ذكر أهل العلم عدّة أسباب في تحريم الألحان المطرِّبة، منها[٣]:

١ ـ تشبيه القرآن الكريم بمزمار الشيطان.

٢ ـ تنزيه القرآن الكريم عن محاولة تحريفه.

٣ ـ القرآن معجز بلفظه ونَظْمه، والألحان تغيِّره.

وجاء في (مطالب أولي النُّهَى): «فإنْ حصل معها (أي الألحان) تغيير نَظْم القرآن، كجَعْل الحركات حروفاً حَرُم ذلك. وسئل الإمام أحمد عن ذلك؟ أي عن تغيير نَظْم القرآن. فقال للسّائل: ما اسمك؟ فقال: محمد. فقال أيسرُّك أن يقال: يا موحامَّد؟ فقال: لا»[٤].

٤ ـ الطَّرب وتهييج الطِّباع.

ذكر ابن الجوزي رحمه الله شيئاً من تلبيس إبليس على الوعّاظ والقصّاص فقال: «ومنهم مَنْ يتحرَّك الحركات التي يوقع بها على قراءة الألحان. والألحان التي أخرجوها اليوم مشابهة للغناء، فهي إلى التّحريم أقرب منها إلى الكراهة، والقارئ يطرب، والقاصُّ يُنشِد الغَزَل»[٥].

٥ ـ تُلهي عن تدبُّر القرآن.

٦ ـ تغيير الكلمات والحركات الصّحيحة إلى غير ذلك، كزيادة حرفٍ، أو نقصانه، وإدغام ما لا ينبغي أن يدغم، واستخدام المدِّ في غير موضعه، وإسقاط الهمز، وهكذا.

---

(١) (٢/٣٠١).

(٢) انظر: القُصّاص والمُذكِّرين، لعبد الرّحمن بن علي القرشي (ص٣٦١).

(٣) انظر: مطالب أولي النُّهى (١/٥٩٨)؛ القُصّاص والمذكِّرين (١/٣٦١).

(٤) (١/٥٩٨).

(٥) تلبيس إبليس (ص١٥١).

قال الطُّرْطُوشيُّ ﷺ في مَعْرِض حديثه عن أصحاب الألحان وتغييرهم للقراءة الصَّحيحة، إلى ما يُوافق أهواءهم، وأذواقهم الفاسدة: «فنَقَلُوا القراءةَ إلى أوضاع لُحونِ الأغاني، فَمَدُّوا المقصورَ، وقَصروا المَمْدودَ، وحَرّكوا السَّاكِنَ، وسَكَّنُوا المتحرِّكَ، وزادُوا في الحَرْفِ، ونَقَصوا منْهُ، وجَزَموا المتحرِّكَ، وحَرَّكُوا المَجْزومَ؛ لاستيفاءِ نَغَمَاتِ الأغاني المُطْرِبَةِ»[١].

ما أشبه اللَّيلة بالبارحة:

بعض قرَّاء الإذاعات يقرؤون القرآن على ألحان الأغاني (النُّوته الموسيقيّة)، بل لديهم قواعد تُدرَّس من خلالها الموسيقى والألحان من طلعات ونزلات يلتزمونها للتَّطريب والتَّلحين بالقرآن، فكيف يحصل الخشوع في مجلس كهذا؟ فالسَّامع إمَّا أن يكون مأخوذاً بجمال الصَّوت، أو متقزّزاً من شدَّة التَّكلُّف!

وبعضهم يحضر حفلات الغناء في الصَّف الأوَّل وعليهم العمائم، من أجل أن يلتقطوا اللَّحن المناسب كي يقرؤوا به في الإذاعة، ولذلك ذمَّ النبيُّ الكريم ﷺ هؤلاء ذمّاً عظيماً، وأخبر ـ وهو الصَّادق المصدوق ـ أنَّه سيأتي قوم في آخر الزَّمان يقرؤونه بهذه الصِّفة، بجعلهم القرآن مثل الأغاني.

فالخلاصة: أنَّ هذا الفعل الذي يُقصد به التَّطريب والعبث بالمدود وزيادة الحركات أو التَّأوُّهات، مذموم وصاحبه آثم[٢].

١٥ ـ وجوب تدبُّر القرآن:

تدبُّر القرآن الكريم هو المقصود الأعظم والمطلوب الأهمُّ من التِّلاوة، وبه تنشرح الصُّدور، وتستنير القلوب، ولقد تضافرت النُّصوص على وجوب تدبُّر آيات الكتاب العزيز، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

قال السُّيوطي ﷺ: «وصفة ذلك: أن يشغل قلبَه بالتَّفكُّر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كلِّ آية، ويتأمَّل الأوامر والنَّواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان

---

(١) الحوادث والبدع (ص٨٥).

(٢) انظر: من القصص النبوي، محمد صالح المنجد (ص٨١ ـ ٨٢).

مما قصَّر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذابٍ أشفق وتعوّذ، أو تنزيه نزّه وعظَّم، أو دعاءٍ تضرّع وطلب»[١].

وقد ندّد الله تعالى بصورة الاستفهام بمنْ لا يفتح عقله وقلبَه لتفهُّم القرآن من أجل إدراك ما فيه من حِكَم وأسرار ومواعظ وتشريعات، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فليست العبرة ـ في التّلاوة ـ أن يقرأ القرآن مرّات متعدّدة دون أن يصاحبها إدراك لما يقرأ، والتّرتيل والتّدبُّر مع قلّة مقدار القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها؛ لأنَّ المقصود الأعظم من التّلاوة هو الفهم والتّدبُّر.

والإسراع في التّلاوة يدلُّ على عدم الوقوف على المعنى بصورة كاملة، وبالشّكل المطلوب، ومن أجل ذلك كانت القراءة بتمهُّل خطوة نحو التّدبُّر، ثمّ العمل[٢].

١٦ ـ استحباب البكاء أثناء التّلاوة:

يستحب للقارئ أن يبكي أثناء تلاوته للقرآن، فإن لم يكن بكاء فليتباك، والبكاء من خشية الله تعالى، وعند تلاوة آياته، من صفات العارفين، وشعار عباد الله الصّالحين، قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩][٣].

* وروى عبد الله بن الشّخّير ﷺ قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ[٤] ـ يَعْنِي: يَبْكِي»[٥].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (ص٢٦٥).

(٢) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم (ص٤١).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٣/ ١٤١)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (١/ ٢٨٥)؛ الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٨٥).

(٤) (المِرْجَل) قِدْرٌ من نحاس، وقد يُطلق على قدرٍ يُطبخ فيها، ولعلّه المراد في الحديث. قال الطّيبي ﷺ: «أزيز المرجل صوتُ غليانه، ومنه الأزُّ، وهو الإزعاج». انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/ ١٢١).

(٥) رواه النسائي (٣/ ١٣) (ح١٢١٤)؛ وابن خزيمة في «صحيحه» (٢/ ٥٣) (ح٩٠٠)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٤٣٩) (ح٦٦٥)؛ والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٩٦) (ح٩٧١)،

* وفي روايةٍ أخرى: «وفي صَدْرِهِ أزِيزٌ كأزِيزِ الرَّحَى[١] مِنَ البُكَاءِ[٢] ﷺ»[٣].

* وقال عبدُ الله بنُ شَدَّادٍ[٤]: «سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ[٥]، وأنَا في آخِرِ الصُّفُوفِ، يَقْرَأُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]»[٦].

* وقال الحسن البصريُّ رحمه الله: «والله يا ابن آدم، لئن قرأتَ القرآن ثمَّ آمنت به، ليطولنَّ في الدُّنيا حزنُك، وليشتدنَّ في الدُّنيا خوفُك، وليكثرنَّ في الدُّنيا بكاؤك»[٧].

= وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه» ووافقه الذَّهبي. وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٢٦٠) (ح١١٥٦).

(١) (أزِيزُ الرَّحَى) صوتها وحرحرتها.

(٢) (مِنَ البُكَاءِ) أي من أجله. انظر: عون المعبود (٣/ ١٢١).

(٣) رواه أبو داود (١/ ٢٣٨) (ح٩٠٤)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١٧٠) (ح٧٩٩).

(٤) هو عبد الله بن شدَّادِ بن الهاد، تابعي كبير، له رؤية، ولأبيه صُحبة.
انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٦٧).

(٥) النَّشيج: قال ابن فارس رحمه الله: «نشج الباكي: غصّ بالبكاء في حلقه من غير انتحاب» «معجم مقاييس اللغة (٢/ ٥٦٠)، وقيل: النَّشيج: صوتٌ معه ترجيع كما يردِّد الصَّبي بكاءه في صدره.
وقيل: هو أشدُّ البكاء. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٦٧).

(٦) رواه البخاري تعليقاً، كتاب الأذان، باب: إذا بكى الإمام في الصّلاة (١/ ٢٢٥).
قال ابن حجر رحمه الله: «وهذا الأثر وصله سعيد بن منصور عن ابن عيينة عن إسماعيل بن محمد بن سعد سمع عبد الله بن شدَّاد بهذا. وزاد: (في صلاة الصُّبح).
«فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٦٧)».
وانظر: سنن سعيد بن منصور (٥/ ٤٠٥) (ح١١٣٨)؛ ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/ ٣١٢) (رقم ٣٥٦٥)؛ (٧/ ٢٢٤) (رقم ٣٥٥٢٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢/ ١١٤) (رقم ٢٧١٦).

(٧) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٣)؛ والمزي في «تهذيب الكمال» (٦/ ١١٢)؛ والذهبي في «تاريخ الإسلام» ٧٠/ ٥٧)؛ و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٥)؛ وأحمد في «الزهد» (١/ ٢٥٩).

وعن جابرٍ ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتاً بِالْقُرآنِ، الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأ، حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى الله»(١).

قال أبو حامدٍ الغزالي رحمه الله: «البكاء مستحب مع القراءة. . .، وإنَّما طريق تكلُّف البكاء أن يحضر قلبه الحزن، فمن الحزن ينشأ البكاء. . .، ووجه إحضار الحزن أن يتأمَّل ما فيه من التَّهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثمَّ يتأمَّل تقصيره في أوامره وزواجره، فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حُزْن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصَّافية فليبك على فَقْدِ الحزن والبكاء، فإنَّ ذلك أعظم المصائب»(٢).

وليس المقصود بالبكاء ـ الذي حثَّ عليه السلف ـ ما يفعله بعضهم من صُراخٍ وعويل ونحيب، فهذا خروج عن الطَّريق القويم.

فأين هؤلاء من هدي النبيِّ ﷺ في البكاء، وبكاء الصَّحب الكرام ﷺ الذين وصفهم الله تبارك بقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣](٣).

قال ابن تيميَّة رحمه الله: «وما يحصل عند السَّماع والذِّكر المشروع من وَجَل القلب، ودمع العين، واقشعرار الجسوم، فهذا أفضل الأحوال التي نَطَقَ بها الكتاب والسُّنة.

أمَّا الاضطراب الشَّديد والغشي والموت والصيحات فهذا إن كان صاحبه مغلوباً عليه لم يُلَمْ عليه، كما قد يكون في التَّابعين ومَنْ بعدهم، فإنَّ منشأه قوَّة الوارد على القلب مع ضعف القلب والقوَّة»(٤).

١٧ ـ استحباب الجهر بالقرآن إذا لم تترتَّب عليه مفسدة:

وردت أحاديث تقتضي استحباب رفع الصَّوت بالقراءة، وأخرى تقتضي الإسرار وخفض الصَّوت:

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ٤٢٥) (ح١٣٣٩)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٢٢٤) (ح١١٠١).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٧). وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (١/ ٤٥).

(٣) انظر: كتاب الآداب (ص٢٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٢٢).

فمن الأول:

ما جاء عن أبي هُرَيْرَة ﷺ: أنَّه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقُولُ: «ما أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ ما أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرآنِ يَجْهَرُ بِهِ»(١).

ومن الثَّاني:

ما جاء عن عقبة بن عامرٍ الجهنيِّ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الجَاهِرُ بِالقُرآنِ كَالجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، والمُسِرُّ بالقُرآنِ كَالمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ»(٢).

الجمع بين الحديثين:

يكون الجهر أفضل؛ لأنَّ فائدته تتعدَّى إلى السَّامعين، فالعمل فيه أكثر، ويوقظ قلب القارئ، ويجمع همَّه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النَّوم، ويزيد في النَّشاط، بشرط ألَّا يؤذي غيره من مصلٍّ أو نائمٍ أو غيرهما. فمتى حضره شيء من هذه النِّيَّات فالجهر أفضل.

ويكون الإسرار أفضل إذا خاف على نفسه الرِّياء، أو تأذَّى مصلُّون، أو نيام بجهره(٣).

ويستدلُّ لهذا الجمع: بما جاء عن أبي سعيدٍ، قال: اعْتَكَفَ رسولُ اللهِ ﷺ، في المَسْجِدِ، فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُون بِالقِراءَةِ، فَكَشَفَ السِّتْر وقال:

«أَلَا إنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، وَلَا يَرْفَعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ في القِرَاءَةِ» أوْ قَالَ: «في الصَّلَاةِ»(٤).

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: الماهر بالقرآن... (٤/ ٢٣٥٨) (ح٧٥٤٤).

(٢) رواه أبو داود (٢/ ٣٨) (ح١٣٣٣)؛ والترمذي (٥/ ١٨٠) (ح٢٩١٩)؛ والنسائي (٥/ ٨٠) (ح٢٥٦١)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٧٤) (ح١١٨٤)؛ و«صحيح سنن الترمذي» (٣/ ١٠) (ح٢٣٣١)؛ و«صحيح سنن النسائي» (٢/ ٥٤١) (ح٢٤٠١).

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن (ص٢٧١)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٣٥)؛ المجموع (٢/ ١٨٩). فيض القدير (١/ ٤٥٧).

(٤) رواه أبو داود (٢/ ٣٨) (ح١٣٣٢)؛ وابن خزيمة في «صحيحه» (٢/ ١٩٠) (ح١١٦٢)؛ وأحمد في «المسند» (٣/ ٩٤) (ح١١٩١٥).
وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٤٧) (ح١١٨٤).

«وقال بعضهم: يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها؛ لأنَّ المُسرّ قد يملُّ فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكِلُّ فيستريح بالإسرار»[(١)].

ومن المفاسد المترتِّبة على الجهر في غير موضعه ما حكاه ابن الجوزيّ رحمه الله بقوله: «وقد لبّس إبليس على قومٍ من القرّاء فهم يقرؤون القرآن في منارة المسجد باللّيل بالأصوات المجتمعة المرتفعة، الجزءَ والجزأين، فيجمعون بين أذى النّاس في منعهم من النّوم، وبين التّعرُّض للرِّياء، ومنهم مَنْ يقرأ في مسجده وقت الأذان؛ لأنّه حين اجتماع النّاس في المسجد»[(٢)].

أجر التّلاوة مترتِّب على التّلفُّظ بها:

لا بدّ من النُّطق بالقراءة، والتّلفُّظ بالتّلاوة لحصول الأجر، فبعض النّاس يقرأ القرآن بدون تحريك الشّفتين، قراءة صامتة، فلا يحصل بذلك على فضيلة القراءة.

ولا بأس من النّظر في القرآن الكريم من غير قراءة وذلك لتدبُّره وتعقُّله وفهم معانيه، لكنّه لا يعتبر قارئاً، إلّا إذا تلفّظ بالقرآن، وحرَّك شفتيه، عند ذلك يثبت له أجر التّلاوة، ولو لم يُسْمِعْ مَنْ حوله؛ لما جاء عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اقْرَؤوا القُرآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعاً لأَصْحَابِهِ»[(٣)].

عن عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعشْرِ أَمْثَالِهَا، لا أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»[(٤)].

ولا يعتبر قارئاً إلّا إذا تلفّظ بذلك، كما نصَّ عليه أهل العلم[(٥)].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (ص٢٧١). (٢) تلبيس إبليس (ص١٤٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (١/ ٥٥٣) (ح٨٠٤).

(٤) رواه الترمذي (٥/ ١٧٥) (ح٢٩١٠) وقال: «حسن صحيح غريب» وصحّحه الحاكم، وأقرّه الذهبي. وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٩) (ح٢٣٢٧)؛ و«صحيح الجامع» (٢/ ١١٠٣) (ح٦٤٦٩).

(٥) انظر: من فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، مجلة البحوث الإسلامية بالرياض

١٨ ـ استحباب اتِّصال القراءة وعدم قطعها:

من الآداب التي يستحب للقارئ أن يأخذ بها، عدم قطع القراءة إلَّا لعذرٍ عارضٍ معتبر شرعاً، كالرَّد على السَّلام، أو تشميت العاطس، أو إجابة المؤذِّن إذا سمع النِّداء، أو حمد الله عند العطاس، أو إمساك عن القراءة إن حصل منه تثاؤب أثناءها.

ولا يقطع التِّلاوة لأجل أمور الدُّنيا تأدُّباً مع كلام الله، واحتراماً له، ومن ذلك اجتناب الضَّحك واللَّغط والحديث خلال القراءة، إلَّا كلام يضطر إليه، وليتنبه من كيد الشَّيطان الذي يلبس عليه قراءته، أو يشغله عنها[1].

إذاً يُكره قطع التِّلاوة بدون عذرٍ معتبر؛ لما يدلُّ عليه من عدم تعظيم كلام الله تعالى. قال الحَليمي ﷺ: «لأنَّ كلام الله لا ينبغي أن يُؤثَر عليه كلامُ غيره»[2].

وقال القرطبيُّ ﷺ: «يُستحبُّ إذا أَخذَ في سورةٍ لم يشغل عنها حتَّى يفرغ منها إلَّا من ضرورة. وكذلك إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة، ولا يخلِّلها بكلام الآدميين من غير ضرورة؛ فإنَّ فيه استخفافاً بالقرآن كما لو قَطَعَ مكالمة أحد، فيحدِّث غيره ممَّن هو دونه، فإنَّ فيه استخفافاً بذلك، ولأنَّ في إتْباع القرآن بعضه بعضاً بالقراءة من البهجة ما يظهر عند الإتْباع، ويخفى عند التَّقطيع، وفي سلب زينة قراءة القرآن. فلذلك كان مكروهاً»[3].

ويُستأنس في استحباب اتِّصال القراءة وعدم قطعها: بما رواه التَّابعي الجليل نافعٌ ﷺ، حيث قال: «كان ابْنُ عُمَرَ ﷺ إذَا قَرأَ القُرْآنَ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهُ، فَأخذْتُ عَلَيْهِ يَوْماً، فَقَرَأَ سُورَةَ البَقَرَةِ، حَتَّى انْتَهَى إلى مَكَانٍ قَالَ: تَدْرِي فِيمَ أُنْزِلَتْ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: أُنزِلَتْ فِي كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ مَضَى»[4].

= (عدد: ٥١) (ربيع أول ١٤١٨هـ) (ص١٣٩ ـ ١٤٠).

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٢٠).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (ص٢٧٤). (٣) التذكار في أفضل الأذكار (ص١٧٤).

(٤) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ...﴾ [البقرة: ٢٢٣] (٣/ ١٣٦٨) (ح٤٥٢٦).

فهذه عادة ابن عمر رضي الله عنهما أنه لا يقطع تلاوة القرآن إلّا لأمرٍ جليل، ومصلحة راجحة، كنشر علم ونحوه.

١٩ ـ أن يُحْسِنَ الابتداء والوقف أثناء التّلاوة:

قال النّووي رحمه الله: «يُستحب للقارئ إذا ابتدأ من وسط السُّورة أن يبتدئ من أوّل الكلام المرتبط بعضه ببعض، وكذلك إذا وقف يقف على المرتبط وعند انتهاء الكلام، ولا يتقيّد في الابتداء ولا في الوقف بالأجزاء والأحزاب والأعشار، فإنَّ كثيراً منها في وسط الكلام المرتبط، ولا يغتر الإنسان بكثرة الفاعلين لهذا الذي نَهَيْنا عنه ممَّن لا يراعي هذه الآداب، وامتثلْ ما قاله السَّيد الجليل أبو علي الفضيل بن عياض رحمه الله: لا تستوحش طرق الهدى لقلّة أهلها، ولا تغترَّ بكثرة السَّالكين الهالكين[1]، ولهذا المعنى قال العلماء: قراءة سورة بكمالها أفضل من قراءة قدرها من سورة طويلة؛ لأنّه قد يخفى الارتباط على كثير من النّاس أو أكثرهم في بعض الأحوال والمَواطن»[2].

٢٠ ـ من السُّنَّة: الوقوف عند رؤوس الآيات:

يسنُّ لقارئ القرآن أن يقف عند رأس كلِّ آية، اقتداء برسول الله ﷺ.

فعن أمّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كان رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ، يقرأُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ثمَّ يَقِفُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ثمَّ يَقِفُ. وكان يَقْرَأُهَا: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾»[3].

وفي روايةٍ أخرى ـ قالت أمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: «يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً[4]»[5].

---

(١) انظر: الآداب الشرعية (١/ ٢٨١). (٢) الأذكار (ص١٠٦٣).

(٣) رواه الترمذي (٥/ ١٨٥) (ح٢٩٢٧) واللَّفظ له. والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٥٢) (ح٢٩١٠)، وقال: «حديث صحيح على شرط الشّيخين، ولم يخرجاه. وله شاهد بإسناد صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه».
وصحّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ١٣) (ح٢٣٣٦).

(٤) أي: يقف عند كلِّ آية. انظر: عون المعبود (١١/ ٢٤).

(٥) رواه أبو داود (٤/ ٣٧) (ح٤٠٠١)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٧٥٦) (ح٣٣٧٩).

فالوقوف على رؤوس الآي من كمال القراءة، ولو تلا بِضْعَ آياتٍ بنَفَسٍ واحد صحَّ وجاز[١].

٢١ ـ من السُّنَّة: أن يُسبِّح عند آية التَّسبيح، ويتعوَّذ عند آية العذاب، ويسأل عند آية الرَّحمة:

ودليل ذلك ما ورد في حديث حذيفة ﷺ وصلاته مع رسول الله ﷺ ـ قال: «... ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ...» الحديث[٢].

قال النَّووي ﷺ: «فيه استحباب هذه الأمور لكلِّ قارئ في الصَّلاة وغيرها، ومذهبُنا استحبابه للإمام والمأموم والمنفرد»[٣].

بل هذا مذهب جماهير أهل العلم ـ رحمهم الله ـ أنَّ هذا السُّؤال والاستعاذة والتَّسبيح مستحبٌّ لكلِّ قارئ سواء كان في الصَّلاة أم في خارجها.

وخالف في ذلك أبو حنيفة ﷺ، فقال: يُكره ذلك في الصَّلاة، والصَّواب قول الجمهور[٤].

قال الحسين بن علي الكرابيسيّ[٥] ﷺ: «بِتُّ مع الشَّافعي غير ليلة، فكان يصلِّي نحو ثلث اللَّيل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة، وكان لا يمرُّ بآية رحمة إلَّا سأل الله لنفسه وللمؤمنين أجمعين، ولا يمرُّ بآية عذاب إلَّا تعوَّذ منها وسأل النَّجاة لنفسه ولجميع المسلمين. قال: فكأنَّما جُمِعَ له الرَّجاء

---

(١) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص٤٩١).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة اللَّيل (١/ ٥٣٦) (ح٧٧٢).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٦٢).

(٤) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص١١٩).

(٥) هو الحسين بن علي بن يزيد الكرابيسيّ، البغداديّ (أبو علي) الفقيه، صاحب الشَّافعي، قال ابن حجر ﷺ: «صدوقٌ، فاضلٌ، تكلَّم فيه أحمد لمسألة اللفظ». كان من بحور العلم، ذكيّاً، فطِناً، فصيحاً لَسِناً. وقع بينه وبين الإمام أحمد هجران بسبب مسألة التَّلفُّظ بالقرآن، فهجَرَه لذلك العلماء. توفِّي سنة (٢٤٨هـ).
انظر: تقريب التَّهذيب (١/ ١٦٧)؛ سير أعلام النُّبلاء (١٢/ ٧٩ ـ ٨٢).

والرَّهبة جميعاً»(١).

٢٢ ـ من السُّنَّة: الإمساك عن القراءة عند غلبة النُّعاس:

* والأصل فيه: ما جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ، فَاسْتَعْجَمَ القُرآنُ(٢) على لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ ما يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ»(٣).

* وعلَّة الإمساك عن القراءة: بيّنها النَّبيُّ ﷺ في حديث عائشة ﵂ ـ حيث قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلاةِ، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ. فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ، لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ(٤) فَيَسُبُّ نَفْسَهُ»(٥).

وهو إرشاد لطيف منه ﷺ، وفيه تتبيّن سماحة الإسلام ويُسر تكاليفه، وفيه درء مفسدة عظيمة عن قارئ القرآن، أو المصلّي حتّى لا يدعو على نفسه من حيث أراد الخير وهو لا يشعر بذلك، وفيه صيانة للقرآن الكريم عن الهذْرمَة والكلام المعجم(٦).

٢٣ ـ من السُّنَّة: السُّجود عند المرور بآية سجدة:

من آداب تلاوة القرآن أن يسجد عند تلاوة الآيات التي فيها سجود اقتداءً بالنَّبيِّ ﷺ، سواءٌ كان الوقتُ وقت نهيٍ أم غيره؛ لأنّ سجود التّلاوة من ذوات الأسباب.

---

(١) تهذيب الكمال (٢٤/ ٣٧٦)؛ تاريخ بغداد (٢/ ٦٣)؛ تاريخ مدينة دمشق (٥١/ ٣٩١)؛ تاريخ الإسلام (١٤/ ٣٠٩)؛ سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٥).

(٢) (فَاسْتَعْجَمَ القُرآنُ): أي استغلق ولم ينْطقْ به لسانُه؛ لغلبة النُّعاس. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٧٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: أمْرُ منْ نعس في صلاته، أو استعجم عليه القرآن، أو الذِّكر بأن يرقد (١/ ٥٤٣) (ح٧٨٧).

(٤) (يسْتغْفِرُ) معنى يستغفر هنا: يدعو. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٧٤).

(٥) رواه مسلم، الكتاب والباب نفسهما (١/ ٥٤٢) (ح٧٨٦).

(٦) انظر: كتاب الاداب (ص٣٣).

فضائل سجود التّلاوة:

ممَّا ورد في فضائل سجود التّلاوة: ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ؛ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ[١] فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي. يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ[٢]. (وَفِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ: يَا وَيْلِي). أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنَّةُ. وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ»[٣].

الذِّكر الوارد في سجود التّلاوة:

ممَّا ورد عن النّبيّ ﷺ في سجود التّلاوة ما يلي:

* ما جاء عن عائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: كان رَسُولُ اللهِ ﷺ، يَقُولُ فِي سُجُودِ القُرْآنِ بِاللَّيلِ، يَقُولُ فِي السَّجْدَةِ مِرَاراً: «سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ»[٤].

* وفي حديث ابنِ عبّاسٍ ﷺ، مرفوعاً: «اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْراً، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْراً، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْراً، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ»[٥].

---

(١) (إِذَا قَرَأَ ابنُ آدَمَ السَّجْدَةَ) معناه: آية السّجدة.

(٢) (يَا وَيْلَهُ): قال النّووي ﷺ: «هو من أدب الكلام. وهو أنّه إذا عَرَضَ في الحكاية عن الغير ما فيه سوء، واقتضت الحكاية رجوع الضّمير إلى المتكلّم، صَرَفَ الحاكي الضّميرَ عن نَفْسِه تصاوناً عن صورة إضافة السُّوء إلى نَفْسِه».
«صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/ ٧١).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر على منْ ترك الصّلاة (١/ ٨٧) (ح٨١).

(٤) رواه أبو داود (٢/ ٦٠) (ح١٤١٤) واللفظ له. وابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٢٨٣) (ح٥٦٣)؛ والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٤٢) (ح٨٠٢)، وقال: «صحيح على شرط الشّيخين، ولم يخرجاه» ووافقه الذّهبي.
وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٦٥) (ح١٢٥٥).

(٥) رواه الترمذي (٢/ ٤٧٢) (ح٥٧٩) واللّفظ له. وابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٢٨٢) (ح٥٦٢)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٦/ ٤٧٣) (ح٢٧٦٨)؛ والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٤١) (ح٧٩٩) وقال: «حديث صحيح، رواته مكّيُّون، لم يُذكر واحد منهم بجرح، وهو من شرط الصّحيح، ولم يخرجاه» ووافقه الذّهبي.

* وفي حديث عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ، مرفوعاً: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ»(١).

حُكْم سجود التِّلاوة:

١ - جمهور أهل العلم على أنَّ سجود التِّلاوة مستحبٌّ وليس بواجب، على اختلافٍ بينهم في أعداد هذه الآيات التي يُسجد عندها.

ودليل سُنِّيَّةِ سجود التِّلاوة:

* ما جاء عن زيدِ بنِ ثَابِتٍ ﷺ قال: «قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾. فَلَمْ يَسْجُدْ فِيهَا»(٢).

* وكذلك فَعَلَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ ﷺ: أنَّه قَرَأَ يَوْمَ الجُمُعَةِ عَلَى المِنْبَرِ بِسُورَةِ النَّحْلِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ، وَسَجَدَ النَّاسُ، حَتَّى إِذَا كَانَتِ الجُمُعَةُ القَابِلَةُ، قَرَأَ بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءَ السَّجْدَةَ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا نَمُرُّ بِالسُّجُودِ، فَمَنْ سَجَدَ فَقَدْ أَصَابَ، وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ». وَلَمْ يَسْجُدْ عُمَرُ ﷺ.

وَزَادَ نَافِعٌ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَفْرِضِ السُّجُودَ إِلَّا أَنْ نَشَاءَ»(٣).

٢ - وذهب أبو حنيفة ﷺ إلى أنَّ سجود التِّلاوة واجب.

ودليل وجوبه: قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الإنشقاق: ٢٠ - ٢١].

= وحسّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١/ ١٨٠) (ح٤٧٣).

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدُّعاء في صلاة اللَّيل وقيامه (١/ ٥٣٥) (ح٧٧١).

(٢) رواه البخاري، كتاب سجود القرآن، باب: مَنْ قرأ السَّجدة ولم يسجد (١/ ٣٢٢) (ح١٠٧٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب سجود القرآن، باب: مَنْ رأى أنَّ الله ﷻ لم يُوجب السُّجود (١/ ٣٢٣) (ح١٠٧٧).

وَرَدَّ النَّووي رحمه الله على ما استدلَّ به أبو حنيفة قائلاً: «وأمّا الجواب عن الآية التي احتجَّ بها أبو حنيفة رحمه الله فظاهر؛ لأنَّ المراد ذمُّهم على ترك السُّجود تكذيباً، كما قال تعالى بعده: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢]»[١].

سجود المستمع تبعاً لسجود القارئ:

مَنِ استمع إلى قارئ، فقرأ آيةً فيها سجدة، فالمستحبُّ ألا يسجدَ هذا المستمع حتى يسجد القارئ؛ لأنه بمثابة الإمام في هذا السُّجود.

ودليل ذلك:

* ما جاء عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ عَلَيْنَا السُّورَةَ فِيهَا السَّجْدَةُ، فَيَسْجُدُ وَنَسْجُدُ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُنَا مَوْضِعَ جَبْهَتِهِ»[٢].

* وقال ابنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه لِتَمِيمِ بْنِ حَذْلَمٍ[٣] ـ وَهُوَ غُلَامٌ ـ فَقَرَأَ عَلَيْهِ سَجْدَةً، فَقَالَ: «اسْجُدْ، فَإِنَّكَ إِمَامُنَا فِيهَا»[٤].

قال النّووي رحمه الله: «إذا سجد المستمعُ مع القارئ، لا يرتبط به، وله الرَّفع من السُّجود قبله»[٥].

---

(١) التبيان في آداب حملة القران (ص١٧١).

(٢) رواه البخاري، كتاب سجود القرآن، باب: مَنْ سجد لسجود القارئ (١/ ٣٢٣) (ح١٠٧٥).

(٣) هو تميم بن حذلم الضبي، الكوفي (أبو سلمة) قال ابن حجر رحمه الله: «ثقةٌ، من الثانية». أدرك الجاهلية، ووفد في عهد أبي بكر رضي الله عنه. من أصحاب عبد الله بن مسعود، أدرك أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وسمع منهما.
انظر: تقريب التهذيب (١/ ١٣٠)؛ الإصابة في تمييز الصّحابة (١/ ٣٧٧).

(٤) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم، كتاب سجود القرآن، باب: مَنْ سجد لسجود القارئ (١/ ٣٢٣)، قال ابن حجر رحمه الله: «هذا الأثر وصله سعيد بن منصور، من رواية مغيرة عن إبراهيم... وقد رُوي مرفوعاً، أخرجه ابن أبي شيبة من رواية ابن عجلان عن زيد ابن أسلم... ورجاله ثقاتٌ إلا أنّه مُرسلٌ». «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٢/ ٧١٨).
وانظر: تغليق التّعليق، لابن حجر (٢/ ٤١٠)؛ مصنف ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٩) (رقم ٤٣٦٣)؛ المراسيل، لأبي داود (١/ ١١٢).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٨٢).

لا يلزم السَّامع أن يسجد مع القارئ:

* عن سعيد بن المسيَّب رحمه الله أنَّ عثمانَ رضي الله عنه مَرَّ بقاصٍّ فقرأ سجدةً ليَسْجُدَ معه عثمانُ، فقال عثمانُ رضي الله عنه: «إنّما السُّجودُ على مَنِ اسْتَمَعَ، ثمّ مَضَى ولم يَسْجُدْ»[١].

قال الكرماني رحمه الله: «والفرق بينهما: أنَّ المستمع: منْ كان قاصداً للسّماع مُصغياً إليه. والسَّامع: مَنِ اتُّفِقَ سماعه من غير قَصْدٍ إليه»[٢].

* وعن أبي عبد الرّحمن السُّلَمي قال: مرَّ سلمانُ رضي الله عنه على قومٍ قُعود فقرؤوا السّجدةَ فسجدوا، فقيل له؟ فقال: «ليس لهذا غَدَونا»[٣].

«أي: ما غدونا لأجل السماع، فكأنَّه أراد بيان أنَّا لم نسجد؛ لأنَّا ما كنّا قاصدين السّماع»[٤].

٢٤ ـ القَدْر المستحبُّ في خَتْم القرآن:

وردت عدَّة أحاديث في مدَّة ختم القرآن، فأقلُّ ذلك ثلاثة أيّام، وأوسطه سبعة أيّام أو عشرة، وأكثره قيل: أربعون يوماً. وقيل: في السَّنة مرّتين؛ وذلك لأنَّ النّبيّ ﷺ عَرَض على جبريل عليه السلام في السَّنة التي قُبض فيها مرّتين[٥].

ومن هذه الأحاديث:

* ما رواه عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال: كُنْتُ أَصُومُ الدَّهْرَ، وَأَقْرَأُ القُرآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ، فقال لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ القُرآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟»** فَقُلْتُ: بَلَى. يَا نَبِيَّ اللهِ! وَلَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الخَيْرَ ـ ثُمّ أَخْبَرهُ عن الصِّيام ـ ثُمّ قال رَسُولُ الله ﷺ: **«وَاقْرَإِ القُرآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ[٦]»**. قَالَ: قُلْتُ: يَا

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٣/ ٣٤٤) (رقم ٥٩٠٦).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٧/ ١٠٨).

(٣) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٣/ ٣٤٥) (رقم ٥٩٠٩). قال ابن حجر رحمه الله: «وإسناده صحيح». «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٢/ ٥٥٨) وانظر: صحيح البخاري (١/ ٣٦٥)؛ ومصنف ابن أبي شيبة (١/ ٣٦٧) (رقم ٤٢٢٣).

(٤) المصدر السابق (٧/ ١٠٨).

(٥) انظر: الإتقان في علوم القرآن (ص٢٦٠).

(٦) أي: اختمه.

نبيَّ الله! إنِّي أُطِيقُ أفضلَ مِنْ ذلِكَ. قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِينَ». قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! إنِّي أُطِيقُ أفضلَ مِنْ ذلِكَ. قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ». قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! إنِّي أُطِيقُ أفضلَ مِنْ ذلِكَ. قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ، وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ»(١).

* وعن عَبْدِ الله بنِ عَمْرٍو: أنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فِي كَمْ يُقْرَأُ القُرْآنَ؟ قَالَ: «فِي أَرْبَعِينَ يَوْماً»، ثُمَّ قَالَ: «فِي شَهْرٍ»، ثُمَّ قَالَ: «فِي عِشْرِينَ»، ثُمَّ قَالَ: «فِي خَمْسَ عَشْرَةَ»، ثُمَّ قَالَ: «فِي عَشْرٍ»، ثُمَّ قَالَ «فِي سَبْعٍ»(٢).

ولذلك قال إسحاق بن إبراهيم ﵀: «ولا نحبُّ للرَّجل أن يأتي عليه أكثر من أربعين يوماً ولم يقرأ القرآن؛ لهذا الحديث»(٣).

* وعنْ عبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو أنَّه قال: يا رَسُولَ اللهِ، في كَمْ أَقْرَأُ القُرْآنَ؟ قال: «فِي شَهْرٍ» قال: إنِّي أقْوَى منْ ذَلِك، وتَنَاقَصَهُ حتَّى قال: «اقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ» قال: إنِّي أقْوَى مِنْ ذلِكَ، قال: «لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ»(٤).

«وهذا نصٌّ صريحٌ في أنه لا يُختم القرآن في أقلَّ من ثلاثة أيام»(٥).

علَّة النَّهي عن الخَتْم في أقلَّ من ثلاث:

علَّل النَّبيُّ ﷺ ذلك بعلَّتين:

الأولى: عدمُ الفقه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: في كَمْ يُقْرَأُ القرآن (٣/ ١٦٢٧) (ح٥٠٥٤)؛ ومسلم، واللَّفظ له، كتاب الصِّيام، باب: النَّهي عن صوم الدَّهر... (٢/ ٨١٣) (ح١١٥٩).

(٢) رواه أبو داود (٢/ ٥٦) (ح١٣٩٥)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٦٢) (ح١٢٤٣).

(٣) أورده الترمذي عقب حديث رقم: (٢٩٤٦) (٥/ ١٩٦).

(٤) رواه أبو داود (٢/ ٥٤) (ح١٣٩٠)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٦١) (ح١٢٣٩).

(٥) عون المعبود (٤/ ١٨٧).

الثّانية: قولُه لعبدِ الله بنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: «فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[١].

فالرَّجل عليه مسؤوليَّة تجاه أسرته ومنزله وضيفه، وكذلك عليه الرِّفق بنفسه، وخَتْمُ القرآن في أقلَّ من ثلاث على حساب ذلك غالباً.

بل هناك وظائفُ شرعيَّة أخرى كالجهاد، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والدَّعوة إلى الله، وإصلاح النَّاس، والتي هي من فروض الكفاية، ومن أفضل الأعمال الصَّالحة، والأمَّة لا تستغني عن جهود أبنائها في ذلك.

ففي التَّفرُّغ لتلاوة القرآن على هذا النَّحو تعطيلٌ لهذه الوظائف، خاصَّة في هذا العصر[٢]. ولتبقى ـ أيضاً ـ في النَّفس بقيَّةٌ من الطَّاقة ننجز بها مبادئ القرآن.

هدي النَّبيِّ ﷺ في خَتْم القرآن:

لم يَثْبت عنه ﷺ أنه قرأ القرآنَ كلَّه في ليلة، ولم يقرأه كذلك في أقلَّ من ثلاث:

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «...وَلَا أَعْلَمُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ ...»[٣].

* وعنها رضي الله عنها قالت: «كَانَ ﷺ لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ»[٤].

قال الألبانيُّ[٥] رحمه الله: «خَتْمُ القرآنِ في أقلَّ من ثلاثٍ خِلافُ

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٨١٣) (ح١١٥٩) وقد تقدَّم تخريجه قريباً.

(٢) تحزيب القرآن، لمحمد بن عبد الله الدويش، مجلة البيان (عدد: ٤٢) (صفر ١٤١٢هـ) (ص٥١ ـ ٥٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة اللَّيل (١/ ٥١٤) (ح٧٤٦).

(٤) رواه ابن سعد في «الطَّبقات الكبرى» (١/ ٣٧٦)؛ وأبو الشَّيخ في «أخلاق النَّبيِّ ﷺ» (ص٢٨١)؛ وأورده الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٥/ ٦٠٠) (ح٢٤٦٦) وقال عن إسناده: «وهذا إسنادٌ فيه ضعف... لكن يشهد للحديث: (نَهْيُه ﷺ عبدَ اللهِ بنَ عَمْرٍو أن يقرأ القرآن في أقلَّ من ثلاث)، وقولُه ﷺ: «مَنْ قرأ القرآنَ في أقلَّ من ثلاثٍ لَمْ يَفْقَهْهُ»؛ واحتجَّ به في «صفة الصَّلاة» (ص١٢٠)؛ وصحَّحه في «صحيح الجامع» (٢/ ٨٧٨) (ح٤٨٦٦).

(٥) هو المحدِّث محمد ناصر الدِّين بن نوح الألباني نسبةً إلى أصله، من علماء الحديث المعاصرين المشهورين، ولد في أشقودره ـ عاصمة ألبانيا ـ سنة (١٣٣٣هـ) والده كان

السُّنَّة»[١]. ونحن متعبِّدون باتِّباع سُنَّتِه ﷺ وهديه، الموصل إلى رضوان الله ومحبّته، مع ما نُكِنُّه - في نفوسنا - من تقديرٍ وإكبار وإجلال لسلف الأمّة.

ولمّا ذَكَر النّووي رحمه الله عادات السلف في خَتْم القرآن الكريم، وذَكر مَنْ كان يختمه في سَبْعٍ قال: «وهذا فِعْلُ الأكثرين من السّلف»[٢].

ومِثْلُه قال السُّيُوطي رحمه الله: «وهذا أوسطُ الأمور وأحسنُها، وهو فِعْلُ الأكثر من الصَّحابة وغيرِهم»[٣].

تخريج فِعْلِ مَنْ خَتَم القرآن في أقلَّ من ثلاث:

وردت آثار في خَتْم القرآن عن بعض السّلف الصّالح من الصَّحابة وتابعيهم في ختمهم في أقلَّ من ثلاثة أيّام، كعثمان بن عفّان رضي الله عنه، حيث قرأ القرآن في ركعة يُوتر بها، ورُوي عن تميم الدّاري رضي الله عنه، وسعيد بن جُبير رحمه الله أنّهما ختما القرآن في ركعة في جوف الكعبة، وغيرهم من العلماء والصّالحين[٤].

فهذا وأمثالُه يُحمل على ما ذَكره ابن كثير رحمه الله حيث قال: «فهذا وأمثالُه من الصّحيح عن السّلف محمولٌ: إمّا على أنّه ما بلغهم في ذلك حديث ممّا تقدّم[٥]، أو أنّهم كانوا يفهمون ويتفكّرون فيما يقرؤونه مع هذه السُّرعة»[٦]، أو أنّ ذلك كان في فترة حماسٍ وكثرة نشاطٍ، أو وقتٍ فاضلٍ كرمضان ونحوه، فأرادوا استثماره لا أن يكون ذلك عادةً لهم في سائر العمر.

= عالماً في المذهب الحنفي، وقد فرّت أسرته بدينها من حُكم الملك أحمد زوغو، واستقرّت في دمشق، وفيها تلقّى العلومَ الشّرعية، بالإضافة إلى أخذه عن والده، ثمّ إنّه عكف على دراسة الحديث النّبوي فبرز فيه آخذاً بالمذهب السّلفي، وله أكثر من مائة كتاب، توفّي في مدينة عمّان سنة (١٤٢٠هـ).

انظر: إتمام الأعلام، د. نزار أباظة ومحمد رياض المالح (ص٤١٦).

(١) السلسلة الصحيحة (٥/ ٦٠٠). (٢) الأذكار (ص١٥٣).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (ص٢٥٩).

(٤) انظر: سنن الترمذي (٥/ ٩١٩٦)، عقب حديث رقم: (٢٩٤٦).

(٥) وهو الذي اختاره الألبانيّ رحمه الله فقال: «ولا يُشكل على هذا ما ثبت عن بعض السّلف ممّا هو خلاف هذه السُّنّة الصّحيحة، فإنّ الظّاهر أنّها لم تَبْلُغهم».

«السّلسلة الصحيحة» (٥/ ٦٠١).

(٦) فضائل القرآن (ص٢٦٠).

ولذلك قال ابن رجبٍ ﷺ: «إنَّما ورد النَّهي عن قراءة القرآن في أقلَّ من ثلاثٍ على المداومة على ذلك، فأمَّا في الأوقات الفاضلة كشهر رمضان، خصوصاً اللَّيالي التي تُطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المُفضَّلة كمكَّة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحبُّ الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتناماً لفضيلة الزَّمان والمكان، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمَّة، وعليه يدلُّ عمل غيرهم»[١].

وقال النَّووي ﷺ: «وقد كَره جماعةٌ من المتقدِّمين الخَتْمَ في يومٍ وليلة»[٢].

وقال الألبانيُّ ﷺ: «أحسنَ الإمام التِّرمذي برواية هذا الخبر، والذي بعده (خبر عثمان بن عفَّان، وسعيد بن جُبير) بصيغة التَّضعيف؛ لأنَّ الرَّكعة مهما طالت لا يمكن أن يُقرأ فيها القرآن الكريم كاملاً، فضلاً عمَّا في ذلك من مخالفةٍ لسنَّة رسول الله ﷺ في الرُّكوع والسُّجود والقيام، وحاشا لسيِّدنا عثمان أن يفعل مثل ذلك»[٣].

الجَمْع بين رواية (السَّبْع) ورواية (الثَّلاث) في الخَتْم:

قد يُشكل على البعض ورود بعض الأحاديث ـ في تحديد مدَّة ختم القرآن ـ بسبعة أيام، وبعضها بثلاثة أيام. ولإزالة هذا الإشكال المُتوقَّع، من المناسب جداً أن أُوردَ كلاماً نَفيساً لابن تيميَّة ﷺ، حيث قال في هذا الشَّأن: «وأمَّا رواية مَنْ روى: (مَنْ قرأ القرآنَ في أقلَّ من ثلاثٍ لم يفقه) فلا تُنافِي رِوايةَ التسبيع، فإنَّ هذا ليس أمراً لعبدِ الله بنِ عَمْرٍو، ولا فيه أنَّه جَعلَ قراءته في ثلاثٍ دائماً سُنَّة مشروعة، وإنَّما فيه الإخبار بأنَّ مَنْ قرأه في أقلَّ من ثلاثٍ لم يفقه، ومفهومُه مفهومُ العدد، وهو مفهومٌ صحيح، أنَّ مَنْ قرأه في ثلاثٍ فصاعداً فَحُكْمُه نقيضُ ذلك، والتَّناقض يكون بالمخالفة، ولو من بعض الوجوه.

فإذا كان مَنْ يقرؤه في ثلاثٍ أحياناً قد يفقهه حَصَلَ مقصودُ الحديث، ولا

---

(١) لطائف المعارف (ص١٦٦).
(٢) الأذكار (ص١٥٤).
(٣) ضعيف سنن الترمذي (ص٣٥٧).

يلزم إذا شُرِعَ فِعْلُ ذلك أحياناً لبعض النَّاس أن تكون المداومةُ على ذلك مُستحبَّة؛ ولهذا لم يُعلم في الصَّحابة على عهده مَنْ دَاوَمَ على ذلك، أعني على قراءته دائماً فيما دون السُّبْع، ولهذا كان الإمامُ أحمدُ ﷺ يقرؤه في كلِّ سَبْعٍ»[١].

التَّفصيل الحَسَن في مقدار الخَتْم:

ذَكَر بعض المحقِّقين من أهل العلم قواعدَ وضوابط عامَّة في مسألة ختم القرآن الكريم، وفصَّلوا في ذلك بما يتناسب وحال القارئ، من جهة الأعباء والمسؤوليَّات الملقاة على عاتقه، وقدراته العلميَّة، والوقت المُهيَّأ له للقراءة، وغير ذلك من الأمور، وممَّا جاء في ذلك: ما ذَكَره الغزاليُّ ﷺ حيث قال: «ففي الختم أربع درجات: الختم في يوم وليلة، وقد كَرِهَهُ جماعة، والختم في كلِّ شهر، كلَّ يوم جزء من ثلاثين جزءاً، وكأنَّه مبالغةٌ في الاقتصار، كما أنَّ الأوَّل مبالغةٌ في الاستكثار، وبينهما درجتان معتدلتان: إحداهما: في الأسبوع مرَّة، والثَّانية: في الأسبوع مرَّتين، تقريباً من الثُّلاث...

والتَّفصيل في مقدار القراءة: أنَّه إنْ كان من العابدين السَّالكين طريق العمل، فلا ينبغي أن يُنْقِصَ عن ختمتين في الأسبوع، وإنْ كان من السَّالكين بأعمال القلب وضروب الفِكْر، أو من المشتغلين بِنَشْر العلم، فلا بأس أن يَقْتصر في الأسبوع على مرَّة، وإنْ كان نافِذَ الفِكْر في معاني القرآن، فقد يكتفي في الشَّهر بمرَّة؛ لكثرة حاجته إلى كثرة التَّرديد والتَّأمُّل»[٢].

ثمَّ أُثنِّي بما قاله النَّووي ﷺ حيث قال: «والمختار: أنَّ ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمَنْ كان يَظْهر له بدقيق الفِكْر لطائفُ ومعارف، فَلْيقتصر على قَدْرٍ يَحْصُلُ له كمالُ فَهْمِ ما يقرأ، وكذا مَنْ كان مشغولاً بنَشْرِ العلم، أو فَصْلِ الحكومات بين المسلمين، أو غير ذلك من مهمَّات الدِّين والمصالح العامَّة للمسلمين، فَلْيقتصر على قَدْرٍ لا يحصل له بسببه إخلالٌ بما هو مرصدٌ له، ولا فوت كماله، ومَنْ لم يكن من هؤلاء المذكورين فَلْيستكثر ما أمكنه، من غير

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/٤٠٧).
(٢) إحياء علوم الدين (١/٢٧٦).

خروجٍ إلى حدِّ المَلَل أو الهَذْرمة في القراءة»[١].

وأختم بما جاء في (مختصر منهاج القاصدين): «ومنهم ـ يعني السَّلف ـ مَنْ كان يختم في ثلاث، ومنهم مَنْ كان يختم في أسبوع، ومنهم مَنْ كان يختم في كلِّ شهر، اشتغالاً بالتَّدبُّر أو بنشر العلم، أو بتعليمه، أو بنوعٍ من التَّعبُّد غير القراءة، أو بغيره من اكتساب الدُّنيا.

وأولى الأمر: ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المُهمَّة، ولا يُؤذيه في بدنه، ولا يفوت معه التَّرتيل والفَهم»[٢].

٢٥ ـ مشروعيَّة «تحزيب القرآن»:

تحزيب القرآن من السُّنن المهجورة ـ بل المجهولة ـ عند كثير من طلَّاب العلم، فَضْلاً عن عامَّة النَّاس. في حين كان الأمر متواتراً ومعلوماً عند السَّلف الصَّالح، فقلَّما نقرأ في ترجمة أحدهم إلَّا ونجد أنَّه كان يختم القرآن في كذا وكذا[٣].

تعريف «الحِزْب»:

قال ابن فارس رحمه الله: «الحاء والزَّاء والباء أصلٌ واحد، وهو تجمُّع الشَّيء. فمن ذلك: الحِزْبُ: الجماعة من النَّاس، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]. والطَّائفة من كلِّ شيءٍ حِزْبٌ»[٤].

وقال ابن الأثير رحمه الله: «الحِزْبُ: ما يجعله الرَّجل على نفسه من قراءةٍ، أو صلاةٍ، كالوِرْد. والحِزْبُ: النَّوبةُ في وُرُود الماء»[٥].

ومعنى ذلك: أن يجعل المسلم لنفسه نصيباً يوميّاً يقرؤه ويتعاهد نفسَه عليه، بحيث يختم القرآن في كلِّ أربعين يوماً، أو في شهر، أو عشرين يوماً، أو خمسة عشر، أو عشرة، أو سبعة، أو غير ذلك.

---

(١) الأذكار (ص١٥٤).

(٢) مختصر منهاج القاصدين، لأحمد بن محمد المقدسي (ص٥٥).

(٣) انظر: تحزيب القرآن (ص٤٠).

(٤) معجم مقاييس اللغة (١/ ٢٩١)، مادة: (حزب).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٧٦)، مادة: (حزب).

* والأصل في مشروعيَّة «تحزيب القرآن»: الرِّوايات المتقدِّمة في حديث عبد الله بن عمرٍو ﭭ. وتقدَّم أيضاً أنَّ أكثر السَّلف الصَّالح يختمون القرآن في (سَبْع).

* وجاء تحديد هذا التَّحزيب في قول أوْس بن حذيفةَ الثَّقفي ﭬ: «سَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: كَيْفَ تُحَزِّبُونَ[1] القُرآنَ؟». قالُوا: «ثَلَاثٌ، وخَمْسٌ، وَسَبْعٌ، وَتِسْعٌ، وَإِحْدَى عَشْرَةَ، وثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَحِزْبُ المُفَصَّلِ وَحْدَهُ»[2].

وفي (عون المعبود) في شرح الحديث: «(كيف تُحَزِّبون القرآنَ): كيف تجعلونه المنازل. والحِزْب: هو ما يجعله الرَّجل على نفسه من قراءة. (قالُوا: ثَلَاثٌ) أي البقرة، وآل عمران، والنِّساء. فهذه السُّوَر الثَّلاثة مَنْزِل واحدٌ من سَبْعِ منازل القرآن. (وَخَمْسٌ) مِنَ المائدة إلى البراءة. (وسَبْعٌ) من يُونُس إلى النَّحل. (وتِسْعٌ) من بني إسرائيل إلى الفرقان. (وإِحْدَى عَشْرَةَ) من الشُّعراء إلى يس. (وثَلَاثَ عَشْرَةَ) من الصَّافات إلى الحجرات.(وحِزْبُ المُفَصَّلِ وَحْدَهُ) من قاف إلى آخر القرآن. فعُلِمَ من هذا أنَّ في عصر الصَّحابة كان ترتيبُ القرآن مشهوراً على هذا النَّمط المعروف الآن»[3].

التَّحزيب بالسُّوَر لا بالأجزاء:

تحدَّث ابن تيميَّة ﵀ عن هذه المسألة بإسهاب، واختار أنَّ التَّحزيب

(١) (تُحزِّبون): من التَّحزيب: وهو تجزئة القرآن، واتِّخاذُ كلِّ جزءٍ حزباً له.

(٢) رواه أبو داود (٢/ ٥٥) (ح١٣٩٣)، واللَّفظ له. وابن ماجه (١/ ٤٢٧) (ح١٣٤٥)؛ وأحمد في «المسند» (٤/ ٩) (ح١٦٢١١). وفي سنده: عثمان بن عبد الله ابن أوس الثَّقفي. قال ابن حجر في «التَّقريب»: «مقبول». وقال الذَّهبي في «الميزان»: «محلُّه الصِّدق». وذكره ابن حبَّان في «الثِّقات». وحسَّنه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٧٦)؛ وابن حجر كما في «الفتوحات»، لابن علان (٣/ ٢٢٩)؛ واحتجَّ به ابن تيميَّة - في حديثه عن التَّحزيب، كما في «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٤٠٨ - ٤٠٩). وانظر: تخريج الأرناؤوط في «جامع الأصول» (٢/ ٤٧٥)، وتخريج الوادعي في «تفسير ابن كثير» (١/ ١٨)؛ وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (ص١٣٦) (ح٢٩٧)؛ و«ضعيف سنن ابن ماجه» (ص١٠٠) (ح٢٨٣).

(٣) (٤/ ١٩٠).

المشروع هو أن يكون بالسُّور وليس بالأجزاء، أو الأحزاب. وذلك للأمور الآتية:

أوَّلاً: أنَّ المنقول عن الصَّحابة ﷺ هو التَّحزيب بالسُّوَر، لا بالأجزاء، واستدلَّ لذلك بما جاء عن أوْسِ بن حذيفة الثَّقفي[١] ﷺ، وهذا يُوافقُ معنى حديث عبد الله بن عمرٍو ﷺ، في أنَّ المسنون عندهم قراءته في سَبْع، ولهذا جعلوه سبعةَ أحزابٍ، ولم يجعلوه ثلاثةً، ولا خمسةً[٢].

ثانياً: أنَّ الأجزاء والأحزاب مُحْدثة، وفي حديث أوْسٍ أنَّهم حزَّبوا القرآن بالسُّوَر، قال ابن تيميَّة ﷺ: «وهذا معلوم بالتَّواتر؛ فإنَّه قد عُلم أنَّ أول ما جُزِّئَ القرآنُ بالحروف تَجْزِئَةَ ثمانية وعشرين، وثلاثين، وستِّين. هذه التي تكون رؤوس الأجزاء والأحزاب في أثناء السُّورة، وأثناء القصَّة ونحو ذلك، كان في زمن الحجّاج وما بعده، ورُوِيَ أنَّ الحجَّاج أمرَ بذلك. ومن العراق فشا ذلك ولم يكن أهل المدينة يعرفون ذلك»[٣].

ثالثاً: أنَّ هذه التَّحزيبات المُحْدثة تتضمَّن - دائماً - الوَقْف على بعض الكلام المتَّصل بما بعده، وتتضمَّن أيضاً الوقف على المعطوف دون المعطوف عليه، ثمَّ يأتي القارئ - في اليوم الثَّاني - مبتدئاً بمعطوفٍ، كقولِه تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ...﴾ [النساء: ٢٤]. وقولِه تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ...﴾ [الأحزاب: ٣١]. وأمثال ذلك.

وتتضمَّن كذلك الوقف على بعض القصة دون بعض - حتى في كلام المتخاطبين - ثمَّ يحصل الابتداء - في اليوم الثَّاني - بكلام المجيب، كقولِه تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

ومثلُ هذه الوقوف لا يسوغ في المجلس الواحد إذا طال الفصل بينهما بأجنبي؛ ولهذا لو أُلحق بالكلام عطف، أو استثناء، أو شرط، ونحو ذلك - بعد طُول الفصْل بأجنبي - لم يَسُغْ ذلك بلا نزاع[٤].

---

(١) وقد تقدَّم تخريجه قريباً.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٤٠٨ - ٤٠٩).

(٣) المصدر نفسه (١٣/ ٤٠٩).

(٤) انظر: المصدر نفسه (١٣/ ٤١٠ - ٤١١).

رابعاً: أنَّ النبيَّ ﷺ كانت عادته الغالبة أن يقرأ ـ في الصَّلاة ـ بسورةٍ كاملة كـ «ق» ونحوها، وكذا عادة أصحابه ﷺ، فكان ابن عمر ﷺ يقرأ بـ «يونُس»، و«يوسُف»، و«النَّحل». وأمَّا القراءة بأواخر السُّوَر وأوساطها فلم يكن غالباً عليهم.

قال ابن تيميَّة ﷺ: «وإذا كان تحزيبه بالحروف إنَّما هو تقريب لا تحديد، كان ذلك من جنس تجزئته بالسُّوَر أيضاً تقريب، فإنَّ بعض الأسباع قد يكون أكثر من بعضٍ في الحروف، وفي ذلك من المصلحة العظيمة بقراءة الكلام المتَّصل بعضه ببعض، والافتتاح بما فَتَحَ اللهُ به السُّورة، والاختتام بما خَتَمَ به، وتكميل المقصود من كلِّ سورةٍ ما ليس في ذلك التَّحزيب.

وفيه أيضاً من زوال المفاسد الذي في ذلك التَّحزيب ما تقدَّم التَّنبيه على بعضها»[1].

وعلى كلِّ حال: لا يليقُ بطلَّاب العلم والدُّعاة إلى الله تعالى ـ الذين يحملون في صدورهم هَمَّ الإصلاح، والتَّغيير، ودعوة النَّاس للخير ـ ألَّا يكون لهم نصيب من كتاب الله تعالى يلتزمونه قلَّ أو كَثُر.

ومهما ادَّعى الواحد منهم كثرة المشاغل، فهي دعوى تحتاج إلى بيِّنه، وهو دليل على قلَّة اهتمامه بتزكية نفسه، والتَّزوُّد بالتَّقوى، فمتى كانت تلاوة القرآن، وإصلاح النَّفس، وعبادة الله ﷻ ممَّا لا يُفعل إلا وقت الفراغ؟[2].

ثمرات التَّحزيب:

* في التَّحزيب تحقيقٌ لهديه ﷺ في المداومة على العمل الصَّالح، وكان ﷺ يقول: «أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»[3]. وفيه تأسٍّ بالسَّلف الصَّالح ﷺ.

* وفيه أنَّ العبد يُكتب له حزبه إذا شَغَله عنه مرض، أو سفر؛ لقوله ﷺ:

---

(١) المصدر نفسه (١٣/ ٤١٤).   (٢) انظر: تحزيب القرآن (ص٥٣ ـ ٥٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدَّائم من قيام اللَّيل وغيره (١/ ٥٤١) (ح٧٨٣).

«إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيماً صَحِيحاً»[١].

* وفيه تعاهدٌ للقرآن العظيم، كما أمر بذلك رسولُ الله ﷺ: «تَعَاهَدُوا القُرآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّياً مِنَ الإِبِلِ مِنْ عُقُلِهَا»[٢].

٢٦ ـ مشروعيَّة «دعاء خَتْم القرآن»:

الأصل في دعاء ختم القرآن ما جاء عن أنس بن مالكٍ ﷺ أنّه: «كان إذا خَتَم القرآن جمع أهله فدعا»[٣]. وجاء مثل ذلك عن عدد من الصّحابة والتّابعين، فدعاء ختم القرآن مأثور من عمل السّلف الصّالح.

ولا يوجد دعاء بألفاظ مخصوصة عند ختم القرآن، وكثرة أدعية ختم القرآن المنتشرة والمتداولة بين النّاس ليست دليلاً على مشروعيّتها، وليس هناك نصٌّ مرفوع إلى النّبيّ ﷺ تقوم به حُجّة في التزام دعاءٍ يُقال عند ختم القرآن الكريم.

ومن أشهر الأدعية المنتشرة بين النّاس (دعاء ختم القرآن العظيم) لابن تيميّة، وهو منسوبٌ إليه، ولا يَصِحُّ نسبته إليه بحال[٤].

موضع دعاء الخَتْم خارج الصَّلاة:

لقد استقصى الشّيخ بكر أبو زيد ـ حفظه الله ـ مرويّات دعاء ختم القرآن، وأقوال أهلِ العلم فيها، بما قد لا يوجد في مكان آخر، وقال ـ في خلاصة ما توصّل إليه:

---

(١) رواه البخاري، كتابُ الجهادِ والسِّير، باب: يُكْتَبُ للْمُسافِرِ مثْلُ ما كان يعملُ في الإقامة (٢/ ٩٢١) (ح٢٩٩٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (٣/ ١٦٢١) (ح٥٠٣٣).

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (ص٢٧٩) (رقم ٨٠٩)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٢٨) (رقم ٣٠٠٣٨)؛ وابن نصر في «مختصر قيام الليل» (ص١٠٩)؛ والدارمي في «سننه» (٢/ ٥٦٠) (رقم ٣٤٧٤)؛ وسعيد بن منصور في «سننه» (١/ ١٤٠) (رقم ٢٧)؛ والطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ٢٤٢) (رقم ٦٧٤)؛ وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧٢): «رجاله ثقات» وقال ابن علّان في «شرح الأذكار» (٣/ ٢٤٤): «بإسناد الصّحيحين».

(٤) انظر: الأجزاء الحديثية، د. بكر بن عبد الله أبو زيد (ص٢٣٩).

«وعليه: فإنّ خلاصة النّتيجة الحُكْمية في هذين المقامين تتكوّن في أمرين:

الأول: أنّ دعاء القارئ لختم القرآن خارج الصَّلاة، وحضور الدُّعاء في ذلك، أمر مأثور من عمل السلف الصَّالح من صدْر هذه الأمة، . . .

الثاني: أنّ دعاء ختم القرآن في الصَّلاة، من إمامٍ أو منفردٍ، قبل الرُّكوع أو بعده، في (التّراويح) أو غيرها: لا يُعرف ورود شيءٍ فيه أصلاً عن النبّيّ ﷺ، ولا عن أحدٍ من صحابته مُسنداً. . .»[1].

أمور لا تُشرع عند الخَتْم:

ذكر الشيخ بكْر أبو زيد ـ حفظه الله ـ سبعة أمور تتعلّق بالختْم، لا يصحُّ فيها شيء عن النّبيّ ﷺ، ولا عن صحابته ﷺ، وهي على النّحو التَّالي:

١ ـ إكمال الختم وتتمّته. ومعناه: أن يقرأ المأموم ما فات الإمام من الآيات، وأن يُعيد الإمامُ ـ بعد الختم ـ ما فاته من الآيات.

٢ ـ استحباب ختمه في مساء الشّتاء، وصباح الصيف.

٣ ـ وَصْلُ ختمةٍ بأخرى بقراءة الفاتحة، وخمسِ آياتٍ من سورة البقرة.

٤ ـ تكْرار سورة الإخلاص ثلاثاً.

٥ ـ التَّكبير في آخر سورة الضُّحى إلى آخر سورة الناس داخل الصلاة وخارجها. ولم يثبت فيه شيء عن النبيّ ﷺ.

٦ ـ صيامُ يوم الختم.

٧ ـ دعاء الختم داخل الصَّلاة[2].

فكلُّ هذه الأمور وأمثالها ممَّا لا تقوم به حُجَّة، فالصّحيح عدم مشروعيتها.

---

(١) الأجزاء الحديثية (مجلد)، ضمن خمْس رسائل، منها: مرويات دعاء ختم القرآن الكريم (ص٢٩٠).

(٢) انظر: تصحيح الدُّعاء (ص٢٩٠ ـ ٢٩١).

المبحث الرابع

فضائل تلاوة القرآن

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التّلاوة تجارة رابحة.

المطلب الثاني: تَنَزُّل السّكينة والرّحمة والملائكة للتّلاوة.

المطلب الثالث: اغتباط صاحب التّلاوة.

المطلب الرابع: التّلاوة حلية لأهل الإيمان.

المطلب الخامس: التّلاوة كلُّها خير.

فضائل تلاوة القرآن

تمهيد:

كان رسولُ الله ﷺ يُكثر من تلاوة القرآن العظيم، فكان يقرؤه قائماً، وقاعداً، ومضطجعاً، ومتوضِّئاً، ومُحْدِثاً، وفي سيره وركوبه، وسائر أحواله.

وهذه مِن الأفعال التي كان يعملها رسولُ الله ﷺ أحياناً لبيان جوازها، ولكن يُؤخَذُ منها أنه ﷺ كان يقرأ القرآن في سائر أحواله.

وقد حَثَّ النبيُّ ﷺ أصحابَه على قراءة القرآن بصفة فرديَّة أو جماعيَّة، وفي البيوت، وفي المساجد.

وكان رسول الله ﷺ يدعو أصحابه إلى قراءة القرآن في الطُّرقات بلسان حاله، فنلحظ أنَّ آيات كثيرة نزلت عليه ﷺ في طريق سفره فكان يقرأ بها، وهي دعوةٌ غير مباشرة منه ﷺ إلى الاقتداء به في القراءة حتى في الطَّريق.

وأمَّا دعوتُه ﷺ إلى القراءة بِوِرْدٍ يومي، فنجدها في قوله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»(١).

وفي هذا دعوةٌ منه ﷺ إلى ملازمة الوِرْدِ اليومي من قراءة القرآن العظيم.

وَكُلُّ هذا يريد به ﷺ حَثَّ أُمَّتِه على الإكثار من قراءة القرآن الكريم؛ ليعيش معهم في كلِّ شؤون حياتهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً(٢).

وفضائِلُ تلاوة القرآن العظيم كثيرة ومباركة، تعود بالخير على صاحبها في الدُّنيا والآخرة، ولو يعلم المسلمون ما في التِّلاوة من الفضائل والمغانم لما

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: جامع صلاة اللّيل (١/ ٥١٥) (ح٧٤٧).

(٢) انظر: يعلمهم الكتاب التعامل مع القرآن الكريم (ص٤٢ ـ ٤٣).

تركوا كتابَ الله تعالى من بين أيديهم، يتلونه آناء اللّيل وأطراف النّهار، والحديثُ عن أهَمّ هذه الفضائل نجده في المطالب الآتية:

المطلب الأول

التلاوة تجارة رابحة

١ ـ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠]. فهذا ثناءٌ مِنَ اللهِ تعالى على قُرّاء القرآن العظيم.

قال القرطبي كَلَلله: «هذه هي آية القُرَّاءِ العامِلين العالِمين»[١]. فقد أخبر الله تبارك وتعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، مِنْ إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً أنهم يرجون عند الله تعالى ثواباً لا بد من حصوله.

وكان مُطَرِّفُ بْنُ عبد الله[٢] كَلَلله، إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القرّاء[٣].

ومعنى: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي يداومون على تلاوته وهي شأنهم وديدنهم، حتى صارت سِمَةً لهم وعنواناً[٤].

فهذا ثناءٌ من الله تعالى على قُرَّاءِ القرآن العظيم أنهم يستمرون على تلاوته ويداومون عليها، فهم يتلون ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتتبُّعها واستخراجها[٥].

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/٣٤٥).

(٢) هو مُطرِّفُ بن عبد الله بن الشِّخِّير (أبو عبد الله) الحرشيّ العامريّ البصريّ، أحد أئمة التّابعين، فقيهٌ، عابدٌ، مُجاب الدّعوة، له فضل وورع وعقل وأدب، قال العجلي: «كان ثقةً لم ينجُ بالبصرة من فتنة ابن الأشعث إلا هو وابن سيرين». توفي سنة (٩٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/١٨٧ ـ ١٩٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٥٦٧).

(٤) انظر: الكشاف (٣/ ٦٢١)؛ تفسير أبي السعود (٧/ ١٥١).

(٥) انظر: فتح القدير (٤/ ٣٤٨)؛ تفسير السعدي (٤/ ٢١٦).

فهؤلاء الصَّالحون، يرجون بأفعالهم الصَّالحة: ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: لن تكسد ولن تهلك.

يقال: بارت السُّوقُ إذا كَسَدَت، وبارَ الطَّعامُ إذا فَسد[١].

وجاءت صفة هذه التِّجارة الرّابحة بأنها: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أي: لن تهلك بالخسران أصلاً، للدِّلالة على أنها ليست كسائر التِّجارات الدُّنيوية الدَّائرة بين الرِّبح والخسران؛ لأنه اشتراءُ باقٍ بفانٍ، والإخبار بأنهم يرجون ذلك من أكرم الأكرمين، وَعْدٌ مقطوع ومضمون بحصول مَرْجُوّهم[٢].

فهذه تجارة منْ أجَلِّ التِّجارات، وأعلاها، وأفضلها، ألا وهي رضا الرّحمن جلّ جلالُه، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه[٣].

فهل مِنْ مُشَمِّرٍ إلى الجنَّة بالإكثار من تلاوة القرآن؛ فإنها تجارة رابحة ومضمونة عند أكرم الأكرمين القائل في كتابه العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

«ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: ليوفِّيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخْطُرْ لهم، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾، أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم»[٤].

فالله سبحانه وَعَدَ أهلَ القرآن العاملين به بعظيم الأجر وأن يزيدهم من لدنه تفضُّلاً وتكرُّماً، وهذه الزِّيادة لا يعلم مقدارها إلَّا اللهُ ذو الفضل العظيم.

٢ - عن عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»[٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٢)؛ تفسير السمرقندي (٢/ ٥٣٢).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٧/ ١٥١). (٣) انظر: تفسير السعدي (٤/ ٢١٧).
(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٦٧).
(٥) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر (٥/ ١٧٥) (ح٢٩١٠) وقال: «حسن صحيح غريب» وصحّحه الحاكم، ووافقه

وعن عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ ﷺ قال: «تَعَلَّمُوا هَذَا القُرْآنَ؛ فَإِنَّكُمْ تُؤْجَرُونَ بِتِلَاوَتِهِ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ وَلَكِنْ أَلِفٌ وَلَامٌ وَمِيمٌ».

وفي روايةٍ أُخرى أنه قال: «أَلِفٌ وَلَامٌ وَمِيمٌ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً»[1].

قال المباركفوري ﷺ: «والحرفُ يُطْلَقُ على حَرْفِ الهجاء، والمعاني، والجملة المفيدة، والكلمة المختلف في قراءتها، وعلى مُطلق الكلمة»[2].

ويشير هذا الحديث العظيم إلى عدة أمور:

أولاً: أنَّ في تلاوة كلِّ حرف من كتاب الله ﷻ عَشْرَ حسنات، وهذا هو أقلُّ التَّضاعف الموعود بقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ولاشكَّ أنَّ زيادة الأجر ومضاعفته تتناسب وحال القارئ من الإخلاص والخشوع والتَّدبر والتَّأدب مع كتاب الله تعالى.

ولذا قال أبو ذر ﷺ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ ﷻ: مَنْ جَاءَ بالحَسَنَةِ، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ. وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ، فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا. أَوْ أَغْفِرُ»[3].

= الذهبي. وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: (٣/ ٩) (ح٢٣٢٧)؛ «وصحيح الجامع»: (٢/ ١١٠٣) (ح٦٤٦٩).

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن»، باب: فضل قراءة القرآن والاستماع إليه (ص٢٥)، والدارمي في «سننه»، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل مَنْ قرأ القرآن (٢/ ٣٠٢) (رقم ٣٣٠٨)؛ والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٤٠) (رقم ٨٦٥٨)؛ والفريابي في «فضائل القرآن» (ص١٦٩) (رقم ٦٣)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه»، كتاب فضائل القرآن، باب: ثواب مَنْ قرأ حروف القرآن (١٠/ ٤٦٢) (رقم ٩٩٨٣).
وأورده الألباني في: «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٢٦٧) (رقم ٦٦٠).
وقال: د. إبراهيم علي السيد في كتابه «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم» (ص٤٠): «إسناده حسن، فيه عمر بن عبيد صدوق، وبقية رجاله ثقات».

(٢) تحفة الأحوذي (٨/ ١٨٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب الذِّكر والدُّعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الذِّكر والدُّعاء، والتقرب إلى الله (٤/ ٢٠٦٨) (ح٢٦٨٧).

قال النّووي رحمه الله: «معناه أنّ التضعيف بعشرة أمثالِها لا بد منه بِفَضلِ الله، ورحمته، ووعدِه الذي لا يُخلَف، والزِّيادة بعدُ بكثرة التّضعيف إلى سبعمائة ضعف، وإلى أضعاف كثيرة، يَحْصُلُ لبعض النّاس دون بعض على حَسَبِ مَشيئته تعالى»[١].

ولا نكاد نجد ذِكْراً ينال صاحبُه مِثل هذا الأجر به كما ينال مَنْ يتلو القرآن، فكم من الحسنات ينالها مَنْ قرأ سطراً أو وجهاً أو جزءاً من كتاب الله؟!

وإذا عَلِمنا أن الناس يتنازعون يوم القيامة على حسنة واحدة يُثقّلون بها موازينهم أدركنا عظمة هذا الأجر الذي ينتظر مَنْ يتلون كتاب الله حَقّ تلاوته.

فيا عجباً لهذا الطّالب الذي يستغرق ـ صابراً أو متصبّراً ـ في دراسة كتاب مقرّر عليه عشرات الساعات، وربما العديد من الأيّام والأسابيع، ثمّ يُعيده ويُلخّصه ويراجعه، وقد يحفظ مُعْظَمَهُ غيباً أو شِبه غيب؛ ليحصل على الدّرجة الكاملة يحقّق بها جزءاً من النّجاح في أمر دنيوي، وقد لا ينجح في مسعاه، ثمّ تجده زاهداً في كتاب الله، غير صابرٍ على قراءته وتدبُّر معانيه، أليس من الجهل وعمى البصيرة ـ إذن ـ أن ينصرف المسلم عن تلاوة القرآن العظيم، وفيه من الخيرات والبركات الدُّنيوية والأُخروية ما فيه؟ وهي مضمونةٌ ومكتوبة له عند ربِّ العالمين.

ثانياً: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]. ويقول في التّائبين العاملين: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. فبفضل ما يتلوه المسلم من كتاب الله تعالى، وبما يكتسبه من حسنات مضاعفة، قد يمحو اللهُ ما اكتسب من أوزار ومعاصٍ.

فكلُّ ابن آدم خطّاء، ولا أحدَ ينجو من ارتكاب سيّئة أو سيّئات، أو الوقوع في ذنب صغير أو كبير، فالمسلم بحاجة دائمة ليكفّر عن ذنبه، بل ويبدِّلُ اللهُ الكريمُ سيئاتِه حسنات، خاصّة إذا توافرت منه شروط التّوبة مِنْ جهةٍ، وشروط التّلاوة المطلوبة منْ جهةٍ أخرى.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٤).

ثالثاً: كلّما ازداد المؤمن استكثاراً من التّلاوة ازداد رُقيّاً عند الله ﷻ. وتحوّل من صفة ومنزلة إلى منزلة أعلى وأعظم:

فعن تَمِيم الدَّارِي ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِمِائَةِ آيَةٍ في لَيْلَةٍ كُتِبَ له قُنوتُ لَيْلَةٍ»[(١)].

قال المُناوي ﷺ: «أي: عِبادَتُها»[(٢)].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بن العَاصِ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آياتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ»[(٣)].

ومعنى: «كُتِبَ مِنَ القانتين» أي: من الطّائعين الخاشعين المصلّين.

ومعنى: «كُتِبَ من المقنطرين» أي: المالكين مالاً كثيراً، والمراد كثرة الأجر. وقيل: ممن أُعطِي أجراً عظيماً[(٤)].

وقد يبدو لأوّل وهلة أنّ قراءةَ أَلْفِ آية في اليوم من الأمور الصّعبة، ولكن عندما نعلم أن تلاوتها لا تستغرق من أحدنا أكثر من ساعة ونصف تقريباً، بتلاوةٍ مُتأنّيةٍ ندرك أن ذلك ليس من الصُّعوبة في شيء.

فآخِرُ جزءين في القرآن الكريم: (تبارك. وعمّ) قُرابة ألف آية[(٥)].

رابعاً: إنّ تلاوة القرآن العظيم تزداد وتعظم إذا كانت في الصّلاة، كما مَرَّ بنا في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ الآنف الذِّكر.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ١٠٣) (ح١٦٥٥٥)؛ والدارمي في «سننه» (٢/ ٣٣٧) (ح٣٤٥٠)؛ والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٥٣) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (٧١٧)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ١١٠٣) (ح٦٤٦٨).

(٢) فيض القدير (١١/ ٥٩٥١).

(٣) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢/ ١٨١) (ح١١٤٤)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٦/ ٣١٠) (ح٢٥٧٢)؛ وأبو داود في «سننه» (٢/ ٥٧) (ح١٣٩٨)، وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٦٣) (ح١٢٤٦).

(٤) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/ ١٩٢).

(٥) بلغ عدد آيات جزءي «تبارك، وعمّ» برواية حفص عن عاصم الكوفي ﷺ: (٩٩٥)، فإذا أضفنا عدد آيات سورة الفاتحة ـ وهي ركن في الصّلاة ـ تجاوز العدد (١٠٠٠) آية.
ولا يعني ذلك أن يقتصر المسلم على تلاوتهما في صلاته دون غيرهما.

ذلك أنَّ التَّالي في الصَّلاة يجمع أكثر من أجر في وقت واحد، فله أجر الصَّلاة، وأجر الذِّكر، وأجر التِّلاوة، ويتضاعف ذلك مع التَّدبر والخشوع وحضور القلب.

وقد بيَّنَ رسولُ الله ﷺ الأجرَ الكبير الذي يفوز به القارئ في صلاته بِمِثَالٍ جميلٍ مُعَبِّر:

فعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَال رسولُ الله ﷺ: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيه ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ[1] عِظَامٍ سِمَانٍ؟». قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ»[2].

فَلأنْ يقرأ المسلمُ آيةً من كتاب الله في صلاته خير له من أن يتصدَّق بناقة حامل عظيمة سمينة، وآيتين خير له من ناقتين، وثلاثاً خير له من ثلاث. وكأنما تلد الحسناتُ الحسنات، واللهُ يُضاعِفُ لمن يشاء، واللهُ واسع عليم. نسأل الله الكريم من فضله وجوده وكرمه[3].

المطلب الثاني

تنَزُّل السكينة والرحمة والملائكة للتلاوة

مِما ورد في فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم وتعلُّمه ومدارسته، وبخاصَّة إذا كان ذلك في المسجد الذي هو مهوى أفئدة المؤمنين، حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ[4] بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ[5]، وَغَشِيَتْهُمُ

---

(١) (خَلِفَات): الخلفاتُ الحوامل من الإبل إلى أن يمضي عليها نصف أمدها. ثم هي عشار. والواحدة خَلِفة وعشراء. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل قراءة القرآن في الصَّلاة (١/ ٥٥٢) (ح٨٠٢).

(٣) انظر: أنوار القرآن (ص٧٩ ـ ٨٤).

(٤) (يتدارسونه): يقرؤونه ويتعهّدون تلاوته. وقيل: التّدارسُ قراءةُ بعضهم على بعضٍ تصْحِيحاً لألفاظه، أو كشفاً لمعانيه. انظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٢٦٨)؛ النهاية في غريب الحديث (٢/ ١١٣)، مادّة: (درس).

(٥) (السَّكِينة): الوقار والتّأني والسُّكون. وقيل: الرّحمة. وقيل: خلقٌ رفيق كالرِّيح والهواء.

الرَّحْمَةُ[١] وَحَفَّتْهُمُ المَلاَئِكَةُ[٢]، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[٣].

هذا الحديث من أعظم البشارات التي يُبشِّر بها النبيُّ ﷺ المجتمعين لتلاوة القرآن وتدارسه، فقد رَغَّبهم في مدارسته وحثّهم على ذلك لما فيه من عزّهم وشرفهم، وصلاح أحوالهم، ولما فيه من الأجر العظيم عند الله تعالى، سواء أكان اجتماعهم في المسجد أم في غيره من المدارس أو البيوت.

قال النّووي رحمه الله: «وفي هذا دليل لفضل الاجتماع على تلاوة القرآن في المسجد. وهو مذهبنا، ومذهب الجمهور، . . . ويُلحق بالمسجد في تحصيل الفضيلة الاجتماع في مدرسة، ورباط، ونحوها إن شاء الله تعالى»[٤].

ويدلُّ عليه حديثُ أبي هُريرة وأبي سَعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنهما: «أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ إِلَّا حَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[٥].

وما أظُنُّ مجلساً من مجالس الخير تتكاثر فيه البركات، وتنهمر عليه الرَّحمات، ويعود على المسلمين بالأجر الجزيل، والفضل العظيم، كمجلس قُرآنٍ فيه تَدارُسٌ وتعاهُدٌ وتعلُّم وتعليم، ومَنْ حضره نال أربع جوائز عظيمة، وهي كالآتي:

الجائزة الأولى: تنزُّل السّكينة عليهم:

إنّ أول ما يُتحَفُ به هؤلاء المجتمعون على تلاوة القرآن وتدبُّره، نزول

= «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٣٨٦)، مادّة: (سكن).

(١) (غشيتهم الرَّحمة): أي غطّتهم الرّحمة. وغشّاه تغشيةً إذا غطاه، وغشي الشيء إذا لابسه. «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٣٦٩)، مادّة: (غشي).

(٢) (حفّتهم الملائكة): أي دارت حولهم.
«النهاية في غريب الحديث» (١/ ٤٠٨)، مادة: (حفف).

(٣) رواه مسلم، كتاب الذّكر والدُّعاء والتّوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذّكر (٤/ ٢٠٧٤) (ح٢٦٩٩).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢٤).

(٥) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر (٤/ ٢٠٧٤) (ح٢٧٠٠).

السكينة عليهم، وهي الطُّمأنينة والرَّاحة النفسية، فلا يصيبهم ما يملأ قلوب الآخرين من قلق واضطراب وأمراض نَفْسِيَّةٍ وعُقَدٍ ومخَاوِفَ جَعلت حياة هؤلاء جحيماً لا يُطاق[١].

ومعنى السَّكينة: السُّكون والطُّمأنينة التي يطمئن إليها القلب ويسكن بها عن الرُّعب. وقيل: هي الرَّحمة. وقيل: الوقار. وقيل: هي ملائكة الرَّحمة[٢].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذي يظهر أنها مقولة بالاشتراك على هذه المعاني، فيحمل كلٌّ موضع وردت فيه على ما يليق به»[٣].

وقال النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المختار أنها شيء من المخلوقات فيه طمأنينة ورحمة ومعه الملائكة»[٤].

وقد تنزَّلت السَّكينة لأحد الصَّحابة وهو يقرأ القرآن:

فعن الْبَرَاءِ بنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما قال: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الكَهْفِ، وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ[٥]، فَتَغَشَّتْهُ[٦] سَحَابَةٌ، فَجَعلَتْ تَدْنُو وتَدْنُو، وَجَعَلَ فرسُهُ يَنْفِرُ[٧]، فَلمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فذكر ذَلِكَ لَهُ، فَقَال: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالقُرآنِ**»[٨].

وفي لفظٍ قال البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنهما: قَرَأَ رَجُلٌ الكَهْفَ، وَفِي الدَّارِ دَابَّةٌ، فَجَعلَتْ تَنْفرُ، فَنظَرَ فإذَا ضَبَابَةٌ أَوْ سَحَابَةٌ قَدْ غَشِيَتْهُ. قَال: فَذَكَرَ ذَلِكَ للنَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ: «**اقْرَأْ، فُلاَنُ! فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ عِنْدَ القُرآنِ، أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرآنِ**»[٩].

---

(١) انظر: ورتل القرآن ترتيلاً (ص١٥). (٢) انظر: تحفة الأحوذي (٨/ ١٥٦).
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٥٧).
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٢).
(٥) (شَطَنَيْن): بفتح الشين المعجمة والطاء، تثنية شطن، وهو الحبل الطَّويل. وإنما شدَّه بشطنين لقوته وشِدَّته. «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٤٧٥)، مادة: (شطن).
(٦) (تَغَشَّتْهُ): أي غطَّته وقربت منه. «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٣٦٩)، مادة: (غشا).
(٧) (يَنْفِرُ): أي يثب ويجول. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٨٢).
(٨) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل سورة الكهف (٣/ ١٦١٥) (ح٥٠١١).
(٩) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: نزول السكينة لقراءة القرآن (١/ ٥٤٨) (ح٧٩٥).

جاء في (تحفة الأحوذي) عن الطِّيبي كَلَّلَهُ: «فإن المؤمن تزداد طمأنينته بأمثال هذه الآيات إذا كُوشِف بها»[١].

وهذا الرَّجل الذي كان يقرأ القرآن قيل: هو أُسَيدُ بْنُ حُضَيرٍ ﷺ، كما سيأتي حديثه قريباً أنه كان يقرأ سورةَ البقرة، وفي هذا الحديث كان يقرأ سورةَ الكهف، وهذا يدل على تعدُّدِ القِصَّة[٢].

وكثيراً ما يمتَنُّ الله جلَّ جلالُه على رسوله ﷺ وعلى عباده المؤمنين بتنزُّل السَّكينة عليهم؛ لأنها فضلٌ عظيم من الله تعالى، وراحةٌ عظيمة للمؤمن، مثال ذلك ما كان في صلح الحديبية، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

فقد امتَنَّ الله تعالى على عباده المؤمنين بإنزال السَّكينة في قلوبهم.

وهي: السُّكون والطُّمأنينة، والثَّبات عند نزول المِحَن المُقْلِقَة التي تُشوِّش القلوب وتُضْعِفُ النُّفوس. فَمِنْ نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يُثبِّته، ويربط على قلبه، ويُنزل عليه السَّكينة، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه.

فالصَّحابة ﷺ، لَما جرى بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، من تلك الشُّروط التي ظاهرها أنها غضاضَةٌ عليهم وحَطٌّ من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النُّفوس.

فلمَّا صَبَروا عليها، ووطَّنوا أَنْفُسَهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم[٣].

والقلوب كثيراً ما تمتلئ بالهموم والأحزان والاضطرابات، فإذا ما جلس المؤمن مع إخوته يتحلَّقون حول كتاب الله تعالى ويتدارسونه فيما بينهم زال كلُّ ذلك عنهم ونزلت عليهم السَّكينة.

فأين أولئك الذين يلتجئون إلى العيادات النَّفْسيَّة؛ ليتخلصوا من همومهم وآلامهم النَّفْسية التي تُحاصرهم، أين هم من المجالس التي تنزل على أصحابها

---

(١) تحفة الأحوذي (٨/ ١٥٦).
(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٥٧).
(٣) انظر: تفسير السعدي (٥/ ٤٤).

السَّكينة، فليفروا من مجالس المعاصي والآثام والموبقات إلى مجالس النُّور والسَّكينة؛ ليغسلوا قلوبهم، ويُطهِّروا أنفسهم، ويرتاحوا من آلامهم[١].

الجائزة الثانية: تغشاهم الرحمة:

الرَّحمة قريبة من أهل القرآن، بل تغشاهم في مجالسهم، وأهل هذا المجلس هم من المحسنين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وجزاء أهل الإحسان عند الله عظيم، فإنَّ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤]. ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤٣ ـ ٤٤].

والله تعالى يُحِبُّهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ورحمة الله تعالى خير لهم مما يجمعه أهل الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]. عند ذلك نعلم يقيناً أن ما يجنيه أهل مجلس التِّلاوة والمدارسة من الخير العظيم لا يوازيه كلُّ شيء يجمعه أهل الدُّنيا من الحطام الزَّائل.

وقد سمَّى الله تعالى وحيه إلى أنبيائه بالرحمة، كما قال تعالى مُخبِراً عن نوح ﷺ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]. يشير إلى ما اختصَّه الله تعالى من الوحي والعلم والحكمة.

وكذلك قال صالح ﷺ: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣].

ومن باب أولى أن يُسمَّى القرآن العظيم بالرَّحمة، فقد قال الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩][٢].

وإذا كانت رحمةُ الله قد وسعت كُلَّ شيء، وأحاطت بكلِّ شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. فهي بِأَنْ تَسَعَ أهلَ القرآن

---

(١) انظر: أنوار القرآن (ص١٠٧ ـ ١٠٨).

(٢) انظر: النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ٧٨).

وَتُلاته أحقُّ وأجدر[١].

الجائزة الثالثة: تحفُّهم الملائكة:

فتحُفُّهم الملائكة الكرام بأجنحتها تشريفاً وتعظيماً لهم، ولِمَا اجتمعوا عليه.

وقد تنزَّلت الملائكة الكرام ودنت من الصَّحابيِّ الجليل أُسيدِ بنِ حُضيرٍ ﷺ وهو يقرأ القرآن الكريم: فعن أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قالَ: بَيْنَما هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ[٢]، فَسَكَتَ وَسَكَنَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قرأ فجالَتِ الفَرَسُ، فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيى قَرِيباً مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ[٣] رَفَعَ رَأْسَهُ إلى السَّمَاءِ حَتَّى ما يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فقال: «اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ». قالَ: فَأَشْفَقْتُ يا رَسُولَ اللهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيباً، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إلى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ[٤] فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لَا أَرَاهَا، قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ». قالَ: لَا، قَالَ: «تِلْكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»[٥].

قال ابن حجر ﷺ: «قال النَّوويّ: في هذا الحديثِ جوازُ رؤية آحاد الأمّة

---

(١) انظر: المصدر السابق (ص١٠٩ ـ ١١٠).

(٢) (جَالَتِ الْفَرَسُ): أي وثَبَتْ واضطربت. قال في هذه الرِّواية: «جالت» فأنَّث الفرسَ وهو صحيح؛ لأن الفرس يُطلق على الذَّكر والأنثى.
انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٣).

(٣) (فَلَمَّا اجْتَرَّهُ): بجيم ومثناة وراء ثقيلة، والضَّمير لولده، أي: اجترّ ولَدَه من المكان الذي هو فيه حتّى لا تطأه الفرس. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٦٤).

(٤) (الظُّلَّة): هي ما يقي من الشّمس. كسحاب، أو سقف بيت. «صحيح مسلم» (١/ ٥٤٨).

(٥) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب فضائل القرآن، باب: نزول السّكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٣/ ١٦١٧) (ح٥٠١٨)؛ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: نزول السّكينة لقراءة القرآن (١/ ٥٤٧) (ح٧٩٦).

للملائكة، كذا أطلق، وهو صحيح، لكن الذي يظهر التَّقييد بالصَّالح مثلاً والحَسَن الصَّوت، قال: وفيه فضيلة القراءة وأنها سبب نزول الرَّحمة وحضور الملائكة. قلت: الحُكْمُ المذكورُ أعَمُّ من الدَّليل، فالذي في الرِّواية إنما نشأ عن قراءةٍ خاصَّة من سورةٍ خاصَّة بصفةٍ خاصَّة، ويحتمل من الخصوصيَّة ما لم يُذكر، وإلَّا لو كان على الإطلاق لحصل ذلك لكلِّ قارئ»[١].

وتنزَّلت الملائكة كذلك في مواقف الرَّسول ﷺ والمؤمنين في قتال الكافرين، وهي من أكرم المواقف عند الله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وكذلك تتنزَّل في ليلة القدر، أعظم اللَّيالي عند الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤].

وهي كذلك تتنزَّل لتحف المؤمنين، وهم يتلون القرآن العظيم ويتدارسونه فيما بينهم، وتنزل معها المغفرة والرَّحمة ورضى الله تعالى[٢].

الجائزة الرابعة: يذْكرُهُمُ الله فيمن عنده:

ومعنى: «ذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» أثنى عليهم، أو أثابهم فيمن عنده من الأنبياء والملائكة الكرام[٣].

وأيُّ مكانةٍ أكرمُ وأعظمُ من أن يذكر اللهُ جلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤه عبدَه الفقيرَ الضَّعيفَ فيمن عنده في الملأ الأعلى!

فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عز وجل: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي، وأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُني، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُ»[٤].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٨١).
(٢) انظر: أنوار القرآن (ص١١٠).
(٣) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/ ٢٣٠).
(٤) رواه مسلم، كتاب الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار، باب: فضل الذِّكر والدُّعاء (٤/ ٢٠٦٨) (ح٢٦٧٥).

ولقد ندب الله عباده المؤمنين إلى ذكره فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: ذِكْرُ الله إيَّاكم أكبرُ من ذكركم إيَّاه.

وقال سعيد بن جبير رحمه الله: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي[١].

فإذاً عَلِمَ المسلمُ أنَّ عظيماً من العظماء ذَكَرَه أمام حاشيته أو خاصَّتِه بخيرٍ وأثنى عليه، ألا تمتلئ نفسه غِبطةً وسروراً، ويستبشر بذلك؟

ولله المثلُ الأعلى في السّماوات والأرض، فكيف إذا عَلِمَ أنَّ الله جلَّ جلالُه يثني عليه في الملأ الأعلى؟ ألا يستبشر وَيُسَرُّ؟

فإنَّ هذا من أعظم الحوافز والدَّوافع إلى المسارعة إلى مجالس القرآن المباركة تلاوةً وتدارساً وتدبراً وعملاً.

فهنيئاً لأهل القرآن بهذا الفضل العظيم والمنزلة الرّفيعة، وعَجَباً ممَّنْ يزهدُ ويتكاسل أو يُعرض عن مجالس القرآن العظيم[٢].

المطلب الثالث

اغتباط صاحب التلاوة

١ ـ اغْتِبَاطُ التَّالي للقرآن:

عَنْ أبي هُريرة رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لَا حَسَدَ إلَّا في اثْنَتَيْنِ[٣]: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آناء اللَّيْلِ وَآناء النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَني أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يُهْلِكُهُ في الحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَني أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ»[٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٤١٩).

(٢) انظر: أنوار القرآن (ص١١١)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص١٥).

(٣) (لَا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ): الحسد: أن يرى الرّجل لأخيه نعمة فيتمنّى أن تزول عنه وتكون له دونه، والغبط: أن يتمنّى أن يكون له مثلها ولا يتمنّى زوالها، والمراد بالحسد هنا: الغبطة. «النهاية: في غريب الحديث» (١/٣٨٣)، مادة: (حسد).

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: اغتباط صاحب القرآن (٣/١٦١٩) (ح٥٠٢٦).

وفي لفظٍ آخرَ مرفوعاً: «لَا تَحَاسُدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ القُرآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...» الحديث[1].

ومعنى: «لا حَسَدَ إِلَّا في اثنتين».

«أي: لا رُخْصَةَ في الحسد إلّا في خصلتين، أو لا يَحْسُنُ الحسدُ إنْ حَسُنَ، أو أطلق الحسد مبالغة في الحثّ على تحصيل الخصلتين، كأنه قيل: لو لم يحصلا إلّا بالطَّريق المذموم لكان ما فيهما من الفضل حاملاً على الإقدام على تحصيلهما به، فكيف والطَّريق المحمود يمكن تحصيلهما به؟!»[2].

قال النَّووي رحمه الله: «قال العلماء: الحسد قسمان: حقيقيٌّ، ومَجازيٌّ. فالحقيقيُّ: تمنّي زوال النِّعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأُمَّةِ مع النُّصوص الصَّحيحة، وأمّا المَجازي: فهو الغبطة وهو أن يتمنّى مِثْلَ النِّعمةِ التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فَإِنْ كانت مِنْ أُمور الدُّنيا كانت مباحة، وإن كانت طاعةً فهي مستحبة. والمرادُ بالحديث: لا غِبْطَةَ محبوبةٌ إلّا في هاتين الخصلتين، وما في معناهما»[3].

فهذا الحديث يدلُّ دلالة واضحة على أنَّ صاحب القرآن ـ الذي يتلوه آناء اللَّيل وآناء النَّهار ـ في غِبْطَةٍ، أي في فَرحٍ وَحُسْنِ حال، فينبغي أن يكون شديد الاغتباط بما هو فيه، وَيُستحب تغبيطُه بذلك، يقال: غَبَطَهُ يَغْبِطُهُ بكسر الباء غَبْطاً؛ إذا تمنَّى مثل ما هو فيه مِنَ النِّعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم، وهو تمنّي زوال نعمة المحسود منه سواء حصلت لذلك الحاسد أم لا، وهذا مذموم شرعاً، وهو أَوَّلُ معاصي إبليس حين حَسَدَ آدمَ على ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام[4].

والغِبطة ليست بحرام، بل رُبَّما كانت واجبة أحياناً، أو مندوبة، أو مباحة في أحيان أخرى، والله تعالى يقول: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التّمني، باب: تمني القرآن والعلم (٤/ ٢٢٦١) (ح٧٢٣١).
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٩٢).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٣٣٨).
(٤) انظر: فضائل القرآن، لابن كثير (ص٢٠١).

ويقول تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٢١]. والمسابقة منافسة، والمنافسة غبطة.

ولكن مجرَّد التَّمني والغبطة لا يكفي بحال من الأحوال مادام المسلم قادراً على أن يكون خيراً مما هو فيه، وآتاه الله تعالى من الوسع والطاقة والأسباب التي تُعينه على تحصيل القرآن والعلم الشَّرعي، ثم قعد يتمنَّى فقط فهذا التَّمنِّي لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر[١].

٢ ـ اغتباط القائم بالقرآن:

فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آناء اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آناء اللَّيْلِ وآناء النَّهَارِ»[٢].

وعن يَزِيدَ بْنِ الأَخْنَسِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تَنَافُسَ بَيْنَكُمْ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ أَعْطَاهُ اللهُ عز وجل القُرآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آناء اللَّيْلِ وآناء النَّهَارِ، وَيَتَّبِعُ ما فِيهِ، فَيَقُولُ رَجُلٌ: لَوْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَعْطَانِي مِثْلَ ما أَعْطَى فُلاناً، فَأَقُومَ بِهِ كَمَا يَقُومُ بِهِ...» الحديث[٣].

قال ابن حجر رحمه الله: «والمراد بالقيام به العمل به مطلقاً، أعمُّ من تلاوته داخل الصلاة أو خارجها، ومن تعليمه، والحكم والفتوى بمقتضاه»[٤].

وهذا يُذكِّرنا بقول الله تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

---

(١) انظر: أنوار القرآن (ص٢٥٢ ـ ٢٥٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: اغتباط صاحب القرآن (١٦١٩/٣) (ح٥٠٢٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ١٠٤) (ح١٧٠٠٧).
وقال مُحقِّقو المسند (٢٨/ ١٦٨) (ح١٦٩٦٦): «صحيح لغيره».
وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٠٥) (ح٦٣٦): «حسن صحيح».

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).

والمشهور عند كثير من المفسِّرين أن هذه الآية نزلت فيمن آمَنَ مِنْ أحبار أهل الكتاب، كعبدِ الله بن سَلام، وأسَدِ بن عبيد، وثعلبةَ بن سعيد، وغيرهم، أي: لا يستوي مَنْ تقدَّم ذكرهم بالذَّم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾، أي: ليسوا كلُّهم على حدٍّ سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المُجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾، أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه، مُتَّبعة نبيَّ الله فهي ﴿قَآئِمَةٌ﴾، أي: مستقيمة عادلة. من قولك: أقمت العود فقام، أي استقام.

﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: ساعاته، واحدها: إنى كمعنى، أو إنو كقنو، أو إنى كنحى. والمقصود أنهم يقومون اللَّيل، ويُكثرون التَّهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم[1].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وجملة ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ حال، أي يتهجَّدون في اللَّيل بتلاوتهم كتابهم، فَقُيِّدت تلاوتُهم الكتاب بحالة سجودهم. وهذا الأسلوب أبلغُ وأبْيَنُ من أن يقال: يتهجَّدون؛ لأنه يدلُّ على صورة فعلهم»[2].

ولقد أثنى النبيُّ ﷺ على جماعة الأشعريين لكثرة قراءتهم القرآن باللَّيل، فعَنْ أبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَال: قَال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الأَشْعَرِيِّينَ[3] بِالْقُرآنِ، حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ، بِالْقُرآنِ بِاللَّيْلِ. وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ»[4].

قال النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه دليل لفضيلة الأشعريين، وفيه أن الجهر بالقرآن في

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١١٤)؛ تفسير النسفي (١/ ١٧٣)؛ التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٩٥).

(٣) (رُفْقَة الأشعريين): الرُّفقة بضم الرَّاء وكسرها والأشهر الضم، وهم الجماعة المترافقون. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/ ٤٨٧).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر (٣/ ١٢٨٤) (ح٤٢٣٢)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصَّحابة، باب: من فضائل الأشعريين رضي الله عنهم (٤/ ١٩٤٤) (ح٢٤٩٩).

اللَّيل فضيلة، إذا لم يكن فيه إيذاء لنائم، أو لمصلٍّ، أو غيرهما، ولا رياء»[١].

وقال أيضاً: «وإنما رجُحَتْ صلاةُ اللَّيل وقراءته لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشَّاغلات والملهيات، والتَّصرُّف في الحاجات، وأصون من الرِّياء وغيره من المحبطات، مع ما جاء الشَّرْعُ به من إيجاد الخيرات في اللَّيل، فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلاً»[٢].

فهنيئاً لمن يُكْثِرُ قِراءَةَ القرآن، وَليستبشر بمجيء القرآن العظيم يوم القيامة حين يشهد له بالخير ويشفع له عند ربِّ العالمين: فعن بُرَيدَةَ بن الحُصَيبِ رضي الله عنه قال: كُنْتُ عند رَسُولِ الله ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إنَّ القُرآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِيْنَ يَنشَقُّ عنه قَبْرُهُ كالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُني؟ فَيَقُولُ: ما أعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ القُرآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ في الهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وإنَّ كُلَّ تاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإنَّكَ اليَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى المُلْكَ بِيَمِيْنِهِ، والخُلْدَ بِشِمَالِهِ، ويُوْضَعُ عَلَى رَأسِهِ تَاجُ الوَقَارِ»[٣].

فالقرآن لا يتخلَّى عن صاحبه الذي صَحِبَهُ في اللَّيل والنَّهار، وفي الصَّيف والشِّتاء، فإذا هو يبرز له يوم القيامة حين ينشقُّ عنه قبره، وكأنه يتمثَّل بصورة قارئه الذي اتعب نفسه بالسَّهر في اللَّيل، والصَّوم في النَّهار. وفي ذلك دلالة على مدى ما أنفق صاحِبُ القرآن مِنْ جُهْدٍ، فأصابه من ذلك التَّعبُ والشُّحُوب[٤].

المطلب الرابع

التلاوة حلْية لاهل الايمان

عَنْ أبي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه. قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَثَلُ المُؤمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَةِ[٥]، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ. وَمَثَلُ المُؤمِنِ الَّذِي

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٦١). (٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٨٨).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٣٨) (ح٢٣٠٠٠)، وإسناده حسن في المتابعات والشَّواهد، وقد سبق تخريجه وشرح ألفاظه الغريبة (ص٤٠٤ ـ ٤٠٥).

(٤) انظر: شرح سنن ابن ماجه (ص٢٦٨)؛ أنوار القرآن (ص١٧٩).

(٥) الأُتْرُجُ: بضم الهمزة والرَّاء، بينهما مثناة ساكنة، وآخره جيم ثقيلة: شجر يعلو، ناعم =

لا يقرأُ القرآنَ مَثَلُ التَّمْرةِ، لا رِيحَ لَها وَطَعْمُهَا حُلْوٌ...»[١] الحديث.

ما أروعَ بلاغةَ الرّسول الأعظم ﷺ في حثّه الناسَ على قراءة القرآن والعمل به عن طريق ضرب الأمثلة المحسوسة التي تُقرّب المعنى وتُحفّز الانتباه.

قال ابن حجر رحمه الله: «قيل: خَصّ صفةَ الإيمان بالطّعم وصِفةَ التّلاوة بالرّيح؛ لأن الإيمان ألزمُ للمؤمن من القرآن إذْ يُمكن حصول الإيمان بدون القراءة، وكذلك الطّعْم ألزمُ للجوهر من الرّيح فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه.

ثم قيل: الحكمة في تخصيص الأترجّة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تَجمعُ طِيب الطّعم والرّيح كالتّفاحة؛ لأنه يُتداوى بقشرها وهو مفرح بالخاصّية، وَيُستخرج من حَبّها دهن له منافع، وقيل: إنَّ الجِنَّ لا تقرب البيتَ الذي فيه الأترج، فناسب أن يُمثّلَ به القرآن الذي لا تقربه الشياطين، وغلاف حبّه أبيض فيناسب قلب المؤمن، وفيها أيضاً من المزايا كبر جِرْمها وحسن منظرها وتفريح لونها ولين ملمسها، وفي أكلها مع الالتذاذ طيب نكهة، ودباغ معدة، وجودة هضم»[٢].

أحوال المؤمن مع القرآن:

المؤمنون ـ كما يُصنّفُهم الحديث ـ درجات، وحالهم مع القرآن مُتفاوتة، فالذي يقرأ القرآن طَيِّبُ الظّاهر والباطن، كالأترجّة في طَيّب طعمها ورائحتها، وكما أن المؤمن يستريح ويُسرُّ بتلاوة القرآن فكذلك النَّاس مِنْ حوله يُسرُّون بصوته والاستماع له.

= الأغصان والورق والثّمر، وثمره كاللّيمون الكِبَار، وهو ذهبيُّ اللّون، زكيُّ الرّائحة، حامض الماء. انظر: لسان العرب (٩/ ٨٤)، المعجم الوسيط (ص٤).
وجاء في «القاموس المحيط» (١/ ٣٦٤): «الأترجُّ والأترجّة والتّرنجة والتّرنج معروف، وهي أحسنُ الثّمار الشّجرية وأنفسها عند العرب».

(١) رواه البخاري، كتاب التّوحيد، باب: قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم لا تُجاوزُ حناجرهم (٤/ ٢٣٦٣) (ح/ ٧٥٦٠)؛ ومسلم، واللّفظ له، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضيلة حافظ القرآن (١/ ٥٤٩) (ح٧٩٧).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٨٤). وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ١٦٨)؛ حاشية السّندي على سنن النسائي (٨/ ١٢٥).

أمّا المؤمن الذي لا يقرأ القرآن فإنه يفقد صفةً هامّة وهي طيب الظَّاهر، فمثله كمثل التّمرة طعمها طيِّب ولا ريح لها، وهذا نقصٌ في شخصيَّة المسلم لا بد من تداركه بالإقبال على القرآن العظيم تلاوة وحفظاً وتدبُّراً.

وطيب الطعم هنا كناية عن قُوَّة الإيمان في قلب المؤمن وصحّة المعتقد، لكن بعض المؤمنين رغم نقاء قلوبهم وصِحّة اعتقادهم، يبقى عطره محتبساً في قلبه وصدره، لا يتعدَّى أثره إلى غيره، وما ذاك إلا لإعراضه عن تلاوة القرآن وتدبُّره كما ينبغي.

فالمؤمنُ الحقُّ يتميَّز بالقرآن ويرتقي بالقرآن إذا تلاه بشروطه، وعَمِلَ به، والْتزمه منهجَ حياة، وسبيلَ دعوة وإرشاد، فعند ذلك يتكامل الباطن والظاهر، كما يتكامل في الأُترجّةِ طيبُ طعمها، وطيب رائحتها، وحُسْنُ منظرها.

وكما لا يُتصوَّر أن ينفصل في الأُترجَّةِ طيب طعمها عن طيب نشرها وَعِطرها ـ في الأعمّ الأغلب ـ كذلك لا يُتصوَّر أن ينفصل إيمان المؤمن عن عمله وسلوكه، ومنه تلاوة القرآن والتزامه منهج حياة.

وكذلك لا يُتصوَّر أن ينفصل القرآن عن المؤمن أبداً، فيصبح القرآن في وادٍ والمؤمن في وادٍ، ومِنْ هنا يمكن أن نفهم الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠]؛ فما بين الهجرة إلى القرآن، والهجرة عن القرآن، يظهر التّفاوت بين طيب الطّعم مع طيب الرائحة، وبين طيب الطّعم وغياب الرّائحة.

ففي هذا الحديث الشّريف دعوةٌ منه ﷺ إلى كلّ مؤمن ومسلم أن يتكامل باطنه مع ظاهره، ومخبره مع مظهره، واعتقاده مع سلوكه، ولا يتحقَّق ذلك إلّا بملازمة المؤمن لتلاوة القرآن وتدبُّره والعمل به[1].

---

(١) انظر: أنوار القرآن (ص٨٩ ـ ٩٢)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص١٦ ـ ١٧).

المطلب الخامس

التِّلاوةُ كُلُّها خيرٌ

عن عائِشَةَ ﵂ قالت: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «المَاهِرُ بِالْقُرآنِ[1] مَعَ السَّفَرَةِ[2] الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ[3]، والَّذِي يَقْرَأُ القُرآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ[4]، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ[5]»[6].

وفي لفظٍ آخر من حديث عائشة ﵂ مرفوعاً: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ البَرَرَةِ، والَّذِي يَقْرَؤُهُ وَهُوَ يَشْتَدُّ عَلَيهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ»[7].

ومن ظاهر الحديث يتبيَّن أنَّ القرَّاء صنفان من حيث جودة التِّلاوة وإتقانها، ومن حيث الثَّواب المترتِّب عليها، وهما:

١ ـ الماهر بالقرآن:

فالحديث يحمل بشارةً عظيمةً لمن تعلَّمَ القرآن وأتقن تلاوته وأكثرَ منها حتى أصبح ماهراً فهو مع السَّفرة وهم الرُّسل الذين أرسلهم اللهُ ﷻ لهداية النَّاس، أو

---

(١) (الماهر بالقرآن): هو الحاذق الكامل الحفظ، الذي لا يتوقَّف ولا تشقُّ عليه القراءة، لجودة حفظه وإتقانه.

(٢) (مع السَّفرة): السَّفرة جمع سافر، ككتبة وكاتب. والسافر: الرسول. والسَّفرة: الرُّسل؛ لأنهم يُسْفِرون إلى النَّاس برسالات الله. وقيل: هم الملائكة، سُمُّوا بذلك؛ لأنهم يتزلون بوحي الله وما يقع به الصَّلاح بين النَّاس، كالسفير يُصْلِحُ بين القوم، وكذلك أهلُ القرآن يُصْلِحُ الله بهم المجتمع.

(٣) (البررة): أي المطيعون لله، مأخوذ من البِرِّ وهو الطَّاعة.

(٤) (ويتتعتع فيه): هو الذي يتردَّد في تلاوته؛ لضعف حفظه.

(٥) (له أجران): أجر بالقراءة، وأجر بتتعتعه في تلاوته ومشقَّته.

انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٤ ـ ٨٥)؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٦٩٣)؛ شرح السنة، للبغوي (٤/ ٣٠).

(٦) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (١/ ٥٥٠) (ح٧٩٨).

(٧) رواه أبو داود، كتاب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب: في ثواب قراءة القرآن (٢/ ٧٠) (ح١٤٥٤)، وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٧٢) (ح١٢٩٠).

الملائكة المقربين؛ لاتّصافه بصفتهم التي تشرفُوا بها، وهي حَمْلُ كتاب الله تعالى وتبليغه، والإكثار من ذكر الله تعالى[(١)].

ويبقى لنا أن نعرف مَنْ هو المَاهر؟

هل الماهر بالقرآن الذي يُجِيد تلاوته فقط، ولا شيءَ وراء ذلك؟ وهل مَنْ فعل ذلك يستحقُّ هذه المنزلة العظيمة؟!

لِنستمعَ إلى القرطبيِّ ﷺ وهو يصف لنا الماهِرَ بالقرآن، لندرك أن نيل هذه المرتبة الرَّفيعة يحتاج إلى مشقَّة وصبر وعمل متواصل حتى ينالها، فيقول: «ولا يكون ماهراً بالقرآن حتى يكون عالماً بالفرقان، وذلك بأن يتعلَّم أحكامه، فيفهم عن الله تعالى مراده وما فرض عليه، ويعرف المكيَّ من المدني، لِيُفَرِّقَ بين ما خاطَبَ الله به عبادَه في أوَّل الإسلام، وما ندبهم إليه في آخر الإسلام، وما افترض في أوَّل الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخِره، ويعرف الإعراب والغريب، فذلك الذي يَسْهُلُ عليه معرفة ما يقرأ، ويُزِيلُ عنه الشَّكَّ فيما يتلو، ثم ينظر في السُّنن المأثورة الثَّابتة عن النبيِّ ﷺ فبِهَا يصل الطالِبُ إلى مراد الله ﷻ وهي تَفْتَحُ له أحكامَ القرآن فتحاً»[(٢)].

٢ ـ الذي له أجران:

مِنْ فَضْلِ الله تعالى وكرمه وتيسيره القرآن للمسلمين أنَّ كلَّ مَنْ يُقْبِلُ على القرآن العظيم فيتلوه ويتدبّره فإن له أجراً عظيماً عند الله تعالى، سواء أكان ماهراً بالقراءة أم مُتَتَعْتِعاً فيها قد جاهد نفسَه واشتدَّت عليه التِّلاوة فله أجران، : أَجْرٌ على التِّلاوة، وأجرٌ على المشقَّة.

وهل يعني هذا أنَّ مَنْ له أجران أكثرُ ثواباً من الماهر بالقرآن؟

يُجيبنا على هذا السُّؤال النوويُّ ﷺ حيث يقول: «وليس معناه الذي يتتعتع عليه له من الأجر أكثر من الماهر به، بل الماهر أفضل، وأكثر أجراً؛ لأنه مع السفرة وله أجور كثيرة.

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٥)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص١٩).

(٢) التذكار في أفضل الأذكار (ص٨٣ ـ ٨٤).

ولم يذكر هذه المنزلة لغيره، وكيف يَلْحَقُ به مَنْ لم يَعْتَنِ بكتاب الله تعالى وحِفظِه، وإتقانه، وكثرة تلاوته وروايته، كاعتنائه حتى مَهَرَ فيه»[١].

«والحاصل أنَّ المضاعفة للماهر لا تُحصى، فإنَّ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر، والأجر شيء مُقَدَّر، وهذا له أجران من تلك المضاعفات»[٢].

والماهر نفسُه كان القرآنُ مُتَتَعْتَعاً عليه ثمَّ ترقَّى بعد ذلك إلى أن شُبِّهَ بالملائكة[٣].

وبعد هذا كُلِّه هل يرضى المسلمُ أن يكون القرآنُ عليه شاقاً، وأن يلقى على الدَّوام صعوبة في تلاوته، ويتتعتع فيه؟

إذا كانت التِّلاوةُ شاقَّةً عليه فهذا يؤجر على مجاهدته، ويُقْبَلُ منه ذلك، فإنه قد بذل جُهدَه ووسعَه وطاقَتَه، والله تعالى لا يكلف نفساً إلَّا وسعها، وما آتاها، ولكن لا ينبغي للمسلم أبداً أن يرضى لنفسه بهذه الحال ويقنع بضعفه إذا كان قادراً على بذل المزيد.

والعَتَبُ كلُّ العتب على أولئك الذين يُتَعْتِعُون في تلاوة القرآن وهو عليهم شاقٌّ باختيارهم؛ ذلك بأنهم على درجةٍ من العلم، وإجادةِ القراءة، أو أنهم مِمَّنْ حمل شهادات علميَّة عالية.

لا ريب أنهم مُفَرِّطون بذلك، ومَرَدُّ تفريطهم يرجع إلى أمرين أحسنهما سيئ:

١ ـ إمَّا أنهم أهملوا كتاب الله ابتداءً، وأعرضوا عنه، فصعبت عليهم التِّلاوة وأصبحت شاقَّة؛ لأنَّ فاقِدَ الشَّيء لا يُعطيه. فهم لم يتعلَّموه البتَّة.

٢ ـ أو أنهم تَعَلَّموا التِّلاوة ثم انصرفوا عنها وهَجَرُوها، فطال عليهم الأمد فزهدوا في الأجر وشَقَّتْ عليهم التِّلاوة بعد ذلك، وهؤلاء على خطر كبير إذا لم يتداركوا أنفسَهم، ولهم أوفر النَّصيب من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٣٢٦).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/ ٢٣٠).

(٣) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص٨٣).

وإذا كان هذا حال أهلِ العربية الذين أكرمهم الله تعالى بها، ونزل القرآن بلسانهم، فلا عتب، ولا عجب إذاً على غير العرب من المسلمين إذا شَقّ عليهم القرآن وتَتَعْتَعُوا في تلاوته.

لكنَّ الواقعَ خلاف ذلك، فإن كثيراً من إخوانِنا المسلمين من غير العرب في بقاع الأرض كُلِّها، يتلون كتاب الله تعالى، وهم مَهَرَةٌ في ذلك، والآلاف من هؤلاء يحفظونه عن ظهر قلب، بل أصبحوا معلِّمين له، وربما أتوا إلى بلادٍ عربيةٍ ليعلِّموا أولادَ العرب القرآنَ الكريم، وهو فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء.

وفي هذا الحديث إيحاءٌ قويٌّ، بأنَّ المسلم لا ينبغي له في أيِّ حال كان، أن ينصرف عن تلاوة القرآن العظيم، سواء أكان مِن المَهَرَةِ المُتْقِنِين المتمكِّنين من التّلاوة، أم كان ضعيف القُدرة على تحصيل ذلك، فيتّخذ ضعْفَه حُجّةً في الإعراض عن التّلاوة.

ولا ريب أن كثرة الممارسة والمحاولة الجادَّةِ ستؤدِّي إلى حُسْنِ التّلاوة، ورُبما حُسْنِ الحفظ فيما بَعْدُ، وهو أمر مُجرّبٌ، ويسير على منْ يَسّره الله عليه، ووفّقَهُ لذلك[1].

---

(١) انظر: أنوار القرآن (ص٩٣ ـ ٩٨).

الفصل السَّادس

هجر حفظ القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: حفظ القرآن وتيسيرُه.

المبحث الثاني: آداب حفظ القرآن.

المبحث الثالث: فضائل حفظ القرآن.

المبحث الرابع: حُكم حفظِ القرآن ونسيانِه.

المبحث الأول

حفظ القرآن وتيسيرُه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف حفظ القرآن.

المطلب الثاني: تيسير حفظه على جميع الألسنة.

المطلب الأول

تعريف حفظ القرآن

أولاً: «الحفظ» لغة:

جاء الحِفْظ في اللُّغة مصدراً مشتقّاً من الفعل «حَفِظَ»، وقد ذكر عدد من علماء اللُّغة لهذا الفعلِ ومشتقَّاته استعمالات عديدة، وهي على النَّحو التَّالي:

* قال ابن فارس رحمه الله: «الحاء والفاء والظَّاء أصلٌ واحد، يدلُّ على مراعاةِ الشَّيء»[1].

* والحِفْظ: نقيض النِّسيان، وهو: التَّعاهُد وقلَّة الغفلة. يُقال: حَفِظ الشَّيءَ حِفْظاً، ورجل حافظ من قوم حُفَّاظ[2].

* وحفظ الشَّيء حِفْظاً: حَرَسَهُ، وحَفِظَهُ: اسْتَظْهَرَهُ.

والتَّحَفُّظُ: التَّيَقُّظ وقِلَّةُ الغَفْلَةِ. وتَحَفَّظَ الكتابَ: اسْتَظْهَرَهُ شيئاً بعد شيءٍ[3].

* والحفظ ـ بمعنى عدم النِّسيان ـ له مرادفات عِدَّة:

يُقال: قرأ فلانٌ القرآنَ على ظَهْر لسانه، وعن ظَهْر قلبه، أي: حَفِظَه. وظَهْرُ اللِّسانِ وظَهْرُ القلبِ كنايةٌ عن الحفظ من غير كتاب، ولهذا يُقال: اسْتَظْهَرَه، أي: حَفِظَه وقرأه ظاهراً[4].

حفظ القرآن يتضمَّن أموراً ثلاثة:

١ ـ ضبْط الصُّورة المُدْركة[5] بحيث يمكن أداؤها من غير كتاب.

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١/٣٠٩)، مادة: (حَفِظ).

(٢) انظر: لسان العرب (٣/٢٤٢)، مادة: (حَفِظ).

(٣) انظر: مختار الصحاح (ص٧٦)، مادة: (حَفِظ).

(٤) انظر: لسان العرب (٨/٢٧٩)، مادة: (ظَهَرَ)؛ المعجم الوسيط (ص٥٧٨)، مادة: (ظَهر).

(٥) انظر: التعريفات، لعلي الجرجاني (ص١٢٠)، مادة: (حفظ).

٢ ـ المواظبة والمعاهدة للمحفوظ.

٣ ـ عدم النّسيان[1].

استعمالات «الحفظ» في القرآن:

سوف نَعرِضُ للمعاني التي تتعلّق بموضوع البحث على النّحو الآتي:

١ ـ يأتي الحفظ بمعنى التّعهُّد والصّيانة والرّعاية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقول إخوة يوسف: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [المعارج: ٢٩][2].

٢ ـ يأتي الحفظ بمعنى الأمانة، ومنه قول يوسف ﷺ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

٣ ـ يأتي الحفظ بمعنى الرّقابة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦].

ثانياً: «حفظ القرآن» اصطلاحاً:

من خلال الاستعراض اللُّغوي لمادة «حَفِظ»، ومشتقّاتها في الآيات القرآنية، وما ذكَرَه بعض أهل العلم في هذا الشأن، نستطيع أن نُقرِّر: بأنَّ «حِفْظ القرآن» يعني:

حَمْلَه، واستظهارَه، وقراءته عن ظهر قلب، وعلى ظهر اللّسان، والمواظبةَ والمعاهدةَ للمحفوظ، وصيانته ورعايته من الغفلة أو النّسيان.

تميُّز حافظ القرآن عن غيره من الحفّاظ:

يتميَّز حافظ القرآن عن غيره من حُفّاظ الحديث، أو حفّاظ الأشعار، أو الحِكَم، أو الأمثال، أو النُّصوص الأدبيّة ونحوها، بأمرين أساسين:

الأوّل: استكمالُ القرآنِ كلّه حفظاً وضبطاً:

فلا يُسمى منْ حفظ نصف القرآن أو ربعه ـ مثلاً ـ حافظاً إلّا إذا أكمل

---

(١) انظر: كيف تحفظ القرآن الكريم، د. عبد الرب نواب الدين (ص٤٠).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص١٣١)، مادة: (حفظ).

حفظه. وإلّا صحَّ أن يُسمّى جميع المسلمين حَفَظَةً للقرآن، إذْ لا يخلو مسلم من حِفْظ شيء من كتاب الله.

الثّاني: صيانة المحفوظ من النّسيان:

فمنْ حَفِظَ القرآن ثم نَسِيه أو نَسِي جُلّه أو بعضَه إهمالاً وغفلةً لغير عذر ـ كَكِبر أو مرض ـ لا يُسمّى حافظاً، ولا يستحقُّ لقبَ (حامل القرآن الكريم)؛ لأنه إذا صحَّ رواية الحديث بالمعنى، وجاز تحوير بعض الشّعر والنَّص الأدبي ـ مثلاً ـ فمِثْل هذا ممتنع في حفظ القرآن العظيم[١].

المطلب الثاني

تيسير حفظه على جميع الألسنة

إنَّ من أعظم ما امتنَّ به الله ﷻ على المسلمين أنْ يَسّرَ حفْظ القرآن والنُّطق به على ألسنتهم، يتساوى في ذلك العالم الذي وصل إلى أرقى درجات العلم، والإنسان العامّي الذي يحبُّ القرآن ويتعلّق به، كما يتساوى في ذلك أيضاً العربيُّ الفصيح، والأعجميُّ إذا توجّه إلى حفظ كتاب الله، ولولا لُطف الله تعالى بالناس، وتيسير القرآن للذّكر بلسان رسول الله ﷺ لما استطاع أحد أن يتحمَّل حفظ آية من كتاب الله تعالى،وأنّى له الإطاقة لأنوارها وإشعاعاتها؟! ولولا ذلك لما ذكر الله تعالى مسألة تيسير القرآن العظيم بلسان النبيّ الكريم ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧][٢].

كما أشار الله تعالى إلى عِظَم نعمه على عباده بأنْ يسَّر لهم حِفْظَ القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

قال مجاهد رحمه الله: «يَسَّرنا: هَوّنّا قِراءَتَه»[٣].

(١) انظر: كيف تحفظ القرآن الكريم (ص٤٠ ـ ٤١).

(٢) انظر: تيسير القرآن بلسان سيدنا محمد ﷺ، د. عبدو بن علي الحاج، مجلة الأحمدية (عدد ١٥) (رمضان ١٤٢٤هـ) (ص٢٢٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٣/ ١٥٤٧).

«أي: سَهّلناه للحفظ وأعَنَّا عليه مَنْ أراد حِفْظَه، فهل مِنْ طالبٍ لحفظه فَيُعَانُ عليه؟»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ «أي: فهل مِنْ مُتَّعِظٍ به، حافِظٍ له؟ والاستفهام هنا بمعنى الأمر، أي احفظوه واتَّعِظوا به، وليس يُحْفَظُ من كُتُبِ الله عن ظَهْرِ قلبٍ غيرُه»[(٢)].

والتَّيسير: إيجاد اليُسر في الشَّيء، سواء كان فعلاً، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. أم قولاً كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وسبب تيسيره: أنه نزل بأفصح اللُّغات وأبينها، وجاء على لسان أفضل الرُّسل ﷺ.

ومعنى تيسيره: يرجع إلى تيسير ما يراد منه، وهو فهم السَّامع المعاني التي عناها المتكلِّم به بدون كلفة على هذا السَّامع ولا إغلاق، كما يقولون: يدخلُ للأُذن بلا إِذْنٍ.

وهذا اليُسْرُ يشمل الألفاظَ والمعاني.

فأمَّا الألفاظُ: لأنها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التَّراكيب، أي فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث يخفُّ حِفْظُها على الألسنة.

وأمَّا المعاني: فبوضوحها ووفرتها، وبتولُّد مَعانٍ مِنْ معانٍ أُخر كُلما كرَّرَ المتدبِّرُ تدبُّرَه في فَهْمِها[(٣)].

والمتأمِّل في هذه الآية الكريمة يجد أنَّ الله تبارك وتعالى أكَّدَ تيسير حفظ كتابه بمؤكِّدات متعدِّدة قويَّة، منها: القَسَم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾، ومنها: التَّعبير بنون العظمة ﴿يَسَّرْنَا﴾، ومنها: تكرار هذه الآية أربع مرّات في سورة القمر.

والواقع المشاهَد يُصَدِّقُ هذا التَّيسير، فقد حَفِظَ القرآنَ حُفَّاظٌ لا يُحصَون عدداً في كلِّ جيل ومن كل قَبيل، لا يُخطِئُ أحدُهم في كلمة ولا حرف، سواء

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ١٣٤).
(٢) تفسير الجلالين (ص٧٠٦).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٤٤) (٢٧/ ١٨٠ ـ ١٨١).

كانوا عَرَباً أم عَجماً، وأكثَرُ الحفّاظ العَجَم لا يعرفون من العربيَّة شيئاً، وربَّما قرأ الواحد منهم القراءات السَّبع والعشر عن ظهر قلب[١].

وقد عَدَّ أبو الحسن الماوردي رحمه الله هذا الأمر وَجْهاً من وجوه إعجاز القرآن العظيم وخصائصه التي تَميّز بها عن سائر كتب الله تعالى، فقال: «مِنْ إعجازِه تيسيرُه على جميع الألسنة، حتى حَفِظَه الأعجميُّ الأبكم، ودار به لسان القبطيُّ الألكن، ولا يُحفظ غيره من الكتب كحفظه، ولا تجري به ألسنة البكم كجريها به، وما ذاك إلّا بخصائص إلهية فَضّله بها على سائر كتبه»[٢].

ومع هذا التَّيسير فإنَّ حِفظَ القرآن من السَّهل الممتنع، سهلٌ حفظُه، ممتنعٌ ثباتُه في القلب بسهولة ويُسر، فلا بدَّ من تعاهده حتَّى لا يضيع حفظُه من الصُّدور. فأين المتعاهدون لكتاب الله تعالى؟ هذه هي المشكلة!

حِفْظُ القرآن ميسّر دون سواه من الكتب السّابقة:

قال الرّازي رحمه الله: «ولم يكن شيء من كتب الله تعالى يُحفظ عن ظهر القلب غير القرآن»[٣].

ورُوِيَ: «أنَّ كُتُبَ أهلِ الأديان ـ نحو التَّوراة والإنجيل ـ لا يتلوها أهلها إلّا نظراً، ولا يحفظونها ظاهراً كما القرآن»[٤]، «غير موسى، وهارون، ويوشع بن نون، وعُزير عليهم السلام ومن أجل ذلك افْتَتَنُوا بِعُزيرٍ لمَّا كَتَب لهم التَّوراة عن ظهر قلبِه حين أُحرقت»[٥].

قال سعيد جبير رحمه الله: «ليس من كُتُب الله تعالى كتاب يُقرأ كلُّه ظاهراً إلّا القرآن»[٦].

والذي يؤيِّد هذا التَّوجُّه ويؤكِّده: أنَّ الكتب الرَّبانيَّة نزلت كاملةً دفعةً واحدة، ولم يُؤمر أهلُها بحفظها كما أُمرت هذه الأمَّة بحفظ القرآن، ولم يتعهّد الله تعالى بحفظها لهم كما تعهَّد بحفظ القرآن.

---

(١) انظر: كيف نتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها (ص٨٣ ـ ٨٤).
(٢) أعلام النبوة (ص٦٩).
(٣) التفسير الكبير (٢٩/٣٨).
(٤) الكشاف (٤/٤٣٦). وانظر: تفسير النسفي (٣/١٧٢٦)؛ تفسير القرطبي (١٧/١٣٤).
(٥) تفسير القرطبي (١٧/١٣٤).
(٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ومقتضياتُ الحفظ: أن يُحفظ في الصُّدور والسُّطور، وكُلَّما كان الحفظ في الصُّدور والسُّطور كان أوثقَ وأدعى للبقاء، ولذلك اجتمعت في القرآن العظيم كلُّ أسباب الحفظ.

ولولا أنْ يسّر اللهُ حفْظَ القرآن الكريم في الصُّدور لما حُفِظَ عن ظهر قلبٍ على مَرِّ العصور، وكرِّ الدُّهور، وتعاقبِ الأجيال، ولما وُجد حافظٌ لكتاب الله تعالى، بل ولا سورةٍ من سوره أو آيةٍ من آياته[1].

هجر الحفظ نوعان:

وأمَّا هجر حفظ القرآن، فهو نوعان:

الأوَّل: هجره ابتداءً: بعدم حفظه، وبالزُّهد في تعلُّمه، والمسؤوليّة تقع فيه على وليِّ الأمر؛ وذلك لأنّه لا بدّ من أنْ يوجِّه أبناءه لحفظ القرآن، خاصّة في بداية مراحل العمر.

كما أنّ هناك مسؤولية عامّة تقع على ولاة أمور المسلمين ـ والمقصود: حكومات الدُّول الإسلامية ـ وذلك برصد الميزانيّات الماليّة، وفتح مدارس تحفيظ القرآن، ومتابعتها، تعظيماً لكتاب الله، وأنَّ التقاعس في هذا الشّأن هو من هجر القرآن.

الثّاني: هجره بعد حفظه: وذلك بالانشغال عنه، وعدم تعاهده فيؤدّي إلى تفلُّته، وهي مسؤوليّة كلِّ فردٍ عن نفسه.

---

(١) انظر: تيسير القرآن بلسان سيدنا محمد ﷺ (ص٢٢٤ ـ ٢٢٥).

المبحث الثاني

آداب حفظ القرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: آداب أثناء الحفظ.

المطلب الثاني: آداب بعد الحفظ.

اداب حفظ القرآن

تمهيد:

لِحَمَلة القرآن الكريم آداب ينبغي أنْ يُراعوها، وعليهم واجبات يجب أن يُنفِّذوها، حتى يكونوا من أهل القرآن حقّاً، ولذا حذَّر أهل العلم من عدم الْتزام حَفَظَة كتاب الله بالأخلاق الحسنة، والآداب المرعيَّة، والواجبات الشرعية؛ لئلَّا يكونوا فتنةً لغيرهم من الجهّال من حيث لا يشعرون. **وفي ذلك يقول الأجرِّي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَمَنْ كانت هذه أخلاقه صار فتنةً لكلِّ مفتون؛ لأنَّه إذا عمل بالأخلاق التي لا تَحْسُن بِمثله اقتدى به الجهَّال.

فإذا عِيْبَ على الجاهل، قال: فلانٌ الحامل لكتاب الله تعالى فَعَل هذا، فنحن أولى أن نفعله، ومَنْ كانت هذه حالُه فقد تعرَّض لعظيم، وثبتت عليه الحجَّة، ولا عذر له إلَّا أن يتوب، وإنَّما حداني على ما بيَّنتُ من قبيح هذه الأخلاق نصيحةٌ مِنِّي لأهل القرآن؛ ليتخلَّقوا بالأخلاق الشَّريفة، ويتخلَّفوا عن الأخلاق الدَّنيئة، واللهُ يوفِّقنا وإيَّاهم للرَّشادة»[1].

ومن جملة هذه الآداب: ما ورد في قول الصَّحابي الجليل عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: «ينبغي لحامل القرآن أنْ يُعرف بليله إذا النَّاس نائمون، وبنهاره إذا النَّاس مُفطرون، وبورعه إذا النَّاس يخلطون، وبتواضعه إذا النَّاس يختالون، وبحزنه إذا النَّاس يفرحون، وببكائه إذا النَّاس يضحكون، وبصمته إذا النَّاس يخوضون»[2].

---

(١) أخلاق حملة القرآن (ص٤٥ ـ ٤٦).

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (ص١٦٢)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٩)؛ والسخاوي في «جمال القراء» (ص٢٨)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٢٣١) (رقم ٣٥٥٨٤)؛ والنووي في «التبيان» (١/ ٢٩)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢١)؛ والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص٥٠) (رقم ٣٠).

ونظراً لسلوك كثير من الحفَّاظ مسلكاً غير صحيح أثناء مرحلة الحفظ أو بعده، قمت بتقسيم هذه الآداب إلى قسمين، وهي على النَّحو التَّالي.

المطلب الأول

آداب أثناء الحفظ

١ ـ الإخلاص لله تعالى:

لا يخفى أنَّ الإخلاص وإرادةَ وَجْه الله تعالى شرطٌ لصحَّة العمل وقبولِه إنْ كان عباديّاً محضاً؛ كالصَّلاة والصِّيام والحجِّ وغيرها، كما أنَّه شَرْط للثَّواب ونيل الأجر في الأمور المباحة؛ كالنوم والأكل وحسن معاشرة الخَلْق وغيرها في حال احتسابها.

وبما أنَّ قراءة القرآن وحِفْظه من الأمور العباديَّة المحضة؛ فإنَّها لا تُقبل عند الله تعالى إلَّا بالإخلاص، وهي داخلةٌ في مِثْل قولِ الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[١].

فيجب على الرَّاغب في حفظ كتاب الله تعالى أنْ يُخلص نيَّته في طلبه، ولْيراقب كلٌّ نفسه، هل أراد بحفظه للقرآن وجه الله تعالى أم أراد به أعراضاً دنيويَّة فانية؟ وقد تساءل ـ عن ذلك ـ أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ قائلاً:

«كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ أَحْيَيْتَهَا بِتَكْرَارِ الْعِلْمِ وَمُطَالَعَةِ الْكُتُبِ، وَحَرَّمْتَ عَلَى نَفْسِكَ النَّوْمَ؛ لَا أَعْلَمُ مَا كَانَ الْبَاعِثُ فِيهِ؟ إِنْ كَانَ نَيْلَ عَرَضِ الدُّنْيَا، وَجَذْبَ حُطَامِهَا وَتَحْصِيلَ مَنَاصِبِهَا، وَالْمُبَاهَاةَ عَلَى الْأَقْرَانِ وَالْأَمْثَالِ، فَوَيْلٌ لَكَ ثُمَّ وَيْلٌ لَكَ، وَإِنْ كَانَ قَصْدُكَ فِيهِ إِحْيَاءَ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَهْذِيبَ أَخْلَاقِكَ، وَكَسْرَ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَطُوبَى لَكَ ثُمَّ طُوبَى لَكَ، وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ شِعْراً:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزُّهد والرَّقائق، باب: مَنْ أشرك في عَمَلِهِ غير الله (٤/٢٢٨٩) (ح٢٩٨٥).

سَهَرُ العُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ ضَائِعٌ ... وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ بَاطِلُ»[١]

فلا بدّ من تصحيح العمل قبل الشّروع فيه.

وأوضَحَ ابن جماعة[٢] رَحِمَهُ اللهُ كيفيَّة تحسين النّيَّة بقوله: «حُسن النّيّة في طلب العلم، بأنْ يَقصد به وجهَ الله تعالى، والعملَ به، وإحياء الشّريعة، وتنويرَ قلبه، وتحلية باطنه، والقربَ من الله تعالى يوم القيامة، والتّعرُّضَ لما أعدّه الله لأهله من رضوانه وعظيم فضله»[٣].

ويبيِّن الشّوكاني رَحِمَهُ اللهُ تأثيرَ حُسْن النّيّة والإخلاص في تسهيل الأمور على طلّاب العلم بقوله: «إنّ لحُسن النّيّة وإخلاص العمل تأثيراً عظيماً في هذا المعنى، فَمَنْ تعكّست عليه بعض أموره من طلبة العلم، أو صَعُبَت عليه مقاصده، فليعلم أنّه بذنبه أُصيب، وبعدم إخلاصه عُوقب، أو أنّه أُصيب بشيء من ذلك محنةً له وابتلاءً واختباراً؛ ليُنْظر كيف صبره واحتماله، ثم يُفيض الله عليه بعدَ ذلك من خزائن الخير ما لم يكن بحسبانه، ولا يبلغ إليه تصوُّره، فليعُضّ على العلم بناجذه، ويَشُدّ عليه يده، ويشرحْ به صدره، فإنّه لا محالة واصل إلى مراده إن شاء الله»[٤].

شِدّة الإخلاص على النّفس:

الإخلاص شديد على النّفوس، ولذلك لمّا قيل لسهل بن عبد الله التُّستري رَحِمَهُ اللهُ: «أيُّ شيء أشدُّ على النّفس؟ قال: الإخلاص، إذْ ليس لها فيه نصيب»[٥].

---

(١) أيُها الولدُ المُحبّ، للغزالي (ص١١).

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن حازم الكناني، الحموي، الشّافعي (بدر الدين) مفسّر، فقيه، أصولي، متكلّم، محدّث. ولد بحماة سنة (٦٣٩هـ)، وولي القضاء بالقدس، والدّيار المصرية، وبدمشق، وجَمَعَ بين القضاء ومشيخة الشّيوخ والخطابة، توفّي بالقاهرة سنة (٧٣٣هـ)، ودُفن قريباً من الإمام الشافعي. ومن تصانيفه الكثيرة: «المنهل الروي في علوم الحديث النبوي»، و«إيضاح الدّليل في قطع حجج أهل التّعطيل»، و«تحرير الأحكام في تدبير جيش الإسلام» وغيرها.
انظر: الدُّرر الكامنة (٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨٣).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم (ص٦٨).

(٤) أدب الطلب ومنتهى الأدب (ص١٣٣).

(٥) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٨١)؛ مدارج السالكين (٢/ ٩٢).

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من نيّتي؛ إنّها تقلّبُ عليَّ»(١).

ومن علامات الإخلاص: «استواءُ المدح والذمّ من العامّة، ونسيانُ رؤية العمل في الأعمال، واقتضاءُ(٢) ثواب الأعمال في الآخرة»(٣).

وبيَّن الغزالي رحمه الله أنّ العمل بغير نيّة عناءٌ، فقال: «ظهر بالأدلّة والعيان، أنّه لا وصول إلى السعادة إلّا بالعلم والعبادة، فالعمل بغير نيّة عناءٌ، والنية بغير إخلاص رياءٌ، وهو للنّفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدقٍ وتحقيقٍ هباء؛ وقد قال الله تعالى في كلّ عملٍ كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]»(٤).

الحذر من الانقطاع عن الحفظ لعدم خلوص النّيّة:

إنّ من تلبيس إبليس على منْ أراد أن يشتغل بحفظ القرآن أن يُسوّل له الانقطاع عمّا هو فيه من الخير بسبب عدم خلوص النّيّة، فإنّ حُسْن النّيّةِ مرجوٌّ لمن اشتغل بحفظ كتاب الله ـ إن شاء الله ـ ببركة هذا الحفظ.

وقد ورد عن الحسن البصري وسفيان الثوري ـ رحمهما الله ـ أنّهما قالا: «طلبنا العلم للدّنيا فجرّنا إلى الآخرة»(٥).

وقال ابن المبارك(٦) رحمه الله: «طلبنا العلم للدّنيا فدلّنا على ترك الدّنيا»(٧).

وقال حبيب بن أبي ثابت(٨) رحمه الله: «طلبنا هذا العلمَ وما لنا فيه نيّة، ثمّ

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (١/٣١٧) (رقم ٦٩٢).

(٢) الاقتضاء: الطّلب.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٢).

(٥) فتح المغيث شرح ألفية الحديث، للسخاوي (٢/ ٣١٧).

(٦) هو الإمام الجليل: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التّميمي، مولاهم، المروزي (أبو عبد الرّحمن) إمامُ أهل عصره في العلم والتّقى والصّلاح والفضل والرّياسة، ومن مشاهير أئمّة الحديث الحفّاظ الثّقات، وصفه ابنُ عيينة قائلاً: «كان فقيهاً عالماً عابداً زاهداً شيخاً شُجاعاً شاعراً». توفّي بـ (هيت) مُنصَرَفَه من الغزْو سنة (١٨١هـ)، وعمره (٦٣). انظر: تهذيب التّهذيب (٥/ ٣٨٢).

(٧) صفة الصفوة (٤/ ١٤٥).

(٨) هو حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار الأسديّ بالولاء (أبو يحيى) الكوفي. تابعيٌّ ثقةٌ فقيهٌ

جاءت النيَّةُ والعملُ بَعْدُ»[١].

فهذه الآثار ونحوها تُحْمَل ـ في معناها ـ على ما ذكره ابن جماعة كَلَلهُ: «قيل معناه: فكان عاقبتُه أنْ صار لله؛ ولأنَّ إخلاص النِّيَّة لو شُرِط في تعليم المبتدئين فيه، مع عُسره على كثير منهم، لأدَّى ذلك إلى تفويت العلم على كثير من النَّاس»[٢]. فكيف بهذا الزَّمان الذي نعيش فيه، مع ندرة الإخلاص وقلَّةِ أهله، وقلَّةِ الرَّاغبين في طلب العلم الشَّرعي وحفظِ القرآن؟

٢ ـ استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته:

على مَنْ أراد أن يحفظ القرآن أنْ يستشعر عظمته، ويستحضر عظمة الله في نفسه، فيُقبل على القرآن العظيم محبّاً له، ومؤثراً له على غيره؛ لذا فعلى مَنْ شَرَعَ في حفظ القرآن أنْ يراعي الأمور التَّالية:

* الشُّعور بأنَّ القرآن كلام ربِّ العالمين غير مخلوق، كلامُ مَنْ ليس كمثله شيء ـ سبحانه ـ له أبلغ الأثر في الإقبال على حِفْظِه، فعظمة القرآن مأخوذة من عظمة المتكلِّم به، ولا أعظم من الله تعالى، وبالتَّالي فلا أعظمَ ولا أقدسَ من كلامه سبحانه[٣].

* وتذكُّر أنَّ القرآن يهدي للطَّريقة التي هي أسدُّ وأعدلُ وأصوب في العقائد والأخلاق والأعمال، والسِّياسات، والصِّناعات، والأعمال الدِّينية والدُّنيوية[٤]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

* وإدراك الأمر الذي نزل من أجله القرآن العظيم، وهو هداية النَّاس وإخراجهم من الظُّلمات إلى النُّور، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. وقال أيضاً: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

= جليل، كان مفتي الكوفة قبل حماد بن أبي سليمان. توفِّي سنة (١١٩هـ).
انظر: تقريب التَّهذيب (١/ ١٥٠)؛ سير أعلام النُّبلاء (٥/ ٢٨٩).

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٦٧) (رقم ١٨١٨).
(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص٤٧ ـ ٤٨).
(٣) انظر: التذكار في أفضل الأذكار (ص٤٥).
(٤) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص١٤٦ ـ ١٤٧).

* وتذكُّر أنَّ القرآن كتابٌ مبارك، كما وَصَفه الله تعالى بأنَّه مبارك في أربعة مواضع، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. فهو مبارك في أصله؛ لأنه كلام الله، ومبارك في حامله ـ جبريل ﷺ، ومبارك في محلِّه ـ قلبِ رسول الله ﷺ[١]، ووجوه البركة فيه شملت منافع الدارين، وعلوم الأوَّلين والآخِرين[٢].

* استشعار مدى الحفاوة بهذا القرآن العظيم، وبكلِّ ما يُحاط به من زمانٍ ومكان، فمن عظمة القرآن عظمة الشَّهر الذي أُنزل فيه (شهر رمضان)، فهو أفضل الشُّهور، وعظمة اللَّيلة التي أُنزل فيها (ليلة القدر)، فهي خير اللَّيالي، وعظمة الرَّسول الذي أُنزل عليه (إمام الأنبياء والمرسلين، وسيِّد ولد آدم). ولعظمة القرآن الكريم عُظِّمَ حامله في صدره، وفُضِّلَ على غيره، ويكفي في بيان مقدار عظمة القرآن، وَصْفُ الله تعالى له بالعظمة في مِثْل قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

٣ ـ معرفة أنَّ الأصل في تلقِّي القرآن حفظُه:

حِفْظُ القرآن العظيم هو الأصل في تلقِّيه، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. فقد أكرم الله تعالى هذه الأمة بأنْ جعل قلوبَ صالحيها أوعيةً لكلامه، وصدورَهم مصاحف لحفظ آياته.

وقال الله ﷻ لنبيِّه محمدٍ ﷺ ـ كما جاء في الحديث القدسي: «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَاباً لا يَغْسِلُهُ المَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِماً وَيَقْظَانَ»[٣].

فمعنى ذلك: أنَّ القرآن العظيم محفوظ في الصُّدور، لا يتطرّق إليه الذهاب، بل يبقى على مَرِّ الزمان[٤].

قال ابن الجَزَري[٥] ﷺ: «ثُمَّ إنَّ الاعتماد في نقل القرآن على حفظ

(١) انظر: في ظلال القرآن (٢/ ١١٤٧). (٢) انظر: روح المعاني (٧/ ٢٢١).
(٣) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصِّفات التي يُعرف بها في الدُّنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/ ٢١٩٧) (ح٢٨٦٥).
(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢٠٤).
(٥) هو محمد بن محمد بن محمد بن علي الدِّمشقي، ثم الشِّيرازي، الشافعي (أبو الخير)، =

القلوب والصُّدور، لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصّيصة من الله تعالى لهذه الأمّة»[١].

وحِفْظُ القرآن العظيم فيه تأسٍّ بالسَّلف الصَّالح، فهو أصل الأصول، والمعَوَّل عليه في جميع الأمور، وهو مرجعٌ أساس لسائر المناهج والعلوم، فكانوا لا يبدؤون إلّا به، وما إنْ نقرأ في ترجمة أحدٍ من أهل العلم إلّا ونرى في سيرته: حَفِظ القرآن الكريم، ثم ابتدأ بطلب العلم[٢].

وكان كثير من السَّلف ـ رحمهم الله ـ يرفضون تدريس الحديث وغيره من العلوم للحَدَثِ؛ حتّى يحفظ القرآن أولاً.

قال النَّووي كَلَلهُ: «كان السَّلف لا يُعَلِّمُون الحديث والفقه إلّا لمن يحفظ القرآن»[٣].

وعَدَّ ابنُ جماعة كَلَلهُ الأدبَ الأولَ من آداب طالب العلم: «أن يبتدئ بكتاب الله العزيز، فيتقنه حفظاً، ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه؛ فإنَّه أصلُ العلوم وأُمُّها وأهَمُّها»[٤].

٤ ـ الرَّغبة القويَّة الصَّادقة:

الرَّغبة القويّة الصّادقة لها أكبر الأثر في الإقبال على الحفظ والاستمرار فيه وتحمُّل مشاقِّه، إذ بدون ذلك يخور الإنسان ويتهاون، ويكون الأمر مجرّد أُمنية وحُلُمِ يقظة.

= ويُعرف بابن الجَزَري، مقرئ، مجوّد، محدّث، حافظ، مشارك في بعض العلوم. ولد في دمشق سنة (٧٥١هـ)، وتفقّه بها وطلب الحديث والقراءات، وعمّر مدرسةً للقُرّاء سمّاها: دار القرآن، وأقرأ النّاسَ. وله تصانيف كثيرة منها: «النشر في القراءات العَشْر»، و«التّمهيد في التّجويد»، و«تذكرة العلماء في أصول الحديث»، و«الأربعون العوالي». توفّي بشيراز سنة (٨٣٣هـ). انظر: طبقات القرّاء، لابن الجزري (٢/٢٤٧ ـ ٢٥١).

(١) النّشر في القراءات العَشْر (١/٦).

(٢) انظر: الكلمات الحسان فيما يُعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص٤٣ ـ ٤٦)، حفظ القرآن الكريم (ص١٠ ـ ١٢).

(٣) المجموع (١/٣٨).

(٤) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم (ص١٦٦ ـ ١٦٧).

والدّافع الذّاتي ذو أهميّة بالغة في إكمال حفظ القرآن، حيث نجد أنّ كثيراً من النّاس انقطعوا عن الحفظ وتخلّفوا بسبب فقدهم لهذا الدّافع، فربّما كان الدّافع للحفظ هو إلحاح الوالدين أو المدرسة دون اندفاعٍ ذاتي، فإنّه لن يستمرّ طويلاً، ولا بدَّ أنْ يصاب بالفتور.

ويزداد الدّافع الذّاتي: بتذكُّر أجرِ ومنزلةِ حَفَظةِ القرآن الكريم، ومجالسِ القرآن، وإذكاءِ روح التّنافس المشروع في الحلقة، أو البيت، أو المدرسة[١].

وحينما يتهيّأ هذا الدّافع الذّاتي ترى المرءَ لا يفتر عن النّظر في كتاب الله، ولا يَمَلُّ من تلاوته، وهذا هو حال الصّحابة والتّابعين ومَنْ بعدهم من حَفَظة القرآن على مرّ الزّمان[٢].

٥ ـ التّقلّل من الدُّنيا:

التعلُّق بالدُّنيا وشهواتها وملذّاتها يُضيِّع على المسلم جُلَّ وقته، ويجعله دائم الفكر فيها، مستغرق الهمّ في تحصيلها والإكثار منها، فمتى يحفظ شيئاً من كتاب الله مَنْ كان هذا حاله؟

والله تعالى ذمّ الذين اتّبعوا شهواتهم، فشغلتهم عمّا خُلقوا له من طاعة الله وعبادته، وتوعّدهم بالغيّ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وبيَّن سبحانه أنَّ مَنْ أراد الدُّنيا وجعلها همّه الوحيد قد ينالها، ولكن مصيره الهلاك في الآخرة: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾ [الإسراء: ١٨].

فكيف يركن المسلم إلى الدُّنيا؟ وهي دار ممرٍّ لا دار مقر، ومنزل عبورٍ لا مقعد حبور، وهي خيال طَيْفٍ أو سحابة صيف، وقد رضي النّبيُّ ﷺ

---

(١) انظر: ورتل القرآن ترتيلاً (ص٨٣).

(٢) انظر: مُرشِد الحيران إلى طُرق حفظ القرآن الكريم، لأحمد مصطفى الطهطاوي (ص٥٦)؛ نحو منهجية عملية في حفظ القرآن الكريم، فيصل البعداني، مجلة البيان (عدد: ٧٣) (رمضان ١٤١٤هـ) (ص٤٥ ـ ٥٢).

وأصحابُه ﷺ من هذه الدُّنيا بالكفاف، فلم ينعموا بها، ولم يبذلوا أوقاتهم وأعمارهم في تحصيلها كما نفعل، بل يرضون منها بأقلِّ القليل.

يقول النبيُّ ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافاً[(١)]، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»[(٢)].

عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أبو هُرَيْرَةَ، وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثاً، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠]. إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ، وإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِشِبَعِ بَطْنِهِ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ»[(٣)].

وقد استنبط ابن حجر رحمه الله عدَّة فوائد من قول أبي هريرة ﷺ فقال: «وفيه الحثُّ على حفظ العلم، وفيه أنَّ التَّقلُّل من الدُّنيا أمكن لحفظه، وفيه فضيلة التَّكسُّب لمَنْ له عيال، وفيه جواز إخبار المرء بما فيه من فضيلةٍ إذا اضطُرَّ إلى ذلك، وأمِنَ من الإعجاب»[(٤)].

هذا هو فِقْهُ أبي هريرة ﷺ بملازمته للنَّبيِّ ﷺ على شِبَعِ بطنه فقط ليحفظ الحديث، فأصبح حافِظَ الأمَّة بلا منازع؛ لأنَّه جَمَع همَّه في العلم والحفظ.

ولا يعني ذلك: أنْ يعتزل الدُّنيا ـ مَنْ أراد أنْ يحفظ القرآن ـ ويترك العمل فيعيش عالةً على النَّاس، فقد كان كثير من علماء الأمَّة لهم أعمال يتكسَّبون منها أرزاقهم، ولم يكونوا عالة على غيرهم.

قال ابن المبارك رحمه الله: «لا يتمُّ طلبُ العلم إلَّا بأربعة أشياء: بالفراغ، والمال، والحفظ، والورع»[(٥)].

---

(١) قال في النِّهاية (٤/ ١٩١): «الكفاف: هو الذي لا يَفْضل عن الشَّيء، ويكون بقدر الحاجة إليه».
(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة (٢/ ٧٣٠) (ح١٠٥٤).
(٣) رواه البخاري، كتاب العلم، باب: حفظ العلم (١/ ٦٤) (ح١١٨).
(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٢٨٥).
(٥) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٧١) (رقم ١٧٣٢).

والمقصود من ذلك: أن يتطلَّع طالب العلم إلى معالي الأمور، فيعمل عملاً دنيوياً ليتحصَّل منه على قوت عياله، ثم يُفرِّغ بقيَّة أوقاته للعلم والحفظ والدِّراسة، فلا تشغله الدُّنيا ومغرياتها عن مقصوده الأسمى ـ حفظِ كتاب الله، وطلبِ العلم الشَّرعي، وتعليمِ النَّاس ـ وأن يصبر ويتصبَّر على خشونة العيش وقلَّة المال(١).

عن يَحْيَى بنِ أبي كَثِيرٍ(٢) كَلَلهُ قال: «سَمِعْتُ أبِي يقول: لا يُسْتَطاعُ العِلْمُ بِرَاحَة الجِسْمِ»(٣).

وقال إبراهيم الحربي(٤) كَلَلهُ: «أجمعَ عقلاءُ كلِّ أمةٍ: أنَّ النَّعيم لا يُدرك بالنَّعَم، وأنَّ مَنْ آثر الرَّاحَةَ فاتته الرَّاحةُ، فما لصاحب اللَّذَّات وما لدرجة وراثة الأنبياءِ»(٥).

٦ ـ الدُّعاء والالتجاء إلى الله:

الدُّعاء هو روح العبادة، والالتجاء إلى الله تعالى والرُّكون إلى جانبه يُهوِّن كلَّ أمرٍ عسير، وحفْظُ كتاب الله تعالى، والتَّفقُّه في دينه، عطيَّة وهبة، يهبها الله تعالى لمنْ شاء من عباده، فأكثِرْ من سؤاله واللُّجوء إليه سبحانه أنْ يجعلك من أهل العلم والحفظ والفَهْم والعمل بما تعلم، فإنَّ مَنْ أدام قَرْعَ الباب أوشكَ أن يُفتح له(٦).

---

(١) انظر: الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص١٥٨ ـ ١٦٣).

(٢) هو يحيى بن أبي كثير الطَّائي ـ مولاهم ـ أبو نصر، اليمامي. قال ابن حجر: «ثقة ثَبْت، لكنَّه يُدلِّس ويُرْسل». من الطَّبقة الخامسة، أخرج له أصحاب الكتب السِّتة وغيرهم. توفِّي سنة (١٣٢هـ). انظر: تقريب التَّهذيب (١/٣٥٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب: أوقات الصَّلوات الخمْس (١/ ٤٢٨).

(٤) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشر بن عبد الله بن ديسم الحربيّ، البغداديّ، ولد سنة (١٩٨هـ)؛ وتفقَّه على الإمام أحمد، فكان من نجباء أصحابه. قال الخطيب: «كان إماماً في العلم، رأساً في الزُّهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث، مميِّزاً لعلَله، قيِّماً بالأدب». توفِّي سنة (٢٨٥).
انظر: طبقات الحفَّاظ (١/٢٦٣)؛ طبقات الحنابلة (١/٨٦).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/١٤٢).

(٦) انظر: الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص١٣٤).

وقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فالله تعالى قريب بعلمه وسمعه وقدرته ومعونته، لا يَخيب رجاءُ مَنْ دعاه والْتجأ إليه، والقلوب في حاجة شديدة إلى رزق الله تعالى من العلم والهدى، كما هو الحال في قوت الأجساد، ولذلك قال ابن تيميَّة رحمه الله: «وكما أنَّ لله ملائكةً مُوكلة بالسَّحاب والمطر، فله ملائكة موكلة بالهدى والعلم، هذا رِزْقُ القلوب وقوتُها، وهذا رزْقُ الأجساد وقوتُها»[1].

فالدُّعاء وسيلة مهمّة لا يخيب صاحبُها، خاصة إذا أخلص قلبَه، ونيَّته لربِّه في حفْظِ كتابه، ودعا بقلبٍ حاضر، ودعاءٍ مشروع، وانتفتْ في حقِّه موانعُ الإجابة كأكل الحرام ونحوه، فإنَّ الله تعالى جواد كريم، بَرٌّ رحيم.

المطلب الثاني

اداب بعد الحفظ

١ ـ الخوف من الوقوع في الرِّياء:

إنَّ أوَّل ما يفعله الحافظ ـ بعد أنْ مَنَّ الله تعالى عليه بحفظ كتابه ـ أنْ يخاف على نفسه من الوقوع في الرِّياء ومحبَّة المدح والثَّناء من النَّاس، وطلبِ الجاه والمنزلةِ عندهم، بأنْ يُظْهر لهم أنَّه قد أكمل حفظَ القرآنِ وأجاده، وهذا ما خافه النَّبيُّ ﷺ على أُمَّته بقوله: «إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» قالوا: وما الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يا رَسُولَ الله؟ قال: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ ﷻ لهم ـ يَوْمَ القِيامَةِ إذا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمالِهِمْ: اذْهَبُوا إلى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ في الدُّنيا، فانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»[2].

والمُرائي بالقرآن مُعَرِّض نفسَه للعقوبة الشَّديدة الواردة في قوله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيامَةِ عَلَيْهِ،... ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤١).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٢٨) (ح٢٣٦٨٠)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٢٠) (ح٣٢).

بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»(١).

وها هو الآجرّي كَلَّلَهُ يُحذِّر حفَّاظَ القرآن من الميل إلى حُسْنِ الثّناء والجاه من أبناء الدُّنيا، فيقول:

«ينبغي لمَنْ رزقه الله حُسْنَ الصَّوت بالقرآن أنْ يعلم أنَّ الله قد خصَّه بخير عظيم، فليعرفْ قدْرَ ما خصَّه اللهُ به، وليقرأ لله لا للمخلوقين، وليحذر من الميل إلى أن يُستمع منه؛ ليحظى به عند السَّامعين رغبةً في الدُّنيا، والميل إلى حُسْنِ الثَّناء والجاه من أبناء الدُّنيا، والصَّلات بالملوك دون الصَّلات بعوام النَّاس، فَمَنْ مالت نَفْسُه إلى ما نهيتُه عنه، خِفْتُ أنْ يكونَ حُسْنُ صوتِه فتنةً عليه، وإنَّما ينفعه حُسْنُ صوتِه إذا خشى الله ﷻ في السِّرِّ والعلانية، وكان مرادُه أن يُستمع منه القرآن؛ ليتنبه أهلُ الغفلة عن غفلتهم، فيرغبوا فيما رغَّبهم الله ﷻ، وينتهوا عمَّا نهاهم»(٢).

كيف الخلاص من الرِّياء؟

هذا سؤال مهمٌّ يَردُ على بال كلِّ حافظٍ لكتاب الله تعالى، يرجو رحمة الله، ويخشى عقابه، ولا نجد جواباً شافياً ـ في هذا الشَّأن ـ إلَّا عند الطَّبيب الحاذق بأعمال القلوب، ابنِ القيِّم كَلَّلَهُ حيث قال: «لا يجتمع الإخلاصُ في القلب ومحبَّةُ المدح والثَّناء والطَّمعُ فيما عند النَّاس، إلَّا كما يجتمع الماءُ والنَّار، والضَّبُّ والحوت.

فإذا حدَّثتك نفسُك بطلب الإخلاص، فأقبلْ على الطمع أولاً، فاذبحه بسكِّين اليأس، وأقبلْ على المدح والثَّناء، فازهدْ فيهما زُهْدَ عُشّاق الدُّنيا في الآخرة. فإذا استقام لك ذبْحُ الطَّمع والزُّهد في الثَّناء والمدح، سَهُل عليك الإخلاص.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: منْ قاتل للرِّياء والسُّمعة استحقّ النار (٣/ ١٥١٤) (ح١٩٠٥).

(٢) أخلاق حملة القرآن (ص٧٩).

فإنْ قلتَ: وما الذي يُسَهِّل عليَّ ذبحَ الطَّمع، والزُّهدُ في الثَّناء والمدح؟

قلتُ: أمَّا ذَبح الطَّمع، فيسهِّله عليك: عِلمُك يقيناً أنَّه ليس من شيءٍ يُطمع فيه إلَّا وبيدِ الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبدَ منها شيئاً سواه. وأمَّا الزُّهد في الثَّناء والمدح، فيسهِّله عليك: علمك أنَّه ليس أحد ينفع مدحُه ويزين، ويضرُّ ذمُّه ويَشين إلَّا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابيُّ للنبيِّ ﷺ: «إنَّ حمدِي زيْنٌ، وإنَّ ذمِّي شيْنٌ، فقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «ذَاكَ اللهُ ﷻ»[١].

فازهدْ في مَدْح مَنْ لا يزينك مدحُه، وفي ذمِّ مَنْ لا يشينك ذمُّه، وارغبْ في مَدْح مَنْ كلُّ الزَّين في مدحه، وكلُّ الشَّين في ذمِّه. ولن يُقدر على ذلك إلَّا بالصَّبر واليقين، فمتى فقدت الصَّبرَ واليقين، كنتَ كمَنْ أراد السَّفر في البحر في غير مركب»[٢].

٢ ـ الخشية من العُجْب بالنَّفْس والتَّعالي على الخَلْق:

تعريف العُجْب:

* جاء في (لسان العرب): «العُجْبُ: الزُّهُوُّ، ورجل مُعْجَبٌ: مزهُوٌّ بما يكون منه حسَناً أو قَبِيحاً»[٣].

* وجاء في (المعجم الوسيط): «العُجْبُ: الكِبْرُ والزُّهُوُّ»[٤].

* وقال الغزالي ﷺ: «العُجْبُ: استعظامُ النِّعمة والرُّكون إليها مع نسيان إضافتها إلى المُنْعِم»[٥].

* وسئل ابن المبارك ﷺ عن العُجب، فقال: «أنْ ترى أنَّ عندك شيئاً ليس عند غيرك». وسئل عن الكِبْر، فقال: «أنْ تزدريَ النَّاس»[٦].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٨٨) (ح١٦٠٣٤)؛ والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٦٦) (ح١١٥١٥)؛ والترمذي (٥/ ٣٨٧) (ح٣٢٦٧)، وقال: «حسن غريب». وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٣٣) (ح٣٢٦٧).

(٢) الفوائد (ص٢١٨ ـ ٢١٩).

(٣) (٩/ ٥٢)، مادة: (عجب).

(٤) (٢/ ٥٨٤).

(٥) إحياء علوم الدين (٣/ ٧٣١).

(٦) انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٢٧٨)؛ البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٣٠٣) (رقم ٨٢٦٠)؛ تاريخ الإسلام (١٢/ ٢٢٩)؛ سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٧).

حُكم العُجب:

العُجب محرَّم ومن كبائر الذُّنوب، بل عدَّه جماعة من العلماء: من الشِّرك المحبط للعمل.

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثٌ مُهْلِكاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وهَوَىً مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ»(١).

وقد خاف النَّبيُّ ﷺ على أُمَّته من العُجب أكبر من خوفه عليهم من عموم الذُّنوب ـ غير الشِّرك ـ في قوله ﷺ: «لَوْ لَمْ تَكُونوا تُذْنِبونَ، لَخِفْتُ عَلَيْكم ما هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ العُجْبَ العُجْبَ»(٢).

قال المُناوي رحمه الله في علَّة تكرار لَفْظَة (العُجب) في الحديث: «كرَّره زيادةً في التَّنفير، ومبالغةً في التَّحذير؛ وذلك لأنَّ العاصي يعترف بنقصه فيُرْجى له التَّوبة، والمُعْجَبَ مغرورٌ بعمله فتوبته بعيدة»(٣).

الفرق بين الرِّياء والعُجب:

قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ موضِّحاً هذا الفَرْقَ: «وكثيراً ما يقرن النَّاسُ بين الرِّياء والعُجب، فالرِّياء من باب الإشراك بالخَلْق، والعُجب من باب الإشراك بالنَّفس، وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يُحقِّق قولَه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والمُعجب لا يُحقِّق قولَه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فمَنْ حقَّق قولَه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرِّياء، ومَنْ حقَّق قولَه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج عن الإعجاب»(٤).

لماذا يقع الحافظ في براثن العُجب؟

الحافظ المعجب استعظم ما بذل من أسباب لتحصيل حفظ القرآن الكريم،

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥/٣٢٨) (ح٥٤٥٢)؛ وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/٥٨٥) (ح٣٠٤٥)؛ و«السلسلة الصحيحة» (٤/٤١٢) (ح١٨٠٢).

(٢) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢/٣٢٠) (ح١٤٤٧)؛ وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٩٣٨) (ح٥٣٠٣)؛ و«السلسلة الصحيحة» (٢/٢٦٣) (ح٦٥٨).

(٣) التَّيسير بشرح الجامع الصغير (٢/٣١٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/٢٧٧).

ونسي أو تناسى أنّ الله تعالى هو الذي هداه لذلك وسهّله عليه ووفّقه إليه، ولولا إحسانُه وفضْله ﷻ لما تمكّن أحد من حفْظِ القرآن أو بعضِه.

والواجب على ـ هذا الحافظ ـ أن ينسب النّعمة إلى مُسبّبها وخالِقها تبارك وتعالى، ويعترف بفضله عليه أنْ وفّقَه وأكرمه وأعانه على حِفْظِ القرآن العظيم.

لماذا يقع الحافظ في مستنقع الكِبْر؟

والحافظ المتكبّر اعتقد ـ في قرارة نفسه ـ أنّه بَلَغَ مرتبةً في الكمال لم يبلغْها مَنْ حولَه، فَيُعْجَب بنفسه أوّلاً، ثمّ يكون العُجب مطيّةً إلى التّعالي على مَنْ حوله، واحتقارهم وتجهيلهم، وربّما أتاه الشّيطان ونفخ في صدره، وقال: أتممتَ حِفْظَ القرآن، فأنت حافِظُ زمانك، وخيرٌ من فلان وفلان، وأنت من أهل الله وخاصّته، وأنت المُقدّم في الإمامة والإمارة، والمرتفع في درجات الجنّة، فهذا هو خُلُقُ الشّيطان وتكبُّره في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وينسى ـ هذا المتكبّر على النّاس بحفظه ـ ما ورد من النُّصوص في التّحذير من ذلك، ومنها:

ما ورد عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، والعَظَمَةُ إِزَارِي؛ فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»(١).

وما ورد عن عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»(٢).

٣ ـ الحذر من الذُّنوب والمعاصي:

لا ريب أنّ الذُّنوب والمعاصي سبب مباشر في المصائب التي تنزل على

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٥٩) (ح٤٠٩٠)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٥١٧) (ح٤٠٩٠).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٣٦٠) (ح١٩٩٨)؛ وأبو داود (٤/ ٥٩) (ح٤٠٩١)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٧٧) (ح١٩٩٨)؛ و«صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٥١٧) (ح٤٠٩١).

العباد، وأنّ نسيان القرآن بعد حفظه من أعظم المصائب، ولذا قال النّبيّ ﷺ: «لا تُصِيبُ عَبْداً نَكْبَةٌ، فَمَا فَوْقَهَا أَوْ دُونَهَا إلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ. وَقَرَأَ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]»[١].

* قال الضّحّاك بن مزاحم رحمه الله: «ما من أحد تعلّم القرآن ثمّ نسيه، إلّا بذنب يُحْدِثه؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وإنّ نسيان القرآن من أعظم المصائب»[٢].

آثار في التّحذير من المعاصي:

كان السّلف الصّالح ـ مع حرصهم على ضبط ما حفظوه من القرآن ـ يحاسبون أنفسهم ويلومونها على التّقصير والخطأ، ويَعْزون سبب ذلك إلى ذنوبهم وخطاياهم:

* قال جعفر بن سليمان الضُّبَعي[٣] رحمه الله: «كان مالك بن دينار من أحفظ النّاس للقرآن، وكان يقرأ علينا كلّ يوم جزءاً من القرآن حتى يختم، فإنْ أسقطَ حرفاً قال: بذنبٍ مِنّي، وما الله بظلّام للعبيد»[٤].

* وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «إنّي لأحسب الرّجلَ ينسى العلم بالخطيئة يعملها»[٥].

* وسأل رجل الإمام مالكاً رحمه الله فقال: «يا أبا عبد الله، هل يصلح لهذا الحفظ شيء؟ قال: إنْ كان يصلح له شيء فترك المعاصي»[٦].

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٣٧٧) (ح٣٢٥٢)؛ وحسنه الألباني في: «صحيح الجامع» (٢/ ١٢٧٨) (ح٧٧٣٢).

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٠٤)؛ وابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٨) (رقم ٨٥)؛ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٣٣٤) (رقم ١٩٦٥)؛ وابن كثير في «فضائل القرآن» (ص٢٢٢)، وقال محقّقه (أبو إسحاق الحويني): «سندُه جيِّد».

(٣) هو جعفر بن سليمان الضُّبَعي، البصريّ (أبو سليمان) من الطّبقة الثامنة، ثقة، أخرج له البخاري ومسلم، قال ابن حجر: «صدوق زاهد، لكنّه كان يتشيّع»، توفّي سنة (١٧٨هـ). انظر: تقريب التهذيب (١/ ١٣١).

(٤) حلية الأولياء (٦/ ٢٨٨).

(٥) رواه أحمد في «الزهد» (١/ ١٥٦)؛ وابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٨) (رقم ٨٣).

(٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٥٨) (رقم ١٧٨٣).

* وأوصى بذلك وكيعُ بن الجرَّاح رَحِمَهُ اللهُ[١] فقال: «استعينوا على الحفظ بترك المعاصي»[٢].

* ومن آثار المعاصي ـ التي أوردها ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ قوله: «وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المُضِرَّة بالقلب والبدن في الدُّنيا والآخرة ما لا يعلمه إلَّا الله.

فمنها: حرمان العلم، فإنَّ العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النُّور.

ولمَّا جلس الشَّافعي بين يدي مالكٍ وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقُّد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إنِّي أرى اللهَ قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تُطفئه بظلمة المعصية»[٣].

* وجاء في (فتح الباري) عن القرطبي رَحِمَهُ اللهُ ـ أنَّ من عقوبة ارتكاب المعاصي الرُّجوعَ إلى الجهل بعد العلم: «مَنْ حَفِظَ القرآنَ أو بعضَه فقد علت رتبته بالنِّسبة إلى مَنْ لم يحفظه، فإذا أخلَّ بهذه الرُّتبة الدِّينية حتَّى تزحزح عنها ناسب أنْ يُعاقب على ذلك، فإنَّ تَرْك معاهدة القرآن يُفضي إلى الرُّجوع إلى الجهل، والرُّجوع إلى الجهل بعد العلم شديد»[٤].

شبهة:

قد يقول قائل: كيف يكون الوقوع في المعاصي، وترك الطَّاعات سبباً في نسيان القرآن وتفلُّته من صدر حامله، ونحن نرى حُفَّاظاً للقرآن يرتكبون الأمور المحرَّمة كشرب الدُّخان قبل وأثناء التِّلاوة، وارتكاب البدع المتنوِّعة، ومنهم مَنْ بَدَتْ عليه أمارات الفسق والفجور، وربَّما يكون منهم مَنْ هو إمام في الزَّيغ

---

(١) هو أبو سفيان، وكيع بن الجرَّاح بن مليح الرُّؤاسي، الكوفي، إمام حافظ ثقة ثَبْت، فقيه ورع عابد، رحلَ وكَتَب وجَمَع وصنَّف وحدَّث وذَاكر وبثَّ، كان مولده سنة (١٢٨هـ)، وتوفِّي سنة (١٩٦هـ).
انظر: تهذيب التَّهذيب (١١/ ١٢٣)؛ مشاهير علماء الأمصار، لابن حبَّان (١/ ١٧٣).

(٢) طبقات الحنفية (١/ ٥٤٠).

(٣) الجواب الكافي فيمن سأل عن الدواء الشافي (ص١٠٣ ـ ١٠٤).

(٤) (٩/ ٨٦).

والضّلال، أو جاهل بالقرآن ومعانيه، وكثير من هؤلاء لا يعلمون شيئاً عن تفسيره، ولا ينفِّذون أحكامه، وهم الحاملون له، وربَّما قرأه بعضهم على قبور الأموات؛ لأجل التّأكُّل به؟!

فكيف يكون ذلك في ضوء ما تقدَّم؟

ردُّها:

هؤلاء الحُفَّاظ الفسقة لم يعرفوا قيمة ما تحمَّلوه من كتاب الله، فحالهم وبالٌ عليهم وفتنة لغيرهم، وهم مُسْتدرَجون بهذا الحفظ من حيث لا يشعرون، ولا يكون في حفظهم نفعٌ ولا بركة غالباً، ولو أنَّهم عظَّموا القرآنَ الذي في صدورهم لانكسروا إخباتاً وخشوعاً وخوفاً، ومسارعة لمرضاة ربِّهم تبارك وتعالى[١].

وما أحسن ما قاله التّابعي الجليل مالك بن دينار رحمه الله: «إنَّ العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمه، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجوراً أو فخراً»[٢].

ولا أجد لحال هؤلاء مثلاً، إلَّا ما قاله محمد بن السَّماك رحمه الله: «كم من مُذَكِّرٍ بالله ناسٍ لله، وكم من مُخَوِّفٍ بالله جريء على الله، وكم من داعٍ إلى الله فارٌّ من الله، وكم من تالٍ كتاب الله مُنْسَلِخ من آيات الله»[٣].

آثار في بيان العلم النافع:

العلم النَّافع هو الذي يورث خشية الله تعالى، ويدعو إلى العمل، فما زال العلم يدعو العمل، فإمَّا أجاب وإلَّا ارتحل، وفي ذلك آثار كثيرة عن الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم، ومنها:

ما ورد عن الصّحابي الجليل عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، حيث قال: «ليس

---

(١) انظر: مرشد الحيران إلى طرق حفظ القرآن (ص٤٨).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (٥٦/ ٤٣٤). وانظر: حلية الأولياء (٢/ ٣٧٢)؛ شعب الإيمان، للبيهقي (٢/ ٢٩٤)؛ تاريخ الإسلام (٨/ ٢١٧)؛ اقتضاء العلم العمل (١/ ٣٢).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٣١٣) (رقم ١٩١٦). وانظر: حلية الأولياء (٨/ ٢٠٦)؛ صفة الصفوة (٣/ ١٧٥)؛ إحياء علوم الدين (١/ ٦٣).

العلم بكثرة الرِّواية، ولكن العلم الخشية»(١).

وما ورد عن حذيفة ﵁، أنه قال: «بحسب المرء من العلم أن يخشى الله تعالى»(٢).

وأمثال هؤلاء ـ أي: الحفَّاظِ السابِقِ ذكر حالهم ـ أراد الله تعالى أنْ يُقيم عليهم الحجَّة بما حفظوه، وما حملوه في صدورهم من غير عمل به، وتعظيم له، وتأدُّب معه، كما قال النبيُّ ﷺ: «... وَالْقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»(٣).

قال النَّووي ﵀: «معناه ظاهر، أي: تَنْتفعُ به إنْ تلوتَه، وعملتَ به، وإلَّا فهو حُجَّةٌ عليك»(٤).

وهناك فرق بين العلم الذي في القلب، والعلم الذي على اللِّسان، كما قال الحسن البصري ﵀: «الْعِلْمُ عِلْمَانِ: فَعِلْمٌ فِي الْقَلْبِ؛ فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسانِ؛ فَذَلِك حُجَّةُ اللهِ عَلَى ابْنِ آدمَ»(٥).

لِيعْلَم المُصِرُّ على المعصية أنَّ عِلمه وبال عليه، وأنَّ حِفظه حجَّة عليه لا له، وأيُّ قيمةٍ لهذا الحفظ مع عصيانه، وانغماسه في الفجور، ويُخشى على مَنْ هذا حاله أن تُبدَّد حسناته، وتكون هباءً منثوراً، وقد جاء عن ثَوْبَانَ ﵁، عن النبيِّ ﷺ أنه قَالَ: «لأَعْلَمَنَّ أَقْواماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِحَسَناتٍ أَمْثالِ جِبَالِ تِهامَةَ بِيْضاً، فَيَجْعَلُهَا اللهُ ﷻ هَبَاءً مَنْثوراً». قَالَ ثَوْبَانُ: يا رَسُول اللهِ! صِفْهُمْ لَنا، جَلِّهِمْ لَنا؛ أَلَا نَكُونَ مِنْهُمْ ونحْنُ لا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣١)؛ وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٨٠) (رقم ١٧٩٧٨)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٣٩) (رقم ٣٤٧٩٩)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٨١)؛ وعلي بن الحسن في «تاريخ مدينة دمشق» (١٢/ ٢٨٩)؛ والأصبهاني في «الحُجَّة في بيان المحجَّة» (٢/ ٥٧٨) (رقم ٥٧٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء (١/ ٢٠٣) (ح٢٢٣).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ١٠٢).

(٥) رواه الدارمي في «سننه» (١/ ٩٨) (رقم ٣٦٤)؛ ولا يصحُّ مرفوعاً، فقد ضعّفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١/ ٥١) (ح٦٨)؛ و«السلسلة الضعيفة» (ح٣٩٤٥).

جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»[١].

وقال ﷺ: «أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا»[٢].

وهؤلاء هم علماء السُّوء، وأصحاب الأهواء، الذين لا يعملون بما يعلمون، يبيعون دينهم بدنياهم طمعاً في منصب، أو جاهٍ، أو مال، ويُحلّلون الحرام، فالرِّبا عندهم حلال، ولا يسمُّونه ربا؛ بل هو عائد استثماري، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله[٣].

وقد خاف النَّبيُّ ﷺ على أمّته من هؤلاء بقوله: «إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسانِ»[٤].

«أي كثيرِ عِلم اللّسان، جاهلِ القلب والعمل، اتَّخذ العلمَ حِرفةً يتأكّل بها، ذا هيبة وأُبَّهة يتعزّز ويتعاظم بها، يدعو النَّاس إلى الله ويفرُّ هو منه، ويستقبح عيبَ غيرِه ويفعلُ ما هو أقبح منه، ويُظْهِر للنَّاس التَّنسُّك والتَّعبُّد، ويُسارر ربّه بالعظائم، إذا خلا به ذئب من الذِّئاب، لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذّر منه الشارع ﷺ هنا، حَذَراً من أن يخطفك بحلاوة لسانه، ويحرقك بنار عصيانه، ويقتلك بنتن باطنه وجنانه»[٥].

فالعلم النَّافع: هو الذي وقع في القلب، ثمّ ظهر على اللّسان، وأثمر العمل الصّالح، وأورث خشية الله وتقواه، أمّا الذي يتعلّم العلم؛ ليتأكّل به ويتعزّز به

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/١٤١٨) (ح٤٢٤٥)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣/ ٣٨٤) (ح٣٤٤٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٥) (ح٦٦٣٧)؛ وصحّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٣٨٦) (ح٧٥٠)؛ و«صحيح الجامع» (١/ ٢٦٣) (ح١٢٠٣).

(٣) الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن (ص١٢٢).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٢) (ح١٤٣)؛ والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٢٣٧) (ح٥٩٣)؛ والبزار في «مسنده» (١/ ٤٣٤) (ح٣٠٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٧): «رجاله رجال الصّحيح». وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ٣٢٣) (ح١٥٥٤)؛ و«السلسلة الصحيحة» (٣/ ١١) (ح١٠١٣).

(٥) فيض القدير (٤/ ١٩١٨).

عند النَّاس، فهو بمعزل عن خشية الله تعالى؛ لأنَّ العلم جرى على لسانه ولم يستقرَّ في قلبه، فهذا هو عين ما حذَّر منه النَّبيُّ ﷺ في الحديث[١].

٤ ـ تعاهد القرآن والحذر من نسيانه:

أرشد النَّبيُّ ﷺ أمَّته إلى ضرورة المراجعة المستمرَّة لكتاب الله تعالى، وتعاهد المحفوظ من الآيات والسُّور، وشدَّد على ذلك، وضَرَب لهم الأمثلة المحسوسة ليبيِّن أثر التَّعاهد في تثبيت الحفظ في قلب حامله؛ لأنَّ القرآن عزيز، لا يبقى في صدور مَنْ يهمله، وهذا من عِزَّته، وقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ أحاديث كثيرة في التَّنبيه على ضرورة المراجعة والمدارسة، منها ما يلي:

١ ـ عن أبي موسى ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «تَعَاهَدُوا هذا القُرآنَ[٢]، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَهُوَ أشَدُّ تَفَلُّتاً مِنَ الإبِلِ في عُقُلِهَا»[٣].

قال ابن بطَّال ﷺ: «هذا الحديث يوافق الآيتين؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. فمَنْ أقبل عليه بالمحافظة والتَّعاهد يُسِّرَ له، ومَنْ أعرض عنه تفلَّت منه»[٤].

٢ ـ عن عبد الله بن عمر ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بِئْسَ مَا لأحَدِهِمْ

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي (٧/ ٣٧٨).

(٢) أي: جدِّدوا عهده بملازمة تلاوته لئلا تنسوه. انظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٢١٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (٣/ ١٦٢١) (ح٥٠٣٣)؛ ومسلم واللَّفظ له، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الأمر بتعهد القرآن (١/ ٥٤٥) (ح٧٩١).
والتَّعَهُّدُ: المُراجعةُ والمُعاوَدةُ.
والإبل المُعَقَّلَةُ: هي الإبل التي شُدَّتْ بالعِقَال لئلا تهرُبَ. والعِقَالُ: حُبَيلٌ صغيرٌ يُشَدُّ به ساعِدُ البَعِيرِ إلى فَخِذِهِ مَلْوِيّاً. وخَصَّ الإبلَ بالذِّكر؛ لأنَّها أشدُّ الحيوان الإنسي نفوراً، وفي تحصيلها بعد استمكان نفورها صعوبة.
انظر: جامع الأصول (٢/ ٤٤٨)؛ فتح الباري (٩/ ١٠٠).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ١٠٢).

يَقُولُ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ(١)، بَلْ هُوَ نُسِّيَ، اسْتَذْكِرُوا القُرآنَ، فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّياً(٢) مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ بِعُقُلِهَا»(٣).

و«سبب الذَّمّ: ما فيه ـ أي اللَّفظ ـ مِنَ الإشعار بعدم الاعتناء بالقرآن، إذْ لا يقع النِّسيان إلَّا بترك التَّعاهد وكثرة الغفلة، فلو تعاهَدَه بتلاوته والقيام به في الصَّلاة لدام حِفظُه وتذكُّرُه، فإذا قال الإنسانُ: نَسيتُ الآيةَ الفلانية. فكأنَّما شهد على نفسه بالتَّفريط، فيكون متعلَّقُ الذَّمّ تركَ الاستذكار والتَّعاهد؛ لأنه الذي يورث النِّسيان»(٤).

الحكمة من تفلُّت القرآن من الصُّدور:

شاءت حِكمة الله تعالى أنْ يتفلَّت حفظ القرآن من الصُّدور ـ إذا لم تكن هناك معاهدة دائمة مستمرَّة للمحفوظ ـ ولعلَّ من أبرز الحِكم في ذلك:

* الابتلاء والامتحان لقلوب العباد؛ لكي يتميَّز القلب المتعلِّق بالقرآن دائماً، من القلب الذي تعلَّق به وقت الحفظ، ثم فترت همَّته وانصرف عنه حتى نَسِيه.

* تقويةُ دافعِ المسلم إلى الإكثار من تلاوة القرآن؛ لينال أجراً عظيماً بكلِّ حرفٍ يتلوه، ولو أنَّه حَفِظ فلم ينسَ لما احتاج إلى كثرة التِّلاوة، ومن هنا كان خوف نسيان الحفظ نعمةً قد لا يدرك المسلم أهميَّتها إلَّا بعد التَّأمُّل والتَّفكُّر في هذا الشَّأن، والله تعالى أعلم(٥).

---

(١) (آيَةَ كَيْتَ وكَيْتَ): جاء في (فتح الباري) (٩/ ١٠٠): «قال القرطبي: كيت وكيت يُعَبَّرُ بهما عن الجُملِ الكثيرة، والحديث الطَّويل، ومِثْلُهما: ذيت وذيتَ. وقال ثعلب: كيت للأفعال، وذيت للأسماء». وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٤٨).

(٢) (أَشَدُّ تَفَصِّياً مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ بِعُقُلِهَا): «التَّفَصِّي: الانفصال. وهو بمعنى الرِّواية الأخرى: «أشدُّ تفلُّتاً». والنَّعَم: أَصلها الإبل والبقر والغنم. والمراد هنا: الإبل خاصَّة؛ لأنها التي تُعْقل». «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٧٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن؛ باب: استذكار القرآن وتعاهده (٣/ ١٦٢١) (٣/ ١٦٢١) (ح٥٠٣٢)؛ ومسلم واللَّفظ له، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الأمر بتعهد القرآن (١/ ٥٤٤) (ح٧٩٠).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ١٠١).

(٥) انظر: خصائص القرآن الكريم (ص١٧٧)؛ ورتل القرآن ترتيلاً (ص٧٤).

٣ ـ عن عبد الرّحمن بن شبلٍ الأنصاريّ ﵁ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «تَعَلَّموا القُرآنَ، فإذا عَلِمتُموه، فلا تَغْلُوا فِيهِ، ولا تَجْفُوا عَنْهُ، ولا تأكُلُوا بِهِ، ولا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ»[١].

في هذا الحديث حثَّ النّبيُّ ﷺ أمّته على حفظ القرآن وتعلُّمه، وأرشدهم إلى الطّريقة المُثلى في الحفاظ عليه: وهي ألّا يغلو فيه، وألّا يتجافوا عنه بالابتعاد والهجر، وألّا يستغلُّوه لمصالح دنيوية.

فالغُلوُّ في القرآن: هو المبالغة في التجويد، أو الإسراع في القراءة بحيث يمنعه عن تدبُّر المعنى.

والجفاء عنه: هو ترك تعاهده والابتعاد عن تلاوته. فالجفاء: هو البعد عن الشّيء.

والتّأكّل به: هو أن يُجعل له عوضاً من سحت الدُّنيا[٢].

آثار في الحثّ على مراجعة الحفظ:

وقد اقتفى السلف الصالح ﵏ نهْجَ نبيِّهم ﷺ، واسترشدوا بوصاياه، من تعاهد القرآن، ومداومة مدارسته؛ كي لا يتفلّت منهم، وقد وردت عنهم آثار كثيرة، فيها التّنبيه على التّدارس والمدارسة لما حفظوه، والمداومة على ذلك.

* قال عليُّ بن أبي طالب ﵁: «تزاوروا وتدارسوا الحديثَ، ولا تتركوه يدْرُس»[٣].

* وقال ابنُ وهبٍ ﵀: «قيل لأخت مالك بن أنسٍ: ما كان شُغْلُ مالكٍ في بيته؟ قالت: المصحف والتّلاوة»[٤].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٤٤) (ح١٥٧٠٤)؛ والبيهقي في «السنن» (٢/ ١٧) (ح٢١٠٣)؛ وعبد بن حميد في «مسنده» (١/ ١٢٩) (ح٣١٤)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/ ٣٨٧) (ح١٩٤٤٤)؛ قال ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ١٠١): «سنده قوي». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٦٨): «رجاله ثقات». وقال محققو المسند (٢٤/ ٤٣٧) (ح١٥٦٦٦): «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٢) انظر: عمدة القاري (٢١/ ٢٦٤)؛ عون المعبود (١٣/ ١٣٢)؛ فتح القدير (٢/ ٦٤).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٢٣٦) (رقم ٤٦٥).

(٤) تهذيب الأسماء، للنووي (٢/ ٣٨٥).

* وقال أبو عبد الله جعفر بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلوب تُرَبٌ، والعلم غرسها، والمذاكرة ماؤها، فإذا انقطع عن التُّرَب ماؤها، جفّ غرسها»[1].

* وعن محمد بن القاسم بن خلّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «الاحتفاظ بما في صدر الرَّجل أولى من درْس دفتره، وحرفٌ تحفظه بقلبك أنفع من ألف حديثٍ في دفترك»[2].

* ولمّا قيل للأصمعي[3] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كيف حَفِظْت ونسيَ أصحابك قال: درستُ وتركوا»[4].

* وقال الخطيب البغدادي[5] رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وينبغي أن يُراعيَ ما يحفظه، ويستعرض جميعَه كلّما مضت له مدّة ولا يُغْفِل ذلك، فقد كان بعض العلماء إذا علّم إنساناً مسألةً من العلم سأله عنها بعد مدّة، فإنْ وجَدَه قد حفظها عَلمَ أنه محبٌّ للعلم فأقبل عليه وزاده، وإن لم يره قد حفظها، وقال له المتعلّم كنتُ قد حفظتُها فأُنسيتُها، أو قال كتبتها فأضعتُها، أعرض عنه ولم يعلّمه»[6].

---

(١) المصدر السابق (٢/٢٧٨) (رقم ١٨٤٧).
(٢) المصدر نفسه (٢/٢٦٦) (رقم ١٨١٥).
(٣) هو أبو سعيد، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي، المعروف بالأصمعي، عالمٌ بالحديث والفقه والعربيّة، وثّقه الأئمّة. ولد سنة (١٢٢هـ)؛ من أهل البصرة. وقدم بغداد في أيّام هارون الرّشيد،ومن تصانيفه الكثيرة: «نوادر الأعراب»، و«تاريخ العرب قبل الإسلام»، و«الأجناس في أصول الفقه». توفّي بالبصرة سنة (٢١٦هـ)، وعمره (٨٨) سنة.
انظر: تهذيب التّهذيب (٦/ ٤١٥)؛ طبقات النّحاة (٢/ ١٩٩).
(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٦٧) (رقم ١٨١٦).
(٥) هو الحافظ النّاقد، محدّث الوقت (أبو بكر) أحمد بن علي بن ثابت، المعروف بالخطيب البغدادي، ولد سنة (٣٩٢هـ) سمع الحديث صغيراً، وارتحل وجمع وصنّف حتّى صار أحفظ أهل عصره، من كبار الشّافعية، ومن تصانيفه الكثيرة: «الكفاية في معرفة علم الرّواية»، و«شرف أصحاب الحديث»، و«المتّفق والمفْترق»، و«الصّحاح العوالي». توفّي ببغداد سنة (٤٦٣هـ).
انظر: طبقات الشّافعية (٢/ ٣٦)؛ سير أعلام النّبلاء (١١/ ٢٠٨).
(٦) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٠٣).

المبحث الثالث

فضائل حفظ القرآن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: عُلُوُّ درجة الحافظ.

المطلب الثاني: الحافظ مُقَدَّمٌ في الدُّنيا والآخرة.

المطلب الثالث: فضائل متنوِّعة للحافظ.

فضائل حفظ القران

تمهيد:

لم يترك النبيُّ ﷺ أمراً فيه تشجيع على حِفْظِ القرآن العظيم إلّا سلكه، فكان يُفاضِل بين أصحابه الكرام في حفظ القرآن، فيعقد الرّاية لأكثرهم حفظاً. وإذا بعث بَعْثاً جعل أميرهم أحفَظَهم للقرآن، وإمامَهم في الصّلاة أكثَرَهم قراءةً للقرآن، ويُقدّم لِلّحْد في القبر أكثَرَهم أخذاً للقرآن، ورُبّما زَوّج الرّجلَ على ما يحفظه في صدره من القرآن، وهذا هو محور حديثنا من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

علو درجة الحافظ

حين يدخل المؤمنون الجنّة فإنّ حافظ القرآن له شأن آخر، حيث يعلو غيره في درجات الجنة لتعلوَ منزلته، وترتفعَ درجته في الآخرة، كما ارتفعت في الدُّنيا، ويتبيّن ذلك جليّاً من خلال عدّة أحاديث:

١ ـ ارتفاع منزلة الحافظ:

عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرآنِ[(١)]: اقْرَأْ وَارْتَقِ[(٢)]، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُّنْيا[(٣)]، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ

---

(١) (لِصَاحِبِ القُرآنِ): أي حافظه عن ظهر قلب أو حافظ بعضه الملازم لتلاوته مع التّدبُّر لآياته، والعمل بأحكامه، والتّأدُّب بآدابه.

(٢) (اقْرَأْ وارْتَقِ): أمْرٌ منْ رقى يرقى، أي: اصعد درج الجنّة بمقدار ما حفظته من آي القرآن.

(٣) (وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُّنيا): أي لا تستعجل في قراءتك فالترتيل في الجنّة لمجرّد

آيةٍ تقرؤها»(1).

أفاد الحديثُ التَّرغيب في حفظ القرآن، وتخصيصُ الصَّاحِبِ في الحديث بالحافظ عن ظهر قلب دون التَّالي من المصحف تكريماً له وتشريفاً.

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخبر المذكور خاصٌّ بمن يحفظه عن ظهر قلب، لا بمن يقرأ بالمصحف؛ لأنَّ مجرَّد القراءة في الخطِّ لا يختلف النَّاس فيها ولا يتفاوتون قلَّةً وكثرة، وإنما الذي يتفاوتون فيه كذلك هو الحفظ عن ظهر قلب، فلهذا تفاوتت منازلهم في الجنَّة بحسب تفاوت حفظهم، ومما يؤيِّد ذلك أيضاً أنَّ حِفْظَ القرآن عن ظهر قلب فرض كفاية على الأمَّة، ومجرَّد القراءة في المصحف من غير حفظٍ لا يسقط بها الطلب، فليس لها كبير فضل كفضل الحفظ، فتعيَّن أنَّه ـ أعني الحفظَ عن ظهر قلب ـ هو المراد في الخبر، وهذا ظاهر من لفظ الخبر بأدنى تأمُّل، وقول الملائكة له: اقرأ وارْقَ صريح في حفظه عن ظهر قلب كما لا يخفى»(2).

الغُنْمُ بالغُرْم:

والفوز بهذه المنزلة له شروط، يوضِّحها الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «ففيه فضيلة ظاهرة لحافظ القرآن، لكن بشرط أن يكون حفْظُه لوجه الله تبارك وتعالى، وليس للدُّنيا والدِّرهم والدِّينار، وإلَّا فقد قال ﷺ: «أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا»(3)»(4).

فيا لها من سعادة للحافظ المُخْلِص إذا قيل له: اقرأْ وارقَ ورتِّلْ، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها. تُرى إلى أين يرقى؟

= التَّلذُّذ؛ إذ لا عَمل ولا تكليف هناك، وفيه إشارة إلى أنَّ الجزاء على وفق الأعمال كمِّيَّة وكيفية. انظر: عون المعبود (٤/ ٢٣٧)؛ تحفة الأحوذي (٨/ ٢٣٢)؛ فقه قراءة القرآن الكريم (ص٧١).

(1) رواه أبو داود (٢/ ٧٣) (ح١٣٦٤)، وقال الألباني في «صحيح أبي داود» (١/ ٢٧٥) (ح١٣٠٠): «حسن صحيح».

(2) الفتاوى الحديثية (ص١٥٦).

(3) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٥) (ح٦٦٣٧)، وقال محققو المسند (١١/ ٢١٣) (ح٦٦٣٧): «إسناده حسن». وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٣٨٦) (ح٧٥٠).

(4) السلسلة الصحيحة (٥/ ٣٨٤).

جاء في (عون المعبود) عن الطِّيبي رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ التَّرقِّي يكون دائماً، فكما أنَّ قراءته في حال الاختتام استدعت الافتتاح الذي لا انقطاع له، كذلك هذه القراءة والتَّرقِّي في المنازل التي لا تتناهى، وهذه القراءة لهم كالتَّسبيح للملائكة لا تشغلهم من مستلذَّاتهم بل هي أعظم مستلذَّاتهم»(١).

تنبيه على أثر ضعيف:

قال الخطَّابي رَحِمَهُ اللهُ: «جاء في الأثر(٢): أنَّ عدد آي القرآن على قدر دَرَج الجنَّة، يقال للقارئ: ارق في الدَّرج على قدر ما كنت تقرأ من آي القرآن، فَمَنِ استوفى قراءة جميع القرآن استولى(٣) على أقصى درج الجنَّة، ومَنْ قرأ جزءاً منها كان رقيُّه في الدَّرج على قدر ذلك، فيكون منتهى الثَّواب عند منتهى القراءة»(٤).

٢ ـ حلَّة كرامات للحافظ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «يَجِيءُ القُرآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّه(٥)، فَيُلْبَسُ تَاجَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَارَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَارَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيُقَالُ: اقْرَأْ وَارْقَ، وَيُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً»(٦).

بَيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ القرآن العظيم يرفع شأن صاحبه يوم القيامة، وأنه يطلب

---

(١) عون المعبود (٤/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٢٠) (رقم ٢٩٩٥٢) عن أمِّ الدَّرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «دخلتُ على عائشة فقلت: ما فَضْل مَنْ قرأ القرآن على مَنْ لم يقرأه ممن دخل الجنَّة؟ فقالت: إنَّ عدد دَرَج الجنَّة على عدد آي القرآن، فليس أحد ممن دخل الجنّة أفضل ممن قرأ القرآن». قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٢٨٣): «وجملة القول: إنَّ إسناد هذا الأثر ضعيف».

(٣) الأولى أن يعبِّر بلفظ الحديث (ارتقى)؛ لأنَّ كلمة (استولى) تُوحي بالقهر والغلبة والاستيلاء، وأهل الجنَّة ليسوا كذلك.
انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص٤٦).

(٤) معالم السنن،(٢/ ١٣٦). وانظر: عون المعبود (٤/ ٢٣٧)، تحفة الأحوذي (٨/ ٢٣٢).

(٥) (يارَبِّ حَلِّهِ): الظاهر أنه أمْرٌ منَ التَّحليَةِ. يُقال: حليتُه أحليهِ تحليةً إذا ألبَسْتُه الحِلية. والمعنى: يارَبِّ زَيِّنْهُ. انظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٢٣٢).

(٦) رواه الترمذي (٥/ ١٧٨) (ح٢٩١٥)، وقال: «حسن صحيح». وحسّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ١٠) (ح٢٣٢٨).

من الله تعالى أن يُزَيِّنَ صاحبه ويحلِّيه ويلبسه تاج الكرامة ويرضى عنه ﷻ جزاءً وفاقاً، فكما أرضى صاحبُ القرآن كتابَ الله في الدُّنيا بقيامه به، وعمله به، وتدبُّره، والدَّعوة إليه؛ فإنَّ القرآن يسأل الله تعالى أن يرضى عن عبده الحافظ للقرآن العامل به.

ففي هذا الحديث عِدَّةُ كراماتٍ لحافظ القرآن وهي:

الإنعام عليه بتاج الكرامة، وحُلَّة الكرامة، فهو يُعرف بها يوم القيامة بين الخلائق، وهي علامةٌ على كرامة لابسهما ومكانته عند الله ﷻ.

وهذا التَّاج وهذه الحُلَّة وسام شرف ورفعة، يتميَّز بها أصحاب القرآن عن غيرهم من المؤمنين، وجدير بمن لبس هذا التَّاج وهذه الحُلَّة أن يكون رفيع الدَّرجة عالي المقام.

وإذا كان العبد في الدُّنيا يزهو ويفتخر ويمتلئ إعجاباً وخيلاء إذا ما خَلَعَ عليه سلطانٌ أو مَلِكٌ خِلْعةً ما، فما بالك بصاحب القرآن يوم القيامة إذا أنعم عليه مولاه، خالِقُ الخلق جميعاً، ومَلِكُ النَّاس وإلهُهم بهذه النِّعمة العظيمة، والمنزلة الرَّفيعة، وألْبَسَهُ تاجَ الكرامة، وحُلَّةَ الكرامة على أعين الخلائق.

ما بالك بالسَّعادة والغبطة والفرح الذي يملأ قلبه.

وأعظَمُ من ذلك كلِّه: رِضا اللهِ عنه، ثم يُزاد على كلِّ ذلك بكلِّ آية حَسَنة، فضلاً عن رفعِهِ درجات في الجنَّة بعدد الآيات التي يحفظها من القرآن.

قال ابن الجَزَري ؒ ـ في فضائل حملة القرآن العظيم، وجزائهم عند الله تعالى:

وَبَعْدُ: فَالإنْسَانُ لَيسَ يَشْرُفُ ... إلَّا بِمَا يَحْفَظُهُ وَيَعْرِفُ
لِذَاكَ كَانَ حَامِلُو الْقُرْآنِ ... أَشْرَافَ الأُمَّةِ أُولِي الإِحْسَانِ
وَإِنَّهُمْ فِي النَّاسِ أَهْلُ اللهِ ... وَإِنَّ رَبَّنَا بِهِمْ يُبَاهِي
وَقَالَ فِي الْقُرْآنِ عَنْهُمْ وَكَفَى ... بِأَنَّهُ أَوْرَثَهُ مَنِ اصْطَفَى
وَهُوَ فِي الأُخْرَى شَافِعٌ مُشَفَّعُ ... فِيهِ وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ يُسْمَعُ
يُعْطَى بِهِ الْمُلْكَ مَعَ الخُلْدِ إذَا ... تَوَّجَهُ تَاجَ الْكَرَامَةِ كَذَا
يَقْرَا وَيَرْقَى دَرَجَ الْجِنَانِ ... وَأَبَوَاهُ مِنْهُ يُكْسَيَانِ

فَلْيَحْرِصِ السَّعِيدُ فِي تَحْصِيلِه ... وَلَا يَمَلَّ قَطُّ مِنْ تَرْتِيلِه[١]

فهل يعي المسلمون فضائلَ حفظِ القرآن، ويُقْبِلون عليه بشوق، ورغبة، ونَهَم، ويُربُّون على ذلك أبناءَهم؟

ويا للأسف إنّ أكثرهم يتسابقون على دنياهم أضعاف تسابقهم إلى آخرتهم.
وقد حذَّرنا الله تعالى الدُّنيا ومتاعها فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

فمن أظلم ممن زهد في كتاب ربّه، فأعرضَ عنه حفظاً وفقهاً وتلاوة ودراسة وعملاً[٢].

٣ ـ الحافظ مع السَّفرة الكرام البررة:

عن عائشة رضي الله عنها، عن النبيّ ﷺ قال: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرأُ الْقُرآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ»[٣].

هؤلاء السَّفرة الكرام اختارهم اللهُ تعالى، وشرَّفهم بأن تكون بأيديهم الصُّحف المطهَّرة، قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٦].

مغزى معيَّة السَّفرة:

ومعنى كون الحافظ مع السَّفرة يحتمل أمرين:

الأوّل: أنَّ له في الآخرة منازلَ يكون فيها رفيقاً للملائكة السَّفرة؛ لاتِّصافه بصفتهم مِنْ حَمْل كتاب الله تعالى. فأُنزل منازلهم الرفيعة، وأُسكن مقاماتهم العالية من جوار الحقّ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

الثّاني: أنه عاملٌ بعملهم وسالِكٌ مسلكهم[٤].

---

(١) طَيِّبة النَّشر في القراءات العَشر (ص٣١).
(٢) انظر: فضائل سور القرآن الكريم (ص٦٤)، أنوار القرآن (ص٢٦٢ ـ ٢٦٣)، فضائل القرآن وحملته في السنة المطهرة (ص٤٣).
(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة ﴿عَبَسَ﴾ (٤/ ١٨٨٢) (ح٤٦٥٣).
(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٤)، عون المعبود (٤/ ٢٣٠)، تحفة الأحوذي ـ

«وما نفتأ نرى النَّاسَ اليوم يفتخرون حين يُنْسَبون إلى عظيم من العظماء، أو رجل يحمل الشُّهرة والاسم اللَّامع ولو كان ذلك في ميدان الرِّياضة أو اللهو الباطل، فهنيئاً لهؤلاء ما اختاروه من هوانٍ لأنفسهم، وهنيئاً لحفظة كتاب الله حين اختاروا أن يكونوا مع السَّفرة الكرام البررة»(١).

المطلب الثاني

الحافظ مُقدَّمٌ في الدُّنيا والآخرة

١ ـ الحفَّاظ هم الأولى بالإمارة:

يرفع القرآن العظيم من شأن صاحبه في الدُّنيا؛ لحفظه إيَّاه، فصاحب القرآن هو أعلى النَّاس نسباً، وأشرفهم منزلةً، وأرفعهم قدراً، وهكذا يجب أن يُعامل، وهذا ما كان عليه السَّلف الصَّالح من إكرامٍ لصاحب القرآن، واعترافٍ بفضله، وتقديمٍ على غيره؛ حتَّى في منصب الإمارة، وإن كان مولى من مواليهم، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ فممَّنْ رفعهم الله تعالى بالقرآن عبد الرَّحمن بن أبزى الخزاعي رضي الله عنه، وهو من أواخر صغار الصَّحابة، كان مولى لنافع بن عبد الحارث، وكان في عهد عمر رجلاً، وكان على خراسان لعليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه(٢).

فعَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ؛ أَنَّ نافِعَ بْنَ الحارِثِ لَقِيَ عُمرَ بِعُسْفَانَ. وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ. فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْت عَلَى أَهْلِ الوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى. قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ موالِينا. قَال: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عز وجل. وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالفَرَائضِ. قَال عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَاماً وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»(٣).

إنَّ قارئ القرآن، العالِم بأحكامه، رفيعُ القدر، عظيمُ المنزلة، يفوق غيره

= (٨/ ١٧٤)، فيض القدير (١٢/ ٦٠٩٩).

(١) حفظ القرآن الكريم (ص٢٥).

(٢) انظر: الإصابة (٤/ ١٤٩)، التقريب (١/ ٤٧٢)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠١).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل مَنْ يقوم بالقرآن ويعلِّمه (١/ ٥٥٩) (ح٨١٦).

وإن كان أشرفَ منه نسباً، أو أعظم جاهاً، فهذا مولى من الموالي لا جاه له، ولا مال، ولا حسب، ولا مكانة عُليا في المجتمع، وربما كان في السُّلَّم الاجتماعي دون غيره بمقاييس أهل الدُّنيا، ولكنَّه بمقياس القرآن شيء آخر، وله مقام آخر.

فقد رفَعه القرآن من مقام المولى إلى مقام الولاية، وَعِلْمُهُ بالقرآن أهلَهُ لأن يحكم ويقضي بين الناس، وتكون له الكلمةُ النافذة، والرأي المسموع في المجتمع.

وها هو ذا عُمَرُ ﷺ يعرف لهذا العالِم بالقرآن والحافظِ له مكانَتَه وفضلَه، فإذا به يُقِرُّ نافعاً على اختياره، ويذكر قولَه ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَاماً» الحديث[1].

وليس اعتراف عمر ﷺ هو مثار العَجَب، فإنَّ عمر ﷺ أولى النّاس بأن يعترف بفضل صاحب القرآن، ولكنَّ العَجَب كلَّ العجب ممَّنْ ولّاه على مكَّة، وفي هذا إشارة إلى ما وصل إليه المجتمع المسلم من تحقيق الكرامة الإنسانيَّة على وجهها الصَّحيح، إذْ لا فضل لعربيٍّ على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلَّا بالتقوى.

٢ ـ الحُفَّاظ هم الأولى بالإمامة:

عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «يَؤُمُّ القَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ...»[2].

وعن أبي سعيد الخُدريِّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «إذا كَانُوا ثَلَاثَةً فَلْيَؤُمَّهُمْ أَحَدُهُمْ، وأَحَقُّهُمْ بِالإِمَامَةِ أَقْرَؤُهُمْ»[3].

---

(١) انظر: أنوار القرآن (ص٢٤٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: مَنْ أحقُّ بالإمامة (١/ ٤٦٥) (ح٦٧٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: مَنْ أحقُّ بالإمامة (١/ ٤٦٤) (ح٦٧٢).

وهذا مقام آخر من مقامات الأفضلية للحافظ، بأن قُدِّمَ على كُلِّ مَنْ حضر في المسجد للصَّلاة.

فالأكثر قرآناً هو المُقَدَّمُ في إمامة الصَّلاة وإنْ كان مولى:

عن ابنِ عُمَرَ ﷺ قال: «لَمَّا قَدِمَ المُهَاجِرُونَ الأَوَّلُونَ العَصْبَةَ - مَوْضِعٌ بِقُبَاءَ - قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ الله ﷺ، كَانَ يَؤُمُّهُمْ سَالِمٌ، مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ قُرْآناً»[(١)].

زاد الهيثم بن خالد الجهني: «وَفِيهم عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ وأبو سَلَمَةَ بنُ عَبْدِ الأَسَدِ»[(٢)].

قال ابن حجر ﷀ: «ووجه الدَّلالة منه إجماع كبار الصَّحابة القرشيين على تقديم سالم عليهم، وكان سالمٌ المذكور مولى امرأة من الأنصار فأعتقته، وكأنَّ إمامتَه بهم كانت قبل أن يُعتق، . . .

وإنما قيل له مولى أبي حذيفة؛ لأنَّه لازَمَ أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بعد أن أُعتق فتبنَّاه، فلما نُهُوا عن ذلك قيل له مولاه. . .

وقوله: (وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ قُرْآناً) إشارة إلى سبب تقديمهم له مع كونهم أشرف منه»[(٣)].

والأكثر قرآناً هو المُقَدَّمُ في إمامة الصَّلاة وإنْ كان صبيّاً مميِّزاً:

عن عَمْرِو بْنِ سَلِمَةَ ﷺ قَالَ:

لَمَّا كانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ واللهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ حَقّاً، فَقَالَ: «صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا في حين كَذَا، وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا في حين كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرآناً». فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآناً مِنِّي،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: إمامة العبد والمولى (١/ ٢١٩) (ح٦٩٢).

(٢) رواه أبو داود (١/ ١٦٠) (ح٥٨٨)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١١٧) (ح٥٥٠).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٤١).

لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبانِ، فَقَدَّمُوني بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنينَ[١] . . .

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وفي الحديث حُجَّةٌ للشَّافعيَّة في إمامة الصَّبيِّ المُميِّز في الفريضة، وهي خلافية مشهورة ولم يُنْصِفْ مَنْ قال إنهم فعلوا ذلك باجتهادهم، ولم يَطّلع النَّبيُّ ﷺ على ذلك؛ لأنَّها شهادة نفي، ولأنَّ زمن الوحي لا يقع التَّقرير فيه على ما لا يجوز»[٢].

٣ ـ الحفَّاظ هم أصحاب الشُّورى:

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «كَانَ القُرّاءُ أَصْحابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشاوَرَتِهِ، كُهُولاً كانُوا أَوْ شُبَّاناً»[٣].

٤ ـ الحفَّاظ هم المقدَّمون في البَرْزخ:

وكما أعلى اللهُ تعالى شأنَ حافظِ القرآن في الدُّنيا فقد أعلى شأنه في الآخرة، فهو أولى النَّاس بالتَّقديم حتَّى بعد موته:

عَنْ جَابِرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما قال: كان النَّبيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ، ثُمّ يَقُولُ: «أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذاً لِلْقُرآنِ». فإذا أُشِيرَ لهُ إِلَى أَحَدِهِما قَدَّمَهُ في اللَّحْد، فقال: «أَنا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٤].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وفيه فضيلةٌ ظاهرة لقارئ القرآن، وَيُلحق به أهل الفقه والزُّهد وسائر وجوه الفضْل»[٥].

ومع أنَّ مقام الشَّهادة فوق كلِّ مقام، ومع أنَّ النَّبيّ ﷺ شهد لقتلى أحد عند الله تعالى بالصِّدق فيما عاهدوا عليه، وشهد لهم بالجنَّة، إلّا أنّه في غمرة

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: مَنْ شَهِدَ الفتح (٣/ ١٢٩٩) (ح٤٣٠٢).
(٢) المصدر السابق (٨/ ٣٠).
(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] (٣/ ١٤٢٠) (ح٦٤٢).
(٤) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: اللَّحد والشَّق في القبر (١/ ٤٠١) (ح١٣٥٣).
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٣/ ٢١٣).

هذه الفضائل للشُّهداء، لم يَنْسَ ﷺ الشَّهيدَ الأكثر حفظاً للقرآن في تقديمه في اللَّحد.

فصاحب القرآن، والأكثر أخذاً للقرآن، له الأفضلية حتى بين الشُّهداء، لعظمة القرآن الذي في صدره، وما تقديم الرَّسول ﷺ له في اللَّحد إلَّا رَمْزٌ لتقدُّمه على مَنْ سواه من الشُّهداء في الأجر والثَّواب، وفي المكانة والجنَّة.

وإذا كان التَّفاضل بالقرآن بين الشُّهداء، فالتَّفاضل به بين الأحياء ولا شَكَّ أكبر وأعظم: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. فليتأمَّلِ المسلم هذا الأمرَ جيِّداً، ويقف عنده طويلاً، وَمِنْ ثَمَّ يقوده للعناية بالحفظ والإكثار منه والصَّبر عليه[١].

المطلب الثالث

فضائل متنوِّعة للحافظ

١ ـ الحُفَّاظ أهل الله وخاصَّته:

من تمام إكرام الله تعالى لحملة كتابه أنْ جعلهم من أهله وخاصَّته، وهو شرف عظيم، وتكريم لحفَّاظِ القرآن لا يُدانيه أيُّ شرف يسعى إليه النَّاس في الدُّنيا؛ ذلك أنَّ العبد الضَّعيف يُصبح من أهل الله وخاصته، ولا شكَّ أنَّ أهل الله وخاصَّته، هم أقرب النَّاس إلى نيل رحمته، وكرامته، ومحبَّته، والقرب منه تعالى. فهو فضْلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء، والله واسع عليم.

عن أنس بنِ مالكٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ للهِ أهْلِينَ[٢] مِنَ النَّاسِ» قَالُوا: يَارَسُولَ اللهِ! مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ أهْلُ القُرآنِ، أهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»[٣].

---

(١) انظر: أنوار القرآن (ص٢٥٠).

(٢) (أهْلِينَ): جَمْعُ أهلٍ، جُمعت بالياء والنون لكونها ملحقاً بجمع المذكَّر السَّالم، ونُصبت بالياء لكونها اسم إنَّ مؤخَّر.

(٣) رواه ابن ماجه في «المقدِّمة» (١/ ٧٨) (ح٢١٥)؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٢) (ح١٧٨).

والمقصود بأهلِ الله وخاصَّتِه في الحديث المذكور:

هم حَفَظَةُ القرآن، العاملون به، هم أولياء الله، والمُخْتَصُّون به اختصاصَ أهل الإنسان به.

وقيل: هم الذين يختصُّون بخِدْمته، فإنَّه لمَّا قرَّبهم واختصَّهم كانوا كأهله، ومنه قيل لأهل مكَّة: أهل الله، لمَّا كانوا سكَّان بيته وما حوله كانوا كأهله[1].

وإذا اختَصَّ المخلوقُ أحداً من المخلوقين قرَّبَهُ منه وأفاضَ عليه من إكرامه وعطائه ومحبَّته الشيءَ الكثير، فما الظَّنُّ بالله الكريم ـ وله المثل الأعلى في السَّماوات والأرض ـ مالِكِ المُلك ذي الجلال والإكرام.

فأكْرِمْ به من فَضْل، وأعْظِمْ بها من مكانة ومنزلة يطمح إليها كُلُّ مؤمن، وتصبو إليها كلُّ نفس تريد وجهَ اللهِ الكريم ورضوانَه وجنَّته.

فَلْيتسب كلُّ إنسان لما يتمنَّى ويرغبُ مِنْ أهل المال أو الجاه أو المناصب أو الشُّهرة، ولْتَجْدِ القواميس بكلِّ وصفٍ وثناءٍ، فهل تأتي بأكملَ ممَّا وُصِفَ به حملة كتاب الله: «أَهْلُ اللهِ وخَاصَّتُهُ»؟[2].

٢ ـ إكرام الحافظ في الدُّنيا:

إكرام حافظ القرآن الكريم من إجلال الله تعالى وتعظيمه؛ لعظيم حرمة الحافظ ومنزلته عند الله تعالى.

فعن أبي مُوسَى الأشعرِيِّ ﵁، قال: قال رسُولُ الله ﷺ:

«إنَّ مِنْ إجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ، وَحَامِلِ القُرآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ[3]

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (١/٨٣)، لسان العرب (١١/٢٨)، شرح سنن ابن ماجه (١/٢٠)، فيض القدير (٥/٢٣٤١، ٢٠٦٠).

(٢) انظر: حفظ القرآن الكريم (ص١٥)، أنوار القرآن (ص٢٣٩).

(٣) (غير الغالي فيه): الغلوُّ هو التَّشديد ومجاوزة الحدِّ، والمعنى: غير المتجاوز الحدَّ في العمل بالقرآن، وتتبُّع ما خفي منه واشتبه عليه من معانيه، وفي حدود قراءته ومخارج حروفه. وقيل: الغلوُّ المبالغة في التَّجويد، أو الإسراع في القراءة، بحيث يمنعه عن تدبُّر المعنى.

والجَافِي عنه[(١)]، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ»[(٢)].

وسُمِّي الحافظُ حاملاً للقرآن: لِمَا يتحمَّلُه من المشاقِّ الكثيرة والتي تزيد على الأحمال الثَّقيلة[(٣)]، فحُقَّ له أن يُكْرَمَ ويُعظَّمَ ويُبجَّلَ؛ لأنَّ في ذلك تبجيلاً وتعظيماً وإجلالاً لله تعالى، ذلك أنَّ الحافِظَ قد حَوَى صدرُه كلامَ الله تعالى، فمن هنا ينبغي إكرامُه وإنزالُه المنزلةَ اللَّائقة به.

٣ ـ ثناء الله تعالى على الحُفَّاظ:

مَدَحَ الله تَعالى حفَّاظَ كتابه وأثنى عليهم بِأَنْ جعل كتابه آيات بيِّنات في صدورهم، وفي هذا مَنقبةٌ عظيمة لهم، دون غيرهم، فقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

«أي في صدور العلماءِ به وحُفَّاظِه، وهما من خصائص القرآن، كونه آيات بيِّنات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصُّدور بخلاف سائر الكتب؛ فإنَّها لم تكن معجزات ولا كانت تُقرأ إلَّا مِنَ المصاحف»[(٤)].

«ووَصفهم بالعلم؛ لأنهم مَيَّزُوا بأفهامهم بين كلام الله، وكلام البشر والشَّياطين»[(٥)].

فهؤلاء الحُفَّاظ «سادةُ الخَلْق، وعقلاؤهم، وأُولو الألباب منهم، والكُمَّلُ منهم. فإذا كان آيات بيِّنات، في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حُجَّةً على غيرهم»[(٦)].

فكفى بحافظ القرآن فخراً وشرفاً أنَّ الله تعالى أكرمه وجعله من أسباب

---

(١) (والجافي عنه): أي غير المتباعد عن القرآن، المُعْرِض عن تلاوته، وإحكام قراءته، ومعرفة معانيه، والعمل بما فيه.
وقيل: الجفاء أن يتركه بعد ما عَلِمه، لا سيَّما إذا كان نَسِيه؛ فإنه عُدَّ من الكبائر.
انظر: عون المعبود (١٣/ ١٩٢).

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٢٦١) (ح٤٨٤٣)؛ وحسّنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩١٨) (ح٤٠٥٣).

(٣) انظر: عون المعبود (١٣/ ١٩٢).

(٤) تفسير النسفي (٣/ ٢٦١).

(٥) تفسير القرطبي (١٣/ ٣٥٤).

(٦) تفسير السعدي (٤/ ٦٧).

حِفْظ القرآن؛ ذلك أنَّ آيات القرآن العظيم محفوظةٌ في الصُّدور والسُّطور، وهذا من أسباب حفظ الدِّين، ووسائل حفظ الشَّريعة.

فلو تطَرَّقَ تحريفٌ مَّا - جَدَلاً - إلى السُّطور فأنَّى له أن يصل إلى الصُّدور.

٤ - الحفَّاظ لا تحرقهم النَّار:

إنَّ أعظم ما يسعى إليه المسلم أن يُزحزحه الله تعالى عن النّار ويدخله الجنّة، وقد أكرم الله تعالى حُفّاظ كتابه بنجاتهم من النَّار وعدم إحراق إجسادهم الطّاهرة فيها؛ لعظمة ما في صدورهم مِنْ كلامِ الله تعالى.

فعن عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ كَانَ القُرآنُ فِي إِهَابٍ مَا أَكَلَتْهُ النَّارُ»[1].

فلو صُوِّر القرآنُ وجُعِلَ في إهاب وأُلقِيَ في النّار ما مسَّته النَّار، ولا أحرقته ببركته، فكيف بالمؤمن المواظِب لقراءتِه ولتلاوتِه والعملِ به؟

وقيل: المعنى مَنْ عَلّمَه اللهُ القرآن لم تحرقه نار الآخرة، فَجَعَل جِسْمَ حافِظِ القرآنِ كإهابٍ له[2].

ويشهد له ما رواه أبو الفضلِ الرّازي[3] بسنده عن يزيد بن عمرو، قال: سألْتُ الأصْمَعِيَّ عنه، قال: يعني في إنْسانٍ. أراد مَنْ علّمهُ اللهُ القُرآنَ مِن

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ١٥٥) (ح١٧٤٥٦)؛ والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٠٨) (ح٨٥٠)؛ وابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٢)؛ وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٩٥٣) (ح٥٢٨٢).

(٢) انظر: فيض القدير (١٠/ ٥١٠٤).

(٣) هو أبو الفضل، عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن بن بُندار العِجْليُّ، الرّازي، المقرئ. ولد بمكّة سنة (٣٧١هـ) ونشأ بها، وكان أبوه عالماً ثقةً شيخاً للحرم. قال السّمعاني: «كان (أبو الفضل) مقرئاً فاضلاً، كثير التّصانيف، حَسَن السّيرة، زاهداً، متعبّداً، خَشِنَ العيش، قانعاً، يُقرئ ويُسمع في أكثر أوقاته». ويبدو أنَّ تصانيفه الكثيرة فُقدت ولم يبق منها إلّا كتاب: «فضائل القرآن وتلاوته». تُوفّي بكَرْمان (ولاية مشهورة بين فارس وسجستان وخراسان) سنة (٤٥٤هـ). انظر: سير أعلام النُّبلاء (١٨/ ١٣٥)؛ معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٤٥٤)؛ مقدّمة كتابه: «فضائل القرآن وتلاوته»، تحقيق وتخريج: د. عامر حسن صبري (ص٩ - ١٦).

المسلمين وحَفْظهُ إيَّاهُ لَمْ تَحرقْهُ النَّارُ يومَ القِيَامَة إنْ أُلقِيَ فيها بالذُّنُوبِ، كما قال أَبُو أُمَامَةَ ﷺ: «اقْرَؤُوا القُرْآنَ ولا تَغرَنَّكُمْ هذه المَصَاحِفُ المُعلَّقَةُ[١]، فَإنَّ الله لا يُعَذِّبُ بالنَّارِ قَلْباً وعَى القُرْآنَ»[٢].

قال أبو عُبيد رَحِمَهُ اللهُ: «وَجْهُ هذا عندنا أن يكون أراد بالإهاب قلبَ المؤمن وجوفَه الذي قد وعى القرآن»[٣].

وقال الزَّبيدي[٤] رَحِمَهُ اللهُ في شرحه لأثر أبي أمامة ﷺ: «أي حَفِظَهُ وتدبَّره وعمل بما فيه، فَمنْ حَفِظَ ألفاظَه وضيَّعَ حُدوده فهو غيرُ واعٍ له»[٥].

وقد «ضُرِبَ المثل بالإهاب وهو جلد لم يُدبَغْ؛ لِأنَّ الفسادَ إليه أسرع ولَفْحَ النار فيه أنفذ؛ لِيُبسِهِ وجفافِه، بخلاف المدبوغ للِينِه.

والمعنى: لو قُدِّر أنْ يكون في إهاب ما مسَّته النَّار ببركة مجاورته للقرآن، فكيف بمؤمنٍ تولَّى حِفْظَه والمواظبَةَ عليه، والمرادُ نار الله الموقدة المميِّزة بين الحقِّ والباطل.

قال الطِّيبي: وتحريرُه أنَّ التَّمثيل واردٌ على المبالغة والفَرْض، كما في قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ [الكهف: ١١٠]، أي ينبغي ويحقُّ أنَّ القرآن لو كان

---

(١) لعلَّ المقصود: الحثُّ على فضيلة حفظ القرآن عن ظَهْرِ قلبٍ، والله أعلم.

(٢) رواه الرازي في «فضائل القرآن وتلاوته» (ص١٥٤) (رقم ١٢٥)؛ والبخاري في «خلق أفعال العباد» (١/ ٨٧) (رقم ٢٧٣)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٣٣) (رقم ٣٠٠٧٩)؛ والدارمي في «سننه» (٢/ ٣٠٦) (رقم ٣٣١٩)؛ وصحَّح إسناده ابنُ حجر في «فتح الباري» (٩/ ٧٩).

(٣) فضائل القرآن (ص٥٤).

(٤) هو أبو الفيض، محمَّد بن عبد الرَّزاق الحسيني، الزَّبيدي، الملقَّب بمرتضى، لغويٌّ، نحويٌّ، محدِّثٌ أصولي. أصله من واسط (في العراق)، ولد في الهند سنة (١١٤٥هـ)، ومنشأه في زبيد (باليمن)، رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر، فاشتهر فضلُه، وكاتبَه الملوكُ. توفِّي بالطَّاعون في مصر سنة (١٢٠٥هـ)؛ من تصانيفه الكثيرة: «تاج العروس في شرح القاموس»، و«إتحاف السَّادة المتَّقين في شرح إحياء العلوم للغزالي»، و«بُلغة الغريب في مصطلح آثار الحبيب» وغيرها.
انظر: معجم المؤلِّفين (٣/ ٦٨١)؛ الأعلام (٧/ ٧٠).

(٥) إتحاف السَّادة المتقين (٤/ ٤٦٥).

في مثل هذا الشَّيء الحقير الذي لا يُؤْبَهُ به، ويُلقى في النَّار ما مسَّته، فكيف بالمؤمن الذي هو أكرمُ خَلْقِ الله، وقد وعاه في صدره، وتفكَّر في معانيه، وعَمِلَ بما فيه، كيف تمسُّه، فضلاً عن أن تحرقه»[١].

فهنيئاً لمن حَفِظ كتابَ الله تعالى فجمعه في صدره، وعَملَ بما فيه، هنيئاً له بهذه البشارة في النَّجاة من النَّار، وهذا من أعظم فضائل حفظ القرآن الكريم. فهل من مُشمِّرٍ؟

---

(١) فيض القدير (١٠/٥١٠٥).

المبحث الرابع

حُكم حفظِ القرآن ونسيانِه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حكم حفظ القرآن.

المطلب الثاني: حكم نسيان القرآن.

المطلب الأول

حكم حفظ القرآن

حِفْظُ القرآن فرضُ كفايةٍ على الأمّة:

حِفْظُ القرآن العظيم كاملاً - عن ظهر قلبٍ - فرض كفايةٍ على الأمّة بالإجماع[١]، فإنْ قام بذلك قوم سقط الإثم عن الباقين.

وفي ذلك يقول السُّيوطي رحمه الله: «اعلم أنَّ حِفْظَ القرآن فرضُ كفايةٍ على الأمّة؛ صرَّح به الجرجانيّ في الشّافي، والعباديّ، وغيرهما.

قال الجُويني: والمعنى فيه ألّا ينقطع عدد التّواتر فيه، فلا يتطرّق إليه التّبديل والتّحريف، فإنْ قام بذلك قومٌ يَبْلغون هذا العدد سقط عن الباقين، وإلّا أثِمَ الكلُّ»[٢]. ويحصل فرض الكفاية بحفظ جميع القرآن من شخص واحد[٣].

حُكْم حفظِ القرآن على أفراد المسلمين:

١ - يجب على كلِّ مسلمٍ حِفْظُ ما تَصِحُّ به صلاتُه من القرآن بالإجماع[٤].

وهو الفاتحة، ومقدار ما يجزئ بعدها - عند منْ يقول بوجوب القراءة بعد الفاتحة؛ لأنّ من القواعد المقرّرة في الشريعة: أنّ ما لا يتمُّ الواجب إلّا به فهو

---

(١) انظر: الدر المختار، للحصكفي (١/٥٣٨)؛ الإقناع (١/١٤٨)؛ منتهى الإرادات (١/١٠٤)؛ فضائل القرآن، لابن كثير (ص٧١)؛ كشاف القناع (١/٤٢٨)؛ مطالب أولي النهى (١/٦٠٢)؛ الفتاوى الكبرى (١/ ٢١٢ - ٢١٣)؛ حاشية الروض المربع (٢/ ٢٠٧)؛ نيل المآرب (١/١٦٨).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٤٧). وانظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٥٦)؛ المنثور في القواعد، للزركشي (٣/ ٣٥).

(٣) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص٤٥٢).

(٤) انظر: مراتب الإجماع، لابن حزم (ص١٥٦)؛ الفواكه الدواني (٢/ ١٢٤)؛ شرح الزرقاني على مختصر خليل (٧/ ١٨)؛ فتح الباري (٨/ ٧٠٢)؛ آداب المشي إلى الصلاة (ص٣١)؛ حاشية الروض المربع (٢/ ٢٠٧).

واجب، والصّلاة واجبة ولا تتمُّ إلّا بالفاتحة، ومقدار ما يجزئ بعدها ـ عند منْ يقول بوجوبه[١].

٢ ـ أما بقيَّة القرآن فحِفْظه مستحبٌّ بالإجماع[٢].

جاء في (حاشية الرَّوض المُربِع): «يستحبُّ حفْظُ القرآن إجماعاً، وفيه فضل عظيم، وحفْظه فرض كفايةٍ إجماعاً... ويجب منه ما يجب في الصَّلاة اتّفاقاً»[٣].

٣ ـ وحِفْظ القرآن الكريم متأكّدٌ في حقِّ طلّاب العلم الشَّرعي أكثر من غيرهم، ولذا كان ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ يقول: «ولا أقول: إنَّ حفْظه (القرآن) كُلّه فرضٌ، ولكن أقول: إن ذلك واجب لازم على منْ أحبَّ أن يكون عالماً»[٤].

حِفْظ القرآن الواجب والمستحبُّ مُقدَّم على غيره:

حِفْظ القرآن الواجب مُقدَّم على غيره من العلوم الواجب تعلُّمها، فأمَّا ما لم يجب حفْظُه من القرآن فيُقدَّم عليه ما وجب على المكلَّف تعلُّمه عيناً، كتعلُّم ما أمره الله به وما نهاه عنه، ويبقى الحفظ المستحبُّ للقرآن مقدَّماً على غيره من العلوم الأخرى غير الواجبة عيناً[٥].

وينبغي على طالب العلم: أن يصرف عنايته أوّلاً إلى حفظ كتاب الله تعالى، ثمَّ يترقَّى إلى بقيَّة العلوم والفنون الأُخرى إنْ أراد التّوفيق والنَّجاح، وكان السَّلف لا يعلِّمون الحديث والفقه إلّا لمن يحفظ القرآن[٦].

وعن ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ أنَّه قال: «طلَبُ العلم درجاتٌ ومناقِلُ ورُتبٌ لا ينبغي تعدِّيها، ومَنْ تعدَّاها جملةً فقد تعدَّى سبيل السَّلف ـ رحمهم الله ـ ومَنْ تعدَّى سبيلهم عامداً ضلَّ، ومنْ تعدَّاه مجتهداً زلّ، فأوّل العلم حفْظُ كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) انظر: الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم (ص١١).
(٢) انظر: الإقناع (١/١٤٨)؛ آداب المشي إلى الصلاة (ص٣١).
(٣) (٢/٢٠٧).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢/١٦٧).
(٥) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص٤٥٢).
(٦) انظر: المجموع (١/٦٩).

وتفهُّمه، وكلُّ ما يعين على فهمه فواجبٌ طلبُه معه»(١).

حُكم تحفيظ القرآن للصِّبيان:

يُستحبُّ تحفيظُ القرآن للصِّبيان؛ لأنه منهج السَّلف الصَّالح مع أبنائهم، وخير شاهدٍ على ذلك:

١ ـ ما ورد عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رحمه الله قال: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ المُفَصَّلَ هُوَ المُحْكَمُ».

قالَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وَقَدْ قَرَأْتُ المُحْكَمَ»(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: «فيه دلالةٌ على جواز تعليم القرآن في الصِّبَا، وهو ظاهر، بل قد يكون مُستحبّاً أو واجباً؛ لأنَّ الصَّبيَّ إذا تعلَّم القرآنَ بلغ وهو يعرف ما يُصلِّي به، وحِفظُه في الصِّغر أولى من حِفْظِهِ كبيراً، وأشدُّ عُلوقاً بخاطره، وأرسخُ وأثبتُ، كما هو المعهود من حال الناس»(٣).

٢ ـ ما ورد عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أنَّه قال: «سَلُونِي عَنِ التَّفسير؛ فإنِّي حَفِظْتُ القرآنَ وأنا صَغِيرٌ»(٤).

فالحفظُ في الصِّغر أسهلُ منه في الكِبَر، وأشدُّ علوقاً بالذِّهن، ورسوخاً وثباتاً في القلب، وعقْلُ الصَّغير ما زال بكراً لم يُثْقَل بأعباء الحياة ومنغِّصاتها التي تؤثِّر على إمكانية الحفظ، فيُحفَّظون من القرآن ما لا يثقل عليهم ويجعلهم يملُّون القرآن، وتُتاح لهم فرصة ممارسة اللَّعب؛ لتجديد نشاطهم وهمَّتهم(٥).

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٦٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: تعليم الصِّبيان القرآن (٣/ ١٦٢٢) (رقم ٥٠٣٥).

(٣) فضائل القرآن (ص٢٢٦).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٨٤)؛ قال ابن حجر: «أخرجه ابن سعيد وغيره بإسناد صحيح».

(٥) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص٤٥٣ ـ ٤٥٤).

المطلب الثاني

حُكم نسيان القرآن

الإعراض عن تعاهد القرآن، وعدم الاعتناء بذلك، تهاون كبير، وتفريط شديد، بحقِّ كتاب الله تعالى، الذي أنزله الله ﷻ؛ ليقرأه النَّاس، ويتعاهدوه، ويعملوا وِفْقَ أحكامه[(١)].

وقد حكى الله تعالى شِكايةَ الرَّسول ﷺ لربِّه هجران قومه للقرآن، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وقد مضى ـ في بداية البحث ـ معنى قوله: ﴿مَهْجُورًا﴾ أي: أنَّه متروك بالكليَّة، فلم يؤمنوا به، ولم يرفعوا إليه رأساً، ولم يتأثَّروا بوعيده[(٢)].

وقد قرَّر جَمْعٌ من المفسِّرين: بأنَّ في الآية تلويحاً إلى أنَّ الواجب على المؤمن أن يكون كثير التَّعاهد للقرآن؛ كي لا يندرج تحت ظاهر النَّظْم الكريم، فإنَّ ظاهره ذمُّ الهجر مطلقاً[(٣)].

آثار في التَّحذير من نسيان القرآن:

* عن أبي العالية رحمه الله أنه قال: «كنَّا نَعُدُّ من أعظم الذُّنوب، أن يتعلَّم الرَّجل القرآن ثم ينام عنه، حتَّى ينساه»[(٤)].

* وجاء عن ابن سيرين رحمه الله ـ بإسنادٍ صحيح ـ في الذي ينسى القرآن: «كانوا يكرهونه، ويقولون فيه قولاً شديداً»[(٥)].

---

(١) انظر: فضائل القرآن، لابن كثير (ص٢٢١).

(٢) انظر: الفصل الثاني من الباب الأول (ص٤٢ ـ ٤٦).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي (٤/ ٢١٥)؛ تفسير أبي السعود (٦/ ٢١٥)؛ روح المعاني (١٩/ ١٣ ـ ١٤)؛ تفسير الثعالبي (٣/ ١٣٤).

(٤) رواه أحمد في «الزهد» (١/ ٣٠٣)؛ وأورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٣/ ٢١٢)؛ وابن حجر في «المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية» (١٤/ ٤٠٩) (رقم ٣٥٠٢)، وقال في «فتح الباري» (٩/ ٨٦): «إسناده جيد».

(٥) أورده ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» (٩/ ٨٦) وصحَّحه.

* وعن طلق بن حبيب[١] ﷺ، أنه قال: «مَنْ تعلَّم القرآنَ ثمَّ نسِيَه من غير عذرٍ، حُطَّ عنه بكلِّ آيةٍ درجة، وجاء يوم القيامة مخصوماً»[٢].

* وقال ابن المُنادي[٣] ﷺ: «ما زال السَّلف يُرهِّبون نسيان القرآن بعد الحفظ؛ لما في ذلك من النَّقْص»[٤].

نسيان القرآن نوعان:

النَّوع الأول: الذي ينشأ لاشتغاله بأمرٍ دنيويٍّ ـ ولا سيَّما إنْ كان محظوراً[٥] ـ حتَّى يؤدِّيَ بصاحبه إلى إهمال مراجعة القرآن، وترك تلاوته، وهذا هو المذموم الذي ورد فيه الوعيد.

وليس المقصود (بالأمر الدُّنيوي): بذل الوقت في كسب قُوْتِه، فهذا مأمور به، ولكن المقصود هو الإفراط، واللُّهاث وراء الدُّنيا وشهواتها، بحيث يتعلَّق قلبه بها، ممَّا يؤدِّي إلى هجر القرآن[٦].

---

(١) هو طَلْقُ بن حبيبٍ العنزي، بصريٌّ ثقةٌ، زاهد كبير من العلماء العاملين، حدَّث عن ابن عباسٍ، وابن الزبير، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالكٍ، وغيرهم. كان طيِّبَ الصوت بالقرآن، برّاً بوالديه، قال طاووس: «ما رأيت أحداً أحسن صوتاً منه، وكان ممَّن يخشى الله». مات طلْقٌ قبل المئة.
انظر: سير أعلام النُّبلاء (٤/ ٦٠١)؛ معرفة الثِّقات (١/ ٤٨٢).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٢٤) (رقم ٢٩٩٩٧)؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣/ ٣٦٠) (رقم ٥٩٧٠).

(٣) هو أبو الحسين، أحمد بن جعفر بن محمَّد بن عبيد الله بن أبي داود ابن المُنادي، البغدادي، ولد سنة (٢٥٦هـ)، عالمٌ مشارك في كثير من العلوم، وكان الغالب عليه علوم القرآن. قال أبو عمرو الدَّاني: «مقرئ جليل في غاية الإتقان، فصيح اللِّسان، عالمٌ بالآثار، نهايةٌ في علم العربيَّة، صاحبُ سُنَّة، ثقةٌ مأمون». من مصنَّفاته الكثيرة، «ناسخ القرآن ومنسوخه»، و«اختلاف العدد»، و«دعاء أنواع الاستعاذات من الآفات والعاهات». توفِّي سنة (٣٣٦هـ).
انظر: تاريخ بغداد (٤/ ٦٩)؛ سير أعلام النُّبلاء (١٠/ ٨٩).

(٤) متشابه القرآن العظيم، لابن المُنادي (ص٥٢).

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٨٥).

(٦) انظر: خصائص القرآن الكريم (ص١٨٢).

وقد سُئِل أبو الحسن القابسيُّ[١] رحمه الله عمّن حَفِظَ القرآنَ ثمَّ نسيه، فأجاب قائلاً: «وأمَّا سؤالك عمّن تعلَّم، ثمّ ضيَّعه حتَّى نَسِيَه، فإنْ كان تضييعه إيّاه زهادةً فيه - ليس بغالبٍ عليه عَمَلٌ يقومُ له به عذرٌ - فهو الذي أخشى عليه من شيءٍ قد جاء فيمَنْ تعلَّم القرآن ثمَّ نَسِيَه، فهي نِعمةٌ كَفَرَها، وإنَّما يكون ذلك فيمَنْ تعمَّد التَّشاغل به عنه.

فإنْ كان تشاغله عنه بعملٍ من أعمالِ السُّفهاء كان أشدّ.

وما يُدريك أنَّ ذلك النِّسيان إنَّما أصابه عقوبةً؛ لاشتغاله عنه بسوء الاكتساب، فكان اكتسابُه السُّوءَ ذنباً منه عُجِّلَتْ له عقوبتُه، بأنْ نَسِيَ القرآنَ بعد ما حفظه»[٢].

النَّوع الثاني: الذي لا ينشأ عن تقصيرٍ وإهمال، وإنَّما هو ناتج عن ضعف الذَّاكرة، أو تقدُّم السنّ، أو الانشغال بأمورٍ لا طاقة له في دفعها، ولا سيّما إنْ كان نسيانه عن اشتغالٍ بأمرٍ دينيٍّ كالجهاد - كما صرَّح به ابن حجر[٣]، وكذا تعلُّم العلم الواجب أو المندوب، ومِثْلُه الاشتغال بتعليم العلوم الشَّرعية، فكلُّ ذلك لا يدخل - إنْ شاء الله - في هجر الحفظ المذموم.

وقد نقل ابن رشدٍ المالكي[٤] رحمه الله الإجماعَ على ذلك، بقوله: «لا إثم على

---

(١) هو أبو الحسن، علي بن محمد بن خلف المعافريّ، الفرويّ، القابسيّ، المالكيّ، ولد سنة (٣٢٤هـ)، كان حافظاً للحديث والعلل، بصيراً بالرِّجال، عارفاً بالأصلين، رأساً في الفقه، ديِّناً تقيّاً، وكان ضريراً، مُصنِّفاً يقِظاً، وكُتُبُه في نهاية الصِّحّة، وكان يضبطها له ثقاتُ أصحابِه، من تصانيفه: «المهد في الفقه وأحكام الدِّيانة»، و«المنقذ من شبه التَّأويل»، و«ملخَّص الموطَّأ». توفِّي بالقيروان سنة (٤٠٣هـ).
انظر: تذكرة الحفّاظ (٣/ ٢٦٤)؛ سير أعلام النُّبلاء (١٧/ ١٥٨).

(٢) آداب المعلِّمين والمتعلِّمين، لابن سحنون (ص٢٧٨).

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٨٥).

(٤) هو أبو الوليد، محمد بن أحمد بن أحمد بن رُشْد القرطبيُّ، المالكيُّ، قاضي قرطبة، شيخ المالكيَّة، كان فقيهاً، عالماً، حافظاً للفقه، مُقدَّماً فيه على جميع أهل عصره، حَسَنَ الخُلق، سهل اللِّقاء، مع الدِّين والحلم والوقار (وهو المعروف بابن رُشْدِ الجَد)، وحفيدُه فيلسوف زمانه، ويعرف بابن رشدٍ الحفيد. عاش الجدُّ سبعين سنة، وتوفِّي سنة (٥٢٠هـ).
انظر: سير أعلام النُّبلاء (١٩/ ٥٠١).

منْ ترك المعاهدة على درس القرآن غفلةً عن ذلك، واشتغالاً بما سواه من الواجبات والمندوبات، حتَّى نَسِي منه سورةً أو آيةً، بإجماعٍ من أهل العلم»[١].

الفَرْق بين السَّهو العارض والنِّسيان الدَّائم:

هناك فرق بين النِّسيان الذي ينشأ عن التَّقصير وإهمال الحفظ، وبين السَّهْو العارض الذي هو أمْرٌ جُبِلَ عليه الإنسان، فهذا السَّهْو غير مستبعد ولا مستغرب، ناهيك أنْ يكون مستنكراً، وقد قيل: الإنسان مَحَلُّ النِّسيان، وعليه يُحمل قول القائل:

وما سُمِّي الإنسانُ إلَّا لنَسْيِهِ ... ولا القلْبُ إلَّا أنَّهُ يتقلَّبُ[٢]

وكيف يُستنكر مثل هذا، وقد قال الله تعالى ـ لإمام الحفَّاظِ وسيِّدِهم ﷺ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦ ـ ٧].

«عن ابن عباس رضي الله عنهما: إلَّا ما أراد الله أنْ ينسيكَهُ لِتَنْسى، وقيل: لما جُبِلْتَ عليه من الطِّباع البشرية لكن ستَذْكُره بعد»[٣].

ومعنى الآية: سنحفَظُ ما أوحيناه إليك من القرآن، ونُوعِيه قلبَك، فلا تنسى منه شيئاً. وهي بشارةٌ عظيمة من الله تعالى للنَّبيِّ ﷺ، أنَّ الله ﷻ سيعلِّمه علماً لا ينساه.

إلَّا ما شاء الله ممَّا اقتضت حِكمتُه تعالى أن يُنسيكَهُ لمصلحةٍ، وحِكمةٍ بالغة[٤].

وعَنْ عائِشة رضي الله عنها قالَتْ: سَمِعَ رسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلاً يَقْرَأُ في سُورَةٍ بِاللَّيْلِ فقَالَ: «يَرْحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً، كُنْتُ أُنسِيتُهَا مِن سُورَةِ كَذَا وَكَذَا»[٥].

---

(١) فتاوى ابن رشد (٢/ ٧٧٣).
(٢) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (١/ ١٢٤).
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٨٥).
(٤) انظر: تفسير السعدي (٥/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).
(٥) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: نسيان القرآن، وهل يقول: نسيتُ آية كذا وكذا (٣/ ١٦٢٢) (ح٥٠٣٨).

نسيان النّبيّ ﷺ لشيء من القرآن نوعان:

قال الإسماعيلي[(١)] رحمه الله: «النّسيان من النّبيّ ﷺ لشيء من القرآن يكون على قسمين: أحدهما: نسيانه الذي يتذكّره عن قُرب، وذلك قائم بالطّباع البشرية، وعليه يدلُّ قوله ﷺ - في حديث ابن مسعودٍ، في السّهو: «إنَّمَا أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»[(٢)]. والثّاني: أنْ يرفَعَه الله عن قلبه على إرادة نسخ تلاوته، وهو المشار إليه بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦ - ٧].

قال: فأمّا القِسْمُ الأوّل: فعَارِضٌ سريعُ الزّوال؛ لِظَاهِرِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وأمّا الثّاني: فداخِلٌ في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]»[(٣)].

ومن الفوائد التي ذكرها ابن حجرٍ رحمه الله - في شرحه للحديث - قوله: «وفي الحديث: حُجَّةٌ لمَنْ أجاز النّسيان على النّبيّ ﷺ فيما ليس طريق البلاغ مطلقاً، وكذا في طريقة البلاغ لكن بشرطين: أحدهما: أنّه بعد ما يقع منه تبليغه، والآخر: أنّه لا يستمر على نسيانه بل يحصل له تَذَكُّره، إمّا بنفسه وإمّا بغيره... فأمّا قبلَ تبليغه: فلا يجوز عليه النّسيان أصلاً...

وفي الحديث أيضاً: جواز رفع الصّوت بالقراءة في الليل، وفي المسجد،

---

(١) هو أبو بكر، أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العبّاس الإسماعيلي، الجرجاني، كبير الشّافعية بناحيته، ولد سنة (٢٧٧هـ)، قال الحاكم: «كان الإسماعيلي واحدَ عصره، وشيخ المحدّثين وأجلّهم في الرّياسة والمروءة والسّخاء، ولا خلاف بين علماء الفريقين وعقلائهم فيه». من تصانيفه: «الصّحيح على شرط البخاري»، و«الفرائد»، و«العوالي» وغيرها. توفّي بجرجان سنة (٣٧١هـ).
انظر: طبقات الحفّاظ (١/ ٣٨٢)؛ تذكرة الحفّاظ (٣/ ٩٤٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب: التّوجّه نحوَ القبلةِ حَيْثُ كان (١/ ١٤٦) (ح٤٠١)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: السّهو في الصّلاة والسّجود له (١/ ٤٠٢) (ح٥٧٢).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٨٥ - ٨٦).

والدُّعاء لِمَنْ حَصَلَ له من جهته خير، وإنْ لم يقصدِ المحصولَ منه ذلك»[١].

فالذي حصل للنَّبيِّ ﷺ هو من السَّهْو العارض بمقتضى بشريَّته ﷺ، ومَنْ حصل له ذلك في حِفْظِه فلا يُلام، وهو أمرٌ ملازم للبشر، ولذلك قال ابن رشدٍ ﷺ: «فلو كان نسيانُ شيءٍ من القرآن ذنباً لما نسيه رسول الله ﷺ، وليس النِّسيان لشيءٍ من القرآن أو غيره بكسبٍ للعبد[٢]؛ إذْ لا يكون بقصده واختياره فيأثم بفعله، وإنَّما يأثم بأنْ يفعلَ ما يُنْسِيه اللهُ به ذلك على الوجه المنهيِّ عنه، وذلك بَيِّنٌ من قولِ النَّبيِّ ﷺ: «بِئْسَمَا لأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ»[٣]، فنهى ﷺ أنْ يقول رجل: نَسِيتُ، فَيُضيف إلى نفسِه ما ليسِ من كسبه، وأَمَرَهُ أنْ يقول: أُنْسِيت»[٤].

فالحريص على حفظ القرآن، وهو دائبٌ على تلاوته، إلَّا أنَّ النِّسيان يغلبه، فنسيانه عارضٌ، وليس بدائم، ولا يدخل في الذَّم، بدليل: حديث عائشة ﷺ[٥].

قال سفيان بن عيينة ﷺ: «ليس مَنِ اشْتُهِرَ بحفظ شيءٍ من القرآن، وتَفَلَّت منه بناسٍ، إذا كان يُحِلُّ حلاله، ويُحَرِّم حرامه»[٦].

والخلاصة: أن النِّسيان المذموم، هو ما أشار إليه ابن حجر الهيتمي ﷺ بقوله: «المراد بالنِّسيان المحرَّم: أنْ يكون بحيثُ لا يُمكنه مُعاودةُ حِفْظِه الأوَّل إلَّا بعد مزيد كُلْفَةٍ وتَعَبٍ؛ لِذَهَابِه عن حافظته بالكُلِّيَّة، وأمَّا النِّسيان الذي يُمْكِنُ معه التَّذَكُّرُ بمجرَّد السَّماع أو إعمالِ الفِكرِ، فهذا سَهْوٌ، لا نسيانٌ في الحقيقة، فلا يكون مُحَرَّماً»[٧].

---

(١) المصدر نفسه (٩/ ٨٦).

(٢) أي: بمقدور العبد واختياره.

(٣) رواه البخاري ـ بألفاظٍ مُقاربة. انظر: كتاب فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (٣/ ١٦٢١).

(٤) فتاوى ابن رشد (٢/ ٧٧٦).

(٥) انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد (٣/ ١٤٩)؛ تفسير الطبري (١٦/ ٣١)؛ مرقاة المفاتيح (٥/ ٧٢).

(٦) التذكار في أفضل الأذكار (ص٢١٤). وانظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٤/ ١٣٢)؛ الاستذكار (٢/ ٤٨٩).

(٧) الفتاوى الفقهية الكبرى (١/ ٣٦).

حُكم نسيان القرآن:

ذكر جَمْعٌ من أهل العلم: أنَّ نسيان القرآن، أو شيء منه ـ بعد حفظه ـ ذنبٌ عظيم، بل صرَّح بعضهم: بأنَّه كبيرة من الكبائر، ومن هؤلاء: الرَّافعي، والنَّووي. وتبعهم في ذلك: السُّيوطي، وابن حجرٍ الهيتمي، والمُناوي.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واختلف السَّلف في نسيان القرآن، فمنهم مَنْ جعل ذلك من الكبائر»[1].

وقال السُّيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نسيانه كبيرة، صرَّح به النَّووي في الرَّوضة وغيرها»[2].

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عَدُّ نسيانِ القرآنِ كبيرةً، هو ما جرى عليه الرَّافعي وغيرُه»[3].

وبيَّن المُناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سَبَبَ كونِ النِّسيان كبيرة، بقوله: «لأنَّه (أي: النِّسيان) إنَّما نشأ عن تشاغله عنها (أي: الآيات القرآنيَّة) بلهوٍ أو فضولٍ، أو لاستخفافه بها، وتهاونه بشأنها، وعدم اكتراثه بأمرها، فيعظم ذنبُه عند الله؛ لاستهانة العبد له، بإعراضه عن كلامه»[4].

وقال أيضاً: «نسيانُ القرآنِ كبيرةٌ، ولو بَعْضاً منه، وهذا لا يناقضه خَبَرُ: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ والنِّسْيَانُ)[5]؛ لأنَّ المعدود هنا ذنباً، التَّفريطُ في محفوظه،

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٨٦).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (ص٢٦٠).

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٢٥٧). وانظر: الفتاوى الفقهية الكبرى (١/ ٣٦ ـ ٣٧).

(٤) فيض القدير (٤/ ٣١٣).

(٥) قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «إرواء الغليل» (١/ ١٢٣): «المشهور في كتب الفقه والأصول، بلفظ: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي...) ولكنَّه مُنكر». ثمَّ ذَكَر أنَّ المعروف: ما أخرجه ابن ماجه عن ابن عباسٍ مرفوعاً، بلفظ: «إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ والنِّسْيَانَ...». رواه ابن ماجه (١/ ٦٥٩) (ح٢٠٤٥)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢/ ١٧٩) (ح١٦٧٧)؛ وعند الطَّبراني في «الأوسط» (٨/ ١٦١) (ح٨٢٧٣) عن ابن عباسٍ مرفوعاً، بلفظ: «وُضِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ والنِّسْيَانُ...» وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ٦٥٩) (ح٣٥١٥).

بعدم تعاهده ودَرْسه»[١].

وذكر الزَّركشي ﷀ أنَّ الله ﷻ توعَّد المُعْرِضَ عن القرآن، ومَنْ تعلَّمه ثمَّ نَسِيه[٢].

والمراد بنسيان القرآن ـ الذي هو كبيرة من الكبائر: هو النَّاتج عن التَّشاغل بالدُّنيا، واللُّهاث وراء شهواتها، وترك تلاوة القرآن واستذكاره، كما تقرَّر سابقاً.

النِّسيان الذي يُعذر صاحبه:

إذا انشغل العبد بالعلم الواجب أو المندوب، وترتَّب على ذلك نسيان شيء من القرآن المحفوظ، فلا يُعَدُّ صاحبُه آثماً، وقد مضى أنَّ ابن رشدٍ المالكيَّ ﷀ نقل إجماعَ أهل العلم على ذلك[٣]، كمَنْ ينشغل بتعليم العلوم الشَّرعية وغيرها في المساجد أو المدارس أو الجامعات ونحوها، وكذلك المعلِّمون المنشغلون بالعلوم الواجبة أو المندوبة. ويدخل في ذلك أيضاً المنشغلون بفروض الكفايات كالدَّعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ونحوها[٤].

وقد نقل ابن حجرٍ الهيتمي ﷀ عن بعض العلماء أنَّ محلَّ كون نسيان القرآن كبيرة مشروطٌ بأنْ يكون عن تكاسل وتهاون، وهذا احترازٌ عمَّا لو اشتغل عن القرآن بمرضٍ مانعٍ من القراءة، وعدمُ التَّأثيم بالنِّسيان حينئذٍ واضح؛ لأنَّه مغلوبٌ عليه، لا اختيار له فيه[٥].

---

(١) فيض القدير (٤/٣١٣). وانظر: التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/٣٥٨).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/٤٥٨).

(٣) انظر: فتاوى ابن رشد (٢/٧٧٣)؛ مطالب أولي النهى (١/٦٠٥).

(٤) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص٤٥٤).

(٥) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (ص٢٥٨).

الفصل السَّابع

هجر تدبُّر القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التَّدبر وأهميَّته وحُكْمه.

المبحث الثاني: أسباب هجر تدبُّر القرآن.

المبحث الثالث: الأمور المعينة على تدبُّر القرآن.

المبحث الرابع: ثمرات تدبُّر القرآن.

المبحث الأول

التدبُّر وأهميَّته وحُكمه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف تدبُّر القرآن.

المطلب الثاني: أهميَّة تدبُّر القرآن.

المطلب الثالث: حُكم تدبُّر القرآن.

المطلب الأول

تعريف تدبُّر القرآن

أولاً: «التَّدبُّر» لغة:

جاء التّدبُّر في اللُّغة مصدراً مشتقّاً من الفعل الماضي (تَدَبَّرَ)، وقد ذَكَرَ جماعة من علماء اللُّغة لهذا الفعلِ ومشتقَّاتِه استعمالات عديدة، وسوف نَعْرِضُ للمعاني التي تتعلّق بموضوع البحث، وهي على النّحو الآتي:

* التَّدبُّر: مصدرٌ فِعْلُه الماضي: تَدَبَّرَ. وهو فِعلٌ مزيدٌ، اشتُقَّ من الفعل المجرَّد الماضي: دَبَرَ. ومضارعه: يَدْبُرُ، والمصدر: دَبْراً ودُبوراً[١].

* ودَبَرَ النَّهارُ أو الصَّيفُ: انصَرَم، مَضَى وانقَضَى.

* ودَبَرَ الشَّيءَ: جاء بعده وخلفَه.

* وتدبَّر الأمرَ تدبُّراً: نَظَرَ في أدباره، أي: عواقبه، وتفكَّر فيه.

* والتَّدبُّر: النَّظر في أدبار الأمر. وهو يعني: التّأمُّلَ في عواقبه، أو ما يؤول إليه[٢].

* وتدبَّر الأمرَ: رأى في عاقبتِه ما لم يره في صدره، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]. أي: ألم يتفهَّموا ما خُوطبوا به في القرآن العظيم[٣].

وخلاصة التَّدبُّر ـ في أصل اللُّغة: هو النظر في عاقبة الأمر والتفكُّر فيه، بحيث يشمل أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة[٤].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٣١)، مادة: (دَبَرَ).

(٢) انظر: مختار الصحاح (ص١٠١)، مادة: (دبر)؛ لسان العرب (٤/ ٢٨٠)، مادة: (دبر).

(٣) انظر: القاموس المحيط (ص٤٩٩)، مادة: (دبر).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٠)؛ تفسير الطبري (١/ ٨٧)؛ قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، د. عبد الرحمن بن حسن حبنكة (ص١٠).

ثانياً: «تدبُّر القرآن» اصطلاحاً:

قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصل التَّدبُّر: التَّأمُّل في أدبار الأمور وعواقبها، ثمّ استُعمل في كلّ تأمُّل، سواء كان نظراً في حقيقة الشّيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه»(١).

وقال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في معنى تدبُّر القرآن: «هو التّأمُّل في معانيه، وتحديق الفِكر فيه، وفي مبادئه، وعواقبه، ولوازم ذلك»(٢).

والخلاصة في «معنى تدبُّر القرآن»:

تفهُّم معاني ألفاظه، والتَّفكُّر فيما تدلُّ عليه آياته مطابقةً أو ضمناً، وما لا تتمُّ تلك المعاني إلّا به من الإشارات والتنبيهات، وانتفاعُ القلب بذلك، بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره ونواهيه، وأخذ العبرة منه(٣).

المطلب الثاني

أهمية تدبر القرآن

تبرز أهمية تدبُّر القرآن العظيم في أمور كثيرة، يأتي في مقدّمتها أنَّ تدبُّر القرآن وتفهُّم علومه من النُّصح لكتاب الله تعالى، وقد أشار إلى هذا المعنى أهل العلم، منهم ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «وأمّا النّصيحة لكتاب الله: فشِدّةُ حُبّه وتعظيمُ قدرِه، إذ هو كلامُ الخالق، وشدّةُ الرّغبة في فَهمِه، وشدّةُ العناية لتدبُّره، والوقوف عند تلاوته؛ لِطلب معاني ما أحبَّ مولاه أن يفهمه عنه، ويقوم به له بعدَ ما يفهمه.

وكذلك الناصح من العباد يتفهَّم وَصِيَّةَ مَنْ ينصحه، وإنْ ورد عليه كتابٌ منه عُني بفَهْمه؛ ليقوم عليه بما كُتِبَ به فيه إليه، فكذلك النّاصحُ لِكتاب ربِّه يُعنى بفَهْمه؛ ليقوم لله بما أمر به كما يحبُّ ويرضى، ثم يَنْشُرُ ما فهم في العباد، ويُديم

---

(١) روح المعاني (٥/ ٩٢). (٢) تفسير السعدي (١/ ١٨٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٠١)؛ التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص١٤٥)؛ القواعد الحسان لتفسير القرآن، للسعدي (ص٣٢)؛ تدبر القرآن، لسليمان بن عمر السنيدي (ص١١).

دراسته بالمحبّة له، والتّخلّق بأخلاقه، والتأدُّب بآدابه»[1]. وهناك أمور أخرى تُبرز لنا أهمية تدبُّر القرآن الكريم، وهي على النّحو التّالي:

أولاً: حاجة القلب إلى تدبُّر القرآن:

القلب فيه وحشة لا تُزال إلَّا بالأنس بكتاب الله تعالى، والتّأمّل في آياته، وفيه قلق وخوف لا يؤمّنه إلَّا السُّكون إلى ما بشّر الله تعالى به عباده، وفيه فاقة لا يغنيها إلَّا التّزوُّد من حِكَم القرآن ومواعظه وعبره، وفيه حيرة واضطراب لا ينجيه منها إلَّا الاعتصام بكتاب الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

ولقد حذّر الله تعالى عباده المؤمنين من مغبّة التّمادي في هجر القرآن، فتكون نتيجته قسوةَ القلوب، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

قال محمد بن كعب ﷺ: «كانتِ الصّحابة بمكّة مُجْدبين فلمّا هاجروا أصابوا الرّيف والنّعمة، ففتروا عمّا كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا»[2]. والعتاب لعامّة المؤمنين أحرى وأولى.

والأصل أنَّ قلوب المؤمنين وجلودَهم تخشع وتخضع وترقُّ وتسكن وتطمئنُّ عند ذكر الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فمَنْ أراد أن يخشع قلبه، وينشرح صدره، فلا غنى له عن التّفكُّر والتّمعُّن في الآيات الكريمات، ولا يكن همُّه ـ إذا افتتح السُّورة ـ أن يقول في نفسه: متى أختمها.

قال الآجرّي ﷺ: «فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٠٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٥٠)؛ تفسير الثعالبي (٩/ ٢٤١).

كالمرآة يرى بها ما حَسُن من فعله وما قَبُحَ فيه، فما حذّره مولاه حذَره، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّب فيه مولاه رَغِبَ فيه ورجاه.

فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصِّفة فقد تلاه حقَّ تلاوته، ورعاه حقَّ رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وحِرْزاً، ومن كان هذا وَصْفَه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلُّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة»[١].

و«كان القرآن له شفاءً، فاستغنى بلا مالٍ، وعَزَّ بلا عشيرةٍ، وأنِسَ بما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التِّلاوة للسُّورة ـ إذا افتتحها: متى أتَّعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده: متى أختم السُّورة؟

وإنَّما مراده: متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأنَّ تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة»[٢].

وقراءة القرآن بالتَّفكُّر هي أصل صلاح القلب واستقامته، ولا شيء أنفع للعبد في معاشه وأقرب إلى نجاته في معاده من تدبُّر القرآن العظيم، وفي هذا الشَّأن يقول ابن القيِّم رحمه الله: «فلا شيء أنفعُ للقلب من قراءة القرآن بالتَّدبُّر والتَّفكُّر؛ فإنَّه جامعٌ لجميعِ منازلِ السائرين، وأحوالِ العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبَّةَ والشَّوقَ والخوفَ والرَّجاءَ والإنابة والتَّوكُّل والرِّضا والتَّفويض والشُّكرَ والصَّبرَ، وسائرَ الأحوال التي بها حياةُ القلب وكمالُه، وكذلك يَزْجُرُ عن جميع الصِّفات والأفعال المذمومة التي بها فَسادُ القلبِ وهلاكُه.

فلو عَلِمَ الناسُ ما في قراءة القرآن بالتَّدبُّر، لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها.

فإذا قرأه بتفكُّرٍ، حتَّى إذا مرَّ بآيةٍ وهو محتاج إليها في شفاءِ قلبه، كرَّرها ولو مائةَ مرَّة ولو ليلة، فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءةِ ختمةٍ بغيرِ تدبُّرٍ وتفهُّم، وأنفعُ للقلب، وأدعى إلى حصولِ الإيمان وذَوْق حَلاوةِ القرآن. . . فقراءةُ القرآنِ بالتَّفكُّرِ هي أصلُ صلاحِ القلب»[٣].

---

(١) أخلاق حملة القرآن (ص٣٩ ـ ٤٠).　　(٢) المصدر نفسه (ص١٨ ـ ١٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

وأكّد ذلك في موضع آخر، فقال:

«فليس أنفعُ للعبد في معاشه ومعاده، وأقربُ إلى نجاته من تدبُّرِ القرآن، وإطالةِ التأمُّل، وجَمْعِ منه الفِكْر على معاني آياته؛ فإنَّها تُطْلِعُ العبدَ على معالم الخير والشر... وتُثَبِّتُ قواعدَ الإيمانِ في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطِّد أركانه... وتعطيه قوّةً في قلبه، وحياةً، وسعةً، وانشراحاً، وبهجةً وسروراً، فيصير في شأنٍ والنَّاسُ في شأنٍ آخر... وفي تأمُّلِ القرآن وتدبُّرِه أضعافُ أضعاف ما ذكرنا من الحِكَم والفوائد»[1].

ثانياً: الدُّخول فيمَنْ أثنى الله عليهم بتدبُّر القرآن:

أثنى الله ﷻ - في مواضعَ كثيرة من القرآن - على مَنْ تدبَّر كلامه وتأثَّر به، وبيَّن أن ذلك صفةُ عباد الله الخاشعين، ومن هذه المواضع:

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

ووجه زيادة إيمانهم - عند سماع القرآن: هو أنَّهم ألقوا السَّمع للقرآن، وأحضروا قلوبهم لتدبُّره، فعند ذلك ازداد إيمانهم ويقينهم.

فالتَّدبُّر يُحدث رغبة الخير، واشتياقاً إلى كرامة الله تعالى لهم، ووَجَلاً من عقوباته، وزجراً عن معاصيه، وكلُّ هذا ممَّا يزداد به الإيمان[2].

٢ - قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

تُبيِّن الآية الكريمة أنَّ الذين أوتوا العلم هم الذين يتأثَّرون عند سماع مواعظ القرآن؛ بسبب تدبُّرهم لآياته، وفيه إشارة إلى أنَّ مَنْ لم يتأثَّر بالقرآن فهو جاهل لا يستحق وصف العلم.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥١ - ٤٥٣).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٢/ ١٨٨).

وكَرَّرَ ذِكْرَ الخرور للأذقان؛ لاختلاف السَّبب: فالأوَّل: لتعظيم الله تعالى وتنزيهه. والثَّاني: للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم، وزيادة خشوعهم[1].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

قال القرطبي ﷺ: «فكانت حالهم (أي: رسول الله ﷺ، وأصحابه ﷺ) عند المواعظ: الفهم عن الله، والبكاء خوفاً من الله؛ ولذلك وصَفَ الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكر الله وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، فهذا وَصْفُ حالهم، وحكاية مقالهم، ومنْ لم يكن كذلك، فليس على هديهم ولا على طريقتهم، فمنْ كان مستنّاً فليستن»[2].

ثالثاً: عدم التَّعرُّض إلى الذَّمِّ لترك التَّدبُّر:

فقد ذمَّ الله تعالى حال مَنْ هجر تدبُّر القرآن، ولم يفقه الآيات، ولم يدَّبَّرِ القول في صيغ مختلفة، وأحوال متنوِّعة، ومنها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، [محمد: ٢٤].

قال القرطبي ﷺ: «عاب المنافقين بالإعراض عن التَّدبُّر في القرآن، والتَّفكُّر فيه، وفي معانيه»[3].

وزاد الشنقيطي ﷺ الأمر بياناً، بقوله: «ما تضمَّنته الآية الكريمة من التَّوبيخ والإنكار على منْ أعرض عن كتاب الله؛ جاء موضَّحاً في آيات كثيرة... ومعلوم أنَّ كُلَّ مَنْ لم يشتغل بتدبُّر آيات هذا القرآن العظيم ـ أي تصفُّحها وتفهُّمها، وإدراك معانيها، والعمل بها ـ فإنَّه مُعْرِض عنها، غيرُ متدبِّر لها، فيستحقُّ الإنكارَ والتوبيخَ المذكورَ في الآيات ـ إنْ كان الله أعطاه فهماً يقْدِرُ به على التدبُّر...

وهذه الآيات المذكورة تدلُّ على أنَّ تدبُّر القرآن وتفهُّمه، وتعلُّمه، والعمل به أمر لا بد منه للمسلمين...

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٤/ ١٨٤). (٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣٦٦).

(٣) المصدر نفسه (٥/ ٢٩٠).

فإعراض كثير من الأقطار عن النَّظرِ في كتاب الله وتفهُّمه، والعملِ به، وبالسُّنَّةِ الثَّابتة المبيِّنة له، من أعظم المناكِرِ وأشنعها»[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

أنكر الله تعالى على الكفار عدمَ تفكُّرِهم في القرآن، وتأمُّلِهم في مواعظه وعبره، وتدبُّرِهم لآياته. فإنَّهم لو تدبَّروه لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكنَّ المصيبة التي أصابتهم هو إعراضهم عن تدبُّر القرآن.

وهذا يدلُّ على أنَّ تدبُّر القرآن يدعو إلى كلِّ خير، ويعصم من كلِّ شر[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وترك تدبُّره وتفهُّمه من هجرانه»[٣].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هجر القرآن أنواع... ـ ثمَّ ذكَرَ منها ـ هجر تدبُّره وتفهُّمه ومعرفة ما أراد المتكلِّم به»[٤].

٤ ـ مَثَّلَ اللهُ تعالى اليهود مع التَّوراة أقبح تمثيلٍ، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

قال أبو بكر الطُّرطوشي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فدخل في عموم هذا مَنْ يحفظ القرآن من أهل ملَّتنا، ثمَّ لا يفهمه، ولا يعمل به»[٥].

٥ ـ جاء في وصف الخوارج، قوله ﷺ: «يَقْرَؤُونَ الْقُرآنَ لا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أو حَنَاجِرَهُمْ»[٦].

قال النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في المراد بذلك: «ليس حظُّهم من القرآن إلَّا مروره

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٥٧).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٧١)؛ تفسير السعدي (٥/ ٣٦٥).
(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ١٢٠). (٤) الفوائد (ص١٢٣).
(٥) الحوادث والبدع (ص١٠١).
(٦) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدِّين وقتالهم، باب: قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم (٤/ ٢١٦٤) (ح٦٩٣١).

على اللّسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقُّله وتدبُّره بوقوعه في القلب»[١]. والتَّعقُّل والتَّدبُّر يقود إلى العمل.

وقال الزَّركشي رحمه الله: «ذمُّهم بإحكام ألفاظِه، وتركِ التَّفهُّم لمعانيه»[٢].

٦ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا تَهُذُّوهُ (القرآن) هَذَّ الشِّعْرِ، ولا تنثروه نَثْرَ الدَّقَل؛ قِفُوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوبَ، ولا يكن هَمُّ أحدِكم آخِر السُّورة»[٣].

٧ ـ عن أبي جَمْرَةَ رحمه الله، قال: «قلتُ لابن عبَّاسٍ: إنِّي سريعُ القراءة، وإنِّي أقرأ القرآنَ في ثلاثٍ، فقال: لأنْ أقرأ البَقَرَةَ في ليلةٍ فأدبِّرَها وأُرتِّلَها؛ أحبُّ إليَّ من أن أقرأ كما تقول»[٤].

المطلب الثالث

حُكم تدبُّر القرآن

أوجب الله تعالى التَّدبُّر والتَّفكُّر وإمعان النَّظر؛ لفهم معاني آيات الكتاب العزيز، وعاب على المنافقين إعراضهم عن تدبُّر القرآن والتَّفكُّر فيه وفي معانيه في عدَّة مواضع من القرآن، ومنها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ١٠٥). (٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٥٥).

(٣) رواه البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٠٧)؛ والآجرِّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص١٩) (رقم ١)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٢٥٦) (رقم ٨٧٣٣)؛ وأورده ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤٣٥)؛ والسيوطي في «الإتقان» (١/ ٢٨٢).

(٤) رواه ابن كثير في «فضائل القرآن» (ص٢٣٦)، وقال محقِّقه (أبو إسحاق الحويني): «إسناده صحيح». ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٧٤)؛ والآجرِّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص٨٩).

إطباق المفسِّرين على وجوب تدبُّر القرآن:

دلَّت هذه الآيات ـ وما في معناها ـ على وجوب تدبُّر القرآن العظيم، وقد أطبق على ذلك جمهور المفسِّرين، وهذه بعض النُّقول الواردة عنهم في هذا الشَّأن:

* قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «في حَثِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبيِّنات... ما يدلُّ على أنَّ عليهم معرفة تأويل ما لم يُحجبْ عنهم تأويله من آيِهِ؛ لأنه محالٌ أنْ يُقال لمن لا يفهمُ ما يقالُ، ولا يعقلُ تأويلَه: اعتبرْ بما لا فهْمَ لك به... إلَّا على معنى الأمر، بأنْ يفهمه ويفقهه، ثم يتدبَّره ويعتبر به»[1].

* واستنبط القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ من قوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وجوب معرفة معاني القرآن[2]. وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ودلَّ قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ على وجوب التدبُّر في القرآن؛ لِيُعْرف معناه»[3].

وقال ابن عطيَّة الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ «وهذا أمرٌ بالنَّظر والاستدلال»[4].

* وقال أبو السُّعود رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنكارٌ واستقباح؛ لعدم تدبُّرهم القرآن، وإعراضهم عن التَّأمُّل فيما فيه من موجبات الإيمان»[5].

* وقال الشَّوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ودلَّت هذه الآية، وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ على وجوب التدبُّر للقرآن؛ لِيُعْرف معناه، والمعنى: أنهم لو تدبَّروه حقَّ تدبُّره لوجدوه مؤتلِفاً غير مختلف، صحيحَ المعاني، قويَّ المباني، بالغاً في البلاغة إلى أعلى درجاتها»[6].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٥).

(٢) انظر: تفسير للقرطبي (١٥/ ١٩٢)؛ أضواء البيان (٧/ ٤٣٨).

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٠). وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٣) (٤/ ١٨٠)؛ تفسير السعدي (١/ ١٨٩).

(٤) تفسير ابن عطية (٢/ ٨٣). وانظر: التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٤٩).

(٥) تفسير أبي السعود (٢/ ٢٠٧). وانظر: فتح القدير (٥/ ٣٨).

(٦) فتح القدير (١/ ٤٩١).

* وقال السُّيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتدبُّر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وأيضاً: فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فنٍّ من العلم؛ كالطِّبِّ والحساب، ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم»[1].

* وقال الزَّركشي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبالجملة؛ فالقرآن كلُّه لم يُنزله تعالى إلَّا ليُفْهَمَه، ويُعْلَمَ ويُفْهمَ، ولذلك خاطب به أُولي الألباب الذين يعقلون، والذين يعلمون، والذين يفقهون، والذين يتفكَّرون»[2].

ومع هذه الكثرة الكاثرة من النُّصوص الآمرة بتدبُّر القرآن العظيم، والتَّفكُّر في معانيه، وإمعان النَّظر فيه، والنَّاهية عن الإعراض عنه، وكذلك النُّقول الواردة عن علماء التَّفسير في وجوب تدبُّر القرآن، نجد أنَّ غالب المسلمين اليوم قد اكتفوا: بألفاظ يردِّدونها، وأنغام يلحِّنونها في المآتم والمقابر والدُّور، وبمصاحفَ يحملونها أو يودعونها تَرِكَةً في البيوت، ونسوا أو تناسوا: أنَّ بركة القرآن العظمى إنَّما هي في تدبُّر آياته وتفهُّمها، والتَّأدُّب بها، والوقوف عند أوامرها، والبعد عن نواهيها ومساخطها[3].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٤٦٩).
(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٤٥).
(٣) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٨).

المبحث الثاني

أسباب هجر تدبُّر القرآن

أسباب هجر تدبُّر القرآن

تمهيد:

إذا كان كثير من المسلمين قد هجروا تلاوة القرآن أو سماعَه أو حفظَه، فإنَّ الأكثر منهم قد هجروا تدبُّره هَجْراً لم تعرفه الأمَّة من قبل، وحتّى الذين يواظبون على تلاوة القرآن أو حفظِه؛ ما هو نصيبهم من تدبُّر المتلوّ والمحفوظ، وما أثر القرآن في قلوبهم؟

ولا ريب أنَّ هجر التَّدبُّر له أسباب كثيرة ومتنوِّعة، تختلف من هاجِرٍ لآخر، ولربَّما اجتمع أكثر من سبب في شخصٍ واحد، وسيكون الحديث عن أهمِّ هذه الأسباب كما يلي:

أولاً: الإصرار على الذُّنوب:

إصرار العبد على الذَّنب، وارتكابه إيّاه من أعظم الأسباب التي تحول دون تدبُّر القرآن، وفَهْم معانيه، فينبغي لمن أراد تدبُّرَ القرآن أن يبتعد عن الذُّنوب والمعاصي، ولا سيَّما التي لها اتِّصال مباشر بأدوات ووسائل التَّدبُّر وهي: القلب والسّمع واللّسان والبصر، فانهماك هذه الجوارح في الحرام يُعطِّلها عن تدبُّر القرآن، والانتفاع به، والله تعالى يقول: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

فالأكنَّة: غطاءٌ للقلب، تمنعه من فهم القرآن، والوقر: غطاء للأذن، يمنع من سماع القرآن، والحجاب: غطاء للعين، يمنع من رؤية الحقّ[١].

وتأثير الذُّنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، والقلب المريض لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟

---

(١) انظر: شفاء العليل، لابن القيم (ص٩٣).

﴿يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤][1].

فالإصرار على الذُّنوب من أعظم ما يصدُّ عن اتِّعاظ القلب، وانشراح الصدر لمواعظ القرآن، وحِكَمه وأحكامه، والله تعالى يقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «أنزعُ عنهم فَهْمَ القرآن»[2]، «فلا يفهمونه، ولا يجدون له حلاوةً ولا لذّة؛ وذلك أنَّ الفَهْم نور، إذا وَرَدَ على القلب دَنَسُ المعاصي ارتحل النُّور، فتحيَّر عن فهمه»[3].

وزاد ابن قدامة رحمه الله الأمرَ وضوحاً، فقال: «ولْيتخلَّ التَّالي عن موانع الفهم، ومن ذلك: أن يكون مُصِرّاً على ذنبٍ، أو متَّصفاً بِكِبْرٍ، أو مبتلى بهوىً مطاع، فإنَّ ذلك سببُ ظلمةِ القلب وصدئه، فالقلب مثلُ المرآة، والشَّهواتُ مِثْل الصَّدأ، ومعاني القرآن مِثْلُ الصُّوَرِ التي تتراءى في المرآة، والرِّياضة للقلب بإماطة الشَّهوات مِثْل جلاء المرآة»[4].

ومن أعظم ما يصدُّ القلب عن تدبُّر القرآن العظيم: تعلُّقه بشهوات الدُّنيا، وتمكُّن البدع منه، وفي ذلك يقول الزَّركشي رحمه الله: «اعلم أنَّه لا يحصل للنَّاظر فَهْمُ معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعةٌ، أو كِبْر، أو هوى، أو حبُّ الدُّنيا، أو هو مُصِرٌّ على ذنب، أو غير متحقِّق بالإيمان، أو ضعيف التَّحقيق، أو يعتمد على مُفسِّرٍ ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلُّها حُجُبٌ وموانعُ، بعضها آكد من بعض»[5].

ثانيا: انشغال القلب:

القلب المشغول عن القرآن بغيره لا يتأثَّر به؛ لتشعُّبه في أودية الدُّنيا، وغفلته عن تدبُّر كتاب الله، وكيف يحصل له ذلك، وهو قلب غائب ليس

---

(١) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص١٥٥).
(٢) رواه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٦٢)؛ والطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٠).
(٣) نوادر الأصول في أحاديث الرسول (١/ ١٨٢).
(٤) مختصر منهاج القاصدين (ص٥٦ ـ ٥٧). وانظر: إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٤).
(٥) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٨٠ ـ ١٨١).

بحاضر، وقد تحدَّث ابن القيِّم كَثَلَهُ عن أنواع القلوب حال سماع القرآن، فقال: «النَّاس ثلاثة: رجل قلبه ميِّت... الثَّاني: رجل له قلب حيٌّ... لكنَّه مشغول ليس بحاضر؛ فهذا أيضاً لا تحصل له الذِّكرى. والثَّالث: رجل حيُّ القلب مستعد، تُليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السَّمعَ، وأحضر القلبَ، ولم يَشْغَلْه بِغَيرِ فَهْمِ ما يسمع، فهو شاهد القلب، فهذا القِسْم هو الذي ينتفع بالآيات»(١).

فحضور القلب وعدم انشغاله شرط في الانتفاع والتَّذكُّر بالقرآن الكريم، وفي ذلك قال ابن القيِّم كَثَلَهُ ـ أيضاً: «فإذا حصل المؤثِّر: وهو القرآن. والمَحَلُّ القابل: وهو القلبُ الحي. وَوُجِدَ الشَّرط: وهو الإصغاء. وانتفى المانع: وهو اشتغالُ القلب وذهولُه عن معنى الخطاب، وانصرافُه عنه إلى شيءٍ آخرَ؛ حَصَلَ الأثَرُ: وهو الانتفاعُ والتَّذكُّر»(٢).

ثالثاً: الجهل باللُّغة العربيَّة:

أنزل الله ﷻ القرآن العظيم بلسان عربيٍّ مبين، كما قال جلَّ جلالُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

وسبب تنزُّله باللُّغة العربيَّة: هو أنَّها «أفصح اللُّغات، وأبينُها، وأوسعُها، وأكثرُها تأديةً للمعاني التي تقوم بالنُّفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللُّغات»(٣).

وإذا كان القارئ لا يعرف شيئاً عن لغة العرب، ولا يدرك أساليب كلامهم فأنَّى له أن يتدبَّر القرآن، ويعقل عن الله تعالى الخطاب، وهو سبحانه يقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. ويقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٢).
(٢) الفوائد (ص٦). وانظر: تدبر القرآن (ص٥٠).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٧).

أهميَّة معرفة العربيَّة لتدبُّر القرآن:

إنَّ جزءاً كبيراً من معاني ألفاظ القرآن وتراكيبه لا يؤدَّى إلَّا باللِّسان العربي ولا يُفْهم إلَّا به، كما جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: «التَّفسير على أربعة أوجهٍ: وَجْهٌ تعرفه العرب من كلامها، وتفسيرٌ لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلَّا الله»(١).

وهذا الذي جعل ابن تيميَّة رحمه الله يقول: «ومعلوم أنَّ تعلُّم العربيَّة؛ وتعليم العربيَّة فرضٌ على الكفاية، وكان السَّلف يؤدِّبون أولادهم على اللَّحن، فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونُصْلِحَ الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فَهم الكتاب والسُّنَّة»(٢).

وقد جعل أهل العلم معرفة العربيَّة شرطاً لمن أراد تفسير القرآن، قال الإمام مالك رحمه الله: «لا أُوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسِّر كتاب الله إلَّا جعلته نكالاً»(٣).

وقال ابن عطيَّة رحمه الله: «إعراب القرآن أصل في الشَّريعة؛ لأنَّ بذلك تقوم معانيه التي هي الشَّرع»(٤).

وعن الغاية من تعلُّم اللُّغة العربيَّة يقول ابن تيميَّة رحمه الله: «والعربيَّة إنَّما احتاج المسلمون إليها؛ لأجل خطاب الرَّسول بها، فإذا أُعْرِضَ عن هذا الأصل، كان أهل العربيَّة بمنزلة أصحاب المعلَّقات السَّبع، ونحوهم من حطب جهنَّم»(٥).

فالمقصود الأعظم من تعلُّم اللُّغة العربيَّة: هو معرفة كلامِ الله تعالى، وكلامِ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٢) (رقم ٧١)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٥١). وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧)؛ مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٨٤)؛ البرهان في علوم القرآن (٢/ ٧٤) (٢/ ١٦٤)؛ الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٤٨٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٥٢).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٢٥) (رقم ٢٢٨٧). وانظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٩٢) (٢/ ١٦٠)؛ الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢٧٤).

(٤) تفسير ابن عطية (١/ ٤٠)؛ تفسير القرطبي (١/ ٢٤).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠٧).

رسوله ﷺ، ومَنْ فاته تحقيق هذا المقصد، فقد أمضى عمره في غير ما طائل، بل ربُّما كان تعلُّمه حجَّة عليه، كحال الذين يتعلَّمون العربيَّة للطَّعن في القرآن وعلوم الشَّريعة من المستشرقين وأذنابهم[١].

المفاسد المترتِّبة على الجهل باللُّغة:

من المفاسد المترتِّبة على جهل القارئ ـ أحياناً ـ بقواعد اللُّغة العربيَّة: ما ورد عن ابن أبي مُليكة[٢] ﷺ، أنَّه قال: «قَدِمَ أعرابيٌّ في زمان عمر بن الخطاب ﷺ فقال: مَنْ يُقرئني ممَّا أنزل على محمدٍ ﷺ؟ قال: فأقرأه رجل «براءة»؛ فقال: (أنَّ الله بريء من المشركين ورسولِه). بالجرِّ، فقال الأعرابيُّ: أوَقَدْ برئ الله من رسوله؟ فإن يكن الله بَرِئَ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فبلغ عمرَ مقالةُ الأعرابيِّ فدعاه فقال: يا أعرابيُّ أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنِّي قدمتُ المدينة ولا عِلْم لي بالقرآن، فسألت مَنْ يقرئني، فأقرأني هذا سورة «براءة»، فقال: (أنَّ الله بريء من المشركين ورسولِه)؛ فقلتُ: أوَقَدْ برئ الله من رسوله، إن يكن الله بَرِئَ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابيُّ؛ قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]. فقال الأعرابيُّ: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسولُه منه؛ فأمر عمرُ بن الخطاب ﷺ ألَّا يُقرِئَ النَّاسَ إلَّا عالِمٌ باللُّغة، وأمر أبا الأسود[٣]

---

(١) انظر: تدبر القرآن (ص٩١ ـ ٩٢).

(٢) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُليكة ـ بالتصغير ـ الإمام الحجَّة، مدنيٌّ، أدرك ثلاثين من أصحاب النبيِّ ﷺ، ثقةٌ، فقيهٌ، من الثالثة. وكان عالماً مفتياً، صاحب حديثٍ وإتقان، توفِّي سنة (١١٧هـ)، وعمره (٨٠ سنة).

انظر: تقريب التهذيب (١/ ٤٣١)؛ سير أعلام النُّبلاء (٥/ ٨٨).

(٣) هو ظالم بن عمرو بن سفيان أبو الأسود الدُّؤلي، من كبار التَّابعين، مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، معدود من الفقهاء والشُّعراء والفرسان والأمراء والأشراف والنَّحويين، من أصحاب عليٍّ ﷺ، وهو أوَّل مَنْ وَضَعَ النَّحوَ، ونَقَط المصحف، سكن البصرة في خلافة عمر ﷺ، وولي إمارتها في أيَّام عليٍّ ﷺ، وشهد معه صفِّين، له شعر جيِّد مطبوع، توفِّي سنة (٦٧هـ) على الأصح. انظر: معرفة الثِّقات (١/ ٤٨٤)؛ الإصابة في تمييز الصَّحابة (٣/ ٥٦١)؛ معجم الأدباء (٣/ ٤٣٦).

فوضع النَّحْوَ[(١)]»[(٢)].

فمَنْ جهل أصول اللُّغة العربية وقواعدها، ولم يميِّز الفاعل من المفعول مثلاً، ونحو ذلك ممَّا يتوقَّف عليه فهم سياق الآيات ـ منْ جهل ذلك كلَّه ـ كيف يفهم قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨][(٣)].

رابعاً: ترْك التَّدبُّر تورُّعاً:

من النَّاس مَنْ يترك تدبُّر القرآن خوفاً من القول على الله تعالى بغير علم، ويعتقد أنَّ تدبُّر القرآن مهمَّة المفسِّرين والعلماء، فيكتفي بالقراءة هاجراً تدبُّر القرآن، ظانّاً أنَّ هذا هو الورع مع كتاب الله تعالى، ولا ريب أنَّ هذه مكيدةٌ من مكايد الشَّيطان حتَّى يصرفَ النَّاس عن الانتفاع بتدبُّر آيات القرآن، وفي ذلك يقول ابن هُبَيْرة[(٤)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن مكايد الشَّيطان: تنفيرُه عبادَ الله من تدبُّر القرآن؛ لعلمه أنَّ الهدى واقع عند التَّدبُّر، فيقول: هذه مُخاطرة، حتَّى يقولَ الإنسانُ: أنا لا أتكلَّم في القرآنِ تورُّعاً»[(٥)].

وأنكر ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ على مَنْ هذا حاله بقوله: «ومَنْ قال: إنَّ له تأوُّلاً لا

---

(١) المشهور: أنَّ الذي أمر أبا الأسود بوَضْع النَّحو هو عليٌّ رضي الله عنه، ولعلَّه: أُمِرَ قبل ذلك من عمرَ رضي الله عنه. انظر: سبب وضع علم العربية، للسيوطي (ص٣٠).

(٢) رواه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٩)؛ وأورده القرطبي في «تفسيره» (١/ ٢٤)؛ وعلاء الدِّين المتقي في «كنز العمال» (٢/ ١٤٣).

(٣) انظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص١٥٨).

(٤) هو أبو المظفَّر يحيى بن محمد بن هُبيْرة، الدُّوري، البغدادي، الحنبلي، المشهور بـ (الوزير ابن هبيرة) أديب، نحوي، لغوي، مؤرِّخ، فقيه، مقرئ، ولد سنة (٤٩٩هـ). قال ابن كثير: «صنَّف كتباً مفيدة... وكان على مذهب السَّلف في الاعتقاد... وكان من خيار الوزراء، وأحسنهم سيرة، وأبعدهم عن الظُّلم». من مصنَّفاته: «الإفصاح عن معاني الصِّحاح»، و«العبادات على مذهب أحمد بن حنبل»، و«تلخيص إصلاح المنطق لابن السِّكِّيت». توفِّي مسموماً ببغداد سنة (٥٦٠هـ)، وعمره (٦١) سنة، وغسَّله ابن الجوزي. انظر: البداية والنِّهاية (١٢/ ٢٥٠)؛ سير أعلام النُّبلاء (١٢/ ٢٤٥).

(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٢٧٣).

نفهمه، ولا نعلمه، وإنَّما نتلوه متعبِّدين بألفاظه؛ ففي قلبه منه حَرَج»[1].

ويزيد الشَّاطبي[2] رَحِمَهُ اللَّهُ الأمرَ جلاءً ـ بما لا يوجد في مكانٍ غيره ـ قائلاً: «فمن حيث كان القرآن مُعجزاً أفحم الفصحاءَ، وأعجزَ البلغاءَ أن يأتوا بمثله؛ فذلك لا يُخرِجه عن كونه عربيّاً جارياً على أساليب كلام العرب، مُيَسَّراً للفهم فيه عن الله ما أمَرَ بِهِ ونهى، لكن بشرط الدُّربة في اللِّسان العربي... إذْ لو خرج بالإعجاز عن إدراك العقول لمعانيه لكان خطابُهم به من تكليف ما لا يُطاق، وذلك مرفوع عن الأمَّة.

وهذا من جملة الوجوه الإعجازية فيه؛ إذْ من العَجَبِ إيرادُ كلامٍ من جنس كلام البشر في اللِّسان والمعاني والأساليب، مفهوم معقولٍ، ثمَّ لا يَقدر البشرُ على الإتيان بسورةٍ مثله... وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]...

وعلى أيِّ وجهٍ فُرِضَ إعجازه؛ فذلك غير مانعٍ من الوصول إلى فهمه وتعقُّل معانيه، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التَّدبُّر والتَّفهُّم»[3].

وفنَّد الشَّنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ قولَ متأخِّري الأصوليِّين، الذين قَصَروا مهمَّة تدبُّر القرآن على العلماء المجتهدين دون غيرهم، فقال: «قول متأخِّري الأصوليِّين: إنَّ تدبُّر القرآن العظيم وتفهُّمه والعملَ به لا يجوز إلَّا لمجتهد خاصَّةً... قولٌ لا مستندَ له من دليلٍ شرعيٍّ أصلاً، بل الحقُّ الذي لا شكَّ فيه: أنَّ كلَّ مَنْ له قُدرة من المسلمين على التَّعلُّم والتَّفهُّم، وإدراكِ معاني الكتابِ والسُّنَّة؛ يجب عليه تعلُّمُهما، والعملُ بما عَلِمَ منهما...

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص١٤٤).

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللَّخمي، الغرناطي، الأصولي، الحافظ، المالكي، المحقِّق، المجتهد، المشهور بالشَّاطبي، له استنباطات جليلة، وفوائد لطيفة، مع الحرص على اتِّباع السُّنَّة، واجتناب البدعة، وله مصنَّفات نفيسة، منها: «الموافقات في أصول الفقه»، و«الاعتصام»، و«المقاصد الشَّافية في شرح خلاصة الكافية». توفِّي سنة (٧٩٠هـ).
انظر: نيل الابتهاج بتطريز الدِّيباج، لأحمد بابا التُّنبكتي (ص٤٦ ـ ٥٠).

(٣) الموافقات (٣/٣٤٦ ـ ٣٤٧).

ومِمَّا يُوضِّح ذلك: أنَّ المخاطَبِين الأوَّلين به، الذين نَزَلَ فيهم، هم المنافقون والكفَّار، وليس أحدٌ منهم مُسْتكمِلاً لشروط الاجتهاد المقرَّرة... فلو كان القرآن لا يجوز أن يَنْتَفِعَ بالعملِ به والاهتداءِ بهديه إلَّا المجتهدون بالاصْطِلاح الأصولي، لَمَا وبَّخ اللهُ الكفارَ، وأنكر عليهم عدمَ الاهتداء بِهُداه، ولَمَا أقام عليهم الحُجَّة به...

فالقول: بمنع العمل بما عُلِمَ من الكتاب والسُّنَّة حتَّى يُحَصِّل رُتْبَةَ الاجتهادِ المُطلق؛ هو عين السعْي في حرمان جميع المسلمين من الانتفاع بنور القرآن...

وَلْتَعْلَمْ: أنَّ كتابَ الله وسنَّة رسوله في هذا الزَّمان أيسر منه بكثير في القرون الأُولى؛ لسهولة معرفة جميع ما يتعلَّق بذلك... فكلُّ آيةٍ من كتاب الله قد عُلِمَ ما جاء فيها من النَّبيِّ ﷺ، ثم من الصَّحابة، والتَّابعين، وكبار المفسِّرين»[1].

وهناك فرق بين التَّدبُّر، وبين تفسير مراد الله واستنباط الأحكام الشَّرعية ـ والتي هي مهمة العلماء الرَّاسخين، وهناك درجات ومنازل من الفهم، والاعتبار، والتَّذكُّر، والادِّكار، والاتِّعاظ، ومحاسبة النفس، لا يعذر أحدٌ في تركها[2].

خامسا: هجر كتب التفسير:

مَنْ هَجَرَ كتب التَّفسير ولم يطالعها، ولم يعرف أسباب النُّزول أو الناسخ من المنسوخ، ونحو ذلك من علوم القرآن، كيف يحصل له تدبُّر القرآن؟ ومتى يوفَّق إلى المعنى المراد؟

ولا غَرْو أنْ تعجَّب الطبريُّ رحمه الله مِمَّنْ أراد التَّلذُّذ بقراءة القرآن، وهو لا يعرف تفسير الآيات المتلوَّة، فقال: «إنِّي أعجبُ مِمَّنْ قرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يلْتَذُّ بقراءته»[3].

وصاحب هذا المنهج لا يسلم ـ غالباً ـ من الخطأ في فهم الآيات، والاستدلال بها، أو الخطأ في تطبيق بعض الآيات والعمل بها.

ومِمَّا يدلُّ على ذلك: ما ورد عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ، قَالَ: كُنَّا

---

(١) أضواء البيان (٧/٢٥٨ ـ ٢٦٤).
(٢) انظر: تدبر القرآن (ص٥٦).
(٣) معجم الأدباء (٥/٢٥٦).

بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفّاً عَظِيماً مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ؛ وَعَلى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وعَلَى الجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ النَّاسُ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إلى التَّهْلُكَةِ؟! فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا ـ مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ؛ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرّاً دُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا! فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ـ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا:

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وإِصْلاحِهَا، وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ».

فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصاً فِي سَبِيلِ اللهِ، حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ[1].

والشَّاهد من هذا الإيراد: أنَّ بعض التَّابعين تأوَّل الآية على غير مراد الله تعالى ـ وهم من أفضل القرون، وأقرب إلى عصر التَّنزيل ـ فكيف بزماننا حيث صارت الألسن أقرب إلى الأعجميَّة منها إلى العربيَّة؛ فما أحوجنا إلى الرُّجوع إلى كتب التَّفسير بالمأثور؛ ليحصل لنا فهم كلام الله ﷻ[2].

سادسا: التشاغل بكثرة التِّلاوة:

لا ريب أنَّ الآيات والأحاديث والآثار الواردة في فضائل التِّلاوة تُشجِّع

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (١١/ ٩) (ح٤٧١١)؛ والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٠٢) (ح٣٠٨٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. والترمذي ـ واللَّفظ له (٥/ ٢١٢) (ح٢٩٧٢) وقال: «حسن صحيح غريب». وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ١٩٢) (ح٢٩٧٢)؛ وفي «السلسلة الصحيحة» (١/ ١٨) (ح١٣).

(٢) للاستزادة في معرفة بعض الآيات التي يوهم ظاهرها التَّعارض. انظر: تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء، لابن تيمية؛ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي.

على الإكثار منها، ويعضد ذلك اقتصار كثير من المذكِّرين والوعّاظ على الرّوايات المنقولة عن السّلف في كثرة القراءة، وعدد الختمات في وقت وجيز، مع إعراضهم عن نقل نهي السّلف عن سرعة القراءة، وإعراضهم كذلك عمّا ورد عن السّلف في تعظيم شأن التّدبُّر والحضّ عليه، وما أُثِرَ عنهم من تفاعلهم ووقوفهم عند معاني الآيات.

ففي الحثّ على التّدبُّر آيات، وأحاديث، وأحوال للسّلف، أكثر عدداً من مثيلاتها الدّالة على فضل القراءة، بل أقوى حجّةً وأعمق أثراً، لو تأمّلها النّاس لما اقتصروا على التّلاوة، ولما هجروا تدبُّر القرآن، قال النّووي ﷺ: «ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبُّر والخضوع؛ فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصُّدور، وتستنير القلوب، ودلائله أكثر من أنْ تُحصر، وأشهر من أنْ تُذكر»[(١)]. فاستحباب كثرة التّلاوة لا ينبغي أنْ يؤدّيَ إلى ترك التدبُّر، ولذا جاء النّهي عن قراءة القرآن في أقلّ من ثلاثٍ؛ من أجل التّدبُّر والتّأثُّر والانتفاع بالآيات.

فكثرة التّلاوة المؤدّية إلى هجر التّدبُّر حالة ليست بمحمودة بل هي من تلبيس إبليس على القرّاء، وفي ذلك يقول ابن الجوزي ﷺ: «وقد لَبّسَ على قومٍ بكثرة التّلاوة، فهم يَهُذُّون هَذّاً، من غير ترتيلٍ ولا تثبُّت، وهذه حالةٌ ليست بمحمودة»[(٢)].

وقال أيضاً: «وقد رأيتُ مَنْ يجمعُ النّاسَ ويقيمُ شخصاً ويقرأ في النّهار الطّويل ثلاث ختمات؛ فإنْ قَصّرَ عِيبَ، وإنْ أتمّ مُدِحَ، وتجتمع العوامُّ لذلك ويُحسّنونه، ويُريهم إبليس أنّ في كثرة التّلاوة ثواباً، وهذا من تلبيسه؛ لأنّ القراءة ينبغي أن تكون لله تعالى لا للتّحسين بها، وينبغي أن تكون على تمهُّل، وقال ﷻ: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]»[(٣)].

---

(١) الأذكار (١/٨٧). وانظر: التبيان في آداب حملة القرآن (ص٤٢)؛ المجموع (٢/١٨٧).
(٢) تلبيس إبليس (ص١٧٥).
(٣) المصدر نفسه (ص١٣٨).

المبحث الثالث

الأمور المعينة على التدبُّر

الأمور المعينة على التدبُّر

تمهيد:

مَنْ أقبل على القرآن العظيم، واستشعر أنّه خطاب من الله تعالى موجّه إليه، يحمل في طيّاته مفاتيح سعادته في الدُّنيا والآخرة، وأنه إنْ تدبّر القرآن واتّبعه سيتغير حاله إلى أحسن الأحوال الإيمانية لا محالة، فمثْل هذا الشّخص لا يحتاج إلى منْ يدلُّه على وسائل تُعينه على الانتفاع بالقرآن؛ لأنّه قد أصبح مهيّأ للمضيِّ نَحْو الصّراط المستقيم.

غير أنّه من الصّعب علينا ـ في البداية ـ أن نكون كذلك؛ بسبب ما ورثناه من أنماط التّعامل الخاطئ مع القرآن، ممّا جعل برزخاً بيننا وبين الانتفاع بالقرآن.

وهناك سبل لتدبُّر القرآن يُحَصِّل بها مَنْ أراد التّدبُّر مُبتغاه، ويجني بها قلبُه لطائف ومعارف وأحوالاً ما كان ليحصل عليها، بل لم تخطر له على بال؛ وبدون هذه السُّبل ـ المساعدة على التّدبُّر ـ سيتعثّر دون غايته، ويتعذّر عليه مُبتغاه، وإنْ أدرك شيئاً فإنّما هو قليل، لا يشفي عليلاً ولا يروي غليلاً، وفي ذلك يقول الزركشي رحمه الله: «مَنْ لم يكن له عِلْمٌ، وفهْمٌ، وتقوى، وتدبُّرٌ لم يُدرك من لذّة القرآن شيئاً»[1].

أما والأمر كذلك: فإنّنا ـ لكي نصل إلى شيء من لذّة القرآن ـ نحتاج معرفة السُّبل المُعينة على التّدبُّر، وهي تنطلق من قاعدة: «تيسير القرآن للذِّكر»، فما دام القرآن مُيسَّراً للذِّكر فلا بدّ أن تكون وسائلُ الانتفاع به مُيسَّرةً، ولكن تحتاج منّا إلى جدٍّ واجتهاد، وبذلٍ وعزمٍ وصبرٍ، وهذا هو الفرق بين أهل العلم وغيرهم من

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٧١).

عوامّ النَّاس الذين حظُّهم من القرآن تلاوتُه، ولا علم لهم بتفسيره، الذي هو مفتاح التَّدبُّر[١].

وما يأتي تفصيلٌ لأهمّ سبل تدبُّر القرآن العظيم:

١ ـ تحسين التِّلاوة:

أَمَرَ الله تعالى بترتيل القرآن ـ الباعث على تدبُّره وتفهُّمه ـ في قوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. وحثَّ رسولُ الله ﷺ على التَّغنِّي بالقراءة وتحسينها، في قوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرآنِ»[٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «المطلوب شرعاً، إنَّما هو التَّحسين بالصَّوت، الباعث على تدبُّر القرآن وتفهُّمه، والخشوع والخضوع، والانقياد للطَّاعة»[٣].

وبيَّن القرطبي رحمه الله أنَّ التَّرتيل طريق إلى التَّدبُّر، في قوله: «التَّرتيل أفضل من الهذِّ؛ إذْ لا يصحُّ التَّدبُّر مع الهذِّ»[٤].

«والإسراع في القراءة يدلُّ على عدم الوقوف على المعاني... فظهر أنَّ المقصود من التَّرتيل إنَّما هو حضور القلب، وكمال المعرفة»[٥].

وكذا قال النَّووي رحمه الله: «قال العلماء: والتَّرتيل مستحبٌّ للتَّدبُّرِ وغيرِه...؛ لأن ذلك أقربُ إلى التَّوقير والاحترام، وأشدُّ تأثيراً في القلب»[٦].

وأيَّد ذلك السُّيوطي رحمه الله بقوله: «تُسَنُّ القراءة بالتَّدبُّر والتَّفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهمُّ»[٧].

والسَّبب في كراهة جمهور أهل العلم القراءةَ بالألحان: «لخروجها عمَّا جاء القرآن له من الخشوع والتَّفهُّم»[٨].

والله تعالى تعبَّد النَّاسَ بتدبُّر القرآن، كما تعبَّدَهم بالتِّلاوة، قال الله تعالى:

---

(١) انظر: العودة إلى القرآن (ص١٦٧)؛ تدبر القرآن (ص٩٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ [الملك: ١٣] (٤/ ٢٣٥١) (ح٧٥٢٧).

(٣) فضائل القرآن (ص١٩٥).

(٤) تفسير القرطبي (١٥/ ١٩٢).

(٥) التفسير الكبير (٣٠/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

(٦) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٤٦).

(٧) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٨٣).

(٨) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٠).

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. فالمقصود الأعظم من إنزال القرآن، هو التّدبُّر والتّفكر في آياته، والعمل به؛ لا مجرّد التّلاوة مع الإعراض عنه[(١)].

٢ ـ قراءة الليل:

ممّا يعين على تدبُّر القرآن، والتّأمُّل في أياته ومواعظه وعبره، صلاةُ اللّيل والقراءة فيه، وفي ذلك يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «وقولُه: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: هُوَ أجْدرُ أنْ يَفْقَهَ في القُرآنِ»[(٢)]؛ «لأنّ قيام اللّيل أصوبُ قراءة، وأصحُّ قولاً من النّهار؛ لسكوت الأصوات في اللّيل، فيتدبّر في معاني القرآن»[(٣)].

وذكر ابن عاشور رحمه الله الحِكْمةَ من اختصاص اللّيل بالقيام، فقال: «والمعنى: أنّ صلاة اللّيل أوفقُ بالمصلّي بين اللّسان والقلب، أي بين النُّطق بالألفاظ، وتفهُّم معانيها؛ للهدوء الذي يحصل في اللّيل، وانقطاع الشّواغل... وأعون على المزيد من التّدبُّر»[(٤)].

ومن أجل ذلك كان جبريل عليه السلام يدارس النّبيّ ﷺ القرآن كلّ ليلة من رمضان، قال ابن حجر رحمه الله ـ عن هذه المدارسة المباركة: «المقصود من التّلاوة الحضور والفهم؛ لأنّ اللّيل مظنّةُ ذلك، لما في النّهار من الشواغل والعوارض الدُّنيوية والدِّينية»[(٥)].

شواهد على فضل قراءة اللّيل:

من أوضح الشّواهد الدالة على فضل قراءة القرآن بالليل:

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (ص٢١٥).
(٢) رواه أبو داود (٢/ ٣٢) (ح١٣٠٤)؛ والبيهقي في «الكبرى» (٢/ ٥٠٠) (ح٤٤١٤)؛ وحسّنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٣٥٧) (ح١٣٠٤).
(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/ ١٣٣).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٥).

* ثناء الله تعالى على تلاوة الليل: ﴿... يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ...﴾ [آل عمران: ١١٣].

* وقوله ﷺ - عن شفاعة القرآن لصاحبه يوم القيامة: «... وَيَقُولُ القُرآنُ: رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّومَ بِاللَّيلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ...»[(١)].

٣ - الإنصات عند سماعه:

أمَرَ الله تعالى عبادَه المؤمنين بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن؛ كي ينتفعوا به، ويتدبَّروا ما فيه من الحكم والمصالح[(٢)]، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

والمعنى - كما قال الطَّبري ﷺ: «أصْغُوا سمعكم؛ لتتفهَّموا آياته، وتعتبروا بمواعظه، وأنصتوا إليه؛ لتعقلوه، وتتدبّروه، ولا تَلْغُوا فيه فلا تعقلوه...؛ ليرحَمَكم ربُّكم باتِّعاظكم بمواعظه، واعتباركم بِعبره»[(٣)].

فالملازم للاستماع والإنصات - عند تلاوة القرآن - سينال «خيراً كثيراً، وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمرّاً متجدِّداً، وهدىً متزايداً، وبصيرة في دينه»[(٤)].

«وإنّ العكوف على هذا القرآن - في وعي وتدبُّر، لا مجرّد التِّلاوة والتّرنُّم - لَيُنْشئ في القلب والعقل من الرُّؤية الواضحة البعيدة المدى؛ ومن المعرفة المطمئنَّة المستيقنة؛ ومن الحرارة والحيويَّة والانطلاق، ومن الإيجابية والعزم والتصميم؛ ما لا تُدانيه رياضةٌ أخرى، أو معرفة، أو تجريب»[(٥)].

٤ - حسن الابتداء والوقف:

ممَّا يُعين على تدبُّر القرآن والتَّفكُّر في معانيه، مراعاة حسن الابتداء والوقف أثناء التِّلاوة، وهناك بعض الآيات لها تعلُّق بما قبلها أو بعدها، وكثير من القرَّاء

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٤) (ح٦٦٢٦)؛ وابن المبارك في «مسنده» (١/ ٥٩) (ح٩٦)؛ والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٤٠) (ح٢٠٣٦)، وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذَّهبي؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٧٢٠) (ح٣٨٨٢)؛ و«صحيح الترغيب» (١/ ٥٧٩) (ح٩٨٤).

(٢) انظر: فتح القدير (٢/ ٢٨٠).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٢٠١).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٣١٤).

(٥) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٢٦).

لا يُراعون حسن الابتداء أو الوقف، ولا يتفكَّرون في ارتباط الكلام بعضه ببعض، ولا يتأمَّلون معاني الآيات، بل جلُّ عملهم هو التَّقيُّد بالأعشار والأحزاب والأجزاء، ممَّا يُفوِّتُ فَهْمَ كثير من الآيات على وجهها الصَّحيح.

نماذج من الابتداء والوقف الممنوع:

فمن أمثلة الأجزاء: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ...﴾ [النساء: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ...﴾ [يوسف: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ...﴾ [العنكبوت: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ [الأحزاب: ٣١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ...﴾ [يس: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ...﴾ [فصلت: ٤٧].

ومن أمثلة الأحزاب: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ...﴾ [البقرة:٢٠٣]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ...﴾ [آل عمران: ١٥].

قال النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكلُّ هذا وشبهه، ينبغي ألَّا يُبدأ به ولا يُوقف عليه؛ فإنَّه متعلِّق بما قبله، ولا يغترنَّ بكثرة الفاعلين له من القرَّاء الذين لا يُراعون هذه الآداب، ولا يتفكَّرون في هذه المعاني...

ولهذا المعنى قالت العلماء: قراءة سورة قصيرة بكمالها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة، فإنَّه قد يخفى الارتباط على بعض النَّاس في بعض الأحوال»[(١)].

٥ ـ فهم المعاني:

ذمَّ الله تعالى مَنْ أعرض عن فَهْم كتابه فقال سبحانه: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

والجهل بمعاني القرآن يصرف عن تدبُّره وتلذُّذ القلب بقراءته، وفي ذلك يقول الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنِّي لأعجب ممَّنْ قرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يلتذُّ بقراءته؟!»[(٢)].

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٥١ ـ ١٥٢). وانظر: تدبر القرآن (ص٣١ ـ ٣٧).
(٢) معجم الأدباء (٥/ ٢٥٦).

وقد تعجّب القرطبيُّ ﷺ أيضاً ـ ممَّنْ قَصَد التدبُّر والعملَ بالقرآن مع جهله بمعناه، قائلاً: «وينبغي له أن يتعلّم أحكامَ القرآن، فيفهم عن الله مرادَه، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟! وما أقبحَ أنْ يُسْأل عن فِقْهِ ما يتلوه ولا يدريه، فما مَثَلُ مَنْ هذا حالُه إلّا كمَثَل الحمار يحمل أسفاراً»[١].

وفي هذا السِّياق يقول ابن الجوزي ﷺ: «كان الفقهاء في قديم الزَّمان هم أهلَ القرآن والحديث، فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخّرون: يكفينا أنْ نعرِفَ آياتِ الأحكام من القرآن، وأنْ نعتمِدَ على الكتب المشهورة في الحديث... ثم استهانوا بهذا الأمر أيضاً، وصار أحدُهم يحتجُّ بآيةٍ لا يعرفُ معناها؛... وإنّما الفقه استخراجٌ من الكتاب والسُّنّة، فكيف يَسْتَخرِج من شيء لا يَعْرِفه؟!»[٢].

والقرآن العظيم قد يُسِّرَتْ معانيه كما يُسِّرَتْ ألفاظُه، قال السّعدي ﷺ ـ مُعلِّقاً على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

«ولقد يسّرنا وسهّلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنه أحسنُ الكلام لفظاً، وأصدقُه معنى، وأبينه تفسيراً. فكلُّ مَنْ أقبل عليه، يسّر اللهُ عليه مطلوبه غاية التّيسير، وسهّله عليه...

ولهذا كان علْمُ القرآن، حفظاً وتفسيراً، أسهلَ العلوم، وأجلّها على الإطلاق. وهو العلم النّافع، الذي إذا طلبه العبد، أُعِينَ عليه»[٣].

وتعلُّم معاني القرآن أولى من تعلُّم حروفه، وفي هذا الشأن يقول ابن تيميّة ﷺ: «دخل في معنى قوله: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ»[٤] تعليمُ حروفِه ومعانيه جميعاً؛ بل تعلُّم معانيه هو المقصود الأوّل بتعليم حروفه، وذلك هو الذي يزيد الإيمان كما قال جُندب بن عبد الله، وعبد الله ابن عمر وغيرهما:

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢١). (٢) تلبيس إبليس (ص١٤٥).
(٣) تفسير السعدي (٥/ ١٣٩).
(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم مَنْ تعلم القرآن وعلّمه (٣/ ١٦٢٠) (ح٥٠٢٧).

تعلّمنا الإيمان، ثمَّ تعلمنا القرآن، فازددنا به إيماناً»[١].

والفرق بين معرفة الألفاظ والمعاني، كالفرق بين اللَّيل والنَّهار، وفي ذلك يقول إياس بن معاوية[٢] رَحِمَهُ اللهُ: «مَثَلُ الذين يقرؤون القرآن ولا يعرفون التَّفسير: كمَثَل قومٍ جاءهم كتاب من مَلِكهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعةٌ لا يدرونَ ما في الكتاب، ومَثَلُ الذي يعرف التَّفسير: كمَثَل رجلٍ جاءهم بمصباح، فقرؤوا ما في الكتاب»[٣].

وقد أحسن القائل:

إنَّ العلوم وإنْ جلَّتْ مَحَاسِنُها ... فَتَاجُها ما بِهِ الإيمانُ قَدْ وَجبا
هُوَ الكِتَابُ العَزِيزُ، اللهُ يَحْفَظُهُ ... وبعدَ ذلِكَ عِلْمٌ فرَّجَ الكُرَبا
واتْلُ بِفَهْمٍ كتابَ الله، فِيْه أَتَتْ ... كُلُّ العُلوم، تَدَبَّرْهُ تَرَ العَجَبا[٤]

٦ ـ الوقوف عند المعاني:

والمقصود بذلك: أن يقف القارئ عند المعنى فلا يتجاوزه إلى غيره، متأمِّلاً له، ومتفكِّراً فيه.

ومن أبلغ الشَّواهد وأوضحها: ما رواه حذيفة رضي الله عنه ـ حيث قال: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ البَقَرَةَ... ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا. يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ. ثُمَّ رَكَعَ...»[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٤٠٣).

(٢) هو التَّابعي الجليل إياس بن معاوية بن قرَّة بن إياس المزني (أبو واثلة) البصري، القاضي المشهور بالذَّكاء. قال ابن حجر: «ثقةٌ، من الخامسة». ولجدِّه صُحبة، وقال ابن خلّكان: «هو اللَّسِنُ البليغ، والألمعيُّ المُصيب، والمعدود مثلاً في الذَّكاء والفطنة، ورأساً لأهل الفصاحة والرَّجاحة». توفِّي سنة (١٢٢هـ).
انظر: تقريب التَّهذيب (١/١١٧)؛ وفيات الأعيان (١/٢٤٧).

(٣) تفسير ابن عطية (١/٤٠)؛ تفسير القرطبي (١/٢٦).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١/٤١).

(٥) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة اللَّيل (١/٥٣٦) (ح٧٧٢).

وصِفةُ الوقوف عند المعاني: «أنْ يشغل قلبَه بالتّفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كلِّ آية، ويتأمَّل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإنْ كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمةٍ استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوَّذ، أو تنزيه نزَّه وعظَّم، أو دعاء تضرّع وطلب»[١].

«وينبغي للتَّالي: أن يستوضح من كلِّ آية ما يليق بها، ويتفهَّم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، فليعلمْ عظمته، ويتلمَّح قدرتَه في كلِّ ما يراه، وإذا تلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]، فليتفكرْ في نطفةٍ متشابهة الأجزاء، كيف تنقسم إلى لَحم وعَظْم،... وإذا تلا أحوال المكذِّبين، فليستشعرِ الخوف من السّطوة إنْ غَفل عن امتثال الأمر...

وينبغي لتالي القرآن: أنْ يعلم أنَّه المقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأنَّ القصص لم يُرَدْ بها السَّمرُ[٢] بل العِبَرُ، فحينئذٍ يتلو تلاوة عبدٍ، كاتَبه سيِّدُه بمقصودٍ، وليتأمل الكتابَ، ويعمل بمقتضاه»[٣].

٧ ـ ترديد الآية المؤثرة في القلب:

ممَّا يُعين على تدبُّر القرآن والتَّفكُّر في معانيه، ترديدُ الآية المؤثِّرة في القلب، وهذا التّرديد من أبرز صور الوقوف عند المعاني، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

عن أبي ذَرٍ رضي الله عنه قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا، وَالآيَة: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]»[٤].

قال ابن القيِّم رحمه الله: «فلو عَلِمَ النّاس ما في قراءة القرآن بالتّدبُّر، لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواه، فإذا قرأه بتفكُّر حتى إذا مرَّ بآيةٍ ـ وهو محتاج إليها في شفاء

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٨٣). (٢) أي: الحديث والخبر.

(٣) مختصر منهاج القاصدين (ص٥٦).

(٤) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٢٧١) (ح١٢٠)؛ والنسائي (٢/ ١٧٧) (ح١٠١٠)؛ وابن ماجه (١/ ٤٢٩) (ح١٣٥٠)؛ والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٦٧) (ح٨٧٩) وقال: «صحيح، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٣٣٠) (ح١٠٠٩)؛ و«صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٠١) (ح١١١٨).

قلبه ـ كرَّرها ولو مائة مرَّة، ولو ليلة، فقراءة آيةٍ بتفكُّر وتفهُّم، خير من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفعُ للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوقِ حلاوة القرآن»[١].

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنْ لم يحصلِ التَّدبُّر إلَّا بترداد الآية، فَلْيردِّدْها»[٢].

وقال بِشر بن السريّ[٣] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما الآيةُ مِثْلُ التَّمرة، كلَّما مضغتَها استخرجتَ حلاوتها». فحُدِّث به أبو سليمان، فقال: «صدق؛ إنَّما يؤتى أحدُكم من أنَّه إذا ابتدأ السُّورة أراد آخرها»[٤].

نماذج من ترديد الآية:

وردت نقولٌ كثيرة ومتنوِّعة عن السَّلف الصَّالح في ترديدهم لبعض الآيات، ومن أبرزها ما يلي:

* عن مسروق[٥] رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنَّ تَميماً الدَّاري رضي الله عنه رَدَّدَ هذه الآيةَ حتَّى أصبحَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١]»[٦].

---

(١) مفتاح دار السعادة (ص١٨٧). (٢) مختصر منهاج القاصدين (ص٥٦).

(٣) هو بِشر بن السريّ (أبو عمرو) الأفوهُ، البصري، سكن مكّة، وسُمّي بالأفوه؛ لأنَّه كان يتكلَّم بالمواعظ. قال ابن حجر: «كان واعظاً، ثقةً، مُتقناً، طُعن فيه برأي جَهْم، ثمَّ اعتذر وتاب، من التَّاسعة». وقال أبو حاتم: «ثَبْتٌ، صالح». أخرج له السِّتة، توفِّي سنة (١٩٥هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/ ١٢٣)؛ ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال (٢/ ٢٩).

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٧١).

(٥) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهَمْداني الوادعي (أبو عائشة) الكوفي، من كبار أئمة التَّابعين وفقهائهم، ثقة عابد، أخرج له السِّتَّة، توفِّي سنة (٦٣هـ).

انظر: تقريب التَّهذيب (٢/ ٢٤٢).

(٦) رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٥٠) (رقم ١٢٥١)؛ وابن المبارك في «الزهد» (ص٣١) (رقم ٩٤)؛ والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٤٢٦). وانظر: مختصر قيام الليل (ص١٥١)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص١١٠).

وكذا قام بها الرَّبيع بن خُثَيم[١] رحمه الله[٢].

* عن عبَّاد بن حمزة[٣] رحمه الله قال: «دخلتُ على أسماءَ رضي الله عنها وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، فوَقَفْتُ عليها، فجعلَتْ تستعيذُ وتدعو، قال عبَّاد: فذهبتُ إلى السُّوق فقضيتُ حاجتي، ثمَّ رجعتُ، وهي فيها بَعْدُ، تستعيذُ وتدعو»[٤].

* عن رجلٍ - من أصحاب الحسن البصريِّ رحمه الله قال: «بينا أنا ذات ليلةٍ عند الحَسَنِ فقام من اللَّيلِ يصلِّي، فلم يَزَلْ يردِّدُ هذه الآيةَ، حتَّى أسْحَرَ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فلمَّا أصبح، قلنا: يا أبا سعيد، لَمْ تكنْ تُجاوِزُ هذه الآيةَ سائر اللَّيلة، قال: إنَّ فيها مُعْتَبَراً، ما ترفعُ طَرْفاً ولا تَرُدُّ، إلَّا وقَعَ على نِعْمَةٍ، وما لا نعلمُ من نِعَمِ اللهِ أكثر»[٥].

قال النَّووي رحمه الله: «وقد بات جماعة من السَّلف، يتلو الواحد منهم الآيةَ الواحدة، ليلةً كاملةً أو معظَمَها، يتدبَّرها عند القراءة»[٦].

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «وهذه كانت عادة السَّلف، يردِّد أحدُهم الآيةَ إلى الصَّباح»[٧].

---

(١) هو الرَّبيع بن خُثَيم بن عائذ بن عبد الله الثَّوري التَّميمي (أبو يزيد) الكوفي، من كبار التَّابعين وزُهَّادهم، قال ابن حجر: «ثقة، عابد، مخضرم، من الثَّانية». من خيار أصحاب ابن مسعودٍ رضي الله عنه، توفِّي سنة (٦٣هـ).
انظر: تقريب التَّهذيب (١/ ٢٠٦)؛ معرفة الثِّقات (١/ ٣٥١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٢٢٤) (رقم ٨٣٧١) (٧/ ١٤٥) (رقم ٣٤٨٤٧).

(٣) هو عبَّاد بن حمزة بن عبد الله بن الزُّبير بن العوَّام الأسدي، القرشي، المدني أخو عبد الملك، قال ابن حجر: «ثقة، من الثَّالثة». روى عن جدَّةِ أبيه أسماءَ، وأختها عائشةَ، ابنتي الصِّدِّيق رضي الله عنه. انظر: تقريب التَّهذيب (١/ ٢٨٩)؛ التُّحفة اللَّطيفة في تاريخ المدينة الشَّريفة، للسَّخاوي (٢/ ١١).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٢٥) (رقم ٦٠٣٧). وانظر: مختصر قيام اللَّيل (ص١٤٩)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص١١١).

(٥) رواه ابن أبي الدُّنيا في «التَّهجُّد وقيام اللَّيل» (١/ ١٥٩) (رقم ٥٣). وانظر: مختصر قيام اللَّيل (ص١٥١).

(٦) الأذكار (ص٨٧). وانظر: المجموع (٢/ ١٨٧)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٠٨).

(٧) مفتاح دار السعادة (ص١٨٧).

٨ ـ معرفة أساليب القرآن:

مَنْ لم يعرفْ أساليب القرآن، سيجد نفسَه غريباً عن آيات القرآن، وتراكيب جُمَله، وسيعاني لفهمها ما يعاني، ومعرفةُ هذه الأساليب ممَّا يعين على تدبُّر القرآن، وهي كثيرة ومتنوِّعة، من أبرزها ما يلي:

* **خَتْم الآيات بأسماء الله الحسنى**؛ ليدلَّ على أن الحُكْم المذكور له تعلُّق بذلك الاسم الكريم(١).

* **ومن أساليب القرآن: احتواؤه على أحسن طرق التَّعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر طريق وأوضحِه، ومن أبرز أنواع تعليمه العالي: ضَرْب الأمثال**، فتُوضِّح المعاني النَّافعة، وتُمَثِّل الأمور المحسوسة؛ كأنَّها تُرى رأي العين، وهذا من عناية الله تعالى ولطفه بعباده(٢).

وقد ذَكَر **الزَّركشي** رَحِمَهُ اللهُ **اثنين وأربعين أسلوباً من أساليب القرآن**؛ منها: التَّوكيد، والحذف، والتَّقديم، والاستطراد، والالتفاف، والتَّضمين، والتَّعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه، والتَّوسُّع، والإعراض، والتَّورية، والطِّباق(٣)....

* **ومن أساليب القرآن: الوصف الحي بالصُّورة المحسوسة، والحركة المتجدِّدة النَّابضة بالحقيقة**، فإذا الحوادث والقصص والمناظر شاخصة حاضرة، فإذا انضم إليها الحوار استوت للقارئ عناصر التَّأثير فينسى أن هذا كلامٌ يتلى، أو مَثَل يُضرب، فيتفاعل مع الحدث، لا مع حكاية الحدث، وهذه سمة القرآن، وهي معجزة من معجزاته(٤).

* **ومن أساليب القرآن: الحذف**. وقد ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ أمثلةً على ذلك، فقال: «وهو ـ سبحانه ـ يَذْكُر جوابَ القَسَم تارةً، وهو الغالب، وتارةً يحذِفُه، كما يَحْذِفُ جوابَ (لو) كقولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]،

(١) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص٥١).
(٢) انظر: المصدر نفسه (ص٦٥).
(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٩٧) وما بعدها.
(٤) انظر: التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب (ص٣٦، ٢٤١).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، ومِثْلُ هذا حَذْفُه من أحسن الكلام؛ لأنَّ المراد: أنك لو رأيتَ ذلك لرأيتَ هولاً عظيماً... وهذه عادة النَّاس في كلامهم إذا رأوا أموراً عجيبة، وأرادوا أن يُخبروا بها الغائب عنها، يقول أحدُهم: لو رأيت ما جرى يوم كذا»[1].

* ومن أساليب القرآن: الالتفات، وهو ـ كما قال الزَّركشي رحمه الله: «نَقْلُ الكلامِ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخَرَ تطريةً واستدراراً للسامع، وتجديداً لنشاطه، وصيانةً لخاطره من الملال والضَّجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه»[2].

والالتفات له أنواع كثيرة، ومنها:

الالتفات من المتكلِّم إلى الخطاب، كقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]، ولم يقل: لنغفر لك.

من المتكلِّم إلى الغيبة، كقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٢]، ولم يقل: فصلِّ لنا.

من الخطاب إلى المتكلِّم، كقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

من الخطاب إلى الغيبة، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، ولم يقل: وجرين بكم.

من الغيبة إلى المتكلِّم، كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٨٩].

من الغيبة إلى الخطاب، كقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾ [آل عمران: ١٠٦][3].

* ومن أساليب القرآن في الحث:

١ ـ التَّذكير بالآمر وعظمته.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص٣ ـ ٤).
(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤).
(٣) انظر: المصدر نفسه (٣/ ٣١٥ ـ ٣٢٤).

٢ ـ التَّشويق للأجر وكثرتِه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

٣ ـ التَّذكير بمنزلة المأمور وحاجته إلى ربِّه.

٤ ـ التَّهييج، قال ابن كثير رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]. «هذا تهييج للأمَّة على الاستغفار»[١].

٥ ـ الاعتبار بحياة الأنبياء وأعيان الصَّالحين.

* ومن أساليب القرآن في النَّهي: التَّبغيض للفعل، أو التَّهكُّم بأصحابه أو السُّخرية منهم، أو ذِكْرُ عاقبة مَنْ فعَلَه في الدُّنيا، أو وصْفُ خسارته في الآخرة، أو عطفُه على ما هو أشنع منه، وما هو مكروه عند النُّفوس، أو الاعتبار بالأمم الظَّالمة وأعيان المعاندين.

قال القرطبيُّ رحمه الله ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]. «وفي هذا تنبيهٌ من الله تعالى لمَنْ حَمَل الكتابَ أن يتعلَّم معانيه، ويَعْلَمَ ما فيه؛ لئلَّا يلحقَه من الذَّمِّ ما لحق هؤلاء»[٢].

* ومن الأساليب المُشْتَرَكة في الحثِّ والنَّهي: التَّشبيه، والكناية، والتَّضمين، والمقارنة، والقَصَص، والتَّأكيد، والتَّخصيص، والتَّفصيل والإجمال، والتَّقديم والتَّأخير، والالتفات، والتَّلميح، وضَرْب الأمثال، وبيان الحِكْمة، وخَتْم الآية بما يناسبها من أسماء الله وصفاته، وخَتْم السُّور بما يناسبها[٣].

* ومن أساليب القرآن: اختلاف مساق إيراد القَصَص، يقول الشَّاطبيُّ رحمه الله عن ذلك: «وبالجملة: فحيث ذُكِرَ قَصَصُ الأنبياءِ ـ عليهم السَّلام ـ كنوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وموسى وهارونَ؛ فإنَّما ذلك تسلية لمحمدٍ ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ وتثبيت فؤاده؛ لما كان يلقى من عناد الكفَّار وتكذيبهم له، على أنواعٍ مختلفة، فَتُذْكَرُ القصَّة على النَّحو الذي يقع له مثله، وبذلك اختلف مساق القصَّة

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٥). (٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٩٤).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٨٤) وما بعدها. مناهل العرفان في علوم القرآن (ص٢٧٧ ـ ٣٠٢).

الواحدة بحسب اختلاف الأحوال»[١].

ما يعين على التَّدبُّر إجمالاً:

بالإضافة إلى ما تقدم ـ وحتَّى لا يطول بنا الحديث ـ هناك أمور كثيرة تُعين المسلم على تدبُّر القرآن، تُجْمَل فيما يلي:

١ ـ النَّظرة الكليَّة الشَّاملة للقرآن.

٢ ـ النَّظرة التَّفصيلية في سياق الآية: تركيبها ـ معناها ـ نزولها ـ غريبها ـ دلالاتها.

٣ ـ الالتفات للأهداف الأساسيَّة للقرآن.

٤ ـ تدارس القرآن: كما دارس رسولُ الله ﷺ جبريل ﷺ؛ للإفادة منه، فهذه المدارسة، أعظم ما يُعين المسلم على فَهْم القرآن وتدبُّره.

٥ ـ الثِّقة المطلقة بالنَّص القرآني، وإخضاع الواقع المخالف له.

٦ ـ ملاحظة البُعْد الواقعي للآية؛ بحيث يَجعل من الآية مُنْطلقاً لعلاج حياته وواقعه، وميزاناً لمن حوله وما يحيط به.

٧ ـ معايشة معاني الآيات، وإيحاءات النَّص، وظلاله ولطائفه.

٨ ـ ملاحظة الشَّخصية المستقلَّة للسُّورة.

٩ ـ التَّمكُّن من أساسيات علوم التَّفسير.

١٠ ـ تصوُّر حال الدَّعوة عند نزول الآيات[٢].

١١ ـ العودة المتجدِّدة للآيات، وعدم الاقتصار على التَّدبُّر مرَّةً واحدة؛ فالمعاني تتجدَّد.

١٢ ـ الاستعانة بالمعارف والثَّقافات الحديثة.

١٣ ـ القراءة في الكتب المتخصِّصة في هذا الموضوع[٣].

---

(١) الموافقات (٣/٨٥٩). وانظر: تدبر القرآن (ص١٣٢ ـ ١٣٩).

(٢) انظر: تدبر القرآن (ص١٠٠ ـ ١٠٣).

(٣) ومن أبرزها: البرهان في علوم القرآن. الإتقان في علوم القرآن. مناهل العرفان في علوم القرآن. القواعد الحسان لتفسير القرآن، للسعدي. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، ـ

وبعد: فما درجة أهميّة تدبُّر القرآن في عقولنا؟ وما نسبة التّدبُّر في واقعنا العملي فيما نقرؤه في المسجد قبل الصّلوات؟ وهل نحن نربِّي أبناءنا وطلّابنا على التدبُّر في حِلق القرآن؟ أم أنَّ الأهمَّ الحِفْظُ وكفى، بلا تدبُّر ولا فَهْم؛ لأنَّ التّدبُّر يُؤخِّر الحفظ؟

ما مقدار التّدبُّر في دروس العلوم الشّرعية في المدارس، خاصّةً دروسَ التّفسير؟ وهل يربِّي المُعلِّم طلّابه على التّدبُّر، أم على حفظ معاني الكلمات فقط؟

تُرى: ما مرتبة دروس التّفسير في حِلق العلم في المساجد: هل هي في رأس القائمة، أم في آخرها ـ هذا إنْ وُجدت أصلاً؟

ما مدى اهتمامنا بالقراءة في كتب التّفسير من بين ما نقرأ؟

ومتى نقتنع أنَّ فوائد التّدبُّر وأجرَه أعظمُ من التّلاوة كهذِّ الشّعر؟ أسئلةٌ تبحث عن إجابة؛ فهل من مُجيب؟[1].

= لعبد الرحمن حبنكة الميداني. دراسات قرآنية، لمحمد قطب. قواعد التفسير (رسالة دكتوراه)، د. خالد بن عثمان السبت. مفاتيح للتعامل مع القرآن، د. صلاح الخالدي.

(١) انظر: تدبر القرآن.. لماذا وكيف؟، إبراهيم بن عبد الرحمن التركي، مجلة البيان (عدد ١٤٤) (شعبان ١٤٢٠هـ) (ص٢٣).

المبحث الرابع

ثمرات تدبُّر القرآن

ثمرات تدبُّر القرآن

تلاوة القرآن العظيم لها ثمار حَسَنة تعود على القارئ، في الدُّنيا والآخرة، لكنَّ التَّدبُّر يضاعف هذه الثِّمار.

وهي ثمار عديدة لا يمكن حصرها في هذه العجالة، ومن أبرزها ما يلي:

١ - تعميق جذور الإيمان:

تدبُّر آياتِ القرآن الكريم يجعل المؤمن يزداد يقيناً بأنَّه من عند الله تعالى، إذْ إنَّ المتدبِّر له، والمتأمل فيه، يستعرض القرآن العظيم من أوَّله إلى آخره، فلا يجد فيه أدنى اختلاف أو تناقض، فلا يجد آيةً تُعارض أخرى أو تنقضها، بل ولا يجد لفظةً يمكن استبدالها بأخرى، وإنَّما يسير على نسق واحد من أوَّله إلى آخره، فيشعر المتأمِّل له أنَّ مصدره واحد، وأنَّه من لدن حكيمٍ خبير، وأنَّه لو كان من عند غير الله لوجد فيه اختلافاً كثيراً، وتناقضاً كبيراً.

وهو ما أشار إليه السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «ومن فوائد التَّدبُّر لكتاب الله: أنَّه بذلك، يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنَّه كلام الله؛ لأنَّه يراه، يُصدِّق بعضه بعضاً، ويُوافق بعضه بعضاً. فترى الحِكَم والقصَّة والأخبار، تُعاد في القرآن؛ في عدَّة مواضع، كلُّها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً. فبذلك يُعلم كمال القرآن، وأنَّه من عند مَنْ أحاط عِلمُه بجميع الأمور»[1].

وهذا اليقين يحقِّق الثَّبات على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]. وبذلك تتعمَّق جذور الإيمان في القلب، وتزداد رسوخاً.

والتَّدبُّر المُثمر يعمل أيضاً على تركيز الانتباه في الصَّلاة وخارجها ممَّا يُعد

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٧٧).

وسوسةَ الشَّيطان التي تحول بين المؤمن وشعوره بالخشوع والخضوع لله تعالى، فيكون من المفلحين الخاشعين، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢].

أمّا غير المؤمن فالتّدبُّر يدفعه ـ إنْ كان منصفاً مُوفّقاً ـ إلى الإيمان بالله، والاعتقاد بأنّ القرآن العظيم تنزيل من ربِّ العالمين، فيخرج بذلك من دائرة الإلحاد والشّكّ، إلى رحاب الإيمان واليقين، ومن ظلمات الضّلالة والجهل، إلى نور الهداية والمعرفة.

والمُنحرِّر من قيود التّقليد والعناد يزحزحه التّدبُّر عن العقيدة الفاسدة؛ فيحقّق لنفسه الخيرَ والسّعادة في الدُّنيا والآخرة.

والتّدبُّر ـ في جميع الأحوال ـ يشفي الصُّدور من شكوكٍ تعتري المرتابين، ويشفي النُّفوس من أمراضٍ كثيرةٍ ومتنوّعة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧][1].

٢ ـ معرفة الرَّبِّ جلَّ جلالُه:

ومن أعظم ثمرات تدبُّر القرآن: أنّه يُعَرِّفُ بالرَّبِّ تعالى، وعظيم سلطانه وقدرته، وعظيم تفضُّله على المؤمنين[2].

وهذا ما أشار إليه السّعدي رحمه الله عن فوائد التدبُّر: أنّه «* يُعَرِّف بالرَّبِّ المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزَّه عنه من سمات النَّقص.

* ويُعرِّف الطَّريقَ الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه.

* ويُعرِّف العدوَّ، الذي هو العدوُّ على الحقيقة؛ والطَّريقَ الموصلة إلى العذاب؛ وصفة أهلها؛ وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

* وكلّما ازداد العبد تأمُّلاً فيه، ازداد علماً، وعملاً، وبصيرة»[3].

---

(١) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم (ص١٩٤).

(٢) انظر: أخلاق حملة القرآن (ص١٨). (٣) تفسير السعدي (١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧).

٣ ـ تحقيق العبوديَّة لله تعالى:

من ثمرات تدبُّر القرآن: أنّه وسيلة لمعرفة ما يريد الله مِنّا، وكيفيَّة عبادته تبارك وتعالى، ومعرفة ما أنزل الله إلينا؛ لأنَّ القرآن العظيم منهجُ حياةٍ، أنزله الله ﷻ، وهو أساس التّشريع الذي يجب على العباد أنْ يتدبَّروه، ويلتزموا بأوامره، ويجتنبوا نواهيه؛ ليحقّقوا عبادة الله تعالى[1].

وفي هذا الشّأن يقول ابن القيم رحمه الله: «فلا تزالُ معانيه:

* تُنهِضُ العبدَ إلى ربّه بالوعد الجميل، وتحذّره وتخوّفه بوعيده من العذاب الوبيل.

* وتَحُثُّه على التّضمُّرِ والتخَفُّفِ لِلقاء اليوم الثّقيل.

* وتَهديه في ظُلَمِ الآراءِ والمذاهب إلى سواءِ السّبيل.

* وتصدُّه عن اقتحام طرقِ البدع والأضاليلِ.

* وتَبعَثُهُ على الازديادِ من النّعَم بشُكر ربّه الجليل.

* وتُبصِّرُهُ بحدودِ الحلالِ والحرام، وتُوَقِّفُهُ عليها لئلّا يتعدّاها فيَقَعَ في العناء الطّويل.

* وتُثَبِّتُ قلبَهُ عن الزّيغ والمَيْل عن الحقّ والتّحويل.

* وتُسَهِّلُ عليه الأمورَ الصّعاب والعقباتِ الشّاقّة غايةَ التّسهيل.

* وتُناديه ـ كُلّما فترتْ عَزَماتُهُ، ونى في سيرِه: تَقَدَّم الرَّكبُ وفاتَك الدَّليلُ، فاللّحاقَ اللّحاقَ والرّحيلَ الرّحيل، وتَحْدُو به وتسيرُ أمامَهُ سيرَ الدَّليل، وكُلّما خرج عليه كمينٌ من كمائن العدُوّ، أو قاطعٌ من قُطّاع الطّريق نادَتْهُ: الحَذَرَ الحذَرَ! فاعْتَصِمْ بالله، واستَعِنْ به، وقُلْ: حَسْبيَ الله ونعمَ الوكيل.

وفي تأمُّل القرآن وتدبُّره، وتفهُّمه، أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا من الحِكَمِ والفوائد، وبالجملة: فهو أعظم الكنوز»[2].

---

(١) انظر: كيف نتدبر القرآن، لفواز أحمد زمرلي (ص٨٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣).

٤ ـ التَّدبُّر غذاءٌ وعلاجٌ وسلاح:

ومن ثمرات تدبُّر القرآن: أنَّه غذاء للرُّوح، وعلاج يشفي النُّفوس من علَّلها، ويُكسِبها المناعة القويَّة ـ إذا أحسن المؤمن تدبُّرَه، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

فهذا التَّدبُّر يُخرج المتدبِّر من الحيرة والقلق النَّفسي؛ ليسكب فيه الشُّعور بالطُّمأنينة والاستقرار، كما يزحزحه من حال التَّعاسة إلى السَّعادة وراحة البال.

كما أنَّ التَّدبُّر سلاح يدفع الأخطار المحدقة بالفرد والمجتمع من الدَّاخل والخارج، حيث يُستَعْمَلُ في جهاد النَّفس، ومقاومة المنافقين، وجهاد الكافرين على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

فالله تبارك وتعالى أمر أن يُجاهَدَ الكفّارُ بالقرآن جهاداً كبيراً، ويكون هذا الجهاد بِحُجَجِ القرآن وأدلَّتِه وبراهينِه، وهو جهادُ أنبيائِه ورسلِه وخاصَّتِه من عباده، الذين تدبَّروا آيات الكتاب العزيز وجاهدوا بها أعداءه[1].

وفي هذا الشَّأن يقول الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جاهِدْهُم بهذا القرآن جهاداً كبيراً، حتَّى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به، ويُذْعنوا للعمل بجميعه طوعاً وكرهاً»[2].

وأكَّد ذلك أبو السُّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «فإنَّ دعوة كلِّ العالَمين ـ على الوجه المذكور ـ جهاد كبير، لا يُقادَرُ قدرُه كمّاً وكيفاً»[3].

ومفتاح هذا الجهاد الأكبر: هو تدبُّر القرآن العظيم؛ لأنَّ أعداء المسلمين لم يتسلَّطوا ويُحْكموا عليهم القبضة إلَّا عندما هجروا تدبُّر القرآن، ولم يلتزموا بما جاء فيه[4].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥).
(٢) تفسير الطبري (١١/ ٣٠).
(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٢٥).
(٤) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم (ص١٩٦).

٥ ـ التَّدبُّر فيه تربيةٌ للعقول:

معرفة ما أنزل الله تعالى من أعظم ما يُربِّي العقول ويجعلها تفهم الحقائق النّافعة فتتّبعها، والضّارة فتجتنبها؛ فلا تميل بها الأهواءُ والأغراضُ والخيالات والخرافات الضّارَّة المفسدة للعقول.

وليس العقل هو الذّكاء، وقوّة الفِطْنة، والفصاحة اللّفظية، وإنّما العقل الصّحيح هو أن يَعْقِلَ العبدُ ـ في قلبه ـ الحقائقَ النّافعة، عقلاً يُحِيط بمعرفتها، ويميز بينها وبين ضِدِّها، ويعرف الرّاجح من الأمور فيؤثره، والمرجوحَ أو الضّارَ فيتركه[١].

قال السّعدي رحمه الله: «وسُمِّي العقلُ عقلاً؛ لأنّه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عمّا يضرُّه. . . فمَنْ أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشّر فلم يتركه، دلَّ على عدم عقله وجهله»[٢].

والتّدبُّر مِفتاحُ كلِّ خيرٍ:

فتدبُّر القرآن يُعين على فهم المراد من كلام الله تعالى، ويفسح أمام العقل آفاق العلم والمعرفة؛ فيكتسب قارئه معارف جديدة، ويُلِمّ بالعلم النّافع، وتزيدَ حصيلتُه اللّغوية فهماً وتعبيراً، ويتحدَّث ويكتب بطلاقةٍ وبشكلٍ صحيح مؤثّر على الآخرين.

قال السّعدي رحمه الله ـ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. «وأنزله بهذا اللّسان لِنَعْقِلَه ونفْهَمَه، وأمرَنا بتدبُّره، والتّفكُّر فيه، والاستنباط لعلومه؛ وما ذاك إلّا لأنّ تدبُّره مفتاحُ كلِّ خيرٍ، محصِّلٌ للعلوم والأسرار»[٣].

وقال رحمه الله: «فإنّ في تدبُّر كتاب الله مفتاحاً للعلوم والمعارف، وبه يُستنتج كلُّ خيرٍ، وتُستخرج منه جميعُ العلوم»[٤].

---

(١) انظر: كيف نتدبر القرآن (ص٨٣). (٢) تفسير السعدي (١/٥٧).
(٣) المصدر نفسه (١/١٢)؛ «مقدمة تفسير السعدي».
(٤) المصدر نفسه (١/٣٧٦).

والتَّدبُّر فيه صقلٌ للمواهب، وتنميةٌ للقدرات العقليَّة:

فتنمو فيه قوَّة الملاحظة، ومَلَكَة التَّفكير، وترتفع قدرته على معالجة الأمور، ويصبح حكماً عاقلاً عند اختلاف الآراء والأفكار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

ومن اعتاد تدبُّر القرآن تنمو عنده ملَكَة تأمُّل النُّصوص القوليَّة والكتابيَّة، لتصبح ملازمة له. فيختار العبارات المناسبة في أقواله وكتابته لِتُفْهَمَ دون التباسٍ، أو احتمال تأويلاتٍ تُخرِجُها عن الغرض المقصود.

كما أنَّ تلك العادة الحميدة تدفعه إلى التَّدقيق بما يسمع أو يكتب من نصوصٍ، فيمحِّصَ الأمر، ويتجنب ما يوقعه فريسةً لكيد الكائدين، ومكر الماكرين، وطمع الطَّامعين على الصَّعيد الفردي والدَّولي، في التَّحدُّث أو عند صياغة العقود الشَّخصية أو المعاهدات والاتِّفاقيات والقرارات[1].

أما بعد: فهذه بعض ثمرات التَّدبُّر الزَّاكية، فأين نحن منها؟ فما تحصَّن عبد من الشيطان بمثل ما تحصَّن به مُتدبِّر القرآن، فهو أفضل الذِّكر، وبالذِّكر يخنس الشَّيطان ويهرب.

فمنْ أراد أن يكون في حصنٍ حصين، ودرعٍ متين، فلا غنى له عن تدبُّر القرآن العظيم.

ولا غَرْوَ أن يتساءل ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ - في صيغة استنكارٍ وتوبيخٍ - عن حال مَنْ هَجَرَ تدبُّرَ نصوصِ الوحي، إذ يقول: «سبحان الله! ماذا حُرِمَ المعرِضون عن نصوص الوحي، واقتباس العلم من مِشكاته من كنوز الذخائر؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟! قنعوا بأقوال استنبطَتْها مَعاوِلُ الآراء فِكْراً، وتقطَّعوا أمرهم بينهم لأجلها زُبراً، وأوحى بعضُهم إلى بعضٍ زخرف القول غروراً؛ فاتَّخذوا لأجل ذلك القرآن مهجوراً.

درست معالِمُ القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودَثَرَتْ معاهدُه عندهم

---

(١) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم (ص١٩٧).

فليسوا يعمرونها، ووقعت أَلْوِيَتُه وأعلامُه من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأَفَلَتْ كواكبُه النَّيِّرة من آفاق نفوسهم، فلذلك لا يحبُّونها، وكَسَفَتْ شمسُه عند اجتماع ظُلَمِ آرائهم وعُقَدِها، فليسوا يُبْصِرونها»[١].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥)؛ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطّلة والجهميّة (١/ ٤١).

الفصل الثامن

هجر العمل بالقرآن

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: وجوب العمل بالقرآن.

المبحث الثاني: فضائل العمل بالقرآن.

المبحث الثالث: النبيُّ ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن.

المبحث الرابع: الصَّحابة ﷺ يتواصون بالعمل بالقرآن.

المبحث الخامس: نماذج من عمل الصَّحابة ﷺ بالقرآن.

المبحث الأول

وجوب العمل بالقرآن

أولاً: معنى العمل بالقرآن:

القرآن العظيم دستور المسلمين، ومنهاج حياتهم، به تستقيم حياة الفرد والمجتمع؛ ارتضاه الله ﷻ ليكون لهم، بل وللعالم أجمع منهج حياة، فقدَّمه على الخلق بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]. فرَسَم لهم المنهج، وحدَّد لهم الطَّريق حتى قبل خلقهم لتستقيم حياتهم؛ لذا فالغاية الأساس من نزوله العمل بما جاء فيه من الأوامر والنَّواهي، فهو ليس كتاباً للقراءة فحسب، بل جعله الله نوراً وهدى للنَّاس؛ ليعملوا بما فيه، ويلتزموا حدوده، قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣]. فمنِ ابتغى من القرآن غير ما أنزل لأجله فقد تنكَّب سواء السَّبيل، وضلَّ عن هدي ربِّ العالمين.

والعمل بالقرآن يعني أن يتَّخذه المسلم شِرْعة ومنهاجاً في حياته، فيأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه، ويحتكم إليه في كلِّ شؤونه الخاصة والعامَّة، فيصبح يُرى كأنَّه قرآنٌ يمشي على الأرض، وهذا ما أشارت إليه أمُّ المؤمنين عائشة ﵂ عندما سُئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ بقولها: كان خلقه القرآن، أي: بتطبيقه لآيات الله وأحكامه وآدابه وتجنُّبه نواهيه.

ولأهميَّة العمل بالقرآن نجد كثيراً من الآيات تربط بين الإيمان والعمل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

والحقُّ أنَّ القرآن الكريم مليء بالآيات الدَّالة على أنَّ الغرض الأساس من نزوله إنَّما هو العمل بما جاء فيه.

ولذلك لا يُؤجر صاحب القرآن الأجر الكامل المستوفى، إلَّا بعد تطبيقه واقعاً معاشاً في الحياة، والاهتداء بهديه المبارك، والعمل به آناء اللَّيل وأطراف النَّهار.

التَّحذير من التَّشبُّه باليهود:

إنَّ من أعظم أسباب شقاء اليهود هو أنَّهم اكتفوا بقراءة التَّوراة وسماعها دون أن يتبع ذلك عمل فَشبَّهَهم الله تعالى بالحمير. فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وفي ذلك يقول ابن القيم ﷺ: «فَقَاسَ سبحانه مَنْ حَمَّلَه كتابَه ليؤمن به ويتدبَّره ويعمل به ويدعو إليه ثُمَّ خالَفَ ذلك، ولم يَحمِلْه إلَّا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبُّر ولا تفهُّم، ولا اتِّباع ولا تحكيم له وعمل بموجبه، كحمارٍ على ظهره زَامِلةُ أسفارٍ لا يدري ما فيها، وحظُّه منها حملها على ظهره ليس إلَّا، فحظُّه من كتاب الله ﷻ كَحَظِّ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل وإنْ كان قد ضُرِبَ لليهود فهو مُتناوِلٌ من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العملَ به ولم يُؤَدِّ حقَّه، ولم يرعه حَقَّ رعايته»[١].

فهؤلاء اليهود حُمِّلوا التَّوراة، أي: عَلِمُوها وكُلِّفوا العمل بها، ثم لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما فيها، كمثل الحمار يحمل كتباً يتعب في حملها ولا ينتفع بها[٢].

وسبب ذمِّهم: أنَّهم «اقتنعوا من العلم بأنْ يحملوا التَّوراة دون فهم، وهم يحسبون أنَّ ادِّخار أسفار التَّوراة، وانتقالها من بيتٍ إلى بيتٍ، كافٍ في التَّبجُّح بها»[٣].

---

(١) الأمثال في القرآن الكريم (ص٢٦ ـ ٢٧).
(٢) انظر: روح المعاني (٢٨/ ٩٥)؛ تفسير البيضاوي (٥/ ٣٣٨).
(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٩١).

وعن أبي الدَّرداءِ ﷺ قال: كنَّا مع النَّبيِّ ﷺ فشخص ببصره إلى السَّماء، ثم قال:

«هذا أوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ، حتَّى لا يَقْدِرُوا مِنْهُ على شَيْءٍ».

فقال زِيادُ بنُ لبِيدٍ الأنصاريُّ ﷺ: كَيفَ يُخْتَلَسُ منَّا، وقد قرأْنا القُرآنَ؟ والله، لَنقْرأَنَّهُ، ولَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءنا وأبْناءَنا؟ قال: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ[١] يا زِيَادُ، إنْ كُنتُ لأعُدُّك منْ فُقهاءِ أهل المَدينةِ؛ هذه التَّوراةُ والإنجيلُ عند اليهودِ والنَّصارى فماذا تُغْني عَنْهُمْ؟»[٢].

فرسول الله ﷺ يدعو الأمّة إلى العمل بالقرآن بعد قراءته وفهمه، لا إلى الاقتصار على القراءة فحسب، فيفعلون كما فعل بنو إسرائيل، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

وقال القرطبي ﷺ: «والأمانِيُّ: جَمْعُ أُمْنِيَّةٍ وهي التِّلاوةُ»[٣].

ويُنَبِّهنا القرطبي ﷺ إلى أهميَّة العمل بالقرآن ـ بعد فهمه، فيقول: «وينبغي له أن يتعلَّم أحكامَ القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فما أقبحَ لحامل القرآن أن يتلوَ فرائضَه وأحكامَه عن ظهر قلبٍ، وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يُسألَ عن فِقْهِ ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل مَنْ هذه حالتُه إلَّا كمثل الحمار يحمل أسفاراً»[٤].

وغالِبُ المسلمين اليوم لا يعلمون منَ القرآن إلَّا تلاوته!

وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ أصحابَه ﷺ من أفعال طائفةٍ تأتي مِنْ بعدهم يقرؤون القرآن، غير أنَّ القراءة لا تتعدَّى حناجرهم، وتبقى في حيِّز الأصوات بلا عمل،

---

(١) أي: فقدتك، وأصله الدُّعاء بالموت، ثم يُستعمل في التَّعجُّب.
انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٧/ ٤٤٩).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٣١) (٢٦٥٣)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٣٧) (ح٢١٣٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٦).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٢١).

فقال: «يَخْرُجُ في هذه الأُمَّةِ ـ ولم يقل منها ـ قومٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مَعَ صَلاتِهِمْ، يَقْرَؤُونَ القُرآنَ لا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أو حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقونَ مِنَ الدِّين مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[١].

ثانياً: وجوب العمل بالقرآن:

يترتَّب على كون القرآن العظيم كلام الله تعالى وجوبُ العمل بما ورد فيه، وما دلَّ عليه من أحكامٍ، وحرمةُ العدول عنه إلى غيره.

ومَنِ اعتقد جواز مخالفة القرآن فيما دلَّ عليه من أحكام فقد كفر؛ لأنَّه أجاز مخالفة الله ﷻ، وإجازةُ مخالفتِه سبحانه رِدَّةٌ واضحة؛ لأنَّها تعني أن يُردَّ على الله كلامه[٢].

يقول ابن حزم ﷺ: «ولمَّا تبيَّن بالبراهين والمعجزات أنَّ القرآن هو عهد الله إلينا، والذي أَلْزَمَنا الإقرارَ به، والعملَ بما فيه... وجَبَ الانقيادُ لما فيه، فكان هو الأصل المرجوع إليه...

ولا خلاف بين أحدٍ من الفِرَقِ المنتمية إلى المسلمين من أهل السُّنَّة، والمعتزلة، والخوارج، والمرجئة، والزَّيدية، في وجوب الأخذ بما في القرآن»[٣].

ويقول أيضاً: «فالكلُّ مأمورون باتِّباع قرآنِه... فمَنْ أجاز خلاف ذلك فقد أجاز خلاف الله تعالى، وهو رِدَّةٌ صحيحة لا مِرْيَةَ فيها»[٤].

هجر العمل بالقرآن له حالان:

وينبغي أن يُفرَّقَ: بين مَنْ يُخالف أحكام القرآن، وهو لا يعتقد أنَّ غيرها خير منها، ولا يُقِرُّ بِجَوازِ مخالفتها، وبين مَنْ يُخالف أحكامَ القرآن، من مُنطَلَقِ عدم صلاحيتها، وأنَّه يجوز العدولُ عنها إلى غيرها.

---

(١) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدِّين والمعاندين وقتالهم، باب: قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجَّة عليهم (٤/ ٢١٦٤) (ح٦٩٣١).
(٢) انظر: أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي (١/ ٤٢٢، ٤٣١).
(٣) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٩٢). (٤) المصدر نفسه (٤/ ٥٥٢).

فالأوَّل: عاصٍ، وليس كافراً؛ لأنه لا يعتقد جواز مخالفة الله ﷻ في أحكامه، ولا أنَّ غيرها خير منها. مع أنه مُقصِّر في عدم الالتزام بها.

والثَّاني: كافرٌ مرتدٌّ؛ لأنه يعتقد أنَّ أحكام الله لا يجب العملُ بها وتطبيقُها، لعدم صلاحيتها، وأنَّ غيرها خير منها[1].

ثالثاً: الأدلَّة على وجوب العمل بالقرآن:

وردت آياتٌ عدَّة في كتاب الله تعالى تُوجِبُ العملَ به، ومنها ما يأتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

فقد أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ وأُمَّتَه مِنْ بعده أنْ يقتدي بكتاب الله تعالى، ويقتفي أثره، ويعمل به؛ لأنه حَقٌّ لا مرية فيه مِنْ واحدٍ أحد[2].

وأَمَرَهُ تعالى كذلك ألَّا يشغل قلبه وخاطره بهؤلاء المشركين المعاندين، وليشتغل بعبادة الله تعالى واتِّباع ما أوحي إليه[3].

قال ابن عاشور رحمه الله: «والاتِّباع في الأصل اقتفاء أثر الماشِي، ثُمَّ استُعمل في العمل بمثل عمل الغير، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]. ثُمَّ استُعمل في امتثال الأمر، والعمل بما يأمر به المتبوع، فهو الائتمار، . . .

فيجوز أن يكون الاتِّباع في الآية مراداً به دوام الامتثال لما أَمَرَ به القرآن»[4].

ولا ريبَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد اتَّبَعَ ما أُوحي إليه من ربِّه خير اتِّباع، وأولى القرآن العظيم كُلَّ عنايةٍ وتقدير، ودعا النَّاسَ كافَّة إلى الله تعالى، وشملت دعوتُه المباركة جميعَ الأوقات والأزمان، وكافَّة الظُّروف والأحوال، فجزاه الله تعالى خير ما جزى به جميع الأنبياء عن أممهم.

---

(١) انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن (ص٣٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٤)؛ تفسير البغوي (٢/ ١٢١)؛ تفسير السمرقندي (١/ ٤٩٢).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٦٠)؛ فتح القدير (٢/ ١٥٠).
(٤) التحرير والتنوير (٦/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وفي هذه الآية الكريمة أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمداً ﷺ باتِّباع الوحي والتَّنزيل، فإنْ أصابه مكروه بسبب هذا الاتِّباع، فليصبر عليه إلى أنْ ﴿يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ فيه بالحقِّ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[(١)].

والمعنى: تَمَسَّك بما أنزله الله إليك، واثْبُتْ على العمل بمقتضاه، واصبرْ على مُخالفة النَّاس لك، حتَّى يفتح الله بينك وبينهم بِحُكْمه، وعدله، ورحمته، وهو خير الفاتحين[(٢)].

قال السَّعدي رحمه الله ـ في تفسير الآية: «﴿وَاتَّبِعْ﴾ أيُّها الرَّسولُ ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ عِلْماً، وعَمَلاً، وحَالاً، ودعوةً إليه. ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ذلك، فإنَّ هذا أعْلَى أنواع الصَّبر، وأنَّ عاقبته حميدة، فلا تكسلْ، ولا تضجرْ، بل دُمْ على ذلك، واثْبُتْ. ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بينك وبين مَنْ كَذَّبك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنَّ حُكمه، مشتمل على العدل التَّام، والقسط الذي يُحمد عليه. وقد امتثل ﷺ أمرَ ربِّه، وثَبَتَ على الصِّراط المستقيم، حتَّى أظهر اللهُ دينَه على سائر الأديان، ونَصَره على أعدائه بالسَّيف والسِّنان، بعدما نَصَره الله عليهم بالحُجَّة والبرهان»[(٣)].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

أمَرَ الله تعالى النَّاس جميعاً أن يتَّبعوا ما أُنزل إليهم من ربِّهم، وهو كتاب الله تعالى فيحلُّوا حلاله، ويحرِّموا حرامه، ويمتثلوا أمره، ويجتنبوا نهيه، ولا يخرجوا عمَّا جاءهم به الرَّسول ﷺ إلى غيره، فيكونوا قد عدلوا عن حُكم الله ﷻ إلى حُكم غيره. ودلَّت هذه الآية الكريمة: على ترك اتِّباع الآراء، مع وجود النَّصِّ، من كتابٍ أو سُنَّة[(٤)].

قال السَّعدي رحمه الله ـ في تفسير الآية: «﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ أي: الكتاب

(١) انظر: التفسير الكبير (١٧/ ١٤٠ ـ ١٤١).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٦). (٣) تفسير السعدي (٢/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ١٦١)، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٠).

الذي أُريد إنزاله لأجلكم، وهو: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي يريد أن يُتِمَّ تربيتَه لكم، فأنزل عليكم هذا الكتابَ الذي إن اتَّبعتموه، كملت تربيتكم، وتمَّت عليكم النِّعمة، وَهُدِيتُم لأحسن الأعمال والأخلاق، ومعاليها.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: تتولَّوْنَهم، وتتَّبِعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فلو تذكَّرتم وعرفتم المصلحة، لما آثرتم الضَّارَّ على النَّافع، والعدوَّ على الوليِّ»(١).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

ولا ريبَ أنَّ القرآنَ العظيم أحسَنُ ما أنزل إلينا من رَبِّنا تبارك وتعالى، فله الحمد والمِنَّة، والسنَّةُ مبيِّنة له ومُوَضِّحة، لكنَّ هذه النِّعمةَ الجليلة تستوجب الشُّكرَ العملي لا الشُّكرَ اللَّفظي، فقد هُدِّدَ مَنْ لم يَتَّبِعْ أحسنَ ما أُنزل إلينا مِنْ رَبِّنا بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾(٢).

قال ابن عطيَّة رحمه الله: «معناه أنَّ القرآن العزيز تضمَّن عقائدَ نيِّرة، وأوامِرَ ونواهيَ مُنجية، وعِداتٍ على الطَّاعات والبِرِّ، وحدوداً على المعاصي، ووعيداً على بعضها، فالأحسَنُ أن يَسْلُكَ الإنسانُ طريقَ التَّفهُّم والتحصيل، وطريقَ الطاعة، والانتهاء والعفو في الأمور، ونحو ذلك، فهو أحسن مِنْ أنْ يسلك طريقَ الغفلة والمعصية، فيجد أو يقع في الوعيد»(٣).

فالمقصود إذاً من إنزال القرآن العظيم: العملُ بمقتضاه، لا تلاوته باللِّسان وترتيله فقط، ثمَّ نَبْذُهُ بعد ذلك، كما فَعَلَ ذلك فريق مِنْ عُصاةِ أهل الكتاب، فَذَمَّهُم الله تعالى على فِعلهم الشَّنيع، وشَهَّرَ بهم، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٩٥ ـ ٩٦).
(٢) انظر: أضواء البيان (٧/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).
(٣) تفسير ابن عطية (٤/ ٥٣٧).

أي: اطرح طائفةٌ منهم كِتابَ الله الذي بأيديهم، ممَّا فيه البشارة بمحمدٍ ﷺ وراءَ ظهورهم، وتركوا العمل به.

وأصْلُ النَّبْذِ: الطرْحُ والإلقاءُ، ومنه سُمِّيَ اللَّقيطُ مَنْبُوذاً، ومنه سُمِّيَ النَّبيذ، وهو التَّمْرُ والزَّبيب إذا طُرِحَا في الماء[١].

فالله تعالى أَمَرَنا باتِّباع كتابه والعمل بمقتضاه، لَكِنَّا ـ ويا للأسف ـ تركناه كما تركت اليهود والنَّصارى ـ إلَّا مَنْ رحم الله تعالى.

فبقيت أشخاص المصاحف لا يُبالى بما فيها من كلام الله تعالى وأوامره العظيمة؛ لغلبة جَهْلِنا، ولطلب الرِّياسات، ولاتِّباع الأهواء، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم[٢].

والمتأمِّلُ في الآيات السَّابقة، يلحظ أمرين مهمَّين:

١ ـ الآيتان الأُولى والثَّانية جاءتا بلفظ: ﴿ٱتَّبِعْ﴾ وهو أمرٌ من الله تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ باتِّباع ما أوحي إليه من الكتاب والسُّنَّة، والأَمْرُ له أمر لأمَّته مِنْ بعده، ولا مُخَصِّصَ للآيتين.

٢ ـ الآيتان الثَّالثة والرَّابعة جاءتا بلفظ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟﴾ وهو أمرٌ مباشر من الله تعالى إلى النَّاس جميعاً بالاتِّباع، وتَرْكُ إظهار الواسطة في الأمر ـ وهو الرَّسول ﷺ ـ لتقوم على النَّاس الحجَّة، فلا يأتي متفلسف ومتأوِّل ليقول: إنَّ الأمر للرَّسول ﷺ ليس أمراً لأمَّته، فهكذا قَطَع عليهم الطَّريق، والأمر يقتضي الوجوب، كما هو المعلوم من لغة العرب، ولا صارفَ له.

فهذا يدلُّ دلالة واضحة على وجوب اتِّباع كتاب الله تعالى، والعمل بمقتضاه.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٩٦ ـ ٢٩٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/٤٣٧).

المبحث الثاني

فضائل العمل بالقرآن

أعظم جزاء ينتظر العامل بالقرآن العظيم هو الجنَّة. والجنَّة درجات، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢].

«أي: ولكلِّ عاملٍ في طاعة الله أو معصيته منازِلُ ومراتبُ مِنْ عَمَلِهِ، يُبَلِّغُهُ اللهُ إيّاه، ويُثيبه بها، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرٌّ»(١).

وقد جاء عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ في الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبيلِ الله، ما بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كما بَيْنَ السَّمَاءِ والأرْضِ، فإذا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّهُ أوْسَطُ الجَنَّةِ، وأعْلَى الجَنَّةِ ـ أُرَاهُ قَالَ: وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أنْهارُ الجَنَّةِ»(٢).

وقد وَعَدَ الله تعالى مَنْ عَمِلَ بالقرآن العظيم أن يُحييه حياةً طَيِّبةً في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

«فأخبر سبحانه عن فلاح مَنْ تمسّك بعهده عِلْماً وعَمَلاً في العاجلة بالحياة الطَّيِّبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس مَنْ له المعيشة الضَّنك في الدُّنيا والبرزخ، ونسيانه في العذاب بالآخرة»(٣).

ولا بدَّ لكلِّ منْ عملَ صالحاً أن يحييه الله حياةً طَيِّبة بحسب إيمانه وعمله، ولكن يغلط أكثر النَّاس في مسمَّى الحياة حيث يظنُّونها التَّنعُّم في أنواع المآكل

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٣).
(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله (٢/ ٨٦٤) (ح٢٧٩٠).
(٣) مفتاح دار السعادة (ص٤٤).

والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال، والتفنُّن بأنواع الشَّهوات.

ولا ريب أنَّ هذه لذة مشتركة بين الإنسان وبين البهائم، بل قد يكون حظُّ كثيرٍ من البهائم منها أكثر من حظِّ الإنسان، فأين هذه اللذة من اللذَّة بأمرٍ إذا خالط بشاشتُه القلوبَ سلَّى عن الأبناءِ والنِّساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورَضِيَ بتركها كلِّها والخروج منها رأساً، وعَرَّضَ نفسَه لأنواعِ المكاره والمشاقِّ، وهو منشرح الصَّدر، حتَّى أنَّ أحدهم ليتلقَّى الرُّمح بصدره ويقول: فُزْتُ وربِّ الكعبة، ويستطيل الآخَرُ حياتَه حتَّى يُلقي قُوتَه من يده، ويقول: إنَّها لحياة طويلة إنْ صبرتُ حتى آكلها ثمَّ يتقدَّم إلى الموت فَرِحاً مسروراً، ويقولُ الآخَرُ - مع فقره: لو عَلِمَ الملوكُ وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسُّيوف، ويقول الآخَرُ: إنَّه ليمرُّ بالقلب أوقات ليرقص فيها طَرَباً، وربَّما قال بعضهم: إنَّه لتمرُّ بي أوقاتٌ أقول فيها إنْ كان أهل الجنَّة في مثل هذا إنَّهم لفي عيشٍ طيِّب[1].

وفضائلُ العمل بالقرآن العظيم كثيرة ومتنوِّعة، بعضها في الدُّنيا، وبعضها في الآخرة، ومنها ما يأتي:

١ - الهداية في الدُّنيا والآخرة:

قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨].

فهذا أمْرُ تكريم من الله ﷻ لنبيِّه الكريم محمدٍ ﷺ أن يُبَشِّرَ الذين يستمعون القرآن، ثم يقودهم هذا الاستماع، إلى العمل به وتطبيقه.

وفي معنى قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ قولان:

الأوَّل: يستمعون القولَ على العموم، فيتَّبعون القرآن؛ لأنه أحسن الكلام.

الثَّاني: أنَّ ﴿الْقَوْلَ﴾ هو القرآن. أي: يستمعون القرآن، فيتَّبعون بأعمالهم أحْسَنَه من العفو، والصَّفح، واحتمال الأذى، الذي هو أحسن من الانتصار،

---

(١) انظر: المصدر نفسه (ص٣٥ - ٣٦).

ونحو ذلك(١). كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

ومعنى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾: أي: المُتَّصِفون بهذه الصِّفة الجليلة ـ وهي العمل بكتاب الله ـ هم الذين هداهم الله تعالى للدِّين الحقِّ، ومحاسن الأمور، فهداهم لأحسن الأخلاق والأعمال، وضَمِنَ لهم ألَّا يضلُّوا في الدُّنيا، ولا يَشْقوا في الآخرة بسوءِ الحساب.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «ضَمِنَ الله تعالى لِمَنْ قرأ القرآنَ وعَمِلَ بما فيه ألَّا يضلَّ في الدُّنيا، ولا يشقى في الآخرة». ثمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣](٢).

وقال أيضاً: «مَنْ قرأ القرآنَ واتَّبَعَ ما فيه، هداه الله مِنَ الضَّلالة، ووقاه يومَ القيامة سُوءَ الحساب». ثُمَّ تلا الآيةَ نفسَها(٣).

ومعنى قوله: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾:

«أي: هم أصحاب العقول السَّليمة عن معارضة الوَهْم، ومنازعة الهوى، المستحقُّون للهداية لا غيرهم، وفيه دلالة على أنَّ الهداية تحصل بِفِعْلِ الله تعالى، وقبول النَّفس»(٤).

فالذي لا يُمَيِّزُ بين الأقوال حَسَنِها وقبيحِها ليس من أهل العقول السَّليمة، والذي يُميِّز لكن شهوته تغلبه أحياناً، فيبقى عقلُه تابعاً لشهوته، كان ناقص العقل.

فهؤلاء أهل العقول الزَّاكية، والفِطَر المستقيمة من لُبِّهم وحَزْمِهم عرفوا الحَسَنَ وغيرَه، فآثروه، وتركوا ما سواه، فهذه علامة العقل الصَّحيح، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم(٥).

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ١٩٣).
(٢) انظر: تفسير ابن عطية (٤/ ٥٢٥).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (١١/ ٢٧٥)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩).
(٤) تفسير أبي السعود (٧/ ٢٤٨).
(٥) انظر: تفسير السعدي (٤/ ٣١٦).

٢ ـ الرَّحمة في الدُّنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

هذه الآية الكريمة تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ أقصرَ سبيلٍ وأوضَحَه لنيلِ رحمة الله تعالى، هو اتِّباع هذا الكتاب العظيم، علماً وعملاً.

ومعنى الآية: إنَّ ﴿هَٰذَا﴾ الذي تُليت عليكم أوامره ونواهيه ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم الشَّأن، لا يُقادَرُ قَدْرُه، ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾؛ لكثرة منافعه الدِّينية والدُّنيوية.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنَّ عظمة هذا الكتاب، وكونه منزَّلاً من الله جلَّ جلالُه، وفيه ما فيه من المنافع الدِّينية والدُّنيوية، هذا كُلُّه موجب لاتِّباعه، والعمل به[1].

قال ابن عاشور ﷺ: «وافتتاح الجملة باسم الإشارة، وبناءُ الفعلِ عليه، وَجَعْلُ الكتاب الذي حَقُّه أن يكون مفعول ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ مبتدأ، كُلُّ ذلك للاهتمام بالكتابِ والتَّنويه به، . . .

وتفْرِيعُ الأمرِ باتِّباعه على كونِه مُنَزّلاً من الله، وكونِه مباركاً، ظاهر: لأنَّ ما كان كذلك لا يَترددُ أحد في اتِّباعه. . .

ومعنى: ﴿اتَّقُوا﴾ كونوا مُتَّصفين بالتَّقوى. وهي الأخذُ بِدين الحقِّ والعملُ به.

وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وَعْدٌ على اتِّباعه، وتعريضٌ بالوعيد بعذاب الدُّنيا والآخرة إنْ لم يَتَّبعوه»[2].

فهذا ترغيب من الله تعالى لعباده، أن يَتَّبعوا هذا الكتاب المبارك، ويعملوا به؛ رجاء أن تنالهم رحمته في الدُّنيا والآخرة.

٣ ـ الفلاح في الدُّنيا والآخرة:

قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣/٢٠١). (٢) التحرير والتنوير (٧/١٣٣).

فقد شَبَّهُ الله تعالى القرآنَ بالنُّور الذي يكشف ظلمات الجهل، ويَظْهَرُ في ضوئه الحقُّ، ويتميَّز عن الباطل، ويُميِّز به بين الهدى والضَّلال، والحَسَن والقبيح. وشَبَّه حال المقتدي بهدي القرآن، بحال السَّاري في اللَّيل؛ إذا رأى نوراً يلوح له اتَّبعه، لِعِلْمِه اليقيني أنَّه يجد عنده مَنْجَاةً مِنَ المخاوفِ وأضرارِ السَّير.

فيجب على كلِّ مسلمٍ أن يستضيءَ بنور القرآن العظيم، فيعتقد عقائده، ويحلُّ حلاله، ويُحَرِّم حرامه، ويمتثل أوامر، ويجتنب ما نهى عنه، ويعتبر بقصصه وأمثاله، ولا ينبغي لمسلمٍ بعد هذا كُلِّه أن تعمى بصيرتُه عن هذا النُّور العظيم[1].

فمَنِ استجاب لهذا النُّور، واتَّبعه، وعمل بما فيه، فهو المُفلح الفائز بالمطلوب في الدُّنيا والآخرة، الظَّافر بِخَيْرِهما والنَّاجي من شَرِّهما، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المفلحين.

٤ ـ تكفير السَّيِّئات وإصلاح البال:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ «أي: آمنت قلوبُهم وسرائرُهم، وانقادت لشرع الله جوارحُهم، وبواطنُهم، وظواهرُهم»[2].

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ هذا مِنْ عطف الخاصِّ على العامِّ. قال سفيان الثَّوري رحمه الله: «يعني لم يخالفوه في شيء»[3]. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ «يُريد أنَّ إيمانهم هو الحقُّ مِنْ رَبِّهم، وقيل: أي أنَّ القرآنَ هو الحقُّ من ربِّهم، نسخ به ما قبله»[4].

وثمرة هذا الإيمان الصَّحيح، وهذا الاتِّباع الكامل للقرآن، والعمل به، أمران عظيمان:

أوَّلهما: تكفير السَّيِّئات:

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ «صغارها وكبارها، وإذا كُفِّرت عنهم سيِّئاتهم نجوا من

---

(١) انظر: أضواء البيان (٧/ ٨٠)؛ التحرير والتنوير (٨/ ٣١٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٣).
(٣) تفسير البغوي (٤/ ١٧٧).
(٤) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٢٤).

عذاب الدُّنيا والآخرة»[١]. «وقيل: ستَرَ بإيمانهم وعَمَلِهم الصَّالح ما كان من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم عنها وتوبتهم»[٢].

ثانيهما: إصلاح البال:

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: «أصلح شأنَهم وحالَهم في الدُّنيا عند أوليائه، وفي الآخرة أنْ أورثهم نعيمَ الأبد، والخلودَ الدَّائم في جنَّاته»[٣].

وقيل: «أصلح دينَهم، ودنياهم، وقلوبَهم، وأعمالَهم، وأصلح ثوابَهم بتنميته وتزكيته، وأصلح جميعَ أحوالهم»[٤].

ولا ريب أنَّ إصلاحَ البالِ نعمةٌ كبرى، ومِنَّةٌ عُظمى، تلي نعمة الإيمان في القَدْر والقيمة والأثر. وفي ذلك اطمئنان لهم، وراحة كبيرة، وثقةٌ بالله تعالى في ثوابهم العاجل والآجل.

ومتى صَلَحَ البال، استقام السُّلوك والعمل، واطمأنَّ القلب، وتنزَّلت عليه السَّكينة، ورضيت النَّفس، واستمتعت بالأمن والإيمان، وماذا بعد هذا من نعمةٍ أو متاع[٥].

والسَّبب المباشر لهذا الجزاء المبارك أنَّهم: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣].

أي: أنَّهم عملوا بهذا القرآن العظيم الصَّادر ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ الذي ربَّاهُم بنعمته، ودبَّرهم بلطفه، فربَّاهم تعالى بالحقِّ فاتَّبعوه، فعند ذلك صلحت أمورهم.

فلمَّا كانت الغاية المقصودة لهم متعلِّقة بالحقِّ المنسوبِ إلى اللهِ الباقي الحقِّ المبين، كانت الوسيلةُ صالحةً باقياً ثوابُها[٦].

فهذه هي بعض فضائلِ العمل بالقرآن العظيم، وحُسْنِ الجزاء في الدُّنيا والآخرة، نسأل الله تعالى أن يرزقنا حُسْنَ العملِ بكتابه، وحُسْنَ الجزاءِ على ذلك، إنَّه سميع مجيب.

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٨٤).
(٢) الكشاف (٤/ ٣١٩).
(٣) تفسير الطبري (٢٦/ ٣٩).
(٤) تفسير السعدي (١/ ٧٨٤).
(٥) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٨١).
(٦) انظر: المصدر السابق، والصفحة نفسها.

المبحث الثالث

النبي ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن

إنّ خير مَنْ عَمِل بكتاب الله تعالى، وطَبّقَهُ في ظاهره وباطنه، وأصبح خُلُقاً له هو نبيُّنا وقدوتنا محمدٌ ﷺ، الذي أثنى اللهُ تعالى على خُلُقِه ونعَتَه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقد بيَّنتْ أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذه الآية أوضح بيان، عندما سألها سَعْدُ بنُ هشام بن عامر فقال لها: «يا أُمَّ المُؤمِنينَ أنبِئيني عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلىَ. قالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرآنَ»[١].

قال النَّووي رحمه الله: «معناه: العمل به، والوقوف عند حدوده، والتأدُّب بآدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبُّره، وحسن تلاوته»[٢].

وقال ابن كثير رحمه الله ـ في تفسير الآية: «ومعنى هذا أنَّه ﷺ، صار امتثالُ القرآن، أمراً ونهياً، سجيَّة له، وخُلُقاً تَطَبَّعَه، وترك طبعه الجِبِلّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه مِنَ الخُلُقِ العظيمِ، من الحياءِ والكرم والشَّجاعة، والصَّفح والحلم، وكلّ خُلُقٍ جميل. كما ثبت في الصَّحيحين[٣] عن أنسٍ قال: خَدمْتُ رسول الله ﷺ عَشر سِنينَ. فما قَالَ لي: أُفٍّ

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل، ومَنْ نام عنه أو مرض (١/٥١٣) (ح٧٤٦).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٥/٢٦٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب: حُسْنِ الخُلُقِ والسَّخاء (٤/١٩٠٨) (ح٦٠٣٨)؛ ومسلم، كتاب الفضائل، باب: كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناسِ خُلُقاً (٤/١٨٠٤) (ح٢٣٠٩).

قَطُّ، ولا قال لِشيءٍ فَعَلْتُه: لِمَ فعَلْتَهُ؟ ولا لِشيءٍ لَمْ أفْعَلْهُ: ألا فَعَلْتَهُ. وكان ﷺ أحْسَنَ النَّاسِ خُلُقاً»[١].

وخلاصةُ القول: إنَّ جميع ما فُصِّلَ في القرآن العظيم من مكارم الأخلاق، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان مُتحلِّياً به[٢].

ولم يقتصرْ ﷺ على ذلك، بل كان يحثُّ أصحابَه الكرام، وأُمَّتَه من بعدهم على العمل بالقرآن العظيم، ويُؤكِّد على ذلك بصور مختلفة، مرَّة بالتَّرغيب في ثواب العمل بالقرآن، وأُخرى بالتَّرهيب من مغبَّة ترك العمل بالقرآن، ومن أقواله المباركة في ذلك ما يأتي:

١ ـ عن النَّوّاسِ بنِ سَمْعَانِ الْكِلَابِيِّ ﷺ قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ[٣] سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ». وَضرَبَ لَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ، ما نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ. قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ[٤] أو ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ[٥]، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ[٦] مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[٧]، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[٨].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ١٦٤).

(٢) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/ ١٥٤).

(٣) (تَقْدُمُه): تتقدّمه.

(٤) وفي رواية أخرى عند مسلم: «كَأَنَّهُما غَيَايَتَانِ». قال أهل اللُّغة: الغمامة والغياية كلُّ شيء أظلَّ الإنسانَ فوق رأسه من سحابةٍ وغَبَرةٍ وغيرهما. قال العلماء: المراد: أنَّ ثوابهما يأتي كغمامتين. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٣٣١).

(٥) (بَيْنَهُما شرْقٌ): هو بفتح الرَّاء، وإسكانها. أي: ضياء ونور. وممن حكى فتح الرّاء وإسكانها: القاضي وآخرون. والأشهر في الرِّواية واللُّغة الإسكان.

(٦) وفي رواية أخرى عند مسلم: «أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ». الفِرقان والحزقان، معناهما واحد. وهما قطيعان وجماعتان. يُقال في الواحد: فرق وحزق وحزيقة.

(٧) (مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ): جمع صافَّة، وهي من الطُّيور ما يبسط أجنحتها في الهواء. انظر: تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على مسلم (١/ ٥٥٣).

(٨) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (١/ ٥٥٤) (ح٨٠٥).

فالقرآن العظيم يشفع لصاحبه الذي كان يعمل به في الدُّنيا، وفي مقدِّمة ذلك سورةُ البقرةِ وآلِ عمران، تتقدَّمان في الشَّفاعة، والذَّود عن حافظهما، والعامل بهما خصوصاً؛ لكثرة ما تحويان من أحكام وأمور عظام. وهذا من أعظم فوائد العمل بالقرآن[1].

٢ ـ عن أبي مُوسَى ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «المُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرآنَ وَيَعْمَلُ به كَالأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ. وَالمُؤْمِنُ الَّذِي لا يَقْرَأُ القُرآنَ وَيَعْمَلُ به كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا. وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذي يَقْرَأُ القُرآنَ كَالرَّيْحَانَة، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ المُنافِقِ الَّذِي لا يَقْرَأُ القُرآنَ كَالحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ، أَوْ خَبِيثٌ، وَرِيحُهَا مُرٌّ»[2].

في هذا الحديث تَبيَّن لنا فضيلة حافظِ القرآن العاملِ بما فيه، وأنَّ المقصود من التِّلاوة هو العمل بما دلَّ عليه القرآن، لا مجرَّد تلاوته[3].

قال ابن بطَّال ﷺ ـ في شرحه للحديث: «قراءة الفاجر والمنافق لا ترتفع إلى الله، ولا تزكو عنده، وإنَّما يزكو عنده ما أُريد به وجهه، وكان على نيَّة التَّقرُّب. وشبَّهَهُ بالرَّيحانة حيث لم ينتفع ببركة القرآن، ولم يفز بحلاوة أجره، فلم يجاوز الطِّيبُ موضعَ الصوت، وهو الحلْق، ولا اتصَّلَ بالقلب»[4]. الذي هو موطن الاعتبار، فكيف يَعْمَلُ بالقرآن مَنْ هذا حاله[5].

فالقرآن العظيم لا تنفتح أسراره، ولا ينتفع به إلَّا مَنْ يعمل به، ويتحرَّك به؛ لتحقيق مدلوله في عالم الواقع. لا لمن يقرؤه لمجرَّد التَّبرُّك! أو الدِّراسة الفنِّيَّة أو العِلْميَّة!، أو لمجرَّد تتبُّع الأداء البياني فيه!

فالقرآن العظيم لم يتنزَّل ليكون مادَّة دراسة على هذا النَّحو؛ إنَّما تنزَّل

---

(١) انظر: هذا القرآن في مائة حديث نبوي، د. محمد زكي محمد خضر (ص٤٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: إثم مَنْ راءى بقراءة القرآن، أو تأكَّل به، أو فَجَرَ به (٣/ ١٦٢٨) (ح٥٠٥٩).

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٨٥).

(٤) المصدر نفسه (١٣/ ٦٥٧).

(٥) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٣).

ليكون مادّة عمل وتوجيه[١].

٣ - سُئِلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْصَى؟ فَقَالَ: لَا، فَقُلْتُ: كَيْفَ كُتِبَ عَلَى النَّاسِ الوَصِيَةُ، أَوْ أُمِرُوا بِالوَصِيَّةِ؟ قَالَ: أَوْصَى بِكِتَابِ اللهِ[٢].

قال ابن حجر رحمه الله: «أي: بالتَّمسُّك به، والعمل بمقتضاه»[٣].

وقال أيضاً: «فإذا اتَّبَعَ النَّاسُ ما في الكتاب؛ عملوا بكلِّ ما أمرهم النَّبيُّ ﷺ به، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]»[٤].

ولهذا لم يكن رسولُ الله ﷺ ليوصي أُمَّته من بعده بأفضل من اتِّباع كتاب الله؛ لكونه أعظَمَ وأهَمَّ من المال والخلافة - على أهمِّيَّتِهما - فمَنِ اتَّبع كتابَ الله لن يضلَّ أبداً، بنصِّ حديث رسول الله ﷺ، الذي قال فيه: «إنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي؛ أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ: كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ فانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا»[٥].

وأخرجه مسلمٌ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ ولَفظُه:

«ألا أَيُّهَا النَّاسُ! فَإنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ. وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ[٦]: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ الله، فِيه الهُدَى والنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ[٧].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١٩٤٨/٤).
(٢) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب: الوصيَّة (٢/ ٨٤٢) (رقم ٢٧٤٠).
(٣)(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥/ ٤٤٣).
(٥) رواه الترمذي (٥/ ٦٦٣) (ح٣٧٨٨)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٢٢٧) (ح٢٩٨٠).
(٦) (ثَقَلَيْنِ): سُمّيا ثَقَلين: لعظمهما وكبير شأنهما. وقيل: لثقل العمل بهما.
انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٨١).
(٧) رواه مسلم، كتاب فضائل الصّحابة، باب: مِنْ فضائل عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه (٤/ ١٨٧١) (ح٢٤٠٨).

فكتاب الله تعالى إنْ عَمل به النّاس واستمسكوا به، كفاهم كُلّ شيء، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

٤ ـ عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «القُرآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ[١] مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إلى الجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلى النَّارِ»[٢].

ومعنى الحديث: أنّ مَن اتبع القرآن وعمل بما فيه، فإنّه شافع له مقبول الشّفاعة، في العفو عن زلّاته وسقطاته، فَمَنْ جعله أمامه بالعمل به، قادَهُ إلى الجنّة. ومَنْ ترك العمل به، وجعله خلف ظهره، أَثِمَ على إساءته، وَمُصَدَّق عليه فيما يُرْفَعُ مِنْ مَساوِيه، وعند ذلك يسوقه إلى النّار[٣].

فهذه الأحاديث تدلُّ دلالة واضحة، على وجوب اتّباع القرآن العظيم، والعمل به، فأين نحن مِنْ هذه التّحذيرات النّبويّة المباركة، حتّى نفوزَ بسعادة الدُّنيا والآخرة. اللّهم اجعل هذا القرآن حُجّةً لنا، لا علينا.

---

(١) (مَاحِلٌ): أي مُجادلٌ ومُدافعٌ، وقيل: ساعٍ مُصدّق، مِنْ قولهم: مَحل بفلان إذا سعى به إلى السّلطان. انظر: النهاية في غريب الحديث (٤/٣٠٣)، مادة: (محل).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٠٤٥٠)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٠٨)؛ وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢٧) عن ابن مسعود.
ورواه ابن حبان في «صحيحه» (١/ ١٦٧)؛ والبيهقي في «الشّعب» (٢/ ٢٠١٠) عن جابر؛ وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٨١٨) (ح٤٤٤٣)؛ و«الصّحيحة» (٥/ ٣١) (ح٢٠١٩).

(٣) انظر: فيض القدير (٨/ ٤٣٩٩)، النهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٠٣)، مادة: (محل).

المبحث الرابع

الصحابة ﷺ يتواصون بالعمل بالقرآن

اقْتَفَى الصَّحابةُ الكرام ﷺ جميعاً ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ هذا النَّهج القويم، فكانوا يتواصون فيما بينهم على أهميَّة العمل بكتاب الله تعالى، والحذر منْ ترك العمل به، وَمِنْ وصاياهم المباركة في ذلك ما يأتي:

١ ـ قال عُمَرُ ﷺ: «لا يغْرُرْكُمْ منْ قَرَأَ القُرْآنَ؛ إنما هُوَ كَلامٌ نَتَكلَّمُ بِهِ، ولَكِنِ انْظُرُوا مَنْ يَعْمَلُ بِهِ»[١].

٢ ـ عن ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قال: «تَعَلَّمُوا تعلَّمُوا فَإذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا»[٢].

٣ ـ عن أبِي الدَّرْداءِ ﷺ قال: «إنَّمَا أخَافُ أنْ يَكُونَ أولُ ما يسْألُنِي عَنْهُ رَبِّي أنْ يَقُولَ: قَدْ علِمْتَ فَمَا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ»[٣].

٤ ـ عن حُذَيْفَةَ ﷺ قال: «يَا معْشَر القُرّاء[٤] اسْتَقِيمُوا[٥]، فقدْ سبَقْتُمْ سَبْقاً بَعِيداً[٦]،

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (ص٧١) (رقم ١٠٩).

(٢) رواه الدارمي في «سننه» (١/ ١١٥) (رقم ٣٦٦)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٠٥) (رقم ٣٤٥٤٧)؛ والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (ص٢٣) (رقم ١٠)، وقال مُحقِّقُه (العلامة الألباني): «موقوف حسن».

(٣) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (ص٤١) (رقم ٥٣)، وقال مُحقِّقُه: «موقوف حسن الإسناد».

(٤) (القُرَّاء): جَمْع قارئ، والمراد بهم العلماء بالقرآن والسُّنَّة العُبَّاد.

(٥) (اسْتَقِيمُوا): أي اسلكوا طريق الاستقامة، وهو كناية عن التَّمسُّك بأمر الله تعالى فعلاً وتركاً.

(٦) (فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقاً بَعِيداً): أي ظاهراً، ووصفه بالبعد؛ لأنه غاية شأو السابقين، والمراد: أنه خاطب بذلك مَنْ أدرك أوائل الإسلام، فإذا تمسَّك بالكتاب والسُّنَّة سَبَقَ إلى كلِّ خير؛ لأن منْ جاء بعده إنْ عَمِلَ بعلمه لم يصل إلى ما وصل إليه مَنْ سَبَقَهُ إلى الإسلام، وإلَّا فهو أبعد منه حسّاً وحُكماً.

فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِيناً وَشِمَالاً[(١)]، لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلالاً بَعِيداً»[(٢)].

٥ ـ قال الفضيل بن عياض[(٣)] رحمه الله: «إِنَّمَا نَزَلَ القُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ عَمَلاً. قِيلَ: كَيْفَ العَمَلُ بِهِ؟ قَالَ: أَيْ لِيُحِلُّوا حَلالَهُ، وَيُحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَيَأْتَمِرُوا بِأَوَامِرِهِ، وَيَنْتَهُوا عَنْ نَوَاهِيهِ، وَيَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ»[(٤)].

وبمقدار العمل بالقرآن، وتطبيقه في واقع الحياة، والاهتداء بهديه، يكون الأجر، وهذا ملحوظ حتَّى في قوانين البشر النَّاقصة، فكيف بكلام الله تعالى، الذي يصفه ﷻ بقوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]. ويقول تعالى عنه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وَهَبْ أنَّ رجلاً حَفِظَ قانونَ بلدِه عن ظهر قلب، ثمَّ هو يُخالف هذا القانون، ولا يبالي بتطبيقه والالتزام به، فهل ينفعه ذلك، أو يُقبل منه؟

أو طبيباً تعلَّم قوانينَ الطبِّ وفهمها ووعاها، ثم عالج المرضى بخلاف ما تعلَّم، فماذا تكون النَّتيجة؟

فإذا كان هذا مُلاحَظاً في القوانين الاجتهاديَّة الأرضيَّة، فما الظَّن بكتاب الله، الذي يُتعبَّدُ بتلاوته وبسماعه وبتدارسه؟ ولا يكتمل هذا التَّعبُّد، والأجر المُترتِّب عليه، إلَّا إذا تلازم مع العمل والتَّطبيق.

وما يُجدي مسلماً حفظ سورة النُّور بأكملها، ويعلم جزاءَ الزَّاني والقاذف،

---

(١) «فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِيناً وشِمَالاً»: أي خالفتم الأمر المذكور، وكلامُ حذيفة رضي الله عنه منتزع من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].
*جميع ما ذُكِرَ في شرح أثر حذيفة. انظره في: فتح الباري (٣١٦/١٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب: الاقتداء بِسُنَنِ رسولِ الله ﷺ (٤/ ٢٢٧٤) (رقم ٧٢٨٢).

(٣) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التَّميمي، الزَّاهد العابد المُجاور بحرم الله، ثقةٌ، أخرج له البخاري ومسلم وغيرهما، ولد بسمرقند، وتوفِّي سنة (١٨٧هـ).
انظر: وفيَّات الأعيان (٤٧/٤ ـ ٥٠)؛ تقريب التَّهذيب (١١٣/٢).

(٤) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (ص٧٦) (رقم ١١٦).

فإذا هو يقترف هذه الكبائر عياذاً بالله من ذلك! هل يُنجيه حفظُه من العقوبة؟[١].

ولقد أحسن القائل:

إذَا الْعِلْمُ لَمْ تَعْمَل بِهِ كانَ حُجَّةً عَلَيْكَ، ولَمْ تُعْذَرْ بِمَا أَنْتَ حَامِلُ
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَبْصَرْتَ هذا فَإِنَّمَا يُصَدِّقُ قَوْلَ المرْءِ مَا هُوَ فَاعِلُ[٢]

وعَوداً على ذي بدء: يتبيَّن لنا ممَّا تقدَّم أنَّ المقصودَ الأوَّل مِنْ تعلُّم القرآن وحفظه وتدبُّره، هو العمل به.

روى الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود ﷺ قال: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إذا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيهِنَّ، وَالعَمَلَ بِهِنَّ»[٣].

---

(١) انظر: أنوار القرآن (ص٢١١). (٢) انظر: اقتضاء العلم العمل (ص٥٥).

(٣) مقدمة تفسير ابن كثير (٣٦/١)، وقال مُحَقِّقوه: «إسناده جيد».

المبحث الخامس

نماذج من عمل الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن

إنَّ مَنْ ينظر في أحوال الصَّحابة رضي الله عنهم يرى عجباً من العجب، فلم يشهد التَّاريخ رجالاً عقدوا عزمهم على تنفيذ أوامر الله تعالى ونواهيه، كما شهد في صحابة رسول الله ﷺ، بل كانوا يُقبلون على القرآن إقبال الظَّمآن على الماء البارد، يتلون آياته ويتدبَّرونها، وينفِّذون أحكامه، ويؤمنون بمتشابهه، ويعملون بمحكمه، ويتأثَّرون بما فيه من الوعد والوعيد.

* وهذه طائفة من الحوادث تشير إلى اتِّباعهم رضي الله عنهم وسعيهم للعمل بكتاب الله امتثالاً للأمر، واجتناباً للنَّهي:

١ ـ لَمَّا جرَتْ حادثة الإفك، وتكلَّم ناسٌ في عائشة الصِّدِّيقة رضي الله عنها كان مِمَّنْ تكلَّم فيها مِسْطَحُ بنُ أُثاثة، وهو رجل فقير ذو قرابة لأبي بكر، وكان أبو بكر رضي الله عنه يُنفق عليه من ماله الخاص، تقول أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها في ضمن سياق حديث الإفك: «... فَلَمَّا أنزلَ اللهُ هذا في بَراءَتِي، قال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، وكان يُنفِقُ على مِسْطَحِ بنِ أُثاثةَ لقَرَابَتِهِ منه وفَقْرِهِ: واللهِ لا أُنفِقُ على مِسْطَحٍ شيئاً أبداً، بعد الذي قال لِعائشةَ ما قال، فَأنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. قال أبو بكرٍ: بَلى واللهِ إنِّي أُحِبُّ أنْ يغْفِر اللهُ لي، فرجع إلى النَّفقةِ التي كان يُنفِقُ عليه، وقال: واللهِ لا أنْزِعُها مِنْهُ أبداً»[1].

فأبو بكر رضي الله عنه لمّا قرأ الآية وفهمها عمل بما فيها، وأعاد النَّفقة على مَنْ

---

(١) رواه البخاري «مُطَوَّلاً»، كتاب التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ...﴾ (٣/ ١٤٨٨) (ح٤٧٥٠).

تكلَّم في عرضه وآذاه في ابنته زوج النَّبيِّ ﷺ، بل حلف بالله تعالى ألَّا ينزع منه النفقة أبداً، فأين نحن من هذه الأخلاق العظيمة، والقدوات المباركة؟

٢ ـ عن ابنِ أبِي مُلَيكة قال: كاد الخَيِّرانِ أنْ يَهلَكا، أبو بكرٍ وعُمرُ ﵄، رَفعا أصواتَهما عند النَّبيِّ ﷺ حين قَدِمَ رَكْبُ بَنِي تمِيمٍ، فأشار أحَدُهما بالأقرَعِ بنِ حَابِسٍ أخي بَنِي مُجَاشِعٍ، وأشار الآخرُ برجُلٍ آخر، قال نافعٌ: لا أحْفَظُ اسْمَهُ، فقال أبو بكرٍ لِعُمر: ما أردْتَ إلا خِلافِي، قال: ما أرَدْتُ خِلافَكَ، فارْتَفَعتْ أصواتُهما في ذلك، فأنْزَلَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. قال ابنُ الزُّبَيرِ: فما كان عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُول الله ﷺ بَعْد هذه الآيةِ حتَّى يَسْتَفْهِمهُ(١).

أي: حتَّى يستفهمه رسولُ الله ﷺ عدَّة مرات.

٣ ـ عن ابنِ عبَّاسٍ ﵄ قَالَ: «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَ عَلى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ ﵁، وَكَانَ القُرَّاءُ أصْحَابَ مجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولاً كَانُوا أوْ شُبَّاناً.

فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أخيهِ: يَا ابْنَ أخي، هل لَك وجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأميرِ(٢)، فَاسْتَأْذِنْ لِي عليْه(٣)، قَالَ: سأسْتَأْذِنُ لكَ عَلَيْه.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: فَاسْتَأْذَن الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ ﵁، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيْ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ.

فَغَضِبَ عُمَرُ ﵁ حَتَّى هَمَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إنَّ اللهَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ...﴾ الآية (٣/ ١٥٣٧) (ح٤٨٤٥).

(٢) (هلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هذا الأمِير): هذا من جملة جفاء عيينة، إذْ كان من حقِّه أن ينعته بأمير المؤمنين، ولكنَّه لا يعرف منازل الأكابر.

(٣) (فَاسْتَأْذِنْ لِي عليْهِ): أي في خلوة، وإلَّا فعمر ﵁ لا يحتجب إلَّا وقت خلوته وراحته، ومن ثم قال له: (سأسْتَأْذِنُ لَكَ عليْهِ)، أي: حتَّى تجتمع به وحدك.

تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وإنّ هذا مِنَ الجَاهِلِينَ. وَاللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ ﷺ حِينَ تَلاهَا عليْه، وَكَانَ وَقافاً عِنْدَ كِتابِ الله[(١)]»[(٢)].

ليت الأمّة ـ حكاماً ومحكومين ـ تكون وقّافة عند كتاب الله تعالى، إذا ذُكّروا تذكّروا، كحال الفاروق ﷺ.

٤ ـ عن زَيدِ بنِ ثابتٍ ﷺ: «أنّ رسولَ اللهِ ﷺ أمْلَى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

فجاءَهُ ابنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ﷺ وَهُوَ يُمِلُّها عَلَيَّ، قَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، واللهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الجِهادَ لَجَاهَدْتُ ـ وكان أعْمَى ـ فأنْزَلَ اللهُ على رَسُولِه ﷺ، وفَخِذُهُ على فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حتى خِفْتُ أنْ تُرَضَّ فِخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فأنْزَلَ اللهُ: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾»[(٣)].

حتى صاحِبَ العذر لم يعذر نَفْسَه من الجهادِ لاستشعاره أهميّة العمل بالقرآن العظيم، وتنفيذ أوامره، فيأتي رسول اللهِ ﷺ متوسّلاً متأثّراً، يحلف بالله العظيم أن لو مَلَكَ القُدرةَ لَخرَجَ، حتّى أكرمه الله تعالى وأنزل فيه قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، في هذا الاستثناء لأصحاب الأعذار: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾.

وإذا كانت هذه الطّائفة من الحوادث قد عبّرت عن مدى حرص الصّحابة ﷺ على العمل بالقرآن واتّباع ما فيه، فإنّها تدلّ دلالة قطعيّة على عظمة تربيتهم أيضاً، ولكنّنا نُلاحظ أنّها لم تخرج عن كونها تُعبّر عن صورٍ لتصرّفاتٍ فرديّة قام بها أصحابها ﷺ، ولكن هناك طائفة أخرى من الأخبار تُعبّر عن عظمة التّربية النّبوية، وهي تربية جماعيّة، جاءت كلّها مُعبّرة عن استجابةٍ جماعيّةٍ لأوامر الله تعالى، ومنها:

---

(١) (وَكَانَ وَقّافاً عِنْدَ كِتَابِ اللهِ): أي يعمل بما فيه ولا يتجاوزه.
انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/٣١٧ ـ ٣١٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (٣/ ١٤٢٠) (رقم٤٦٤٢)؛ وكتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنّة، باب: الاقتداء بِسُنَنِ رسول الله ﷺ (٤/ ٢٢٧٤) (رقم ٧٢٨٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣/١٣٩٨) (ح٤٥٩٢).

١ - عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: «بَيْنَا النَّاسُ بِقُباءٍ في صَلاةِ الصُّبح، إذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَدْ أُنزلَ عليهِ اللَّيلَةَ قُرْآنٌ، وقَدْ أُمرَ أنْ يَسْتَقْبِلَ الكَعْبَةَ، فاسْتَقْبِلُوها، وكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إلى الشَّامِ، فاسْتداروا إلى الكَعْبَة»[(١)].

فهؤلاء الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم لَمَّا سمعوا مَنْ يُخبرهم بآية تحويل القبلة لم ينتهوا حتى يفرغوا من صلاتهم، بل ولَّوا وجوههم شطر المسجد الحرام مباشرة؛ امتثالاً لأمر الله وتطبيقاً لما جاءهم في القرآن.

٢ - قال أنَسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: «ما كان لنا خَمْرٌ غَيْرَ فَضِيخكُمْ هذا الذي تُسَمُّونَهُ الفضِيخَ، فَإنِّي لَقَائِمٌ أَسْقي أبَا طلْحَةَ وَفُلاناً وَفُلاناً إذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: وهَلْ بَلَغَكُمْ الخَبرُ؟ فَقَالُوا: وما ذاكَ؟ قال: حُرِّمَتْ الخَمْرُ، قَالُوا: أَهْرِقْ هذِهِ القِلالَ يا أنسُ، قَالَ: فَما سَألُوا عَنْهَا ولا رَاجَعُوها بَعْدَ خَبرِ الرَّجُلِ»[(٢)].

هرعوا رضي الله عنهم مباشرة إلى العمل والتطبيق، امتثالاً للأمر واجتناباً للنَّهي، وأهرقوا دنان الخمر، وما رجعوا إليها أبداً.

٣ - عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «يَرْحمُ اللهُ نِسَاءَ المُهَاجرَاتِ الأُوَلِ، لمّا أَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ[(٣)] فاخْتَمَرْنَ بِهَا[(٤)]»[(٥)].

---

(١) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب الصّلاة، باب: ما جاء في القبلة (١/ ١٤٦) (ح٤٠٣)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، باب: تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (١/ ٣٧٥) (ح٥٢٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] (٣/ ١٤٠٨) (ح٤٦١٧).

(٣) (المُرُوطُ): جمع مِرْط، وهو الإزار، وقيل: هو كلُّ ثوبٍ غير مخيط، أي: شققْنَ كساءهن. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٦٢١)؛ لسان العرب (٧/ ٤٠٠)، مادة: (مرط).

(٤) (فاخْتَمَرْنَ بِهَا): أي غطّين وجوههن، وصفة ذلك: أن تضع الخمار على رأسها، وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر، وهو التَّقنُّع. قال الفرَّاء: كانوا في الجاهلية تسدل المرأة خمارها من ورائها، وتكشف ما قدَّامها، فأمرن بالاستتار، والخمارُ للمرأة كالعمامة للرجل. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٦٢١).

(٥) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (٣/ ١٤٩٢) (ح٤٧٥٨).

وفي روايةٍ أخرى تقولُ عائِشةُ رضي الله عنها: «أخذْنَ أُزرَهُنَّ فشَقَّقْنَها مِنْ قِبل الحَواشي، فاختَمَرْنَ بها»(١).

وعن أمِّ سلَمةَ رضي الله عنها، قالت: «لمَّا نزلَتْ ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. خرَجَ نِسَاءُ الأنصارِ كأنَّ على رُؤوسِهِنَّ الغِرْبانُ مِنَ الأكْسِيَةِ»(٢).

وهكذا كانت نساؤهم، كرجالهم، يُسارعن إلى امتثال أمرِ الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾، وأمرِه تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾. فلا ينتظرن شراء خُمُرٍ جديدة، ولا ينتظرن العودة للمنازل، بل يسارعن فيشقّقن مروطهن ويلقينها على جيوبهن رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) رواه البخاري، الكتاب نفسه، والباب نفسه (٣/ ١٤٩٢) (ح٤٧٥٩).

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٦١) (٤١٠١)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٧٧٣) (ح٣٤٥٦).

الفصل التاسع

هجر التحاكم إلى القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أدلَّة وجوب التَّحاكم إلى القرآن.

المبحث الثاني: أسباب هجر التَّحاكم إلى القرآن.

المبحث الثالث: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله.

المبحث الرابع: الآثار السَّيئة للحكم بغير ما أنزل الله.

المبحث الأول

أدلة وجوب التحاكم إلى القرآن

إنّ النّاظر في القرآن العظيم يجد أنّ الآيات التي تدلُّ على وجوب التّحاكم إلى ما أنزل الله تعالى كثيرة، وقد وردت بأساليب متعدّدة في الدّلالة على وجوب احتكام النّاس جميعاً؛ حكّاماً ومحكومين إلى ما أنزل الله تعالى، وهي على النّحو التالي:

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

خاطب الله تعالى المؤمنين في حالة اختلافهم في شيء من أمر دينهم فيما بينهم، أو فيما بين ولاة أمرهم ـ فتنازعوا في ذلك ـ أن يردُّوا معرفة حُكم ذلك المختلف فيه إلى كتاب الله تعالى، فإنْ وجدوا لله تعالى في كتابه حُكْماً اتّبعوه، وإلّا ففي سنّة رسول الله ﷺ. فهذا هو علامة التّصديق بالله تعالى وباليوم الآخر[١].

وفي الآية دليل «على أنّ منْ لم يتحاكم في مجال النّزاع إلى الكتاب والسُّنّة، ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله، ولا باليوم الآخر»[٢].

وكما أنّ الآية تُوجب التحاكم إلى شرع الله تعالى؛ على الرّاعي والرّعيّة سواء، فإنّها أيضاً تفيد تحريم التّحاكم إلى غير شرع الله؛ لأنّ ما حكَمَ به الكتاب والسُّنّة، وشهِدا له بالصّحة فهو الحقُّ، وماذا بعد الحقِّ إلّا الضّلال؟ ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ أي: ردُّوا الخصومات والاختلافات

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٦٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٥).

إلى كتاب الله، وسنَّة رسوله ﷺ، فالإيمان لا يجيز الرَّد إلى غيرهما[١].

ولا يعني ذلك أنْ نردَّ المتنازَع فيه إلى ظواهر نصوص الكتاب والسُّنَّة فقط، بل المراد منه الرُّجوع إلى الشَّريعة بروحها ومقاصدها في صورتها الشَّاملة، كما فهمها السَّلف الصَّالح، وإلَّا فإنَّ حرفية النص التي يتمسَّك به أهل الظَّاهر، وجمود الفهم الذي يقف عنده أهل الغلو، ليس مراداً في ذلك[٢].

وفي الآية «أمْرٌ بِرَدِّ كلِّ ما تنازع النَّاس فيه ـ من أصول الدِّين وفروعه ـ إلى الله والرَّسول، أي: إلى كتاب الله، وسنَّة رسوله ﷺ، ففيهما الفَصْل في جميع المسائل الخلافية، إمَّا بصريحهما، أو عمومهما، أو إيماءً، أو تنبيهاً، أو مفهوماً، أو عمومَ معنىً يقاس عليه، وما أشبه ذلك»[٣].

ويستفاد من الآية الكريمة عدَّة أمور، ومنها:

١ ـ أنَّ أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام، ولا يُخرجهم ذلك عن الإيمان، إذا ردُّوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، كما شَرَطَه الله عليهم.

٢ ـ أنَّ قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرط، تعمُّ كلَّ ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدِّين، دِقِّه وجِلِّه، جليِّه وخفيِّه.

٣ ـ أنَّ النَّاس أجمعوا على أنَّ الرَّدَّ إلى الله وإلى رسوله: إلى كتابه، وإلى الرَّسول نفسِه في حياته، وسُنَّته بعد وفاته.

٤ ـ أنَّه جعل الرَّدَّ من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرَّدُّ انتفى الإيمان، ضرورةَ انتفاءِ المَلْزوم لانتفاء لازِمِه، ولا سيَّما التَّلازم بين هذين الأمرين، فإنَّه من الطَّرفين، وكلٌّ منهما ينتفي بانتفاء الآخر[٤].

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٥)؛ أضواء البيان (١/ ٩٢ ـ ٩٣).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ١٧١).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٦٢).

(٤) انظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٥١ ـ ٥٣).

مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦١].

معنى الطَّاغوت:

أصل الطَّاغوت: طَغَوتُ، من قول القائل: «طغى فلان يطغو» إذا عدا قَدْرَه فتجاوز حدَّه، كجبروت من التَّجبُّر، ثمَّ نُقلت لامُه فجُعلت عيناً، وحُوّلت عينُه فجُعلت مكان لامِه[1].

ومعنى الطَّاغوت في الاستعمال الشَّرعي: هو ما ذكره ابن جرير كَلَّلَهُ بأنَّه: «كلُّ ذي طُغيانٍ على الله، فعُبِدَ من دونه، إمَّا بقهرٍ منه لمن عبَده، وإمَّا بطاعةٍ ممَّن عَبَده له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء»[2].

والطَّاغوت كلمة يراد بها المفرد أحياناً ـ كما في هذه الآية ـ ويراد بها الجمْع في أحيان أخرى ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. والمعنى: أولياؤهم الطَّواغيت[3].

ويلاحظ في الآية:

١ ـ أنَّ الله تعالى قال: ﴿يَزۡعُمُونَ﴾، أي: يدَّعون الإيمان إذْ لو كانوا من أهل الإيمان الصَّادق، لما تحاكموا إلى غير الله ورسوله. فدلَّ على ادِّعائهم الإيمان، وهم كاذبون.

قال ابن القيِّم كَلَّلَهُ: «فجعل الإعراضَ عمَّا جاء به الرَّسول، والالتفاتَ إلى غيره، هو حقيقة النِّفاق»[4].

٢ ـ أنَّ الله تعالى سجَّل على المتولِّين للطَّواغيت، والمتحاكمين إليهم،

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص٣٠٨)، مادة: (طغى).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ١٩).

(٣) انظر: المصدر السابق (ص٣٠٨)؛ تفسير القرطبي (٣/ ٢٨٢).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، لمحمد الموصلي (٢/ ٣٥٣).

وصْف الكفر، في حين أنَّ المطلوب منهم أصلاً الكفر بالطّاغوت، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾. ومن لوازم الإيمان بالله تعالى، الكفر بالطّاغوت، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والخلاصة:

أنَّ الآيةَ الكريمة دلَّت على وجوب التّحاكم إلى ما أنزل الله من عدَّة وجوه:

١ ـ أنَّ الطّاغوت عامٌّ في كلِّ ما عُبد من دون الله، ورضي بالعبادة من معبود، أو متبوع، أو مطاع، في غير طاعة الله ورسوله[١].

٢ ـ أنَّ التّحاكم إلى الطّاغوت من صفات المنافقين، الذين يُبطنون الكفر، ويُظهرون الإيمان.

٣ ـ أنَّ المُعرض عن حُكم ما أنزل الله، قد حُكم بنفاقه، فإذا ضَمّ إلى ذلك منْع النَّاسِ من التّحاكم إلى ما أنزل الله، كان هو أشدَّ كفراً ونفاقاً[٢].

٤ ـ اعتبار ادّعاءِ الإيمانِ، مع إرادة التّحاكم إلى غير شرع الله، مجرَّد زعمٍ باطل.

٥ ـ أنَّ الكفر بالطّاغوت تكليفٌ مأمورٌ به.

٦ ـ أنَّ إرادة التّحاكم إلى الطّاغوت ناتجة عن إرادة الشّيطان الإضلال لأولئك المتحاكمين إليه[٣].

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) انظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٤٩ ـ ٥٠)؛ فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٥٤٢).

(٢) انظر: الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود (ص٨٥).

(٣) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ١٧٣).

التَّحاكم إلى شرع الله مرتبط بالإيمان ارتباط السَّبب بالمسبَّب، فالمؤمنون مؤمنون؛ لإسلامهم وتسليمهم بحُكْم رسول الله ﷺ، الذي يَحْكم به عن وحي الله، والكافرون كفَّار؛ لإيمانهم واستسلامهم ـ قلباً وقالباً ـ لشرائع الطَّواغيت، وهذه قضيَّة من مُسلَّمات هذا الدِّين، التي أكَّدها الله تعالى في كتابه، بل أقسم في الآية عليها، وأكَّدها بمؤكِّدات كثيرة، ممَّا يُثبت ويؤكِّد: أنَّه لا يؤمن أحدٌ حتَّى يُحكِّم الرَّسولَ ﷺ في جميع أموره[١].

والآية الكريمة صريحة في منطوقها: في إفادة أنَّ التَّحاكم إلى ما أنزل الله، من الواجبات التي يختل الإيمان بالإخلال بها، وينتقض بالانتقاص منها[٢].

قال ابن القيِّم ﷺ عن هذه الآية: «أقسم سبحانه بِنَفْسِه المقدَّسة، قَسَماً مؤكَّداً بالنَّفي قَبْله، على عدم إيمان الخَلْق، حتَّى يحكِّموا رسولَه في كلِّ ما شجر بينهم، من الأصول والفروع، وأحكامِ الشَّرع، وأحكامِ المعاد، ولم يُثْبت لهم الإيمان بمجرَّد هذا التَّحكيم، حتَّى ينتفِيَ عنهم الحرجُ ـ وهو ضيق الصَّدر ـ وتنشرحَ صدورُهم لِحُكْمِه كلَّ الانشراح، وتقبلَه كلَّ القبول، ولم يُثْبت لهم الإيمان بذلك أيضاً، حتَّى ينضاف إليه مقابَلَةُ حُكْمِه بالرِّضى والتَّسليم، وعدمْ المنازعة، وانتفاءُ المعارضة والاعتراض»[٣].

ولنستمع إلى كلام نفيسٍ ودقيقٍ للشَّوكاني ﷺ عند تفسيره للآية نَفْسِها، حيث قال: «وفي هذا الوعيد الشَّديد ما تقشعرُّ له الجلود، وترجف له الأفئدة، فإنَّه أوَّلاً أقْسَم سبحانه بِنَفْسِه، مؤكِّداً لهذا القَسَم بحرف النَّفي بأنَّهم لا يؤمنون، فنفى عنهم الإيمان ـ الذي هو رأس مالِ صالحي عبادِ الله ـ حتَّى تحصلَ لهم غايةٌ؛ هي تحكيمُ رسولِ الله ﷺ.

ثمَّ لم يكتف سبحانه بذلك، حتَّى قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ فضمَّ إلى التَّحكيم أمراً آخر، هو عدم وجود حرج، أي: حرج في صدورهم، فلا يكون مجرَّد التَّحكيم والإذعان كافياً، حتَّى يكون من صميم القلب، عن رضى واطمئنان، وانثلاج قلبٍ، وطِيب نَفْسٍ.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٢١١).
(٢) انظر: المصدر السابق (١/١٧٨).
(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص٢٧٠).

ثمَّ لم يكتف بهذا كلِّه، بل ضمّ إليه قولَه: ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ أي: يُذعنوا وينقادوا ظاهراً وباطناً.

ثم لم يكتف بذلك، بل ضَمَّ إليه المصدر المؤكِّد فقال ﴿تَسْلِيمًا﴾ فلا يثبت الإيمان لعبدٍ، حتى يقعَ منه هذا التَّحكيم، ولا يجد الحرج في صدره بما قُضي عليه، ويسلِّم لحُكم الله وشرعه، تسليماً لا يخالطه ردٌّ، ولا تشوبه مخالفة»[١].

والآية الكريمة تربط التَّحاكم بالدِّين كلِّه، من إسلامٍ وإيمانٍ وإحسانٍ: «فالتَّحكيم: في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان، والتَّسليم: في مقام الإحسان»[٢].

«فمَنِ استكمل هذه المراتب وكمَّلها، فقد استكمل مراتب الدِّين كلِّها»[٣].

الآية الرَّابعة:

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

الحَكَم هو الحاكم الذي يفصل في القضايا والخصومات، والحَكَم أبلغ من الحاكم، إذْ لا يستحقُّ التَّسمية بالحَكَم إلَّا مَنْ يحكم بالحقِّ[٤].

و«الحَكَمُ» من أسماء الله تعالى الحسنى؛ لقوله ﷺ: «إنَّ الله هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ» الحديث[٥].

ولمَّا كان الله ﷻ هو الحَكَم الحقُّ، فقد استنكرت الآية أن يُبتغى غيره في التَّحاكم، وهذا الاستنكار أفاد وجوب التَّحاكم إليه سبحانه.

ويلاحظ هنا: أنَّ النَّظم الكريم قد قَرَن تنزيلَ الكتاب بوصف الحقِّ، ممَّا يدلُّ على أنَّ اتِّخاذ حَكَمٍ دونه هو من الباطل، بل من أبطل الباطل.

---

(١) فتح القدير (١/ ٧٣٠). (٢) مدارج السالكين (٢/ ١٩٢).

(٣) تفسير السعدي (١/ ١٨٥).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص١٣٤)، مادة: (حكم).

(٥) رواه أبو داود (٤/ ٢٨٩) (ح٤٩٥٥)؛ وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٢٥٧) (ح٥٠٤)؛ والبخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٢٨٢) (ح٨١١)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣/ ٢١٦) (ح٤٩٥٥)؛ و«صحيح الأدب المفرد» (ص٣٠٢) (ح٦٢٣).

قال أبو السُّعود رحمه الله في معنى الآية: «﴿أَفَغَيْرَ﴾ الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مُقدَّرٍ يقتضيه الكلام، أي: قُلْ لهم: أأميلُ إلى زخارف الشَّياطين، فأبتغي حَكَماً غيرَ الله تعالى، يحكم بيننا...

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: مُبيَّناً فيه الحقُّ من الباطل، والحلال من الحرام، وغير ذلك من الأحكام، بحيث لم يبقَ في أمور الدِّين شيء من التَّخليط والإيهام، فأيُّ حاجةٍ بعدَ ذلكِ لِحَكَمٍ غيرِ الله؟ وهذا ـ كما ترى ـ صريح في أنَّ القرآن الكريم، كافٍ في أمر الدِّين، مُغْنٍ عن غيره، ببيانه وتفصيله»(١).

الآية الخامسة:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧ ـ ٥١].

وصفتِ الآية الكريمة المستجيبين لحكم الله ورسوله، بالإيمان والفلاح، وجيء بصيغة الحصر (إنَّما)؛ لدفع أن يكون مُخالِفُ هذه الحالة فيه شيء من الإيمان، وإنْ قال بلسانه: إنَّه مؤمن.

ودلالة الآية على وجوب التَّحاكم إلى الله والرَّسول واضحة: بثنائها على القائمين به، ومدحها لهم، ووعدها إيَّاهم بالفوز والفلاح، وواضحٌ أيضاً من ذمِّها للمعرضين عن التَّحاكم إلى الرَّسول، ووصفِها إيَّاهم بالظُّلم، والمرض، والرِّيبة(٢).

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ١٧٧).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ١٨٣).

وجوب إجابة القاضي المسلم:

وقد استنبط العلماء من الآية: وجوب إجابة القاضي المسلم، واعتبروا الرِّضى بما يحكم، رضى بحكم الله في الحقيقة، إذا كان قضاؤه مستقى من الشَّريعة وحدها.

وممَّن صرَّح بذلك القرطبي رحمه الله حيث قال: «هذه الآية دليل على وجوب إجابة الدَّاعي إلى الحاكم؛ لأنَّ الله سبحانه ذمَّ مَنْ دُعِيَ إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه فأبى، بأقبح الذَّمِّ فقال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ...﴾ قال ابن خُوَيْز منداد: واجب على كلِّ مَنْ دُعِيَ إلى مجلس الحاكم أن يجيب، ما لم يعلم أنَّ الحاكم فاسق»[1].

وتبعه - في حكاية التَّصريح - الشَّوكاني رحمه الله حيث قال: «في هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضي، العالِمِ بحُكْمِ الله، العادلِ في حُكمه؛ لأنَّ العلماء ورثة الأنبياء، والحُكْمُ من قضاة الإسلام، العالمين بحكم الله، العارفين بالكتاب والسُّنَّة، العادلين في القضاء، هو حُكْمُ اللهِ، وحُكْمُ رسولِه، فالدَّاعي إلى التَّحاكم إليهم، قد دعا إلى اللهِ وإلى رسولِه، أي: حُكمِهما»[2].

مسألة: هلِ المُعرِض عن مجلس الحاكم المسلم،كالمُعرض عن نَفْسِ حُكم الشَّريعة؟

جوابها: الأمر يحتاج إلى تفصيل في هذه المسألة، وهو يرجع إلى حال المتحاكِم، وحالِ الحاكم، فقد يكون المُعرض عن مجلس الحاكم مُعرضاً عن شخصه، لا عن التَّشريع الذي يحكم به، وحال هذا يختلف عن حال الطَّاعن في الأحكام، التي يصدر عنها الحاكم.

وقد حكى ابن عاشور رحمه الله - هذا التَّفصيل - بقوله: «ولا يُخالف الرَّسولُ في حُكمه شَرْعَ الله تعالى، ولهذا كانت الآية خاصَّة بحُكْم الرَّسول ﷺ، فأمَّا الإعراض عن حُكمِ غيرِ الرَّسول فليس بكفر، إذا جوَّزَ المُعرِضُ على الحاكم: عدمَ إصابته حُكْمَ الله تعالى، أو عدمَ العدلِ في الحُكم...

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٩٣ - ٢٩٤).

(٢) فتح القدير (٤/٦٦).

ثمَّ إنَّ الإعراض عن التَّقاضي لدى قاضٍ يحكم بشريعة الإسلام:
قد يكون: للطَّعن في الأحكام الإسلاميَّة، الثَّابتِ كونها حُكْمَ الله تعالى، وذلك كفرٌ؛ لدخوله تحت قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ [النور: ٥٠].
وقد يكون: لمجرَّد متابعة الهوى، إذا كان الحُكم المخالف للشَّرع، ملائماً لهوى المحكوم له، وهذا فسوق وضلال، كشأن كلِّ مخالفةٍ يُخالف بها المكلَّف أحكامَ الشَّريعة؛ لاتِّباع الأعراض الدُّنيويَّة.
وقد يكون: للطَّعن في الحاكم، وظنِّ الجَوْر به، إذْ كان غير معصوم، وهذا فيه مراتب بحسب التَّمكُّن من الانتصاف من الحاكم وتقويمه»[(١)].

الآية السَّادسة:

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].
في هذا الآية إشارة بالغة الرَّوعة؛ فقد قرن الله ﷻ بين كونه صاحب الحُكم الذي يُرجع إليه، وبين كونه هو الربُّ ـ سبحانه ـ فلمَّا اتَّصف ـ جلَّ وعلا ـ بصفات الرُّبوبية: من قدرةٍ على الخلق والرِّزق، والعطاء والمنع، وسائر صفاته التي لا يُنكرها إلَّا جاحد كافر به ـ سبحانه ـ استحقَّ أن يكون له وحده الحُكم.
وقد بيَّن الله تعالى ـ في آيات كثيرة ـ صفاتِ مَنْ يستحقُّ أنْ يكون الحُكم له، وأسهب الشَّنقيطي رحمه الله في بيان ذلك؛ بما لا تجده في موضعٍ آخر، وممَّا قاله: «فمن الآيات القرآنيَّة التي أوضح بها تعالى صفات مَنْ له الحُكْم والتَّشريع، قوله هنا: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ثمَّ قال مبيِّناً صفات مَنْ له الحُكم: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٠ ـ ١٢].
فهل في الكفرة الفجرة المشرِّعين للنُّظم الشَّيطانية، مَنْ يستحقُّ أنْ يوصف

---

(١) التحرير والتنوير (٤/١٧٧ ـ ١٧٨).

بأنّه الربُّ الذي تُفوّض إليه الأمور، ويُتوكّل عليه، وأنّه فاطر السّماوات والأرض، أي: خالقهما ومخترعهما على غير مثالٍ سابق، وأنّه هو الذي خلق للبشر أزواجاً. . . ؟!

فعليكم أيُها المسلمون أن تتفهّموا صفات مَنْ يستحقُّ أنْ يُشرّعَ ويُحلّلَ ويُحرّم، ولا تقبلوا تشريعاً من كافرٍ خسيسٍ حقيرٍ جاهل. . .

ومن الآيات الدّالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

فهل في الكفرة الفجرة المشرّعين مَنْ يستحقُّ أنْ يُوصفَ بأنَّ له غيبَ السّماوات والأرض؟! وأنْ يُبالَغَ في سمعه وبصره لإحاطة سمعه بكلّ المسموعات، وبصره بكلّ المُبصرات؟! وأنّه ليس لأحدٍ دونه من وليّ؟! سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

ومن الآيات الدّالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

فهل في الكفرة الفجرة المشرّعين مَنْ يستحقُّ أنْ يُوصف بأنّه الإله الواحد؟! وأنّ كلّ شيءٍ هالكٌ إلّا وجهه؟! وأنّ الخلائق يرجعون إليه؟! تبارك ربُّنا، وتعاظم وتقدّس، أنْ يُوصفَ أخسُّ خلقِه بصفاته. . .

ومنها، قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

فهل فيهم مَنْ يستحقُّ أنْ يُوصفَ بأنّه يقصُّ الحقَّ، وأنّه خير الفاصلين؟!.

ومنها، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

فهل في أولئك المذكورين مَنْ يستحقُّ أنْ يُوصف بأنّه هو الذي يُنزّلُ الرّزق للخلائق، وأنّه لا يمكن أن يكون تحليلٌ ولا تحريمٌ إلّا بإذنه؟! لأنَّ من الضّروري أنَّ مَنْ خلق الرّزقَ وأنزله، هو الذي له التّصرُّف فيه، بالتّحليل والتّحريم. سبحانه جلَّ وعلا، أن يكون له شريك في التّحليل والتّحريم»[1].

---

(١) أضواء البيان (٧/ ١٧٥ ـ ١٧٩).

الآية السَّابعة:

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

هذه الآية الكريمة موجبة للتَّحاكم إلى شرع الله، من حيث إنكارها على الذين لا يتَّبعون ما شَرَع الله من الدِّين القويم، بل يتَّبعون ما شَرَع لهم شياطين الجنِّ والإنس، من تحريم ما لم يحرِّم الله، أو تحليل ما لم يحلِّله[(١)].

واتِّباع شرائع هؤلاء الشَّياطين هو الأصل في باب الضَّلالة والشَّقاوة، ومع ذلك سمِّيت ديناً، ولكنَّه دين مضادٌّ لدين الله؛ لأنَّه يقوم على العمل للدُّنيا، فأصحابها لا يعلمون، ولا يعملون إلَّا لها[(٢)].

وحتَّى لو كان هؤلاء المطيعون للشُّركاء يريدون بطاعتهم نوعاً من العبادة والقربى، فإنَّ ذلك غير مقبولٍ منهم، بل مردود عليهم؛ لأنَّ الله تعالى لا يُعبد إلَّا بما شَرَع، لا بما شَرَع الطَّواغيت، وزيَّن الشَّياطين.

وفي هذا الشَّأن يقول ابن تيميَّة ﷺ: «ومَنِ اعتقد أنَّ لأحدٍ ـ من جميع الخَلْق، علمائهم، وعبَّادِهم، وملوكهم ـ خروجاً عن اتِّباعه (ﷺ) وطاعته، وأَخْذِ ما بُعث به من الكتاب والحكمة، فهو كافر، فيجب التَّفريق بين العبادات الإسلاميَّة الإيمانيَّة النَّبوية الشَّرعية التي يُحبُّها الله ورسوله، وعباده المؤمنون، وبين العبادات البِدْعيَّة الضَّلالية الجاهليَّة، التي قال الله فيها: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾»[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/١٩٧)؛ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٨٨).

(٢) انظر: التفسير الكبير (٢٧/١٤٠). (٣) مجموع الفتاوى (٢٧/٥٩ ـ ٦٠).

المبحث الثاني

أسباب هجر التحاكم إلى القرآن

تمهيد:

أظهر القرآن العظيم خبايا المعرضين عن شرع الله تعالى وحُكْمِه، وهتَك أسرارهم، وكشف نواياهم، وأنزلت فيهم آيات من كتاب الله موضِّحةً هويَّتهم، وفاضحةً دخائلهم، ومتحدِّثة عن أسباب إعراضهم، وكوامنِ نواياهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ ـ في مَعْرِض حديثه عن المعرضين المعترضين على شرع الله تعالى وأمْرِه وحُكْمِه:

«* فمنهم: معترضون بآرائهم وأقيستِهم، المتضمِّنة تحليلَ ما حرَّم الله ﷻ، وتحريمَ ما أباحه، وإسقاطَ ما أوجبه، وإيجابَ ما أسقطه، وإبطالَ ما صحَّحه، وتصحيحَ ما أبطله، واعتبارَ ما ألغاه، وإلغاءَ ما اعتبره، وتقييدَ ما أطلقه، وإطلاقَ ما قيَّده.

* ومنهم: المعترضون على حقائق الإيمان والشَّرع بالأذواق، والخيالات، والكشوفات الباطلة الشَّيطانية، وهؤلاء في حظوظٍ اتَّخذوها ديناً، وقدَّموها على شرع الله ودينه، واغتالوا بها القلوب، واقتطعوها عن طريق الله.

* ومنهم: أهل الاعتراض بالسِّياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات، التي قدَّموها على حُكم الله ورسوله، وحَكَموا بها بين عباده، وعطَّلوا بها شرعَه وعدلَه وحدودَه، وقالوا: إذا تعارضتِ السِّياسة والشَّرع، قدَّمنا السِّياسةَ.

فَجَعلتْ كلُّ طائفةٍ قُبالةَ دين الله وشرعِه، طاغوتاً يتحاكمون إليه»[1].

ومن العجيب أنَّ أسباب الإعراض عن حُكْم الله ـ كما عرضها القرآن ـ

(١) مدارج السالكين (٢/ ٦٩ ـ ٧٠) «بتصرُّف يسير».

تُشعر بأنَّ نفسيَّات المعرضين ـ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ـ واحدة، ومقولاتهم متشابهة، فلا نكاد نلمح جديداً في مواقف معرضي الأمس، ولهذا فإنَّ حُكم الشَّرائع في المعرضين واحدة، منذ فجر التَّاريخ، وإلى نهايته[١].

وهذه أهمُّ أسباب هجر التّحاكم إلى القرآن، كما كشفها الكتاب العزيز، وهي على النّحو التَّالي:

السبب الأوّل: كراهية ما أنزل الله:

عندما تنحرف الفطرة، وتعمى البصيرة، يُصبح الإنسان مُحبّاً لما أبغض الله، ومُبغضاً لما أحبَّ الله، وقد يبلغ هذا البغض والكره حدّاً يصل بالمرء إلى أن يكره أن يُذكر الله تعالى أمامه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. فلا عجب بمَّنْ هذه أحوالهم، أنْ نرى البغضاء قد طفحت من قلوبهم على ألسنتهم؛ لتُعَبِّر عن مدى كراهيتهم لما أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ولِفَرْط كراهة المعرضين لما أنزل الله؛ فإنَّهم يكرهون إحقاق الحقِّ، وإبطال الباطل، ويكرهون أنْ يُتِمَّ الله نورَ الإسلام على العالمين، ويكرهون أن يُظهرَ الله دينه على الدِّين كلِّه، ولكنَّ الله تعالى بادلهم كُرهاً بكُرْهٍ، فعاملهم بما يكرهون، وأجرى سُنَنَه على غير ما يشتهون، كما قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

صور من الكراهية:

وهذه الكراهية لما أنزل الله تعالى، تتخذ صُوَراً شتَّى، ومن ذلك:

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ١٩٥).

* كراهية ما أنزل الله، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٨ ـ ٩].

* كراهية الحقّ المبين، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

* كراهية الجهاد في سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١].

* كراهية الإنفاق في سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

* كراهية مَنْ يتّبعون الحقّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

* أنهم يُحبّون ويتّبعون الذين يكرهون ما أنزل الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦].

* الأعجب من هذا كلّه، أنّهم يكرهون رضوان الله ﷻ، الذي لا يرضى إلّا عمّن اتّبع دينَه وشرعَه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

والكراهية لما أنزل الله تعالى تنعكس آثارها في صُوَرٍ شتّى، نراها في سلوك المعرضين، مثل الصّدّ عن سبيل الله: بالبدن وبالمال وباللّسان، والطّعنِ في حُكْمِه، والشّكِ في عدله، والاستهزاءِ بحدوده، والإيذاءِ للمؤمنين العاملين بدينه، والسّاعين لإقامة شرعه.

وكراهية ما أنزل الله تعالى، تصل بأهلها إلى أنهم: ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٦].

كراهية ما أنزل الله في العصر الحاضر:

وما أكثر الذين يكرهون ما أنزل الله تعالى في عصرنا، ومَنْ يُطيعون مَنْ

يكرهون ما أنزل الله في بعض الأمر، بل أحياناً في كلّ الأمر![1].

وفي هذا يقول الشّنقيطي ﷺ: «اعلمْ أنّ كلّ مسلمٍ يجب عليه في هذا الزّمان، تأمُّلُ هذه الآيات من سورة محمدٍ وتدبُّرها، والحذر التّام ممّا تضمّنته من الوعيد الشّديد؛ لأنّ كثيراً ممّن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شكٍّ فيما تضمّنته من الوعيد الشّديد؛ لأنّ عامّة الكفّار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزّل الله على رسوله محمدٍ ﷺ، وهو هذا القرآن وما يبيّنه به النّبيُّ ﷺ من السُّنن.

فكلُّ مَنْ قال لهؤلاء الكفّار الكارهين لما نزّله الله: سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك مَنْ يقول لهم: سنطيعكم في كلّ الأمر، كالذين يتّبعون القوانين الوضعيّة، مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزّل الله، فإنّ هؤلاء لا شكّ أنّهم ممّن تتوفّاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم»[2].

السبب الثاني: الاستكبار:

من دوافع الإعراض عن شرع الله تعالى والتّحاكم إليه: الكِبْرُ الذي تنطوي عليه قلوب المعرضين؛ وهو غَمْط الحق، ذلك الدّاء العُضال الذي وُوجه به أصحاب الدّعوات في كلّ العصور ـ ولا يزالون ـ فالأنبياء والمصلحون كانوا كلّما دعَوا إلى إفراد الله تعالى بالعبادة والطّاعة والحُكْم، اصطدموا بملأ المتكبّرين المتعالين، الذين يستنكفون حتّى عن مجرّد سماع الحقّ، فضلاً عن تفهُّمه أو الخضوع له.

نماذج من الاستكبار:

* فهذا صالح ﷺ لمّا دعا قومه وتلطّف معهم ونصحهم، كان ردُّهم على ذلك: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦]. فكان الاستكبار هو باعث ثمود على الكفر، كما بيّنت الآيات.

---

(١) انظر: المصدر نفسه (١/١٩٦).

(٢) أضواء البيان (٧/٦٢٥).

* والشأن نفسه مع عادٍ، قوم هودٍ ﷺ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

* والمشهد ذاته يتكرّر مع شعيبٍ ﷺ لمّا دعا قومه إلى الحقّ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

* أمّا موسى ﷺ فلم يواجه أحد من الأنبياء استكباراً مثل الذي واجهه من أهل عصره؛ لأنّ فرعون كان إمامَ المستكبرين، وتَبِعَه على ذلك قومه وجنوده، وقد حكى الله تعالى هذا الاستكبار في عدّة مواضعَ، منها: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٦].

وكذلك كان شأنُ جنودِ فرعون: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

* وكما كان الاستكبار والعلوُّ هو الباعث الذي حدا بأهل الضّلال من الأمم السّابقة إلى محادّة الله تعالى والإعراض عن شرعه وحُكمِه، كان شأن أهل الضّلال في هذه الأمّة، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

«أي: شَقَّ عليهم وعَظُمَ ما يدعوهم إليه ﷺ من عبادة الله تعالى وحده، وطاعته بامتثال أمره، واجتناب نهيه»[(١)].

* وقد بلغ من استكبار المشركين على عهد رسول الله ﷺ أن قالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فكشف الله تعالى السِّرَّ، وبيَّن السَّبب في هذه الجرأة، فقال: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

---

(١) المصدر نفسه (٧/ ١٩٢).

* وقد كشف القرآن العظيم - في وضوح - أنَّ السَّبب وراء جدال المجادلين في آيات الله، هو ذلك الدَّاء العُضال: الكِبْر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

إنَّهم يتكبَّرون على الشَّريعة استنكافاً للانضواء تحت حُكْمِها، أو حُكْم المُبتعثِ بها، كما حكى ذلك الرَّازي رحمه الله فقال: «إنَّما يحملهم على هذا الجدال الباطل كِبْرٌ في صدورهم، فذلك الكِبْرُ هو الذي يحملهم على هذا الجدال الباطل، وذلك أنَّهم لو سلَّموا بنبوَّتك لَزِمهم أنْ يكونوا تحت يدِك وأمرِك ونهيِك؛ لأنَّ النُّبوَّة تحتها كلُّ مُلْكٍ ورياسةٍ، وفي صدورهم كِبْرٌ لا يَرْضَون أنْ يكونوا في خِدْمَتِك»[١].

* كذلك بيَّن القرآن الحكيم أنَّ أسباب استخفاف المعرضين بآيات الله واستهزائهم بها ذلك الكِبْر الرَّابض في صدورهم. قال تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٢ - ٢٤][٢].

السبب الثالث: اتباع الهوى:

للهوى تسلُّط على النَّفس - إذا أُطيع - لا يكاد يقاومه شيء في القلب، فكلَّما أطاع المرء هواه، استحكم هذا الهوى في قلبه، فيصبح هو شرعَه ودينَه، وحُكْمَه وقضاءَه، بل يصبح الهوى إلهاً مطاعاً. كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد سُمِّي الهوى بذلك: «لأنَّه يهوي بصاحبه في الدُّنيا إلى كلِّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»[٣]. نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/٦٩).
(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/١٩٩).
(٣) المفردات في غريب القرآن (ص٥٢٤)، مادة: (هوى).

الهوى والحقُّ ضدَّان لا يجتمعان:

ولا يمكن لإنسانٍ أن يجمع بين تعظيم الحقِّ وتقديم الهوى، فإنَّه إنْ عظَّم الحقَّ قدَّمه، وإنْ قدَّم هواه عظَّمه. ومَنْ عظَّم هواه ضلَّ عن شرع الله وهُداه، تائهاً في غياهب الشَّهوات والشُّبهات.

ونستطيع أن نجزم بأنَّ اتِّباع الهوى من أعظم أسباب عدم الاستجابة لله تعالى، والاحتكام إلى شرعه القويم، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

تحذير القرآن من اتِّباع الهوى:

ولهذا نجد القرآن العظيم قد حذَّر من اتِّباع الهوى كثيراً، في معرض حديثه عن حتميَّة اتِّباع شرع الله.

* فعندما استخلف الله ﷻ داود ﵇ وجعله مَلِكاً وحاكماً، حذَّره من اتِّباع الهوى؛ لأنَّ اتِّباع المنزَّل واتِّباع الهوى ضدَّان لا يجتمعان، قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وهي وصيَّة من الله تعالى لولاة الأمور أن يحكموا بين النَّاس بالحقِّ المنزَّل، ولا يعدلوا عنه إلى الأهواء المضلَّة عن سبيل الله[١].

* وقد نزَّه الله تعالى النَّبيَّ ﷺ ابتداءً من أن ينطق عن الهوى، فَضلاً أن يعمل به، أو يحكم بمقتضاه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

* ومع ذلك توجَّه الخطاب إليه ﷺ بألَّا يتَّبع أهواءَ أحدٍ من الخَلْق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]. والخطاب يتعدَّاه ﷺ إلى أمَّته، إذْ هو معصوم من اتِّباع أهواء النَّاس[٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/٥٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/١٠٥).

* وأمَرَه أن يستقيم على الشَّريعة المنزَّلة بعيداً عن أهوائهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩].

وأمَرَه أنْ يُقيم معالم الأحكام والحدود في حياة النَّاس، فقال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

* والناس جميعاً يفسدهم اتِّباع الهوى، بل الكون كلُّه يَفْسد لو سارت الأمور فيه على مقتضى الهوى؛ لأنَّ الأهواء لا ضابط لها. قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]. والمعنى: «لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشَرَع الأمورَ على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: لِفَساد أهوائهم واختلافها»[١].

السبب الرابع: إيثار المتاع العاجل:

ومن أسباب الإعراض عن حُكم الله تعالى: استيلاء حبِّ الدُّنيا وشهواتها على قلوب المعرضين، حتَّى يؤثروها على ما في الآخرة من رزق كريم، ونعيم مقيم. ولهذا جعل القرآن العظيم المتهاونين في أحكام الله مؤثرين الثَّمن القليل. قال الله تعالى ـ لبني إسرائيل: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

نماذج من إيثار العاجل:

ولمَّا كانت شهوات المستبدِّين في كلِّ زمانٍ جامحة، ورغباتهم مستعرة، ناصبوا شرائع الله العداء؛ لظنِّهم أنَّها تتعارض مع إطلاق مصالحهم الدُّنيوية العاجلة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٤٩٦). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٢٠٦).

* فهؤلاء قوم شعيب عليه السلام يقولون له: ﴿يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. والمعنى: أدينك يأمرك بذلك، ويمنعنا من التّصرُّف في أموالنا حسب ما نشاء من البخس والتّطفيف، وقد تراضينا فيما بيننا بذلك؟[١].

* وقوم لوط عليه السلام عادوا دعوة الحقّ؛ لعلمهم أنّها تحول بينهم وبين مستنقع الرّجس والرّذيلة الذي غرقوا فيه. قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

* وقد تمكّنت تلك الأثرة في مشركي العرب حتّى كادوا يؤيّسون رسول الله ﷺ من هدايتهم، فنزل القرآن يصبّره ويسلّيه: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢ ـ ٣]. أي: اتركهم يا محمد ﷺ يأكلوا ويتمتّعوا بدنياهم، ويشغلهم الأمل بطول العمر عن الإيمان والاتّباع، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم هذا[٢].

وهكذا كانت أعراض الدُّنيا حاجزاً بين النّاس ـ في كلّ زمان ـ وبين اتّباع الشّرائع، فإنّهم ـ لجهلهم ـ يظنُّون أنّ الشّرائع الرّبانية ستحرمهم منها. ناسين أنّ الله وحده يُوسّع الأرزاق ويبسطها لمَنْ يشاء، ولكنّهم فرحوا بالحياة الدُّنيا فرحاً أوجب أن يطمئنُّوا بها، ويغفلوا عن الآخرة رغم حقارة الدُّنيا في جنب الآخرة[٣]. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٢٥ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٥ ـ ٢٦].

السبب الخامس: الخوف المتوهَّم:

أشكال الخوف لدى الإنسان متنوّعة، فقد يخاف من المجهول، أو يخاف من المستقبل، أو يخاف من انقضاء العمر، أو فوات الرّزق، أو ضياع السُّلطان والجاه، أو يخاف أن تنزل به مصيبة في نفسه وأهله وماله..

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/١١٥). (٢) انظر: تفسير الجلالين (ص٣٣٨).
(٣) انظر: تفسير السعدي (٤/٧٦ ـ ٧٧)؛ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٢٠٩).

لكنَّ العبدَ الخائف من الله تعالى يجد في شرع الله الأمانَ والاطمئنان.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

أمّا العبد الذي لا يخاف الله تعالى فإنَّه لا يتورّع عن الظُّلم، وأكل الحرام، وانتهاك المحرَّمات الظاهرة منها والباطنة، متَّبعاً غيَّه وهواه؛ لذا فإنه لا يجد لنفسه أماناً في الشّريعة؛ لما في قلبه من الشّك والرّيبة، حيث إنَّ مالَه حرام، وجاهه قد بُنِيَ على السُّحت والباطل، ومصالحَه مرهونةٌ باستمرار الظُّلم، فهو يخشى الشَّريعة على رزقه، وجاهه، وسلطانه، إنْ رَضِيَ بأنْ تُحكِّمَ فيه.

نماذج من الخوف المُتوهَّم:

* والعلَّة ذاتُها ظهرت في اليهود، فالله تعالى أنزل عليهم التَّوراة ليحصل لهم الأمن والهداية بتحكيمها، فكان بعضهم يخشى النَّاس فلا يعمل بها أو ببعضها، أو لا يبلِّغها خوفاً من حدوث مرهوبٍ، أو فوات مطلوب، فحكى الله ﷻ شأنهم، ووجّهنا حتّى لا نقفو أثرهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وفي ذلك يقول أبو السُّعود رحمه الله: «﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ خطابٌ لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات، وأما حُكّام المسلمين فيتناولهم النّهي بطريق الدّلالة دون العبارة...

ولمّا كان مدار جراءتهم على ذلك خشيةَ ذي سلطان، أو رغبةً في الحظوظ الدُّنيوية، نُهوا عن كلٍّ منهما صريحاً. أي: إذا كان شأنهما كما ذُكِرَ فلا تخشوا النّاس كائناً مَنْ كانوا، واقتدوا - في مراعاة أحكامها وحفْظِها - بمَنْ قبلكم من الأنبياء وأشياعهم»[1].

* والذين أعرضوا عن شرع الله لخوفهم من النّاس، يسارعون في موالاة

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ٤٢).

أعداء الله على حساب الشّريعة والدّين، ويتعلّلون في ذلك بالخوف منهم، أو من الزّمان أن يدور بالجدب والغلبة على المسلمين، فلا يمنُّ الكفّار بالعطاء والإمداد.

وقد فضح الله تعالى هذه الطّوية الخسيسة ـ في معرض التّعجُّب والإنكار ـ على منْ يتحاكم إلى حكم الجاهلية، محذّراً المؤمنين من الوقوع في هذه الموالاة المحظورة، فقال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٠ ـ ٥٢][1].

* وأعجب العجب وأنكر المنكر مَنْ يتذرّع بأمرٍ عجيب، وهو خوفه الحيف والجور من أحكم الحاكمين، الغني لا يظلم مثقال ذرّة. وها هو القرآن يحكي حال مرضى القلوب: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٤٧ ـ ٥٢]. إنّهم في شكّ من عدل الله، وسوء ظنّ به سبحانه، وكلّها أسباب خفيّة تقود إلى الإعراض عن شريعة الله، تعالى الله عمّا يفتري الظّالمون علوّاً كبيراً[2].

السبب السادس: التقليد المذموم:

التّقليد في اللُّغة: جَعْلُ القلادة في العُنُق[3].

وينقسم إلى نوعين: جائز وغير جائز.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/٢٠٨).
(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٢١٣).
(٣) انظر: مختار الصحاح (ص٢٥٩)، مادة: (قلد).

فالجائز: هو تقليد العاميِّ عالماً أهلاً للفتوى، في نازلةٍ من النوازل.

وغير الجائز: هو الأخذ بمذاهب الآخرين من غير بيِّنة، ولا دليل. وقد ذمَّ الله تعالى هذا النوع من التَّقليد في غير موضعٍ من كتابه[١].

نماذج من التَّقليد المذموم:

* من أشدِّ أنواع التَّقليد المذموم هو متابعة النَّاس في الأحكام الشرعية من غير دليلٍ شرعي، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

وقد سُئل حذيفة رضي الله عنه عن هذه الآية، فقال: «أما إنَّهم لم يكونوا يصومون لهم، ولا يصلُّون لهم، ولكنَّهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلُّوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً أحلَّه الله لهم حرَّموه، فتلك كانت ربوبيتهم»[٢].

قال ابن القيِّم رحمه الله ـ واصفاً فتنة التَّقليد التي أصابت العالم الإسلامي: «تالله إنَّها فِتنةٌ عَمَّتْ فأعْمَتْ، ورَمَتِ القلوب فأصْمتْ[٣]، ربا عليها الصغير، وَهَرِمَ فيها الكبير، واتُّخذ لأجلها القرآن مهجوراً، وكان ذلك بقضاء الله وقَدَره في الكتاب مسطوراً، ولمَّا عمَّتْ بها البليّة، وعَظُمَتْ بسببها الرَّزية، بحيثُ لا يَعرفُ أكْثَرُ النَّاس سواها، ولا يعدُّون العلمَ إلَّا إيَّاها، فطالِبُ الحقِّ من مَظَانِّه لديهم مَفْتون، ومُؤْثِرُه على ما سواه عندهم مَغْبُون، نَصَبوا لِمَنْ خالَفَهم في طريقهم الحَبَائل، وَبَغَوْا له الغوائل، ورَمَوْه عن قوس الجهل والبغي والعناد»[٤].

---

(١) انظر: أضواء البيان (٧/ ٥٢٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ١٤٥) (رقم ١٦٦٥٣).

(٣) الإصماء: أنْ تقْتُل الصَّيد مكانه. يُقال: رمى فأصمى: أي أصاب مَقْتلاً. ومنه ما جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «أنَّ رجلاً أتاه فقال إنِّي ارمي الصَّيدَ فأُصْمِي او أُنمِي، فقال: «كُلْ ما أصْمَيْتَ، ودَعْ ما أنْمَيْتَ». والإنْماء: أنْ ترمي الصَّيد فيغيب عنك فيموت ولا تراه وتجده ميتاً، وإنَّما نهى عنها؛ لأنَّك لا تدري هل ماتت برميك أو بشيءٍ غيره.
انظر: سنن البيهقي الكبرى (٩/ ٢٤١) (رقم ١٨٦٨٠)؛ مصنف عبد الرزاق (٤/ ٤٦٠) (رقم ٨٤٥٥)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٥٤)، مادة: (صما)؛ لسان العرب (١٤/ ٤٦٩)؛ مادة: (صما).

(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٦ ـ ٧).

* وقد نعى الله تعالى على أقوامٍ مترفين سلوكَ مسلكِ التَّقليد المُشين، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ [الزخرف: ٢٣ ـ ٢٤]. فالذي منعهم من الاهتداء هو سيئ الاقتداء.

* ولمَّا قال إبراهيم ﷺ لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، كان جوابهم: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٣].

* وتقليد الآباء بغير برهانٍ من الله تعالى ضلال، وقد حكى القرآن حال جيلٍ من الأبناء، قلَّدوا آباءهم بغير هدىً من الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ هذا حسبهم؛ لقلَّة عقلهم، ولهذا يردُّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

فهذه أنواعٌ من التَّقليد الأعمى في العقائد والتَّشريعات، ذمَّها الله تعالى في كتابه، ولذلك قال الشّنقيطي رحمه الله: «وقد احتجَّ العلماء بهذه الآيات في إبطال التَّقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛ لأنَّ التَّشبيه لم يقع من جهة كفر أحدِهما وإيمانِ الآخر، وإنَّما وقع التَّشبيه بين التَّقليدَيْن بغير حجَّة للمقلِّد، كما لو قلَّد رجل فكفر، وقلَّد آخر فأذنب، وقلَّد آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجْهَها، كان كلُّ واحدٍ ملوماً على التَّقليد بغير حجَّة.

لأنَّ كلَّ ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً، وإن اختلفت الآثام فيه»(١).

وعلى أيَّة حال: فإنَّ الإعراض عن أحكام الله متوقَّع ومنتظَرٌ من الذين لا يعقلون، فالعقل السَّليم يهدي إلى الشَّرع القويم، إذا بحث عنه(٢).

وقد وقع المسلمون ـ إلا مَنْ رحم الله ـ في هذا التَّقليد الأعمى، فاستمدُّوا قوانينهم وأنظمتهم من الغرب ـ اليهود والنَّصارى ـ وغيره، وتناسوا عن قصد، وعن غير قصد ـ أحياناً ـ شرعَهم الذي ارتضاه لهم ربُّهم، فَوَصل بهم الحال إلى ما هم عليه من الهوان والضَّياع.

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٥٢٣).
(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٢١٩).

المبحث الثالث

الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الدُّنيوية للحكم بما أنزل الله.

المطلب الثاني: الآثار الأُخرويَّة للحكم بما أنزل الله.

المطلب الأول

الآثار الدنيوية للحكم بما انزل الله

أولاً: الاستخلاف والتَّمكين:

إذا أقام العباد دين الله تعالى، وخلُص لله تحاكمهم في السِّر والعلانية، فإنّ الله سبحانه يُقوّيهم ويشدُّ من أزرهم حتّى يستخلفَهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ومكّن لهم، وهي سنّةٌ إلهيّة ماضية نجدها في قصصٍ شتّى في كتاب الله تعالى.

نماذجُ من الاستخلاف والتَّمكين:

* فهذا يوسف عليه السلام صار من أهل الاستخلاف والتَّمكين، بعد أن ابتُلي فأبلى بلاء حسناً، وظهر أنّه كان من المحسنين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

* وهذا موسى عليه السلام كان حريصاً على أن يُظهر لقومه هذه السُّنّة الماضية، عندما خافوا بطش فرعون وقومه، فيقول لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. أي: العاقبة الحسَنة ستكون لكم بإرث الأرض، شريطة أن تكونوا من المتّقين، بإقامة شرع الله في الأرض(١).

ولمّا استبطؤوا العاقبة، واستأخروا النّصر، نبّههم موسى عليه السلام إلى سُنّة الاستخلاف: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ثمّ أنجز الله عز وجل لهم ما وعد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: تفسير المنار (٩/٨١).

كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وبعد وراثة الأرض، والاستخلاف فيها، مَنَّ الله عليهم بالتَّمكين، فقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

* والله تعالى وعد المؤمنين من هذه الأمَّة بما وعد به المؤمنين قبلهم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بدلاً عن الكفَّار ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]. أي: من بني إسرائيل(١).

فإذا حقَّق النَّاس الإيمان، وتحاكموا إلى شريعة الرَّحمن، فستأتيهم ثمرة ذلك، وأثره الباقي: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]. فهي مقدِّمات ونتائج، أعمالٌ وآثار، فتحقيق التَّحاكم إلى الدِّين، يتحقَّق به الاستخلاف، وتحقيق الحكم به، يوصل إلى التَّمكين(٢).

* ثمَّ إنَّ وقائع التَّاريخ الإسلامي، تُصدِّق هذا الوعد الإلهي للأمَّة بالنصر والتَّمكين إذا أقامت شرعه، فليست هناك جولةٌ من جولات المسلمين انتصروا فيها على أعدائهم، وتقدَّموا في شؤون دنياهم إلَّا وكان واقعهم شاهداً على تمكُّن القرآن منهم اعتقاداً وعملاً.

ثانياً: الأمن والاستقرار:

إذا استُخلِفت أمَّةٌ ومُكِّنت، فهي تحتاج دائماً إلى دواعي الأمن، وأسباب الاستقرار، حتَّى تحافظ على هذا التَّمكين، وقد ضَمِنَ الله ﷻ لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه، أن يُحقِّق لهم الأمن الذي ينشدون، إذا استقاموا على التَّوحيد، ونبذوا الشِّرك بأنواعه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم

---

(١) انظر: تفسير الجلالين (ص٤٦٧).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٦٧٣).

بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

ولا يُتصوّر تحقيق أمّة للإخلاص في العبوديّة، والخلوص من الشّرك، وبالتّالي الشّعور بالأمن والاستقرار إلّا بإقامة شرع الله كاملاً غير منقوص، وإلّا فإنّ الأمم المنحرفة عن شرع الله يُحيط بها الخوف والقلق من جميع جوانبها؛ لأنّ الأمن والأمان قد سُلب منها، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ١٠٠].

في حين أنّ الله سبحانه امتنّ على المؤمنين بالأمن في مظنّة الخوف؛ لمّا انقادوا لحكم الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]. والسّكينة: هي الطّمأنينة.

قال ابن كثير رحمه الله: «وهم الصّحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله»[(١)].

وإذا امتثل النّاس شرع الله، وطبّقوا أحكامه، ضمنوا الأمن التّام في أموالهم، وأعراضهم، ودمائهم، فما من حدٍّ من الحدود، ولا شرعة من الشّرائع إلّا وتُحفظ بسببها ضرورةٌ من الضّرورات الخمس: الدّين، والنّفس، والعقل، والعرض، والمال.

وقوانين البشر الوضعيّة لا تُحرز أمناً، ولا توفّر استقراراً، إذا ما قورنت بالتّشريعات الإسلاميّة، فالدّول ـ قديماً وحديثاً ـ تُنفق الأموال الطائلة، وترصد الميزانيّات الهائلة؛ لتأمين الدّاخل والخارج، ومع ذلك لا يحصل للنّاس من الأمان عُشر معشار ما يمكنهم تحصيله، لو أنّهم أقاموا حدّاً من حدود الله تعالى، كحدّ السّرقة مثلاً»[(٢)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٣١).

(٢) انظر: المصدر السابق (١/ ٦٧٧).

ثالثاً: النَّصر والفتح:

الأعداء يتربَّصون بالأمَّة الإسلاميَّة الدَّوائر، والله تعالى قد ضمن لهذه الأمَّة ـ إذا استقامت على شرعه ـ أنْ ينصرها على أعدائها بعزَّته وقوَّته، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١]. والمعنى: لينصرنَّ الله ﷻ مَنْ ينصر دينه، ومَنْ ينصر أولياءه، وينتصر لشرعه في الأوَّلين والآخرين، كما نصر المهاجرين والأنصار، على صناديد العرب، وأكاسرة العجم، وقياصرة الرُّوم، وأورثهم أرضهم وديارهم[1].

«وما حدث قطُّ في تاريخ البشريَّة أن استقامت جماعة على هدى الله إلَّا منحها القوَّة والمنعة والسِّيادة في نهاية المطاف؛ بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة، أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة.

وإنَّ الكثيرين لَيُشفقون من اتِّباع شريعة الله والسَّير على هداه، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألُّب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصاديَّة! وإنْ هي إلَّا أوهام كأوهام قريشٍ، يوم قالت لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ [القصص: ٥٧]. فلمَّا اتَّبعت هدى الله، سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرنٍ، أو أقلَّ من الزَّمان»[2].

وسُنَّة الله تعالى ماضية في نصر مَنْ ينصر دينه، كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. أي: «هو حقٌّ أوجبه على نفسه الكريمة، تكرُّماً وتفضُّلاً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]»[3].

ولهذا فإنَّ حال الأمَّة من النَّصر والعزَّة، أو عدمها، يعتبر مقياساً دقيقاً، وميزاناً للحكم على مقدار امتثالها ـ رُعاةً ورعيَّة ـ لشريعة الله ظاهراً وباطناً.

---

(١) انظر: روح المعاني (١٧/ ١٦٤).
(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٠٤).
(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٨).

وإلى جانب تأييد الله تعالى بالنّصر على الأعداء؛ فإنّه تعالى يمنُّ على المؤمنين بفتح أرض العدو، وإخضاعها لحكم الله، وفتح القلوب وهدايتها لدين الإسلام، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا . . .﴾ [النصر: ١ ـ ٢]. وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٣]. فبالاستجابة للشّريعة، يُستجلب الفتح، ويُستنزل النّصر، وتُستفتح الأرض.

فأيُّ مسؤوليةٍ تلك التي تقع على عاتق الأمّة ـ حكّاماً ومحكومين ـ في تحكيم شريعة الله؟ إنّها مسؤوليّة عظيمة على العامّة تحاكماً وإذعاناً، وعلى ولاة الأمر ـ من الحكّام والعلماء والقضاة ـ حُكماً وتبياناً، فهؤلاء أخصُّ في المسؤوليّة؛ بما حُمّلوا وتحمّلوا من تبعة الولاية والقيادة[1].

وفي ذلك يقول ابن تيميّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا خرج ولاة الأمور عن هذا (أي عن التّحاكم إلى الكتاب والسُّنّة) فقد حَكَموا بغير ما أنزل الله، ووقع بأسُهم بينهم. . . وهذا من أعظم أسباب تغيير الدُّول، كما قد جرى هذا مرّة بعد مرّة، في زماننا وغير زماننا، ومنْ أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره، فيسلُك مسلَك مَنْ أيّده الله ونَصَره، ويجتنب مسلَك مَنْ خذله الله وأهانه؛ فإنَّ الله يقول في كتابه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١]. فقد وعد الله بنصر منْ ينصره، ونصرُه هو نصر كتابه ودينه ورسوله؛ لا نَصْرُ مَنْ يحكم بغير ما أنزل الله، ويتكلّم بما لا يعلم»[2].

رابعاً: العزُّ والشّرف:

دوام النّصر والفتح بقاءٌ للعزّ والشّرف، وكما لا يُنال ذلك النّصر إلّا بنصر دين الله، فلا يُطال هذا الشّرف إلّا بالاعتزاز والانتساب لكتاب الله الذي به

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٦٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٨٨).

تشرف الأمّة، وبه يعلو ذِكْرُها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠]. والمراد بالذِّكر هنا: هو الشَّرف، كما قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما. والمعنى: أي فيه شرفكم وصيتُكم[١]. وقال تعالى في آخر الآية: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ والاستفهام: للتَّوبيخ والتَّقريع. والمعنى: أفلا تعقلون ما فُضِّلتم به على غيركم[٢].

فهذه الأمّة لا تستمدُّ الشَّرف والعزَّة إلَّا من استمساكها بدينها وتطبيقها لأحكام الشَّريعة في جميع نواحي الحياة، كما قال عمر رضي الله عنه: «إنّا كُنّا أذلَّ قومٍ، فأعزّنا الله بالإسلامِ، فَمَهما نَطْلُبُ العزّ بِغَيرِ ما أعزّنا الله به أذلّنا الله»[٣]. فهناك ارتباطٌ وثيق بين حال الأمّة الإسلامية عزّاً وذلاً، مع موقفها من تطبيق الشَّريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزّت في يوم بغير دين الله، وما ذلَّت في يوم إلّا بالانحراف عنه.

ومنْ أراد العزَّة فلْيتعزَّز بطاعة الله تعالى[٤]؛ لأنَّ مصدرها من الله تعالى، فليطلبها من مصدرها، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. وهذه العزّة كما كانت للمؤمنين السّابقين فهي كذلك للّاحقين شريطةَ أنْ يقتفوا أثرهم في تعظيم حرمات الله، وتطبيق شرعه، والاعتزاز بدينه.

والمسلمون اليوم ليسوا مخيَّرين بين الاعتزاز بكتاب الله أو الاعتزاز بغيره، بل هم مسؤولون عن أخذهم الكتابَ بقوَّة، ورفع رايته بعزَّة، والله تعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣]. «والاستمساك: شدّة المَسْك،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٥)؛ تفسير أبي السعود (٦/ ٥٨).

(٢) انظر: زاد المسير (٥/ ٣٤١)؛ فتح القدير (٣/ ٤٠٠).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٣٠) (رقم ٢٠٧)، وقال: «صحيح على شرط الشّيخين... ولم يخرجاه» ووافقه الذّهبي. ورواه الهيتمي في «الزواجر» (١/ ١٤٤)؛ والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٥١) (رقم ٤٣٩٣)؛ وصحّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ١٠٠) (رقم ٢٨٩٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥٥٩).

فالسّين والتّاء فيه للتّأكيد»[١]. أي: استمسك بالذي أوحي إليك من الآيات والشّرائع، سواء عجّلنا لك الموعود، أو أخّرناه إلى يوم القيامة[٢].

والمعنى: خُذْ بالقرآن المنزّل؛ فإنّه الحقُّ الهادي إلى الصّراط المستقيم، الذي فيه شرفٌ لك ولقومك، وسوف تُسألون عنه يوم القيامة، وكيف كنتم في القيام بحقِّه، وتعظيمه، والعمل به، والاستجابة له، وشكر هذه النّعمة العظيمة[٣].

والأمّة اليوم تفتقد من العزّة إلى القدر الذي فقدته من دينها، ولن يعود لها هذا إلّا بالاستمساك بكتاب ربّها، وتطبيقه في واقع الحياة[٤].

خامساً: بركةُ العَيْش ورَغَدُه:

الحياة الطّيّبة، والعيش الرغيد، أكبر من مجرّد طعامٍ طيّب، أو ملبسٍ حسن، أو مركبٍ مريح، أو مسكنٍ فسيح، أو زوجةٍ حسناء، فكلُّ ذلك لا يوفّر السّعادة الحقّة، إلّا إذا أُضيف إليه بركةٌ من عند الله تعالى، ممّا لا تُستجلب إلّا بطاعة الله، وإقامة شرعه، تلك البركة التي لم توضع في قليل إلّا كثّرته، ولا في صغير إلّا عظّمته، ولا في طَيِّبٍ إلّا وضاعفت في طيبه.

وكلُّ النّاس ينشد هذه البركة، ويتطلّع إلى الحياة الطّيّبة، ولكنّهم ليسوا جميعاً يوفّقون إلى سلوك الطّريق القويم إلى ذلك، ولذا دعا الله المؤمنين إلى الاستجابة لله ورسوله ﷺ، وإقامة شريعته حتّى ينالوا هذا المطلب النّفيس[٥].

وأكثر الأمم نأت بأنفسها عن الاستجابة لله تعالى، ولرسله الكرام ﷺ فارتفعت عنهم البركة، وضاعت أعمارهم سدى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ويا للأسف لم يؤمنوا ويتقوا، فأخذوا بالعقوبات، ونزع البركات، وكثرة الآفات، والآيةُ الكريمة تَعِدُ المؤمنين المستجيبين لشرع الله بالبركات، متى ما حقّقوا معنى الإيمان والتّقوى[٦].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٦٠).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٨/ ٤٨).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٣٠)؛ تفسير النسفي (٤/ ١١٥).
(٤) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٦٨٦).
(٥) انظر: المصدر نفسه (١/ ٦٨٨).
(٦) انظر: تفسير السعدي (٢/ ١٣٨).

سادساً: الهداية والتَّثبيت:

الذين يتكبّرون على التّحاكم إلى شرع الله المنزّل، يفوّتون على أنفسهم نعمةً عظيمة، يمنحها الله تعالى للمنقادين إلى أمره، المتحاكمين إلى شريعته، ألا وهي الهداية والتّثبيت على الحقّ، وما أعظمها من نعمة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٥ ـ ٦٨].

والأمر الذي وُعِظوا به، ووُعِدوا الخيرَ لأجله: هو تحكيم الشريعة، والانقياد التّامُّ للرّسول ﷺ، فلو أنّهم امتثلوا ما أُمروا به؛ لثبّت الله تعالى أقدامهم على الحقّ، فلا يضطّربون في أمر دينهم[1].

وفي حصول التّثبيت والثّبات للمؤمنين وزيادته، يقول السّعدي رحمه الله: «فإنّ الله يُثبّت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وُعِظوا به. فيثبّتهم في الحياة الدُّنيا، عند ورود الفتن في الأوامر، والنّواهي، والمصائب. فيحصل لهم ثبات، يوفّقون به لفعل الأوامر، وترك الزّواجر، التي تقتضي النّفس فعلها، وعند حلول المصائب، التي يكرهها العبد. فيوفّق للتّثبيت بالتّوفيق للصّبر أو للرّضا، أو الشُّكر. فينزل عليه معونة من الله، للقيام بذلك، ويحصل له الثّبات على الدّين، عند الموت وفي القبر. وأيضاً فإنّ العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرّن على الأوامر الشّرعية، حتّى يألفها، ويشتاقَ إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثّبات على الطّاعات»[2].

وفي ظلّ المجتمع المُحتكم إلى الشريعة، تتفتّح النوافذ بنسمات العلم النافع، وتتفتّق القرائح بطرق العمل الصّالح؛ فيسهل على النّاس قصد الهداية،

---

(١) انظر: فتح القدير (١/ ٧٣٢).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٦٦).

يقول ابن عاشور رحمه الله - في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: «أي لَفَتَحْنا لهم طُرُقَ العلم والهداية؛ لأنَّ تصَدِّيهم لامتثال ما أُمروا به هو مبدأ تخلية النُّفوس عن التَّعلُّق بأوهامها وعوائدها، الحاجبةِ لها عن دَرْكِ الحقائق، فإذا ابتدؤوا يرفضون هذه المواقع، فقد استعدُّوا لتلقِّي الحكمة والكمالات النَّفسانية، ففاضت عليهم المعارف تَتْرَى، بدلالة بعضها على بعض، وبتيسير الله صعبَها بأنوار الهداية والتَّوفيق، ولا شكَّ أنَّ الطَّاعة مفتاح المعارف، بعد تعاطي أسبابِها»[1].

الخلاصة:

نستخلص مِمَّا سبق أنَّ تحكيم شرع الله في حياتنا ينعكس على المجتمع بصورة إيجابية مباشرة؛ فهو يؤدِّي إلى تحقيق الاستقرار الدَّاخلي والعدل الاجتماعي، والأمن المادي والنَّفسي، حيث يلتزم كلُّ إنسانٍ بما شرعه الله عليه من واجبات تجاه الله وتجاه الآخرين، وإلَّا تَعَرَّض بمُقتضى هذا الشَّرع إلى العقوبة المستحقَّة على حسب جُرْمه، وفيه يشعر الإنسان بقيمته وبإنسانيَّته؛ لأنَّه لا فرق بين شخصٍ وآخر مهما علا في الرُّتبة، أو دنا في المنزلة، فالكلُّ أمام شرع الله سواء.

وكذلك يؤدِّي تحكيم شرع الله إلى قوَّة هذا المجتمع وهذا البلد المُطبِّق لحدود الله تجاه أيَّةِ قُوَّةٍ أخرى؛ لأنه يستمدُّ قوَّته من الله ﷻ وهنا معنى إيماني عظيم، وهو مدى الثِّقة التي يحملها في طيَّاته المسلم تجاه ربِّه، فإذا ما حقَّقنا الثِّقة بالله ﷻ وأنَّه صاحب العزَّة والمَنعَة والنَّصر، وأنَّه الرُّكن الشَّديد الذي نأوي إليه إذا أصابنا مكروه، على قدر هذه الثِّقة في الله، وعلى قدر هذا اليقين، يكون التَّمكين والنَّصر وقوَّة المجتمع.

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٨١).

المطلب الثاني

الآثار الأخرويّة للحكم بما أنزل الله

أولاً: الفلاح والفوز:

الفلاح والفوز في الآخرة، امتداد للفلاح والفوز اللّذين يحرزهما المؤمنون في الدُّنيا، باحتكامهم لشرع الله تعالى، وفي ذلك يقول المولى ﷻ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١ ـ ٥٢].

فهذا هو حال المؤمنين في كلِّ مكانٍ وزمان، إذا دُعوا إلى كتاب الله تعالى، وحُكم رسوله ﷺ، يقولون بلسان حالهم ومقالهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ أي: أجبْنا مَنْ دعانا إلى حُكم الله ورسوله، وأطعنا طاعةً تامّة، سالمةً من الحرج.

قال ابن عاشور ﵀: «وفيه تعريضٌ بالمنافقين، إذْ يقولون كلمة الطّاعة ثمّ ينقضونها بِضِدِّها من كلمات الإعراض والارتياب»[١].

ومن أجل ذلك حُصِرَ الفلاح في المؤمنين؛ لأنّ الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنّجاة من المكروه، ولا يُفلح إلّا مَنْ حَكَّمَ اللهَ ورسولَه، وأطاعَ الله ورسوله[٢].

ثمّ قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمراه به، وحَكَما به، وتَرْكَ ما نَهيا عنه، ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه، ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ والفوز: هو الظّفرُ بالمطلوب الصّالح. والمعنى: هم الذين فازوا بكلِّ خيرٍ، وأمِنوا من كُلِّ شرٍّ في الدُّنيا والآخرة[٣]. وقيل: الفائز مَنْ نجا من النّار، وأُدخل الجنّة[٤].

وقيل: هم الفائزون بالنّعيم الدُّنيوي والأخروي، لا مَنْ عداهم[٥].

فقد جمَعت هذه الآية الكريمة أسباب الفوز في الدُّنيا والآخرة، وهي:

---

(١) المصدر نفسه (١٨/ ٢٢٠).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٤١٠).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٨٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ٢٩٥).

(٥) انظر: فتح القدير (٤/ ٦٨).

طاعةُ اللهِ ورسولِه، وخشيةُ الله، وتقواه[1].

ثانياً: المغفرة وتكفير السَّيِّئات:

تحكيم الشَّريعة مظنَّة توبة التَّائبين في الدُّنيا، وقبول هذه التَّوبة في الآخرة، بالمغفرة ومحو السيِّئات، وكان النَّبيُّ ﷺ يُبايع المؤمنين والمؤمنات على أمورٍ، هي في مضمونها إثبات لموقف التَّحاكم إلى الشَّريعة، والخضوع لها.

عن عُبادة بن الصَّامت رضي الله عنه، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايِعُونِي عَلَى أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً، وَلا تَسْرِقُوا، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ». فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ[2].

قال ابن حجر رحمه الله: «ويستفاد من الحديث: أنَّ إقامة الحدِّ كفَّارة للذَّنب، ولو لم يتب المحدود، وهو قول الجمهور. وقيل: لا بدَّ من التَّوبة، وبذلك جزم بعض التَّابعين، وهو قولٌ للمعتزلة، ووافقهم ابنُ حزمٍ، ومن المفسِّرين: البغوي، وطائفة يسيرة، واستدلوا باستثناء مَنْ تاب في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]. والجواب في ذلك: أنَّه في عقوبة الدُّنيا، ولذلك قُيِّدت بالقدرة عليه»[3].

وهذه البيعة كانت على الامتثال لسائر شرائع الإسلام، وما لم يُذكر في هذه المبايعة كالصَّلاة، والزَّكاة، وسائر أركان الدِّين، وشعائر الإسلام؛ لوضوح أمره واشتهاره[4].

وتكفير السَّيِّئات مَكْسَبٌ أُخرويٌّ عظيم، لا يمكن للنَّاس إدراكه إلَّا بالتَّحاكم

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٢٢١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: علامةُ الإيمان حُبُّ الأنصار (١/ ٣٠) (ح١٨).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٩٤).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٨/ ٢٤١).

إلى الشَّريعة الإسلاميَّة، وأمَّا محبَّة الطَّواغيت والتَّحاكم إليها لا تغفر الذُّنوب، بل تستجلبها.

وقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يستغفر للمؤمنين إذا هم بايعوه على السَّمع والطَّاعة، والرِّضى بحكم الله ورسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢]. أي: مُبالِغٌ في المغفرة والرَّحمة، فيغفر للمبايعين، ويرحمهم إذا وفُّوا ما بايعوا(١).

ثالثاً: الأجر العظيم:

المتحاكمون إلى شرع الله، لا ينجون بالمغفرة من السَّيِّئات فحسب، بل يظفرون بأجرٍ عظيم، وثوابٍ كبير جزاء ذلك.

فبعد أنْ بيَّن المولى تبارك وتعالى حُكْمَ مَنْ لم يُحكِّم الرَّسولَ ﷺ في قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . . .﴾ [النساء: ٦٥].

أتبعَ ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨].

فبيَّن النَّظم الحكيم عاقبة تحكيم الرَّسول ﷺ، والانقياد لما يَحكُم به، والاتِّعاظ بما يَعِظ به: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي: لكان هذا الانقياد لما يَحكُم به الرَّسول ﷺ خيراً لهم في الدُّنيا والآخرة، ولكان أشدَّ تثبيتاً لقلوبهم على الإيمان.

وماذا يكون لهم من جزاءٍ بعد هذا التَّثبيت؟

هو ما هو جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقد فُخِّمَ الأجرُ العظيم بنسبة عطائه إلى الله تعالى بنون العَظَمة، وفي ذلك

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٩٥).

يقول الرّازي رحمه الله: «إنّه تعالى جَمَع في هذه الآية قرائن كثيرة، كلُّ واحدةٍ منها تدلُّ على عِظَمِ هذا الأجر.

أحدها: أنّه ذَكَرَ نفسَه بصيغة العظَمَة، وهي قوله: ﴿لَّأٓتَيۡنَٰهُم﴾، وقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾. والمعطي الحكيم إذا ذكر نفسَه باللُّفظ الدّال على عظمةٍ عند الوَعْد بالعَطِيَّة، دلَّ ذلك على عظمة تلك العَطيّة.

وثانيها: قوله: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾، وهذا التّخصيص يدلُّ على المبالغة، كما في قوله: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥].

وثالثها: أنَّ الله تعالى وصفَ هذا الأجرَ بالعظيم، والشَّيء الذي وصَفه أعظمُ العظماء بالعظَمَة، لا بدَّ وأنْ يكون في نهاية الجلالة، وكيف لا يكون عظيماً، وقد قال عليه الصّلاة والسّلام: (فيها مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)[١]»[٢].

رابعاً: مرافقة الأنبياء والصِّدِّيقين:

سمَّى الله تبارك وتعالى التّحاكم إلى الرسول (طاعةً) وجعل عاقبتها معيّة كريمة، ومُقاماً كريماً، في صحبةٍ كريمة، في جوار الله الكريم، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠].

والمعنى: أنّ كلّ منْ يُطيع الله ورسوله ﷺ، ويتحاكم إليهما على الوجه المذكور في الآيات، من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٥٩ ـ ٧٠]. فله أحسن الجزاء، وأحسن العاقبة، في الدُّنيا والآخرة. فسياق الآيات كلّها في التّحاكم إلى الله والرّسول قولاً وعملاً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلْق، باب: ما جاء في صفة الجنّة، وأنّها مخلوقة (٢/ ١٠٠٢) (ح٣٢٤٤)؛ ومسلم، كتاب الجنّة، وصفة نعيمها وأهلها (٤/ ٢١٧٤) (ح٢٨٢٤).

(٢) التفسير الكبير (١٠/ ١٣٥). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٩٧).

وحُقَّ لِمَنْ أقام هذا التَّحاكم على ما يريد الله تعالى، أن يرقى صُعُداً مع هذه الصُّحبة المباركة، في الفردوس الأعلى؛ لأنّ النبيين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصّالحين هم خير منْ أطاع الله تعالى ظاهراً وباطناً، وأقام شريعته ووحّده، فمنْ حذا حذْوهم حُشر معهم، وصحبهم في الفردوس الأعلى من الجنّة، وهو طريقٌ مفتوح لكلِّ من اقتدى بهم ظاهراً وباطناً[1].

(١) انظر: المصدر نفسه (٢/ ٦٩٩).

المبحث الرابع

الآثار السَّيئة للحكم بغير ما أنزل الله

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الدُّنيوية للحكم بغير ما أنزل الله.

المطلب الثاني: الآثار الأُخرويَّة للحكم بغير ما أنزل الله.

المطلب الأول
الآثار الدنيوية للحكم بغير ما انزل الله

كما أنّ تحكيم الشّريعة تعمر به الدُّنيا، وتطيب به الآخرة. فبالانحراف عنها تتكدّر الدُّنيا، وتضيع الآخرة. فليس هناك مِعْوَلُ هدمٍ أشدَّ خطراً على دين النَّاس ودنياهم، من الخضوع لشرائع الجاهليَّة الآبقة عنْ الله، وإنّ الحكّام المُبدّلين لشريعة الله والمنحرفين عنها، لَيُدخلون على النّاس أنواعاً من الفتن والمحن، بقدر ما يخرُجون بهم عن حُكْم اللّطيف الخبير ﷻ.

فالفتن والمحن تظلّ تتوالى على النّاس تَتْرى، حتّى تطالَ جميعَ أوجه حياتهم، فتُحيل رخاءها شقاءً، وأمنَها خوفاً، وعُذوبتها عذاباً، وأفراحها أتراحاً.

وإنَّ آثار تلك الانحرافات عن شرع الله، لتبدو على الحياة في وجهتها الدِّينية، والاجتماعيَّة، والسِّياسية، والاقتصاديَّة، وتصيب بشررها محاسنَها، وتُشوّه معالمها. وبذلك تتحوّل الحياة إلى فتنةٍ في الدُّنيا والآخرة، والله تبارك وتعالى حذّرنا من مخالفة الأوامر الشّرعية، في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ - في تفسيرها: «أي: فليحذرْ وليخْش منْ خالف شريعة الرّسول ﷺ باطناً أو ظاهراً ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي: في قلوبهم، من كفرٍ، أو نفاقٍ، أو بدعةٍ، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: في الدُّنيا، بقتلٍ، أو حدٍّ، أو حبسٍ، أو نحو ذلك»(١).

وإنَّ المجتمعات التي تُسلِمُ قيادتها للحكّام المُبدِّلين، يُضحّى بها، كما ضحَّت هي بشريعة الله، وتنازلت عنها أمام عتبات البرلمانات، وهياكل التّشريع الوضعي، وهي تدفع ضريبة التّخلي عن الحكم بما أنزل الله، من أموالها وأعراضها، وعقول أبنائها، وغير ذلك من ثرواتها الأدبيّة والمادية، ذلك إلى

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١٠١).

جانب ما يجرُّه التّخلّي عن الحكم بما أنزل الله، من الجوع، والخوف، وضنك العيش، وغضب الله في الدُّنيا والآخرة[١].

وفيما يلي استعراض لبعض الآثار المترتّبة على الحكم بغير ما أنزل الله في الحياة الدُّنيا:

أولاً: قسوة القلوب:

تحريف الشّريعة أو الانحراف عنها، يوقعان في قسوة القلوب، وقد ضرب الله تعالى لنا المثل باليهود الذين انحرفوا، وحرَّفوا في كلام الله، وكيف كانت عاقبتهم السّيّئة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]. ومعنى ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾: «أي: صُلْبة، لا تعي خيراً، ولا تفعله. والقاسية والعاتية بمعنى واحد»[٢].

وقيل: «جُعلت قلوبهم غليظة، لا تُجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنُّذر، فلا يُرغّبهم تشويق، ولا يُزعجهم تخويف»[٣].

فهم لمّا نقضوا ميثاق الله على السّمع والطّاعة، وساء تصرُّفهم في آيات الله، وتأوّلوا كتاب الله على غير ما أنزله، وحَمَلوه غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، ثمّ تركوا العمل به رغبةً عنه؛ جعل الله قلوبهم قاسية، فلا يتّعظون بموعظة؛ لغلظها وقساوتها[٤].

وهذا من أعظم العقوبات أن يُخذل القلب، ويُمنع الألطاف الرّبّانية، ولا يزيده الهدى والخير إلّا شرّاً[٥].

وهكذا الشّأن في كلّ مَنْ عدل عن شرع الله، مُحكّماً عقله وهواه؛ فجزاؤه أنْ يُطبع على قلبه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣][٦].

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧٠٥، ٧١٠).
(٢) تفسير القرطبي (٦/ ١١٥).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٢٢٥).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤).
(٥) انظر: الكشاف (١/ ٦٥٠).
(٦) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧١٤).

ثانياً: الضَّلال عن الحق:

اتّباع الأهواء وتقديمها على أحكام الله تعالى، يوقع في الضَّلال عن سبيل الحقّ، ولهذا أمرَ الله ﷻ نبيّه داود ﷺ أنْ يحكم بالحقّ المنزَّل من عند الله تعالى، ونهاه أنْ يتّبع الأهواء المُضلّة عن سبيل الحقّ، فقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

قال الشّنقيطي ﵀: «ومعلومٌ أنَّ نبيَّ الله داود ﷺ لا يحكم بغير الحقّ، ولا يتّبع الهوى فيضلّه عن سبيل الله، ولكنَّ الله تعالى يأمر أنبياءه عليهم الصّلاة والسلام، وينهاهم؛ ليُشرِّع لأممهم»[1].

والله تعالى حذّر أهل الكتاب أنْ يُقلّدوا بعضهم في الأهواء المُضلّة الصادة عن الحقّ، فقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. لكنّهم أوغلوا في الضلال، بل جمعوا بين الضلال والإضلال[2].

ومن نواياهم العدائيّة ـ التي حذَّر الله تعالى منها ـ أنّهم يُحبُّون أن يَروا هذه الأمّة على غير هداية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٤ ـ ٤٥]. وهذا يُحتّم على الأمّة ـ حتّى لا تقع فيما وقع فيه أهل الكتاب ـ أنْ تنقاد لقضاء الله تعالى ورسوله ﷺ، حتّى لا تهوى في غياهب الضَّلال مثلهم.

كيف وقد جاء التّحذير الصّريح، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أي: «ليس لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ أنْ يكون له اختيارٌ عند حُكم الله ورسوله، فما أمر الله هو المُتّبع، وما أراد النّبيُّ هو الحقُّ، ومَنْ خالفهما في شيء فقد ضلَّ

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٨).

(٢) انظر: تفسير السعدي (١/ ٢٤١).

ضلالاً مبيناً؛ لأنَّ الله هو المَقْصِد، والنَّبيّ هو الهادي الموصل، فمنْ ترك المَقْصِد، ولم يسمع قولَ الهادي، فهو ضالٌ قطعاً»[١].

وسبب الوقوع في هذا الضَّلال البيِّن: أنه «تَرْكَ الصِّراطَ المستقيم، الموصِلَة إلى كرامة الله، إلى غيرها، من الطُّرق الموصلة للعذاب الأليم. فذكر أوَّلاً، السَّببَ الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله، وهو الإيمان. ثمَّ ذكر المانعَ من ذلك، وهو التَّخويف بالضَّلال، الدَّال على العقوبة والنَّكال»[٢].

ثالثاً: الوقوع في النِّفاق:

يُبتلى بالنِّفاق مَنْ يضمرون الكراهية لشرع الله تعالى، حتَّى تصيرَ قلوبُهم مريضةً بهذا النِّفاق، فيحاولون جُهْدَهم أن يُخْفوا نفاقهم، ظانِّين أنَّ ذلك أمرٌ ممكن، ولكنْ يأبى الله تعالى إلَّا أنْ يفضحَ المنافقين بفلتات ألسنتهم، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩ ـ ٣٠].

والأضغان: جمع ضِغْنٍ، وهو ما في النُّفوس من الحسد، والحقد، والعداوة للإسلام وأهله، القائمين بنصره[٣].

واللَّام في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾: جوابُ قَسَمٍ محذوف[٤].

ولحن القولِ: ما يبدو من كلامهم الدَّال على مقاصدهم، بالتَّعريض أو التَّورية، ومنه قيل للمخطئ: لاحِنٌ؛ لعدله بالكلام عن سَمْت الصَّواب[٥].

والنِّفاق سبب ومسبَّب في الوقت ذاته؛ فهو سبب للإعراض عن حُكم الله تعالى، فلا يُعرِض عن حُكم الله وسنَّة رسوله ﷺ إلَّا منافق عامرٌ قلبه بالنِّفاق، ولا يُحَارب الشَّريعة وأحكامها إلَّا مَن امتلأ قلبه ـ ابتداءً ـ بالنِّفاق، وهو مسبَّب أيضاً، فمَنْ أعرض عن حُكم الله وشرعه عن تقليدٍ أعمى للغرب أو لغيره فلا

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/١٨٣).
(٢) المصدر السابق (٤/١٥٣). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/٧١٥).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٦/١٠١).
(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٨/١٠١)؛ الكشاف (٤/٣٣٠).
(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٤/١٨١)؛ تفسير أبي السعود (٨/١٠١).

يأمن على نفسه أنْ يقع في النِّفاق وإنْ كان ـ ابتداءً ـ غير منافق.

إنَّ شأن المنافقين الدَّائم هو الاستهزاء بالشَّريعة وحَمَلتِها، والإعراض عمَّا أنزل الله تعالى، والصَّدُّ عن سبيله، وقد كانوا يُشفقون من افتضاح نفاقهم بهذا الاستهزاء والإعراض، حتَّى قال قائلهم: والله لوددت أنِّي قُدِّمْتُ، فَجُلدت مائة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٤ ـ ٦٦][(١)].

ومن أبرز صفات المنافقين الإعراض عن أحكام الشَّريعة، والتَّحاكم إلى الطَّاغوت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦١ ـ ٦٢].

«أي: كيف يكون حالهم وقت إصابة المصيبة إيَّاهم، بافتضاحهم بظهور نفاقهم؛ بسبب ما عملوا من الجنايات، التي من جملتها: التَّحاكم إلى الطَّاغوت، والإعراض عن حُكْمِك؟»[(٢)].

رابعاً: الحرمان من التَّوبة:

أشدُّ ما يُمكن أنْ يعاقب به الإنسان في هذه الدُّنيا، أنْ يُحرم من التَّوفيق للتَّوبة، والقرآنُ العظيم بيَّن أنَّ من الأعمال التي تُعرِّض فاعلها للحرمان من التَّوبة: تحريف ما أنزل الله، وإخضاعه للهوى أخذاً أو ردّاً، وهو عين ما فعله أعداء الله من كفَّار أهل الكتاب، وأوليائهم المنافقين، قال الله تعالى ـ مواسياً رسوله الكريم ﷺ حتَّى لا يحزن، ولا يأسى على أمثال هؤلاء الشِّرذمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص١٨٧)؛ تفسير القرطبي (٨/ ١٨١).

(٢) تفسير أبي السعود (٢/ ١٩٥). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧١٦).

تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نزلت هذه الآياتُ الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدِّمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾، أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبُهم خرابٌ خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أعداء الإسلام وأهله»[(١)].

والجريمة التي اقترفها هؤلاء: هي انحرافهم عن شريعة الإسلام بتبعيضها تارةً، وأخرى بتحريفها حسب أهوائهم وشهواتهم، ومصالحهم الدَّنيئة، فجاءت عقوبتهم متلائمةً مع فظاعة جُرمهم ـ الحرمان من التَّوبة: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أنَّ الله تعالى حتَّم عليهم ألَّا يتوبوا من ضلالهم وكفرهم، فلم «يُرِدِ الله أنْ يُطَهِّر ـ من دَنَس الكفر، ووَسَخِ الشِّرك ـ قلوبَهم بطهارة الإسلام، ونظافة الإيمان، فيتوبوا»[(٢)].

وقد ذكر الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدَّةَ أوجهٍ في عدم طهارة قلوبهم، فقال: «أحدُها: لم يُرِدِ الله أنْ يُمِدَّ قلوبهم بالألطاف؛ لأنه تعالى علم أنَّه لا فائدة في تلك الألطاف؛ لأنَّها لا تنجع في قلوبهم. وثانيها: لم يرد الله أنْ يُطهِّر قلوبهم عن الحَرَج والغمِّ والوحشة على كفرهم. وثالثُها: أنَّ هذا استعارةٌ عن سقوط وقعه عند الله تعالى، وأنَّه غير مُلتفِتٌ إليه؛ بسبب قبح أفعاله، وسوء أعماله»[(٣)].

ودلَّت الآية الكريمة: «على أنَّ مَنْ كان مقصوده بالتَّحاكم إلى الحُكم الشَّرعي، اتِّباع هواه، وأنَّه إنْ حُكِمَ له رضي، وإنْ لم يُحكم له سخط، فإنَّ ذلك من عدم طهارة قلبه. كما أنَّ مَنْ حاكم وتحاكم إلى الشَّرع، ورضي به، وافق

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٦).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٣٠٩).

(٣) التفسير الكبير (١١/ ١٨٤).

هواه أو خالفه، فإنّه من طهارة القلب. ودلّ على أنّ طهارة القلب سبب لكلّ خيرٍ، وهو أكبر داعٍ إلى كلّ قولٍ رشيد، وعملٍ سديد»[(١)].

كما دلّت على الخزي لليهود والمنافقين: فبالإضافة لعدم طهارة قلوبهم فإنّ هناك خزياً يُلاحقهم ويحيط بهم من جميع الجهات، قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾. فخزي اليهود: فضيحتهم بظهور كذبهم في كتمان نصّ الله تعالى، في إيجاب الرجم، وأخذ الجزية منهم.

وخزي المنافقين: هَتْك أستارهم بإطْلاع الرّسول ﷺ على كذبهم، وخوفهم من القتل[(٢)].

خامساً: الصَّدُّ عن سبيل الله:

إنّ الصّد الأكبر عن سبيل الله هو أحد الآثار القبيحة للحكم بغير ما أنزل الله، فالمُعرض عن كتاب الله ﷻ لا يكفيه إعراضُه عن حُكم الله، ولا يُرضيه تجنيبُه لشرع الله في حياته، بل يتعدّى ذلك إلى أن يكون داعيةً إلى غير شرع الله، منادياً بقوانين وضعيّة مُدافعاً عنها، مُستميتاً في التّعليل لها، ليس هذا فحسب، بل يُنكر على مَنْ يُطالب بتحكيم شرع الله، ويقف في وجههم بكلّ ما لديه من قوّة، مُستخدماً الإعلامَ في التّشهير بهم وإلصاق التُّهم الكاذبة: من الإرهاب والأصولية، وغيرها من المصطلحات، بل والتّعدّي عليهم ـ أحياناً ـ بوحشيّة وقسوة، والزّجُ بهم في غياهب السُّجون، وبهذا يكون صادّاً عن سبيل الله.

وهناك ارتباط وثيق بين الانحراف عن شرع الله تعالى، والصّدّ عن سبيله، فعلاقتهما ببعضٍ علاقة السّبب بالمسبَّب، ففي الأجواء البعيدة عن حُكم الله ورسوله، تتهيّأ الفرصة لأكبر صدٍّ عن سبيل الله.

قال الله ﷻ ـ عن مشركي العرب الذين اعتاضوا عن اتّباع شرع الله، بما التهوا به من أمور الدُّنيا الخسيسة، صادّين النّاس عن الإسلام: ﴿ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩][(٣)].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٨٥).

(٢) انظر: المصدر السابق (١١/ ١٨٥)؛ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧١٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٩).

وهناك صنفان متقابلان من أهل الكتاب، تحدَّث القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦٢].

ففريق توعَّدهم الله تعالى بالعذاب الأليم؛ لتعاطيهم الرّشوة على الحكم، فصدوا النّاس عن الدّين، إضافةً إلى أكلهم الرّبا، وأموال النّاس بالباطل.

وفي مقابلهم فريق استحقُّوا الأجر العظيم؛ لإيمانهم بالشّريعة المنزَّلة، ثمَّ إيمانهم بالشُّريعة الحقّة النّاسخة، فكانوا مثلاً يُقتدى بهم[1].

ولهذا الارتباط الوثيق بين الانحراف عن شرع الله، والصّدّ عن دينه، استحقّ الصّادون عن سبيله اللّعنة والطّرد من رحمته. قال تعالى: ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٥].

إنَّ الحاكمين والمتحاكمين إلى غير ما أنزل الله تعالى، هم على رأس هؤلاء الظّالمين، فكم أخرجوا أناساً من الدّين، وكم أضاعوا الآخرة على كثير من العالمين، فهم مستحقّون لهذه اللّعنة؛ لأنّهم مسؤلون عن جانبٍ كبير من الضّياع والتّيه الذي تعانيه البشريّة كلّها[2].

سادساً: غياب الأمن وانتشار الفوضى:

لو تأمّلنا وصف القرآن العظيم للإنسان بمعزِلٍ عن الإيمان، لوجدناه عَجَباً: فهو ضعيفٌ أمام المُغريات، ونَسِيٌّ للإحسان، وظلوم في الحقوق، وكفّار للنّعم، ومجادل بالحقّ أو الباطل، وعجول متسرّع، وناكر للفَضْل، وبخيل بما عنده، وشديد في الخصومة، وشرِهٌ في جلب الخير لنفسه، وقنوط إذا عجز عن جلب هذا الخير. وهَلِعٌ جَزِعٌ إذا أُصيب بضُرٌ، أو ألَمَّ به شرٌّ، وهو ضانٌّ بالخير إذا

(١) انظر: المصدر نفسه (١/ ٥٨٥).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧٢٠).

تحصَل عليه، والطُغيان هو الصِّفة السَّائدة في الإنسان، في معزلٍ عن شرع الرَّحمن: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

ولا يمكن أن تواجه طباع هذا المخلوق إلّا بشريعةٍ من عند خالقه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. وكيف نتخيَّل مجتمعاً يُترك فيه الإنسان كالوحش الضَّاري، أو السَّبُع الكاسر، دونما شريعةٍ تطهِّر قلبه وجوارحه، فيقترب من صفات الملائكة، بعد أن كان ـ قبل أن يُطهَّر بها ـ أدنى إلى صفات الشَّياطين.

إنَّ تحقيق الأمن في المجتمعات مرتبط بتطبيق شرع الله، فقد خصَّ الله ﷻ منْ طبَّق شرعه، وحقَّق شريعته بالأمن، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والمتأمِّل في حال المجتمعات الغير محكومة بحكَمة الشَّريعة وضبطها للأمور يرى: كثرة القتل، والاغتصاب، واستباحة الأموال بكلِّ الطُّرق والأشكال، وانتشار الفواحش والزِّنا، والفجور والخَنا، والإدمان، واللُّصوصيَّة، والجاسوسيَّة، والتَّشاجر، والتَّنافس، والتَّحاسد، والشُّح، والبخل، والجهل، والظُّلم، وهذا كلُّه من مظاهر غياب الأمن المرتبط بتحكيم شرع الله.

وهذا ما يريد الرَّاغبون عن حُكم الله إشاعته في الذين آمنوا، بتعطيلهم حُكْمَ الشَّريعة الإلهيَّة التي تضبط ـ وحدها ـ النَّفس البشريَّة العاتية.

والمشرِّعون والحاكمون بأحكام الشَّرائع الوضعيَّة هم قَطْعاً ممَّنْ يحبُّون أنْ تشيع هذه الفواحش والمنكرات في الذين آمنوا، وقد توعَّدهم الله تعالى بالعذاب الأليم في الدُّنيا والآخرة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فهؤلاء يحاربون الله ورسوله على علم؛ لأنَّ قوانينهم تجعل من الظُّلم شريعة، فهي تحمي الزُّناة، والبغاة، والقتلة، والسُّرَّاق، ويضرب الشَّيخ صلاح أبو إسماعيل[1] رَحِمَهُ الله مثلاً لنوعٍ من الظُّلم المُقنَّن، الذي أحدثه الظَّالمون في حياة

---

(١) هو صلاح أبو إسماعيل، أحد علماء الأزهر، ولد سنة (١٣٤٦هـ) انتُخب نائباً في مجلس ـ

المسلمين قَسْراً وقَهراً، فيقول: «ما رأي القانون الوضعي في رجل دخل بيته، ففوجئ برجلٍ يزني بامرأته، على فراش الزّوجية داخل بيته، فغلى دَمُ الزّوج في عروقه، وأراد قتل الزّاني، فكانت يد الزّاني أسرع فقتل الزّوج...

أتعرف ـ أيُّها القارئ الكريم ـ ما حُكْم القانون الوضعي في هذا؟!... إنّ هذا الزّاني يخرج بريئاً من جريمتي الزّنا والقتل كليهما!

أمّا خروجه من جريمة الزّنا؛ فلأنّ الزّوج وحده هو الذي يملك أنْ يرفع دعوى الزّنا ضدّ زوجته، وقد قُتل! وليس ذلك الحقُّ لأبيها، أو لأخيها، أو لولدها، أو لأحدٍ غير الزّوج القتيل. وأمّا خروجه من جريمة القتل؛ فلأنّه كان في حالة دفاعٍ عن النّفس! ولذلك لا يُقتل، ولا يُرجم، ولا يُجلد!

فهل رأيتَ ـ أيُّها القارئ الكريم ـ ديناً يُقرُّ هذا البلاء؟!... إنّ القوانين في مصر تُقرُّ هذا البلاء»[1].

فوضى الاعتداء على الأموال:

وإذا تُركت التّدابير الشرعيّة لحماية ممتلكات النّاس، فإنّ الإجراءات الوضعية لا تُفلح في توفير الحماية لها، بل إنّها تفتح أبواب السَّلْب والنَّهب، أمام مرضى التّكسُّب بالحرام، فتنفتح شهية السُّرّاق، وتنمو خبرات المختلسين، وتنتعش رغبات المحتكرين، وتحاول القوانين الوضعيّة ـ يائسة ـ أن تقضي على الجريمة، فلا تزيدها إلّا شيوعاً بإجراءاتها الخرقاء، فالسُّجون ـ المكتظّة بالمجرمين ـ تصير أكبر المعاهد التّعليمية لفنون النّصب، وألوان الإجرام.

يقول الشّيخ أحمد شاكر[2] رَحِمَهُ اللهُ ـ بعد أن بيَّن كيف تعاونَ المنافقون

= الشّعب المصري، فرفع شعار: «أعطني صوتك؛ لنصلح الدّنيا بالدّين». وكان ينادي بتطبيق الشّريعة الإسلاميّة، وضرب المثل في إنفاق المال لخدمة العلم والدّين، اشتُهر بالخطابة والمحاضرات والنّدوات، وقاوم العلمانيين والشّيوعيين. ومن مؤلفاته: «اليهود في القرآن». توفّي في أبو ظبي سنة (١٤١٠هـ). انظر: إتمام الأعلام (ص٢٠١).

(١) نقلاً عن: أحكام إسلامية.. إدانة القوانين الوضعية، للمستشار محمد عبد الحميد غراب (ص١٧).

(٢) هو المحدّث أبو الأشبال، أحمد بن محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر من آل أبي علياء، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ولد بالقاهرة سنة (١٣٠٩هـ). =

والمستعمرون، في إدخال القوانين الوضعيَّة، إلى ديار المسلمين، فأشاعوا فيها الفتن: «... فكان عن هذا أن امتلأت السُّجون في بلادنا وحدها بمئات الألوف من اللُّصوص؛ بما وضعوا في القوانين من عقوبات للسَّرقة ليست برادعة، ولن تكون أبداً رادعة، ولن تكون أبداً علاجاً لهذا الدّاء المُسْتشري...

وإنّهم جاؤوا في التّطبيق يلتمسون الأعذار من (علم النَّفْس) لكلِّ لصٍّ بِحَسَبِه، ثمَّ زاد الأمر شرّاً أنْ يكتب اللُّصوص أنفُسهم كلاماً، يلتمسون به الأعذار لجرمهم، وقام المدافعون (المحامون) عنهم المقامات التي توردهم النَّار، يعلمون أنَّ الجريمة ثابتة فلا يحاولون إنكارها، بل يحاولون التّهوين من شأنها، بدراسة (نَفْسِيَّة المجرم وظروفِه)..!!»[1].

فوضى الاعتداء على الأعراض:

وأمَّا الفوضى في الأعراض والأنساب، تحت المظلّة الوضعيَّة المُضلَّة، فحدِّثْ ولا حرج، فإنَّ التّدابير الشّرعية الصّارمة التي من شأنها أنْ تُحافظ على عفَّة المجتمع وطهارته من سُعار الشّهوات، وتحاول أن تُطفئ أوارها، هذه التّدابير يلغيها القانون الجائر الموضوع بجرَّة قلم، فمَنْ للعفَّة يحميها في ديار المسلمين، ومَنْ للطَّهارة يحرسها، ومنْ للجريمة يُحاصرها، إذا حُرمت هذه الدِّيار من حُكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وإذا قيل لهم: لماذا تُصرُّون على هذا البلاء، ولم تتشبَّثون بهذه الشّرائع المُفسدة؟ قالوا: نريد أن نتحرّر كما تحرَّر الغرب، ونتقدَّم كما تقدَّم الغرب، ونُقدِّم الرفاه والسعادة لشعوبنا كما قدَّم الغرب! وهي كمقالة أسلافهم الضّالين الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ

= كان والده (محمد شاكر) أعظم شيوخه أثراً في حياته. فقد وجّههُ إلى دراسة علم الحديث، تولّى القضاء في مصر أكثر من ثلاثين سنة، وكان مجتهداً ولم يكن مقلّداً. توفّي سنة (١٣٧٧هـ).

من مصنّفاته: «نظام الطّلاق في الإسلام»، و«عمدة التّفسير» لم يكمله.

انظر ترجمته بتوسّع في مقدّمة كتابه: كلمة الحق. بقلم أخيه (محمود بن محمد شاكر).

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق: أحمد محمد شاكر (١٤٧/٤).

﴿الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦١ ـ ٦٢].

والعجيب: أنَّ هؤلاء المعاندين، يعلمون ـ قبل غيرهم ـ ما الذي جَنتْه حضارة الغرب، القائمة على الاعتداء على سلطة الله وحُكمه، ويُدركون إلى أيّ دَرَكٍ سفُلت، وإلى أيّ حالةٍ وصلت![1].

سابعاً: انتشار العداوة والبغضاء:

يعيش النَّاس في ظلّ دين الله في نعمةٍ من الإخاء والألفة، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولقد وعَظَنا الله تعالى من التَّشبه بحال أهل الكتاب، لمَّا استكبروا عن الإذعان التَّام لشرائع الله، فكانت عاقبتهم أن وقعت العداوة والبغضاء فيما بينهم.

فاليهود لـمَّا خالفوا رسول الله ﷺ، وكذَّبوه، ولم ينقادوا لشريعته؛ أخبر الله ﷻ أنَّ قلوبهم لا تجتمع، بل العداوة واقعة بينهم دائماً؛ لأنهم خالفوا شريعة الحقّ، فقال سبحانه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤][2].

والنَّصارى بتركهم بعض ما ذُكِّروا به من شريعتهم، ثُمَّ بتكبُّرهم عن اتّباع النَّبيّ ﷺ، كانت عاقبتهم كعاقبة إخوانهم اليهود، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤][3].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أي: هيَّجنا. وقيل: ألصقْنا بهم؛ مأخوذ من الغِراء. يُقال: غَرِيَ بالشَّيء إذا أُلصق به كالغِراء[4].

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧٢٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٥).

(٣) انظر: المصدر نفسه (٣/ ٨٢).

(٤) انظر: لسان العرب (١٠/ ٦٣)، مادة: (غرا).

فالعداوة والبغضاء أُلصقت بهم، فيما بينهم وبين بعضٍ، أو فيما بينهم وبين اليهود[(١)].

والظَّاهر: أنَّها واقعة بين طوائف النَّصارى، وهي تستتبع الوقوع بينهم وبين طوائف اليهود عن طريق الأولى.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: «أي: فألقينا بينهم العداوة والتَّباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام السَّاعة. وكذلك طوائف النَّصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يُكَفِّر بعضُهم بعضاً، ويَلْعن بعضُهم بعضاً، فكلُّ فرقةٍ تُحرِّم الأُخرى، ولا تدعها تلِجُ مَعْبَدها، فالملكيَّة[(٢)] تُكفِّر اليعقوبية[(٣)]، وكذلك الآخرون، وكذلك النَّسطوريَّة[(٤)] والآريوسيَّة[(٥)]، كلُّ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ١١٧).

(٢) الملكيَّة: هم أصحاب «ملكا» الذي ظهر في بلاد الرُّوم. وقيل: نسبةً إلى «ملك الرُّوم». وهم يقولون: إنّ الكلمة اتّحدت بجسد المسيح، وتدرَّعت بناسوته. ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة. وصرّحوا بإثبات التّثليث، وقد أخبر عنهم القرآن: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].
انظر: الفصل في الملل والأهواء والنّحل، لابن حزم (١/ ٥٣)؛ الملل والنّحل، للشهرستاني (٢/ ٦٢).

(٣) اليعقوبيَّة: يُنسبون إلى «يعقوب البراذعي» وكان راهباً في القسطنطينيّة، ويقولون: إنّ المسيح هو الله تعالى نفسه. وإنّ الله ـ تعالى عن عظيم كُفرِهم ـ قُتل وصُلِب، وإنّ العالم بقي ثلاثة أيام بلا مُدبِّرٍ، والفَلَك بلا مُدبِّرٍ، ثمّ قام ورجع كما كان، وأنّه ـ تعالى ـ كان في بطن مريم محمولاً به.
انظر: الفصل في الملل والأهواء والنّحل (١/ ٤٩)؛ الملل والنّحل (٢/ ٦٦).

(٤) النّسطوريَّة: هم أتباع «نسطور الحكيم» الذي ظهر في زمن المأمون، وتصرَّف في الأناجيل بحُكْم رأيه، فقال: إنّ الله تعالى واحدٌ، ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذّات، ولا هي هو، واتّحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام، كظهور النّقش في الخاتم. كما قالوا: إنّ مريم لم تلد الإله، وإنّما ولدت الإنسان، وإنّ الله تعالى لم يلد الإنسان، وإنّما ولد الإله ـ تعالى الله عن كفرهم ـ كما يقولون: إنّ اتّحاد الله بعيسى لم يكن باقياً حال صَلْبه.
انظر: الفصل في الملل والأهواء والنّحل (١/ ٤٩)؛ الملل والنّحل (٢/ ٦٤).

(٥) الآريوسيَّة: هم أصحاب «آريوس» وكان قَسّيساً بالإسكندرية. ومن قوله: التّوحيد المُجرّد، وأنّ عيسى عليه السلام عبدٌ مخلوق، وأنّه كلمة الله تعالى التي بها خلقَ السّماوات والأرض. انظر: الفصل في الملل والأهواء والنّحل (١/ ٤٧).

طائفةٍ تُكفِّر الأخرى في هذه الدُّنيا، ويوم يقوم الأشهاد»[١].

مسألة: قد يقول قائل:

كيف أُغريت بينهم العداوة والبغضاء، وقد تألَّبوا على المسلمين؟

جوابها: يُجيبنا على ذلك ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: «إنَّ العداوة ثابتةٌ بينهم في الدِّين بانقسامهم فِرَقاً... وذلك الانقسام يَجُرُّ إليهم العداوة، وخَذْلَ بعضِهم بعضاً. ثمّ إنّ دُوَلَهم كانت منقسمةً ومتحاربة، ولم تَزَلْ كذلك، وإنَّما تألَّبوا في الحروب الصَّليبيّة على المسلمين، ثمّ لم يلبثوا أنْ تخاذلوا وتحاربوا، ولا يزال الأمر بينهم كذلك إلى الآن.

وكم ضاعت مساعي السَّاعين في جَمْعِهم على كلمة واحدة، وتأليفِ اتّحادٍ بينهم، وكان اختلافهم لُطْفاً بالمسلمين في مختلَف عصور التَّاريخ الإسلامي، على أنَّ اتِّفاقهم على أُمّة أخرى، لا ينافي تَمَكُّن العداوة فيما بينهم، وكفى بذلك عقاباً لهم على نِسْيانهم ما ذُكِّروا به»[٢].

تحذير الأُمّة الإسلاميّة من العداوة:

والأمّة الإسلاميّة وعَظَها الله تعالى بالعداوة المُلقاة فيما بين طوائف اليهود والنصارى، حتّى لا تقعَ فيما وقعوا فيه، فالرَّعيّة تُلقى بينهم العداوات إذا رغبت عن شرع الله، وفي ذلك يقول ابن تيميّة رَحِمَهُ اللهُ: «فمتى ترك النَّاس بعضَ ما أمرهم الله به، وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرّق القوم فسدوا وهَلَكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا ومَلَكوا»[٣].

وقال رَحِمَهُ اللهُ في موضعٍ آخر: «وإذا خرج ولاة الأمور عن هذا (أي: عن الحكم بين النَّاس بالكتاب والسُّنّة) فقد حَكَمُوا بغير ما أنزل الله، ووقع بأسُهم بينهم...

وهذا من أعظم أسباب تغيير الدُّول، كما قد جرى مِثْلُ هذا مرَّةً بعد مرّةٍ في زماننا، وغيرِ زماننا»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٨٣). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧٣١).
(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٦٦ ـ ٦٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ٤٢١).
(٤) المصدر نفسه (٣٥/ ٣٨٨).

وقد تعوَّذ النَّبيُّ ﷺ من مغبَّة ترك الحكم بغير ما أنزل الله، وعَدَّ ذلك من أعظم أسباب وقوع العداوة والبغضاء بين المسلمين:

عن عبد الله بن عُمرَ ﵄؛ قَالَ: أَقْبلَ علينا رسُولُ الله ﷺ فقال: «يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ! خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

... وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[1].

ثامناً: الحرمان من النَّصر والتَّمكين:

المسلمون إذا تعاطوا أسباب النصر، وكانوا له أهلاً، وتوكَّلوا على الله تعالى وحده، وعملوا بمقتضى سُنَنِه في خلقه، فلا قِبَل لأحدٍ بغلبتهم، في حين أنه تعالى إذا خذلهم ـ بما كسبت أيديهم من العصيان ـ فلا أحَدَ يملك لهم نصراً، ولا يدفع عنهم ضَرّاً، ومصداق ذلك في كتاب الله سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠][2].

وليس شيء أدعى للخذلان، وللحرمان من النَّصرِ والتَّمكين؛ مِثْلَ هجْرِ التَّحاكم إلى شريعة الله تعالى، وعدمِ نصرها في الأرض، ويُعتبر ذلك إخلالاً بشرط النَّصر المنصوص عليه في آيٍ كثيرةٍ من كتاب الله، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

والمعنى: إن تنصروا دين الله وشريعتَه، بالعمل بها، وتعظيمها، يَنْصُرْكم الله ﷻ على أنفسكم، وأعدائكم من شياطين الجنِّ والإنس، فإنَّ الجزاء من جنس العمل[3].

---

(١) رواه ابن ماجه واللَّفظ له (٢/ ١٣٣٢) (ح٤٠١٩)؛ والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٨٣) (ح٨٦٢٣) وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣/ ٣١٦) (ح٣٢٦٢)؛ و«السِّلسلة الصَّحيحة» (١/ ٢١٦) (ح١٠٦).

(٢) انظر: تفسير المنار (٤/ ٣٠٧)؛ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧٣٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٥).

قال الرّازي رَحِمَهُ اللهُ: «بيّن في هذه الآية: أنّ منْ نصره الله فلا غالب له، فيحصل من مجموع هاتين المُقدّمتين، أنّ من اتّقى الله، فقد فاز بسعادة الدُّنيا والآخرة؛ فإنّه يفوز بسعادةٍ لا شقاوة معها، وبعزٍّ لا ذُلّ معه، ويصير غالباً لا يغلبه أحد، وأمّا منْ أتى بالمعصية؛ فإنّ الله يخذله، ومنْ خذله الله، فقد وقع في شقاوةٍ، لا سعادةَ معها، وذُلٌّ لا عِزّ معه»[1].

وقد نصّ القرآن العظيم على كيفيّة نصر الدّين والشّريعة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

والآية الكريمة تدلُّ ـ كما قال الشّنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «على أنّ الذين لا يقيمون الصّلاة، ولا يؤتون الزّكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ليس لهم وعد من الله بالنّصر البتّة...

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم المسلمين، ثمّ يقولون: إنّ الله سينصرنا، مغرورون؛ لأنّهم ليسوا من حزب الله، الموعودين بنصره، كما لا يخفى.

ومعنى نَصْرِ المؤمنين لله: نصْرُهم لدينه ولكتابه، وسعيُهم وجهادُهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأنْ تُقام حدودُه في أرضه، وتُمتثلَ أوامرُه، وتُجتنب نواهيه، ويُحْكَم في عباده بما أنزل على رسوله ﷺ»[2].

الخلاصة:

وممّا سبق نستخلص أنّ الإعراض عن حُكم الله وشرعه يورد المجتمعات موارد التّهلكة؛ ففي الدّاخل: يؤدّي إلى تفشّي الجريمة، وضياع الأخلاق، وانتشار الرّذيلة، ومن ثمّ ضياع الأمن والاستقرار، والذي هو من أعظم النّعم التي يُنعم بها الله ﷻ على من اتّبع رضوانه، وما حال المجتمعات الإسلاميّة المُجنّبة لشرع الله عنّا ببعيد.

وفي مواجهة الأمّة لغيرها من الأمم، وعلى المستوى العالمي: نجد أنّ الأمّة

---

(١) التفسير الكبير (٩/٥٦).

(٢) أضواء البيان (٧/٤٥١ ـ ٤٥٢).

عندما تبتعد عن شرع الله، تضيع هيبتها ومكانتها، ويُستهان بها، ولا يأبه لها ولا لكثرة أعدادها؛ ذلك لأنّ أعداءها قد علموا ما هم عليه من ضعف الصّلة بربّهم ففقدوا عُنصر قوّتهم الأوحد، وركنوا إلى الدُّنيا، وإلى قدراتهم الماديّة، وهم عالةٌ على غيرهم في ذلك، فعلموا قوّتهم الحقيقيّة ومدى ضعفها فهانت في نظرهم.

المطلب الثاني

الآثار الأخروية للحكم بغير ما أنزل الله

عظّم القرآن الحكيم من هول العقاب الذي ينتظر أعداء الله المبدّلين لشرعه، المفترين على دينه ـ تحليلاً وتحريماً ـ بغير سلطان من الله، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۞ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩ ـ ٦٠].

ففي هذه الآيات الكريمات: «أنكر الله تعالى على منْ حرّم ما أحلّ الله، أو أحلّ ما حرّم الله، بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها، ولا دليل عليها. ثمّ توعّدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ما ظنُّهم أن يُصْنَعَ بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة؟»[1].

فهذا استفهامٌ يراد منه تهويل وتفظيع العقاب الأليم، الذي ينتظر المفترين، المتقوّلين على الله، المبدّلين لشرعه، ولذا نُكِّر وأُبهم، فمصيرهم هو أسوأ المصير، وعقابهم هو أوخم العقاب[2].

«وصيغة الغائب تشمل جنس الذين يفترون على الله الكذب، وتنتظمهم جميعاً، فما ظنُّهم يا تُرى؟ ما الذي يتصوّرون أن يكون في شأنهم يوم القيامة؟ وهو سؤال تذوب أمامه حتّى الجبال الصّلدة الجاسية»[3].

وفيما يلي استعراضٌ لبعض الآثار المترتِّبة على الحكم بغير ما أنزل الله في الدّار الآخرة:

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٠).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٤/ ١٥٧).
(٣) في ظلال القرآن (٣/ ١٨٠٢).

أولاً: الإهانة عند قبض الأرواح:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥ ـ ٢٨].

هذه الآيات الكريمات تهدِّد وتتوعَّد نوعاً من المنحرفين عمَّا أنزل الله تعالى، وهم الذين يطيعون أعداء الله ـ كاليهود والنّصارى ـ في بعض ما يأمرون به، والآيات تصفهم بالرِّدّة بسبب ذلك الفعل، وتتوعّدهم بمصيرٍ مظلم، وعذابٍ مؤلم، يبدأ معهم منذ اللّحظات الأولى من مفارقة الدُّنيا[1].

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ «أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتَعَصّت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضّرب»[2].

قال ابن عاشور ﷺ: «والمقصود: وعيدُهم بأنهم سَيُعجَّل لهم العذاب، من أوّل منازل الآخرة، وهو حالة الموت، ولمّا جعل هذا العذاب محقَّقاً وقوعُه، رتب عليه الاستفهامَ عن حالهم استفهاماً مُستعمَلاً في معنى تعجيب المخاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التّعجيب مؤذن بأنّها حالةٌ فظيعة غير معتادة، إذْ لا يُتعجّب إلا من أمرٍ غير معهود، والسِّياق يدلُّ على الفظاعة...

والجَمْع بين الإخبار عنهم باتِّباعهم ما أسخط الله، وكراهتهم رضوانه، مع إمكان الاجتزاء بأحدهما عن الآخر: للإيماء إلى أنّ ضرب الملائكة وجوهَ هؤلاء، مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله، وأنّ ضربهم أدبارهم، مناسب لكراهتهم رضوانه؛ لأنّ الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار. . .

والإحباط: إيطال العمل، أي: أبطل انتفاعهم بأعمالهم التي عملوها مع

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ٦٠)؛ تفسير القاسمي (٦/ ٢٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٣).

المؤمنين، من قول كلمة التَّوحيد، ومن الصَّلاة، والزَّكاة، وغير ذلك»[١].

مشهد آخر من الإهانة:

وقال الله سبحانه ـ في نوع آخر من المنحرفين عن شرعه المنزَّل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

«﴿وَمَنْ﴾ مَوْصولة مراد به الجنس، أي: كلُّ مَنِ افترى أو قال، وليس المراد فرداً معيّناً، فالذين افتروا على الله كذباً، هم المشركون؛ لأنهم حلّلوا وحرّموا بهواهم، وزعموا أنَّ الله أمَرَهم بذلك»[٢].

والآية الكريمة تتناول أصنافاً من المنحرفين عن الشَّريعة المطهَّرة:

فهي تتعرّض للمتنبّئين الذين ادَّعوا أنَّ الله قد أوحى إليهم، أمثال مسيلمة الكذَّاب، والأسود العنسي، وسجاح زوجة مسيلمة[٣].

وتتناول أيضاً كلّ مَنْ كان على شاكلتهم ممّنْ أعرض عن الفقه والسُّنن، وما كان عليه السَّلف من السُّنن، فيقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا، فيحْكُمون بما يقع في قلوبهم، ويغلب عليهم من خواطرهم، وفي هذا يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا القول زَنْدَقَةٌ وكفر، يُقتل قائله، ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، فإنَّه يلزم منه هدُّ الأحكام»[٤].

فالآية تحكي أحوال هؤلاء عند معاينة الموت، والخروج من الدُّنيا:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: شدائده وسكراته، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ بالعذاب ومطارق الحديد؛ لقبض أرواحهم.

﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ «أي: أخرجوا أرواحكم من أجسادكم، أي هاتوا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٩٩ ـ ١٠١). (٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٢١).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٤١).

(٤) المصدر نفسه (٧/ ٤٢). وانظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧٦٢).

أرواحَكم، والأمر للإهانة والإرْهاق؛ إغلاظاً في قبض أرواحهم، ولا يتْرُكون لهم راحة، ولا يُعاملونهم بلين، وفيه إشارة إلى أنَّهم يَجْزعون فلا يلفظون أرواحهم، وهو على هذا الوجه، وعيد بالآلام عند النَّزْع جزاءً في الدُّنيا على شركهم»[١].

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهوَان؛ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تتعظَّمون وتأنفون عن قبول ما أنزله الله في آياته[٢].

ثانياً: الوحشة في الحشر:

في الآية السَّابقة بيَّن النَّظم الحكيم عاقبة الانحراف عن شرع الله تعالى عند معاينة الموت ومغادرة الدُّنيا، والآية التَّالية لها تستأنف بيان حالهم في الحشر: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه عبارة عن الحشر...

والمعنى: جئتمونا واحداً واحداً، كلُّ واحدٍ منكم منفرداً بلا أهلٍ، ولا مالٍ، ولا ولدٍ، ولا ناصرٍ، ممَّنْ كان يصاحبكم في الغيِّ»[٣].

فمن اغترابهم ووحشتهم في الحشر: أنَّهم منعزلون عن كلِّ ما كانوا يعتزُّون به في الحياة الدُّنيا من أموالٍ، وأولادٍ، وجاهٍ، وأنصار.

ثالثاً: الأكل من النَّار وغضب الجبَّار:

قال العليم الخبير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٦].

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٣).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٤٣ ـ ٤٤).

(٣) المصدر نفسه (٧/ ٤٤).

بعد أن تحدّثت الآيات عن بعض أحكام الشّريعة، مثل: تحريم أكل الميتة، والدّم، ولحم الخنزير، وما أُهلّ لغير الله به. توعّدت منْ يكتمون أحكام هذه الشّريعة، مقابل ثمنٍ قليل يأكلونه؛ لأنّ كتمان الشّريعة، يستلزم أنواعاً من الانحراف عنها[١].

فهؤلاء الذين يكتمون الحقّ المنْزّل ـ لقاء ثمنٍ رخيص ـ إنّما يأتون حراماً يعذّبهم الله عليه بنار جهنّم، يأكلونها في بطونهم الجشعة، فهي نارٌ على الحقيقة يأكلونها يوم القيامة، جزاء ما اقترفوا من أكل الرّشوة على الدّين[٢].

وسمّى الله تعالى ما أكلوه في بطونهم ناراً: «لأنّ هذا الثّمن الذي اكتسبوه، إنّما حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرّمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم»[٣].

غضب الجبّار أعظم من النّار:

والذي أعظم عليهم من عذاب النّار: هو غضب الله عليهم، وإعراضه عنهم: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهّرهم من الأخلاق الرذيلة، إذْ ليس لهم أعمالٌ تصلح للمدح والرّضا، والجزاء عليها، بل يعذّبهم عذاباً أليماً؛ لأنّهم نبذوا كتاب الله، وأعرضوا عنه، وعن التّحاكم إليه في الدّنيا، واختاروا الضّلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة.

فما أصبرهم على النّار:

وقد ذكر أهل التّأويل ـ رحمهم الله ـ[٤] عدّة معانٍ في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

١ ـ مذهب جمهور المفسّرين أنّ (ما) للتّعجّب؛ وهو مردود إلى المخلوقين[٥]، كأنّه قال: اعجبوا من صبرهم على النّار، ومُكْثِهم فيها!

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧٦٤).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٢٣٩). (٣) تفسير السعدي (١/ ١٣٤).
(٤) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٩١ ـ ٩٢)؛ زاد المسير (١/ ١٥٣)؛ تفسير القرطبي (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).
(٥) لأنّ التّعجّب: استعظام الشّيء، وخفاء حصول السّبب، وهو مستحيلٌ في حقّ الله تعالى.

٢ ـ ما لهم والله عليها من صبرٍ، ولكن ما أجرأهم على النّار، إذْ يعملون عملاً يؤدّي إليها!

٣ ـ أنّ (ما) استفهامٌ معناه التّوبيخ. والمعنى: أيُ شيءٍ صبّرهم على عمل أهل النّار؟

٤ ـ ما أقلّ جزعهم من النّار؛ فجعل قلّة الجزع صبراً، وهذا على وجه الاستهانة بهم، والاستخفاف بأمرهم.

وهذه الآيات المباركات وإنْ كانت تتوعّد ـ أصلاً ـ علماء اليهود الذين مردوا على كتمان الحقّ المُنزّل ـ إذا خالف أهواءهم، أو أهواء سادتهم ـ إلّا أنّ وعيدها يشمل كلَّ منْ عمل عملهم، وكان على شاكلتهم، كما قرّره القرطبيُّ رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «وهذه الآية وإنْ كانت في الأحبار، فإنّها تتناول من المسلمين منْ كتم الحقّ مختاراً لذلك؛ بسبب دنيا يصيبها»[1].

رابعاً: العذاب المهين:

ذكر العزيزُ الحكيم جوانب من أحكام الشّريعة في صدر سورة النّساء، والمتمثّلة في: بيان أموال اليتامى، وأحكام الأنكحة، وأحوال المواريث والوصايا ثمّ ذكر بعد ذلك: الوعد والوعيد، ترغيباً في الطاعة، وترهيباً من المعصية، فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه أحكام الله قد بينها لكم؛ لتعرفوها، وتعملوا بها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في متابعة حدوده، والعمل بها كما أمره الله تعالى ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، فهذا هو الوعد.

أمّا الوعيد: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]. فكلُّ من اعتدى على حدود الله تعالى مُكذّباً، أو جاحداً، أو مُبدّلاً، أو مُبغضاً، فهو متوعّد بهذا العذاب المهين؛ «لكونه غيّر ما حكم الله به، وضادّ الله في حُكمه، وهذا إنّما يصدر عن عدم

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٣٩).

الرِّضا بما قَسم الله، وحكَمَ به، ولهذا يُجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم»[1].

مسألة: هل يُفهم من الآية الكريمة: أنَّ مُطلق العصيان، موجبٌ للخلود في النّار؟

جوابها: يُجيبنا على ذلك القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث يقول: «والعصيان: إنْ أُريد به الكفر، فالخلود على بابه، وإنْ أُريد به الكبائر، وتجاوز أوامر الله تعالى، فالخلود مستعارٌ لمدّةٍ مَا. كما تقولُ: خلَّد اللهُ مُلْكه.

وقال زهير[2]: ولا خالداً إلّا الجبال الرَّواسيا[3]»[4].

ويُجلِّي السّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ الأمر بياناً بقوله: «ويدخل في اسم المعصية، الكفرُ فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهةٌ للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي. . .

وقد دلَّت النُّصوص المتواترة، على أنّ الموحّدين، الذين معهم طاعة التّوحيد، غيرُ مخلَّدين في النّار. فما معهم من التّوحيد، مانعٌ لهم من الدُّخول فيها»[5].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٩).

(٢) هو زُهَيْر بن أبي سُلْمَى ربيعة بن رياح بن قرّة بن الحارث، المُزني، المُضري، ولد في بلاد «مُزَيْنة» بنواحي المدينة، حكيم الشُّعراء في الجاهليّة. قال ابن الأعرابي: كان لزُهير في الشِّعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سُلْمى شاعرة، وابناء كعب وبُجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة. وكانت قصائده تُسمّى «الحوليّات»؛ لأنّه كان ينظم القصيدة في شهر، ويُنقّحها ويُهذّبها في سنة. توفّي سنة (١٣ قبل الهجرة).
انظر: كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى القسطنطيني (١/ ٧٦٤)؛ مقدّمة ديوان زهير بن أبي سُلمى، لأكرم البستاني».

(٣) صَدْرُ هذا البيت:
ألا لا أرى على الحوادث باقياً ....

(٤) تفسير القرطبي (٥/ ٨٦).

(٥) تفسير السعدي (١/ ٣٢٨).

الخاتمة

وبعد:

فهذا ما وفّقني الله إليه، ويسّره لي في هذا البحث: «هجر القرآن العظيم» ويمكن استخلاص أبرز نقاطه وأهمّ نتائجه فيما يأتي:

أولاً: في مباحث «الباب الأول»:

١ - إنّ «هجر القرآن» يعني الأمور الآتية:

أ - تركَ الإيمانِ به، وعدم الالتفاتِ إليه كليّة.

ب - القولَ السّيّئ في القرآن، والزّعمَ الباطلَ بأنّه سِحْرٌ أو شِعْرٌ أو أساطيرُ الأولين، وهذا القولُ القبيح في حقّ القرآن من الاستهزاء به.

ج - الإعراضَ والبُعْدَ عن القرآن، وعدمَ سماعِه، ورَفْعَ الأصواتِ بالهَذَيان إذا قُرِئَ لئلا يُسْمَعَ.

د - تركَ العمل به وعدمَ امتثالِ أوامرِه، وعدَمَ اجتنابِ زواجِره.

هـ - ترك تحكيمِه والاحتكام إليه.

و - ترك تدبُّرِه وتفهُّمِه.

ز - ترك تلاوتِه وحفظِه أو نسيانَه بعد حفظِه.

ح - تركَ الاستشفاءِ والتّداوي به.

ط - الحَرجَ الذي في الصُّدور منه.

٢ - حُكْمُ هجرِ القرآن العظيم:

يختلف حُكْمُ هجرِ القرآن الكريم باختلاف نوعِ الهجْر، وحالِ الهاجر:

أ - فإنْ كان هَجْرُ القرآن بترك الإيمان به، أو الإعراض عنه، وعدم التحاكم إليه بالكليّة، أو اللّغو فيه، فهذا كفر صُراح.

ب ـ وإنْ كان الهجر متعلّقاً بعدم العمل به ـ مع الإيمان به، والإقرار بأنّه كلام الله تعالى يجب اتّباعه ـ فذلك معصية يتوقّف كونها كبيرةً أو صغيرةً على نوع المخالفة ذاتها.

ج ـ وإنْ كان الهجر بمعنى ترك التّلاوة، أو ترك التّدبُّر، أو ترك الحفظ، أو ترك الاستشفاء به ـ مع القدرة على ذلك ـ ولم يفعل، فهو مُؤاخذٌ على فعله بِحسْب نوع تقصيره في ذلك.

ثانياً: في مباحث «الباب الثّاني»:

من نتائج «الفصل الأول»:

١ ـ من «مظاهر التّكذيب بالقرآن»:

الكفر به، والاستكبار عنه، والشّك فيه، والتّكذيب به، والجحود به، والاستهزاء به وبتعاليمه، وتبديله وتحريفه، والإعراض عنه ونبذه، وترك الاحتكام إليه، وكتمانه، والاختلاف فيه، والجدال فيه، والصدُّ عنه، والنّهي عنه، والغفلة عنه، وترك العمل به، وادّعاء نسخه، وادعّاء نقصه، ومضاهاته ومعارضته.

٢ ـ أجمع علماء المسلمين على كُفْر مَنْ أنكر القرآن العظيم، أو كذّب به، أو جحد منه حرفاً، أو زاد فيه حرفاً، أو بدّل حرفاً منه بحرفٍ آخر مكانه.

٣ ـ أهل الكتاب ـ في مشارق الأرض ومغاربها ـ مطالبون بالإيمان بمحمد ﷺ وبكتابه العظيم الذي هو حُجّة عليهم، كما هو حُجّة على غيرهم، وأنّ منْ لم يؤمن بذلك إيمان إذعانٍ وانقيادٍ فهو كافر ومخلّد في النّار.

من نتائج «الفصل الثاني»:

١ ـ من «أساليب الكفّار في استهزائهم بالقرآن» ما يأتي:

أ ـ الاستهزاء والضّحك حال سماع القرآن.

ب ـ التعَجُب من عدم نزول الوحي عليهم.

ج ـ ادّعاؤهم بأنّ القرآن إفكٌ مفترى، وأساطير الأوّلين.

د ـ استخدام أعضاء الجسم بقصد الاستهزاء.

هـ ـ التندُّر بالله وآياته.

٢ ـ الاستهانة ـ عياذاً بالله ـ بالمصحف، أو بشيء منه، ولها صور متعدِّدة: كاتِّخاذِ الفأل منه، أو الاتِّكاء والتوسُّد عليه، أو إتلافه وتمزيقِه، أو الكتابةِ عليه، أو إدخالِه في أماكن التَّخلِّي، أو الوصية بدفنه مع الميِّت في قبره، أو إلقائه في القاذورات، أو بَلِّه بالرِّيق، أو بلعِ شيءٍ منه، أو تخطِّيه، أو تركِه على الأرض، أو اتِّخاذه وتعليقه للبركة من غير قراءة فيه، أو تلويثِه، أو جَحْد شيء منه، أو وطئه بالرِّجل أو مدِّها إليه، أو الجلوس عليه، أو وضعِ شيء فوقه، أو سبِّه، أو الاستخفافِ به، إلى غير ذلك من الصُّور الكثيرة.

٣ ـ المسلمون كلُّهم مُجْمِعون على وجوب احترام كلام الله تعالى، وتعظيمه، وصيانته من العيوب والنَّقائص، فالاستهزاء بكلام الله تعالى، أو كتابه، أو محاولة إسقاط حرمته ومهابته، كفر صريح لا يُنازِعُ فيه أحدٌ، ولو كانت آية واحدة.

من نتائج «الفصل الثالث»:

١ ـ من «مظاهر سماع القرآن لدى الكفَّار» ما يأتي:

أ ـ الإعراض عن سماع القرآن.

ب ـ الاستكبار عن سماع القرآن.

ج ـ التَّواصي بعدم سماع القرآن.

د ـ البطش بمنْ يقرأ القرآن.

هـ ـ التعامي والتصام عن القرآن.

و ـ الاستهزاء حال سماع القرآن.

ز ـ الضَّجر والتَّأفُّف.

ح ـ بُغض سماع القرآن وكراهية قارئه.

ط ـ التَّهاون والتَّغافل عن سماع الوحي.

٢ ـ من «مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين» ما يأتي:

أ ـ التَّشاغل بالغناء عن استماع القرآن.

ب ـ سماع الطَّرب.

جـ - التَّشاغل عن استماع القرآن.

٣ - من «آداب استماع القرآن» ما يأتي:

أ - تعظيم المتكلِّم.

ب - استشعار عظمةِ الكلام وعلوِّه.

ج - حضور القلب عند السّماع.

د - تدبُّر المسموع.

هـ - تفهُّم الآيات المسموعة.

و - التّخلِّي عن موانع الفهم.

ز - أنْ يُقدِّر - في نفسه - أنّه المقصود بكلِّ آية يسمعها.

ح - التّأثُّر بالآيات المسموعة.

ط - التّرقِّي في استماع القرآن.

ي - التبرُّؤ من الحوْل والقوّة حال السّماع.

٤ - من «فضائل استماع القرآن» ما يأتي:

أ - استماع القرآن سبب لرحمة الله تعالى.

ب - استماع القرآن سبب لهداية الثَّقلين.

ج - استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين.

٥ - الإعراض عن استماع القرآن بالكلِّيّة ينافي الإيمان ويضادُّه، بل هو حقيقة النّفاق الأكبر الذي حكاه الله تعالى عن المنافقين.

٦ - قد يُعْرِضُ المسلم - أحياناً - عن استماع القرآن العظيم، أو عن تلاوته - مع إقراره بأنّه كلام الله تعالى يجب اتّباعه - ويكون سبب الإعراض هو التّكاسل، أو ضعف الإيمان، أو الاشتغال عنه بمالٍ أو بنين أو لعبٍ ولهْوٍ كمتابعة البثِّ الفضائي ونحوه.

فمن المُتّفق عليه - فيما سبق - أنّها معصية لله، مؤاخذ بسببها؛ لأنّه قصّر وأعرض باختياره، ويتوقّف كون هذه المعصية كبيرةً أو صغيرةً على نوع المخالفة ذاتها.

من نتائج «الفصل الرابع»:

١ ـ من «آداب معلِّم القرآن» ما يأتي:

أ ـ الاستقامة على دين الله تعالى.

ب ـ حُسْنُ الخُلُق مع المتعلِّمين.

ج ـ بذل النّصيحة للمتعلِّمين.

د ـ التّدرُّج في التّعليم والتّربية.

هـ ـ الرّفق بالمتعلِّمين.

و ـ الصبر على المتعلِّم.

٢ ـ من «آداب متعلِّم القرآن» ما يأتي:

أ ـ تطهير القلب.

ب ـ الزُّهد في الدُّنيا.

ج ـ التّواضع للمعلِّم.

د ـ الدُّعاء للمعلِّم والاعتراف بفضله.

هـ ـ اختيار المعلِّم الأصلح والأعلم.

و ـ التّبكير إلى مجلس الدَّرس.

ز ـ التحلِّي بالأدب في مجلس التعليم.

٣ ـ من «فضائل تعلُّم القرآن وتعليمه» ما يأتي:

أ ـ مُعلِّمُ القرآن ومتعلِّمُه متشبّهٌ بالملائكة والرُّسل.

ب ـ خيرُ النّاسِ وأفضلُهم منْ تعلَّم القرآن وعلَّمه.

ج ـ تعلُّمُ القرآن وتعليمُه خيرٌ من كنوز الدُّنيا.

د ـ تعليمُ القرآن من النّفع المتعدّي، فمنْ علّم آيةً كان له ثوابُها ما تُليت.

٤ ـ من «أحكام تعلُّم القرآن وتعليمه» ما يأتي:

أ ـ تعلُّم القرآن وتعليمُه فرض كفايةٍ على المسلمين، إلَّا ما تصحُّ به الصّلاة من القرآن ـ وهو الفاتحة ـ بالإجماع.

ب ـ الراجح في حُكم تعليم القرآن لغير المسلم: الجواز إذا رُجِي إسلامه، وعدمُ جواز تعليمه إذا لم يُرْجَ إسلامه.

جـ ـ الرَّاجح في حُكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن: الجواز عند الحاجة، وعدمُ جواز الأخذ عند عدمها؛ لما في ذلك من الجمع بين الأدلَّة وإعمالها جميعاً.

٥ ـ من «همَّة السَّلف في تعليم القرآن» ما يأتي:

أ ـ تَرْكُ الأوطانِ لأجلِ تعليم القرآن.

ب ـ تأسيس مدارس وحِلق تحفيظ القرآن.

جـ ـ احتساب أجر التَّعليم عند الله تعالى.

٦ ـ من «همة السَّلف في تعلُّم القرآن» ما يأتي:

أ ـ الرِّحلة من أجْلِ تعلُّم القرآن.

ب ـ ملازمة الشُّيوخ وعرض القراءة عليهم.

ج ـ تحمُّل الشَّدائد والصِّعاب بُغية تعلُّم القرآن.

د ـ ترك الوطن والمال من أجْلِ تعلُّم القرآن.

من نتائج «الفصل الخامس»:

١ ـ من «الأمور المبتدعة في التِّلاوة» ما يأتي:

التَّنطُّع والوسوسة في مخارج الحروف، والخروج بالقراءة عن لحن العرب إلى لحون العَجَم، والقراءة بألحان أهل الفسق والفجور، وقراءة الأنغام والتَّمطيط، والتَّحزين والتَّطريب، والتَّحريف، والتَّرعيد، وهَذُّه كهذِّ الشِّعر، والقراءة في مجلس شُرْب الدُّخان، والقراءة والإقراء بشواذِّ القراءات، وجَمْع القراءات في مجلسٍ واحد، والتزام قول «صدق الله العظيم» بعد التِّلاوة، وقراءة القرآن عند القبر.

٢ ـ من «أسباب هجر التِّلاوة» ما يأتي:

الانشغال بالدُّنيا، وضعف الهمَّة، والجهل بثمرات قراءة القرآن، وتقديم العلوم الأُخرى على قراءة القرآن، والحرب المُعلنة على القرآن واللُّغة.

٣ ـ من «آداب وأحكام تلاوة القرآن» ما يأتي:

إخلاص النيّة لله تعالى، والعمل بالقرآن، وإجلاله وتعظيمه، وتلاوته على طهارة، واختيار الوقت والمكان المناسبين، وحُسْنُ الجِلْسة واستقبال القبلة، وتنظيف الفم بالسّواك، والاستعاذة والبسملة عند افتتاح التّلاوة، وحضْرُ الفكر أثناءها، واستحباب التّرتيل وكراهية السُرعة المُفرطة، واستحباب تحسين الصّوت بالقرآن، والنّهي عن القراءة بالألحان المُطرّبة، ووجوب التّدبُّر، واستحباب البكاء أثناء التّلاوة، واستحباب الجهر بالقرآن إذا لم تترتّب عليه مفسدة، واستحباب اتّصال التّلاوة وعدم قطعها، وإحسانُ الابتداء والوقف أثناء التّلاوة، والوقوف عند رؤوس الآيات من السُّنّة، وكذلك الإمساك عن القراءة عند غلبة النُّعاس، والسُّجود عند المرور بآية سجدة، والنّهي عن الختْم في أقلّ من ثلاثٍ، والتّحزيب بالسُّور لا بالأجزاء، وموضع دعاء الختْم خارج الصّلاة لا داخلها.

٤ ـ من «فضائل تلاوة القرآن» ما يأتي:

أ ـ التّلاوة تجارة رابحة عند أكرم الأكرمين.

ب ـ تنزُّل السّكينة والرّحمة والملائكة للتّلاوة.

ج ـ التّلاوةُ كلُّها خير: فلا ينبغي للمسلم أن ينصرف عنها، سواءٌ كان من المهرة المُتْقنين، أم كان من المُتعْتِعين، فيتّخذ ضعْفهُ حُجّةً في الإعراض عنها.

د ـ المؤمن الذي يقرأ القرآن طيّبُ الظّاهر والباطن، والمؤمن الذي لا يقرؤه يفقد صفةً هامّةً وهي طيبُ الظّاهر، وهذا نقصٌ في شخصيّته لا بدّ من تداركه بالإقبال على التّلاوة.

من نتائج «الفصل السادس»:

١ ـ هَجْر حفظِ القرآن نوعان:

النّوع الأوّل: هجره ابتداءً: بعدم حفظه، وبالزُّهد في تعلُّمه.

النّوع الثّاني: هجره بعد حفظه: وذلك بالانشغال عنه، وعدم تعاهده فيؤدّي إلى تفلُّته.

٢ ـ آداب حفظ القرآن نوعان:

النّوع الأوّل: آداب «أثناء الحفظ» وتتمثّل فيما يلي:

أ ـ الإخلاص لله تعالى.
ب ـ استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته.
ج ـ معرفة أنَّ الأصل في تلقِّي القرآن حِفْظه.
د ـ الرَّغبة القويَّة الصَّادقة.
هـ ـ التَّقلُّل من الدُّنيا.
و ـ الدُّعاء والالتجاء إلى الله.
النَّوع الثَّاني: آداب «بعد الحفظ» وتتمثَّل فيما يلي:
أ ـ الخوف من الوقوع في الرِّياء.
ب ـ الخشية من العُجْب بالنَّفْس والتَّعالي على الخَلْق.
ج ـ الحذر من الذُّنوب والمعاصي.
د ـ تعاهد القرآن والحذر من نسيانه.
٣ ـ من «فضائل حفظ القرآن» ما يأتي:
أ ـ عُلُوُّ درجة الحافظ في الآخرة:
* منزلته عند آخر آية يقرؤها.
* يُلْبس تاج الكرامة، وحُلة الكرامة، ويفوز بالرِّضى.
* الحافظ مع السفرة الكرام البررة.
ب ـ الحافظ مُقدَّم في الدُّنيا والآخرة: فهو أولى النَّاس بالإمارة، وبالإمامة في الصَّلاة، وفي الشُّورى، وفي البَرْزَخ.
ج ـ حَمَلَة القرآن هُمْ أهل الله وخاصته، وتكريمُهم من إجلال الله تعالى، ولا تحرقهم النَّارُ يوم القيامة.
٤ ـ من «أحكام حفظ القرآن ونسيانه» ما يأتي:
أ ـ حِفْظ القرآن كاملاً فرض كفايةٍ على الأُمَّة بالإجماع.
ب ـ يجب على كلِّ مسلمٍ حِفْظُ ما تصحُّ به صلاته من القرآن بالإجماع.
وأمَّا بقيَّة القرآن فَحِفْظُه مستحبٌّ إجماعاً. وهو متأكِّدٌ في حقِّ طلَّاب العلم

الشّرعي أكثر من غيرهم. ويُستحبُّ تحفيظ القرآن للصّبيان؛ لأنّه منهج السّلف الصّالح مع أبنائهم.

ج ـ نسيان القرآن نوعان:

النّوع الأوّل: الذي ينشأ لاشتغاله بأمرٍ دنيوي، وهذا هو المذموم الذي ورد فيه الوعيد.

النّوع الثّاني: الذي لا ينشأ عن تقصيرٍ وإهمال، وإنّما هو ناتج عن ضعف الذّاكرة، أو تقدُّم السّنّ، أو الانشغال بأمورٍ لا طاقة له في دفعها.

د ـ نسيان القرآن أو شيء منه ـ بعد حِفْظه ـ ذنب عظيم، وصرّح بعض أهل العلم أنّه من الكبائر.

هـ ـ إذا انشغل العبد بالعلم الواجب أو المندوب، وترتّب على ذلك نسيان شيء من القرآن المحفوظ، فلا يُعَدُّ صاحبُه آثماً.

من نتائج «الفصل السّابع»:

١ ـ من «أهميَّة تدبُّر القرآن» ما يأتي:

أ ـ أنّ قراءة القرآن بالتّفكُّر والتّدبُّر هي أصل صلاح القلب واستقامته.

ب ـ ليس أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبُّر القرآن، وإطالة التّأمُّل في معاني آياته.

ج ـ أثنى الله تعالى ـ في مواضع كثيرة ـ على مَنْ تدبّر كلامه وتأثّر به، وذمّ مَنْ هجر التّدبُّر، ولم يفقه الآيات، ولم يدّبّر القول في صيغٍ مختلفة، وأحوال متنوّعة.

د ـ إطباق جمهور المفسّرين على وجوب تدبُّر القرآن العظيم.

٢ ـ من «أسباب هجر التّدبُّر» ما يأتي:

الإصرار على الذّنوب، والجهل باللُّغة العربيّة، وانشغال القلب وتشعُّبه في أودية الدُّنيا، وترك التّدبُّر تورُّعاً، وهجر كتب التّفسير، والتّشاغل بكثرة التّلاوة.

٣ ـ من «الأمور المعينة على التّدبُّر» ما يأتي:

تحسين التّلاوة، والإنصات عند السّماع، والقراءة في جوف اللّيل، وحُسْن

الابتداء والوقْف، وفهم المعاني، والوقوف عندها، وترديد الآية المؤثِّرة في القلب، ومعرفة أساليب القرآن.

٤ ـ من «ثمرات التَّدبُّر» ما يأتي:

أ ـ تعميق جذور الإيمان.

ب ـ معرفة الرَّبِّ جلَّ جلالُه.

ج ـ تحقيق العبوديَّة لله تعالى.

د ـ التَّدبُّر غذاءٌ وعلاجٌ وسلاح.

هـ ـ التَّدبُّر فيه تربيةٌ للعقول، وصَقْلٌ للمواهب، وتنميةٌ للقدرات العقليَّة، وهو مفتاح كلِّ خير.

من نتائج «الفصل الثامن»:

١ ـ المقصود الأعظم من تعلُّمِ القرآن، وتلاوته، وحفظه، وتدبُّرِه، هو العمل به.

٢ ـ ترك العمل بالقرآن له حالان:

الحال الأوَّل: أنْ يُخالف أحكامَ القرآن، وهو لا يعتقد أنَّ غيرها خيرٌ منها، ولا يُقِرُّ بجواز مخالفتها، فهذا عاصٍ مؤاخَذٌ بعصيانه، وليس كافراً.

الحال الثَّاني: أنْ يُخالف أحكامَ القرآن، من مُنْطَلَقِ عدم صلاحيتها، وأنَّه يجوز العدول عنها إلى غيرها، فهذا كافرٌ مرتدٌّ.

٣ ـ جميع ما فُصِّلَ في القرآن العظيم من مكارم الأخلاق، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ كان متحلِّياً به، بل صار امتثال القرآن ـ أمراً ونهياً ـ سجيَّة له، وخُلُقاً تَطَبّعه.

٤ ـ القرآن العظيم لا تنفتح أسراره، ولا ينْتَفع به، إلَّا مَنْ يعمل به.

٥ ـ من «فضائل العمل بالقرآن»:

الهداية، والرَّحمة، والفلاح، وتكفير السَّيِّئات، وإصلاح البال في الدُّنيا والآخرة.

من نتائج «الفصل التاسع»:

١ ـ من «أسباب هجر التَّحاكم إلى القرآن» ما يأتي:

أ ـ كراهية ما أنزل الله.
ب ـ الاستكبار.
ج ـ اتّباع الهوى.
د ـ إيثار المتاع العاجل.
هـ ـ الخوف المُتوهّم.
و ـ التّقليد المذموم.

٢ ـ من «الآثار الدُّنيويَّة الحَسَنة للحُكم بما أنزل الله» ما يأتي:
أ ـ الاستخلاف والتّمكين.
ب ـ الأمن والاستقرار.
ج ـ النّصر والفتح.
د ـ العزُّ والشّرف.
هـ ـ بركةُ العَيْش ورَغَدْه.
و ـ الهداية والتّثبيت.

٣ ـ من «الآثار الأخرويَّة الحَسَنة للحُكم بما أنزل الله» ما يأتي:
أ ـ الفلاح والفوز.
ب ـ المغفرة وتكفير السّيِّئات.
ج ـ الأجر العظيم.
د ـ مرافقة الأنبياء والصّدّيقين.

٤ ـ من «الآثار الدُّنيويَّة السَّيِّئة للحُكم بغير ما أنزل الله» ما يأتي:
أ ـ قسوة القلوب.
ب ـ الضّلال عن الحق.
ج ـ الوقوع في النّفاق.
د ـ الحرمان من التّوبة.
هـ ـ الصّدُّ عن سبيل الله.
و ـ غياب الأمن وانتشار الفوضى.

ز ـ انتشار العداوة والبغضاء.

ح ـ الحرمان من النَّصر والتَّمكين.

٥ ـ من «الآثار الأخرويَّة السَّيِّئة للحُكم بغير ما أنزل الله» ما يأتي:

أ ـ الإهانة عند قبض الأرواح.

ب ـ الوحشة في الحشر.

ج ـ الأكل من النَّار وغضب الجبَّار.

د ـ العذاب المهين.

وفي الختام: أسألُ اللهَ العظيمَ ربَّ العرشِ الكريمِ أنْ ينفعَ بهذا الجهد، وأنْ يُبارك فيه، وأنْ يغفر لي كُلَّ خطأ، أو سهو، أو تقصير.

وأعوذُ به تعالى من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يُسمع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهارس

أولاً: منهج الفهارس.

ثانيـاً: فهرس الأحاديث.

ثالثـاً: فهرس الآثار.

رابعـاً: فهرس تراجم الأعلام.

خامساً: فهرس الألفاظ ومعانيها.

سادساً: فهرس الفروق اللغوية.

سابعاً: فهرس الأشعار.

ثامنـاً: فهرس الأماكن.

تاسعـاً: فهرس الأحكام الفقهية.

عاشراً: فهرس الآداب.

حادي عشر: فهرس الفضائل.

ثاني عشر: فهرس البدع.

ثالث عشر: ثبت المصادر والمراجع.

رابع عشر: المحتوى.

أولا: منهج الفهارس

تم إعداد الفهارس وفقاً للمنهج التالي:

١ ـ اعتماد رسم الحروف والألفاظ لإيرادها مع ما بعدها حسب الترتيب الألفبائي.

٢ ـ عدم الاعتداد بـ(أل) التعريف إلّا مع لفظ الجلالة، وعدم الاعتداد بلفظة: «ابن ـ ابنة ـ أبو ـ أم».

٣ ـ الاعتداد بالواو وحرف الجر والباء الزائدة.

٤ ـ عدم التفريق بين: «أنْ ـ إنْ ـ أنّ ـ إنّ».

٥ ـ عدم التفريق بين همزتي الوصل والقطع.

٦ ـ الهمزة التي على الواو أو الألف أو النبرة اعتُبِرت همزة.

٧ ـ اعتبار (لا) حرف مستقل.

٨ ـ فهرس أطراف الحديث ضُمّنَ الأحاديث القولية والفعلية والتقريرية، وكذا أوصاف النبي ﷺ. وضُمّنَ كذلك الأحاديث القدسية مع الإشارة إليها.

٩ ـ في «فهرس الألفاظ ومعانيها» جُرِّدَت الكلمة إلى أصلها، واعْتُبِر التّرتيب الألفبائي.

١٠ ـ في «فهرس الأشعار» اعْتُمِد التّرتيب حسب القافية، واسْتُثْنِي من ذلك: «الأرجوزة المنبّهة» و«منظومة طيّبة النّشْر»؛ لأنهما لم تلتزما بقافية واحدة، ومنَع من تقطيعهما عدم تمام المعنى إذا انفرد كلُّ بيتٍ لحاله، خاصةً في مسائل العقيدة.

١١ ـ في فهارس «الأحكام الفقهيّة، والآداب، والفضائل، والبدع» اعْتُبِرَ التّرتيب الموضوعي، والتّرتيب حسب أرقام الصّفحات ما أمكن.

١٢ ـ في «ثبت المصادر والمراجع» قُدِّمَ اسم الكتاب الأقل في عدد الكلمات إذا اشترك عدة كتب في جزء من الاسم مثال: «فضائل القرآن»، «فضائل القرآن وتلاوته وخصائص تلاوته وحملته» قُدِّمَ الأول. وإذا اتفق كتابان في الاسم تمّ اعتماد اسم المؤلف وفقاً للترتيب الألفبائي.

١٣ ـ في «المحتوى» تمّ اعتماد الفهرس التفصيلي؛ لتعمّ الفائدة المرجوّة منه.

ثانياً: فهرس الأحاديث

طرف الحديث | الصفحة

(أ)

أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل ٤٠٧
أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ ٤٢٨
إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ٣٠
إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها ٣٠
إذا زخرفتم مساجدكم ١٨٠
إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن ٤١٥
إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان ٤١٦
إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم ٥٠٠
إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلّا من ثلاثة ٣١٨
إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً ٤٢٩
إذا نعس أحدكم في الصلاة فليرقد ٤١٥
أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ ١٥٩
أقبل النبي ﷺ من نحو بئر جمل ٣٩٠
اقرأ عليّ ٢٤٩
اقرأ فلان! إنها السكينة تنزلت عند القرآن ٤٤٠
اقرأ يا ابن حضير ٤٤٣
اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً ٤١١
اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ٨٢
اقرؤوا القرآن وابتغوا به الله ٧٢
أكثر منافقي أمتي قرّاؤها .... ٤٨٧، ٤٩٥
ألا إن كلكم مناج ربه ٤١٠
ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر ٥٨٩
ألا وإن في الجسد مضغة ٣٠٨

طرف الحديث | الصفحة

اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ٤١٦
اللهم لك سجدت وبك آمنت ٤١٦
ألم أُخبرْ أنك تصوم الدهر ٤١٩
إن أحدكم ليتكلم بالكلمة ١٩٨
إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله ٣٤٣
إن أخذتها أخذت قوساً من نار ٣٤٢
إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق ٤٨٧
إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ٤٧٨
إن أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه .... ٣٢٠، ٣٣٧
إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً .... ٤٩٩، ٥٠٠
إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ٣٨٢
إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه .... ٢٩٣، ٤٧٨
أن جبريل كان يعارضني بالقرآن ٢٦٧
أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ . . .﴾ ٥٩٦
أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن ٣٣٦
أن رسول الله ﷺ نهى عن الجدال في القرآن ٧٨
إن العبد إذا تسوّك ثم قام ٢٦٥
إن العبد ليتكلم بالكلمة ١٩٧
إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين ٥٨٠
إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة .... ٣٣١، ٤٤٩
إن كنت تحب أن تطوق طوقاً من نار فاقبلها ٣٤٢
إن لله أهلين من الناس ٥٠٣
إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته ٣٢٧
إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم ٥٠٤
إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي ٤٠٩
أنا أغنى الأغنياء عن الشرك (قدسي) ٤٦٩
أنا عند ظن عبدي، وأنا معه حين يذكرني (قدسي) ٤٤٤
أُنزلت عليّ آنفاً سورة ٣٩٦
انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه ٢٨١

طرف الحديث | الصفحة

إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون ٥١٧
إنما بعثتك لأبتليك (قدسي) ٤٧٣
إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد ٣٣٠
إني كرهت أن أذكر الله ﷻ إلّا على طهر ٣٩١
إني تارك فكيم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ٥٨٩
إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن ٤٤٨
إني لأعلم إذا كنت عني راضية ٣١
أوصى بكتاب الله ٥٨٩
أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات ٤٣٨
أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان ٣٢٤
أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان ٣٢٣
أين كنت ٢٦٧
أيهم أكثر أخذاً للقرآن ٥٠٢

(ب)

بئس ما لأحدهم يقول: نسيت آية كيت وكيت .... ٤٨٨، ٥١٨
بادروا بالأعمال خصالاً ستاً ٤٠٤
بايعوني على ألّا تشركوا بالله شيئاً ٦٣٦
بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل ٣٣٩

(ت)

تعاهدوا القرآن ٤٢٩
تعاهدوا هذا القرآن ٤٨٨
تعلّموا القرآن فإذا علمتموه فلا تغلوا فيه ٤٩٠
تعلّموا القرآن فإنه شافع يوم القيامة ٣٣٨
تعلّموا القرآن وسلوا الله به الجنة ٧٢
تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ٨٣
تلك السكينة تنزلت القرآن ٤٤٠
تلك الملائكة دنت لصوتك ٢٦٥

(ث)

ثلاث مهلكات: شح مطاع ٤٨١

طرف الحديث — الصفحة

ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً ٤١٤

(ج)

الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ٤١٠
الجدال في القرآن كفر ٧٦
جمرة بين كتفيك تقلّدتها ٣٤٢

(ح)

الحمد لله، كتاب الله واحد ٧١

(خ)

خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ٥٨٦
خذوا القرآن من أربعة ٣٣٨
خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه .... ٣٢٠، ٣٣٧، ٣٥٣، ٥٥٣

(ذ)

ذاك الله ﷻ ٤٨٠
الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام ٤٥٢

(ر)

رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته ٣٩٢
رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ٥١٩

(ز)

زيّنوا القرآن بأصواتكم ٤٠٢

(س)

سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك ٣٩٥
سجد النبي ﷺ بالنجم ٢٧٤
سجد وجهي للذي خلقه ٤١٦
سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بـ(الطور) ٢٧٤
سمعت النبي ﷺ يقرأ (والتين والزيتون) ٤٠١
السواك مطهرة للفم ٣٩٤

(ص)

صلّوا صلاة كذا في حين كذا ٥٠١

طرف الحديث	الصفحة

صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح بـ(البقرة) ٥٥٤

(ع)

علّموا ويسّروا ولا تعسّروا ٣٠٤

(ف)

فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن ٥٨٦
إن لزوجك عليك حقاً ٤٢١
فرغت يا أبا الوليد؟ ٢٧١
فضّل صلاة الجمع على صلاة الواحد ٢٦٤
فوالله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكن ٣٧٦
في أربعين يوماً ٤٢٠
في شهر ٤٢٠
فيها ما لا عين رأت ٦٣٨

(ق)

قالا: انطلق، فانطلقنا ٣٩٠
قال رجل في غزوة تبوك في مجلس ١٧٤
قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يرددها ٥٥٥
قد أفلح من أسلم ٤٧٦
القرآن شافع مشفع ٥٩٠
القرآن يُقرأ على سبعة أحرف ٨٠
قرأت على النبي ﷺ (والنجم) فلم يسجد فيها ٤١٧

(ك)

كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض ٣٩٤
كان رسول الله ﷺ يُشغل فإذا قدم رجل مهاجر ٣٣٦
كان رسول الله ﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمور ٣٣٦
كان رسول الله ﷺ يعلّمنا القرآن فإذا مرّ بسجود ٣٣٦
كان رسول الله ﷺ يُقَطِّع قراءته ٤١٣
كان ﷺ لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث ٤٢١
كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك ٣٩٤
كان النبي ﷺ يقرأ علينا السورة فيها السجدة فيسجد ٤١٩

طرف الحديث	الصفحة

كان يقرأ بالسورة فيرتلها ٣٩٩
كان يمد مدّاً ٣٩٩
كانت مدّاً ٣٩٩
الكبرياء ردائي والعظمة إزاري (قدسي) ٤٨٢
كنت نهيتكم عن زيارة القبور ٢٩

(ل)

لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات ٤٨٦
لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ٢٨٣
لم يأذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنّى بالقرآن ٤٠٢
لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة ٢٦٦
لو كان القرآن في إهاب ما أكلته النار ٥٠٦
لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر ٤٨١
ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن .... ٨٧، ٤٠٢، ٥٤٩

(م)

ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن ٤١٠
ماذا معك من القرآن ٣٤٤
المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة ٥٨٨
الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ٤٥٢
مثل البيت الذي يذكر الله فيه ٨٥
مثل الذي يذكر ربه ٨٦
مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له .... ٨٦، ٤٩٨
مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ٤٤٩
مثل المنافق الذي يقرأ القرآن ٨٦
المراء في القرآن كفر ٧٩
من أتى إليكم معروفاً فكافئوه ٣١٠
من أخذ على تعليم القرآن قوساً، قلّده ٣٤٢
من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ٣٢٥
من أنتم؟ ٢٧٥
من تعلّم علماً مما يبتغى به وجه الله ٢٩٤

طرف الحديث	الصفحة

من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد (قدسي) ٤٣٥
من جاء مسجدي هذا لم يأته إلّا لخير ٣٢٦
من دعا إلى هدى كان له من الأجر ٣١٨
من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله ٣٢٨
من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها ٣٢٩
من طلب العلم ليجاري به العلماء ٢٩٥
من علّم آية من كتاب الله ﷻ ٣٢٨
من غدا إلى المسجد لا يريد إلّا أن يتعلّم خيراً ٣٢٥
من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ٤٣٧
من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة ٤٣٧
من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة .... ٤١١، ٤٣٤
من قرأ القرآن فليسأل الله به ٧٣
من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقه ٤٢٣
من نام عن حزبه أو عن شيء منه ٤٣٢
من هذه؟ ٣٧٨
المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ٢٩

(هـ)

هذا أوان يختلس العلم من الناس ٥٧٤
هل إلّا هذا؟ ٣٤٥

(و)

والذي نفس محمد بيده! ١٦٦
والصبر ضياء ٣٠٥
والقرآن حجة لك أو عليك ٤٨٦
ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة ٤٢١
وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله إلّا .... ٢٤٦، ٢٦٥، ٤٣٨
وما أدراك أنها رقية ٣٤٤
ويقول القرآن: ربّ منعته النوم بالليل ٥٥١
ويكسى والداه حلتين، لا تقوم لهم الدنيا وما فيها ٣٣٢

طرف الحديث | الصفحة

(لا)

لا تجادلوا في القرآن ٧٧
لا تجعلوا بيوتكم مقابر ٨٥
لا تحاسد إلّا في اثنتين ٤٤٦
لا تصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلّا بذنب ٤٨٣
لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل ٣٧٩
لا تنافس بينكم إلّا في اثنتين ٤٤٧
لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ٢٨
لا تهجُروا ولا تدابروا ٢٩
لا حسد إلا على اثنتين ٤٤٧
لا حسد إلا في اثنتين ٤٤٥
لا هجرة بعد الفتح، ولكن ٢٧
لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ٢٧
لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ٤٨٢
لا يقعد قوم يذكرون الله ﷻ إلّا حفتهم الملائكة ٤٣٩

(ي)

يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ٥٨٧
يا حذيفة تعلّم كتاب الله واتبع ما فيه ٣٣٨
يا عائشة! إن الله رفيق ٣٠٣
يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ٥٠٠
يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن ٦٥٦
يجيء القرآن يوم القيامة، فيقول ٤٩٦
يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر ١٥٩
يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ٧٥
يخرج في هذه الأمة قوم تحقرون .... ٧٤، ٥٧٥
يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية ٥١٦
يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ٤٩٤
يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم ٥٣٠

ثالثاً: فهرس الآثار

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
(أ)		
ابدؤوا بحمص	عمر بن الخطاب	٣٥١
أتغرون به السارق	ابن عباس	١٨١
أجمع عقلاء كلّ أمة: أن النعيم لا يدرك بالنّعم	إبراهيم الحربي	٤٧٧
الاحتفاظ بما في صدر الرجل أولى من درس دفتره	محمد بن القاسم بن خلاد	٤٩١
أخذنا القرآن عن قوم	أبو عبد الرحمٰن السلمي	٩٦
أخلصه وأصوبه	الفضيل بن عياض	٢٩٣
إذا أخرج من القبر خرج بصيراً	ابن عباس	٥٤
إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن	مجاهد	١٧٨
استعينوا على الحفظ بترك المعاصي	وكيع بن الجراح	٤٨٤
اسجد فإنك إمامنا فيها	ابن مسعود	٤١٨
اقرؤوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف	أبو أمامة	٥٠٧
اكتب	ابن عباس	٣٥٧
إلّا ما أراد الله أن ينسيكه لتنسى	ابن عباس	٥١٦
إن أفواهكم طرق للقرآن	علي بن أبي طالب	٣٩٥
إن الله لم يفرض السجود إلّا أن نشاء	ابن عمر	٤١٧
أن تميماً الداري ﷺ ردّد هذه الآية	مسروق	٥٥٦
إن الذي تدعونه المُفصّل هو المُحكم	سعيد بن جبير	٥١٢
إن العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمه	مالك بن دينار	٤٨٥
إن مما يهمني	ابن جبير	٣٠٠
إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة	أبو هريرة	٤٧٦
إن هذا العلم دين	ابن سيرين	٣١٢
إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان	الحسن البصري	٩٤

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
إن هذا القرآن كائن لكم ذخراً	أبو موسى الأشعري	٩٤
إن هذا القرآن مأدبة الله	ابن مسعود	٩٧
إن هذا المجلس يغشاه ثلاثة نفر	أويس القرني	٩٦
إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام	عمر بن الخطاب	٦٣١
أنت أصغر منها	أبو العالية	١٨٢
أنت أصغر وألأم	أبو العالية	١٨٢
إنما الآية مثل التمرة	بشر بن السري	٥٥٦
إنما أخاف أن يكون أول ما يسألني عنه ربي أن يقول:	أبو الدرداء	٥٩١
إنما السجود على من استمع	عثمان بن عفان	٤١٩
إنما نزل القرآن ليعمل به	الفضيل بن عياض	٥٩٢
إنما هذه القلوب أوعية	ابن مسعود	٣٠٠
إني لأحسب الرجل ينسى العلم بالخطيئة يعملها	ابن مسعود	٤٨٣
إني لأقرأ حزبي وأنا مضطجعة على سريري	عائشة	٣٩٥

(ب)

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
بحسب المرء من العلم أن يخشى الله تعالى	حذيفة	٤٨٦
البلد الطيب: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه	قتادة	٩٨
البلد الطيب: ينفعه المطر فينبت	مجاهد	٩٨
بينا أنا ذات ليلة عند الحسن	الحسن البصري	٥٥٧
بينا الناس بقباء في صلاة الصبح	ابن عمر	٥٩٧

(ت)

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
تدري فيما أنزلت؟	ابن عمر	٤١٢
تزاوروا وتدارسوا الحديث	علي بن أبي طالب	٤٩
تعلموا تعلموا فإذا علمتم فاعملوا	ابن مسعود	٥٩١
تعلموا العلم	عمر بن الخطاب	٢٩٨
تعلموا القرآن	أبو العالية	٣٠١
تعلموا هذا القرآن	ابن مسعود	٤٣٥
التفسير على أربعة أوجه	ابن عباس	٥٣٩
توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين	ابن عباس	٥١٢

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
(ج)		
جمعت المحكم في عهد رسول الله ﷺ	ابن عباس	٣٣٠
(ح)		
حلماء فقهاء	ابن عباس	٣٠٣
(خ)		
خذها، فوالله لهي خير مما على الأرض	ابن مسعود	٣٢٧
(د)		
دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ	عبّاد بن حمزة	٥٥٧
(ذ)		
ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه	ابن عباس	٤٤٥
(ر)		
رُدَّه، إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً	أبو عبد الرحمٰن السلمي	٣٥٤
(س)		
سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن	أوس بن حذيفة	٤٢٦
سلوني	علي بن أبي طالب	٣٠٠
سلوني عن التفسير	ابن عباس	٥١٢
سيبلى القرآن في صدور أقوام	معاذ بن جبل	٩٧
(ض)		
ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألّا يضل	ابن عباس	٥٨٢
(ط)		
طلبنا العلم للدنيا فَجَرّنا إلى الآخرة	الحسن البصري وسفيان الثوري	٤٧١
طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا	ابن المبارك	٤٧١
طلبنا هذا العلم وما لنا فيه نية، ثم جاءت النية	حبيب بن ثابت	٤٧١
(ع)		
عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات	مجاهد	٣٥٧

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
العلم علمان	الحسن البصري	٤٨٦
علمني مما علمك الله	عمرو بن قيس الملائي	٣١٠
(ف)		
فإن كنت فاعلاً لا بد، فاقرأه	ابن عباس	٤٠٠
فقال النجاشي	أم سلمة	٢٧٨
فلما أنزل الله هذا في براءتي	عائشة	٥٩٤
(ق)		
قدم عيينة بن حصن	عمر بن الخطاب	٥٩٥
القلوب تُرَبٌ والعلم غرسها	جعفر بن محمد	٤٩١
(ك)		
كاد الخيران أن يهلكا	ابن أبي مليكة	٥٩٥
كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى	ابن مسعود	٥٩٣
كان القراء أصحاب مجلس عمر	ابن عباس	٥٠٢
كانوا كما نعتهم الله ﷻ	أسماء بنت أبي بكر	٢٦٨
كانوا يكرهون أن يصغروا المصحف	إبراهيم النخعي	١٨٢
كانوا يكرهونه ويقولون فيه قولاً شديداً	ابن سيرين	٥١٣
كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان	جندب بن عبد الله	٣٠٢
كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه	أبو العالية	٥١٣
كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام	أبو العالية	٣١٢
كنت أسمع الحديث من ابن عباس	ابن جبير	٣١٠
كيف تركت الأشعري	عمر بن الخطاب	٣٥٢
(ل)		
لأن اقرأ البقرة في ليلة	ابن عباس	٤٠٠، ٥٣١
لقد أتى علينا حين، وما نرى أن	عمر بن الخطاب	٩٢
لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً	مجاهد	٣٥٨
لقد عشت برهة من دهري	ابن عمر	٩٥، ٣٠٢
لما أُمرنا بالصدقه	أبو مسعود	١٧٥
لما قدم المهاجرون الأوّلون العصبة	ابن عمر	٥٠١

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
لما نزلت: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾	أم سلمة	٥٩٨
لو أعلم أن أحداً تبلغنيه الإبل	ابن مسعود	٣٥٧
لو أعيتني آية من كتاب الله ﷻ	أبو الدرداء	٣٥٧
لو جعل لأحد خمس قلائص	ابن مسعود	٣٢٦
ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية	ابن مسعود	٤٨٥
ليس لهذا غدونا	سلمان	٤١٩
ليس من اشتهر بحفظ شيء وتفلّت منه بناسٍ	سفيان بن عيينة	٥١٨
(م)		
ما جالس القرآن أحد فقام عنه إلّا بزيادة	قتادة	٩٧
ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نيتي	سفيان الثوري	٤٧١
ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا	أنس بن مالك	٥٧٩
ما من أحد تعلم القرآن فنسيه إلّا بذنب	الضحاك	٣٠١، ٤٨٣
ماذا زرع القرآن في قلوبكم	مالك بن دينار	٣٠١
مثل الذين يقرؤون القرآن ولا يعرفون التفسير	إياس بن معاوية	٥٥٤
المراد به القرآن	ابن عباس	٢٧٠
من أوتي من العلم ما لم يبكه	التيمي	٢٥١، ٢٧٠
من تعلم القرآن ثم نسيه	طلق بن حبيب	٥١٤
من عَلِم وعَلّم يدعى في الملكوت عظيماً	عيسى ﷺ	٣٢١
من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله	ابن عباس	٥٨٢
من قرأ القرآن يتأكل به الناس	زاذان	٩٣
(هـ)		
هذا السجود فأين البكي؟	عمر بن الخطاب	٢٥٠
هذّاً كهذ الشعر؟	ابن مسعود	٣٩٩
هذه آية القراء	مطرف بن عبد الله	٤٣٣
(و)		
والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلّا	ابن مسعود	٣٥٦
والله يا ابن آدم، لئن قرأت القرآن	الحسن البصري	٤٠٨
وقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ هو أجدر أن يفقه في القرآن	ابن عباس	٥٥٠

طرف الأثر	صاحبه	الصفحة
الوجل في القلب كإحراق السعفة	أبو الدرداء	٢٦٩
(لا)		
لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها	الفضيل بن عياض	٤١٣
لا تهذُّوه هذّ الشِّعْرِ	ابن مسعود	٥٣١
لا تقولوا مصيحف	سعيد بن المسيب	١٨١
لا يتم طلب العلم إلّا بأربعة أشياء	ابن المبارك	٤٧٦
لا يغرركم من قرأ القرآن	عمر بن الخطاب	٥٩١
(ي)		
يا أعرابي أتبرأ من رسول الله ﷺ؟!	عمر بن الخطاب	٥٤٠
يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن	ابن عباس	٩٩
يا أيها الناس، إنا نمر بالسجود	عمر بن الخطاب	٤١٧
يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية	أبو أيوب الأنصاري	٥٤٤
يا معشر القراء استقيموا	حذيفة	٥٩١
يرحم الله نساءَ المهاجراتِ الأُول	عائشة	٥٩٧
يقتسمون ميراث محمد ﷺ	ابن مسعود	٣٢٧
ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله	ابن مسعود	٢٩٧، ٤٦٨

رابعا: فهرس تراجم الاعلام

الاسم	الشهرة	الصفحة
(أ)		
إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشر	إبراهيم الحربي	٤٧٧
إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم	ابن فرحون	١٩٨
إبراهيم بن محمد بن السري	الزجاج	٤٨
إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي	الشاطبي	٥٤٢
إبراهيم بن يزيد بن شريك	التيمي	٩٩
إبراهيم بن يزيد بن قيس	الأسود النخعي	١٨٢
أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس	الإسماعيلي	٥١٧
أحمد بن أحمد بن سلامة	القليوبي	١٩٦
أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله بن أبي داود	ابن المنادي	٥١٤
أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد	الإمام أحمد	٣١١
أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام	ابن تيمية	١٤٧
أحمد بن علي بن ثابت	الخطيب البغدادي	٤٩١
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني	ابن حجر	٢٨
أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب	ابن فارس	١٨
أحمد بن قاسم العبادي	العبادي	٢٠٥
أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن	ابن عقدة	٣٥٤
أحمد محمد شاكر بن أحمد	أبو الأشبال	٦٥١
أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر	ابن حجر الهيتمي	٣٦
إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة	السدي	٩٨
إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء	ابن كثير	٣٢
أصحمة بن أبحر	النجاشي	٢٧٩
أويس بن عامر بن جزء المرادي	أويس القرني	٩٦
إياس بن معاوية بن قرة بن إياس	أبو واثلة	٥٥٤

الاسم	الشهرة	الصفحة
(ب)		
بشر بن السريّ الأفوه البصري	-	٥٥٦
بكر بن عبد الله أبو زيد	-	٣٦٨
أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي	-	٣٠٦
(ت)		
تميم بن حذلم الضبي	-	٤١٨
(ج)		
جعفر بن سليمان الضُبعي	-	٤٨٣
جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي	جعفر الصادق	٢٤٠
(ح)		
حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار الأسدي	-	٤٧١
الحجاج بن يوسف بن الحكم	-	٣٥٢
الحسن بن يسار البصري	-	٩٤
الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم	الحليمي	٧٨
الحسين بن علي بن يزيد	الكرابيسي	٤١٤
الحسين بن محمد بن عبد الله	الطيبي	٣١
الحسين بن محمد بن المفضل	الراغب الأصفهاني	١٩
الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء	البغوي	٥٠
حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب	الخطابي	٧٩
(ر)		
رؤبة بن عبد الله بن العجاج	-	٦٥
الربيع بن خُثيم بن عائذ الثوري التميمي	-	٥٥٧
رفيع بن مهران الرياحي	أبو العالية	١٨٢
(ز)		
زهير بن أبي سُلْمى ربيعة بن قرة	-	٦٦٤
زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد	-	٣٦٠
زين الدين بن إبراهيم بن محمد	ابن نجيم	١٤٨

الاسم	الشهرة	الصفحة
(س)		
سعيد بن جبير بن هشام الأسدي	-	٣٠٠
سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب	-	١٨١
سفيان بن سعيد بن مسروق	سفيان الثوري	٢٣٤
سفيان بن عيينة بن أبي عمران	-	٨٨
سليمان بن مهران الكاهلي	الأعمش	٣١٤
(ش)		
شعبة بن الحجاج بن الورد	-	٣٨٢
(ص)		
صلاح أبو إسماعيل	-	٦٥٠
(ض)		
الضحاك بن مزاحم الهلالي	-	٣٠١
(ط)		
طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب	-	٣١٤
طلق بن حبيب العنزي	-	٥١٤
(ظ)		
ظالم بن عمرو بن سفيان	أبو الأسود الدؤلي	٥٤٠
(ع)		
عاصم بن بهدلة	ابن أبي النجود	٣٠٦
عبّاد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام	-	٥٥٧
عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين	المناوي	٢١١
عبد الرحمن بن أحمد بن الحسين	أبو الفضل الرازي	٥٠٦
عبد الرحمن بن أحمد بن رجب	ابن رجب	٣٠٥
عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري	السيوطي	٣٣٨
عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي	ابن الجوزي	٥١
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر	السعدي	٣١١
عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل	الرافعي	٣٦
عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك	القشيري	٢٩٣

الاسم	الشهرة	الصفحة
عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة	ابن قدامة المقدسي	١٤٥
عبد الله بن أبي جمرة السبتي	ابن أبي جمرة	٢٩٤
عبد الله بن حبيب بن ربيعة	أبو عبد الرحمن السلمي	٩٦
عبد الله بن شداد بن الهاد	-	٤٠٨
عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل	الدارمي	٢٥١
عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة	-	٥٤٠
عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي	ابن المبارك	٤٧١
عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي	الأصمعي	٤٩١
عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان	ابن بطة	١٤٦
عتبة بن ربيعة بن عبد شمس	-	٢٧١
عثمان بن سعيد	أبو عمرو الداني	٢٩١
عكرمة البربري	أبو عبد الله المدني	١٢٩
علي بن أحمد بن سعيد بن حزم	ابن حزم الظاهري	١٤٦
علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن	الكسائي	٣٥٨
علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال	ابن بطال	٨٧
علي بن عقيل بن محمد بن عقيل	ابن عقيل الحنبلي	٢٠٦
علي بن محمد	الماوردي	٢٩٩
علي بن محمد بن خلف المعافري	أبو الحسن القابسي	٥١٥
علي بن محمد بن عبد الرحمن	الآمدي	١٤٣
عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمان	-	٣٥٤
عمرو بن قيس الملائي	-	٣١٠
عياض بن موسى بن عياض بن عمر اليحصبي	القاضي عياض	٨٩
(ف)		
الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر	-	٥٩٢
(ق)		
القاسم بن سلام الهروي	أبو عبيد	٨١
القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد	الشاطبي	٣٣٢
قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي	-	٦٥

الاسم	الشهرة	الصفحة
(م)		
مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر	الإمام مالك	٤٠٤
مالك بن دينار البصري	-	٣٠١
المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم	ابن الأثير	٧٧
مجاهد بن جبر.	-	٤٤
محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة	ابن جماعة	٤٧٠
محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد	ابن رشد	٥١٥
محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة	الأزهري	١٩٥
محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح	القرطبي	٦٣
محمد بن أحمد بن جزي الكلبي	ابن جزي	٢٥٥
محمد بن أحمد بن حمزة	الرملي	٤٠٥
محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز	الذهبي	٢٩٥
محمد بن أحمد بن علي البغدادي	الخياط	٣٥٣
محمد بن إدريس القرشي	الإمام الشافعي	١٩٩
محمد بن إسحاق بن خزيمة	ابن خزيمة	٣٥٩
محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة	البخاري	٣٠٣
محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز	ابن عابدين	٢٥٧
محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي	الشنقيطي	٥١
محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد	ابن القيم	٣٢
محمد بن جرير بن يزيد	الطبري	٢٦
محمد بن حبان بن أحمد بن حبان	ابن حبان	٨٠
محمد بن الحسين بن عبد الله	الآجري	٩٣
محمد بن سيرين البصري	ابن سيرين	٣١٢
محمد بن صبيح الحداد المغربي	أبو عثمان الحداد	١٤٤
محمد الطاهر بن عاشور	ابن عاشور	٢٣
محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بهادر	المباركفوري	٧٣
محمد بن عبد الرزاق الحسيني	الزبيدي	٥٠٧
محمد بن عبد القوي بن بدران	ابن عبد القوي	٢٠١
محمد بن عبد الله بن بهادر المصري	الزركشي	٢٠٢
محمد بن عبد الله بن محمد	ابن العربي	١٩١

الاسم	الشهرة	الصفحة
محمد بن علي بن محمد بن عبد الله	الشوكاني	٥٨
محمد بن عمر بن حسين القرشي	الرازي	١٣١
محمد بن كعب بن سليم القرظي	-	٣٥١
محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي	أبو حامد الغزالي	٨٣
محمد بن محمد بن محمد بن علي الدمشقي	ابن الجَزري	٤٧٣
محمد بن محمد بن مصطفى العمادي	أبو السعود	٧٦.
محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي	ابن مفلح	٢٠٢
محمد ناصر الدين بن نوح الألباني	الألباني	٤٢١
محمد بن نصر بن الحجاج	المروزي	٢٥٨
محمد بن النضر بن مر بن الحر	ابن الأخرم	٣١٣
محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان	أبو بكر الطُّرطوشي	٣٦٧
محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم	الفيروزآبادي	١٩٦
محمد بن يوسف بن علي	أبو حيان	١٢٩
محمود بن خليل الحُصري	الحُصري	٣٧٢
محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي	الآلوسي	٣٥
محمود بن عمر بن محمد	الزمخشري	١٢١
مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي	-	٥٥٦
مطرف بن عبد الله بن الشخير	-	٤٣٣
المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث	-	٣١٢
منصور بن محمد بن عبد الجبار	ابن السمعاني	١١٣
(ن)		
نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم	أبو رويم الأصبهاني	٢٢
نصر بن محمد السمرقندي	السمرقندي	١١٢
نصر بن عمران الضبعي	-	٤٠٠
(و)		
وكيع بن الجراح بن مليح الرُّؤاسي	-	٤٨٤
(ي)		
يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور	الفراء	٥٤
يحيى بن سعيد القطان	-	٣١١

الاسم	الشهرة	الصفحة
يحيى بن شرف بن مري بن حسن	النووي	٢٧
يحيى بن أبي كثير الطائي	-	٤٧٧
يحيى بن محمد بن هبيرة	ابن هبيرة	٥٤١
يحيى بن وثاب الأسدي الكوفي	-	٣٥٩
يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني	-	٢٤١
يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن	ابن عبد الهادي	٢٠٣
يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر	ابن عبد البر	١٤٤

خامسا: فهرس الألفاظ ومعانيها

اللفظ والمعنى	الصفحة
حرف (أ)	
مادة «أ ت ر ج»:	
الأُتْرُجُّ: بضم الهمزة والرّاء، بينهما مثناة ساكنة، وآخره جيم ثقيلة: شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثّمر، وثمره كاللّيمون الكبار، وهو ذهبيُّ اللّون، زكيُّ الرّائحة، حامض الماء.	٤٤٩، ٤٥٠
مادة «أ ز ز»:	
أزيز المِرْجل: صوتُ غليانه، ومنه الأزُّ، وهو الإزعاج.	٤٠٧
وأزيزُ الرّحى: صوتها وحرحرتها.	٤٠٨
مادة «أ ف ك»:	
الإفك: الكذب، وهو: أشد الكذب.	١٢٠
مادة «أ هـ ب»:	
الإهاب: جِلْد لم يُدْبغ.	٥٠٧
مادة «أ هـ ل»:	
أهلين: جمع أهل، جمعت بالياء والنون لكونها ملحقاً بجمع المذكر السالم.	٥٠٣
حرف (ب)	
مادة «ب ر ر»:	
البررة: المطيعون لله، مأخوذ من البِرّ؛ وهو الطّاعة.	٤٥٢
حرف (ت)	
مادة «ت ع ت ع»:	
يتتعتع فيه: الذي يتردد في تلاوته لضعف حفظه.	٤٥٢

اللفظ والمعنى	الصفحة
مادة «ت ع س»:	
التَّعْسُ: الهلاك والعثار، والسُّقوط والشّر والبُعد والانحطاط.	١٢٣
حرف (ث)	
مادة «ث ك ل»:	
ثكِلتْك أمُّك: فقدتْك، وأصله الدّعاء بالموت، ثم يُستعمل في التّعجُّب.	٥٧٤
حرف (ج)	
مادة «ج ح د»:	
الجَحْدُ: نفي ما في القلب ثباته، وإثبات ما في القلب نفيه.	١٣٢
الجحود: ضد الإقرار، ولا يكون إلّا مع علم الجاحد به أنه صحيح.	١٣١
يقال: جحد الأمر، وجحد بالأمر جحداً وجحوداً: أنكره مع علمه به.	١٣٢
مادة «ج ح م»:	
الجحيم: النار الشديدة الإيقاد، يقال: جَحَمَ فلان النار: إذا شدّد إيقادها.	١٣٠
مادة «ج د ل»:	
الجدال: مقابلة الحُجّة بالحُجّة.	٧٧
المجادلة: المناظرة والمخاصمة.	٧٧
مادة «ج ر ر»:	
اجترّه: بجيم ومثناة وراء ثقيلة، والضمير ـ في الحديث ـ لولده، أي: اجترّ ولده من المكان الذي هو فيه حتى لا تطأه الفرس.	٤٤٣
مادة «ج ز أ»:	
الجزاء: هو عوض العمل وما يقابل به من أجر أو عقوبة.	١٢٩
مادة «ج و ل»:	
جالت الفرس: وثبت واضطربت، والفرس يطلق على الذكر والأنثى.	٤٤٣
حرف (ح)	
مادة «ح ز ب»:	
الحزب: الجماعة من الناس، والطائفة من كل شيء.	٤٢٥
والحزب: ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة أو صلاة كالورد.	٤٢٥

اللفظ والمعنى	الصفحة
والحزب: النوبة في ورود الماء.	٤٢٥
التحزيب: التجزئة، تخريب القرآن: تجزئة القرآن واتخاذ كل جزء حزباً له.	٤٢٦
مادة «ح ز ر»:	
حزاورة: جمع حَزْوَر وحزوَّر، وهو الذي قارب البلوغ.	٣٠٢
مادة «ح ف ف»:	
حفتهم الملائكة: دارت حولهم.	٤٣٩
مادة «ح ف ظ»:	
حفظ: الحاء والفاء والظاء أصل واحد يدل على مراعاة الشيء.	٤٦٠
حَفِظَ الشيء حفظاً: حرسه، وحفظه: استظهره. والتحفظ: التيقظ وقلة الغفلة، وتحفظ الكتاب: استظهره شيئاً بعد شيء.	٤٦٠
الحفظ: نقيض النسيان، وهو: التعاهد وقلة الغفلة. يقال: حفظ الشيء حفظاً، ورجل حافظ من قوم حُفَّاظ.	٤٦٠
مادة «ح ق ب»:	
الحقَب: بفتح الحاء والقاف: حبل يُشدُّ به الرّحلُ في بطن البعير.	١٧٤
مادة «ح ل ل»:	
حَلِّه: أمر من التحلية، يقال: حليته أحليه تحلية: إذا ألبسته الحلية.	٤٩٦
مادة «ح ن ج ر»:	
الحناجر: جمع حنجرة، وهي آخر الحلق مما يلي الفم.	٧٤
مادة «ح ن ظ ل»:	
الحنظل: نبت مفترش، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة.	٨٦
حرف (خ)	
مادة «خ ل ص»:	
الإخلاص: إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد.	٢٩٣
مادة «خ ل ف»:	
خَلفات: الحوامل من الإبل إلى أن يمضي عليها نصف أمدها، ثم هي عشار، والواحدة: خلِفة وعشراء.	٤٣٨

مادة «خ م ر»:
اختَمَرْن: غطَّين وجوههن. ٥٩٧

مادة «خ و ض»:
الخوض: المشي في الماء، ثم استعمل في كلِّ دخول فيه تلوث وأذى. ١٧٥

حرف (د)

مادة «د ب ر»:
دَبَرَ: هلك، يُقَالُ: دَبَرَ القَومُ يَدْبُرُونَ دِباراً: هلكوا. وَأَدْبَرُوا: إذا وَلَّى أَمْرُهُمْ إلى آخِرِه فَلَمْ يبقَ منهم باقية. ١٨٠، ٥٢٤
التَّدبُّر: مصدرٌ فِعْلُه الماضي: تَدَبَّرَ. وهو فِعلٌ مزيدٌ، اشتُقَّ من الفعل المجرَّد الماضي: دَبَرَ. ومضارعه: يَدْبُرُ، والمصدر: دَبْراً ودُبُوراً. ٥٢٤
ودَبَرَ النَّهارُ أو الصَّيفُ: انْصَرَم، مَضَى وانْقَضَى. ٥٢٤
ودَبَرَ الشَّيءَ: جاء بعدَه وخلفَه. ٥٢٤
وتدبَّر الأمرَ تدبُّراً: نَظَرَ في أدباره، أي: عواقبه، وتفكَّر فيه. ٥٢٤
والتَّدبُّر: النَّظر في أدبار الأمر. وهو يعني: التَّأمُّلَ في عواقبه، أو ما يؤول إليه. ٥٢٤

مادة «د ق ل»:
الدَّقَل: رَدِيء التَّمر ويابسه، وهو: أردأ التمر. ٩٥

حرف (ذ)

مادة «ذ ق ن»:
الأذقان: جمع ذَقَن، وهو مجتمع اللَّحيين ٢٥١

حرف (ر)

مادة «ر ت ل»:
التَّرتيل: هو التَّأنِّي في القراءة والتَّمهُّل وتبيين الحروف والحركات. ٣٣١، ٣٩٨

مادة «ر ج ل»:
المِرْجَل: قِدْرٌ من نحاس، وقد يطلق على قِدْرٍ يطبخ فيها. ٤٠٧

مادة «ر ف ق»:
الرُّفقة: بضم الراء وكسرها، والأشهر الضم، هم الجماعة المترافقون. ٤٤٨

مادة ،ر ق ي،:

ارتق: أمر من الفعل رقى يرقى، أي: اصعد. ٤٩٤

التراقي: جمع ترقوة، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعنق، وهما ترقوتان من الجانبين. ٤٠٠

مادة ،ر م ي،:

الرَّميَّة: هي الطريدة من الصيد. ٧٥

مادة ،ره ب،:

الرهبان: جمع راهب، مثل ركبان جمع راكب، وفرسان جمع فارس، والراهب من النصارى: المنقطع في دير أو صومعة للعبادة، مشتق من الرهبة، وهي الخوف. ٢٧٧

مادة ،ر و ح،:

الريحان: جنس من النبات، طيب الرائحة من الفصيلة الشفوية، وكل نبت طيب الرائحة، ويقال للمرأة: ريحانة. ٨٦

حرف (ز)

مادة ،ز خ خ،:

زَخَّ: دفع، يقال: زخخته، أزخُّه زخّاً: إذا دفعته. ٩٤

مادة ،ز ل ق،:

الزَّلَق: بفتحتين ـ زَلَلُ الرِّجْل من ملامسة الأرض من طين عليها أو دهن. ٢٢٥

مادة ،ز هـ ر،:

زهراوين: سميتين مائلتين إلى البياض من كثرة السمن. ٣٢٤

حرف (س)

مادة ،س ط ر،:

الأساطير: الأباطيل، وهي جمع أسطورة: وهي القِصَّة المسطورة. ١١٨

مادة ،س ط و،:

السطوة: شدة البطش، يقال: سطا عليه، وسطا به: إذا بطش به وتناوله بالعنف والشدة. ٥٨

مادة «س ف ر»:
السفرة: جمع سافر، ككتبة وكاتب. والسافر: الرسول. والسفرة: الرسل؛ لأنهم يُسْفِرون إلى الناس برسالات الله. وقيل: هم الملائكة؛ سُمُّوا بذلك؛ لأنهم ينزلون بوحي الله، وما يقع به الصلاح بين الناس، كالسفير يُصْلِحُ بين القوم. ٤٥٢

مادة «س ك ن»:
السكينة: الوقار والتأني والسكون. وقيل: الرحمة. وقيل: خَلْقٌ رقيق كالريح والهواء. ٤٤٠

مادة «س م د»:
سامدون: لاهون، مستكبرون. ١٨٦
السُّمود: بمعنى الغناء على لغة حِمْيَر. ١٨٦

مادة «س م ر»:
السُّمَّار: هم الجماعة الذين يتحدثون بالليل، مأخوذ من السَّمَر، وهو: ظِلُّ القمر، ومنه سُمرة اللَّون. ٤٨

مادة «س م ع»:
السّماع: مصدر مشتق من الفعل سَمِعَ الذي يدل على إدراك الشيء بالأذن، يقال: سَمِعَ الشيء ـ بالكسر ـ سَمْعاً وسَمَاعاً، ويجمع على أسماع، وجمع الأسماع: أسامع. ٢١٠

حرف (ش)

مادة «ش ح ب»:
الشاحب: المتغير اللون لعارض من مرض، أو سفر، أو نحوهما. ٣٣١

مادة «ش ر ق»:
شَرْق: بفتح الراء وإسكانها، أي: ضياء ونور. ٥٨٧

مادة «ش ط ن»:
شَطَنين: بفتح الشين المعجمة والطاء: تثنية شطن، وهو الحبل الطويل. ٤٤٠

حرف (ص)

مادة «ص ح ف»:
المصحف: اسم لكل مجموعة من الصحف المكتوبة، ضُمّت بين دفتين. ١٩٥

اللفظ والمعنى	الصفحة
المصحف: هو اسم للمكتوب فيه كلام الله تعالى بين الدفتين.	١٩٦
مادة «ص ف ف»:	
الصُفَّة: موضع مُظَلَّل من المسجد النبوي الشريف، كان فقراء المهاجرين يأوون إليه، وهم المسمَّون بأصحاب الصُفَّة، وكانوا أضياف الإسلام.	٣٢٣
صَوافَّ: جمع صافَّة، وهي الطيور، التي تبسط أجنحتها في الهواء.	٥٨٧
حرف (ض)	
مادة «ض غ ن»:	
الأضغان: جمع ضِغْن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد.	٦٤٥
مادة «ض ن ك»:	
الضنك: الضيق والشدة.	٥١
حرف (ط)	
مادة «ط غ ي»:	
الطاغوت: أصلها طَغُو، من قول القائل: طغى فلان يطغو: إذا عدا قدره فتجاوز الحدَّ.	٦٠٢
والطاغوت: هو كل ذي طغيان على الله، فعُبِدَ من دونه إما بقهر منه لمن عَبَدَه، وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء.	٦٠٢
حرف (ظ)	
مادة «ظ ل ل»:	
الظُّلَّة: ما يقي من الشمس؛ كسحاب أو سقف بيت.	٤٤٣
مادة «ظ ل م»:	
الظالم: الذي يجري على خلاف الحق بدون شبهة.	١٣٣
حرف (ع)	
مادة «ع ج ب»:	
العُجب: الزُّهُوُّ، ورجل معجب: مزهوٌّ بما يكون منه حسناً كان أو قبيحاً.	٤٨٠

اللفظ والمعنى	الصفحة
مادة «ع ض ي»:	
عضين: جمع عضو، وهو مشتق من قولك: عضّيت الشيء تعضيةً إذا فرّقته.	٦٥
وعضين: السحر، مفردها: عَضَهٌ، وهي السحر بلسان قريش، ويقال للساحرة: العاضهة.	٦٦
مادة «ع ق ل»:	
العقال: جُبيل صغير يُشَدُّ به ساعد البعير إلى فخذه.	٤٨٨
مادة «ع هـ د»:	
التَّعَهُّد: المراجعة والمعاودة.	٤٨٨
حرف (غ)	
مادة «غ ش ي»:	
غشي: غشيتهم الرحمة، أي: غطتهم الرحمة، وغشاه تغشيةً: إذا غطاه، وغشي الشيء: إذا لابسه.	٤٣٩
تغشّته: علته وقربت منه.	٤٤٠
مادة «غ ل و»:	
الغلو: التّشدُّد ومجاوزة الحد.	٥٠٤
مادة «غ م ز»:	
الغَمْزُ: الإشارة بالجفون والحواجب.	١٧٤
مادة «غ م م»:	
الغمامة: كل شيء أظل الإنسان فوقَ رأسه من سحابة وغَبَرة وغيرهما، والغيابة نفسها.	٥٨٧
حرف (ف)	
مادة «ف ر ق»:	
فرقان: قطيعان وجماعتان، وكذلك حزقان، يقال في الواحد: فِرق، وحِزق، وحزيقة.	٥٨٧
مادة «ف ر ض»:	
فَرَضَ: ألزَمَ وأوجَبَ وحتَّم.	١١٤

اللفظ والمعنى	الصفحة
مادة «ف ر ي»:	
افتراه: اختلقه من عند نفسه.	١٢٠
الافتراء: اختلاق الأخبار، أي: ابتكارها، وهو الكذب عن عمد.	١٢٨
مادة «ف ص ص»:	
التّفصّي: الانفصال.	٤٨٩
مادة «ف و ق»:	
الفُوق: موضع الوتر من السهم.	٧٥
حرف (ق)	
مادة «ق د ح»:	
القِدْحُ: خشب السّهم.	٧٥
مادة «ق ر أ»:	
القرآن: مصدر قرأ بمعنى تلا.	١٩٤
وهو: كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر.	١٩٥
مادة «ق س س»:	
القسّيسون: هم خطباء النصارى وعلماؤهم، واحدهم: قسيس، وقسٌّ، وقد يجمع على قسوس.	٢٧٧
مادة «ق ط ط»:	
قطّ الشيء: قطعه عَرْضاً.	١٧٩
مادة «ق ل د»:	
التّقليد: جعل القلادة في العنق.	٦٢١
مادة «ق ل ص»:	
القلائص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة، وتُجمع على قِلاص وقُلُص.	٣٢٦
مادة «ق ن ت»:	
القانتين: جمع قانت، الطائعين الخاشعين.	٤٣٧

مادة «ق ي ن»:
القَيْنات: المُغَنِّيات. ٢٦٩

حرف (ك)

مادة «ك ف ف»:
الكفاف: هو الذي لا يفْضل عن الشيء، ويكون بقدر الحاجة إليه. ٤٧٦
مادة «ك ن ن»
الأكنة: جمع كنان، وهو الغطاء؛ لأنه يكن الشيء، أي: يحجبه. ٥٥
مادة «ك و م»:
كوْماوين: مثنى كوماء، فقلبت الهمزة في التثنية واواً، وناقة كوماء: عظيمة السنام طويلته. ٣٢٣

حرف (ل)

مادة «ل ب س»:
اللَّبْس: هو الخلْط، يقال: لبس الثوب يلْبسْ لُبْساً، ولبس عليه الأمر يلْبسُ لبْساً، أي: خلط. ١٥١
مادة «ل ح ن»:
اللّحن: اللَّحْنُ واللّحن واللّحانة واللُّحانية: ترك الصواب في القراءة. ٣٦٦
مادة «ل غ و»:
اللغو: القول الذي لا فائدة منه. ٦١
مادة «ل ق ن»:
يلْقن: يفهم ويحفظ. ٣٥١
مادة «ل م ز»:
يلمزون: يعيبون. ١٧٦
اللمز: الاغتياب وتتبع المعاب. ١٧٦

حرف (م)

مادة «م ح ل»:
ماحلٌ: مجادل ومدافع، وقيل: ساع مصدق، من قولهم: محل بفلان: إذا سعى به إلى السلطان. ٥٩٠

اللفظ والمعنى	الصفحة
مادة «م ر ق»:	
المروق: الخروج، وقيل: هو الخروج السريع.	٧٥
مادة «م ر ط»:	
المروط: جمع مِرْط، وهو الإزار، وقيل: هو كل ثوب غير مخيط.	٥٩٧
مادة «م ر ي»:	
المراء: الجدال.	٧٩
التماري والمُماراة: المجادلة على جهة الشك والريبة.	٧٩
حرف (ن)	
مادة «ن ب ذ»:	
النَّبْذُ: الطرح والإلقاء، ومنه سُمِّي اللقيط منبوذاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء.	٥٧٩
مادة «ن ش ج»:	
النشيج: أشد البكاء، ونشج الباكي: غصَّ بالبكاء في حلقة من غير انتحاب، وقيل: النشيج: صوت معه ترجيع كما يردد الصبي بكاءه في صدره.	٤٠٨
مادة «ن ع م»:	
النَّعم: الإبل والبقر والغنم.	٤٨٩
مادة «ن ف ث»:	
النفث: الشِّعر، وسمي النفث شعراً؛ لأنه كالشيء ينفثه الإنسان من فيه مثل الرقية.	٣٩٥
مادة «ن ف خ»:	
النَّفْخ: الكبر؛ لأن المتكبر يتعاظم ويجمع نَفَسه، فيحتاج أن ينفخ.	٣٩٥
مادة «ن ف ر»:	
يَنْفِرُ: يثب ويجول.	٤٤٠
مادة «ن ك ب»:	
نكبته الحجارة: لثمت الحجارة رِجْله وظُفْره، أي: آذته وأصابته.	١٧٤

اللفظ والمعنى	الصفحة

مادة «ن ك د»:
النكدُ: الشيء القليل الذي لا ينفع. ٩٨

حرف (هـ)

مادة «هـ ج ر»:
الهجر: الهاء والجيم والرَّاء أصلان، يدلُّ أحدهما: على قطيعةٍ وقطع، والآخر: على شدِّ شيءٍ وربْطه. ١٨
والهَجْرُ: ضدُّ الوَصْل، والتَّهاجُرُ: التَّقاطُعُ. ١٨
وهَجَرَه يَهْجُره هَجْراً وهِجْراناً بالكسر: صَرمه وقطعه. ١٨
وهَجرَ الشيء يهْجُره هَجْراً: تَرَكه وأغْفله وأعْرضَ عنه. ١٨
أهْجرَ في مَنْطِقه، إذا أفْحش. وكذلك إذا أكْثرَ الكلامَ فيما لا ينبغي، والاسم: الهُجْر، بالضم. ١٩
وهَجَر يهْجُر هَجْراً، بالفتح، إذا خَلط في كلامه، وإذا هَذَى. ١٩
أهجرت بالرجل: استهزأت به، وقلت فيه قولاً قبيحاً. ١٩
الهَجيرُ والهاجرةُ: نِصْفُ النَّهارِ في القَيْظ خاصَّةً، وهَجَّرَ تَهْجِيراً: سار في الهَاجِرَةِ. ٢٠
الهَجيرُ: المتروك. ٢٠
والهَجيرُ: يبيس النَّبْتِ الذي كَسرته الماشية، وسُمِّي بذلك: لأنَّ الراعي يهجره. ٢٠
الهِجارُ: حَبْلٌ يُشدُّ به الفَحْلُ فيصيرُ سبباً لهجرانه الإبلَ. ٢٠
هِجارُ القوس: وترُها. ٢٠

مادة «هـ ذ ذ»:
هذّاً: الهذُّ والهَذَذُ بفتح الهاء هو: سرعة القراءة وسرعة القطع، يقال: هذَّ القرآنَ يهُذُّه هذّاً: إذا أسرع في قراءته وسرْدِه. ٣٣١

مادة «هـ ز أ»:
استهزأ: سَخِرَ، والهُزْء والهُزُؤُ: السخرية. ١٧٠
الهزء: مزح في خُفية. ١٧٠
الهزء: القتل السريع، وهزأ يهزأ: مات على المكان. ١٧٠
ناقته تهزأ به: تسرع وتخفُّ. ١٧٠

مادة ‹هـ م ز›:
هَمز الشيطانُ همزاً: همس في قلبه وسْواساً، وهمزات الشيطان: خطراته التي يخطرها بقلب الإنسان. ٣٩٥

مادة ‹هـ و ن›:
الهُون: الهوان والذل. ١٢٩

حرف (و)

مادة ‹و ج د›:
الوجْد: المحبة والهوى. ٢٣٠

مادة ‹و ز ر›:
الوِزْر: العقوبة الثّقيلة. ١٣٩

مادة ‹و س د›:
الوسادُ والوسادة: المخدّة، والجمع: وسائد، وقد وسَّدْتُه الشيء فتوسّده: إذا جعلته تحت رأسه. ٢٠٢

مادة ‹و ق ر›:
الوَقْرُ: ثقلُ السمع المانع من وصول الصوت إلى الصماخ. ٥٥
الوِقْرُ: الحمْلُ، يقال: جاء يحمل وِقْره، وقد أوقر بعيره، وأكثر ما يستعمل الوقر في حِمْل البغل والحمار. ٥٦

حرف (ي)

مادة ‹ي ر ع›:
اليراع: القصبة التي يُصفر بها الراعي. ٢٢٩

سادساً: فهرس الفروق اللغوية

الفرق اللغوي	الصفحة
الفرق بين المحكم والمتشابه:	٨٣

المحكم: هو ما وضح معناه، وقيل: ما عرف المراد منه، إما بالظهور، وإما بالتأويل. وقيل: هو المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال واحتمال.

المتشابه: ما يتعارض فيه الاحتمال، فالأسماء المشتركة؛ كالقرء، وكالذي بيده عقدة النكاح، وكاللمس. فالأول: متردد بين الحيض والطهر، والثاني: متردد بين الولي والزوج، والثالث: بين الوطء والمس باليد، وقيل: ما خفي معناه. وقيل: ما استأثر الله بعلمه؛ كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور.

الفرق بين التكذيب والجحود: ١٣٣

التكذيب: يصدر عن اشتباه وشك في الأمر.

الجحود: الجحود، والجحد، هو نفي ما في القلب ثباته وإثبات ما في القلب نفيه، وأن يجري على خلاف الحق بغير شبهة.

الفرق بين الاستهزاء والمزاح: ١٧١

الاستهزاء: السخرية والاستخفاف، والمزاح في خفية لا يدري سامعه هل هو ملاطفة أم أذية؟ فالاستهزاء يكون بأذية.

المزاح: فهو بغير أذية.

الفرق بين الغمز واللمز: ١٧٣

الغَمْز: هو الإشارة بالجفون والحواجب على سبيل السخرية والاستهزاء.

اللَّمْز: هو تعييب الناس باللِّسان، وهو الاغتياب وتتبع المعاب.

الفرق بين السماع والاستماع والإنصات: ٢١٢

السماع: هو مجرد استقبال الأذن لذبذبات صوتية من مصدر معين، دون إعارتها انتباهاً مقصوداً فقد يكون بقصد أو بدون قصد.

الاستماع: هو مهارة يعطي فيها المستمع اهتماماً خاصاً، واهتماماً مقصوداً لما تتلقاه أذنه من أصوات؛ ليتمكن من استيعاب ما يقال، فنلحظ هنا أن مرتبة الاستماع أعلى من السماع؛ لأن الاستماع لا بد فيه من القصد، ولذلك أمرنا الله تعالى عند تلاوة القرآن علينا بقوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ﴾ ولم يقل: «فاسمعوا».

الإنصات: هو المرتبة الأعلى؛ لأن فيه تركيزاً أعلى من الانتباه والإصغاء والسكون من أجل هدف محدد.

الفرق بين الحسد والغبْط: ٤٤٦

الحسد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة، فيتمنى أن تزول عنه، وتكون له دونه.

الغبط: أن يتمنى أن يكون له مثلها، ولا يتمنى زوالها.

الفرق بين الرياء والعُجب: ٤٨١

الرياء: من باب الإشراك بالخلْق، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

العجب: من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر، فالمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الفرق بين كيت وكيت، وذيت وذيت: ٤٨٩

كيت وكيت: يعبر بهما عن الجُمل الكثيرة، والحديث الطويل، وتكون للأفعال.

ذيت وذيت: فهي مثلهما، إلا أنهما يعبر بهما عن الأسماء.

الفرق بين الحكَم، والحاكم: ٦٠٥

الحَكَم: هو الذي يفصل في القضايا والخصومات، ولا تطلق إلا على مَنْ يحكم بالحق.

الحاكم: لا يشترط لإطلاقها أن يكون حاكماً بالحق.

الفرق بين الإصماء والإنماء: ٦٢٢

الإصماء: أن تقتل الصيد مكانه، يقال: رمى فأصمى، أي: أصاب مقتلاً.

الإنماء: أن ترمي الصيد، فيغيب عنك، فيموت ولا تراه وتجده ميتاً، وإنما نهي عنه ـ في الحديث ـ لأنك لا تدري هل مات برميك أو بشيء غيره.

سابعاً: فهرس الأشعار

الشعر		الصفحة
قافية (أ)		
دايَنْتُ أروى والدُّيونُ تُقضى	وليس دينُ الله بالمُقْضى	٦٦
قافية (ب)		
وما نَيْلُ المَطالِب بالتَمنّي	ولكِنْ تُؤخذُ الدُّنْيا غِلابا	٣٥٦
وما استَعْصى على قومٍ منالٌ	إذا الإقْدامُ كانَ لَهُمْ رِكابا	
إنَّ العلومَ وإنْ جلَّتْ مَحاسنُها	فتاجُها ما بِهِ الإيمانُ قَدْ وَجبا	٥٥٤
هُوَ الكِتابُ العزيزُ، اللهُ يحفظُهُ	وبعدَ ذلِكَ عِلْمٌ فرَّجَ الكُرَبا	
واتْلُ بفَهْمٍ كتابَ الله، فيْه أتَتْ	كُلُّ العُلومِ، تَدَبّرْهُ تَرَ العَجَبا	
وما سُمّي الإنسانُ إلّا لِنَسْيِه	ولا القَلْبُ إلّا أنّهُ يتقلَّبُ	٥١٦
قافية (ظ)		
سأنْشُرُ إنْ حَيِيتُ لكم كلاماً	يُنْشرُ في المَجامِعِ مِنْ عُكاظِ	٢٨٢
قافية (ل)		
لَولا المَشقّةُ سادَ النّاسُ كُلُّهُمْ	الجُودُ يُفْقِرُ، والإقْدامُ قَتّالُ	٣٥٥
حُدودُ حُروفِ الذِّكرِ في لفظِ قارئٍ	بِحَدْرٍ وتحقيقٍ ودورٍ مُرتَّلا	٣٧٠
فإنّي رأيتُ البعضَ يتلو القرآنَ لا	يُراعي حُدودَ الحرفِ وَزْناً ومَنْزِلا	
فمنهم بترقيصٍ ولحنٍ وضَجّةٍ	ومنهم بترعيدٍ ونَوحٍ تبدُّلا	
فما كلُّ مَنْ يتلو القرآنَ يُقيمُه	ولا كلُّ مَنْ يقرا مجمّلا	
فَذَرْ نُطْقَ أعجامٍ وما اخترعوا به	وخُذْ نُطْقَ عُرْبٍ بالفصاحة سُؤْلا	
فيا قارئَ القرآنِ أجمِلْ أداءَه	يُضاعِفْ لك الرّحمنُ أجراً فأجْزِلا	

الشعر		الصفحة
فيا أيُّها القاري به مُتَمَسِّكاً	مُجلاً لَهُ في كُلِّ حالٍ مُبَجِّلا	٣٣٣
هَنيئاً مَريئاً والداكَ عليهِما	مَلابِسُ أنْوارٍ منَ التّاجِ وَالحُلا	
فَمَا ظَنُّكُمْ بِالنَّجلِ عِنْدَ جَزائِهِ	أُوْلَئِكَ أهْلُ اللّهِ والصَّفْوَةُ المَلا	
سَهرُ العُيُونِ لِغَيْرِ وجهِكَ ضائعٌ	وَبُكاؤهُنّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ باطِلُ	٤٧٠
إذا العِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بهِ كانَ حُجّةً	عَلَيْكَ، وَلَمْ تُعْذَرْ بِما أنْتَ حامِلُ	٥٩٣
فَإنْ كُنْتَ قَدْ أبْصَرْتَ هذا فَإنّما	يُصَدِّقُ قَوْلَ المَرْءِ ما هُوَ فاعِلُ	
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ المَذَلّةِ ساعةً	قَطَعَ الزّمانَ بِأسْرِهِ مَذْلُولاً	٣١٥
قافية (ن)		
ضَحُّوا بِأشْمَطَ عُنْوانُ السُّجودِ بهِ	يُقَطِّعُ اللّيلَ تَسْبيحاً وَقُرآناً	١٩٥
إنّ للهِ عِباداً فُطَنا	طَلَّقُوا الدُّنْيا وخافُوا الفِتَنا	٣٧٧
نَظَرُوا فيها فَلَمّا عَلِمُوا	أنّها لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنا	
جَعَلُوها لُجّةً واتّخَذُوا	صالِحَ الأعْمالِ فيها سُفُنا	
قافية (ي)		
ألا لا أرى على الحَوادِثِ باقِياً	ولا خالِداً إلّا الجِبالَ الرّواسِيا	٦٦٤
العِلْمُ حَرْبٌ لِلْفَتى المُتَعالي	كالسّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكانِ العالي	٣٠٩
بِقَدْرِ الكَدِّ تُكْتَسَبُ المَعالي	ومَنْ طَلَبَ العُلا سَهِرَ اللّيالي	٣٠٩
تَرُومُ العِلْمَ ثُمّ تَنامُ لَيْلاً	يَغُوصُ البَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللآلي	
من منظومة «الأرجوزة المنبهة»:		٢٩١
فَاقْصِدْ شُيُوخَ العِلْمِ والرِّوايَهْ	ومَنْ سَمَا بِالفَهْمِ والدِّرايَهْ	
مِمّنْ رَوَى وَقَيَّدَ الأخْبارا	وانْتَقَدَ الطُّرُقَ والآثارا	
وَفَهِمَ اللُّغاتِ والإعْرابا	وَعَلِمَ الخَطَأَ والصَّوابا	
وحَفِظَ الخِلافَ والحُرُوفا	ومَيَّزَ الزّاهِيَ والمَعْرُوفا	

الشعر		الصفحة
وجمعَ التفسيرِ والأحكاما	ولازمَ الحُذّاقَ والأعلاما	
وصحبَ النُّسّاكَ والأخيارا	وجانبَ الأرذالَ والأشرارا	
واتبعِ السُّنّةَ والجماعةْ	وقامَ للّهِ بحُسْنِ الطّاعةْ	
وجانبِ الأراذلَ المُبتدعةْ	واعملْ بقولِ الفرقةِ المُتّبعةْ	٢٩٢
ومنْ عُقودِ السُّنّةِ الإيمانْ	بكُلّ ما جاءَ به القُرآنْ	
وبالحديثِ المُسْندِ المرويّْ	عنِ الأئمّةِ عنِ النّبيّْ	
فمنْ صحيحِ ما أتى به الأثرْ	وشاعَ في النّاسِ قديماً وانتشرْ	
نُزولُ ربّنا بلا امتراءِ	في كُلّ ليلةٍ إلى السّماءِ	
منْ غيرِ ما حدٍّ ولا تكييفِ	سُبحانهُ منْ قادرٍ لطيفِ	
ورؤيةُ المُهيمنِ الجبّارِ	وأنّنا نراهُ بالأبصارِ	
يومَ القيامةِ بلا ازدحامِ	كرؤيةِ البدرِ بلا غمامِ	
من منظومة «طيّبة النشر»:		
وبعدُ: فالإنسانُ ليسَ يشرُفُ	إلّا بما يحفظُهُ ويعرفُ	٤٩٧
لذاكَ كانَ حاملو القُرآنِ	أشرافَ الأمّةِ أولي الإحسانِ	
وإنّهُمْ في النّاسِ أهلُ اللّهِ	وإنّ ربّنا بهمْ يُباهي	
وقالَ في القُرآنِ عنهُمْ وكفى	بأنّهُ أورثهُ منِ اصطفى	
وهوَ في الأخرى شافعٌ مُشفّعُ	فيهِ وقولُهُ عليهِ يُسمعُ	
يُعطى به المُلكَ معَ الخُلدِ إذا	توّجهُ تاجَ الكرامةِ كذا	
يقرا ويرقى درجَ الجِنانِ	وأبواهُ منهُ يُكسيانِ	
فليحرصِ السّعيدُ في تحصيلهِ	ولا يملَّ قطُّ منْ ترتيلهِ	

ثامنا: فهرس الأماكن

المكان	الصفحة
بئر جمل	٣٩٠
البصرة	٣٥٢
برك الغماد	٣٥٧
بُطْحان	٣٢٣
تِهامة	٢٨١
الجزائر	٣٨٥
الحبشة	٢٧٨، ٣٥٢
حمص	٣٥١
دمشق	٣٥١
الطائف	١٨٧
العَضْبَة	١٨٧
العقيق	٣٢٣
عكاظ	٢٨٢
عَمَواس	٣٥١
فلسطين	٣٥١
الكوفة	١٧٩، ٣٥٢
مصر	٥٤٤
المدينة	٢٧٧
مرو	٣٥٩
مرو الرُّوذ	٣٥٩
مكة	١٨٧
نجران	١٥٤
نَخْلَة	٢٨١
اليمن	١٥٤، ٣٣٦

تاسعاً: فهرس الأحكام الفقهية

الحكم	الصفحة
أولاً: أحكام تتعلق بالقرآن:	
١ ـ أحكام تعظيم القرآن والإيمان به:	
حُكم هجر القرآن	٣٥
حكم تعظيم القرآن	٣٦
حكم مَنْ جحد منه حرفاً مجمعاً عليه، أو زاد حرفاً	٣٦
حكم من استخف بالقرآن، أو بشيء منه، أو بالمصحف	٣٦
حكم من كذب بشيء مما جاء به من حكم أو خبر	٣٦
حكم من نفى ما أثبته، أو أثبت ما نفاه، أو شك في شيء من ذلك	٣٦
حكم الجدال في القرآن والمراء فيه	٧٦، ٨٢
حكم الإيمان بالقرآن	١٠٤
حكم من أنكر القرآن، أو بعضه، ولو كانت آية واحدة، أو حرفاً واحداً	١٤٤
حكم من لم يؤمن بالقرآن من أهل الكتاب	١٥٧
حكم من استهزأ بكتاب الله، أو بسنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك أو تنقصه	١٩٨
حكم الهزل بالكفر	١٩٨
حكم من استهزأ بالقرآن	١٩٧
٢ ـ أحكام التلاوة والاستماع:	
حكم قراءة القرآن في البيوت	٩٧
حكم أكل الثوم والبصل قبل التلاوة	١٧٨
حكم استقبال القبلة عند القراءة	١٧٨
حكم الاستعاذة والبسملة عند الشروع في القراءة	١٧٨
حكم رفع الصوت عند سماع القرآن	٢٣٠
حكم الاستماع للقرآن حين يقرأ	٢٥٤
حكم الإعراض عن استماع القرآن	٢٥٨
حكم تلاوة القرآن على طهارة	٣٩٠

الحكم	الصفحة

حكم تلاوة المحدث ٣٩١
القراءة في الأماكن النظيفة ٣٩٢
حكم القراءة في الأماكن المستخبثة ٣٩٢
حكم التلاوة على الراحلة وفي الطريق ٣٩٢
حكم استقبال القبلة عند التلاوة ٣٩٣
حكم تنظيف الفم بالسواك وغيره ٣٩٤
حكم الاستعاذة عند افتتاح التلاوة ٣٩٥
حكم البسملة ٣٩٦
حكم تحسين الصوت بالقراءة ٤٠١
حكم القراءة بالألحان المطربة ٤٠٤
حكم البكاء أثناء التلاوة ٤٠٧
حكم الجهر بالقراءة ٤٠٩
حكم قطع القراءة ٤١٢
حكم سجود التلاوة ٤١٥
حكم سجود المستمع تبعاً لسجود القارئ ٤١٨
حكم السامع لقراءة فيها سجدة ٤١٩
حكم القدر المستحب في ختم القرآن ٤١٩
حكم تحزيب القرآن ٤٢٥
حكم دعاء ختم القرآن ٤٢٩

٣ ـ أحكام تعلم القرآن وتعليمه:
حكم تعلم القرآن وتعليمه ٣٣٧
حكم تعليم القرآن لغير المسلم ٣٣٩
حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤٠
حكم حفظ القرآن على الأمة ٥١٠
حكم حفظ القرآن على أفراد المسلمين ٥١٠
حكم تحفيظ القرآن للصبيان ٥١٢
حكم نسيان القرآن ٥١٣

٤ ـ أحكام تدبر القرآن والعمل به:
حكم تدبر القرآن ٥٣١

الحكم	الصفحة

حكم تعلم وتعليم اللغة العربية ٥٣٩
حكم العمل بالقرآن ٥٧٢
حكم التحاكم إلى القرآن ٦٠٣
حكم إجابة القاضي المسلم ٦٠٧

ثانيا: أحكام تتعلق بالمصحف:

حكم الطهارة عند ملامسة المصحف ١٧٨
حكم تصغير اسم المصحف، ورسمه وحجمه ١٧٩
حكم زخرفة المصحف وتزيينه، وكتابته بأحد النقدين، أو الأعجمية ١٨٠
حكم استدبار المصحف، أو توسده، أو رميه عند وضعه ١٨١
حكم تصغير كلمة (مصحف) إلى (مصيحف)، وكلمة (مسجد) إلى (مسيجد)، وقولهم: سورة صغيرة .... ١٨١، ١٨٢
حكم وضع شيء فوقه، أو بين أوراقه ١٨٢
حكم حمله إلى الأماكن الممتهنة، أو السفر به إلى أرض العدو، أو تعريضه لأي نوع من أنواع الأقذار ١٨٢
حكم كتابته على الأرض، أو حوائط المساجد وغيرها، أو الكتابة في حواشيه أو جلده ١٨٣
حكم الاتكاء على المصحف ٢٠١
حكم توسد المصحف ٢٠٢
حكم إتلاف المصحف وتمزيقه ٢٠٣
حكم إدخال المصحف القبر ٢٠٤
حكم بلع شيء من المصحف ٢٠٤
حكم التبرك بالمصحف ٢٠٥
حكم تلويث المصحف ٢٠٥
حكم وطء المصحف ٢٠٦

ثالثاً: أحكام متفرقة:

حكم الهجر بين المسلمين ٢٧
حكم زيارة القبور ٢٩

عاشراً: فهرس الآداب

الموضوع | الصفحة

أولاً: آداب التعامل مع المصحف:
١ ـ تحاشي التصغير في اسمه ورسمه وحجمه ١٧٩
٢ ـ يُطالب من يكتبه بتحسين خطّه وتجميله، وأن يكتبه على ورق يليق بمقامه ١٧٩
٣ ـ عدم إضافة شيء إليه، أو زخرفته، أو تحليته، أو كتابته بأحد النقدين، أو كتابته بالأعجمية، أو اتخاذُه مُتْجَراً ١٨٠
٤ ـ عدم استدباره، أو توسده، أو رميه عند وضعه أو مناولته، أو مد الرجلين إليه، أو التروُّح به، أو استعمال الشمال في تناوله وأخذه ١٨١
٥ ـ عدم تصغير اسمه، وألا يُقال: سورة صغيرة .... ١٨١، ١٨٢
٦ ـ الحذر من وضع شيء فوقه، أو بين أوراقه، أو حمله حال دخول الأماكن الممتهنة، أو السفر به إلى أرض العدو، أو تعريضه لأيِّ نوع من أنواع الأقذار ١٨٢
٧ ـ الحذر من كتابته على الأرض أو الحوائط، أو الكتابة في حواشيه أو جلده ... ١٨٣
٨ ـ الحذر من استعماله في غير ما وضع له؛ كالتَّثقيل به، أو تعليقه كجرز، أو زينة، أو اقتنائه لمجرد التبرك به ١٨٣

ثانياً: آداب استماع القرآن:
١ ـ تعظيم المتكلِّم ٢٣٦
٢ ـ استشعار عظمة الكلام وعلوّه ٢٣٦
٣ ـ حضور القلب عند السماع ٢٣٦
٤ ـ تدبر المسموع ٢٣٧
٥ ـ تفهم الآيات المسموعة ٢٣٨
٦ ـ التخلي عن موانع الفهم ٢٣٨
٧ ـ أن يقدر ـ في نفسه ـ أنه المقصود بكل آية سمعها ٢٣٩
٨ ـ التأثر بالآيات المسموعة ٢٣٩
٩ ـ الترقّي في استماع القرآن ٢٤٠
١٠ ـ التبرؤ من الحول والقوة حال السماع ٢٤١

الموضوع الصفحة

ثالثاً: آداب معلم القرآن ومتعلمه:

أ ـ آداب مشتركة بين معلم القرآن ومتعلمه:
١ ـ التمسك بمنهج السلف في الاعتقاد ٢٩٠
٢ ـ الإخلاص لله تعالى ٢٩٢

ب ـ آداب معلِّم القرآن:
١ ـ الاستقامة على دين الله تعالى ٢٩٦
٢ ـ حسن الخُلُق مع المتعلِّمين ٢٩٨
٣ ـ بذل النصيحة للمتعلِّمين ٣٠٠
٤ ـ التدرج في التعليم والتربية ٣٠١
٥ ـ الرفق بالمتعلِّمين ٣٠٣
٦ ـ الصبر على المتعلِّم ٣٠٥

جـ ـ آداب متعلِّم القرآن:
١ ـ تطهير القلب ٣٠٨
٢ ـ الزهد في الدنيا ٣٠٨
٣ ـ التواضع للمعلِّم ٣٠٩
٤ ـ الدعاء للمعلِّم والاعتراف بفضله ٣١٠
٥ ـ اختيار المعلم الأصلح والأعلم ٣١٢
٦ ـ التبكير إلى مجلس الدرس ٣١٣
٧ ـ التحلي بالأدب في مجلس التعليم ٣١٣

رابعاً: آداب التلاوة:
١ ـ إخلاص النية لله تعالى ٣٨٩
٢ ـ العمل بالقرآن ٣٩٠
٣ ـ إجلال القرآن وتعظيمه ٣٩٠
٤ ـ تلاوة القرآن على طهارة ٣٩٠
٥ ـ اختيار الوقت المناسب ٣٩١
٦ ـ اختيار المكان المناسب ٣٩٢
٧ ـ حسن الجِلْسَة واستقبال القبلة ٣٩٣
٨ ـ استحباب تنظيف الفم بالسواك ٣٩٤
٩ ـ اجتناب أكل الثوم والبصل قبل التلاوة ١٧٨

الموضوع | الصفحة

١٠ ـ الاستعاذة عند افتتاح التلاوة ٣٩٥
١١ ـ البسملة ٣٩٦
١٢ ـ حصر الفكر أثناء التلاوة ٣٩٧
١٣ ـ استحباب الترتيل وكراهية السرعة المفرطة ٣٩٨
١٤ ـ استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٤٠١
١٥ ـ عدم القراءة بالألحان المطربة ٤٠٤
١٦ ـ وجوب تدبر القرآن ٤٠٦
١٧ ـ البكاء أو التباكي أثناء التلاوة ٤٠٧
١٨ ـ الجهر بالقرآن إذا لم يترتب عليه مفسدة ٤٠٩
١٩ ـ اتصال القراءة وعدم قطعها ٤١٢
٢٠ ـ أن يحسن الوقف والابتداء أثناء التلاوة ٤١٣
٢١ ـ الوقوف عند رؤوس الآيات ٤١٣
٢٢ ـ أن يُسبِّح عند آية التسبيح، وأن يتعوذ عند آية التعوذ، وأن يسأل عند آية الرحمة ٤١٤
٢٣ ـ الإمساك عن القراءة عند غلبة النعاس ٤١٥
٢٤ ـ السجود عند المرور بآية سجدة ٤١٥
٢٥ ـ مراعاة القدر المستحب في ختم القرآن ٤١٩
٢٦ ـ تحزيب القرآن ٤٢٥
٢٧ ـ دعاء ختم القرآن ٤٢٩

خامسا: آداب حفظ القرآن:

أ ـ آداب أثناء الحفظ:
١ ـ الإخلاص لله تعالى ٤٦٩
٢ ـ استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته ٤٧٢
٣ ـ معرفة أن الأصل في تلقي القرآن حفظه ٤٧٣
٤ ـ الرغبة القوية الصادقة ٤٧٤
٥ ـ التقلل من الدنيا ٤٧٥
٦ ـ الدعاء والالتجاء إلى الله ٤٧٧

ب ـ آداب بعد الحفظ:
١ ـ الخوف من الوقوع في الرياء ٤٧٨

الموضوع	الصفحة
٢ ـ الخشية من العُجب بالنفس، والتعالي على الخلق	٤٨٠
٣ ـ الحذر من الذنوب والمعاصي	٤٨٢
٤ ـ تعاهد القرآن والحذر من نسيانه	٤٨٨

حادي عشر: فهرس الفضائل

الموضوع | الصفحة

أولاً: فضائل استماع القرآن:
١ ـ القرآن الكريم متعبد بسماعه ٢٤٤
٢ ـ استماع القرآن سبب لرحمة الله ٢٤٥
٣ ـ استماع القرآن سبب لهداية الثقلين ٢٤٦
٤ ـ استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين ٢٤٩

ثانياً: فضائل تعلُّم القرآن وتعليمه:
١ ـ معلِّم القرآن ومتعلِّمه متشبه بالملائكة والرسل ٣١٩
٢ ـ خير الناس مَنْ تعلَّم القرآن وعلَّمه ٣٢٠
٣ ـ تعلُّم القرآن وتعليمه خير من كنوز الدنيا ٣٢٣
٤ ـ من علَّم آية كان له ثوابها ما تليت ٣٢٧
٥ ـ عِظَمُ ثواب مَنْ يعلم الصغار القرآن ٣٣٠

ثالثاً: فضائل تلاوة القرآن:
١ ـ التلاوة تجارة رابحة ٤٣٣
٢ ـ تنزُّل السكينة والرحمة والملائكة للتلاوة ٤٣٩
٣ ـ ذكر الله لهم فيمن عنده ٤٤٤
٤ ـ اغتباط التالي للقرآن ٤٤٥
٥ ـ اغتباط القائم بالقرآن ٤٤٧
٦ ـ التلاوة حلية لأهل الإيمان ٤٤٩
٧ ـ التلاوة كلها خير ٤٥٢

رابعاً: فضائل حفظ القرآن:
١ ـ ارتفاع منزلة الحافظ ٤٩٤
٢ ـ منح الحافظ كرامات متعددة ٤٩٦
٣ ـ الحافظ مع السفرة الكرام البررة ٤٩٨

الموضوع — الصفحة

٤ ـ الحافظ مقدم في الدنيا والآخرة: ٤٩٩
أ ـ الحفاظ هم الأولى بالإمارة ٤٩٩
ب ـ الحفاظ هم الأولى بالإمامة ٥٠٠
جـ ـ الحفاظ هم أصحاب الشورى ٥٠٢
د ـ الحفاظ هم المقدمون في البرزخ ٥٠٢
٥ ـ الحفاظ هم أهل الله وخاصته ٥٠٣
٦ ـ إكرام الحافظ في الدنيا من إجلال الله تعالى ٥٠٤
٧ ـ ثناء الله على الحفاظ ٥٠٥
٨ ـ الحفاظ لا تحرقهم النار ٥٠٦

خامساً: فضائل تدبر القرآن:
١ ـ تعميق جذور الإيمان ٥٦٤
٢ ـ معرفة الرب ﷻ ٥٦٥
٣ ـ تحقيق العبودية لله تعالى ٥٦٦
٤ ـ التدبر غذاء للروح ٥٦٧
٥ ـ التدبر علاج يشفي النفوس ٥٦٧
٦ ـ التدبر سلاح يدفع الأخطار المحدقة بالفرد والمجتمع من الداخل والخارج ... ٥٦٧
٧ ـ التدبر فيه تربية للعقول ٥٦٨
٨ ـ التدبر مفتاح كل خير ٥٦٨
٩ ـ التدبر صقل للمواهب وتنمية للقدرات العقلية ٥٦٩

سادساً: فضائل العمل بالقرآن:
١ ـ الهداية في الدنيا والآخرة ٥٨١
٢ ـ الرحمة في الدنيا والآخرة ٥٨٣
٣ ـ الفلاح في الدنيا والآخرة ٥٨٣
٤ ـ تكفير السيئات وإصلاح البال ٥٨٤

سابعاً: فضائل الحكم بما أنزل الله:

أولاً: في الدنيا:
١ ـ الاستخلاف والتمكين ٦٢٦
٢ ـ الأمن والاستقرار ٦٢٧
٣ ـ النصر والفتح ٦٢٩

الموضوع	الصفحة

٤ ـ العز والشرف ٦٣٠
٥ ـ بركة العيش ورغده ٦٣٢
٦ ـ الهداية والتثبيت ٦٣٣
ثانياً: في الآخرة:
١ ـ الفلاح والفوز ٦٣٥
٢ ـ المغفرة وتكفير السيئات ٦٣٦
٣ ـ الأجر العظيم ٦٣٧
٤ ـ مرافقة الأنبياء والصديقين ٦٣٨

ثاني عشر: فهرس البدع

الموضوع	الصفحة
١ ـ التنطع في القراءة والوسوسة في مخارج الحروف	٣٦٥
٢ ـ الخروج بالقراءة عن لحن العرب إلى لحون العجم	٣٦٦
٣ ـ القراءة بألحان أهل الفسق والفجور	٣٦٧
٤ ـ قراءة الأنغام والتمطيط	٣٦٨
٥ ـ قراءة التحزين والتطريب	٣٦٨
٦ ـ قراءة التحريف	٣٦٨
٧ ـ قراءة الترعيد	٣٦٩
٨ ـ هذه كهذ الشعر	٣٧٠
٩ ـ القراءة بالإدارة	٣٧٠
١٠ ـ قراءة القرآن في مجلس شرب الدخان	٣٧١
١١ ـ القراءة والإقراء بشواذ القراءات	٣٧١
١٢ ـ جمع القراءات في مجلس واحد	٣٧١
١٣ ـ قول السامع للقارئ: «الله ـ الله»	٣٧٢
١٤ ـ التزام قول «صدق الله العظيم» بعد التلاوة	٣٧٢
١٥ ـ قراءة الفاتحة بنية قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وهلاك الأعداء	٣٧٣
١٦ ـ قراءة الفاتحة عند شرط خِطبة الزواج، واعتقادهم أن قراءتها عهد لا ينقض، أو أنها تعدل أربعة وأربعين يميناً	٣٧٣
١٧ ـ قول بعضهم بعد قراءة القرآن: الفاتحة	٣٧٣
١٨ ـ قول بعضهم: الفاتحة على روح فلان	٣٧٣
١٩ ـ قراءة الفاتحة بعد الدعاء	٣٧٣
٢٠ ـ قراءة الفاتحة بعد صلاة الفريضة	٣٧٣
٢١ ـ قراءة الفاتحة جهراً بعد التسليم من صلاة الجنازة	٣٧٣
٢٢ ـ قراءة الفاتحة عند رأس الميت	٣٧٣
٢٣ ـ قراءة الفاتحة عند المرور بالمقابر	٣٧٣
٢٤ ـ قراءة القرآن عند القبر	٣٧٣

ثالث عشر: ثبت المصادر والمراجع

أولاً: كتب التفسير وعلوم القرآن وما يتبعه:

١ ـ **الآيات القرآنية الواردة في المستهزئين بالإسلام ودعاته**: سامي بن وديع عبد الفتاح. (رسالة ماجستير في التفسير) ـ جامعة آل البيت، الأردن.

٢ ـ **الإتقان في علوم القرآن**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق وتخريج: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٣ ـ **الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم**: دراسة ونقد د. إبراهيم على السيد علي عيسى. دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٤ ـ **الأحكام الشرعية لقراءة القرآن الكريم**: د. محمود أحمد الأطرش. دار الإيمان، الإسكندرية.

٥ ـ **الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم**: أ.د. عبد العزيز بن محمد الحجيلان. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.

٦ ـ **أحكام القرآن**: محمد بن عبد الله بن العربي. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الفكر، لبنان.

٧ ـ **أخلاق حملة القرآن**: محمد بن الحسين الآجُرّي. تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٨ ـ **الأُرجوزة المنبِّهة على أسماء القرَّاء والرُّواة وأصول القراءات وعقد الدِّيانات بالتَّجويد والدِّلالات**: أبو عمرو الداني. تحقيق: محمد بن مجقان الجزائري، دار المغني، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٩ ـ **أسباب النزول**: علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. تحقيق: د. عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

١٠ ـ **أسلوب السخرية في القرآن الكريم**: د. عبد الحليم حنفي. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

١١ ـ **الأمثال في القرآن الكريم**: ابن قيم الجوزية (منتخب من أعلام الموقعين). تحقيق: إبراهيم محمد، مكتبة الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٢ ـ **أنوار القرآن**: مصطفى الحمصي. مكتبة الغزالي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٣ ـ **بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم**: جمع وتخريج: يسري السيد محمد. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٤ ـ **بدع القراء القديمة والمعاصرة**: د. بكر بن عبد الله أبو زيد. دار الفارق، الطائف، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٥ ـ **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة**: عبد الفتاح القاضي. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

١٦ ـ **البرهان في علوم القرآن**: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.

١٧ ـ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة بدون.

١٨ ـ **بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للخطابي، والرماني، والجرجاني**: حمد بن محمد الخطابي. تحقيق: د. محمد زغلول سلام وآخرين، دار المعارف، مصر، ١٣٧٦هـ.

١٩ ـ **التبيان في آداب حملة القرآن**: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: نبيل بن منصور البصارة، دار الدعوة، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٠ ـ **التبيان في أقسام القرآن**: ابن قيم الجوزية. تحقيق: طه شاهين، دار الكتاب العربي.

٢١ ـ **تدبر القرآن**: سليمان بن عمر السنيدي. المنتدى الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

٢٢ ـ **التذكار في أفضل الأذكار**: محمد بن أبي بكر القرطبي. دراسة وتحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

٢٣ ـ **التسهيل لتأويل التنزيل (سورة البقرة)**: مصطفى بن العدوي. دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٢٤ ـ **تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)**: محمود الألوسي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٢٥ ـ **تفسير البغوي (معالم التنزيل)**: الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: خالد بن عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢٦ ـ **تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**: عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي. دار الفكر، بيروت.

٢٧ ـ تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن): عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
٢٨ ـ تفسير ابن جُزي (التسهيل لعلوم التنزيل): محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي. تحقيق: محمد عبد المنعم وإبراهيم عطوه، أم القرى للطباعة، القاهرة.
٢٩ ـ تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
٣٠ ـ تفسير ابن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير): عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
٣١ ـ تفسير ابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن محمد الرازي. تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.
٣٢ ـ تفسير أبي حيان (البحر المحيط): محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.
٣٣ ـ تفسير الرازي (التفسير الكبير): محمد بن عمر بن الحسين الرازي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
٣٤ ـ تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل): محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة بدون.
٣٥ ـ تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان): عبد الرحمن بن ناصر السعدي. تقديم: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ. (عدد الأجزاء ١).
٣٦ ـ تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان): عبد الرحمن بن ناصر السعدي. دار المدني، جدة، الطبعة بدون، ١٤٠٨هـ. (عدد الأجزاء: ٥).
٣٧ ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم): محمد بن محمد العمادي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٨ ـ تفسير السمرقندي (بحر العلوم): نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي. تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.
٣٩ ـ تفسير السمعاني: منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني. تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٤٠ ـ تفسير السيوطي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور): عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي. دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

٤١ ـ **تفسير الشعراوي**: محمد متولي الشعراوي. أخبار اليوم، القاهرة.
٤٢ ـ **تفسير الشنقيطي (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)**: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٤٣ ـ **تفسير الشوكاني (فتح القدير الجامع بين فَنَّي الرواية والدراية في علم التفسير)**: محمد بن علي بن محمد الشوكاني. اعتنى به: سعيد محمد اللّحام، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٤٤ ـ **تفسير الصنعاني**: عبد الرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٤٥ ـ **تفسير الطبري (جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن)**: محمد بن جرير الطبري. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
٤٦ ـ **تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير)**: محمد الطاهر ابن عاشور. مؤسسة التاريخ، بيروت، الطبعة الأولى،١٤٢٠هـ.
٤٧ ـ **تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)**: عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
٤٨ ـ **تفسير القاسمي (محاسن التأويل)**: محمد جمال الدِّين القاسمي. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٤٩ ـ **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. تحقيق وتخريج: د. محمد إبراهيم الحفناوي ود. محمود حامد عثمان، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٥٠ ـ **تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)**: إسماعيل بن عمر بن كثير. دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ. (عدد الأجزاء: ٤).
٥١ ـ **تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)**: إسماعيل بن عمر بن كثير. تحقيق: جماعة من الباحثين، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ. (عدد الأجزاء: ٨)
٥٢ ـ **تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)**: محمد رشيد رضا. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.
٥٣ ـ **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**: أ. د. وهبة الزحيلي. دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
٥٤ ـ **التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بالكتب السماوية**: د. عبد العزيز الدردير موسى. دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٥٥ ـ تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥٦ ـ تفسير الواحدي (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز): علي بن أحمد الواحدي. تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٥٧ ـ التفسير والمفسرون: د. محمد حسين الذهبي. مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤١٦هـ.
٥٨ ـ التصوير الفني في القرآن: سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤١٣هـ.
٥٩ ـ تقريب وتهذيب تفسير الطبري: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٦٠ ـ الثمر الدَّاني من صحيحة الألباني في فضائل القرآن وأحكامه: إبراهيم المناوي. القاهرة، الطبعة بدون.
٦١ ـ جمال القراء وكمال الإقراء: محمد بن علي بن عبد الصمد السخاوي. تحقيق: د. علي حسين النواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٦٢ ـ حديث القرآن عن القرآن: محمد بن عبد الرحمن الرَّاوي. مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٦٣ ـ حِرْز الأماني ووجه التَّهاني في القراءات السبع: القاسم بن فِيُرُّهْ بن خلف الشاطبي. دار الكتاب النفيس، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.
٦٤ ـ حفظ القرآن الكريم: محمد بن عبد الله الدويش. دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
٦٥ ـ حق التلاوة: حسني شيخ عثمان. دار المنارة، جدة، الطبعة الثانية عشرة، ١٤١٨هـ.
٦٦ ـ حق القرآن الكريم على الناس: يوسف علي بديوي. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٦٧ ـ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي: عبد العزيز مصطفى كامل. دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٦٨ ـ خصائص القرآن الكريم: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي. رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٠هـ.
٦٩ ـ دراسات في علوم القرآن الكريم: د. فهد الرومي. مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٧٠ - دراسات قرآنية: محمد قطب. دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤١١هـ.

٧١ - دعوة إلى تدبر القرآن الكريم: مختار شاكر كمال. دار البشير، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٧٢ - دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. تحقيق: محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٧٣ - رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم: د. محمد جمعة عبد الله. جامعة أم القرى بمكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٧٤ - السبعة في القراءات: أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي. تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

٧٥ - طَيِّبَة النَّشْر في القراءات العَشْر: محمد بن محمد بن علي ابن الجَزَري. ضبطه وراجعه: محمد تميم الزُّعبي، دار الهدى، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

٧٦ - عظمة القرآن الكريم: محمود بن أحمد الدوسري. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٧٧ - عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: اختصار وتحقيق: أحمد محمد شاكر. مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٧٨ - عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أحمد بن يوسف الحلبي (ت ٧٥٦هـ). تحقيق: محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.

٧٩ - العودة إلى القرآن لماذا وكيف: د. مجدي الهلالي. دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٨٠ - غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد بن محمد ابن الجزري. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.

٨١ - فتح البيان في مقاصد القرآن: صديق بن حسن القنوجي. وَضَع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.

٨٢ - فتح الرحمن في بيان هجر القرآن: محمد آل عبد العزيز ومحمود الملاح. دار طيبة الخضراء، مكة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.

٨٣ - الفتوحات الربانية في الآيات القرآنية: د. عبد الباري محمد داود. دار نهضة الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٨٤ - فضائل القرآن: جمع وترتيب إبراهيم عبد المنعم الشربيني. دار ابن كثير، الزقازيق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٨٥ ـ **فضائل القرآن**: أحمد بن شعيب بن علي النسائي. تحقيق: سمير الخولي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٨٦ ـ **فضائل القرآن**: جعفر محمد الفريابي. تحقيق وتخريج: د. يوسف عثمان جبريل، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

٨٧ ـ **فضائل القرآن**: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق وتخريج: مجموعة من الباحثين، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية،١٤٢٠هـ.

٨٨ ـ **فضائل القرآن**: عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير. تحقيق وتخريج: أبو إسحاق الحويني الأثري، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٨٩ ـ **فضائل القرآن وتلاوته وخصائص تلاته وحملته**: عبد الرحمن بن أحمد الرازي. تحقيق وتخريج: د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٩٠ ـ **فضائل القرآن وحملته في السنة المطهرة**: محمد موسى نصر. دار اليقين، البحرين، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

٩١ ـ **فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة**: محمد بن أيوب بن الضريس البجلي. تحقيق: عروة بدير، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٩٢ ـ **فقه قراءة القرآن الكريم**: سعيد يوسف. مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٩٣ ـ **فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن**: د. أحمد سالم ملحم. دار النفائس، عمَّان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٩٤ ـ **في ظلال القرآن**: سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤٠٧هـ.

٩٥ ـ **قاعدة في فضائل القرآن**: ابن تيمية. دراسة وتحقيق: د. سليمان بن صالح القرعاوي، مكتبة الظلال، الأحساء، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٩٦ ـ **القرآن الكريم تاريخه وآدابه**: إبراهيم علي عمر. مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٩٧ ـ **القرآن الكريم رؤية تربوية**: د. سعيد إسماعيل علي. دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٩٨ ـ **قرآنكم يا مسلمون**: إبراهيم بن محمد الضبيعي. مطابع البادية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٩٩ ـ **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله:** د. عبد الرحمن بن حسن حبنكة. دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

١٠٠ ـ **القواعد الحسان لتفسير القرآن:** عبد الرحمن بن ناصر السعدي. مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

١٠١ ـ **الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ والانتفاع بالقرآن:** محمد بن مصطفى بن شعيب. مكتبة آل ياسر، الجيزة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٠٢ ـ **كيف نتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها:** د. نور الدين عتر. دار الرؤية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٠٣ ـ **كيف تحفظ القرآن الكريم:** عبد الرب نواب الدين. مكتبة ابن القيم، المدينة النبوية، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

١٠٤ ـ **كيف نتأدب مع المصحف:** محمد رجب فرجاني. دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٣هـ.

١٠٥ ـ **كيف نتدبر القرآن:** فواز أحمد زمرلي. دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٠٦ ـ **كيف نتعامل مع القرآن العظيم:** د. يوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٠٧ ـ **كيف نحيا بالقرآن:** نبيه زكريا عبد ربه. دار الحرمين، الدوحة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٠٨ ـ **مباحث في علوم القرآن:** مناع القطان. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة والثلاثون، ١٤١٨هـ.

١٠٩ ـ **المُتْحَفُ في أحكام المصحف:** د. صالح بن محمد الرشيد. مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١١٠ ـ **مختصر تفسير البغوي:** د. عبد الله بن أحمد علي الزيد. دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١١١ ـ **المدارس والكتاتيب القرآنية وقفات تربوية وإدارية:** سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي، لندن، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١١٢ ـ **المدخل لدراسة القرآن الكريم:** أ. د. محمد بن محمد أبو شهبة. غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١١٣ ـ **مرشد الحيران إلى طرق حفظ القرآن الكريم:** أحمد مصطفى الطهطاوي. دار الفضيلة، القاهرة.

١١٤ ـ **مرويات دعاء ختم القرآن**: د. بكر بن عبد الله أبو زيد. دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١١٥ ـ **المصاحف**: عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.

١١٦ ـ **معاني القرآن**: يحيى بن زياد الفراء. تحقيق: د. إبراهيم الدسوقي، مركز الأهرام، القاهرة، ١٩٨٩م.

١١٧ ـ **مع القرآن وحملته في حياة السلف**: عبيد بن أبي نفيع الشعبي. دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.

١١٨ ـ **مفاتيح للتعامل مع القرآن**: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

١١٩ ـ **من أسرار عظمة القرآن**: د. سليمان بن محمد الصغير. دار ابن الأثير، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٢٠ ـ **مناهل العرفان في علوم القرآن**: محمد عبد العظيم الزُّرقاني. المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٢١ ـ **منجد المقرئين ومرشد الطالبين**: محمد بن محمد بن محمد ابن الجزري. اعتنى به: علي بن محمد العمران، عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

١٢٢ ـ **منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم**: د. بدر بن ناصر البدر. دار الهدي النبوي، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١٢٣ ـ **مهارات التدريس في الحلقات القرآنية**: د. علي بن إبراهيم الزهراني. دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٢٤ ـ **نحو أداء متميز لحلقات تحفيظ القرآن الكريم**: سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي. مطابع أضواء البيان، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

١٢٥ ـ **النشر في القراءات العشر**: محمد بن محمد بن علي ابن الجَزَري. تحقيق: علي الضباع، دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة بدون.

١٢٦ ـ **النصيحة لكتاب الله**: د. حافظ بن محمد الحكمي. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٢٧ ـ **نظم الدرر في تناسب الآي والسُّوَر**: إبراهيم بن عمر البقاعي. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٢٨ ـ **نَقْطُ المصاحف**: أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني. تحقيق: د. عزة حسن، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

١٢٩ ـ هذا القرآن في مائة حديث نبوي: د. محمد زكي محمد خضر. الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.
١٣٠ ـ ورتل القرآن ترتيلاً: د. أنس أحمد كرزون. مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر. الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.
١٣١ ـ يعلمهم الكتاب، التعامل مع القرآن الكريم: محمد خير الشعّال. دار أفنان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

ثانياً: كتب الحديث وعلومه:

١٣٢ ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: محمد بن حبان البستي. بترتيب علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، مؤسسة الرسالة، دمشق، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
١٣٣ ـ أحكام الجنائز وبدعها: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ.
١٣٤ ـ الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
١٣٥ ـ الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار: يحيى بن شرف النووي. دار الكتب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ.
١٣٦ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
١٣٧ ـ بلوغ المرام من أدلة الأحكام: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق وتخريج: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة الدليل، الجبيل الصناعية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
١٣٨ ـ التاريخ الصغير (الأوسط): محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، مكتبة دار التراث، حلب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.
١٣٩ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: محمد بن عبد الرحمن المباركفوري. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
١٤٠ ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ.
١٤١ ـ تغليق التعليق على صحيح البخاري: أحمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: سعيد عبد الرحمن القزقي، المكتب الإسلامي، بيروت، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٤٢ ـ **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**: يوسف بن عبد الله بن عبد البر. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.

١٤٣ ـ **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**: علي بن محمد الكناني. تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، عبد الله الغماري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

١٤٤ ـ **تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. المكتبة التجارية، مصر، ١٣٨٩هـ.

١٤٥ ـ **التيسير بشرح الجامع الصغير**: عبد الرؤوف المناوي. مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

١٤٦ ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**: المبارك بن محمد بن الأثير الجَزري. تحقيق وتخريج: عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

١٤٧ ـ **جامع العلوم والحكم**: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب. تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٤٨ ـ **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**: أحمد بن علي الخطيب البغدادي. تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ.

١٤٩ ـ **حاشية السندي على سنن النسائي**: أبو الحسن نور الدين بن عبد الهادي السندي. (مطبوع مع سنن النسائي)، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

١٥٠ ـ **خلق أفعال العباد**: محمد بن إبراهيم بن إسماعيل البخاري. تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار المعارف، الرياض، ١٣٩٨هـ.

١٥١ ـ **الرحلة في طلب الحديث**: أحمد بن علي أبو بكر البغدادي. تحقيق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.

١٥٢ ـ **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**: يحيى بن شرف النووي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ.

١٥٣ ـ **الزهد**: أحمد بن محمد بن حنبل. تحقيق: محمد السعيد بسيوني، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٥٤ ـ **الزهد**: عبد الله بن المبارك المروزي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

١٥٥ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف، الرياض، عدة طبعات مختلفة التاريخ.

١٥٦ ـ **سنن الترمذي**: محمد بن عيسى الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث، بيروت. بدون تاريخ.
١٥٧ ـ **سنن الدارمي**: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي. تحقيق وتخريج: مجموعة من الباحثين. دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
١٥٨ ـ **سنن أبي داود**: سليمان بن الأشعث السجستاني. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
١٥٩ ـ **سنن سعيد بن منصور**: سعيد بن منصور. تحقيق: د. سعد بن عبد الله آل حميد، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
١٦٠ ـ **السنن الكبرى**: أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.
١٦١ ـ **السنن الكبرى**: أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: د. عبد الغفار البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
١٦٢ ـ **سنن ابن ماجه**: محمد بن يزيد القزويني. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت. بدون تاريخ.
١٦٣ ـ **شرح السنة**: الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
١٦٤ ـ **شرح السندي على سنن ابن ماجه**: أبو الحسن نور الدين بن عبد الهادي السندي. تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المؤيد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
١٦٥ ـ **صحيح الأدب المفرد للبخاري**: محمد ناصر الدين الألباني. دار الصديق، الجبيل، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
١٦٦ ـ **صحيح البخاري**: محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد علي القطب، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
١٦٧ ـ **صحيح الترغيب والترهيب**: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
١٦٨ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته**: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
١٦٩ ـ **صحيح ابن حبان**: محمد بن حبان بن أحمد البستي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
١٧٠ ـ **صحيح ابن خزيمة**: محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري. تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ.

١٧١ ـ صحيح سنن الترمذي باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
١٧٢ ـ صحيح سنن أبي داود باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
١٧٣ ـ صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
١٧٤ ـ صحيح سنن النسائي باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
١٧٥ ـ صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
١٧٦ ـ صحيح مسلم بشرح النووي: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٩هـ.
١٧٧ ـ ضعيف الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.
١٧٨ ـ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية: عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: إرشاد عبد الحق الأثري، دار العلوم الأثرية، باكستان، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.
١٧٩ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري: محمود بن أحمد العيني. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٨٠ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود: محمد شمس الحق العظيم آبادي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
١٨١ ـ غريب الحديث: القاسم بن سلام أبو عبيد الهروي. تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
١٨٢ ـ الفتاوى الحديثية: أحمد بن حجر الهيتمي. مكتبة مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
١٨٣ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. مكتبة دار الفيحاء، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
١٨٤ ـ الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، (مع مختصر شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني): كلاهما تأليف أحمد عبد الرحمن البنا. دار الشهاب، القاهرة، بدون تاريخ.
١٨٥ ـ فتح المغيث شرح ألفية الحديث: محمد بن عبد الرحمن السخاوي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٨٦ ـ **فضل الله الصَّمد في توضيح الأدب المفرد للبخاري**: فضل الله أحمد الجيلاني. تحقيق: يوسف بن أحمد البكري، دار المعالي، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
١٨٧ ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**: عبد الرؤوف المُناوي. تحقيق: حمدي الدمرداش محمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
١٨٨ ـ **كتاب الجهاد**: عبد الله بن المبارك. تحقيق: نزيه حماد، التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٢م.
١٨٩ ـ **كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**: إسماعيل بن محمد العجلوني. تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
١٩٠ ـ **كشف المُشْكل من حديث الصحيحين**: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: علي بن حسين البواب، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨هـ.
١٩١ ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**: علي المتقي بن حسام الدين الهندي. تحقيق: بكري حياتي وصفوت السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.
١٩٢ ـ **لسان الميزان**: أحمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: دائرة المعارف النظامية، الهند، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ.
١٩٣ ـ **المجروحين**: محمد بن حبان البستي. تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب.
١٩٤ ـ **مجمع البحرين في زوائد المعجمين**: علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق: عبد القدوس محمد نذير، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٤م.
١٩٥ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: علي بن أبي بكر الهيثمي. دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
١٩٦ ـ **مختصر قيام الليل**: محمد بن نصر المروزي. اختصار: أحمد بن علي المقريزي، (ت: ٨٤٥هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
١٩٧ ـ **المدخل إلى كتاب الإكليل**: محمد بن عبد الله الحاكم. تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية.
١٩٨ ـ **المراسيل**: أبو داود سليمان بن الأشعث. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
١٩٩ ـ **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**: علي بن سلطان القاري. تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٠٠ ـ المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله الحاكم. دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٢٠١ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل الشيباني. مؤسسة قرطبة، القاهرة، بدون تاريخ.
٢٠٢ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل (الموسوعة الحديثية): تحقيق وتخريج: جماعة من الباحثين، بإشراف شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
٢٠٣ ـ مسند البزار (البحر الزخار): أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزاز. تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٢٠٤ ـ مسند الشاميين: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٢٠٥ ـ مسند الشهاب: محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
٢٠٦ ـ مسند الطيالسي: سليمان بن داود الطيالسي (ت: ٢٠٤هـ). دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢١هـ.
٢٠٧ ـ مسند أبي يعلى: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي. تحقيق: حسين سليم أحمد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
٢٠٨ ـ مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.
٢٠٩ ـ مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه: أحمد بن أبي بكر الكناني. تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
٢١٠ ـ مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة. تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٢١١ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: د. سعد بن ناصر الشثري، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٢١٢ ـ مصنف عبد الرزاق: عبد الرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
٢١٣ ـ معالم السنن: حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي. تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٢١٤ ـ **معجم الطبراني الأوسط**: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
٢١٥ ـ **معجم الطبراني الكبير**: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي عبد الحميد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
٢١٦ ـ **المُعلِم بفوائد صحيح مسلم**: محمد بن علي المازري. تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
٢١٧ ـ **موسوعة الحافظ ابن حجر العسقلاني الحديثية**: مجموعة من الباحثين. مجلة الحكمة، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢١٨ ـ **نوادر الأصول في أحاديث الرسول**: محمد بن علي أبو عبد الله الحكيم الترمذي. تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

ثالثاً: كتب العقيدة وما يتبعها:

٢١٩ ـ **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**: ابن بطة الحنبلي. تحقيق: رضا بن نعسان معطي، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٢٢٠ ـ **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية**: ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
٢٢١ ـ **الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد**: د. صالح بن فوزان الفوزان. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.
٢٢٢ ـ **أعلام النبوة**: علي بن محمد الماوردي. دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٢٣ ـ **الإيمان أركانه حقيقته نواقضه**: د. محمد نعيم ياسين. مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
٢٢٤ ـ **الإيمان بالكتب**: محمد بن إبراهيم الحمد. دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٢٢٥ ـ **البابية عرض ونقد**: إحسان إلهي ظهير. مكتبة بيت السلام، الرياض، ٢٠٠٢م.
٢٢٦ ـ **البهائية نقد وتحليل**: إحسان إلهي ظهير. مكتبة بيت السلام، الرياض، ٢٠٠٢م.
٢٢٧ ـ **التصوف المنشأ والمصادر**: إحسان إلهي ظهير. مكتبة بيت السلام، الرياض، ٢٠٠٢م.
٢٢٨ ـ **تهذيب رسالة البدر الرشيد في الألفاظ المكفرات**: محمد بن إسماعيل الرشيد. مؤسسة نادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٢٢٩ ـ **التجانية**: علي بن محمد الدخيل. دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٢٣٠ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**: أحمد عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق: علي سيد المدني، مطبعة المدني، مصر.
٢٣١ ـ **الحُجَّة في بيان المحجَّة وشرح عقيدة أهل السنة**: أبو القاسم الأصبهاني. تحقيق: محمد بن ربيع المدخلي، محمد أبو رحيم، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٢٣٢ ـ **الحركات الباطنية**: د. محمد بن أحمد الخطيب. دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٩٩م.
٢٣٣ ـ **حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة**: موفق الدين ابن قدامة. تحقيق: عبد الله الجديع، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٢٣٤ ـ **الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه**: د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
٢٣٥ ـ **الدرة فيما يجب اعتقاده**: علي بن أحمد بن حزم الظاهري. تحقيق: أحمد الحمد وسعيد القزقي، مكتبة التراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٣٦ ـ **الرِّسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الدِّيانات**: أبو عمرو الدَّاني. تحقيق: د. محمد بن سعيد القحطاني، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٢٣٧ ـ **ركائز الإيمان**: محمد قطب. دار إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٢٣٨ ـ **الزواجر عن اقتراف الكبائر**: أحمد بن محمد الهيتمي. دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٢٣٩ ـ **شعب الإيمان**: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. تحقيق: أبي هاجر زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٢٤٠ ـ **شفاء العليل في مسائل القضاء والحكمة والتعليل**: ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.
٢٤١ ـ **الشيعة والسنة**: إحسان إلهي ظهير. إدارة ترجمان السنة، باكستان، الطبعة الثلاثون، ١٤٠٥هـ.
٢٤٢ ـ **الصارم المسلول على شاتم الرسول**: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق: محمد الحلواني ومحمد كبير شودري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٢٤٣ ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل**: علي بن أحمد بن حزم الظاهري. تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر، د. عبد الرحمن عميرة، مكتبات عكاظ، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

٢٤٤ ـ كشف أسرار الباطنية: أبو الفضائل الحماوي اليماني. دار الصحوة، القاهرة، ١٩٩٤م.
٢٤٥ ـ مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم: اختصره: محمد بن الموصلي، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٤٠٥هـ.
٢٤٦ ـ مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة: د. ناصر بن عبد الله القفاري. دار طيبة، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٨هـ.
٢٤٧ ـ الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني. تحقيق: محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.
٢٤٨ ـ النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى: محمد بن.حمد الحمود. مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٢٤٩ ـ نواقض الإيمان القولية والعملية: د. عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف. دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
٢٥٠ ـ هذه هي الصوفية: عبد الرحمن الوكيل. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤م.

رابعاً: كتب الفقه وأصوله:

٢٥١ ـ الإحكام في أصول الأحكام: علي بن حزم الأندلسي. دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
٢٥٢ ـ الإحكام في أصول الأحكام: علي بن محمد الآمدي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
٢٥٣ ـ الاختيارات الفقهية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. رتبها على الأبواب: علي ابن محمد البعلي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
٢٥٤ ـ الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار: يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي. تحقيق: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.
٢٥٥ ـ أصول الفقه الإسلامي: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي. دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
٢٥٦ ـ إعانة الطالبين على حلِّ ألفاظ فتح المعين: أبو بكر بن محمد الدمياطي السيد البكري. دار إحياء الكتب العربية، بيروت.
٢٥٧ ـ الإقناع: موسى الحجاوي المقدسي. دار المعرفة، بيروت.
٢٥٨ ـ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: علي بن سليمان المرداوي. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٥٩ ـ **البحر الرائق في شرح كنز الدقائق**: زين العابدين بن إبراهيم المعروف بـ «ابن نجيم الحنفي». دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.

٢٦٠ ـ **البحر المحيط في أصول الفقه**: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي. تحقيق: د. محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٢٦١ ـ **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**: علاء الدين الكاساني. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

٢٦٢ ـ **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**: محمد بن أحمد بن رشد القرطبي. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ.

٢٦٣ ـ **بلغة السالك لأقرب المسالك**: أحمد بن محمد الصاوي. دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٢٦٤ ـ **تحفة الفقهاء**: علاء الدّين السمرقندي، (ت: ٥٣٩هـ). دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٢٦٥ ـ **تحفة المحتاج بشرح المنهاج**: أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى.

٢٦٦ ـ **تعظيم قدر الصلاة**: محمد بن نصر المَرْوزي. تحقيق: د. عبد الرحمن الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢٦٧ ـ **حاشية الدسوقي على الشرح الكبير**: محمد عرفة الدسوقي. تحقيق: محمد عليش، دار الفكر، بيروت.

٢٦٨ ـ **حاشية الروض المُربع شرح زاد المستقنع**: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي. الطبعة الرابعة، ١٤١٠هـ.

٢٦٩ ـ **حاشية ابن عابدين (رد المحتار على الدر المختار)**: محمد أمين الشهير بـ «ابن عابدين». دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.

٢٧٠ ـ **حاشية القليوبي على منهاج الطالبين**: أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة.

٢٧١ ـ **حواشي التحفة**: حاشية عبد الحميد الشرواني، وحاشية أحمد بن قاسم العبّادي بهامش تحفة المحتاج بشرح المنهاج. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى.

٢٧٢ ـ **خصائص الشريعة الإسلامية**: د. عمر بن سليمان الأشقر. مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢٧٣ ـ **الدر المختار شرح تنوير الأبصار**: محمد علاء الدين الحصكفي. مكتبة الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.

٢٧٤ - دليل الطالب على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل: مرعي بن يوسف الحنبلي. المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ.
٢٧٥ - روضة الطالبين وعمدة المفتين: يحيى بن شرف النووي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
٢٧٦ - شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان: ملا علي قاري. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
٢٧٧ - الفتاوى البزازية: محمد بن محمد بن شهاب المعروف بـ «ابن البزاز». مطبوع بهامش الجزء الرابع والخامس والسادس من الفتاوى الهندية، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
٢٧٨ - فتاوى ابن رشد: محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي. جمع وتحقيق: د. المختار التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
٢٧٩ - الفتاوى الفقهية الكبرى: أحمد بن حجر الهيتمي. مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
٢٨٠ - فتاوى قاضي خان: حسن الأوز جندي (ت: ٥٩٢هـ). مطبوع بهامش الجزء الأول والثاني والثالث من الفتاوى الهندية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
٢٨١ - فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: ترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
٢٨٢ - الفتاوى الهندية في مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان: الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
٢٨٣ - فتح الجواد بشرح الإرشاد: أحمد بن حجر الهيتمي. طبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.
٢٨٤ - الفروع: محمد بن مفلح المقدسي. تحقيق: حازم القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٢٨٥ - الفقيه والمتفقه: أحمد بن علي الخطيب البغدادي. تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
٢٨٦ - الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني: أحمد بن غنيم النفراوي المالكي. دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.
٢٨٧ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام: عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (العز بن عبد السلام). تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، أم القرى للطباعة والنشر. بدون تاريخ.

٢٨٨ ـ الكافي: عبد الله بن قدامة المقدسي. المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ.
٢٨٩ ـ الكافي في فقه أهل المدينة: يوسف بن عبد الله بن عبد البر. تحقيق: محمد محمد أحيد ولد ماديك الموريتاني، مكتبة الرياض الحديثة، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.
٢٩٠ ـ كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: أحمد عبد الحليم بن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الرياض، الطبعة الثانية.
٢٩١ ـ كشّاف القناع عن متن الإقناع: منصور بن يونس البَهُوتي. تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ.
٢٩٢ ـ المبسوط: محمد بن أحمد السرخسي. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ.
٢٩٣ ـ مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر: عبد الله بن محمد بن سليمان المعروف بـ «داماد أفندي». دار إحياء التراث العربي.
٢٩٤ ـ المجموع شرح المهذب للشيرازي: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: محمد المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة.
٢٩٥ ـ المحلى بالآثار: علي بن أحمد بن حزم. تحقيق: أحمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٢٩٦ ـ المختار: عبد الله بن محمد بن مودود الموصلي. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٥هـ.
٢٩٧ ـ مختصر اختلاف العلماء: أحمد بن محمد الطحاوي المعروف بـ «الجصاص». تحقيق: د. عبد الله نذير أحمد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٧هـ.
٢٩٨ ـ مختصر الفتاوى المصرية، لابن تيمية: اختصار محمد بن علي البعلي. تصحيح وتعليق: محمد حامد الفقي، دار نشر الكتب الإسلامية، باكستان.
٢٩٩ ـ المدونة الكبرى: الإمام مالك بن أنس، رواية سحنون التنوخي، دار صادر، بيروت.
٣٠٠ ـ مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات: ابن حزم الظاهري. اعتنى به: حسن أحمد إسبر، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٣٠١ ـ المستصفى من علم الأصول: محمد بن محمد الغزالي. شركة المدينة المنورة، جدة، الطبعة الأولى.
٣٠٢ ـ مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى: مصطفى السيوطي الرحيباني. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ.

٣٠٣ ـ **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**: أحمد بن يحيى الونشريسي. مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المغرب، ١٤٠١هـ.

٣٠٤ ـ **مغني ذوي الأفهام عن الكتب الكثيرة في الأحكام**: يوسف بن عبد الهادي الحنبلي. تحقيق: أشرف عبد المقصود، دار أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٣٠٥ ـ **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٣٠٦ ـ **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**: محمد الخطيب الشربيني. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٠٧ ـ **منتهى الإرادات في جمع المقنع مع التنقيح وزيادات**: محمد بن أحمد الفتوحي. الشهير بـ «ابن النجار». تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، عالم الكتب.

٣٠٨ ـ **المهذب في فقه الإمام الشافعي**: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي. دار الفكر، بيروت.

٣٠٩ ـ **الموافقات في أصول الشريعة**: إبراهيم بن موسى الشاطبي. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٣١٠ ـ **الموسوعة الفقهية**: مجموعة من الباحثين بإشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت. مطابع دار الصفوة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٣١١ ـ **نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج**: محمد بن أحمد الرّملي. الشهير بـ «الشافعي الصغير». دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٣١٢ ـ **الهداية شرح بداية المبتدي**: علي بن أبي بكر المرغيناني. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ.

خامساً: المعاجم والموسوعات ونحوها:

٣١٣ ـ **أساس البلاغة**: محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

٣١٤ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي. تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٣١٥ ـ **ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة**: الطاهر أحمد الزاوي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة.

٣١٦ ـ **التعريفات**: علي بن محمد بن علي الجرجاني. تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٣١٧ ـ **التوقيف على مهمات التعاريف**: عبد الرؤوف بن علي المُناوي. تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٣١٨ ـ **الجامع المفهرس لأطراف الأحاديث النبوية**: سليم بن عيد الهلالي. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.

٣١٩ ـ **الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**: د. حسين محمد فهمي الشافعي. دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٢٠ ـ **القاموس المحيط**: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.

٣٢١ ـ **لسان العرب**: محمد مكرم بن منظور. دار صادر ودار بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ.

٣٢٢ ـ **مختار الصِّحاح**: محمد بن أبي بكر بن عبد الرزاق الرازي. المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ.

٣٢٣ ـ **المصباح المنير**: أحمد بن محمد الفيومي المقرئ. المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

٣٢٤ ـ **معجم الأدباء**: ياقوت بن عبد الله الحموي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٣٢٥ ـ **معجم البلدان**: ياقوت بن عبد الله الحموي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٣٢٦ ـ **معجم الشعراء**: عبد الستار أحمد فراج المرزباني. دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م.

٣٢٧ ـ **معجم مقاييس اللغة**: أحمد بن فارس بن زكريا الرازي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٢٨ ـ **معجم المناهي اللفظية**: بكر بن عبد الله أبو زيد. دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.

٣٢٩ ـ **المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم**: صبحي عبد الرؤوف عَصَر. دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٠م.

٣٣٠ ـ **المعجم الوسيط**: جماعة من الباحثين. المكتبة الإسلامية، تركيا، أصدره مجمع اللغة العربية بمصر.

٣٣١ ـ **المفردات في غريب القرآن**: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. تحقيق وضبط: محمد خليل عيتاني. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٣٢ ـ **موسوعة نضرة النعيم**: مجموعة من المختصين. دار الوسيلة، جدة، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
٣٣٣ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**: أبو السعادات المبارك بن محمد الجَزَري. تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة بدون.

سادساً: كتب التاريخ والتراجم والسيرة والرجال:

٣٣٤ ـ **إتمام الأعلام**: د. نزار أباظة ومحمد رياض المالح. دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
٣٣٥ ـ **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**: ابن عبد البر القرطبي. دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة بدون.
٣٣٦ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: أحمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٣٣٧ ـ **الأعلام**: خير الدين الزِّرِكْلي. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.
٣٣٨ ـ **الأنساب**: عبد الكريم بن محمد السمعاني. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
٣٣٩ ـ **البداية والنهاية**: إسماعيل بن كثير. دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٣٤٠ ـ **البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع**: محمد بن علي الشوكاني. مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٣٤١ ـ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
٣٤٢ ـ **تاريخ بغداد**: أحمد بن علي الخطيب البغدادي. دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٤٣ ـ **تاريخ الثقات**: أحمد بن عبد الله العجلي. تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٣٤٤ ـ **التاريخ الكبير**: محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: السيد هشام الندوي، طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند.
٣٤٥ ـ **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية مَنْ حلّها من الأماثل**: أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي. تحقيق: عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

٣٤٦ ـ **تذكرة الحفاظ**: محمد بن أحمد الذهبي. دار إحياء التراث العربي عن مطبوعات دائرة المعارف العثمانية.

٣٤٧ ـ **تقريب التهذيب**: أحمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٣٤٨ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**: يحيى بن شرف النووي. إدارة المطبعة المنيرية، بيروت.

٣٤٩ ـ **تهذيب التهذيب**: أحمد بن حجر العسقلاني. دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٣٥٠ ـ **تهذيب الكمال**: يوسف بن الزكي أبو الحجاج المزي. تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٣٥١ ـ **الثقات**: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي. تحقيق: شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.

٣٥٢ ـ **الجرح والتعديل**: عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي. دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ.

٣٥٣ ـ **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**: عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي. مير محمد كتب خانه، كراتشي.

٣٥٤ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني. دار الريان، الطبعة الخامسة، ١٤٠٧هـ.

٣٥٥ ـ **الخصائص الكبرى**: جلال الدين عبد الرحمن أبو الفضل السيوطي. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٣٥٦ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: أحمد بن حجر العسقلاني. دار الجيل، بيروت.

٣٥٧ ـ **دلائل النبوة**: إسماعيل بن محمد الفضل التيمي الأصبهاني. تحقيق: محمد محمد الحداد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٣٥٨ ـ **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**: أحمد بن الحسين علي البيهقي. تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٣٥٩ ـ **الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب**: إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي. دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦٠ ـ **ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد**: محمد بن أحمد أبو الطّيّب الفاسي. تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٦١ ـ **ذيل طبقات الحنابلة**: عبد الرحمن بن شهاب الدين المعروف بـ «ابن رجب الحنبلي». دار المعرفة، بيروت.
٣٦٢ ـ **الرياض النضرة في مناقب العشرة**: محمد بن جرير الطبري. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى.
٣٦٣ ـ **سير أعلام النبلاء**: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ.
٣٦٤ ـ **سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي)**: محمد بن إسحاق بن يسار. تحقيق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.
٣٦٥ ـ **السيرة النبوية**: إسماعيل بن كثير. تحقيق: مصطفى عبد الواحد، طبعة دار المعرفة، بيروت.
٣٦٦ ـ **السيرة النبوية**: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٣٦٧ ـ **شذرات الذهب**: عبد الحي بن العماد الحنبلي. طبعة المكتبة التجارية الكبرى، بيروت.
٣٦٨ ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: القاضي عياض بن موسى اليحصبي. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣٦٩ ـ **صفة الصفوة**: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٣٧٠ ـ **طبقات الحفاظ**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
٣٧١ ـ **طبقات الحنابلة**: محمد بن أبي يعلي، أبو الحسين. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
٣٧٢ ـ **طبقات الشافعية الكبرى**: أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي. تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ.
٣٧٣ ـ **الطبقات الكبرى (لابن سعد)**: محمد بن سعد. دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ.
٣٧٤ ـ **طبقات المفسرين**: محمد بن علي الداودي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
٣٧٥ ـ **العبر في خبر مَنْ غَبَر**: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
٣٧٦ ـ **الكامل في التاريخ**: ابن الأثير. تحقيق: أبو الفداء الكافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

٣٧٧ ـ الكامل في ضعفاء الرجال: عبد الله بن عدي الجرجاني. تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
٣٧٨ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
٣٧٩ ـ اللباب في تهذيب الأنساب: عز الدين بن الأثير الجزري. مكتبة المتنبي، بغداد.
٣٨٠ ـ معجم المؤلفين: عمر رضا كحّالة. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٣٨١ ـ معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم: أحمد بن عبد الله العجلي. تحقيق: عبد العليم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٣٨٢ ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وصالح عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
٣٨٣ ـ الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة: مجموعة من الباحثين. مجلة الحكمة، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
٣٨٤ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ.
٣٨٥ ـ الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي. تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ.
٣٨٦ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد بن خلّكان. تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

سابعاً: كتب متنوعة:

٣٨٧ ـ آداب المشي إلى الصلاة: محمد بن عبد الوهاب. مكتبة المعارف، الرياض.
٣٨٨ ـ آداب المعلمين والمتعلمين: محمد بن عبد السلام بن سعيد بن سحنون. دار المعارف، القاهرة.
٣٨٩ ـ أباطيل وأسمار: محمود شاكر. القاهرة، مطبعة المدني، الطبعة الثانية.
٣٩٠ ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين. المطبعة النموذجية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ.
٣٩١ ـ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (للغزالي): محمد بن عبد الرزاق الزبيدي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، بدون.

٣٩٢ ـ **أحكام إسلامية إدانة للقوانين الوضعية**: المستشار محمد عبد الحميد غراب. دار الاعتصام، القاهرة.

٣٩٣ ـ **إحياء علوم الدين**: محمد بن محمد أبو حامد الغزالي. دار المعرفة، بيروت.

٣٩٤ ـ **أدب الدنيا والدين**: علي بن محمد الماوردي (ت: ٤٥٠هـ). تحقيق: ياسين محمد السَّوَّاس. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

٣٩٥ ـ **أدب الطلب ومنتهى الأدب**: محمد بن علي بن محمد بن علي الشوكاني. تحقيق: عبد الله يحيى السريحي، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.

٣٩٦ ـ **الإسلام على مفترق الطرق**: محمد أسد. ترجمة: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٧٤م.

٣٩٧ ـ **أعلام الموقعين عن رب العالمين**: محمد ابن قيم الجوزية. رتَّبه وضبطه محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٣٩٨ ـ **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**: محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

٣٩٩ ـ **اقتضاء العلم العمل**: أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ (الخطيب البغدادي). تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤هـ.

٤٠٠ ـ **أيها الولد المحب**: محمد بن محمد أبو حامد الغزالي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

٤٠١ ـ **البحث العلمي**: د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة. بدون ذكر لدار النشر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

٤٠٢ ـ **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**: إبراهيم بن علي بن فَرْحون المالكي. تحقيق: جمال مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.

٤٠٣ ـ **تحكيم القوانين**: محمد بن إبراهيم آل الشيخ. مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ.

٤٠٤ ـ **تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم**: محمد بن إبراهيم بن جماعة. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة بدون.

٤٠٥ ـ **تصحيح الدعاء**: د. بكر بن عبد الله أبو زيد. دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٤٠٦ ـ **تلبيس إبليس**: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.

٤٠٧ ـ **جامع بيان العلم وفضله:** يوسف بن عبد البر القرطبي. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.

٤٠٨ ـ **جذور البلاء:** عبد الله التل. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٨.

٤٠٩ ـ **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي:** محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٤١٠ ـ **الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار والصهيونية العالمية:** محمد فهمي عبد الوهاب. دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩م.

٤١١ ـ **الحوادث والبدع:** أبو بكر محمد الطُّرطُوشي. اعتنى به: علي بن حسن الحلبي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٤١٢ ـ **الخنجر المسموم الذي طُعن به المسلمون:** أنور الجندي. دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٦م.

٤١٣ ـ **الرسالة القشيرية في علم التصوف:** عبد الكريم بن هوازن القشيري. تحقيق: معروف مصطفى رزيق، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٤١٤ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد:** محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة عشر، ١٤١٠هـ.

٤١٥ ـ **السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات:** محمد بن عبد السلام الشقيري. تحقيق: محمد خليل هراس، دار الفكر، الطبعة الأولى.

٤١٦ ـ **ضوابط المعرفة والاستدلال والمناظرة:** عبد الرحمن بن حبنكة الميداني. دار العلم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٤هـ.

٤١٧ ـ **علو الهمة:** محمد أحمد إسماعيل المقدم. مكتبة الكوثر، الرياض. الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٤١٨ ـ **عودة الحجاب:** محمد أحمد إسماعيل المقدم. دار طيبة، الرياض، الطبعة التاسعة، ١٤٢٥هـ.

٤١٩ ـ **الفصحى لغة القرآن:** أنور الجندي. دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٤٢٠ ـ **الفوائد:** محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق وتخريج: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٤٢١ ـ **قادة الغرب يقولون دمِّروا الإسلام أبيدوا أهله:** جلال العالم. الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

٤٢٢ ـ **القصاص والمذكرين:** أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: د. محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

٤٢٣ ـ القومية والغزو الفكري: محمد جلال كشك. دار الإرشاد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م.

٤٢٤ ـ كتاب الآداب: فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب. دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٢٥ ـ كشف الغطاء عن حُكم سماع الغناء: محمد ابن قيم الجوزية، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٤٢٦ ـ كلمة الحق: أحمد محمد شاكر. دار الكتب السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٤٢٧ ـ لغة القرآن مكانتها والأخطار التي تهددها: د. إبراهيم بن محمد أبو عباة. دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٤٢٨ ـ المجالسة وجواهر العلم: أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري. دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٢٩ ـ مختصر منهاج القاصدين: أحمد بن محمد المقدسي. تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٠٩هـ.

٤٣٠ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

٤٣١ ـ المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات: محمد بن محمد بن محمد المالكي المعروف بـ «ابن الحاج». دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٤٣٢ ـ المرأة ومكانتها في الإسلام: أحمد عبد العزيز الحصين. مكتبة الإيمان، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.

٤٣٣ ـ المسؤولية: د. محمد أمين المصري (ت: ١٣٩٧هـ). دار الأرقم، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

٤٣٤ ـ مفتاح دار السعادة: محمد ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٤٣٥ ـ من القصص النبوي: محمد صالح المنجد. دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٣٦ ـ نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف: جمال الدين محمد الجيشي. دار المنهاج، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

ثامنا: بحوث في القرآن:

٤٣٧ ـ **أثر سماع القرآن الكريم على مستوى الأمن النفسي**: عندليب بنت أحمد عبد الله. (رسالة ماجستير) «تخصص علم النفس التربوي»، جامعة اليرموك، الأردن.

٤٣٨ ـ **الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم**: د. محمد عطا أحمد يوسف. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، (عدد: ٣٦)، (شعبان ١٤١٩هـ).

٤٣٩ ـ **تحزيب القرآن**: محمد بن عبد الله الدويش. مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، (عدد: ٤٢)، (صفر ١٤١٢هـ).

٤٤٠ ـ **تدبر القرآن لماذا وكيف**: إبراهيم بن عبد الرحمن التركي. مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، (عدد: ١٤٤)، (شعبان ١٤٢٠هـ).

٤٤١ ـ **تيسير القرآن بلسان سيدنا محمد ﷺ**: د. عبدو بن علي الحاج. مجلة الأحمدية، دار البحوث للدراسات الإسلامية، دبي، (عدد: ١٥)، (رمضان ١٤٢٤هـ).

٤٤٢ ـ **المقوِّمات الشخصية لمعلِّم القرآن الكريم**: د. حازم سعيد حيدر. بحث مقدَّم لـ «ندوة العناية بالقرآن الكريم وعلومه»، المدينة المنورة، ٣، ١٤٢١/٧/٦هـ.

٤٤٣ ـ **من فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز**: مجلة البحوث الإسلامية، الرياض، (عدد: ٥١)، (ربيع أول ١٤١٨هـ).

٤٤٤ ـ **نحو منهجية علمية في حفظ القرآن الكريم**: فيصل بن علي البعداني. مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، (عدد: ٣٧)، (رمضان ١٤١٤هـ).

رابع عشر: المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة:	٥
* أهمية الموضوع	٥
* أسباب اختيار الموضوع	٧
* خطة البحث	٨
* منهج البحث	١١
* شكر وتقدير	١٢
الباب الأول: معنى (الهجر) وذمُّ فاعِلِه	
الفصل الأول: معنى (هجر القرآن)	١٧
المبحث الأول: تعريف «الهجر» لغة	١٨
* خلاصة القول في معاني الهجر ومشتقّاته	٢٠
المبحث الثاني: ما جاء في الآيات من ألفاظ الهجر	٢٢
١ ـ التّرك والإعراض	٢٢
٢ ـ الإفحاش في القول	٢٢
٣ ـ الانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ لأجل الدّين	٢٣
٤ ـ هجر الزّوجة في الفراش	٢٥
٥ ـ الانفراد والعزلة والابتعاد	٢٥
المبحث الثالث: ما جاء في الأحاديث من ألفاظ الهجر	٢٧
١ ـ التّهاجر بين المسلمين	٢٧
٢ ـ الهجرة لأجل الدّين	٢٧
٣ ـ ترك ما نهى الله عنه	٢٨
٤ ـ القول الباطل	٢٩
٥ ـ ترك فراش الزّوج	٣٠
٦ ـ ترك اسم الحبيب	٣١

الموضوع | الصفحة

المبحث الرابع: المقصود بـ (هَجْر القرآن) ٣٢
المبحث الخامس: حُكم هجْر القرآن ٣٥
الفصل الثاني: ذمُّ هجر القرآن ٣٩
المبحث الأول: الآيات الدَّالة على ذمِّ هجر القرآن ٤٢
* تمهيد ٤٢
المطلب الأول: الشَّكوى العظيمة ٤٣
* اختلاف المفسرين في معنى اتِّخاذ القرآن مهجوراً ٤٤
١ ـ التَّرك كليّاً ٤٤
٢ ـ الإعراض والبعد عن القرآن وعدم سماعه ٤٤
٣ ـ القول السَّيِّئ في القرآن ٤٤
٤ ـ الهَذَيان وفُحش القول ٤٥
* شبهة وردُّها ٤٥
المطلب الثاني: السَّمَرُ الفاحش ٤٦
* معنى (السُّمَّار) ٤٨
المطلب الثالث: الإعراض عن القرآن ٤٩
* المراد بالذِّكر ٤٩
* المراد بالمعيشة الضَّنْك ٥٠
* المراد بالعَمَى ٥٢
المطلب الرابع: الظُّلم الأعظم ٥٥
* المراد بالآيات ٥٥
* شبهة وردُّها ٥٦
المطلب الخامس: الوجوه العابسة ٥٧
* المراد بالآيات ٥٧
* المراد بالمُنكَر ٥٧
* المراد بالسَّطْو ٥٨
* جزاء مَنْ هَجَرَ القرآن ٥٩
المطلب السادس: الاستكبار على القرآن ٦٠
المطلب السابع: اللَّغْو الباطل ٦١
* المراد بعدم سماع القرآن ٦١

الموضوع | الصفحة

* المراد باللَّغو في القرآن ٦١
* أسلوب خسيس ٦٢
* موقف المؤمنين ٦٣
المطلب الثامن: التَّقسيم الجائر ٦٣
* المراد بالمُقتسمين ٦٣
* المراد بِعِضِين ٦٥
المبحث الثاني: الأحاديث الدَّالة على ذمّ هجر القرآن ٦٩
* من صور هجر القرآن ٧٠
المطلب الأول: تعجُّل أجر القرآن ٧١
المطلب الثاني: عدم الانتفاع بقراءة القرآن ٧٤
المطلب الثالث: القرآن بين الجدال فيه والجدال عنه ٧٦
* معنى (المِراء) ٧٦
* ما ينبغي عند الاختلاف ٨٠
* الوقاية من الجدال والمِراء ٨٠
المطلب الرابع: اتِّباع المتشابه وترك المُحكم ٨٢
* اختلاف المفسرين والأصوليين في معنى المُحْكم والمتشابه ٨٣
المطلب الخامس: ترك قراءة القرآن في البيوت ٨٥
المطلب السادس: أحوال المنافق مع القرآن ٨٦
المطلب السابع: ترك التَّغنِّي بالقرآن ٨٧
* اختلاف أهل العلم في معنى (يتغنّى) ٨٨
المبحث الثالث: آثار السَّلف في ذمّ هجر القرآن ٩١
١ ـ ذمُّ التَّأكُّل بالقرآن ٩٢
٢ ـ ويلٌ لمن تَبِعَه القرآن ٩٤
٣ ـ ذمُّ مَنْ حَفِظ حروفَه وضيَّع حدوده ٩٤
٤ ـ هَجْرُ تدبُّرِ القرآن ٩٥
٥ ـ القرآن يزيد الظالمين خساراً ٩٦
٦ ـ القلوب المرضى لا تجد لذَّةً للقرآن ٩٧
٧ ـ القلب الخَرِب كالبيت الخَرِب ٩٧
٨ ـ القلب الخبيث كالأرض الخبيثة ٩٨

الموضوع | الصفحة

٩ ـ الجهل بالقرآن يؤدي إلى الاختلاف ثُمَّ الاقتتال ٩٩

الباب الثاني: أنواع الهجر

الفصل الأول: هجر الإيمان بالقرآن (الكفر به) ١٠٣
المبحث الأول: وجوب الإيمان بالقرآن ومقتضياته ١٠٤
أولاً: وجوب الإيمان بالقرآن ١٠٤
* القرآن رحمة الله بعباده ١٠٥
* المزايا التي خُصَّ بها القرآن عن الكتب السَّابقة ١٠٦
ثانياً: ما يقتضيه الإيمان بالقرآن ١٠٧
* ثمرات الإيمان بالقرآن ١٠٩
المبحث الثاني: الآيات الدَّالة على وجوب الإيمان بالقرآن ١١٠
ـ الآية الأولى ١١٠
* مسألة وجوابها ١١١
ـ الآية الثانية ١١١
ـ الآية الثالثة ١١١
ـ الآية الرابعة ١١٢
ـ الآية الخامسة ١١٣
ـ الآية السادسة ١١٤
ـ الآية السابعة ١١٤
ـ الآية الثامنة ١١٦
ـ الآية التاسعة ١١٦
المبحث الثالث: الوعيد على هجر الإيمان بالقرآن ١١٧
ـ الآية الأولى ١١٧
ـ الآية الثانية ١١٨
ـ الآية الثالثة ١١٩
ـ الآية الرابعة ١٢٠
ـ الآية الخامسة ١٢٠
ـ الآية السادسة ١٢١
ـ الآية السابعة ١٢١
ـ الآية الثامنة ١٢٢

الموضوع | الصفحة

- الآية التاسعة ١٢٣
* سبب كراهية الكفار للقرآن ١٢٣
المبحث الرابع: أنواع التكذيب بالقرآن ١٢٥
* تمهيد ١٢٦
المطلب الأول: الكفر الصّريح بالقرآن ١٢٧
المطلب الثاني: الاستكبار عن القرآن ١٢٨
* من أنواع الاستكبار عن القرآن ١٢٨
المطلب الثالث: التّكذيب الصّريح بالقرآن ١٣٠
المطلب الرابع: الجحود بالقرآن ١٣١
* من أمثلة الجحود بالقرآن ١٣٢
* جزاء الجحود ١٣٣
المطلب الخامس: طَلَبُهم تبديلَ القرآن ١٣٥
المطلب السادس: تبعيض القرآن ١٣٦
* جزاء تبعيض الكتاب ١٣٧
المطلب السابع: الإعراض عن القرآن ١٣٨
* جزاء الإعراض عن القرآن ١٣٨
* طوائف أعرضت عن القرآن ١٣٩
المبحث الخامس: حُكم التّكذيب بالقرآن ١٤٢
* كيف وصل القرآن إلينا ١٤٢
* مغزى التّواتر ١٤٣
* ما يعنيه إنكار القرآن ١٤٣
* الإجماع على كُفر مَنْ أنكر القرآن ١٤٤
* لماذا كان الحُكم مُجمعاً عليه ١٤٨
المبحث السادس: أهل الكتاب وتكذيبهم بالقرآن ١٤٩
المطلب الأول: علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن القرآن حق ١٥٠
- الدليل الأول ١٥٠
- الدليل الثاني ١٥٢
- الدليل الثالث ١٥٣
- الدليل الرابع ١٥٣

الموضوع | الصفحة

- الدليل الخامس ١٥٤
- الدليل السادس ١٥٤
- الدليل السابع ١٥٥
- الدليل الثامن ١٥٦

المطلب الثاني: كُفْر مَنْ لم يؤمن بالقرآن من أهل الكتاب ١٥٧
- النص الأول ١٥٧
- النص الثاني ١٥٩
- النص الثالث ١٦١
- النص الرابع ١٦٢
- النص الخامس ١٦٣
- النص السادس ١٦٥

الفصل الثاني: هجر تعظيم القرآن (الاستهزاء به) ١٦٧
المبحث الأول: تعريف الاستهزاء ١٦٩
المطلب الأول: تعريف الاستهزاء ١٧٠
أولاً: (الاستهزاء) لغة ١٧٠
* خلاصة المعنى اللغوي ١٧٠
ثانياً: (الاستهزاء) اصطلاحاً ١٧١
المطلب الثاني: الألفاظ القرآنية القريبة من معنى الاستهزاء ١٧٢
أولاً: السُّخرية ١٧٢
ثانياً وثالثاً: الضَّحك والغمز ١٧٣
رابعاً وخامساً: الخوض واللعب ١٧٤
سادساً: اللّمز ١٧٥
المبحث الثاني: مظاهر تعظيم القرآن ١٧٧
أولاً: ملاحظة آداب التِّلاوة والالتزام بها ١٧٨
ثانياً: التأدب مع المصحف ١٧٩
المبحث الثالث: أساليب الكفار في استهزائهم بالقرآن ١٨٤
- الأسلوب الأول: الاستهزاء والضحك حال سماع القرآن ١٨٤
- الأسلوب الثاني: التعجُّب من عدم نزول الوحي عليهم ١٨٦
- الأسلوب الثالث: ادِّعاؤهم بأن القرآن إفك مفترى، وأساطير الأوَّلين ١٨٧

الموضوع	الصفحة

ـ الأسلوب الرابع: استخدام أعضاء الجسم بقصد الاستهزاء ١٨٩
ـ الأسلوب الخامس: التَّنذُّر بالله وآياته ١٩٠
* عاقبة الاستهزاء بالقرآن ١٩١
المبحث الرابع: حُكم الاستهزاء بالقرآن والاستهانة بالمصحف ١٩٣
المطلب الأول: الفرق بين القرآن والمصحف ١٩٤
أولاً: معنى القرآن ١٩٤
* (القرآن) لغة ١٩٤
* (القرآن) اصطلاحاً ١٩٥
ثانياً: معنى المصحف ١٩٥
* (المصحف) لغة ١٩٥
* (المصحف) اصطلاحاً ١٩٦
* الفرق بين القرآن والمصحف ١٩٧
المطلب الثاني: حكم الاستهزاء بالقرآن ١٩٧
* الإجماع على كفر الاستهزاء بالقرآن ١٩٨
* عقوبة المستهزئين بكلام الله تعالى ٢٠٠
المطلب الثالث: حكم الاستهانة بالمصحف ٢٠١
* صور من الاستهانة بالمصحف ٢٠١
ـ الصورة الأولى: الاتِّكاء والتَّوسُّد على المصحف ٢٠١
ـ الصورة الثانية: إتلاف المصحف وتمزيقه ٢٠٣
* الحالات التي يجوز فيها إتلاف المصاحف ٢٠٣
ـ الصورة الثالثة: إدخال المصحف في أماكن التَّخلِّي ٢٠٤
ـ الصورة الرابعة: إدخال المصحف في القبر ٢٠٤
ـ الصورة الخامسة: بلع شيء من المصحف ٢٠٤
ـ الصورة السادسة: التَّبرُّك بالمصحف ٢٠٥
ـ الصورة السابعة: تلويث المصحف ٢٠٥
ـ الصورة الثامنة: وطء المصحف ٢٠٦
الفصل الثالث: هجر استماع القرآن ٢٠٧
المبحث الأول: تعريف السَّماع وأنواعه ٢٠٩
المطلب الأول: تعريف السَّماع ٢١٠

الموضوع | الصفحة

أولاً: (السّماع) لغة ٢١٠
* استعمالات (السّمع)في القرآن ٢١٠
ثانياً: (السّماع) اصطلاحاً ٢١١
ثالثاً: الفرق بين (السّماع) و(الاستماع) و(الإنصات) ٢١٢
* السمع أهمُّ حاسّة للتّلقّي ٢١٢
المطلب الثاني: أنواع السّماع ٢١٣
ـ النوع الأول: السّماع المرْضِي ٢١٣
* السّماع المرْضي يمُرُّ بثلاث مراحل ٢١٣
ـ النوع الثاني: السّماع المنهي عنه ٢١٥
ـ النوع الثالث: السّماع المباح ٢١٥
المطلب الثالث: أقسام الناس في سماع القرآن ٢١٥
ـ الصّنف الأول: مُعْرِض مُمتنع عن سماع القرآن ٢١٥
ـ الصّنف الثاني: سَمِعَ الصّوتَ ولم يفقه المعنى ٢١٦
ـ الصّنف الثالث: فَقِه المعنى ولم يَقْبله ٢١٦
ـ الصّنف الرابع: سَمِعَ القرآن سماعَ فقْهٍ وقبولٍ ٢١٧
المبحث الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن ٢١٩
المطلب الأول: مظاهر هجر استماع القرآن لدى الكفار ٢٢٠
* أبرز مظاهر هجر سماع القرآن لدى الكفار ٢٢٠
١ ـ الإعراض عن سماع القرآن ٢٢٠
٢ ـ الاستكبار عن سماع القرآن ٢٢١
٣ ـ التّواصي بعدم سماع القرآن ٢٢٢
٤ ـ البطش بمنْ يقرأ القرآن ٢٢٣
٥ ـ التّعامي والتّصام عن القرآن ٢٤٣
٦ ـ الاستهزاء حال سماع القرآن ٢٢٤
٧ ـ الضّجر والتّأفّف ٢٢٤
٨ ـ بُغض سماع القرآن وكراهية قارئه ٢٢٥
٩ ـ التّهاون والتغافل عن سماع الوحي ٢٢٦
المطلب الثاني: مظاهر هجر استماع القرآن لدى المسلمين ٢٢٧
* أبرز مظاهر هجر سماع القرآن لدى المسلمين ٢٢٧

الموضوع | الصفحة

١ ـ التّشاغل بالغناء عن استماع القرآن ٢٢٧
٢ ـ سماع الطرب ٢٣٠
٣ ـ التّشاغل عن استماع القرآن ٢٣١
المبحث الثالث: آداب استماع القرآن ٢٣٣
* أمْرُ اللهِ النّبيين والمؤمنين بالاستماع ٢٣٤
* أبرز آداب استماع القرآن ٢٣٥
١ ـ تعظيم المتكلّم ٢٣٦
٢ ـ استشعار عظمة الكلام وعلوّه ٢٣٦
٣ ـ حضور القلب عند السّماع ٢٣٦
٤ ـ تدبُّر المسموع ٢٣٧
* أحوال الناس في انتفاعهم بالقرآن ٢٣٧
٥ ـ تفهُّم الآيات المسموعة ٢٣٨
٦ ـ التّخلّي عن موانع الفهم ٢٣٨
* موانع فهم القرآن ٢٣٨
٧ ـ أن يُقدِّر ـ في نفسه ـ أنّه المقصود بكلّ آية سَمِعَها ٢٣٩
٨ ـ التأثُّر بالآيات المسموعة ٢٣٩
٩ ـ التّرقّي في استماع القرآن ٢٤٠
* درجات القراءة والسّماع ثلاث ٢٤٠
١٠ ـ التّبرُّؤ من الحول والقوّة حال السّماع ٤٤١
المبحث الرابع: فضائل استماع القرآن ٢٤٣
* القرآن مُتعبَّد بسماعه ٢٤٤
المطلب الأول: استماع القرآن سبب لرحمة الله ٢٤٥
المطلب الثاني: استماع القرآن سبب لهداية الثّقلين ٢٤٦
المطلب الثالث: استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين ٢٤٩
المبحث الخامس: حُكم الاستماع للقرآن وحُكم الإعراض عنه ٢٥٣
المطلب الأول: حُكم الاستماع للقرآن ٢٥٤
* (مسألة) ما هي الأحوال التي يجب فيها الاستماع والإنصات للقرآن .. ٢٥٤
* (مسألة) هل وجوب الإنصات مطلق أم مقيّد ٢٥٦
* الاستماع للقرآن يدور حُكمه بحسب المقام الذي يُقرأ فيه ٢٥٧

الموضوع | الصفحة

المطلب الثاني: حُكم الإعراض عن استماع القرآن ٢٥٨
أولاً: الإعراض عن استماع القرآن مع عدم الإيمان به ٢٥٨
ثانياً: الإعراض عن استماع القرآن مع الإيمان به ٢٦٠
المبحث السادس: الآثار الحسنة لاستماع القرآن ٢٦١
المطلب الأول: الإعجاز التأثيري للقرآن ٢٦٢
* دراسة معاصرة تُثبت تأثير القرآن ٢٦٣
المطلب الثاني: أثر استماع القرآن في الملائكة ٢٦٤
المطلب الثالث: أثر استماع القرآن في النبي ﷺ ٢٦٦
المطلب الرابع: أثر استماع القرآن في المؤمنين ٢٦٧
المطلب الخامس: أثر استماع القرآن في أعدائه وخصومه ٢٧١
* أمثلة تأثير القرآن في قلوب أعدائه وخصومه ٢٧١
١ ـ تأثُّر عتبة بن ربيعة بالقرآن ٢٧١
٢ ـ تأثُّر زعماء المشركين بالقرآن ٢٧٢
٣ ـ تأثُّر الطُّفيل بن عَمْرٍو بالقرآن ٢٧٣
٤ ـ تأثُّر جُبير بن مُطعم بالقرآن ٢٧٤
٥ ـ حادثة سجود المشركين مع المسلمين ٢٧٤
٦ ـ تأثُّر أهل المدينة بالقرآن ٢٧٥
المطلب السادس: أثر استماع القرآن في النصارى ٢٧٥
* السبب في ذكر اليهود مع المشركين ٢٧٦
* السبب في اقتراب مودّة النصارى من المسلمين ٢٧٧
* تأثُّر القِسّيسين والرُّهبان بسماع القرآن ٢٧٨
* المقصود بفيض العين ٢٧٨
* تأثُّر النّجاشي وأساقفته بسماع القرآن ٢٧٨
المطلب السابع: أثر استماع القرآن في الجن ٢٧٩
* الحكمة من نزول القرآن بخبر الجن ٢٨٠
* فوائد ذكرها ابن حجر من تأثُّر الجن بالقرآن ٢٨٢
الفصل الرابع: هجر تعلُّم القرآن وتعليمه ٢٨٥
المبحث الأول: مظاهر هجر تعلُّم القرآن وتعليمه ٢٨٦
أولاً: مظاهر هجر تعلُّم القرآن ٢٨٦

الموضوع | الصفحة

ثانياً: مظاهر هجر تعليم القرآن ٢٨٧
المبحث الثاني: آداب مُعَلِّم القرآن ومُتَعَلِّمه ٢٨٩
المطلب الأول: آداب مشتركة بين معلِّم القرآن ومتعلِّمه ٢٩٠
١ ـ التمسُّك بمنهج السلف في الاعتقاد ٢٩٠
٢ ـ الإخلاص لله تعالى ٢٩٢
المطلب الثاني: آداب معلِّم القرآن ٢٩٦
١ ـ الاستقامة على دين الله تعالى ٢٩٦
٢ ـ حُسن الخُلق مع المتعلِّمين ٢٩٨
٣ ـ بذل النّصيحة للمتعلِّمين ٣٠٠
* من وصايا المعلِّمين لطلّابهم ٣٠٠
٤ ـ التدرُّج في التعليم والتربية ٣٠١
٥ ـ الرِّفق بالمتعلِّمين ٣٠٣
* من صور رفق المعلِّم بالمتعلِّم ٣٠٥
٦ ـ الصبر على المتعلِّم ٣٠٦
* من صور الصبر على جفاء المتعلِّمين ٣٠٦
* من دواعي الصبر ٣٠٧
المطلب الثالث: آداب متعلِّم القرآن ٣٠٧
١ ـ تطهير القلب ٣٠٨
٢ ـ الزُّهد في الدُّنيا ٣٠٨
٣ ـ التّواضع للمعلِّم ٣٠٩
* من صور تواضع المتعلِّمين لمشايخهم ٣١٠
٤ ـ الدعاء للمعلِّم والاعتراف بفضله ٣١٠
* من صور الدعاء للشيوخ ٣١١
٥ ـ اختيار المعلِّم الأصلح والأعلم ٣١٢
٦ ـ التّبكير إلى مجلس الدّرس ٣١٣
٧ ـ التّحلّي بالأدب في مجلس التّعليم ٣١٣
* من مظاهر التأدُّب ٣١٣
* من أمثلة مراعاة المتعلِّم ظروف معلِّمه ٣١٤

الموضوع | الصفحة

المبحث الثالث: فضائل تعلُّم القرآن وتعليمه ٣١٧
* ترغيب الإسلام في العلم ٣١٨
المطلب الأول: معلِّم القرآن ومتعلِّمُه مُتشبِّهٌ بالملائكة والرُّسل ٣١٩
المطلب الثاني: خيرُ الناس وأفضلُهم مَنْ تعلّم القرآن وعلّمه ٣٢٠
* معنى (التّعلُّم والتّعليم) ٣٢٢
* (مسألة) هل المقرئ أفضل من الفقيه ٣٢٢
* (مسألة) هل المقرئ أفضل ممن هو أعظم غناءً في الإسلام ٣٢٢
المطلب الثالث: تعلُّم القرآن وتعليمُه خير من كنوز الدُّنيا ٣٢٣
* سبب التمثيل بالإبل ٣٢٤
* تعلُّم الخير وتعليمه كأجر حاج تامّاً حجّتُه ٣٢٥
* معلِّم الخير ومتعلِّمه بمنزلة المجاهد في سبيل الله ٣٢٦
* الصحابة يحثون الناس على تعلُّم القرآن وتعليمه ٣٢٦
المطلب الرابع: مَنْ علَّم آية كان له ثوابُها ما تُليت ٣٢٧
* للمفسرين قولان في قوله تعالى: ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ ٣٢٩
المطلب الخامس: ثواب مَنْ يُعلِّم الصِّغار القرآن ٣٣٠
* جزاء الوالدين ٣٣١
المبحث الرابع: أحكام تعلُّم القرآن وتعليمه ٣٣٥
* تمهيد ٣٣٦
المطلب الأول: حُكم تعلُّم القرآن وتعليمه ٣٣٧
المطلب الثاني: حُكم تعليم القرآن لغير المسلم ٣٣٩
المطلب الثالث: حُكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤٠
ـ القول الأول: لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤١
ـ القول الثاني: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤٣
ـ القول الثالث: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن عند الحاجة ٣٤٥
* الترجيح ٣٤٦
* ضوابط أخذ الأجرة على تعليم القرآن ٣٤٦
المبحث الخامس: همّة السّلف في تعلُّم القرآن وتعليمه ٣٤٩
المطلب الأول: علوُّ همّة المعلّمين ٣٥٠
* نماذج من علوّ همة المعلّمين ٣٥٠

الموضوع | الصفحة

١ ـ ترْكُ الأوطان لأجل تعليم القرآن ٣٥٠
٢ ـ تأسيس مدارس وحِلَق تحفيظ القرآن ٣٥١
٣ ـ لم تشغله الإمارة عن تعليم القرآن ٣٥٢
٤ ـ جلس لتعليم القرآن أربعين سنة ٣٥٢
٥ ـ علّم القرآن أكثر من سبعين سنة ٣٥٣
٦ ـ لقّن العميان دهراً طويلاً ٣٥٣
٧ ـ احتساب أجر التّعليم عند الله تعالى ٣٥٤
المطلب الثاني: علوُّ همّة المتعلّمين ٣٥٥
* نماذج من علوّ همّة المتعلّمين ٣٥٦
١ ـ الرّحلة من أجل تعلُّم القرآن ٣٥٦
٢ ـ ملازمة الشّيوخ وعرْض القراءة عليهم ٣٥٧
٣ ـ الإقبال على الشُّيوخ والإفادة منهم ٣٥٨
٤ ـ تحمُّل الشّدائد والصّعاب بغية تعلُّم القرآن ٣٥٨
٥ ـ تعلُّم القرآن قبل علوم الشّريعة الأخرى ٣٥٩
٦ ـ ترْكُ الوطن والمال من أجل تعلُّم القرآن ٣٥٩
٧ ـ حفْظ القرآن بالرّوايات العشر ٣٦٠
الفصل الخامس: هجر تلاوة القرآن ٣٦١
المبحث الأول: مظاهر هجر تلاوة القرآن ٣٦٣
المطلب الأول: مظاهر هجر التّلاوة ٣٦٤
المطلب الثاني: بدع التّلاوة ٣٦٥
* أمور مبتدعة في التّلاوة ٣٦٥
١ ـ التّنطُّع في القراءة، والوسوسة في مخارج الحروف ٣٦٥
٢ ـ الخروج بالقراءة عن لحن العرب إلى لُحون العجم ٣٦٦
٣ ـ القراءة بألحان أهل الفسق والفجور ٣٦٧
٤ ـ قراءة الأنغام والتّمطيط ٣٦٨
٥ ـ قراءة التّحزين والتّطريب ٣٦٨
٦ ـ قراءة التّحريف ٣٦٨
٧ ـ قراءة التّرعيد ٣٦٩
٨ ـ هذُّ كهذِّ الشّعر ٣٧٠

الموضوع	الصفحة

٩ ـ القراءة بالإدارة ٣٧٠
١٠ ـ قراءة القرآن في مجلس شُرْب الدُّخان ٣٧١
١١ ـ القراءة والإقراء بشواذِّ القراءات ٣٧١
١٢ ـ جَمْع القراءات في مجلس واحد ٣٧١
١٣ ـ قول السَّامع للقارئ: (الله، الله) ٣٧٢
١٤ ـ التزام قول (صدق الله العظيم) بعد التِّلاوة ٣٧٢
١٥ ـ بدع قراءة الفاتحة ٣٧٣
١٦ ـ قراءة القرآن عند القبر ٣٧٣
المبحث الثاني: أسباب هجر التلاوة ٣٧٥
* تمهيد ٣٧٦
المطلب الأول: الانشغال بالدنيا ٣٧٦
المطلب الثاني: ضعف الهمَّة ٣٧٧
* أدوية نبويَّة لعلاج ضعف الهمَّة ٣٧٨
* فوائد من الحديث ذكرها النووي ٣٧٩
المطلب الثالث: الجهل بثمرات قراءة القرآن ٣٨٠
* من ثمرات التلاوة ٣٨٠
المطلب الرابع: تقديم العلوم الأخرى على القرآن ٣٨٢
* سئل ابن تيمية عن الذي يُقدَّم: حفظ القرآن أو العلم ٣٨٣
المطلب الخامس: الحرب المعلنة على القرآن واللغة ٣٨٤
* تصريحات الأعداء ضدّ القرآن ولغته ٣٨٤
* أساليب الأعداء في محاربة القرآن ولغته ٣٨٦
المبحث الثالث: آداب وأحكام تلاوة القرآن ٣٨٧
* تمهيد ٣٨٨
١ ـ إخلاص النية لله تعالى ٣٨٩
٢ ـ العمل بالقرآن ٣٩٠
٣ ـ إجلال القرآن وتعظيمه ٣٩٠
٤ ـ تلاوة القرآن على طهارة ٣٩٠
٥ ـ اختيار الوقت المناسب ٣٩١
٦ ـ اختيار المكان المناسب ٣٩٢

الموضوع | الصفحة

٧ ـ حُسْنُ الجِلْسَة واستقبال القبلة ٣٩٣
* أفضل اتّجاه استقبال القبلة ٣٩٣
٨ ـ استحباب تنظيف الفم بالسّواك ٣٩٤
٩ ـ الاستعاذة عند افتتاح التلاوة ٣٩٥
* للاستعاذة صيغتان ٣٩٦
* البدء بالاستعاذة خاصٌ بالقرآن الكريم ٣٩٦
١٠ ـ البسملة ٣٩٦
١١ ـ حَضْر الفكر أثناء التلاوة ٣٩٧
١٢ ـ استحباب الترتيل وكراهية السرعة المفرطة ٣٩٨
* امتثال النبي ﷺ أمر ربّه في ترتيله للقرآن ٣٩٩
* التحذير من الاستعجال في التلاوة ٣٩٩
(مسألة) أيُّهما أفضل الترتيل وقلّة القراءة أو السرعة مع كثرتها ٤٠١
١٣ ـ استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٤٠١
* أحاديث عدّة في استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٤٠٢
* بين التّغنّي المحمود والمذموم ٤٠٣
١٤ ـ النهي عن القراءة بالألحان المُطْرِبة ٤٠٤
* أسباب تحريم الألحان المُطْرِبة ٤٠٥
* بعض القرّاء يقرؤون القرآن على ألحان الأغاني ٤٠٦
١٥ ـ وجوب تدبر القرآن ٤٠٦
١٦ ـ استحباب البكاء أثناء التلاوة ٤٠٧
* البكاء عند التلاوة من صفات الصالحين ٤٠٨
* ليس المقصود بالبكاء الصُراخ والعويل والنّحيب ٤٠٩
* كلام ابن تيمية في أفضل أحوال البكاء ٤٠٩
١٧ ـ استحباب الجهر بالقرآن إذا لم تترتب عليه مفسدة ٤٠٩
* أجر التلاوة مترتّب على التّلفُّظ بها ٤١١
١٨ ـ استحباب اتصال القراءة وعدم قطعها ٤١٢
١٩ ـ أن يُحْسِن الابتداء والوقفَ أثناء التلاوة ٤١٣
٢٠ ـ من السُّنة: الوقوف عند رؤوس الآيات ٤١٣

الموضوع | الصفحة

٢١ ـ من السُّنة: أن يُسبِّح عند آية التسبيح، ويتعوَّذ عند آية العذاب،
ويسأل عند آية الرحمة ٤١٤
٢٢ ـ من السُّنة: الإمساك عن القراءة عند غلبة النُّعاس ٤١٥
٢٣ ـ من السُّنة: السجود عند المرور بآية سجدة ٤١٥
* فضائل سجود التِّلاوة ٤١٦
* الذِّكر الوارد في سجود التلاوة ٤١٦
* حُكم سجود التلاوة ٤١٧
* سجود المستمع تَبعاً لسجود القارئ ٤١٨
* لا يلزم السَّامع أن يسجد مع القارئ ٤١٩
٢٤ ـ القدْر المستحب في خَتْم القرآن ٤١٩
* أحاديث عدَّة في مدَّة الختم ٤٢٠
* علَّة النهي عن الختم في أقلَّ من ثلاث ٤٢٠
* هدي النبي ﷺ في ختم القرآن ٤٢١
* تخريج فعْلِ مَنْ خَتَمَ القرآن في أقلَّ من ثلاث ٤٢٢
* الجَمْعُ بين رواية (السَّبْع) ورواية (الثَّلاث) في الختم ٤٢٣
* التَّفصيل الحَسَن في مقدار الختم ٤٢٤
٢٥ ـ مشروعية (تحزيب القرآن) ٤٢٥
* تعريف (الحِزْب) ٤٢٥
* التَّحزيب بالسُّوَر لا بالأجزاء ٤٢٦
* ثمرات التَّحزيب ٤٢٨
٢٦ ـ مشروعية (دعاء ختم القرآن) ٤٢٩
* موضع دعاء الختم خارج الصَّلاة ٤٢٩
* أمور لا تُشرع عند الختم ٤٣٠
المبحث الرابع: فضائل تلاوة القرآن ٤٣١
* تمهيد ٤٣٢
المطلب الأول: التلاوة تجارة رابحة ٤٣٢
* حديث: (مَنْ قرأ حرفاً) يشير إلى عدَّة أمور ٤٣٣
المطلب الثاني: تنزُّل السكينة والرحمة والملائكة للتلاوة ٤٣٨
* أربع جوائز للمجتمعين لتلاوة القرآن ٤٣٩

الموضوع | الصفحة

- الجائزة الأولى: تنزُّل السكينة عليهم ٤٣٩
- الجائزة الثانية: تغشاهم الرّحمة ٤٤٢
- الجائزة الثالثة: تحفُّهم الملائكة ٤٤٧
- الجائزة الرابعة: يذكرُهم الله فيمنْ عنده ٤٤٤
المطلب الثالث: اغتباط صاحب التّلاوة ٤٤٥
١ - اغْتِبَاطُ التالي للقرآن ٤٤٥
* معنى: (لا حسد إلّا في اثنتين) ٤٤٦
٢ - اغتباط القائم بالقرآن ٤٤٧
* شهادة القرآن لقارئه يوم القيامة ٤٤٩
المطلب الرابع: التلاوة حلية لأهل الإيمان ٤٤٩
* أحوال المؤمن مع القرآن ٤٥٠
المطلب الخامس: التلاوة كلُّها خير ٤٥٢
١ - الماهر بالقرآن ٤٥٢
* منْ هو الماهر بالقرآن ٤٥٣
٢ - الذي له أجران ٤٥٣
(مسألة) هل الذي له أجران أكثر ثواباً من الماهر ٤٥٣
* لا ينبغي للمسلم أن ينصرف عن التلاوة ٤٥٥
الفصل السادس: هجر حفظ القرآن ٤٥٧
المبحث الأول: حفظ القرآن وتيسيره ٤٥٩
المطلب الأول: تعريف حفظ القرآن ٤٦٠
أولاً: (الحفظ) لغة ٤٦٠
* حفظ القرآن يتضمّن أموراً ثلاثة ٤٦٠
* استعمالات (الحفظ) في القرآن ٤٦١
ثانياً: (حفظ القرآن) اصطلاحاً ٤٦١
* تميُّز حافظ القرآن عن غيره من الحفّاظ ٤٦١
المطلب الثاني: تيسير حفظه على جميع الألسنة ٤٦٢
* سبب تيسيره ٤٦٣
* معنى تيسيره ٤٦٣
* اليُسْر يشمل الألفاظ والمعاني ٤٦٣

الموضوع | الصفحة

* حِفْظ القرآن ميسّر دون سواه من الكتب السّابقة ٤٦٣
* هجْر الحفظ نوعان ٤٦٥
المبحث الثاني: آداب حفظ القرآن ٤٦٧
* تمهيد ٤٦٨
المطلب الأول: آداب أثناء الحفظ ٤٦٩
١ ـ الإخلاص لله تعالى ٤٦٩
* كلام أبي حامد الغزالي في نيّة طلب العلم ٤٧١
* كيفية تحسين النيّة ٤٧٠
* تأثير الإخلاص في تسهيل الأمور ٤٧٠
* شدّة الإخلاص على النّفس ٤٧٠
* الحذر من الانقطاع عن الحفظ لعدم خلوص النيّة ٤٧١
٢ ـ استشعار عظمة القرآن ومعرفة منزلته ٤٧٢
٣ ـ معرفة أنّ الأصل في تلقّي القرآن حِفْظه ٤٧٣
* حفْظ القرآن فيه تأسٍّ بالسّلف الصّالح ٤٧٤
٤ ـ الرّغبة القويّة الصّادقة ٤٧٤
* أهمية الدّافع الذاتي في إكمال حفظ القرآن ٤٧٥
٥ ـ التّقلّل من الدنيا ٤٧٥
* فوائد استنبطها ابن حجر من ملازمة أبي هريرة للنبي ﷺ ٤٧٦
* لا ينبغي لطالب العلم أن يترك التّكسُّب ٤٧٦
٦ ـ الدُّعاء والالتجاء إلى الله ٤٧٧
* القلوب مُحتاجة إلى رزق الله من العلم والهدى ٤٧٨
المطلب الثاني: آداب بعد الحفظ ٤٧٨
١ ـ الخوف من الوقوع في الرّياء ٤٧٨
* تحذير الحفّاظ من الميل إلى الثّناء ٤٧٩
* كيف الخلاص من الرّياء ٤٧٩
٢ ـ الخشية من العُجب بالنّفس والتّعالي على الخلْق ٤٨٠
* تعريف العُجب ٤٨٠
* حُكم العُجب ٤٨١
* الفَرْق بين الرّياء والعُجب ٤٨١

الموضوع	الصفحة

* لماذا يقع الحافظ في براثن العُجْب ٤٨١
* لماذا يقع الحافظ في مستنقع الكِبْر ٤٨٢
* نصوص في التّحذير من الكِبْر ٤٨٢
٣ ـ الحذر من الذُّنوب والمعاصي ٤٨٢
* آثار في التّحذير من المعاصي ٤٨٣
* من عقوبة المعاصي الرجوع إلى الجهل بعد العلم ٤٨٤
* شبهة وردُّها ٤٨٤
* آثار في بيان العلم النّافع ٤٨٥
* الفرق بين علم القلب وعلم اللّسان ٤٨٦
٤ ـ تعاهد القرآن والحذر من نسيانه ٤٨٨
* الحكمة من تفلُّت القرآن من الصُّدور ٤٨٩
* آثار في الحث على مراجعة الحفظ ٤٩٠
المبحث الثالث: فضائل حفظ القرآن ٤٩٣
* تمهيد ٤٩٤
المطلب الأول: عُلُوُّ درجة الحافظ ٤٩٤
١ ـ ارتفاع منزلة الحافظ ٤٩٤
* الغُنْم بالغُرْم ٤٩٥
* تنبيه على أثر ضعيف ٤٩٦
٢ ـ علّة كرامات للحافظ ٤٩٦
٣ ـ الحافظ مع السّفرة الكرام البررة ٤٩٨
* مغزى معيّة السّفرة ٤٩٨
المطلب الثاني: الحافظ مُقدّم في الدنيا والآخرة ٤٩٩
١ ـ الحفّاظ هم الأولى بالإمارة ٤٩٩
٢ ـ الحفّاظ هم الأولى بالإمامة ٥٠٠
٣ ـ الحفّاظ هم أصحاب الشّورى ٥٠٢
٤ ـ الحفّاظ هم المقدّمون في البَرْزخ ٥٠٢
المطلب الثالث: فضائل متنوّعة للحافظ ٥٠٣
١ ـ الحفّاظ أهل الله وخاصّته ٥٠٣
* المقصود بأهل الله وخاصّته ٥٠٤

الموضوع | الصفحة

٢ ـ إكرام الحافظ في الدنيا ٥٠٤
٣ ـ ثناء الله تعالى على الحفَّاظ ٥٠٥
٤ ـ الحفَّاظ لا تحرقهم النار ٥٠٦
المبحث الرابع: حُكم حفظِ القرآن ونسيانه ٥٠٩
المطلب الأول: حُكم حفظ القرآن ٥١٠
* حِفْظ القرآن فرض كفاية على الأمّة ٥١٠
* حُكم حفظ القرآن على أفراد المسلمين ٥١٠
* حفْظ القرآن الواجب والمستحب مُقدَّم على غيره ٥١١
* حُكم تحفيظ القرآن للصبيان ٥١٢
المطلب الثاني: حُكم نسيان القرآن ٥١٣
* آثار في التحذير من نسيان القرآن ٥١٣
* نسيان القرآن نوعان ٥١٤
* الفرْق بين السَّهْو العارض والنِّسيان الدَّائم ٥١٦
* نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن نوعان ٥١٧
* حُكم نسيان القرآن ٥١٩
* النِّسيان الذي يُعذر صاحبه ٥٢٠
الفصل السابع: هجر تدبُّر القرآن ٥٢١
المبحث الأول: التدبُّر وأهميَّته وحُكْمه ٥٢٤
المطلب الأول: تعريف تدبُّر القرآن ٥٢٤
أولاً: (التدبر) لغة ٥٢٤
ثانياً: (تدبر القرآن) اصطلاحاً ٥٢٥
المطلب الثاني: أهمية تدبر القرآن ٥٢٥
أولاً: حاجة القلب إلى تدبر القرآن ٥٢٦
* خشوع القلب وانشراح الصَّدر في التدبر ٥٢٦
* القراءة بالتدبر أصل صلاح القلب ٥٢٧
ثانياً: الدخول فيمَنْ أثنى الله عليهم بتدبر القرآن ٥٢٨
ثالثاً: عدم التَّعرُّض إلى الذَّم لترك التدبر ٥٢٩
المطلب الثالث: حُكم تدبر القرآن ٥٣١
* إطباق المفسرين على وجوب تدبر القرآن ٥٣٢

الموضوع | الصفحة

المبحث الثاني: أسباب هجر تدبر القرآن ٥٣٥
* تمهيد ٥٣٦
١ ـ الاصرار على الذنوب ٥٣٦
٢ ـ انشغال القلب ٥٣٧
٣ ـ الجهل باللغة العربية ٥٣٨
* أهمية معرفة العربية لتدبر القرآن ٥٣٩
* المفاسد المترتبة على الجهل باللغة ٥٤٠
٤ ـ ترك التدبر تورُّعاً ٥٤١
* تفنيد الشنقيطي قول متأخري الأصوليين في حصرهم التدبر في العلماء ... ٥٤٢
٥ ـ هجْر كتب التفسير ٥٤٣
٦ ـ التشاغل بكثرة التلاوة ٥٤٤
* كثرة التلاوة بغير تدبر من تلبيس إبليس ٥٤٥
المبحث الثالث: الأمور المعينة على التدبر ٥٤٧
* تمهيد ٥٤٨
١ ـ تحسين التلاوة ٥٤٩
* سبب كراهة العلماء القراءة بالألحان ٥٤٩
٢ ـ قراءة الليل ٥٥٠
* شواهد على فضل قراءة الليل ٥٥٠
٣ ـ الإنصات عند سماعه ٥٥١
٤ ـ حُسْن الابتداء والوقف ٥٥١
* نماذج من الابتداء والوقف الممنوع ٥٥٢
٥ ـ فهم المعاني ٥٥٢
* الجهل بالمعاني يصرف القلب عن التدبر والتلذُّذ بالتلاوة ٥٥٢
* القرآن يُسِّرت معانيه كما يسرت ألفاظه ٥٥٣
* تعلُّم معاني القرآن أولى من تعلُّم حروفه ٥٥٣
* الفرق بين معرفة الألفاظ والمعاني، كالفرق بين الليل والنهار ٥٥٤
٦ ـ الوقوف عند المعاني ٥٥٤
* صفة الوقوف عند المعاني ٥٥٥
٧ ـ ترديد الآية المؤثرة في القلب ٥٥٥

الموضوع | الصفحة

* نماذج من ترديد الآية ٥٥٦
٨ ـ معرفة أساليب القرآن ٥٥٨
* أبرز أساليب القرآن ٥٥٨
* ما يُعين على التدبر إجمالاً ٥٦١
المبحث الرابع: ثمرات تدبر القرآن ٥٦٣
١ ـ تعميق جذور الإيمان ٥٦٤
٢ ـ معرفة الربِّ جلَّ جلاله ٥٦٥
٣ ـ تحقيق العبودية لله تعالى ٥٦٦
٤ ـ التدبر غذاء وعلاج وسلاح ٥٦٧
٥ ـ التدبر فيه تربية للعقول ٥٦٨
* التدبر مفتاح كلِّ خير ٥٦٨
* التدبر فيه تنمية للقدرات العقلية ٥٦٩
الفصل الثامن: هجر العمل بالقرآن ٥٧١
المبحث الأول: وجوب العمل بالقرآن ٥٧٢
* معنى العمل بالقرآن ٥٧٢
* التحذير من التشبه باليهود ٥٧٣
* وجوب العمل بالقرآن ٥٧٥
* هجر العمل بالقرآن له حالان ٥٧٥
* الأدلة على وجوب العمل بالقرآن ٥٧٦
المبحث الثاني: فضائل العمل بالقرآن ٥٨٠
* الجنة أعظم جزاء لمن يعمل بالقرآن ٥٨٠
١ ـ الهداية في الدنيا والآخرة ٥٨١
٢ ـ الرحمة في الدنيا والآخرة ٥٨٣
٣ ـ الفلاح في الدنيا والآخرة ٥٨٣
٤ ـ تكفير السيئات وإصلاح البال ٥٨٤
المبحث الثالث: النبي ﷺ يوصي بالعمل بالقرآن ٥٨٦
* النبي ﷺ يحث أمته على العمل بالقرآن ٥٨٧
المبحث الرابع: الصحابة ﷺ يتواصون بالعمل بالقرآن ٥٩١
المبحث الخامس: نماذج من عمل الصحابة ﷺ بالقرآن ٥٩٤

الموضوع | الصفحة

* استجابة فردية ٥٩٤
* استجابة جماعية ٥٩٦
الفصل التاسع: هجر التحاكم إلى القرآن ٥٩٩
المبحث الأول: أدلة وجوب التحاكم إلى القرآن ٦٠٠
ـ الآية الأولى ٦٠٠
ـ الآية الثانية ٦٠٠
* معنى الطاغوت ٦٠٢
* ما يُلاحظ في الآية ٦٠٢
* خلاصة ما دلَّت عليه الآية ٦٠٣
ـ الآية الثالثة ٦٠٣
ـ الآية الرابعة ٦٠٥
ـ الآية الخامسة ٦٠٦
* وجوب إجابة القاضي المسلم ٦٠٧
* (مسألة) هل المُعْرِض عن مجلس الحاكم المسلم كالمُعرض عن حُكم الشريعة ٦٠٧
ـ الآية السادسة ٦٠٨
* صفات مَنْ يستحقُّ أنْ يكون له الحُكم ٦٠٨
ـ الآية السابعة ٦١٠
المبحث الثاني: أسباب هجر التحاكم إلى القرآن ٦١١
* تمهيد ٦١١
ـ السبب الأول: كراهية ما أنزل الله ٦١٢
* صور من الكراهية ٦١٢
* كراهية ما أنزل الله في العصر الحاضر ٦١٣
ـ السبب الثاني: الاستكبار ٦١٤
* نماذج من الاستكبار ٦١٤
ـ السبب الثالث: اتباع الهوى ٦١٦
* الهوى والحقُّ ضدَّان لا يجتمعان ٦١٧
* تحذير القرآن من اتِّباع الهوى ٦١٧
ـ السبب الرابع: إيثار المتاع العاجل ٦١٨

الموضوع | الصفحة

* نماذج من إيثار العاجل ٦١٨
ـ السبب الخامس: الخوف المُتوهّم ٦١٩
* نماذج من الخوف المُتوهّم ٦٢٠
ـ السبب السادس: التقليد المذموم ٦٢١
* نماذج من التقليد المذموم ٦٢٢
* ابن القيم يصفُ فتنة التقليد التي أصابت العالم الإسلامي ٦٢٢
المبحث الثالث: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله ٦٢٥
المطلب الأول: الآثار الدنيوية للحكم بما أنزل الله ٦٢٦
أولاً: الاستخلاف والتّمكين ٦٢٦
* نماذج من الاستخلاف والتّمكين ٦٢٦
ثانياً: الأمن والاستقرار ٦٢٧
ثالثاً: النصر والفتح ٦٢٩
* سُنّة الله ماضية في نصر منْ ينصر دينه ٦٢٩
رابعاً: العزّ والشّرف ٦٣٠
* الأمّة تستمد العزّ والشرف من تطبيقها لأحكام الشريعة ٦٣١
خامساً: بركة العيْش ورغدُه ٦٣٢
سادساً: الهداية والتّثبيت ٦٣٣
* الخلاصة ٦٣٤
المطلب الثاني: الآثار الأخروية للحكم بما أنزل الله ٦٣٥
أولاً: الفلاح والفوز ٦٣٥
ثانياً: المغفرة وتكفير السيئات ٦٣٦
* محبّة الطواغيت والتّحاكم إليها تستجلب الذنوب ٦٣٧
ثالثاً: الأجر العظيم ٦٣٧
رابعاً: مرافقة الأنبياء والصّدّيقين ٦٣٨
المبحث الرابع: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله ٦٤١
المطلب الأول: الآثار الدنيوية للحكم بغير ما أنزل الله ٦٤٢
أولاً: قسوة القلوب ٦٤٣
ثانياً: الضلال عن الحق ٦٤٤
ثالثاً: الوقوع في النّفاق ٦٤٥

الموضوع | الصفحة

رابعاً: الحرمان من التوبة ٦٤٦
* الخزي لليهود والمنافقين ٦٤٨
خامساً: الصد عن سبيل الله ٦٤٨
سادساً: غياب الأمن وانتشار الفوضى ٦٤٩
* مثال لنوع من انظلم الُمقنَّن ٦٥٠
* فوضى الاعتداء على الأموال ٦٥١
* فوضى الاعتداء على الأعراض ٦٥٢
سابعاً: انتشار العداوة والبغضاء ٦٥٣
* مسألة وجوابها ٦٥٥
* تحذير الأمة الإسلامية من العداوة ٦٥٥
* الحكم بغير ما أنزل الله من أعظم أسباب وقوع العداوة والبغضاء
بين المسلمين ٦٥٦
ثامناً: الحرمان من النّصر والتّمكين ٦٥٦
* الخلاصة ٦٥٧
المطلب الثاني: الآثار الأخروية للحكم بغير ما أنزل الله ٦٥٨
أولاً: الإهانة عند قبض الأرواح ٦٥٩
* مشهد آخر من الإهانة ٦٦٠
ثانياً: الوحشة في الحشر ٦٦١
ثالثاً: الأكل من النّار وغضب الجبّار ٦٦١
* غضب الجبّار أعظم من النّار ٦٦٢
* فما أصبرهم على النّار ٦٦٢
رابعاً: العذاب المهين ٦٦٣
* مسألة وجوابها ٤٦٤
الخاتمة: ٦٦٥
* أولاً: أهم نتائج مباحث الباب الأوّل ٦٦٥
* ثانياً: أهم نتائج مباحث الباب الثاني ٦٦٦
الفهارس: ٦٦٧
* أولاً: منهج الفهارس ٦٧٩
* ثانياً: فهرس الأحاديث ٦٨١

الموضوع | الصفحة

* ثالثاً: فهرس الآثار ٦٨٩
* رابعاً: فهرس تراجم الأعلام ٦٩٥
* خامساً: فهرس الألفاظ ومعانيها ٧٠٢
* سادساً: فهرس الفروق اللغوية ٧١٥
* سابعاً: فهرس الأشعار ٧١٧
* ثامناً: فهرس الأماكن ٧٢٠
* تاسعاً: فهرس الأحكام الفقهية ٧٢١
* عاشراً: فهرس الآداب ٧٢٤
* حادي عشر: فهرس الفضائل ٧٢٨
* ثاني عشر: فهرس البدع ٧٣١
* ثالث عشر: ثبت المصادر والمراجع ٧٣٣
* رابع عشر: المحتوى ٧٦٥